لينين

المختارات

في ١٠ مجلدات

المجلد
٤

(١٩٠٨ ، ١٩١٥)

دار التقدم . موسكو



ВУльянов (Ленин)

ترجمة الياس شاهين

В. И. ЛЕНИН

Избранные произведения в 10-ти томах

ТОМ IV

На арабском языке

طبع فى الاتحاد السوفييتى

Л $\frac{10102-138}{016(01)-78}$ 518—78

من الدار

يشتمل المجلد الرابع من مؤلفات لينين المختارة من ١٠ مجلدات (بالعربية) على مؤلفه «المادية والمذهب النقدي التجريبي» الذي وضعه في المرحلة الممتدة من شباط (فبراير) الى تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٠٨ كما يشتمل على مقطع من مؤلفه «الدفاتر الفلسفية» كتبه في عام ١٩١٥ وعنوانه «حول الدياليكتيك»

كتب لينين «المادية والمذهب النقدي التجريبي» في مرحلة من تاريخ روسيا كانت فيها الاوتوقراطية القيصرية قد فرضت في البلاد الارهاب البوليسي القاسي بعد ان قمعت ثورة ١٩٠٥-١٩٠٧ وكانت فيها الرجعية تسود وتبطش في جميع ميادين الحياة الاجتماعية .وقد وصف لينين الوضع في البلاد بعد هزيمة الثورة الروسية الاولى بقوله «الانحطاط فساد المعنويات الانشقاقات التشتت الارتداد العهر عوضاً عن السياسة اشتداد الميل الى المثالية الفلسفية الصوفية كرداء للامزجة المعادية للثورة» (المؤلفات الكاملة المجلد ٤١ ص ١٠) وقد ختم التبرير الايديولوجي للثورة المضادة وانبعاث الصوفية الدينية بخاتمهما العلم والادب والفن وفي الفلسفة سادت اشد اشكال المثالية اغراقاً في الرجعية ، الاشكال التي تنكر سنن

تطور الطبيعة والمجتمع وامكانية معرفتها وبذلت القوى المعادية للثورة كل ما في وسعها لكي تفتري على الطبقة العاملة وحزبها وتقوّض الاسس النظرية للماركسية وفي هذه الاحوال غدا الدفاع عن الفلسفة الماركسية مهمة عاجلة وفائقة الشأن

ان الرجعية التي كانت تعيث في روسيا لم تكن ظاهرة «روسية خالصة» فان البرجوازية في جميع البلدان قد انعطفت بحدة في عهد الامبريالية ، كما كتب لينين من الديموقراطية الى «الرجعية على طول الخط» — في الاقتصاد والسياسة والفلسفة وفي اواخر القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين انتشر في اوروبا ما يسمى بفلسفة «التجربة النقدية» — المذهب النقدي التجريبي (الانتقادية التجريبية) او الماخية وقد نشأ هذا المذهب بوصفه نوعاً من انواع الوضعية وادعى بدور الفلسفة» العلمية الوحيدة» التي ذللت ما في المادية والمثالية على السواء من نقاط وحيدة الجانب ، مع ان الجوهر الرجعي المثالي الذاتي كان يتستر بالفعل وراء هذا الستار ثم ان عدداً من الاشتراكيين-الديموقراطيين الذين كانوا يعتبرون انفسهم من «تلامذة ماركس» ، رأوا في الماخية «كلمة العلم الاخيرة» المدعوة الى «الحلول محل» الفلسفة الماركسية المادية الدياليكتيكية

والى جانب الاعداء السافرين للبروليتاريا وحزبها (ف ف ليسيفيتش ، ف م تشيرنوف وغيرهما) قام في روسيا بترويج الماخية فريق من المثقفين الاشتراكيين-الديموقراطيين كان يضم على السواء المناشفة (ن فالنتينوف ب س يوشكيفيتش وغيرهما) والملتحقين بالبلاشفة (ا بوغدانوف ف بازاروف ا ف لوناتشارسكي ، وغيرهم) فواجه الماركسيون المنسجمون مهمة بالغة الشأن قوامها تبيان كنه الماخية الرجعي والدفاع عن

الماركسية وتوضيح المسائل الاساسية في المادية الدياليكتيكية وتفسير الاكتشافات الجديدة في العلوم الطبيعية تفسيراً مادياً دياليكتيكياً وهذه المهمة اداها لينين في كتاب «المادية والمذهب النقدي التجريبي»

خلافاً لعهد ماركس وانجلس حيث كانت ترد في المقام الاول مهمة تطوير المفهوم المادى عن التاريخ والدياليكتيك المادي والدفاع عنهما ارتدى الدفاع عن المادية الفلسفية الماركسية وعن النظرية المادية الدياليكتيكية للمعرفة وتطويرهما على تخوم القرنين التاسع عشر والعشرين الاهمية الحاسمة في النضال ضد المثالية الفلسفية فقد حاول الفلاسفة الرجعيون ان يثبتوا نظرياً استحالة معرفة الواقع الموضوعي وزعموا ان مفهوم المادة قد «شاخ» وحصروا مهمة العلم في «تحليل الاحساسات» وما الى ذلك وحاول الماخيون ان يدعموا هذه الفلسفة المثالية المعادية للعلم بالاكتشافات الحديثة في العلوم الطبيعية وان يصوروها بصورة كلمة العلم الاخيرة وقد برهن لينين بطلان هذه المحاولات التي كانت تعني اساساً بعث نظرات بركلي وهيوم المثالية الذاتية

وفي غمرة النضال ضد الفلسفة الرجعية زاد لينين عن المادية الفلسفية وتطويراً لموضوعاتها الاساسية اعطى تعريفاً عن المادة هو تعميم لكل تاريخ نضال المادية ضد المثالية والميتافيزياء واللاكتشافات الجديدة في العلوم الطبيعية وقد كتب يقول «ان المادة مقولة فلسفية للاشارة الى الواقع الموضوعي الذي يعطى للانسان في احساساته والذي تستنسخه تصوره تعكسه احساساتنا ؛ وهو موجود بصورة مستقلة عنا ؛ (راجعوا هذا الكتاب . ص ١٦١–١٦٢) ويبحث لينين المادة على صلة وثيقة لا انفصام لعراها مع الحركة ويؤكد ان الواقع الموضوعي هو بالذات المادة المتحركة .

ومن مآثر لينين العظمى انه طور من جميع النواحي مذهب الماركسية بصدد امكانية معرفة العالم ونظرية الانعكاس وذلك في سياق النضال ضد المثالية الذاتية وضد اللاعرفانية وزاد لينين عن المفهوم المادي للنفسي للوعي بوصفه اسمى نتاج للمادة بوصفه وظيفة الدماغ البشري واشار الى ان التفكير الوعي هو انعكاس للعالم الخارجي واعطى تعريفاً رائعاً للاحساس بوصفه صورة ذاتية عن العالم الموضوعي ، وانتقد النظرية اللاعرفانية الخاصة بالرموز او الهيروغليفات التي تقول ان الاحساسات هي مجرد علامات اصطلاحية وليست صوراً للاشياء الفعلية وهذه النظرية لا يزال يروجها في ايامنا ايضاً ممثلو مختلف الاتجاهات في الفلسفة البرجوازية ، ولذا لا يزال نقد لينين لها يحتفظ باهمية كبيرة في الوقت الحاضر

وكشف لينين هذه العملية المعقدة والدياليكتيكية التي هي عملية المعرفة وبين ان الدياليكتيك هو نظرية المعرفة الماركسية والى هذه الموضوعة الفائقة الاهمية التي صاغها لينين فيما بعد في سنتي ١٩١٤ و ١٩١٥ في مؤلفه «كارل ماركس» ومؤلفه «الدفاتر الفلسفية» يقود كل مجرى المحاكمات اللينينية بشأن جوهر النظرية الماركسية الخاصة بالمعرفة في كتاب «المادية والمذهب النقدي التجريبي» وقد كتب يقول «في نظرية المعرفة ، كما في جميع ميادين العلم الاخرى تجب المحاكمة بطريقة دياليكتيكية وهذا يعني انه يجب علينا لا ان نعتبر معرفتنا ناجزة وثابتة لا تتغير بل ان نحلل ونبحث باى طريقة تظهر **المعرفة** من **اللامعرفة** بأي طريقة تصبح المعرفة غير الكاملة غير الدقيقة اكمل وادق» (ص ١٢٦) وان تحليل مذهب الحقيقة الوارد في كتاب «المادية والمذهب النقدي التجريبي» هو مثال رائع على تطبيق

الدياليكتيك في دراسة عملية المعرفة البشرية فان لينين يعرف الحقيقة على انها عملية معقدة متناقضة عمليـــة تطويـــر المعرفة ويدرس هذه العملية من جانبين فعلى نقيض مختلف اشكال المثالية الذاتية واللاعرفانية يشير الى موضوعية مضمون معارفنا الى استقلاله عن الذات وفي الوقت نفسه يشير لينين الى ان المعرفة هي عملية تطور الحقيقة النسبية الى حقيقة مطلقة فعارض بالتالي نظرية النسبية والميتافيزياء على السواء بالمذهب المادي الدياليكتيكـــي الخاص بالحقيقـــة وقد كتب يقول

يستطيع التفكير البشري بحكم طبيعته ان يعطينا وهو يعطينا الحقيقة المطلقة التي تتكون من مجمل الحقائق النسبية وكل درجة في تطور العلم تضيف ذرات جديدة الى مجمل الحقيقة هذا ولكن حدود حقيقة كل موضوعة علمية هي حدود نسبية لأنها تتسع تارة وتضيق طوراً من جراء نمو المعرفة اللاحق» (ص ١٦٨-١٦٩)

وابان لينين اهمية النشاط العملي في عملية المعرفة بوصفه معيار الحقيقة واوضح انه يجب ان تكون وجهة نظر الحياة وجهة نظر النشاط العملي وجهة النظر الاولى والاساسية في نظرية المعرفة وانها تؤدي حتماً الى المادية وان كل مضمون كتاب «المادية والمذهب النقدي التجريبي» هو تعليل عميق لامكانيـــة معرفة قوانين الطبيعة والمجتمع مفعم بالاقتناع بقوة العقل البشري وجبروته

في اواخر القرن التاسع واوائـــل القرن العشرين بدأت ثورة حقيقية في العلوم الطبيعيـــة فقد اكتشفت اشعة رنتغن (١٨٩٥) وظاهـــرة النشاط الاشعاعي (١٨٩٦) والالكترون (١٨٩٧) الذي اكتشفوا اثناء دراسته قابلية كتلته للتغير تبعاً للسرعة ، والراديوم (١٨٩٨) ، والخ .. وقد بين تطور العلـــم

محدودية الصورة الفيزيائية الموجودة حتى ذاك عن العالم وبدأت اعادة النظر في جملة من المفاهيم سبق وصاغتها الفيزياء الكلاسيكية التي كان ممثلوها يقفون بصورة عامة مواقف المادية العفوية غير المدركة الميتافيزيائية احياناً كثيرة التي كانت الاكتشافات الفيزيائية الجديدة تبدو غير قابلة للتفسير من وجهة نظرها فقد كانت الفيزياء الكلاسيكية تنطلق من التشبيه الميتافيزيائي بين المادة بوصفها مقولة فلسفية وبين تصورات معينة عن بنية المادة ولكن عندما تغيرت هذه التصورات بشكل جذري شرع الفلاسفة المثاليون وكذلك بعض الفيزيائيين يتحدثون عن «زوال» المادة ويحاولون تقديم البرهان على «بطلان» المادية وانكار الاهمية الموضوعية للنظريات العلمية وحصر هدف العلم في وصف الظاهرات وما الى ذلك

وقد اشار لينين الى ان امكانية تفسير الاكتشافات العلمية تفسيراً مثالياً تكمن في عملية معرفة الواقع الموضوعي ذاتها وانها تنجم عن تقدم العلوم ذاته فان قانون بقاء الطاقة وتحولها مثلا قد استغله اوستفالد لتعليل «مذهب الطاقة» للبرهنة على «زوال» المادة وتحولها الى طاقة وادى التسرب الى اعماق الذرة ومحاولات فرز اجزائها المكونة الاساسية الى تعزيز دور الرياضيات في تطوير المعارف الفيزيائية ، الامر الذي كان بحد ذاته ظاهرة ايجابية ولكن صبغ الفيزياء بصبغة الرياضيات وكذلك مبدأ نسبية معارفنا في مرحلة تغير اللوحة الفيزيائية عن العالم تغيراً جذرياً قد اسهما في نشوب ازمة الفيزياء وكانا مصدرين عرفانيين للمثالية «الفيزيائية» اما في الواقع فان الاكتشافات الجديدة فى الفيزياء كما بين لينين لم تدحض بل على العكس اكدت صحة المادية الدياليكتيكية التي قاد اليها كل تطور العلوم الطبيعية . وقد كتب لينين واصفاً الطريق المعقد

لتطور الفيزياء وبحوثها العفوية عن نظرية فلسفية صحيحة يقول ان الفيزياء المعاصرة تمضي نحو الطريقة الصحيحة الوحيدة ونحو الفلسفة الصحيحة الوحيدة للعلوم الطبيعية لا في طريق مستقيم بل بتعرجات لا بصورة واعية بل بصورة عفوية دون ان ترى بوضوح «هدفها النهائي» بل مقتربة منه تلمسا مترنحة وحتى بالمقلوب احيانا» (ص ٤٠٤)

ان الانعطاف العميق في النظرات الى الطبيعة الذي بدأ على تخوم القرنين التاسع عشر والعشرين قد صادف تفاقم الرجعية الاجتماعية والسياسية الناجم عن انتقال الرأسمالية الى مرحلة جديدة من تطورها الى المرحلة الامبريالية وفي هذه الظروف استغلت الفلسفة المثالية الثورة في الفيزياء وقامت بمحاولة لزحزحة المادية من العلوم الطبيعية ولفرض تفسيرها للاكتشافات الجديدة على الفيزياء وقد كتب لينين «ان كنه ازمة الفيزياء المعاصرة يكمن في تحطيم القوانين القديمة والمبادئ الاساسية القديمة في نبذ الواقع الموضوعي القائم خارج الوعي اي في الاستعاضة عن المادية بالمثالية واللاعرفانية» (ص ٣٣١)

ولم يحلل لينين جوهر ازمة الفيزياء وحسب بل حدد ايضاً سبيل الخروج منها وهو استيعاب المادية الديالكتيكية من قبل الفيزيائيين

وقد اعطى لينين في كتاب «المادية والمذهب النقدي التجريبي» تعميماً فلسفياً عن الاكتشافات الجديدة في العلوم الطبيعية وفعل ذلك كفيلسوف مسلح باكثر طرائق التفكير تقدماً بطريقة كانت تعوز الاختصاصيين الفيزيائيين ان هذه الطريقة هي الديالكتيك المادي الذي لا يمكن عكس الديالكتيك الموضوعي للطبيعة بصورة صحيحة الا بواسطة مقولاته . وهذه الطريقة ، خلافاً للميتافيزياء

وللنظرية النسبية سواء بسواء تلح حسبما قال لينين على الطابع التقريبي النسبي لمعارفنا عن بنية المادة وخواصها على عدم وجود حدود مطلقة في الطبيعة على تحول المادة المتحركة من حالة الى اخرى وما الى ذلك

وانطلاقاً من الدياليكتيك المادي طرح لينين موضوعة استحالة نضوب المادة وكتب يقول ان الالكترون **لا ينضب** مثله مثل الذرة والطبيعة لامتناهية ولكنها **توجد** الى ما لا نهاية وان هذا الاعتراف القاطع الوحيد والمطلق الوحيد **بوجودها** خارج وعي الانسان واحساسه هو الذي يميز المادية الدياليكتيكية عن اللاعرفانية النسبية وعن المثالية (ص ٣٣٧)

ان هذه الفكرة اللينينية العميقة الرائعة قد اكد صحتها كل تطور العلوم لاحقاً (اكتشاف النشاط الاشعاعي الاصطناعي والبنية المعقدة لنواة الذرة النظرية المعاصرة الخاصة بالدقائق «الاولية» والخ .)

وقد بيّن لينين في كتاب «المادية والمذهب النقدي التجريبي» الوحدة التي لا تنفصم عراها بين المادية الدياليكتيكية والمادية التاريخية وطور الموضوعات الاساسية في المادية التاريخية ولا سيما منها موضوعة الدور المحدّد للوجود الاجتماعي بالنسبة للوعي الاجتماعي وعارض لينين بالمادية التاريخية نظرية بوغدانوف المثالية القائلة بتماثل الوجود والوعي وكذلك محاولات الماخيين المنافية للعلم للاستعاضة عن قوانين التطور الاجتماعي «بمذهب الطاقة الاجتماعي» والقوانين البيولوجية والخ

وفضح لينين في كتابه «المادية والمذهب النقدي التجريبي» اللاحزبية الموهومة للفلسفة البرجوازية والمستورة بالحيل الكلامية وبالمدرسية «العلمية» . وبين ان تطور الفلسفة في

المجتمع التناحري الطبقي يتجلى بصورة محتمة في الصراع بين الاتجاهين الفلسفيين الاساسيين – المادية والمثالية – اللذين يعربان بوجه عام احدهما عن مصالح الطبقات التقدمية والثاني عن مصالح الطبقات الرجعية وكشف لينين لاعلمية المثالية وعارضها بالتقليد الفلسفي المادي (من ديموقريطس الى فورباخ وتشيرنيشيفسكي) الذي بلغ ارفع درجات تطوره في الفلسفة الماركسية ويعتبر لينين تاريخ الفلسفة على انه صراع بين «اتجاهي او خطي افلاطون وديموقريطس» ويشير الى ان الفلسفة الحديثة حزبية كما منذ الفي سنة

ان كتاب لينين هو وسيلة ضرورية في النضال ضد الفلسفة والسوسيولوجيا البرجوازية المعاصرة وهو يفضح الاساليب والطرائق الاساسية «لنقد» الماركسية من قبل ايديولوجيي البرجوازية الرجعية وقوامها الاستعاضة عن قوانين التطور الاجتماعي «بعوامل» بيولوجية ونفسانية وغيرها من «العوامل» والسعي الى تزييف الماركسية بذريعة «تطوير» ها وهكذا دواليك

وقد بين لينين واكد تطور العلوم الطبيعية لاحقاً ان المادية الديالكتيكية هي الفلسفة الصحيحة الوحيدة للعلوم الطبيعية وطريقة التفكير الاكثر انسجاماً وعلمية وساعد كتاب لينين «المادية والمذهب النقدي التجريبي» كثيرين من العلماء التقدميين في ايجاد الطريق الصحيح في ميادين معارفهم وقطع الصلة مع الفلسفة المثالية والانتقال الى مواقف العقيدة العلمية المادية الديالكتيكية وان التعميم الفلسفي العميق الذي اعطاه لينين عن منجزات العلوم الطبيعية ووصفه لازمة الفيزياء وتحديده لسبيل الخروج منها ، ان كل هذا يرتدي اهمية بالغة لأجل النضال

ضد التزييف المثالي المعاصر للاكتشافات العلمية لأجل انتصار المادية الدياليكتيكية في ميادين العلوم الطبيعية

اما المقطع «حول الدياليكتيـــك» فهو خاتمة دراسة لينين لقضايا الفلسفة في سنتي ١٩١٤ و١٩١٥ ان هذا المقطع الصغير من حيث الحجم هو عبارة عن تعميم لكل رئيسي وجوهري يشكل مضمون الدياليكتيك المادي

المادية والمذهب النقدي التجريبي

ملاحظات انتقادية بصدد فلسفة رجعية

مقدمة الطبعة الاولى

ان طائفة من الكتاب ممن يرغبون في ان يكونوا ماركسيين قد شنوا عندنا في السنة الجارية حملة حقيقية ضد فلسفة الماركسية ففي اقل من نصف سنة صدرت اربعة كتب مكرسة بصورة رئيسية وكلياً تقريباً للتهجمات على المادية الديالكتيكية وفي عدادها تأتي في المقام الاول «دراسات في (؟ وكان ينبغي القول ضد) فلسفة الماركسية» سانت بطرسبورغ عام ١٩٠٨ مجموعة مقالات لبازاروف وبوغدانوف ولوناتشارسكي وبرمان وغلفوند ويوشكيفيتش وسوفوروف ثم كتب يوشكيفيتش – «المادية والواقعية النقدية» برمان – «الدياليكتيك * في ضوء النظرية المعاصرة للمعرفة» فالنتينوف – «الماركسية وانشاءاتها الفلسفية»

ان جميع هؤلاء الاشخاص لا يمكن ان لا يعرفوا ان ماركس وانجلس قد سميا عشرات المرات نظراتهما الفلسفية بالمادية الديالكتيكية وجميع هؤلاء الاشخاص الذين يجمع العداء للمادية

---

* الدياليكتيك ـ يترجمها بعضهم بالجدل والجدالية مع اعطاء تفسيرات متنوعة ومختلفة ونفضل الاحتفاظ بالتعبير اليوناني الاصل نظراً لشيوعة استعماله في مختلف اللغات ولا سيما في ميدان الفلسفة كغيره من التعابير الفلسفية . **المعرب** .

الدياليكتيكيـــة بينهم – رغم الفوارق الحادة بينهـــم في النظرات السياسية ، – يدعون في الوقت نفســـه بانهـــم في الفلسفـــة ماركسيون ان دياليكتيــــك انجلس هو «تصوف» – هكذا يقول برمان ان نظرات انجلس قد «شاخت» – هكذا يقول بازاروف عرضاً كأنما يقول شيئاً بديهياً واذا المادية تبدو مدحوضة من جانب مقاتلينا الاجرياء الذين يستشهدون باعتزاز «بالنظريـــة المعاصرة للمعرفة» «بالفلسفة الحديثة» (او «بالوضعيـــة * الحديثة») «بفلسفة العلوم الطبيعية المعاصرة» او حتى «بفلسفة العلوم الطبيعية في القرن العشرين» وبالاعتماد على هذه المذاهب الحديثة المزعومة يذهب اصحابنا مبيدو المادية الدياليكتيكية الى حد القول بلا خوف ولا خشية بالايمانية ** (وهذا واضح عند لوناتشارسكي اشد الوضوح ولكن ليس البتة عنده وحده !) (١) ولكنهم يفقدون في الحال كل جرأة كل احترام لعقائدهـم بالذات حين يبلغ الامر حد تحديد موقفهم على المكشوف من ماركس وانجلس في الواقع – عدول تام عن المادية الدياليكتيكية اي عن الماركسية في الاقوال – مراوغات لا نهاية لها محاولات للتهرب من كنه المسألة لتغطية التراجع لوضع مادي ما من الماديين محل المادية على العموم الامتناع قطعاً عن تحليل آراء ماركس وانجلس المادية التي لا عد لها تحليلاً مباشراً وهذا – «فتنة على الركاب» حقيقية على حد التعبير الصحيـــح لاحد الماركسيين انـــه لتحريف فلسفي نموذجي لأن المحرفين وحدهم اكتسبوا شهرتهم السيئة بانحرافهم عن المفاهيم الاساسية للماركسية وبخوفهم او

---

* المذهب الوضعي ، positivisme . **المعرب** .

** الايمانية – fidéisme ، او مذهب الايمان – هو مذهب يحل الايمان محل المعرفة او يولي الايمان ، على العموم ، اهميـــة معينة

بعجزهم عن ان «يصفوا» بصورة سافرة ومباشرة وقاطعة وواضحة «حساب» النظرات التي يتخلّوا عنها وعندما حدث للارثوذكس ان وقفوا ضد آراء ماركس الشائخة (مثلاً مهرينغ ضد بعض الموضوعات التاريخية) فقد فعلوا ذلك دائماً بدرجة من الوضوح والتدقيق بحيث ان احداً لم يجد يوماً في مثل هذه الاعمال الادبية اي لبس وابهام

ولكنه توجد في «دراسات «في» فلسفة الماركسية» جملة تشبه الحقيقة انها جملة لوناتشارسكي «لربما نحن (اي اغلب الظن جميع المساهمين في «دراسات») «نضل ولكننا نبحث» (ص ١٦١) اما ان النصف الاول من هذه الجملة يتضمن حقيقة مطلقة والنصف الثاني حقيقة نسبية فهذا ما سأحاول تبيانه بكل تفصيل في الكتاب الذي اعرضه على القراء والآن اكتفي بالقول انه لو ان فلاسفتنا لم يتحدثوا باسم الماركسية بل باسم بعض الماركسيين «الباحثين» لكانوا ابدوا مزيداً من الاحترام لانفسهم وللماركسية على السواء

اما فيما يخصني فاني انا ايضاً «باحث» في الفلسفة واعني بذلك اني وضعت نصب عيني في هذه الملاحظات مهمة العثور على ما اضل اولئك الذين يصورون بصورة الماركسية شيئاً مضطرباً ومشوشاً ورجعياً الى حد لا يصدق

المؤلف

ايلول (سبتمبر) ١٩٠٨ .

مقدمة الطبعة الثانية

هذه الطبعة لا تختلف عن السابقة باستثناء بعض التعديلات في النص وانى آمل في ان هذه الطبعة بصرف النظر عن المناظرة مع «الماخيين» الروس لن تكون عديمة الجدوى بوصفها وسيلة للاطلاع على فلسفة الماركسية على المادية الدياليكتيكية وكذلك على الاستنتاجات الفلسفية من احدث اكتشافات العلوم الطبيعية وفيما يخص آخر مؤلفات ا ا بوغدانوف التي لم يتسنّ لي الاطلاع عليها تعطي مقالة الرفيق ف اى نيفسكي المنشورة لاحقاً التوجيهات اللازمة (٢) فان الرفيق ف اي نيفسكي الذي لا يعمل كداعية على العموم وحسب بل ايضاً كمسؤول في المدرسة الحزبية على الخصوص قد توفرت له الامكانية التامة للاقتناع بان ا ا بوغدانوف يمرر الآراء البرجوازية والرجعية وراء ستار «الثقافة البروليتارية» (٣)

ن اينين

٢ ايلول (سبتمبر) ١٩٢٠ .

عوضا عن المقدمة

كيف دحض بعض «الماركسيين» المادية في عام ١٩٠٨ وكيف دحضها بعض المثاليين في عام ١٧١٠

ان كل من اطلع نوعا على المطبوعات الفلسفية لا بد له ان يعرف انه من المشكوك فيه ان يتواجد وان بروفسور معاصر في الفلسفة (وكذلك في اللاهوت) لا ينصرف مباشرة او بصورة غير مباشرة الى دحض المادية ومئات وآلاف المرات اعلنوا ان المادية قد دحضت ولكنهم يواصلون دحضها حتى الآن للمرة الواحدة بعد المئة وللمرة الواحدة بعد الألف ومحرفونا جميعهم يتعاطون دحض المادية متظاهرين انهم يدحضون المادى بليخانوف وحده وليس المادى انجلس ولا المادى فورباخ ولا آراء اي ديتزغن المادية ، – ثم انهم يدحضون المادية من وجهة نظر المذهب الوضعي «الحديث» و «المعاصر» والعلوم الطبيعية وما الى ذلك ودون ان اسوق استشهادات يجمع منها كل راغب المئات في الكتب المذكورة آنفاً اذكّر بتلك الحجج التي يقضي بها على المادية بازاروف وبوغدانوف ويوشكيفيتش وفالنتينوف وتشيرنوف * والماخيون الآخرون وهذا التعبير الاخير بوصفه اوجز وابسط ناهيك عن انه حظي باعتراف الجميع في المطبوعات الروسية

---

* ف تشيرنوف «دراسات فلسفية وسوسيولوجية» موسكو عام ١٩٠٧ والمؤلف نصير متحمس لافيناريوس وعدو للمادية الديالكتيكية مثل بازاروف وشركاه .

سأستعمله في كل مكان كمرادف لتعبير «النقاد التجريبيون» اما ان ارنست ماخ هو في الوقت الحاضر اشهر ممثلي المذهب النقدي التجريبي ، فان هذا معترف به على العموم في المطبوعات الفلسفية * ، في حين ان انحرافات بوغدانوف ويوشكيفيتش عن الماخية «الخالصة» تتسم بأهمية ثانوية تماماً كما سنبين فيما بعد

ويقولون لنا ان الماديين يعترفون بشيء ما غيـــر معقول ويستحيل ادراكه – «الاشياء في ذاتها» المادة «خارج التجربة» خارج ادراكنا وانهم يسقطون في حمأة التصوف الحقيقي بقبولهم بشـــيء مــــا غيبـي قائم فيمـــا وراء حدود «التجربــــة» والمعرفة وان الماديين حين يزعمون ان المادة تحدث احساسات بتأثيرها في اعضاء حواسنا انما يتخذون «غير المعروف» العدم اساسا لانهم يعلنون هم انفسهم ان حواسنا هي المصدر الوحيد للمعرفة وان الماديين يسقطون في حمأة «الكانطية» (بليخانوف – حين يسلم بوجود «الاشيـــاء في ذاتهـــا» اي بوجود اشياء خارج ادراكنا) و«يثنون» العالم ويكرزون «بالاثنينية» ** لان وراء الظاهرات يوجد عندهم ايضا الشيء ذاتــــه ووراء المعطيات المباشرة للحواس يوجد شيء ما آخر فتش *** ما «صنم» مطلق مصدر «للميتافيزياء» صنو للدين («المادة المقدسة» كما يقول بازاروف)

* راجعوا مثلا Dr. Richard Hönigswald. «Über die Lehre Hume's von der Realität der Außendinge», Brl., 1904, S. 26 (الدكتـــور ريخارد هونيغسفالد «مذهب هيوم في واقعية العالم الخارجي» برلين ، عام ١٩٠٤ ، ص ٢٦) **الناشر**

** الاثنينية – Dualisme ثنائية ، ثنوية . **المعرب** .

*** Fetiche . **المعرب** .

هذه هي حجج الماخيين ضد المادية الحجج التي يرددها ويكررها بكل شكل وصورة الكتاب المذكورون اعلاه

وللتحقق مما اذا كانت هذه الحجج جديدة ومما اذا كانت موجهة فعلا ضد مادي روسي واحد فقط «سقط في حمأة الكانطية» نسوق مقتبسات مسهبة من مؤلف من مؤلفات مثالي قديم هو جورج بركلي فان هذه الشهادة التاريخية ضرورية في مقدمة لملاحظاتنا خصوصاً وانه سيتأتى لنا ان نستشهد مرارا ادناه ببركلي واتجاهه في الفلسفة لأن الماخيين يصورون بصورة خاطئة سواء موقف ماخ من بركلي ام كنه خط بركلي الفلسفي

فان مؤلف الاسقف جورج بركلي الذي صدر في عام ١٧١٠ تحت اسم «بحث في مبادئ المعرفة البشرية» * يبدأ بالمحاكمة التالية «من الجلي لكل من يراقب **مواضيع** المعرفة البشرية انها امّا افكار (ideas) تدركها الحواس بالفعل وامّا افكار نحصل عليها بملاحظة انفعالات العقل وافعاله واما اخيراً افكار تتشكل بمساعدة الذاكرة والخيال بواسطة البصر اكوّن افكاراً عن النور وعن الالوان عن درجاتها وانواعها المختلفة وبواسطة اللمس ادرك الجامد والرخو الحار والبارد الحركة والمقاومة والشم يعطيني الروائح والذوق – الاحساس بالذوق والسمع – الاصوات وبما ان مختلف الافكار تلاحظ الواحدة مع الاخرى فانهم يرمزون اليها باسم واحد ويعتبرونها شيئاً ما مثلا يلاحظون لوناً معيناً وذوقاً معيناً ورائحة معينة

---

* George Berkeley. «Treatise concerning the Principles of Human Knowledge», vol. I of Works, edited by A. Fraser. Oxford, 1871.

هناك ترجمة روسية (جورج بركلي «بحث في مبادئ المعرفة البشرية .» المجلد الاول من المؤلفات . اصدار ا . فريزر . اوكسفورد ، عام ١٨٧١ . **الناشر .**)

وشكلاً معيناً وتماسكاً معينـــاً مجموعـــة معاً (to go together) فيعتبرون هذا شيئاً مستقلاً ويرمزون اليه بكلمة **تفاحة** وتشكل مجموعات اخرى من الافكار (collections of ideas) حجراً شجرة كتاباً وما الى ذلك من الاشياء الحسية (الفقرة ١)

ذلك هو مضمون الفقرة الاولى من مؤلف بركلي وينبغي لنا ان نتذكر انه يضع في اساس فلسفته «الجامد الرخو الحار البارد اللون الاذواق الروائح» والخ ان الاشياء بنظر بركلي هي «مجموعات افكار» علماً بانه يقصد بهذه الكلمة الاخيرة فيما يقصد الصفات او الاحساسات المذكورة اعلاه بالضبط ، وليس الافكار المجردة

ثم يقول بركلي انـــه يوجد علاوة على هذه «الافكار او مواضيع المعرفة» ما يدركها ، – «العقل الروح النفس او **انا**» (الفقرة ٢) وبديهي ، – كما يستخلص الفيلسوف ، – انه لا يمكن «للافكار» ان توجد خارج العقل الذي يدركها وللاقتناع بذلك حسبنا ان نفكر في معنى كلمة وُجد «حين اقول ان المكتب الذي اكتب عليه يوجد فان هذا يعني اني اراه واشعر به واذا ما خرجت من غرفتي فاني سأقول ان المكتب موجود قاصداً بذلك اني لو كنت في غرفتي لكان بوسعي ان ادركـــه بحواسي هكذا يقول بركلي في الفقرة ٣ من مؤلفه وهنا بالذات يبدأ مناظرة مع الذين يسميهم بالماديين (الفقرتان ١٨ ١٩ وغيرهما) وهو يقول من غير المفهوم اطلاقاً بالنسبة لي كيف يمكن القول بوجود الاشياء المطلق بمعزل عن واقع ان احداً ما يدركها بحواسه ؟ ان يكون الشيء موجوداً انما يعني ان يكون قابلاً للادراك بالحواس (their اي الاشيـــاء *esse* is *percipi* الفقرة ٣ ، – قول لبركلـــي يستشهدون بـــه في الكتـــب

المدرسية في تاريخ الفلسفة) «وبين الناس يهيمن بصورة غريبة رأي يقول ان للبيوت والجبال والانهر وبكلمة للاشياء الحسية وجوداً طبيعياً او واقعياً يتميز عن كون العقل يدركها» (الفقرة ٤) ان هذا الرأي «تناقض بيّن» - كما يقول بركلي - «لانه ما عسى ان تكون هذه المواضيع المذكورة آنفاً ان لم تكن اشياء ندركها بواسطة الحواس ؟ وما عسانا ان ندرك ان لم يكن افكارنا او احساساتنا بالذات (ideas or sensations)؟ أوليس من السخافة يا ترى ان يكون من الممكن ان توجد افكار او احساسات ما ، او مركبات منها اذا لم تكن قابلة للادراك ؟» (الفقرة ٤)

والآن يستعيض بركلي عن مجموعات الافكار بتعبير مرادف بالنسبة له هو **مركبات الاحساسات** متهماً الماديين بالسعي «السخيف» الى المضي قدماً الى البحث عن مصدر ما لأجل هذا المركب اي لأجل هذا المركب من الاحساسات وفي الفقرة ٥ يتهم الماديين بالانهماك في التجريد لأن فصل الاحساس عن الموضوع هو برأي بركلي تجريد فارغ ويقول بركلي في نهاية الفقرة ٥ غير الواردة في الطبعة الثانية «ان الموضوع والاحساس هما بالفعل الشيء نفسه (are the same thing) ولذا لا يمكن تجريدهما احدهما من الاخر» وكتب بركلي يقول «قد تقولون انه يمكن للافكار ان تكون نسخاً او انعكاسات (resemblances) لاشياء موجودة خارج العقل في جوهر * لا يفكر واني اجيب بأنه لا يمكن للفكرة ان تشبه الا الفكرة ولا يمكن للون او للشكل ان يشبها الا لوناً آخر او شكلاً آخر واني اسأل أيمكننا ان ندرك هذه الاصول المفترضة او الاشياء

* الجوهر — هنا Substance . **المعرب** .

الخارجية التي افكارنا كأنما هي صور او تصورات عنها ام لا ؟ اذا كان نعم فان هذا يعني انها افكار وانا بالتالي لم نتقدم اي خطوة الى الامام اما اذا قلتم كلا فاني اخاطب اي انسان كان وأسأله ما اذا كان ثمة معنى للقول ان اللون يشبه شيئاً ما غير منظور وان الجامد او الرخو يشبه شيئاً يستحيل لمسه وما الى ذلك» (الفقرة ٨)

ان «حجج» بازاروف ضد بليخانوف في مسألة ما اذا كان بامكان الاشياء ان توجد خارجاً عنّا بدون ان تؤثـر فينا ،– لا تختلف مقدار ذرة كما يرى القارئ عن حجـج بركلي ضد الماديين الذين لا يسمِّيهم باسمائهم فان بركلي يعتبر فكرة وجود «المادة او الجوهر الجسدي» (الفقرة ٩) «تناقضاً» «محالاً» الى حد انه لا داعي البتة الى تضييع الوقت على دحضها ويقول «ولكن بما ان التعليـــم (tenet) بصدد وجود المادة قد مدّ على مـــا يبدو جذوراً عميقة في عقول الفلاسفة ويستتبع مثل هذه الكثرة من الاستنتاجات الضارة فاني افضـــل ان ابدو مكثراً في الكلام ومملاً شرط ان لا افوت اي شيء لفضح واجتثاث هذا الوهـم بصورة تامة» (الفقرة ٩)

وسنرى الآن عن اية استنتاجات ضارة يتحدث بركلي لننته اولاً من حججه النظرية ضد الماديين فان بركلي اذ ينكر وجود المواضيع «المطلق» اي وجود الاشياء خارج المعرفـة البشرية انما يعرض على المكشوف آراء اعدائه على نحو يبدو معه انهـم يعترفون «بالشيء في ذاته» وفي الفقرة ٢٤ يكتـــب بركلي بحروف التأكيـــد ان هذا الرأي الذي يدحضه يعترف «**بالوجود المطلق للمواضيع الحسية في ذاتهـا** (objects in themselves) **او خارج العقل**» (ص ١٦٧–١٦٨ من الطبعة المذكورة) هنا يرتسم خطان اساسيان من الاراء الفلسفية بتلك الدرجة من الصراحـــة

والوضوح والجلاء التي تميز اعلام الفلسفـــة الكلاسيكيين عـن مختلقي الانظمة «الجديدة» في زمننا المادية – الاعتراف «بالمواضيع في ذاتها» او خارج العقل الافكار والاحساسات – نسخ او انعكاسات لهذه المواضيع المذهب المقابل (المثالية) لا توجد المواضيع «خارج العقل» المواضيع هي «مركبات احساسات»

وقد كتب هذا في عام ١٧١٠ اي قبل ولادة عمانوئيـــل كانط ١٤ سنة في حين ان ماخيينـا – بالاستناد الى ما يسمى بالفلسفة «الحديثـــة» – قد اكتشفوا ان الاعتراف «بالاشياء في ذاتها» هو نتيجة لعدوى او لتشويه الماديـة بالكانطيـــة ان اكتشافات الماخيين «الجديدة» هي نتيجة لجهلهم المذهل في تاريخ الاتجاهات الفلسفية الاساسية

وفكرتهم «الجديدة» التاليـــة تقول ان مفهومي «المادة» او «الجوهر» هما بقية آراء قديمة غير نقدية فان ماخ وافيناريوس لو ترون قد دفعا الفكر الفلسفي الى الامام وعمقا التحليل وازالا هذه «المطلقات» هذه «الجواهر الثابتة» وما الى ذلك خذوا بركلي لكي تتحققوا من مثل هذه الاقوال في مصدرها الاولي تروا انها تتلخص في اختلاق دعي فان بركلي يقول بكل جلاء ان المادة هي «nonentity» (جوهر لا وجود له الفقرة ٦٨) ان المادة هي **لاشيء** (الفقرة ٨٠) ويتهكم بركلي على الماديين قائلاً «بوسعكم اذا شئتم ان تستعملوا كلمة «المادة» بالمعنى الذي يستعمل به الآخرون كلمـــة «لاشيء» (ص ١٩٦–١٩٧ مـــن الطبعة المذكورة) ويقول بركلي في البدء آمنوا بان الالوان والروائح وما الى ذلك «توجد فعلاً» ، – ثم تخلوا عن هذا الرأي واعترفوا بانها لا توجد الاّ تبعاً لاحساساتنا ولكن هذا القضاء على المفاهيم الخاطئة القديمة لم يتم الى النهاية فان الزعم بان البقية هي مفهوم «الجوهر» (الفقرة ٧٣) انما هو نفس هذا «الوهم» (ص ١٩٥)

الذي فضحه الاسقف بركلي نهائياً في عام ١٧١٠ وفي عام ١٩٠٨ يتواجد عندنا مزاحون صدقوا عن جدّ افيناريوس وبتسولدت وماخ وشركاهم الزاعمين بان «المذهب» الوضعي الحديث» و«علم الطبيعة الحديث» هما وحدهما اللذان توصلا الى حد ازالة هذه المفاهيم «الميتافيزيائية»

وهؤلاء المزاحون انفسهم (بمن فيهم بوغدانوف) يؤكدون للقراء ان الفلسفة الجديدة بالذات هي التي اوضحت خطأ «تثنية العالم» في مذهب الماديين المدحوضين على الدوام الذين يتحدثون عن «انعكاس» ما من قبل وعي الانسان لاشياء موجودة خارج وعيه وعن هذه «التثنية» كتب المؤلفون المذكورون اعلاه جبالاً من الكلمات المؤثرة ولكنهم لم يضيفوا إما بسبب النسيان واما بسبب الجهل ان هذه الاكتشافات الجديدة قد سبق وا'كتشفت في عام ١٧١٠

كتب بركلي يقول «ان معرفتنا لها (للافكار او للاشياء) كانت في منتهى الغموض والتشوش وكانت موجهة نحو اخطر الضلالات بفرضية الوجود الثنائي (twofold) للمواضيع الحسية اي الوجود **المعقول** او الوجود في العقل والآخر – **الفعلي** خارج العقل» (اي خارج الوعي) ويهزأ بركلي من هذا الرأي «السخيف» الذي يجيز امكانية التفكير بالمحال ان مصدر «المحال» هو بالطبع التمييز بين «الاشياء» و«الافكار» (الفقرة ٨٧) و«التسليم بالمواضيع الخارجية» والمصدر نفسه يولد كما اكتشف بركلي في عام ١٧١٠ واكتشف بوغدانوف من جديد في عام ١٩٠٨ الايمان في الفتشات والاصنام يقول بركلي «ان وجود المادة او الاشياء غير القابلة للادراك لم يكن السند الرئيسي عند الملحدين والجبريين وحسب بل ان عبادة الاصنام بجميع اشكالها المتنوعة ترتكز هي ايضاً على المبدأ نفسه» (الفقرة ٩٤).

وهنا وصلنا ايضاً الى تلك الاستنتاجات «الضارة» من المذهب «السخيف» القائل بوجود العالم الخارجي ، التي اجبرت الاسقف بركلي لاعلى دحض هذا المذهب على الصعيد النظري وحسب بل ايضاً على ملاحقة انصاره بحمية كاعداء وهو يقول «على اساس مذهب المادة او الجوهر الجسدي اقيمت جميع اختلاقات الالحاد وانكار الدين الكافرة ولا داعي للقول الى اي حد كان الجوهر المادي في جميع الازمنة صديقاً كبيراً للملحدين فان جميع انظمتهم الفظيعة تتوقف عليه بقدر من الجلاء وبقدر من الضرورة بحيث ان هذا الصرح ينهار حتماً بكليته ما ان يقصى حجر الزاوية هذا ولهذا لا داعي يدعونا الى ايلاء المذاهب السخيفة لمختلف شيع الملحدين الحقيرة انتباهاً خاصاً» (الفقرة ٩٢ ص ٢٠٣-٢٠٤ من الطبعة المذكورة)

«ان المادة ما ان تُطْرَدَ من الطبيعة حتى تحمل معها الكثير من الاختلاقات الريبية والكافرة وعدداً لا يصدق من المجادلات والمسائل المشوشة» («مبدأ توفير الفكر» الذي اكتشفه ماخ في السبعينيات من القرن التاسع عشر «الفلسفة بوصفها التفكير في العالم حسب مبدأ الحد الادنى من انفاق القوى» - افيناريوس في عام ١٨٧٦ !) «التي كانت شوكة في العين بالنسبة للاهوتيين والفلاسفة وقد اجبرت المادة الجنس البشري على بذل قدر من الجهود العقيمة بحيث لو ان حتى تلك الحجج التي تقدمنا بها ضد المادة اعتبرت غير ثابتة كفاية (في حين اني انا شخصياً اعتبرها جلية وثابتة تماماً) فاني واثق مع ذلك بان لجميع اصدقاء الحقيقة والسلام والدين المبررات لكي يتمنوا اعتبار هذه الحجج كافية» (الفقرة ٩٦)

لقد حاكم الاسقف بركلي بصراحة وحاكم ببساطة ففي زمننا ، يلبسون الافكار ذاتها بشأن استبعاد «المادة» من الفلسفة

استبعاداً «توفيرياً» في شكل اكثر دهاء وتشوشاً بواسطة اصطلاحات «جديدة» لكي يعتبر السذج ان هذه الافكار هي الفلسفة «الحديثة»

ولكن بركلي لم يتكلم بصراحة عن ميول فلسفته وحسب بل حاول كذلك ان يستر عريها المثالي ويصورها خالية من السخافات ومقبولة بالنسبة «للعقل السليم» وهو يقول راداً عن نفسه بالغريزة التهمة بما قد يسمى الآن بالمثالية الذاتية والسوليبسيسم * بسبب فلسفتنا «لا نحرم انفسنا اية اشياء في الطبيعة» (الفقرة ٣٤) الطبيعة تبقى ويبقى ايضاً الفرق بين الاشياء الفعلية والخيالات ،– ولكن «هذه وتلك على السواء توجد في الادراك بالقدر نفسه» «انا لا اجادل البتة في وجود اي شيء يمكننا ان نعرفه بواسطة الاحساس او التفكير اما ان الاشياء التي اراها بعيني والمسها بيدي توجد ،– توجد فعلاً فان هذا لا اشك فيه البتة الشيء الوحيد الذي ننكر وجوده هو ما يسميه **الفلاسفة** (حرف التأكيد لبركلي) المادة او الجوهر الجسدي ان انكار هذه المادة لا يتسبب باي ضرر للنوع البشري الباقي الذي اتجرأ واقول انه لن يلحظ يوماً غيابها ان الملحد يحتاج فعلاً الى شبح التسمية الفارغة هذا لكي يعلل كفره

وترد هذه الفكرة بمزيد من الوضوح في الفقرة ٣٧ التي يردّ فيها بركلي على اتهامه بان فلسفته تقضي على الجواهر الجسدية «اذا فهمت كلمة **الجوهر** بالمعني المبتذل (vulgar) اي كمركّب من الصفات الشعورية والامتداد والمتانة والوزن وما الى ذلك فلا يجوز اتهامي بالقضاء عليها ولكن اذا فهمت

* السوليبسيسم – solipsisme ، مذهب وحدة الذات او مذهب الانانة او مذهب «الاناوحدية» من اللاتينية : solus ومعناه الوحيد و ipse ومعناه انا نفسي . **المعرب** .

كلمة الجوهر بالمعنى الفلسفي اي كأساس للعوارض او الصفات (الموجودة) خارج الادراك ، – فاني اعترف نذاك فعلاً باني اقضي على الجوهر اذا امكن القول بالقضاء على ما لم يكن له وجود يوماً ولم يكن له وجود حتى في الخيال»

ان الفيلسوف الانجليزي فريزر المثالي ، ونصير البركلية ، والذي اصدر مؤلفات بركلي وزودها بملاحظاته ليس عبثاً يسمّي مذهب بركلي «بالواقعية الطبيعية» (صفحة X من الطبعة المذكورة) ولا بدّ من الاشارة حتماً الى هذه التعابير المضحكة لأنها تفصح بالفعل عن نية بركلي في التلون بلون الواقعية وسنلتقي مراراً عديدة فيما بعد «وضعيين» «حديثين» يكررون بشكل آخر بحلة كلامية اخرى هذا الخداع نفسه او هذا التزييف نفسه ان بركلي لا ينكر وجود الاشياء الفعلية ان بركلي لا يقاطع رأي البشرية جمعاء ان بركلي ينكر «فقط» مذهب الفلاسفة اي نظرية المعرفة التي تأخذ بصورة جدية وقاطعة كأساس لجميع محاكماتها الاعتراف بالعالم الخارجي وانعكاسه في ادراك الناس ان بركلي لا ينكر العلوم الطبيعية التي وقفت دائماً ولا تزال تقف (وفي معظم الاحيان عن غير وعي) على صعيد نظرية المعرفة هذه اي النظرية المادية ونقرأ في الفقرة ٥٩ «بوسعنا ان نستخلص من تجربتنا» (بركلي – فلسفة «التجربة الخالصة») * «فيما يتعلق بتعايش وانسجام الافكار في ادراكنا استنتاجات صحيحة بصدد ما نشعر به نحن (او ما نراه نحن) فيما اذا واجهنا احوالا تختلف اختلافاً كبيراً جداً عن الاحوال التي نواجهها الآن . و في ذلك بالذات تتلخص معرفة الطبيعة ، التي (اسمعوا !)

---

* يصر فريزر في مقدمته على ان بركلي ، مثله مثل لوك ، «يستند بوجه الحصر الى التجربة» (ص ١١٧) .

«يمكن ان تحتفظ باهميتها وصحتها بصورة منسجمة تماماً بالارتباط مع ما قيل اعلاه»

سنعتبر العالم الخارجي الطبيعة – «مركب احساسات» يثيرها الاله في عقلنا اعترفوا بهذا اعدلوا عن البحث في خارج الادراك في خارج الانسان عن «اسس» هذه الاحساسات ، – فاعترف انا في اطار نظريتي المثالية عن المعرفة **بجميع** العلوم الطبيعيـــة بكل اهمية وصحة استنتاجاتها فانا بحاجة على وجه الضبط الى هذا الاطار والى هذا الاطار فقط لأجل استنتاجاتي في صالـــح «السلام والديــن» هذه هي فكرة بركلي وهذه الفكرة التي تعرب بصورة صحيحة عن كنه الفلسفة المثاليـــة واهميتهـــا الاجتماعية سنلتقي بها فيما بعد عندما نتحدث عن موقـــف الماخية من العلوم الطبيعية

اما الآن فاننا نشير الى اكتشاف حديث آخر اقتبسه في القرن العشرين الوضعي الحديث والواقعي النقدي ب يوشكيفيتش من الاسقف بركلـــي هذا الاكتشاف هو »المذهـــب الرمزي التجريبي» يقول فريزر «ان النظرية المفضلة عند بركلي هي نظرية «الرمزية الطبيعية الكلية» (ص ١٩٠ من الطبعة المذكورة) او نظرية «رمزية الطبيعـــة» (Natural Symbolism) ولـــو ان هذه الكلمات لم ترد في الطبعة الصادرة في عام ١٨٧١ لكان امكن الظن بان الفيلسوف الانجليزي الايماني فريزر انتحل من عالم الرياضيات والفيزيـــاء المعاصر بوانكاره و «الماركسي» الروسي يوشكيفيتش

ان نظرية بركلي نفسها التي اثارت اعجاب فريزر انمـــا يعرضها الاسقف كما يلي

«ان الصلة بين الافكار» (لا تنسوا ان الافكار والاشياء هي الامر نفسه بالنسبة لبركلي) «لا تفترض العلاقـــة بين **السبب**

والمسبّب بل تفترض فقط العلاقـــة بين السمـــة او **العلامة** والشيء المعلَّم بنحو او آخر» (الفقرة ٦٥) «ومن هنا يتضح ان تلك الاشياء التي هي من وجهـة نظر مقولـــة السبـــب (under the notion of a cause) التي تسهـــم او تساعد في انتاج المسبَّب غير قابلة اطلاقاً للتفسير وتقودنـــا الى سخافات كبيرة ، – انما يمكن تفسيرها بصورة طبيعية تماماً اذا نظرنا اليها كسمات او علامات لأجل اطلاعنا» (الفقرة ٦٦) وبديهي ان من يطلعنا بواسطة هذه «الرموز التجريبية» ليس برأى بركلي وفريزر غير الاله اما شأن **الرمزية** العرفاني في نظرية بركلي فهو انه لا بد لها ان تحل محل «مذهب» «يدعي بتفسير الاشياء باسباب جسدية» (الفقرة ٦٦)

نحن امام اتجاهين فلسفيين في مسألة السببية احدهمـــا «يدعي بتفسير الاشياء باسباب جسدية» ، – وواضح انه يرتبط «بمذهب المادة» «السخيف» والذي دحضـــه الاسقف بركلي والثاني يحصر «مفهوم السبب» في مفهوم «السمة او العلامة» المعدة «لأجل اطلاعنا» (من قبل الرب) وبهذين الاتجاهين في حلة القرن العشرين نلتقي لدن تحليل موقف الماخية والمادية الدياليكتيكية من المسألة المعنية

وبعد يجب ان نشير ايضاً في مسألة الواقعية الى ان بركلي الذي يرفض الاعتراف بوجود الاشياء خارج الادراك يحاول ان يفتش عن معيار لأجل التمييز بين الفعلي والوهمي وهو يقول في الفقرة ٣٦ ان تلك «الافكار» التي يستحضرها العقل البشري على هواه «شاحبة ضعيفة متقلقلـــة بالقياس الى تلك الافكار التي ندركها بالحواس وبما ان هذه الافكار الاخيرة تتسجل فينـــا بموجب قواعد او قوانين معروفة للطبيعة فانها تدل على فعل عقل اوفر جبروتاً وحكمة من العقل البشري . ولهذه الافكار ، كما يقال ،

من **الواقعية** اكثر مما للافكار السابقة وهذا يعني انها اكثر وضوحاً وترتيباً وتقسيماً وانها ليست اوهاماً للعقل الذي يدركها وفي مكان آخر (الفقرة ٨٤) يحاول بركلي ان يربط مفهوم الفعلي بادراك الاحساسات الحسية ذاتها من قبل عدد كبير من الناس في آن واحد مثلاً كيف نحل المسألة التالية: هل تحويل الماء الى خمر الامر الذي - لنفترض - يحكون لنا عنه هو حقيقي واقعي ؟ «لو رأى جميع الحاضرين الى المائدة هذا، و شموا رائحته وشربوا الخمر واحسوا بطعمه ولو رأوا على انفسهم عواقب احتساء الخمر لما كان من الممكن برأيي ان تقوم شكوك في واقعية هذا الخمر» ويوضح فريزر «ان معرفة اشخاص مختلفين في آن واحد للافكار **الحسية** ذاتها تعتبر هنا، خلافاً للمعرفة الفردية او الشخصية الصرف للمواضيع والانفعالات **المتخيلة** دليلاً على حقيقة **واقعية** الافكار من النوع الاول»

ومن هنا يتضح انه لا يجوز فهم مثالية بركلي الذاتية على نحو يبدو منه انه يتجاهل الفرق بين الادراك الفردي والادراك الجماعي بل بالعكس فعلى هذا الفرق يحاول ان يبني معايير الحقيقة الواقعية ان بركلي يستخرج «الافكار» من تأثير الاله في عقل الانسان ويقترب بالتالي من المثالية الموضوعية ان العالم ليس تصوري بل نتيجة لسبب روحي اعلى يضع «قوانين الطبيعية» وقوانين الفرق بين افكار «اكثر واقعية» وافكار اقل واقعية والخ

ويحاول بركلي في مؤلف آخر له هو «ثلاثة احاديث بين هيلاس وفيلونوس» (عام ١٧١٣) ان يعرض نظراته باسلوب مبسط جداً وفيه يبسط التضاد بين مذهبه والمذهب المادي كما يلي

«اني اؤكد مثلكم» (الماديين) «انه ما دام شيء ما من الخارج

يفعل فعله فينا فانه يتعين علينا ان نقبل بوجود قوى موجودة خارجاً (عنّا) قوى تخص كائناً مختلفا عنّا ولكننا نفترق هنا في مسألة معرفة طبيعة هذا الكائن الجبار اني اؤكد انه الروح وانتم – انه المادة او طبيعة ثالثة لا اعرفها (وبوسعي ان اضيف انكم انتم ايضاً لا تعرفون) (ص ٣٣٥ من الطبعة المذكورة)

ويعلق فريزر «هنا لبّ المسألة كلها فان الظاهرات الحسية تنجم برأي الماديين عن **الجوهر المادي** او عن «طبيعة ثالثة» مجهولة ما وبرأي بركلي الارادة العقلانية وبرأي هيوم والوضعيين ان منشأها مجهول تماماً اما نحن فلا يسعنا الا ان نعممها كوقائع عن طريق الاستقراء حسب العادة»

ان البركلي الانجليزي فريزر يقترب هنا من وجهة نظره المثالية المنسجمة من تلك «الخطوط» الاساسية ذاتها في الفلسفة الموصوفة ببالغ الوضوح عند المادي انجلس فان انجلس يقسم الفلاسفة في مؤلفه «لودفيغ فورباخ» الى «معسكرين كبيرين» معسكر الماديين ومعسكر المثاليين ويرى انجلس الفرق الاساسي بينهما ، – آخذاً بعين الاعتبار نظريات الاتجاهين التي هي اكثر تطوراً واغنى مضموناً بكثير مما اخذه فريزر في اعتباره – في كون الماديين يعتبرون الطبيعة الاصل والروح الفرع وفي كون المثاليين يعتبرون العكس بالعكس وبين هؤلاء واولئك يضع انجلس انصار هيوم وكانط لانهم ينكرون امكانية معرفة العالم او على الاقل امكانية معرفته معرفة تامة وسماهم **اللاعرفانيين** * (٤) ويطبق انجلس في مؤلفه «لودفيغ فورباخ» هذا التعبير الاخير على انصار

---

* اللاعرفاني – من انصار اللاعرفانية ، (agnosticisme) اللاادرية او الانكارية . **المعرب** .

هيوم فقط (اي على اولئك الذين يسميهم فريزر ويطيب لهم ان يسموا انفسهم «بالوضعيين») ولكن انجلس يتحدث صراحة في مقالة «المادية التاريخية» عن وجهـــة نظر «**اللاعرفاني الكانطي الجديد**» (٥) معتبراً الكانطية الجديدة (٦) ضرباً من اللاعرفانية *

ونحن لا يسعنا ان نتوقف هنـــا عند محاكمة انجلس هذه الرائعة الصحة والعمق (هذه المحاكمة التي يتجاهلها الماخيون بلا حياء) فسوف نتحدث عن هذا بالتفصيل فيما بعد وحتى ذاك سنكتفي بالاشارة الى هذه التعابير الماركسية والى هذا التطابق بين التطرفين التطابق بين نظرة المادي المنسجم ونظرة المثالي المنسجم الى الاتجاهات الفلسفيـــة الاساسيـــة ولتبيان هذه الاتجاهات (التي سنواجهها على الدوام فيما يلي من العرض) نشير بايجاز الى نظرات كبار فلاسفة القرن الثامن عشر ممن ساروا في سبيل غير سبيل بركلي

اليكم محاكمات هيوم في الفصل (الثاني عشر) عن الفلسفة الريبية ** من مؤلفه «دراسات في المعرفة البشرية» «يمكننا ان نعتبر من الجلي ان الناس يميلون بحكم الغريزة الطبيعية او بحكم الاستعداد الى تصديق احساساتهم واننا بدون اي تفكير او حتى قبل ان نلجأ الى التفكير نفترض دائماً العالم الخارجي (external universe) الذي لا يتوقف على ادراكنا والذي سيظل موجوداً حتى

---

* (٧) Fr. Engels. «Über historischen Materialismus», «Neue Zeit», XI. Jg., Bd. I. (1892–1893), Nr. 1, S. 18 (فريدريك انجلس «المادية التاريخية» «الازمنة الحديثة» السنة الحادية عشرة المجلد الاول (١٨٩٢–١٨٩٣) ، العدد الاول ، ص ١٨ **الناشر**) الترجمة من الانجليزية قام بها انجلس نفسه الترجمة الروسية في مجموعة «المادية التاريخية» (سانت بطرسبورغ ، عام ١٩٠٨ ، ص ١٦٧) غير دقيقة

** الريبية – scepticisme او مذهب الشك . **المعرب** .

وان زلنا نحن وجميع الكائنات الاخرى القادرة على الاحساس او قضي علينا وحتى الحيوانات تسترشد برأي مماثل وتحتفظ بهذا الايمان في المواضيع الخارجية في جميع افكارها وخططها واعمالها ولكن هذا الرأي العام والاولي عند جميع الناس سرعان ما تحطمه أتفه (slightest) فلسفة تعلمنا انه لا يمكن ان يكون يوماً في منال عقلنا اي شيء غير الصورة او الاحساس وان الحواس ليست غير قنوات (inlets) ترسل فيها هذه الصور دون ان تكون قادرة على اقامة اية علاقة مباشرة (intercourse) بين العقل والموضوع فان الطاولة التي نراها تبدو اصغر اذا ابتعدنا عنها ولكن الطاولة الحقيقية الموجودة بصورة مستقلة عنّا لا تتغير ومن هنا ينجم انه لم يظهر شيء امام عقلنا غير صورة الطاولة (image) وتلك هي اشارات العقل الجلية وان اي امرىء يفكر لم يشك يوماً في ان الموجودات (existences) التي نحكي عنها «هذه الطاولة» «هذه الشجرة» ليست غير مدركات عقلنا باي حجة يمكن تقديم البرهان على ان المدركات في عقلنا يجب ان تسببها موجودات خارجية تختلف تماماً عن هذه المدركات حتى وان كانت متشابهة معها (اذا كان هذا ممكناً) ولا تنبع اما من طاقة العقل نفسه وإمّا من فعل روح ما غير منظورة وغير معروفة وإمّا من سبب ما آخر نحن اقل معرفة به ؟ باي نحو يمكن حل هذه المسألة ؟ طبعاً بواسطة التجربة شأنها شأن جميع المسائل الاخرى من هذا النوع ولكن التجربة تلزم الصمت في هذه النقطة ولا يسعها ان لا تلزم الصمت ان العقل لا يجد ابداً امامه اية اشياء ما عدا المدركات الحسية وليس بمقدوره في اي حال من الاحوال ان يقوم باية تجربة بشأن العلاقة بين المدركات الحسية والمواضيع . ولهذا لا تقوم فرضية هذه العلاقة على اي اساس

منطقي وان اللجوء الى صدق الكائن الاعلى للبرهنـــة على صدق حواسنا - انما يعني تحاشي المسألة بنحو غير متوقع ابداً وما دمنا نطرح مسألة العالم الخارجي فاننا نفقد جميع الحجج التي كان يمكن بها اثبات وجود هذا الكائن» *

والشيء نفسه يقوله هيوم في مؤلفه «بحث في الطبيعة البشرية» ، القسم الرابع الباب الثاني «في الريبية حيال الحواس» «ان مدركاتنا الحسية هي مواضيعنا الوحيدة» (ص ٢٨١ من الترجمة الفرنسية لرينوفيـــه وبيلون عام ١٨٧٨) ان هيوم يسمي بالريبية الامتناع عن تفسير الاحساسات بتأثير الاشياء والروح وما الى ذلك الامتناع عن حصر المدركات الحسية في العالم الخارجي من جهة ، وفي الاله او في الروح المجهولة من جهة اخرى وان كاتب المقدمة للترجمة الفرنسيـــة لمؤلف هيوم بيلون (F. Pillon) وهو فيلسوف ذو اتجاه متقارب مع اتجاه ماخ (كما سنرى فيمـا بعد) يقول عـــن حق وصواب ان الذات والموضوع ينحصران بالنسبة لهيوم في «مجموعتين من مختلف المدركات الحسية» في «عناصر من الادراك وانطباعات وافكار والخ .» وان الكلام يجب ان يتناول فقط «تكتيل وتركيب هذه العناصر» ** ثم ان الانجليزى هكسلي نصير هيوم وصاحب التعبير الدقيق والصائـــب

* David Hume. «An Enquiry concerning Human Understanding», Essays and Treatises, vol. II, Lond., 1822, pp. 150–153 (دافيـــد هيوم «تحقيق في المعرفة البشرية» ، بحوث ودراسات المجلد الثاني لندن عام ١٨٢٢ ص ١٥٠-١٥٣ **الناشر**)

** Psychologie de Hume. Traité de la nature humaine etc. Trad. par Ch. Renouvier et F. Pillon, Paris, 1878. Introduction, p. X (علم النفس عند هيوم بحث في الطبيعة البشرية ، الخ ترجمة ش رينوفيه وف . بيلون ، باريس ، عام ١٩٧٨ . المقدمة ، ص X . **الناشر**) .

«اللاعرفانية» يؤكد في كتابه عن هيوم ان هذا الاخير الذي اعتبر ان «الاحساسات» هي «حالات الادراك الاولية غير القابلة للتحليل والفصم» ليس منسجماً تماماً في مسألة ما اذا كان يجب تفسير منشأ الاحساسات بتأثير المواضيع في الانسان او بقوة العقل الخلاقة «انه (اى هيوم) يعتبر الواقعية والمثالية فرضيتين محتملتين بالقدر نفسه» * ولا يمضي هيوم الى ابعد من الاحساسات «ان اللونين الاحمر والازرق ورائحة الورد انما هي انطباعات بسيطة ان الوردة الحمراء تعطينا انطباعاً معقداً (complex impression) يمكن تحليله الى انطباعات بسيطة للون الاحمر ورائحة الوردة وغير ذلك» (ص ٦٤-٦٥ المرجع نفسه) ويجيز هيوم «الموقف المادي» و«الموقف المثالي» على السواء (ص ٨٢) ان «مجموعة الانطباعات» يمكن ان تنجم عن «انا» فيخته ويمكن ان تكون «صورة او على الاقل رمزاً» لشيء ما حقيقي واقعي (real something) هكذا يفسر هكسلي هيوم

اما فيما يتعلق بالماديين فاليكم رأي زعيم الموسوعيين (٨) ديدرو في بركلي «يسمون **بالمثاليين** الفلاسفة الذين يقرون بان وجودهم ووجود الاحساسات التي تتعاقب في داخلنا هما وحدهما معروفان ولا يقرون بأي امر آخر وهذا نظام متهور لا يمكن بنظري ان يبنيه غير العميان وهذا النظام لما فيه عار العقل البشرى لما فيه عار الفلسفة هو الاصعب على الدحض بين الانظمة رغم انه اسخفها جميعاً» ** وان ديدرو

* Th. Huxley. «Hume», Lond., 1879, p. 74 (ت. هكسلي «هيوم» ، لندن ، عام ١٨٧٩ ، ص ٧٤ **الناشر**)

** Œuvres complètes de Diderot, éd. par J. Assézat, Paris, 1875, vol. I, p. 304. (ديدرو المؤلفات الكاملة اصدار ج اسيزا ؛ باريس ، عام ١٨٧٥ . المجلد الاول ، ص ٣٠٤ . **الناشر**) .

الذي اقترب عن كثب من نظرة المادية المعاصرة (القائلة ان الحجج والقياسات المنطقية لا تكفي لدحض المثالية وان المسألة هنا لا تكمن في الحجج النظرية) يلاحظ التشابه بين مقدمات المثالي بركلي والحسي* كونديلياك وهو يرى انه كان ينبغي على كونديلياك ان ينصرف الى دحض بركلي لكي يتجنب الاستنتاجات السخيفة من اعتبار الاحساسات المصدر الوحيد لمعارفنا

في كتاب «حديث دالامبر وديدرو» يعرض ديدرو نظريته الفلسفية على النحو التالي افترض ان البيانو يملك القدرة على الاحساس والتذكر وقل ألا يعمد في هذه الحال يا ترى ويردد بنفسه تلك الانغام التي عزفتها انت على مفاتيحه ؟ نحن ادوات تملك القدرة على الاحساس والتذكر وحواسنا هي المفاتيح التي تضرب عليها الطبيعة المحيطة بنا والتي تضرب نفسها احياناً كثيرة وهذا برأيي كل ما يجري في البيانو المنظم مثلك ومثلي» ويجيب دالامبر انه ينبغي لهذا البيانو ان يملك القدرة على تحصيل المأكل لنفسه وعلى انجاب بيانوهات صغيرة ويرد ديدرو بلا ريب ولكن خذ بيضة «هذا ما يطيح ارضاً بجميع تعاليم اللاهوت وجميع المعابد في الارض ما هي البيضة ؟ كتلة لا تحس طالما لم يدخل فيها الجنين وعندما يدخل فيها الجنين فما هي ؟ كتلة لا تحس لأن هذا الجنين ليس بدوره غير سائل خامل وخشن فكيف تنتقل هذه الكتلة الى تنظيم جديد الى القدرة على الاحساس الى الحياة ؟ بواسطة الحرارة وما الذي ينتج الحرارة ؟ الحركة» ان الحيوان الذي يفقس من البيضة يملك

---

* الحسي — sensualiste ، نصير المذهب الحسي sensualisme
المعرب .

جميع انفعالاتك ويقوم بجميع اعمالك «فهل تزعم مع ديكارت ان هذا آلة بسيطـــة للتقليد؟ ولكن الاولاد الصغار سيضحكون عليك وسيرد عليك الفلاسفة بانه اذا كان هذا آلة فانـت ايضاً آلة واذا اعترفت بان الفرق بين هذه الحيوانات وبينك ينحصر في التنظيم فانك تبرهن عن فكر سليم وتبصر وستكون على حق ولكنه سينجم من هنا استنتاج ضدك وهو ان من المادة الجامدة والمنظمة بطريقة معينة ستنجم بتأثير مادة خاملة اخرى ثم بتاثير الحرارة والحركة القدرة على الاحساس والحياة والتذكر والوعي و الانفعال والتفكير» ويستطرد ديدرو قائلاً واحد من امرين اما الاقرار بوجود «عنصر خفي» ما في البيضـــة يتسرب اليها بطريقة مجهولة في لحظة معينة من التطور ، – عنصر غير معروف ما اذا كان يشغل مكاناً او اذا كان مادياً او مخلوقـاً قصداً وعمداً وهذا يناقض الفكر السليم ويؤدي الى التناقضات والى المحال واما يبقى ان نقوم «بافتراض بسيط يفسر كل شيء وهو ان القدرة على الاحساس هي خاصة عامة للمادة او نتاج تنظيمها» ورداً على اعتراض دالامبر بان هذا الافتراض يجيز صفة تتنافى مع المادة من حيث الجوهر قال ديدرو

«ومن اين تعرف ان القدرة على الاحساس تتنافى مع المادة من حيث الجوهر ما دمت لا تعرف جوهر الاشياء على العموم ولا جوهر المادة ولا جوهر الاحساس ؟ وهل تفهم يا ترى على نحو افضل طبيعة الحركة ووجودها في جسم ما وانتقالها من جسم الى آخر ؟» دالامبر «دون ان اعرف طبيعة الاحساس ولا طبيعة المادة ارى ان القدرة على الاحساس هي صفة بسيطة واحدة لا تنقسم وتتنافى مع الذات او مـــع الاساس (suppôt) القابـــل للتقسيم» . ديدرو : «هراء ميتافيزيائي – لاهوتي . كيف ؟ ألا ترى

حقاً ان جميع صفات المادة جميع اشكالهـــا التي هي في منال احساسنا لا تنقسم من حيث جوهرها ؟ لا يمكن ان تكون ثمـــة درجة اكبر او اصغر من اللاختراقية يمكن ان يكون ثمة نصف جســـم مستديــــر ولكنـــــه لا يمكن ان يكون ثمـــة نصف استدارة «كن فيزيائياً ووافق على الاعتراف بالطابــــع الاشتقاقي للعاقبة المعنية حين ترى كيف تنجم رغم انك لا تستطيع ان تفسر علاقة السبب بالمسبــــب كن منطقيـــا ولا تستعض عن السبب الموجود والذي يفسر كل شيء بسبب ما آخر لا يمكن فهمه والذي يخلق عدداً لا يحصى من المصاعب دون ان يحل اياً منها» دالامبر «وما عسى ان يحدث اذا ما انطلقت من هذا السبب ؟» ديدرو «لا يوجد في الكون كله غير جوهر واحد سواء في الانسان ام في الحيوان الارغن اليدوي من الخشـــب الانسان من اللحم السميلي من اللحم الموسيقي من لحم منظم بصورة اخرى ولكن هذا وذاك من اصل واحد ، من تشكيلة واحدة ، ولهما الوظائف ذاتها والهدف ذاته» . دالامبر : «وباي نحو يقوم تطابق الاصوات بين بيانوهيك ؟» ديدرو ان الاداة التي تملك القدرة على الاحساس او الحيوان اقتنع بالتجربة ان صوتاً ما تتبعه عواقب معينة في خارجه ان ادوات حساسة اخرى مثلها او حيوانات اخرى تتقارب او تتباعد تطلب او تعرض تجرح او تلاطف وجميع هذه العواقب تقارن في ذاكرته وفي ذاكرة الحيوانات الاخرى مع اصوات معينة ولاحظ انه لا يوجد في العلاقات بين الناس غير الاصوات والافعال ولتقييم كل قوة نظامي لاحظ ايضـــا انه يواجه نفس الصعوبة المستعصية التي تقدم بها بركلي ضد وجود الاجسام . لقد كانت لحظة جنون عندما تصور فيها البيانو

الحساس انه البيانو الوحيد الموجود في الدنيا وان كل هرمونية الكون تجرى فيه» *

لقد كتب هذا في عام ١٧٦٩ وعنده نختتم توضيحنا التاريخي الصغير وسيتأتي لنا ان نواجه غير مرة «البيانو المجنون» وهرمونية العالم الجارية في داخل الانسان لدن تحليل «الوضعية الحديثة»

وحتى ذاك نكتفي باستنتاج واحد هو ان الماخيين «الحديثين» لم يوردوا ضد الماديين اية حجة واحدة اية حجة على الاطلاق لم ترد عند الاسقف بركلي

ومن باب الطرائف نشير الى ان احد هؤلاء الماخيين وهو فالنتينوف وقد شعر شعوراً غامضاً بزيف موقفه قد حاول ان «يزيل آثار» قرابته مع بركلي وفعل ذلك بصورة مضحكة جداً ففي الصفحة ١٥٠ من كتابه نقرأ حين يتحدثون عن ماخ ويومئون الى بركلي فاننا نسأل عن اي بركلي يجري الحديث ؟ عن بركلي الذي كان يعتبر عادة (يريد فالنتينوف ان يقول الذي يعتبر) سوليبسياً ام عن بركلي الذي يدافع عن الوجود المباشر للاله وعن عناية الاله ؟ وعلى العموم (؟) عن بركلي بصفته اسقفاً يتفلسف ويسحق الالحاد ام عن بركلي بصفته محللاً عميق التفكير ؟ ان ماخ لا يمت فعلا بأي صلة الى بركلي بوصفه سوليبسياً والى الواعظ بالميتافيزياء الدينية» ان فالنتينوف يخبص لانه لا يستطيع ان يفهم بوضوح لماذا تأتى له ان يدافع عن «المحلل العميق التفكير» المثالي بركلي دون المادي ديدرو ان ديدرو قد قارن بجلاء بين الاتجاهات الفلسفية

---

* المرجع نفسه . المجلد ٢ ، ص ١١٤–١١٨ .

الاساسية اما فالنتينوف فانه يخلط بينها ثم يعزينا بصورة مضحكة فقد كتب يقول «نحن لا نعتبر «قرابة» ماخ من آراء بركلي المثالية جريمة فلسفية هذا اذا ما كانت هذه «القرابة» موجودة بالفعل» (١٤٩) الخلط بين اتجاهين اساسيين في الفلسفة يستحيل التوفيق بينهما اي «جريمة» في هذا ؟ والواقع ان كل حكمة ماخ وافيناريوس تنحصر في هذا والى تحليل هذه الحكمة ننتقل الآن

الفصل الاول

نظرية المعرفة في المذهب النقدي التجريبي وفي المادية الدياليكتيكية . — ١

١ ـ الاحساسات ومركبات الاحساسات

لقد عرض ماخ وافيناريوس بصراحة وبساطة ووضوح المقدمات الاساسية لنظرية المعرفة الخاصة بهما في مؤلفاتهما الفلسفية الاولى والى هذه المؤلفات بالذات نعود مرجئين الى العرض اللاحق تحليل ما قام به هذان الكاتبان من تعديل وتنقيح وشطب

فقد كتب ماخ في عام ١٨٧٢ يقول «يمكن ان تنحصر مهمة العلم فيما يلي ١ – بحث قوانين الصلة بين التصورات (البسيكولوجيا) * ٢ – اكتشاف قوانين الصلة بين الاحساسات (الفيزياء) ٣ – تفسير قوانين الصلة بين الاحساسات والتصورات (البسيكوفيزياء) **» *** وهذا واضح تماماً

---

* البسيكولوجيا او السيكولوجيا او علم النفس – Psychologie **المعرب**

** علم النفس الفيزيائي – Psychophysique . **المعرب**

*** E. Mach. «Die Geschichte und die Wurzel des Satzes von der Erhaltung der Arbeit». Vortrag gehalten in der K. Böhm. Gesellschaft der Wissenschaften am 15. Nov. 1871, Prag, 1872, S. 57–58 (ارنست ماخ «مبدأ بقاء العمل ، تاريخه واصله» تقرير القي في الجمعية العلمية الملكية في بوهيميا في ١٥ تشرين الثاني – نوفمبر ١٨٧١ ، براغ ، ١٨٧٢ ، ص ٥٧–٥٨ . **الناشر**) .

اذن موضوع الفيزياء هو الصلة بين الاحساسات وليس بين الاشياء او الاجسام التي احساساتنا صورة عنها وفي عام ١٨٨٣ يكرر ماخ الفكرة نفسها في مؤلفه «الميكانيك» «الاحساسات ـ ليست «رموز الاشياء» فان «الشيء» هو بالاحرى رمـــز فكري لأجل مركب الاحساسات الذي يتصف باستقرار نسبي وليست الاشيـــاء (الاجسام) بـــل الالوان والاصوات والضغوط والمكان والزمان (اي ما نسميه عادة بالاحساسات) هي **عناصر** العالم الحقيقية» *

وسنتحدث ادناه عن هذه الكليمة «عناصر» التي جاءت ثمرة «تأملات» دامت اثني عشر عاماً اما الآن فيتعين علينا ان نلاحظ ان ماخ يعترف هنا صراحـــة بان الاشياء او الاجسام هي مركبات احساسات وانه يعارض بكل وضوح بوجهة نظرة الفلسفية النظرية المضادة القائلة ان الاحساسات هي «رموز» الاشياء (ومن الادق القول صور او انعكاسات الاشياء) ان هذه النظرية الاخيرة هي **المادية الفلسفية** مثلاً المادي فريدريـــك انجلس المعاون المعروف لماركس ومؤسس الماركسية يتحدث على الدوام وبلا استثناء في مؤلفاته عن الاشياء وعن صورها الذهنية او انعكاساتها (Gedanken-Abbilder) زد على ذلك انه غني عن البيان ان هذه الصور الذهنية لا تنبثق الا من الاحساسات. قد يخيل انه لا بدّ لهذه النظرة الاساسية في «فلسفة الماركسية» ان تكون معروفة لكل من يتحدث عنها وخاصة نكل من يكتب في الصحف **باسمها** ولكن نظراً للبلبلة الفائقة العادة التي احدثها اصحابنا الماخيون يتعين تكرار

---

* E. Mach. «Die Mechanik in ihrer Entwicklung historisch-kritisch dargestellt», 3. Auflage, Leipz., 1897, S. 473 (ارنســـت مـــاخ «الميكانيك بحث تاريخي نقدي في تطوره»، الطبعة الثانية ليبزيغ، عام ١٨٩٧، ص ٤٧٣).

ما يعرفه الجميع لنفتح الفقرة الاولى من «ضد دوهرينغ» ونقرأ الاشياء وانعكاساتها الذهنية .» * او الفقرة الاولى من القسم الفلسفي «من اين يأخذ التفكير هذه المبادئ ؟» (المقصود هنا المبادئ الاساسية لكل معرفة) «من نفسه بالذات ؟ كلا ان التفكير لا يستطيع ابداً ان يستمد ويستخلص اشكال الوجود من نفسه بالذات بل من العالـــم الخارجي فقط ان المبادئ – ليست نقطة الانطلاق للبحث» (كما يتبين عند دوهرينغ الذي يرغب في ان يكون مادياً ولكن الذي لا يعرف كيف يطبق المادية بانسجام) «بل نتيجته الختامية وهذه المبادئ لا تطبّق عـــلى الطبيعة وعلى التاريخ البشري بل تتجرّد منها وليست الطبيعة ولا البشرية هما اللتان تتطابقان مـــع المبادئ بل بالعكس فان المبادئ لا تكون صحيحة الا بقدر ما تتطابق مع الطبيعة والتاريخ ذلك هو الرأي المادي الوحيد في الموضوع ، في حين ان نظرة دوهرينغ المضادة هي نظرة مثالية تقلب رأساً على عقب العلاقة الفعلية وتبني العالم الفعلي من الافكار (المرجع نفسه ص ٢١) وهذه «النظرة المادية الوحيدة» يطبقها انجلس – ونكرر قولنا – في كـــل مكان وبلا استثناء ملاحقاً دوهرينغ بلا هوادة لأقل انحراف عن المادية صوب المثالية وكل من يطالع «ضد دوهرينغ» و«لودفيغ فورباخ» وان ببعض الانتباه يجد عشرات الامثلة التي يتحدث فيها انجلس عن الاشياء وعن صورها في الدماغ البشري في ادراكنا ، في تفكيرنا وما الى ذلـــك ان انجلس لا يقول ان الاحساسات او التصورات هي «رموز» الاشياء لأنه يتعين على المادية المنسجمة

* Fr. Engels. «Herrn Eugen Dührings Umwälzung der Wissenschaft», 5. Auflage, Stuttg., 1904, S. 6 (فريدريك انجلس «السيد اوجين دوهرينغ يحدث انقلاباً في العلم» . الطبعة الخامسة . شتوتغارت ، عام ١٩٠٤ ، ص ٦ . **الناشر**) .

ان تضع هنا «الصور» او اللوحات او الانعكاسات محل «الرمز» ، كما سنبين ذلك بالتفصيل في حينه ومكانه ولكن المقصود الآن عندنا لا يتعلق البتة بهذه الصياغة او تلك للمادية بل بتضاد المادية للمثالية بالفرق بين **الخطين** الاساسيين في الفلسفة أمن الاشياء نمضي الي الاحساس والفكر ؟ ام من الفكر والاحساس الى الاشياء ؟ ان انجلس يتمسك بالخط الاول اي بالخط المادي اما ماخ فانه يتمسك بالخط الثاني اي بالخط المثالي ان المراوغات والسفسطات (التي سوف نجد كثرة كثيرة منها) اياً كانت لن تقضي على هذا الواقع الجلي الذي لا مراء فيه وهو ان تعليم ارنست ما خ القائل ان الاشياء هي مركبات احساسات هو مثالية ذاتية هو مجرد اجترار للبركلية فاذا كانت الاجسام «مركبات احساسات» كما يقول ماخ او «تركيبات احساسات» كما قال بركلي فانه ينجم حتماً من هذا ان العالم كله هو تصوري فقط وانطلاقاً من هذه المقدمة لا يمكن التوصل الى وجود اناس آخرين غيري انا بالذات وهذا هو السوليبسيسم الصرف ومهما تنكر ماخ وافيناريوس وبتسولدت وشركاهم لهذا المذهب ، فانهم لا يستطيعون التخلص بالفعل منه بدون سخافات منطقية صارخة لتوضيح هذا العنصر الاساسي في فلسفة الماخية بمزيد من الجلاء لنورد بعض المقتبسات الاضافية من مؤلفات ماخ اليكم نموذجاً من «تحليل الاحساسات» (الترجمة الروسية لكوتليار دار سكيرمونت للطبع والنشر موسكو عام ١٩٠٧)

«امامنا جسم علامة نصله S . حين نلمس النصل ، حين نجعله في تماس مع جسمنا فاننا نحس وخزة بوسعنا ان نرى النصل ، دون ان نشعر بالوخزة ولكننا حين نشعر بالوخزة ، فاننا نجد النصل وعليه يكون النصل المنظور نواة دائمة ، بينما تكون الوخزة شيئاً ما من باب الصدفة قد يكون او لا يكون ، نظراً

للظروف على صلة بالنواة ومع تكاثر الظاهرات المماثلـــة يتعودون اخيراً اعتبار خواص الاجسام «افعالاً» تنطلق من مثل هذه النوى الدائمة ومحققة في **انانا** بواسطـة جسمنا – «افعالاً» نسميها «**احساسات**» (ص ٢٠)

وبتعبير آخر «يتعود» الناس تبني وجهة نظر المادية ، واعتبار الاحساسات نتيجة لفعل الاجسام والاشياء والطبيعـــة في اعضاء حواسنا وهذه «العادة» الضارة بالنسبة للمثاليين الفلاسفة (والتي استوعبتها البشرية جمعاء والعلوم الطبيعية جمعاء !) لا تعجب ماخ على الاطلاق فيشرع في تحطيمها

ولكن هذه النوى تفقد بذلك كل مضمونها الحسي وتغدو رموزاً مجردة عارية

هذه اغنية قديمة ايها السيد البروفسور الجزيل الاحترام هذا تكرار حرفي لبركلي الذي قال ان المادة رمز مجرد عار ولكن (ارنست ماخ يمشي بالفعل عارياً ، لأنه اذا كان لا يعترف بان الحقيقة الواقعية الموضوعية ، الموجودة بصورة مستقلة عنّا ، هي «المضمون الحسي» فلا يبقى عنده غير **الأنا** «المجرد العاري» **الأنا** المطبوع حتماً بحرف اسود كبير-«البيانو المجنون الذي يتصور انه البيانو الوحيد الموجود في الدنيا» واذا لم يكن العالم الخارجي «المضمون الحسي» لاحساساتنا فان هذا يعني انه لا يوجد شيء غير هذا **الأنا** العاري الذي يقوم ببهلوانيات «فلسفية» باطلة ويا للعمل الغبي والعقيم

ومن الصحيح آنذاك ان العالـــم لا يتألف الا مـــن احساساتنا ولكننا لا نعرف آنذاك **غير** احساساتنا ، فيغدو التسليم بتلك النوى وبالتفاعل بينها الذي تشكل الاحساسات وحدها ثمرته نافلاً وباطلاً تماماً وهذه النظرة لا يمكن ان تكون صالحة الا بالنسبة للواقعية **النصفية** او بالنسبة للانتقادية **النصفية**» .

لقد استنسخنا كليا كامل الفقرة السادسة من «الملاحظات المناهضة للميتافيزياء» لماخ هذا انتحال تام من بركلي فلا اي رأي ولا اي بصيص من فكر ، عدا «اننا نحس باحساساتنا فقط» ومن هنا استنتاج واحد فقط هو ان «العالم يتألف من احساساتي انا فقط» ان ضمير المتصل «نا» الذي وضعه ماخ محل ياء المتكلم انما وضعه عن غير حق وصواب وبهذه الكلمة وحدها يكشف ماخ تلك «النصفية» التي يتهم بها الآخرين فاذا كان «التسليم» بالعالم الخارجي «باطلاً» ، اذا كان التسليم بان الابرة موجودة بصورة مستقلة عني وبانه يجري تفاعل بين جسمي ونصل الابرة واذا كان كل هذا التسليم «باطلاً نافلاً» بالفعل فان «التسليم» بوجود الناس الآخرين هو في المقام الاول باطل ونافل انا وحدي فقط موجود اما جميع الناس الآخرين فانهم ، مثل العالم الخارجي كله يسقطون في فئة «النوى» الباطلة ومن وجهة النظر هذه لا يمكن التحدث عن احساسات «نا» ولكن ما دام ماخ يتحدث عنها فان هذا يعني نصفيته الصارخة فقط ان هذا يثبت فقط ان فلسفته كلام باطل وفارغ لا يؤمن به صاحبه نفسه

اليكم مثالاً جلياً بخاصة على النصفية والبلبلة عند ماخ ففي الفقرة السادسة من الفصل الحادي عشر من المؤلف ذاته «تحليل الاحساسات» نقرأ «لو كان بوسعي انا او بوسع شخص ما آخر ان يراقب دماغي بواسطة شتى الوسائل الفيزيائية والكيميائية في الوقت الذي احس فيه بشيء ما لكان من الممكن ان نعرف باية عمليات جارية في الجسم ترتبط احساسات من نوع معين (١٩٧)

جيد جداً هل هذا يعني ان احساساتنا ترتبط بعمليات معينة تجري في الجسم على العموم وفي دماغنا على الخصوص ؟ اجل ان ماخ يقوم بهذا «التسليم» بكل وضوح – ولو لم يقم به لكان ذلك افراطاً

في الحكمة من وجهة نظر العلوم الطبيعية ولكن عفواً – ان هذا هو «التسليم» نفسه بنفس تلك «النوى والتفاعل بينها» الذي اعلنه فيلسوفنا نافلاً وباطلاً الاجسام – كما يقولون لنا ، – هي مركبات احساسات والسير الى ابعد من هذا ، – كما يؤكد لنا ماخ ، – اي اعتبار الاحساسات نتاجاً لفعل الاجسام في اعضاء حواسنا هو ميتافيزياء ، هو تسليم باطل نافل ، والخ كما عند بركلي ولكن الدماغ هو جسم وهذا يعني ان الدماغ هو ايضاً مركب احساسات لا اكثر ومن هنا ينجم اني انا بمساعدة مركب احساسات (والحال ان **انا** هو ايضاً ليس غير مركب احساسات) احس بمركبات احساسات فما اروع هذه الفلسفة في البدء تعلن ان الاحساسات هي «عناصر العالم الحقيقية» وتبني على هذا بركلية «اصيلة» ،ثم تدس خفية نظرات معاكسة مفادها ان الاحساسات ترتبط بعمليات معينة في الجسم ألا ترتبط هذه «العمليات» بعملية الايض بين «الجسم» والعالم الخارجي ؟ وهل من الممكن ان تجري عملية الايض هذه اذا كانت احساسات الجسم المعني لا تعطيه صورة صحيحة موضوعياً عن هذا العالم الخارجي ؟

ان ماخ لا يطرح على نفسه مثل هذه المسائل المزعجة بل يقارن بصورة آلية بين مقتطفات من البركلية وبين نظرات العلوم الطبيعية التي تتبنى بصورة عفوية وجهة نظر النظرية المادية عن المعرفة ويكتب ماخ في الفقرة نفسها «احياناً يطرحون كذلك على انفسهم السؤال التالي ألا تحس «المادة» (غير العضوية) هي ايضاً» فهل هذا يعني ان مسألة ما اذا كانت المادة **العضوية** تحس غير واردة ؟ فهل هذا يعني ان الاحساسات ليست شيئاً اولياً بل احدى خواص المادة ؟ ان ماخ يقفز من فوق جميع سخافات البركلية وهو يقول «هذه المسألة طبيعية تماماً اذا انطلقنا من التصورات الفيزيائية العادية ، الواسعة الانتشار

التي تكون المادة بموجبها ذلك **الواقعي المباشر** والمعطى بلا ريب الذي يقوم عليه كل شيء سواء أكان عضوياً ام غير عضوي» لنتذكر جيداً هذا الاعتراف القيّم حقاً من جانب ماخ ومفاده ان التصورات **الفيزيائية** العادية والواسعة الانتشار تعتبر المادة حقيقة واقعية مباشرة علماً بان ضرباً واحداً فقط من هذه الحقيقة الواقعية (المادة العضوية) يملك خاصة جلية للعيان هي خاصة الاحساس ويواصل ماخ قائلاً «ففي هذا الحال يجب ان ينبثق الاحساس فجأة في الصرح المبني من المادة او يجب ان يوجد اذا جاز القول في قاعدة هذا الصرح ذاتها ان هذه المسألة هي من وجهة نظر**نا**، خاطئة اصلاً. فالمادة بنظرنا ليست المعطى الاولي ان **العناصر** بالاحرى (التي تسمى بمعنى معين معروف بالاحساسات) هي هذا المعطى الاولي»

اذن الاحساسات هي المعطى الاولي رغم انها «ترتبط» فقط بعمليات معينة في المادة العضوية وكأنّ ماخ اذ يطلق هذه السخافة يلقي على المادية («التصور الفيزيائي العادي الواسع الانتشار») جريرة عدم حل مسألة معرفة «مصدر» الاحساس وهذا نموذج «لدحض» المادية من قبل الايمانيين واذنابهم هل «تحل» وجهة نظر فلسفية ما اخرى يا ترى مسألة لم يتوفر بعد لأجل حلها ما يكفي من المعطيات ؟ اولم يقل ماخ نفسه يا ترى في الفقرة ذاتها «طالما ان هذه المسألة («الى اي حد تنتشر الاحساسات في العالم العضوي») لم تحلّ في اية حالة خاصة فانه من المستحيل حل هذه المسألة» ؟

وهذا يعني ان الفرق بين المادية و«الماخية» ينحصر بخصوص المسألة المعنية فيما يلي وفقاً تماماً للعلوم الطبيعية تحسب المادية المادة المعطى الاولي وتعتبر الوعي التفكير الاحساس المعطى الثانوي ، لأن الاحساس بشكله البيّن لا يرتبط

الا بالاشكال العليا للمادة (المادة العضوية) ؛ ولا يمكن الا ان نفترض «في قاعدة صرح المادة ذاتها» وجود قدرة مشابهة للاحساس وتلك هي ، مثلاً ، فرضية عالم الطبيعيات الالماني المعروف ارنست هيكّل والبيولوجي الانجليزي لويد مورغان وغيرهما ناهيك عن حدس ديدرو الذي اوردناه اعلاه اما الماخية فانها تتبنى وجهة النظر المضادة المثالية ، وتؤدي في الحال الى سخافة اولاً لأنها تعتبر ان الاحساس هو الاولي رغم انه لا يرتبط الا بعمليات معينة في المادة المنظمة بصورة معينة ؛ وثانياً لأن المقدمة الاساسية القائلة ان الاجسام هي مركبات احساسات تخالفها فرضية وجود كائنات حية اخرى ووجود «مركبات» اخرى على العموم عدا **الانا** العظيم المعني

ان كليمة «عنصر» التي يحسبها كثيرون من السذج (كما سنرى) مستحدثاً ما واكتشافاً ما لا تفعل في الواقع غير ان تشوش المسألة بتعبير لا يعني شيئاً ، وتخلق مظهراً خادعاً بحل ما او بخطوة الى الامام وهذا المظهر خادع لأنه لا يزال يتعين بالفعل ان نبحث ونبحث لنعرف باي نحو ترتبط مادة يقال انها لا تحس البتة بمادة مشكلة من الذرات (او الالكترونات) نفسها ومالكة في الوقت نفسه لقدرة بينة على الاحساس ان المادية تطرح بوضوح مسألة لا تزال معلقة ، وبذلك تدفع الى حلها تدفع الى اجراء بحوث اختبارية لاحقة اما الماخية ، اي هذا الضرب من المثالية المشوشة ، فانها تحجب كنه المسألة وتصرف جانباً عن الطريق الصحيح بواسطة شعوذة كلامية فارغة «عنصر»

اليكم مقطعاً في مؤلف ماخ الفلسفي الاخير والملخّص والختامي يبين كل زيف هذه الشعوذة المثالية ففي هذا المؤلف «المعرفة والضلال» نقرأ «بينما لا توجد اية صعوبة لبناء (aufzubauen) **اي** عنصر **فيزيائي كان** من الاحساسات اي من العناصر **النفسية** ، —

يستحيل على المرء حتى ان يتخيل (ist keine Möglichkeit abzusehen) كيف يمكن تصور (darstellen) اية معاناة **نفسية** من العناصر التي تستعملها الفيزياء المعاصرة اي من الكتل والحركات (في تحجر (Starrheit) هذه العناصر المناسب فقط لهذا العلم المختص)» *

ان انجلس يتحدث مراراً باكمل ما يكون من الوضوح عن تحجر المفاهيم عند العديدين من علماء الطبيعيات المعاصرين ، وعن نظراتهم الميتافيزيائية (بالمعنى الماركسي للكلمة اي المنافية للديالكتيك) وسنرى ادناه ان ماخ قد التبس عليه في هذه النقطة بالذات اذ انه لم يفهم او لم يعرف الفرق بين النسبية والديالكتيك ولكن ليس هذا هو المقصود الآن فمن المهم لنا ان نلاحظ هنا باي جلاء تتبدى **مثالية** ماخ رغم التعابير المشوشة الجديدة حسبما يزعم فلا صعوبة لو ترون لانشاء اي عنصر فيزيائي كان من الاحساسات اي من العناصر النفسية آه ان مثل هذه الانشاءات ليست صعبة بالطبع لأنها انشاءات كلامية خالصة ومدرسية * * فارغة يقصد منها دس الايمانية فلا غرابة بعد هذا اذا كان ماخ يكرس مؤلفاته للكمونيين * * * واذا كان الكمونيون اي ممثلو المثالية الفلسفية الاشد اغراقاً في الرجعية يعانقون ماخ ولكن ارنست ماخ تأخر نحو مائتي سنة «بمذهبه الوضعي الحديث» فقد سبق وبيّن بركلي بصورة كافية انه لا يمكن «انشاء» شيء «من الاحساسات اي من العناصر النفسية»

---

* E. Mach. «Erkenntnis und Irrtum», 2. Auflage, 1906, S. 12, Anmerkung (ارنست ماخ «المعرفة والضلال» الطبعة الثانية عام ١٩٠٦ ، ص ١٢ الملاحظة **الناشر**)

* * مدرسية scolastique سكولاستية **المعرب**

* * * الكموني ـ نصير مبدأ الكمون immanence الكمونية ـ مذهب من ياخذون بمبدأ الكمون ـ immanentisme . **المعرب** .

غير **السوليبسيسم** اما فيما يخص المادية التي يعارضها ماخ هنا ايضاً بنظراته دون ان يسمي «العدو» بصراحة ووضوح فلقد رأينا من مثال ديدرو نظرات الماديين الحقيقية ان هذه النظرات لا تقوم في استخلاص الاحساس من حركة المادة او في حصره في حركة المادة بل تقوم في كونها تعتبر الاحساس احدى خواص المادة المتحركة وفي هذه المسألة كانت وجهة نظر انجلس مماثلة لوجهة نظر ديدرو وقد وضع انجلس حداً فاصلاً بينه وبين الماديين «المبتذلين» فوغت وبوخنر ومولیشوت لاسباب عدة منها السبب التالي على وجه الضبط وهو انهم تبنوا النظرة الزاعمة ان الدماغ يفرز الفكر **مثلما** يفرز الكبد الصفراء ولكن ماخ الذي يعارض دائماً المادية بنظراته يتجاهل بالطبع جميع الماديين العظام وديدرو وفورباخ وماركس–انجلس شأنه تماماً في ذلك شأن جميع البروفسورات الرسميين في الفلسفة الرسمية

لوصف نظرة افيناريوس الاولية والاساسية لنأخذ مؤلفه الفلسفي المستقل الاول «الفلسفة ، بوصفها تفكيراً في العالم حسب مبدأ الحد الادنى من الجهد» («مقدمات لنقد التجربة الخالصة») الذي صدر في عام ١٨٧٦ يقول بوغدانوف في مؤلفه «الاحادية التجريبية» * (الكتاب الاول الطبعة الثانية عام ١٩٠٥ ص ٩ الملاحظة) ان «المثانية الفلسفية كانت نقطة الانطلاق في تطور نظرات ماخ في حين ان التلوين الواقعي كان السمة المميزة منذ بادئ بدء بالنسبة لافيناريوس» وقد قال بوغدانوف هذا لأنه صدق ماخ على كلامه راجعوا «تحليل الاحساسات» الترجمة الروسية ص ٢٨٨ ولكن عبثاً صدق بوغدانوف ماخ فان تأكيده مناقض كلياً للحقيقة ذلك ان الامر على العكس فان مثالية افيناريوس

---

* الاحادية التجريبية – Empiriomonisme . **المعرب** .

تبرز في المؤلف المذكور الصادر في عام ١٨٧٦ بدرجة من الوضوح بحيث ان افيناريوس نفسه اضطر في عام ١٨٩١ الى الاعتراف بذلك. ففي المقدمة لكتاب «المفهوم البشري عن العالم»، يقول افيناريوس «ان من طالع عملي المنهاجي الاول «الفلسفة والخ يظن في الحال انه يتعين علـيّ ان افسّر مسائل «نقد التجربة الخالصة» من وجهة النظر المثالية قبل كـل شيء» ,«Der menschliche Weltbegriff») 1891, Vorwort, S. IX) * ولكن «عقم المثالية الفلسفيـة» اجبرني على «التشكك في صحة سبيلي السابق» (S. X) ان وجهة نظر افيناريوس الانطلاقية المثالية هذه يعترف بها الجميـع في المطبوعات الفلسفية ومن بين الكتاب الفرنسيين استشهـد بالكاتب كوفيلارت الذي يقول ان وجهة نظر افيناريوس الفلسفية في «المقدمات» هي «مثالية احادية» ** ومن بين الكتاب الالمان اذكر تلميذ افيناريوس رودولف فيللي الذي يقول ان «افيناريوس كان كلياً في شبابه – وخاصة في مؤلفه الصادر عام ١٨٧٦ – مأخوذاً بسحر (ganz im Banne) ما يسمى المثالية النظرية العرفانية» ***

وانه لمن المضحك انكار المثالية في «مقدمات» افيناريوس حين يقول صراحة فيها ان «**الاحساس وحده يمكن اعتباره موجوداً**» (ص ١٠ وص ٦٥ من الطبعة الالمانية الثانيـة حرف التأكيـد لنا في

* «المفهوم البشري عن العالم»، عام ١٨٩١، المقدمة، ص IX. **الناشر**

** F. Van Cauwelaert. «L'empiriocriticisme» في «Revue Néo-Scolastique» (٩) شباط (فبراير) ١٩٠٧، ص ٥١ (ف فان كوفيلارت «المذهب النقدي التجريبي» في «المجلة السكولاستية الجديدة» **الناشر**)

*** Rudolf Willy. «Gegen die Schulweisheit. Eine Kritik der Philosophie», München, 1905, S. 170 (رودولف فيللي «ضد الحكمـة المدرسية. نقد الفلسفة». مونيخ. عام ١٩٠٥، ص ١٧٠. **الناشر**).

الاستشهادات كلها) هكذا يعرض افيناريوس نفسه مضمون الفقرة ١١٦ من مؤلفه اليكم هذه الفقرة بنصها الكامل «لقد اعترفنا بان الموجود (او الكائن ، das Seiende) هو الجوهر الموهوب احساساً الجوهر يسقط .» («اوفر» ، لو ترون ، «اقل من الجهد» في التفكير في انه لا وجود «للجوهر» ولا وجود لاي عالم خارجي !) «. ويبقى الاحساس لهذا يجب اعتبار الكائن احساساً لم يعد في اساسه اي شيء غريب عن الاحساس» (nichts Empfindungsloses).

اذن ، يوجد الاحساس بدون «الجوهر» اي ان الفكر يوجد بدون الدماغ ! فهل يوجد بالفعل ، يا ترى ، فلاسفة قادرون على الدفاع عن هذه الفلسفة بلا دماغ ؟ يوجد وفي عدادهم البروفسور ريخارد افيناريوس ولا بدّ من التوقف قليلاً عند الدفاع عن هذه الفلسفة مهما كان من الصعب على الانسان السليم ان يحمله على محمل الجدّ اليكم محاكمة افيناريوس في الفقرتين ٨٩ – ٩٠ من المؤلف نفسه

ان الموضوعة القائلة ان الحركة تستتبع الاحساس ترتكز على التجربة الظاهرية فقط فان هذه التجربة التي الانطباع عمل منفرد من اعمالها تتلخص ، حسبما يبدو ، في كون الاحساس يولد في نوع معين من الجوهر (الدماغ) من جراء الحركة المنقولة (التهييج) وبمساهمة عوامل مادية اخرى (مثلاً الدم) ولكن – بصرف النظر عن كون هذه الولادة لم تشاهد يوماً مباشرة (selbst) – لأجل اجراء التجربة المفترضة مثل التجربة الفعلية بجميع اجزائها ، من الضروري على الاقل برهان تجريبي على ان الاحساس الناجم كما يزعم في جوهر معين بواسطة الحركة المنقولة لم يكن موجوداً من قبل بنحو او آخر في هذا الجوهر ولذا لا يمكن فهم ظهور الاحساس الا من خلال فعل الخلق من جانب الحركة المنقولة اذن لا يمكن الا بالبرهان على انه حيث يظهر الاحساس الآن لم يكن ثمة من قبل اي احساس وحتى الحد الادنى من الاحساس ، لا يمكن الا بهذا البرهان اثبات الواقع

الذي يعني فعل خلق ما ويناقض بالتالي كل التجربة الباقية ويغير بصورة جذرية كل الفهم الباقي للطبيعـــة (Naturanschauung) ولكن برهاناً كهذا لا تعطيه اية تجربة ولا يمكن ان تعطيه ايــة تجربة بل بالعكس فان حالة الجوهر الخالية اطلاقاً من الاحساس – هذا الجوهر الذي يحس فيما بعد – ليست غير فرضيـــة وهذه الفرضية تعقّد معرفتنا وتبهمها عوضاً عن ان تبسطها وتوضحها

واذا تبين ان ما يسمى بالتجربة – وهو ان الاحساس **ينبثق** بواسطة الحركة المنقولة في الجوهر فيشرع يحسّ مذ ذاك – اذا تبين عند الدراسة عن كثب ان هذه التجربة ظاهرية فحسب ، – فان مضمون التجربة الباقي ينطوي ايضاً اغلب الظن على ما يكفي من المادة لكي نلاحظ وان على الاقل المنشأ النسبي للاحساس من شروط الحركة اي بالضبط لكي نلاحظ ان الاحساس الموجود ولكن الخفي او الادنى او الذي يستحيل على ادراكنا لاسباب ما يتحرر او يتصاعد بقوة الحركة المنقولة او يصبح مدركاً ولكن هذا القسم من مضمون التجربة المتبقي هو ايضاً ظاهري فقط فاذا تتبعنا بفضل المراقبة المثلى الحركة المنطلقـــة من الجوهر المتحرك أ والمنقولة عبر جملة من المراكز المتوسطة والتي تبلغ الجوهر **ب** الموهوب احساساً فاننا نجد في افضل الاحوال ان الاحساس في الجوهر **ب** يتطور او يتصاعد في آن واحد مع استقبال الحركة الواصلـــــة ولكننـــــا لا نجد ان هذا حدث **من جراء** الحركة

لقد نسخنا قصداً وعمداً هذا الدحض للمادية من قبـــل افيناريوس بكليته لكي يستطيـــع القارىء ان يرى الى ايـــة سفسطائيات حقيرة حقاً تلجأ الفلسفة النقدية التجريبية «الحديثة» لنقارن محاكمـــة المثالي افيناريوس بمحاكمـــة بوغدانوف **المادية** ، وان على الاقل لمعاقبته على خيانته للمادية .

في حقبة ولت من زمان بعيد بعيد ، منذ تسع سنوات كاملة عندما كان بوغدانوف الى النصف «مادياً تاريخياً طبيعياً» (اي نصيراً للنظرية المادية عن المعرفة التي تتبناها بصورة عفوية الاغلبية الساحقة من علماء الطبيعيات المعاصرين) عندما ضل بوغدانوف السبيل الى النصف بسبب من المشوش اوستفالد كتب بوغدانوف يقول «منذ غابر الازمنة والى الآن يستمر في البسيكولوجيا الوصفية تقسيم وقائع الوعي الى ثلاث فئات ميدان الاحساسات والتصورات ميدان العواطف ميدان الدوافع الى الفئة الاولى تعود **صور** ظاهرات العالم الخارجي او الداخلي مأخوذة في الوعي بحد ذاتها هذه الصورة تسمّى «احساساً» اذا استثارتها مباشرة بواسطة اعضاء الحواس الخارجية ظاهرة خارجية مناسبة لها» * وبعد ذلك بقليل «الاحساس ينبثق في الوعي كنتيجة لدفعة ما من البيئة الخارجية منقولة بواسطة اعضاء الحواس الخارجية» (٢٢٢) او ايضاً «تشكل الاحساسات اساس حياة الوعي وصلته المباشرة مع العالم الخارجي» (٢٤٠) «لدى كل خطوة يتحقق في سياق الاحساس تحول طاقة التهييج الخارجي الى واقع وعي» (١٣٣) وحتى في عام ١٩٠٥ عندما افلح بوغدانوف بمساعدة اوستفالد وماخ وتعاطفهما في الانتقال من وجهة النظر المادية في الفلسفة الى وجهة النظر المثالية كتب (سهواً !) في «الاحادية التجريبية» يقول : «معلوم ان طاقة التهييج الخارجي المحوّلة في الجهاز الطرفي للعصب الى شكل «تلغرافي» للتيار العصبي لا يزال غير مدروس بصورة كافية ولكنه غريب عن كل تصوّف تبلغ قبل كل شيء الى الخلايا العصبية الواقعة فيما يسمى بالمراكز «الدنيا» — مراكز العقد العصبية مراكز الحبل الشوكي مراكز

* ا بوغدانوف «العناصر الاساسية في النظرة التاريخية الى الطبيعة» . سانت بطرسبورغ . عام ١٨٩٩ ، ص ٢١٦ .

ما تحت قشرة الدماغ» (الكتاب الاول الطبعة الثانية عام ١٩٠٥ ص ١١٨)

ان الاحساس هو بالنسبة لكل عالم طبيعيات لم تضلله الفلسفة الاستاذية ، كما بالنسبة لكل مادي ، هو صلة مباشرة فعلاً للادراك مع العالم الخارجي ، هو تحول طاقة التهييج الخارجي الى واقع ادراك وهذا التحول راقبه كل امرئ ملايين المرات ويراقبه فعلاً لدى كل خطوة وان سفسطائية الفلسفة المثالية تتلخص في كونها تعتبر الاحساس لا صلة الادراك بالعالم الخارجي بل حاجزاً جداراً يفصل الادراك عن العالم الخارجي لا صورة عن الظاهرة الخارجية المناسبة للاحساس بل «الكائن الوحيد» ان افيناريوس لم يفعل غير ان اضفى شكلاً معدلاً قليلاً جداً على هذه السفسطائية القديمة التي سبق وعلكها الاسقف بركلي واليكم ما تؤول اليه سفسطائية افيناريوس بما اننا لا نعرف بعد جميع شروط صلة الاحساس التي نراقبها كل دقيقة بالمادة المنظّمة بصورة معينة ، — فاننا نعتبر ان الاحساس وحده دون غيره هو الموجود

وختاماً لوصف المقدمات المثالية الاساسية للمذهب النقدي التجريبي نشير بايجاز الى ممثلي هذا التيار الفلسفي الانجليز والفرنسيين فبصدد الانجليزي كارل بيرسون يقول ماخ بصراحة انه «يوافق على نظراته العرفانية (erkenntniskritischen) في جميع النقاط الجوهرية» («الميكانيك» ، الطبعة المذكورة ، ص IX) ويعرب كارل بيرسون بدوره عن موافقته مع ماخ * «ان الاشياء الفعلية» هي بنظر بيرسون «انطباعات حسية» (sense impressions) . ويعتبر بيرسون كل اعتراف بالاشياء خارج

* Karl Pearson. «The Grammar of Science», 2nd ed., Lond., 1900, p. 326 (كارل بيرسون «قواعد العلم» ، الطبعة الثانية ، لندن ، عام ١٩٠٠ ، ص ٣٢٦ . **الناشر**) .

حدود الانطباعات الحسية من الميتافيزياء ويحارب بيرسون المادية (دون ان يعرف لا فورباخ ولا ماركس-انجلس) بصورة قاطعة للغاية ، - وحججه لا تختلف عن الحجج المدروسة اعلاه ولكن بيرسون بعيد في هذه الحال عن الرغبة في التلون بلون المادية (وهذا اختصاص الماخيين الروس) وبيرسون غير محترس الى حد انه يعلن دون ان يختلق لفلسفته نعوتاً «جديدة» ان نظراته ونظرات ماخ على السواء «**مثالية**» (ص ٣٢٦ من الطبعة المذكورة) ان بيرسون يعيد نسبه الى بركلي وهيوم رأساً . وفلسفة بيرسون ، كما سنرى مراراً ادناه تتميز بقدر من التكامل والتبصر اكبر بكثير من فلسفة ماخ

ويعرب ماخ خصيصاً عن تضامنه مع الفيزيائيين الفرنسيين دوهيم وهنري بوانكاره * وسيتأتى لنا ان نتناول في الفصل عن الفيزياء الجديدة نظرات هذين الكاتبين الفلسفية غير المنتظمة وغير المنسجمة بخاصة ونكتفي بالاشارة هنا الى ان الاشياء هى بنظر بوانكاره «مجموعات احساسات» ** وان دوهيم يعرب هو ايضاً عرضاً عن نظرة مماثلة ***

لننتقل الآن وندرس كيف اعترف ماخ وافيناريوس بطابع نظراتهما الاولية المثالي وكيف **اصلحاها** في مؤلفاتهما اللاحقة

---

* «تحليل الاحساسات» ص ٤ قارنوا مقدمة «Erkenntnis und Irrtum» ، الطبعة الثانية

** Henri Poincaré. «La Valeur de la Science», Paris, 1905 passim (توجد ترجمة روسية) (هنري بونكاره «قيمة العلم» باريس ، عام ١٩٠٥ ، في عدد من الاماكن **الناشر**)

*** P. Duhem. «La théorie physique, son objet et sa structure», P., 1906 قارنوا pp. 6, 10 (بيار دوهيم «نظرية الفيزياء ، موضوعها وبنيتها» ، باريس ، عام ١٩٠٦ . قارنوا ص ٦ ، ١٠ . **الناشر**) .

٢ - «اكتشاف عناصر العالم»

تحت هذا العنوان يكتب عن ماخ الاستاذ المحاضر في جامعة زوريخ فريدريخ ادلر الكاتب الالماني الوحيد او يكاد الذي يرغب هو ايضاً في ان يكمل ماركس بالماخية * ومن باب العدالة يجب الاقرار لهذا الاستاذ المحاضر الساذج بانه يخدم الماخيـــة ببساطته خدمة الدب ** فان السؤال يطرح على الاقل بوضـــوح وحدة هل «اكتشف» ماخ «عناصر العالم» فعلاً ؟ وبديهي في هذه الحال ان المتأخرين والجهلاء كلياً هم وحدهم الذين يمكنهم ان يبقوا ماديين حتى الآن ام ان هذا الاكتشاف يعني عودة ماخ الى الاخطاء الفلسفية القديمة ؟

لقد رأينا ان ماخ في عام ١٨٧٢ وافيناريوس في عام ١٨٧٦ يتبيان وجهة نظر مثالية محضة فان العالم بالنسبة لهما هـــو احساسنا وفي عام ١٨٨٣ صدر كتاب ماخ «الميكانيك» وفي مقدمة الطبعة الاولى يستشهد ماخ على وجـــه الضبط «بمقدمات» افيناريوس مرحباً بالافكار «الخارقة القرب» (sehr verwandte) من فلسفته اليكم محاكمة عن العناصر في هذا «الميكانيك» «ان جميع العلوم الطبيعية لا يمكنها ان لا تصور (nachbilden und vorbilden) مركبات تلك **العناصر** التي نسميها عادة **بالاحساسات** والمقصود

---

* Friedrich W. Adler. «Die Entdeckung der Weltelemente (Zu E. Machs 70. Geburtstag)», «Der Kampf» (١٠) 1908, N 5 (Februar) «The International Socialist Review» (١١) 1908, N 10 (April). ترجم في (فريدريخ ف ادلر «اكتشاف عناصر العالم (لمناسبـــة بلوغ ارنست ماخ السبعين من العمر)» «النضال» عام ١٩٠٨ العـــدد (شباط - فبراير) ترجم في «المجلة الاشتراكيـــة العالمية» عام ١٩٠٨ ، العدد ١٠ (نيسان - ابريل) **الناشر**) ترجمت مقالة واحدة لادلر هذا الى اللغة الروسية في مجموعة «المادية التاريخية»

** خدمة تعود بالضرر لا بالنفع . **المعرب** .

هنا الصلة بين هذه العناصر ان الصلـــة بين أ (الحرارة) وب (النار) تخص الفيزياء في حين ان الصلة بين أ و ن (**الاعصاب**) تخص الفيزيولوجيا ولكن لا هذه الصلة ولا تلك توجد **بمفردها** بل توجدان كتاهما معاً ولا يسعنا ان نتجرد عن هذه او تلك الا موقتاً وحتى العمليات الميكانيكية المحضة تكون بالتالي دائماً على ما يبدو فيزيولوجية ايضاً» (ص ٤٩٩ من الطبعة الالمانية المذكورة) والشيء نفسه في «تحليل الاحساسات» حيث الى جانب تعبيري «عنصر» «مركب عناصر» او عوضاً عنهمـــا يُستعمل تعبيرا «احساس» ، «مركب احساسات» ، يجب ان لا يغيب ابداً عن البال ان العناصر هي **احساسات في هذه الصلة فقط**» (اي بالضبط صلات ، أ ، ب ، ج مع ك ، ل ، م اي صلات «المركبات التي تسمى عادة بالاجسام» مع «المركب الذي نسميه جسمنا») «في هذه العلاقة في هذه التبعية الوظيفية وهي في الوقت نفسه في تبعية وظيفية اخرى ، — مواضيع فيزيائية» (الترجمة الروسية ص ٢٣ وص ١٧) «ان اللون هو موضوع فيزيائي اذا اخذنا مثلاً بعين الاعتبار تبعيتــه لمصدر النور الذي ينيره (للالوان الاخرى ، والحرارة ، والمكان ، والخ .) .ولكن اذا اخذنا بعين الاعتبار **تبعيته لشبكية العين** (العناصر ك ل م .) فامامنا موضوع **نفساني احساس**» (المرجع نفسه ص ٢٤)

اذن يتلخص اكتشاف عناصر العالم في

١ – ان كل موجود يعلن احساساً

٢ – ان الاحساسات تسمى عناصر

٣ – ان العناصر تنقسم الى فيزيائي ونفسي الاخير هو ما يتوقف على اعصاب الانسان وعموماً على العضوية البشرية ؛ الاول لا يتوقف ،

٤ – ان صلة العناصر الفيزيائية وصلة العناصر النفسيـــة تعلنان غير موجودتين بصورة منفردة احدهما عن الاخرى فهما لا توجدان الا معاً

٥ – انه لا يمكن التجرد عن هذه الصلة او تلك الا موقتاً

٦ – ان النظرية «الجديدة» تعلن خالية من «احادية الجانب» *

لا وجود بالفعل هنا لاحادية الجانب ولكنه يوجد خلط ما بعده خلط بين وجهات نظر فلسفية متضادة فما دمت تنطلق من الاحساسات **فقط** فانك لن تصلح بكلمة «عنصر» «احادية جانب» مثاليتك ولن تفعل غير ان تشوش الامر وتتهرب بجبانة من نظريتـــك بالذات وانت تزيل بالاقوال التضاد بين الفيزيائي والنفسي * * ، بين المادية (التي تعتبر ان الاول ، الاسبق هو الطبيعة ، المادة) والمثالية (التي تعتبر ان الاول الاسبـق هو الروح الوعي الاحساس) ، – اما بالفعل فانك تبعث في الحال من جديد هذا التضاد تبعثه سراً متراجعاً عن مقدمتك الاساسية لأنه اذا كانت العناصر هي الاحساسات فانه لا يحق لك ان تقر ولو لثانيـة واحدة بوجود «العناصر» **بمعزل عن** اعصابي وعيي وما دمت تجيز مواضيع فيزيائية مستقلة عن اعصابي عـــن احساساتي ولا تولد الاحساس الا عن طريق التأثير في شبكية عيني ، فانك تتخلى بخزي وعار عن مثاليتك «الاحادية الجانب» وتنتقل

---

* ماخ في «تحليـــل الاحساســـات» «تسمى العناصر عادة بالاحساسات وبما ان المقصود بهذه التسمية نظرية معينة احادية الجانب ، فاننا نفضل التحدث بايجاز عن العناصر» (٢٧–٢٨)

* * «التضاد بين **الانا** والعالم ، بين الاحساس او الظاهرة والشيء يزول في هذه الحال ، وينحصر كل شي في جمع العناصر» («تحليل الاحساسات» ، ص ٢١) .

الى وجهة نظر المادية «الاحادية الجانب» ! واذا لم يكن اللون احساساً الا تبعاً لشبكية العين (كما تجبرك العلوم الطبيعية على الاعتراف بذلك) ، فان هذا يعني ان اشعة النور بسقوطها على شبكية العين ، تولد الاحساس باللون وهذا يعني انه توجد خارجاً عنا بصورة مستقلة عنا وعن ادراكنا ، حركة للمادة ، مثلاً ، موجات الاثير ذات الطول المعين والسرعة المعينة التي يولد في الانسان بتأثيرها في شبكية العين الاحساس بهذا اللون او ذاك وهكذا بالضبط ترى العلوم الطبيعية فهي تفسر الاحساسات المختلفة بهذا اللون او ذاك باختلاف طول موجات النور الموجودة خارج شبكية عين الانسان خارج الانسان وبصورة مستقلة عنه وهذه هي المادية المادة تولد الاحساس بتأثيرها في اعضاء حواسنا الاحساس رهن بالدماغ والاعصاب وشبكية العين والخ اي بمادة منظمة بشكل معين ان وجود المادة ليس رهناً بالاحساس ان المادة هي الاولي الاحساس الفكر الادراك هو النتاج الاعلى لمادة منظمة بشكل خاص وهذه هي نظرات المادية على العموم وماركس–انجلس على الخصوص ويمرر ماخ وافيناريوس المادية **سراً** بواسطة كلمة «العنصر» التي تخلص نظريتهما **كما يزعمان** من «احادية جانب» المثالية الذاتية وتتيح **كما يزعمان** التسليم بتبعية النفسي لشبكية العين والاعصاب والخ التسليم باستقلال الفيزيائي عن الجسم البشري اما بالفعل فان الخديعة باستعمال كلمة «العنصر» هي بالطبع سفسطائية في منتهى الحقارة لأن المادي اذا ما قرأ ماخ وافيناريوس ، يطرح في الحال السؤال التالي ما هي «العناصر» ؟ ومن الصبيانية بالفعل الظن انه يمكن التهرب باختلاق كلمة جديدة من الاتجاهات الفلسفية الاساسية اما ان «العنصر» هو **احساس** كما يقول جميع انصار المذهب النقدي التجريبي ، وماخ وافيناريوس

وبتسولدت * والخ ، – وآنذاك تكون فلسفتكم ايها السادة **مثالية** تحاول عبثاً ان تستر عري سوليبسيسمها بستار تعابير اكثر «موضوعية» واما ان «العنصر» ليس احساساً ، – وآنذاك لا ترتبط **اية فكرة على الاطلاق** بكلمتكم «الجديدة» وآنذاك يكون هذا مجرد تبختر بترهة

خذوا مثلاً بتسولدت – وهو الكلمة الاخيرة في المذهب النقدي التجريبي كما يصفه الناقد التجريبي الروسي الاول والاكبر ف ليسيفيتش ** فبعد ان يعرف بتسولدت العناصر بانها احساسات يعلن في المجلد الثاني من المؤلف المذكور «يجب الاحتراز من ان يفهم في الموضوعة القائلة «الاحساسات هي عناصر العالم» ان كلمة «احساس» تعني شيئاً ذاتياً فقط وانها لهذا السبب هوائية وتحول لوحة العالم العادية الى وهم (verflüchtigendes) * * *

لكل امرئ مسلة تحت ابطه تنخزه ان بتسولدت يشعر بان العالم «يتبخر» (verflüchtigt sich) او يتحول الى وهم اذا اعتبرنا الاحساسات عناصر العالم ويرغب بتسولدت الطيب في مساعدة

---

* Joseph Petzoldt. «Einführung in die Philosophie der reinen Erfahrung», Bd. I, Leipz., 1900, S. 113 (يوسف بتسولدت «مقدمة الى فلسفة التجربة الخالصة» المجلد الاول ، ليبزيغ ، عام ١٩٠ ، ص ١١٣ «الاحساسات بالمعنى العادي للانطباعات البسيطة التي لا تتحلل فيما بعد ، تسمى بالعناصر» (Wahrnehmungen) **الناشر**)

** ف ليسيفيتش «ما هي الفلسفة العلمية ؟» (اقرأ الدارجة ، الاستاذية الاختيارية) سانت بطرسبورغ عام ١٨٩١ ص ٢٢٩ و٢٤٧

* * * بتسولدت Bd. 2, Lpz., 1904, S. 329 (المجلد الثاني ، ليبزيغ عام ١٩٠٤ ، ص ٣٢٩ . **الناشر**) .

القضية بواسطة التحفظ لا يجوز اعتبار الاحساس شيئاً ذاتياً فقط أوليس هذا من السفسطة المضحكة ؟ وهل يتغير الامر يا ترى اذا ما «اعتبرنا» الاحساس احساساً ام اذا حاولنا ان نمطّ معنى هذه الكلمة ؟ وهل يزول من جراء ذلك يا ترى واقع ان الاحساسات ترتبط عند الانسان باعصاب وشبكية عين ودماغ والخ عاملة بصورة عادية ؟ وان العالم الخارجي موجود بصورة مستقلة عن احساسنا ؟ اذا لم تشأ ان تتملص بالمراوغات اذا شئت عن جد ان «تحترز» من الذاتية والسوليبسيسم فانه يتعين عليك ان تحترز قبل كل شيء من المسلمات المثالية الاساسية لفلسفتك تجب الاستعاضة عن خط فلسفتك المثالي (من الاحساسات الى العالم الخارجي) بالخط المادي (من العالم الخارجي الى الاحساسات) ؛ يجب نبذ الزخرف الكلامي الفارغ والغامض : «عنصر» والقول ببساطة اللون هو نتيجة تأثير موضوع فيزيائي على شبكية العين=الاحساس هو نتيجة تأثير المادة على اعضاء حواسنا

لنأخذ ايضاً افيناريوس ففي مسألة «العناصر» ، يعطي مؤلفه الاخير (والاهم على الارجح لاجل فهم فلسفته) «ملاحظات حول مفهوم موضوع علم النفس» * وقد اعطى المؤلف هنا ، فيما اعطى جدولاً خارق «الجلاء» (ص ٤١٠ في المجلد ١٨) ننقله بقسمه الرئيسي

---

* R. Avenarius. «Bemerkungen zum Begriff des Gegenstandes der Psychologie» في «Vierteljahrsschrift für wissenschaftliche Philosophie» Bd. XVIII (1894), (١٢) و XIX (1895). (ر افيناريوس «ملاحظات حول مفهوم موضوع علم النفس» في «المجلة الفصلية للفلسفة العلمية» . المجلد ١٨ (عام ١٨٩٤) والمجلد ١٩ (عام ١٨٩٥) . **الناشر**) .

	« عناصر ، مركبات عناصر
١ – الاشياء او الشيئي	الاشيـــاء الجسمانية
٢ – الافكار او التفكيري	الاشياء غير الجسمانية ،
(Gedankenhaftes)	الذكريات والتخيلات »

قارنوا بهذا ما يقوله ماخ بعد جميع توضيحاتـــه بصدد «العناصر» («تحليل الاحساسات» ص ٣٣) «ليست الاجسام هي التي تحدث الاحساسات بل مركبات العناصر (مركبات الاحساسات) هي التي تشكل الاجسام» هاهوذا «اكتشاف عناصر العالم» الذي يتفوق على احادية جانب المثالية والمادية في البدء يؤكدون لنا ان «العناصر»=شيء ما جديد ، فيزيائي ونفسي في آن واحد ، ثم يدخلون خلسة تعديلاً عوضاً عن التمييز المادي الفظ بين المادة (الاجسام الاشياء) والنفسي (الاحساسات الذكريات التخيلات) يعطون مذهب «الوضعية الحديثة» عن العناصر الشيئة والعناصر التفكيرية فما اقل ما كسب ادلر (فريتس) من «اكتشاف عناصر العالم» !

في عام ١٩٠٦ كتب بوغدانوف معترضاً على بليخانوف انا لا استطيع ان اعتبر نفسي ماخياً في الفلسفة ففي المذهب الفلسفي العام اخذت من ماخ امراً واحداً فقط هو الفكرة عــن حياد عناصر التجربة حيال «الفيزيائي» و«النفسي» عن تبعية هاتين الصفتين **لصلة** التجربة فقط» («الاحادية التجريبيـــة» الكتاب الثالث سانت بطرسبورغ عام ١٩٠٦ ص XLI) وهذا يعني كأن شخصاً متديناً يقول انا لا استطيع ان اعتبر نفسي نصيراً للدين لأني اخذت من هؤلاء الانصار «امراً واحداً فقط» الايمان في الله ان «الامر الواحد فقط» الذي اخذه بوغدانوف من ماخ ، انما هو **خطأ** الماخية **الاساسي** انما هو الخطـــأ الاساسي لكل هذه الفلسفة ان انحرافات بوغدانوف عن المذهب النقدي التجريبي التي يوليها بوغدانوف اهمية كبيرة جداً ، هي بالفعل ثانوية تماماً ،

ولا تتعدى حدود الفوارق التفصيلية الجزئية ، الفردية بين مختلف النقاد التجريبيين * الذين يحبذهم ماخ والذين يحبذون ماخ (وسنتحدث عن هذا ادناه بمزيد من التفصيل) ولهذا حين غضب بوغدانوف لانهم يخلطونه مع الماخيين لم يظهر بالتالي غير عدم فهمه للفوارق **الجذرية** التي تميز المادية عن كل ما هو مشترك بين بوغدانوف وجميع الماخيين الآخرين فليس المهم كيف طور بوغدانوف الماخية او كيف اصلحها او كيف زادها سوءاً المهم انه تخلى عن وجهة النظر المادية وحكم على نفسه بذلك حتماً بالتشوش والضلالات المثالية

في عام ١٨٩٩ كما رأينا تبنى بوغدانوف وجهة نظر صحيحة عندما كتب يقول «ان صورة الانسان الواقف امامي التي يعطيني اياها البصر مباشرة هي الاحساس» ** ولم يكلف بوغدانوف نفسه عناء انتقاد وجهة نظره القديمة هذه وصدق ماخ على العمياء وشرع يكرر بعده ان «عناصر» التجربة محايدة حيال الفيزيائي والنفسي وقد كتب بوغدانوف في الكتاب الاول من «الاحادية التجريبية» (الطبعة الثانية ص ٩٠) يقول «ان عناصر التجربة النفسية ، كما اوضحت الفلسفة الوضعية الحديثة ، متماثلة مع عناصر كل تجربة على العموم كما هي متماثلة مع عناصر التجربة الفيزيائية» او في عام ١٩٠٦ (الكتاب الثالث ، ص ٢٠) «اما فيما يتعلق «بالمثالية» فهل يمكن التحدث عنها بالاستناد فقط الى ان عناصر «التجربة الفيزيائية» يُعترف بها متماثلة مع عناصر «النفسي» او مع الاحساسات الاولية اذا كان ذلك واقعاً لا مراء فيه لا اكثر ولااقل» .

هنا بالضبط يكمن المصدر الاساسي لجميع مصائب

---

* انصار المذهب النقدي التجريبي **المعرب**

** «العناصر الاساسية في النظرة التاريخية الى الطبيعة» . ص ٢١٦ . راجعوا الاستشهادات المذكورة اعلاه .

بوغدانوف الفلسفية ، – وهو مصدر مشترك بينه وبين جميـــع الماخيين يمكن ويجب القول بالمثالية حين يعتبرون «عناصر التجربة الفيزيائية» (اي الفيزيائي العالم الخارجي المادة) متماثلة مــع الاحساسات لأن هذا ليس غير البركلية ولا اثر البتة هنا لا للفلسفة الحديثة ولا للفلسفة الوضعية ولا لواقع لا مراء فيه بل ان ما نواجهه هنا مجرد سفسطائيــة قديمــة متقادمة واذا ما سألتم بوغدانوف كيف يمكنه ان يثبت هذا «الواقع الذي لا مراء فيه» وهو ان الفيزيائي متماثل مع الاحساسات فانكم لن تسمعوا اية حجة عدا لازمة المثالين الابديـــة اني احس باحساســـاتي فقط «دليـــل الوعي الذاتي» (die Aussage des Selbstbewußtseins عند افيناريوس في المقدمات» ص ٥٦ الطبعة الالمانية الثانية الفقرة ٩٣) ؛ او «في تجربتنا» (التي تدل على «اننا جواهر تحس») «الاحساس معطى لنا بصورة اصدق من الجوهرية» (المرجع نفسه ص ٥٥ الفقرة ٩١) والخ والخ وهكذا دواليك . ان بوغدانوف قد اعتبر شعوذة فلسفية رجعية (مصدقاً ماخ) «واقعا لا مراء فيه» ، لأنه لم يسق ولا يمكن ان يساق اي واقع من شأنه ان يدحض النظرة الى الاحساس بوصفه صورة عن العالم الخارجي ، – هذه النظرة التي كان يشاطرها بوغدانوف في عام ١٨٩٩ وتشاطرها العلوم الطبيعية حتى في الوقت الحاضر ولقد انحرف الفيزيائي ماخ كلياً في ضلالاته الفلسفية عن «العلوم الطبيعيـــة المعاصرة» وعن هذا الامر الهام الذي لم يلحظه بوغدانوف سيتأتي لنا التحدث كثيراً فيما بعد

في عداد العوامل التي ساعدت بوغدانوف على القفز بمثل هذه السرعة من مادية علماء الطبيعة الى مثالية ماخ المشوشة مذهب افيناريوس (علاوة على تأثير اوستفالد) بشأن صف التجربة التابع وصف التجربة المستقل . فان بوغدانوف نفسه يعرض الامر في الكتاب

الاول من «الاحادية التجريبية» على النحو التالي «بما ان معطيات التجربة تكون في **تبعية الحالة الجهاز العصبي المعني** فانها تشكل **العالم النفسي** للفرد المعني وبما ان معطيات التجربة تؤخذ **خارج هذه التبعية** ، فنحن امام **العالم الفيزيائي** ولهذا يسمي افيناريوس ميداني التجربة هذين **صف** التجربة **التابع وصف** التجربة **المستقل**» (ص ١٨)

ولكن المصيبة ان هذا المذهب بشأن «الصف» **المستقل** (عن احساس الانسان) يعني تمرير المادية بصورة غير مشروعة بصورة اعتباطية ، بصورة اختيارية من وجهة نظر الفلسفة القائلة ان الاجسام هي مركبات احساسات وان الاحساسات «متماثلة» مع «عناصر» الفيزيائي لأنك حين تقر بان مصدر النور وموجات النور توجد **بصورة مستقلة** عن الانسان وعن الوعي البشري ، وان اللون رهن بفعل هذه الموجات في شبكية العين فانك تتبنى عملياً وجهة النظر المادية **وتحطم كلياً** جميع «الوقائع التي لا مراء فيها» للمثالية مع جميع «مركبات الاحساسات» والعناصر التي اكتشفتها الوضعية الحديثة وما ماثل ذلك من الهراء واللغو

ولكن المصيبة ان بوغدانوف (مع جميع الماخيين في روسيا) لم يفقه آراء ماخ وافيناريوس المثالية الاولية ولم يتفهم مسلماتهما المثالية الاساسية – ولهذا غابت عن باله اختيارية وعدم شرعية محاولتهما التالية لتمرير المادية خلسة ولكن كما ان مثالية ماخ وافيناريوس الاولية معترف بها على العموم في المطبوعات الفلسفية كذلك من المعترف به على العموم بان المذهب النقدي التجريبي قد حاول فيما بعد ان يميل صوب المادية فان الكاتب الفرنسي كوفيلارت ، الذي استشهدنا به اعلاه يرى في «مقدمات» افيناريوس «مثالية احادية» وفي «انتقاد التجربة الخالصة» (١٨٨٨ – ١٨٩٠) – «واقعية مطلقة» ، وفي «المفهوم الانساني عن العالم» (١٨٩١) – محاولة

«لتفسير» هذا التبدل ولنلاحظ ان تعبير «الواقعية» يستعمل هنا بمعنى التضاد للمثالية وبهذا المعنى استعمل انا اثر انجلس كلمة «المادية» **فقط** واحسب هذا التعبير التعبير الصحيح الوحيد وخاصة لأن كلمة «الواقعية» قد لوثها الوضعيون وسائر المخبصين الذين يتذبذبون بين المادية والمثالية يكفي الاشارة هنا الى ان كوفيلارت يقصد هذا الواقع الذي لا مراء فيه وهو ان الاحساس في «المقدمات» (١٨٧٦) هو بنظر افيناريوس الكائن الوحيد بينما أزيل «الجوهر» – حسب مبدأ «توفير الفكر» ! –، وان الفيزيائي معتبر في «انتقاد التجربة الخالصة» **صفاً مستقلاً** بينما النفسي – وبالتالي الاحساسات – معتبر صفاً تابعاً

كذلك يقر رودولف فيللي تلميذ افيناريوس ان فيناريوس المثالي «كلياً» فيما مضى في عام ١٨٧٦ قد «وفّق» (Ausgleich) فيما بعد مع هذا المذهب «الواقعية الساذجة» (المؤلف المذكور اعلاه المقطع نفسه) اي وجهة النظر المادية عفوياً التي تتبناها البشرية حين تعتبر وجود العالم الخارجي مستقلاً عن ادراكنا

ويقول اوسكار ايفالد الذي وضع كتاباً عن «افيناريوس بوصفه مؤسس المذهب النقدي التجريبي» ، ان هذه الفلسفة تتضمن في آن واحد عناصر (لا بالمعنى الماخي لكلمة «عنصر» ، بل بمعناها الانساني) مثالية و«واقعية» (وكان ينبغي القول مادية) متناقضة مثلاً من شأن (البحث) المطلق ان يخلد الواقعية الساذجة ومن شأن النسبي ان يعلن المثالية الخالصة دائمة» * ان افيناريوس

* Oskar Ewald. «Richard Avenarius als Begründer des Empiriokritizismus», Brl., 1905, S. 66. (اوسكار ايفالد «ريخارد افيناريوس بوصفه مؤسس المذهب النقدي التجريبي» برلين . عام ١٩٠٥ ، ص ٦٦ . **الناشر**) .

ينعت بالبحث المطلق ما يعتبره ماخ صلة «العناصر» خارج جسمنا وينعت بالنسبي ما يعتبره ماخ صلة «العناصر» التابعة لجسمنا

ولكنه من الطريف والمفيد لنا بخاصة في الموضوع الذي نحن بصدده رأي فوندت الذي يتبنى هو ايضاً – مثل اغلبية الكتاب المذكورين آنفاً – وجهة نظر مثالية مشوشة ولكن الذي حلل المذهب النقدي التجريبي بترو يكاد يفوق تروي الجميع وقد قال ب يوشكيفيتش في هذا الصدد ما يلي

«من الطريف ان فوندت يعتبر المذهب النقدي التجريبي الشكل الاكثر علمية لطراز المادية الاخير» * اي لذلك الطراز من الماديين الذين يرون في الروحي وظفية العمليات الجسمانية (والذين يسميهم فوندت – كما نضيف نحن – بالواقفين في الوسط بين السبينوزية ** والمادية المطلقة ***)

صحيح ان رأي ف فوندت خارق الطرافة ولكن «الاطرف» هنا هو موقف السيد يوشكيفيتش من تلك الكتب والمقالات في الفلسفة التي يتناولها بالبحث فانه مثال نموذجي عن موقف ماخيينا من المسألة فان بتروشكا عند غوغول (١٤) قد قرأ ووجد من الطريف ان تتألف الكلمات دائماً من الاحرف وقرأ السيد يوشكيفيتش فوندت ووجد من «الطريف» ان يكون فوندت قد اتهم

---

* ب يوشكيفيتش «المادية والواقعية النقدية» سانت بطرسبورغ عام ١٩٠٨ ، ص ١٥

** السبينوزية – spinozisme مذهب الفيلسوف الهولندي باروخ (بينيديكت) سبينوزا (١٦٣٢–١٦٧٧) **المعرب**

*** W. Wundt. «Über naiven und kritischen Realismus» in «Philosophische Studien» (١٣) Bd. XIII, 1897, S. 334. (ف فوندت «في الواقعية الساذجة والنقدية» في «دراسات فلسفية» ، المجلد ١٣ ، عام ١٨٩٧ ، ص ٣٣٤ . **الناشر**) .

افيناريوس بالمادية اذا كان فوندت غير محق فلم لا تدحضه ؟ واذا كان محقاً فلم لا توضح تضاد المادية للمذهب النقدي التجريبي ؟ ان السيد يوشكيفيتش يجد من «الطريف» ما يقوله المثالي فوندت ، ولكن هذا الماخي يرى ان السعي لتفهم المسألة جهد نافل تماماً (اغلب الظن حسب مبدأ «توفير الفكر»)

والحكاية ان يوشكيفيتش قد **شوه المسألة تماما** باطلاعه القارئ على اتهام افيناريوس من قبل فوندت بالمادية وبلزومه الصمت عن ان فوندت يعتبر بعض جوانب المذهب النقدي التجريبي من المادية وبعضها الآخر من المثالية والصلة بين هذه الجوانب وتلك مصطنعة اما ان هذا الجنتلمن لا يفهم البتة ما يقرأه واما انه تصرف بدافع الرغبة في مدح نفسه زوراً وبهتاناً من خلال فوندت ها هم البروفسورات الرسميون لا يعتبروننا نحن ايضاً مخبصين ما بل يعتبروننا ماديين

ان مقالة فوندت المذكورة هي عبارة عن كتاب كبير (اكثر من ٣٠٠ صفحة) مكرس لدراسة المدرسة الكمونية في البدء ثم النقاد التجريبيين باكثر ما يكون من الاسهاب والتفصيل لماذا جمع فوندت بين هاتين المدرستين ؟ لأنه يعتبرهما **من اقرب الاقرباء** ، - وهذا الرأي الذي يشاطره ماخ وافيناريوس وبتسولدت وانصار الكمونية هو صحيح بالتأكيد كما سنرى ادناه ويبين فوندت في القسم الاول من المقالة المذكورة ان انصار الكمونية مثاليون ذاتيون انصار للايمانية وهذا ايضاً كما سنرى ادناه رأي صحيح تماماً ولكن فوندت اعرب عنه بثقل نافل من الحذلقة العلمية الاستاذية بتدقيقات وتحفظات نافلة مردها الى كون فوندت نفسه مثاليا وايمانيا فهو يلوم انصار الكمونية لا على انهم مثاليون وانصار للايمانية بل على انهم يستخلصون هذه المبادئ العظيمة ، برأيه ، بصورة غير صحيحة . ثم يكرس فوندت

القسم الثاني والقسم الثالث من المقالة للمذهب النقدي التجريبي علماً بانه يشير بجلاء تام الى ان موضوعتي المذهب النقدي التجريبي النظريتين البالغتي الاهمية (مفهوم «التجربة» و«التنسيق المبدئي» الذي سنتحدث عنه ادناه) **متماثلتان** عنده وعند انصار الكمونية (die empiriokritische in Übereinstimmung mit der immanenten Philosophie annimmt, S. 382 من مقالة فوندت) وموضوعات افيناريوس النظرية الاخرى مقتبسة من المادية والمذهب النقدي التجريبي هو بالاجمال «**خليط مبرقش**» (bunte Mischung, S. 57 من المقالة المذكورة) حيث «مختلف الاقسام المكونة **غير مترابطة على الاطلاق**» (an sich einander völlig heterogen sind ، ص ٥٦)

وفي عداد المقاطع المادية من مخلوطة افيناريوس وماخ يصنف فوندت بصورة رئيسية مذهب افيناريوس في «**الصف الحيوي المستقل**». فاذا انطلقت من «نظام ن» (بهذا يرمز افيناريوس، الهاوي العظيم للعب العلمي بالمصطلحات الجديدة، — الى دماغ الانسان او على العموم الى الجهاز العصبي)، — اذا كان النفسي هو بالنسبة لك وظيفة الدماغ فان هذا «النظام ن» هو «جوهر ميتافيزيائي»، — هكذا يقول فوندت (ص ٦٤ من المقالة المذكورة) — ومذهبك هو المادية يجب القول ان كثيرين من المثاليين وجميع اللاادريين (بمن فيهم الكانطيون والهيوميون) يلقبون الماديين بالميتافيزيائيين لأنه يخيل اليهم ان الاعتراف بوجود عالم خارجي مستقل عن ادراك الانسان يعني تخطي حدود التجربة وسوف نتكلم في حينه عن هذه التعابير وعن خطئها التام من وجهة نظر الماركسية اما الآن فمن المهم لنا ان نلاحظ واقع ان التسليم بالذات بالصف «المستقل» عند افيناريوس (وكذلك عند ماخ الذي يفصح عن الفكرة نفسها بكلمات اخرى) هو — حسب الاعتراف العام من قبل الفلاسفة من مختلف الاحزاب اي من مختلف الاتجاهات في الفلسفة — **اقتباس من المادية**.

واذا انطلقت من كل موجود هو احساس او من ان الاجسام هي مركبات احساسات ، فانك لاتستطيع بدون القضاء على جميع مقدماتك الاساسية على كل فلسفتك «ك» ان تخلص الى القول ان **الفيزيائي** موجود **بصورة مستقلة** عن وعينا وان الاحساس هو **وظيفة** مادة منظمة بشكل معين . ان ماخ وافيناريوس يخلطان في فلسفتهما مقدمات مثالية اساسية واستنتاجات مادية معينة وذلك على وجه الضبط لأن نظريتهما نموذج عن ذلك «الحساء الاختياري الهزيل» (١٥) الذي تحدث عنه انجلس بازدراء يستحقه *

ان هذه الاختيارية (Eclectisme) تفقأ العين بصورة خاصة في مؤلف ماخ الفلسفي الاخير «المعرفة والضلال» ، الطبعة الثانية عام ١٩٠٦ وقد سبق ورأينا ان ماخ يعلن فيه «ليست ثمة اية صعوبة لانشاء اي عنصر فيزيائي كان من الاحساسات اي من العناصر النفسية» ، – ونقرأ في الكتاب نفســـــه «ان التبعيات خارج U (=Umgrenzung اي «حد جسمنا في المكان» ص ٨) هي الفيزياء باوسع معاني الكلمـــة» (ص ٣٢٣ الفقرة ٤) «لأجل الحصول على هذه التبعيات بشكلها الصافي (rein erhalten) من الضروري

---

* مقدمة «لودفيغ فورباخ» المؤرخة في شباط (فبراير) ١٨٨٨ ان كلمات انجلس هذه تتعلق بالفلسفة الاستاذية الالمانية على العموم الا ان الماخيين الذين يرغبون في ان يكونوا ماركسيين ، والذين لا يستطيعون ان يمعنوا الفكر في اهمية ومضمون فكرة انجلس هذه يتسترون احياناً وراء تحفظ حقير «ان انجلس لم يكن يعرف بعد ماخ» (فريتس ادلر في «**المادية التاريخية**» ص ٣٧٠) علام يرتكز هذا الرأي ؟ على ان انجلس لا يستشهد بماخ وافيناريوس ؟ ليست ثمة اسس اخرى ، ولكن هذا الاساس لا يصلح ، لأن انجلس لم يسم **ايا** من الاختياريين باسمه ، ولأنه من المشكوك فيه انه كان بوسع انجلس ان لا يعرف افيناريوس الذي اخذ يصدر منذ عام ١٨٧٦ مجلة فصلية في الفلسفة «العلمية» .

ان يصار قدر الامكان الى استبعاد تأثير المراقب اي تأثير العناصر الواقعة داخل U » (المرجع نفسه) هكذا اذن في البدء وعد العصفور بان يحرق البحر اي بان ينشى العناصر الفيزيائية من العناصر النفسية ولكن تبين فيما بعد ان العناصر الفيزيائية تقع خارج حدود العناصر النفسية «الواقعة داخل جسمنا» فيا لها من فلسفة والحق يقال

واليكم مثلاً آخر «لا وجود للغاز الكامل (المثالي vollkommenes) للسائل الكامل للجسم المطاطي الكامل؛ فان الفيزيائي يعرف ان اوهامه التي تبسط الوقائع بصورة اعتباطية لا تتطابق معها الا بصورة تقريبية وهو على علم بهذا الانحراف الذي لا تمكن ازالته» (ص ٤١٨ الفقرة ٣٠)

اي انحراف (Abweichung) هو المقصود هنا ؟ انحراف اي شيء عن اي شيء ؟ انحراف الافكار (النظرية الفيزيائية) عن الوقائع ولكن ما هي الافكار ؟ الافكار هي «آثار الاحساسات» (ص ٩) وما هي الوقائع ؟ الوقائع هي «مركبات احساسات» ومن هنا ينجم انه لا تمكن ازالة انحراف آثار الاحساسات عن مركبات الاحساسات

ماذا يعني هذا ؟ هذا يعني ان ماخ **ينسى** نظريته **بالذت** وحين يبدأ في الحديث عن مختلف مسائل الفيزياء يحاكم ببساطة بدون الشعوذات المثالية اي بطريقة مادية ان جميع «مركبات الاحساسات» وكل هذه الحكمة البركلية تتبدد هباء ويتبين ان نظرية الفيزيائيين هي انعكاس لاجسام وسوائل وغازات موجودة خارجاً عنا وبصورة مستقلة عنا علماً بان هذا الانعكاس هو بالطبع تقريبي ولكنه من غير الصحيح القول عن هذا التقريب او التبسيط انه «اعتباطي» فهنا يعتبر ماخ **بالفعل** لاحساس مثلما تعتبره بالضبط جميع العلوم الطبيعية التي لم «يطهرها» تلامذة بركلي وهيوم ، اي **صورة عن العالم الخارجي** . ان نظرية ماخ بالذات هي

مثالية ذاتية وعندما يقتضي الحال عامل الموضوعية ، – فان ماخ يدرج في محاكماته بلا حياء مقدمات نظرية مضادة عن المعرفة اي مقدمات النظرية المادية وان المثالي المنسجم والرجعي المنسجم في الفلسفة ادرواد هارتمان الذي **يتعاطف مع النضال الماخي ضد المادية** يقترب كثيراً جداً من الحقيقة حين يقول ان موقف ماخ الفلسفي هو «خليط (Nichtunterscheidung) من الواقعية الساذجة والوهمية * المطلقة» * * هذا صحيح فان المذهب القائل ان الاجسام هي مركبات احساسات وما الى ذلك هو وهمية مطلقة اي سوليبسيسم لأن العالم كله من وجهة النظر هذه ليس سوى وهمي انا . اما محاكمة ماخ التي اوردناها مثلها مثل طائفة من محاكماته الجزئية الاخرى فهي ما يسمى «بالواقعية الساذجة» اي النظرية المادية عن المعرفة المقتبسة من علماء الطبيعة بصورة غير واعية بصورة عفوية

ويحاول افيناريوس والاساتذة السائرون في اثره ان يستروا هذا الخليط بنظرية «التنسيق المبدئي» وسننتقل الآن الى دراستها ، ولكن لننتبه اولاً من مسألة اتهام افيناريوس بالمادية فان السيد يوشكيفيتش الذي اعتبر رأي فوندت الذي لم يفهمه طريفاً لم يظهر فضوله لكي يعرف هو نفسه او لم يتكرم ويبين للقارىء موقف اقرب تلامذة واتباع افيناريوس من هذا الاتهام . والحال ان هذا ضروري لأجل توضيح الامر اذا اهتممنا بمسألة موقف فلسفة ماركس اي المادية من فلسفة المذهب النقدي التجريبي ثم اذا كانت الماخية تخبيصاً وخليطاً من المادية والمثالية ، فمن المهم ان

---

* الوهمية – Illusionisme **المعرب**

* * Eduard von Hartmann, «Die Weltanschauung der modernen Physik», Lpz., 1902, S. 219. (ادوارد فون هارتمان « نظرة الفيزياء المعاصرة الى العالم » . ليبزيغ ، عام ١٩٠٢ ، ص ٢١٩ . **الناشر**) .

نعرف الى اين تمدد – اذا امكن القول – هذا التيار حين شرع المثاليون الرسميون يدفعونه عن انفسهم بسبب تنازلاته في صالح المادية

وقد رد على فوندت فيمن رد عليه اثنان من تلامذة افيناريوس هما اكثرهم صفاء واستقامة في الرأي ، – بتسولدت وكارستانيان فبعضب ابي انكر بتسولدت الاتهام بالمادية الذي يعيب البروفسور الالماني واستشهد بِمَ تظنون انه استشهد؟ «بمقدمات» افيناريوس حيث ازيل ، حسب زعمه ، مفهوم الجوهر فما أنسب النظرية حين يمكن ان تعزى اليها المؤلفات المثالية الصرف والمقدمات المادية المسلم بها اعتباطاً سواء بسواء يقيناً ان «نقد التجربة الخالصة» لافيناريوس لا يناقض هذا المذهب اي المادية ، – هكذا كتب بتسولدت – ولكنه قلما يناقض المذهب المضاد مباشرة المذهب الروحاني * (spiritualisme) ** فيا للدفاع المتاز ان هذا بالذات هو ما نعته انجلس بالحساء الاختياري الهزيل ان بوغدانوف الذي لا يريد ان يعتبر نفسه ماخياً والذي يريد ان يعتبروه (في الفلسفة) ماركسياً يسير وراء بتسولدت وهو يعتقد ان «المذهب النقدي التجريبي لايأبه لا بالمادية ولا بالمذهب الروحاني ولا باي ميتافيزياء على العموم» *** وان «الحقيقة ليست في «الوسط الذهبي» بين الاتجاهين المتصادمين» (المادية والروحانية) «بل في خارجهما» **** اما بالفعل فان ما بدا لبوغدانوف حقيقة هو تشوش وتذبذب بين المادية والمثالية

---

* J. Petzoldt. «Einführung in die Philosophie der reinen Erfahrung», Bd. I, S. 351, 352.

** Spiritualisme – المذهب الروحي او المذهب الروحاني **المعرب**

*** «الاحادية التجريبية» ، الكتاب الاول . الطبعة الثانية ص ٢١ .

**** المرجع نفسه .ص ٩٣ .

واعتراضاً على فوندت كتب كارستانيان يقول انه يرفض قطعاً «دس (Unterschiebung) العامل المادي» «الغريب تماماً عن نقد التجربة الخالصة» * «ان المذهب النقدي التجريبي هو مذهب الريبية ἐξοχήν χατ (على الاغلب) حيال مضمون المفاهيم» ان هذه الاشارة الخاصة المشددة الى حياد الماخية تنطوي على نصيب من الحقيقة فان تعديل ماخ وافيناريوس على مثاليتهما الاولية ينحصر بكليته في الاقدام على تنازلات نصفية في صالح المادية فعوضاً عن وجهة نظر بركلي المنسجمة القائلة ان العالم الخارجي هو احساسي انا ، – يكون الحاصل احياناً وجهة نظر هيوم القائلة اني انحّي مسألة ما اذا كان يوجد شيء وراء احساساتي والحال ان وجهة نظر اللاعرفانية هذه تفضي حتما الى التذبذب بين المادية والمثالية

٣ ـ التنسيق المبدئي و«الواقعية الساذجة»

عرض افيناريوس مذهبه عن التنسيق المبدئي في مؤلفه «المفهوم الانساني عن العالم» وفي مؤلفه «ملاحظات» وقد كتب افيناريوس مؤلفه الاخير بعد الاول واشار فيه الى انه لا يعرض شيئاً ما يختلف عمّا عرضه في «نقد التجربة الخالصة» وفي «المفهوم الانساني عن العالم» بل يعرض **الشيء نفسه** ويعرضه والحق يقال بشكل مختلف نوعاً («Bemerk» ** ١٨٩٤ ص ١٣٧ في

* Fr. Carstanjen. «Der Empiriokritizismus, zugleich eine Erwiderung auf W. Wundt's Aufsätze», «Vierteljahrsschrift für wissenschaftliche Philosophie», Jahrg. 22 (1898), SS. 73, 213 (فر كارستانيان . «المذهب النقدي التجريبي وفي الوقت نفسه جواب على مقالات ف فوندت» «المجلة الفصلية للفلسفة العلمية» العام ٢٢ (١٨٩٨) ص ٧٣ ، ٢١٣ **الناشر**)

** «Bemerkungen zum Begriff des Gegenstandes der Psychologie». **الناشر** .

المجلة المذكورة) ان كنه هذا المذهب هو موضوعة **التنسيق الذي لا انفصام لعراه** (unauflösliche)» (اي الصلة المتبادلة) بين «**انانا والبيئة**» (des Ich) (ص١٤٦) وهنا يقول افيناريوس «يمكن القول بلغة الفلسفة «**انا ولا انا**» «وهذا وذاك **انانا** والبيئة «نجدهمـــا **دائماً** معاً» (immer ein Zusammen-Vorgefundenes) .
«ان اي وصف كامل للمعطى (او لما وجدناه (des Vorgefundenen لا يمكنه ان يتضمن «البيئة» بدون **انا ما** (ohne ein Ich) الذي هذه البيئة **بيئته** ، – على الاقل ذلك **الأنا** الذي يصف ما وجدناه هذا» (او المعطى : das Vorgefundene ، ص ١٤٦) وفي هذه الحال يُسَمّى **انا بالعضو المركزي** للتنسيـــق والبيئـــة – **بالعضو المضاد** (Gegenglied) (راجعوا «Der menschliche Weltbegriff» الطبعـــة الثانية عام ١٩٠٥ ص ٨٣ – ٨٤ الفقرة ١٤٨ وما يليها)

يدّعي افيناريوس بانه يعترف بواسطة هذا المذهب بكل قيمة ما يُسمّى **بالواقعية الساذجة** اي بالنظرة العادية الساذجة غير الفلسفية عند جميع الناس الذين لا يمعنون الفكر فيما اذا كانوا موجودين هم انفسهم وفيما اذا كانت توجد بيئة ، اي عالم خارجي وتضامناً مع افيناريوس يحاول ماخ هو ايضاً ان يصور نفســه بصورة مدافع عن «الواقعية الساذجة» («تحليل الاحساسات» ص ٣٩) ان ماخيي روسيا ، جميعهم بلا استثناء قد صدقوا ماخ وافيناريوس ، صدّقوا بان هذا بالفعل دفاع عن «الواقعية الساذجة» : يُعتَرَف **بانا** يُعتَرَف بالبئية ، – فماذا تريدون اكثر من هذا ؟

لكي نتفهم من الذي تلازمه هنا الدرجة العظمى من **السذاجة** الفعلية لنبدأ من البعيد نوعاً اليكم حديثاً مبسطاً بين فيلسوف ما وقارئ

«**القارئ** لا بد من وجود نظام من الاشياء (برأي الفلسفة العادية) ، ولا بدّ من استخلاص الوعي من الاشياء» .

«**الفيلسوف** انت الآن تتكلم على غرار الفلاسفة المحترفين وليس من وجهة نظر العقل البشري السليم والوعي الفعلي

فكر جيداً قبل الجواب وقل لي : هل يلوح في ذهنك اوامام انظارك شيء ما دون ان يرتبط مع ادراك هذا الشيء او دون ان يمر من خلال ادراكه ؟»

«**القارئ** اذا امعنت الفكر في المسألة فلا بدّ ان اوافق معك»

«**الفيلسوف** انت تتكلم الآن من نفسك بالذات من صميم روحك من اعماق روحك فلا تسع الى التفلت من نفسك بالذات لكي تضم اكثر مما تستطيع ان تضمه (او تمسكه) واعني بالضبط الوعي **و** (حرف التأكيد للفيلسوف) الشيء الشيء **و** الوعي او بالادق لا هذا ولا ذاك كلاً منهما بمفرده بل ما ينشطر فيما بعد فقط الى هذا وذاك ما هو بالتأكيـــد ذاتي – موضوعي وموضوعي – ذاتي»

هذا هو كل كنه التنسيق المبدئي النقدي التجريبي والدفاع الحديث عن «الواقعية الساذجة» من جانب الوضعية الحديثة ان فكرة التنسيق «الذي لا انفصام لعراه» معروضة هنا بكل وضوح وعلى وجه الضبط من وجهة النظر الزاعمة ان هذا دفاع حقيقي عن نظرة انسانية عادية لم تشوهها تفلسفات «الفلاسفة المحترفين» والحال ان الحوار الوارد اعلاه مقتبس من مؤلف **صدر في عام ١٨٠١** وكتبه الممثل الكلاسيكي **للمثالية الذاتية** – يوهان غوتليب **فيخته** *

* Johann Gottlieb Fichte. «Sonnenklarer Bericht an das größere Publikum über das eigentliche Wesen der neuesten Philosophie. – Ein Versuch die Leser zum Verstehen zu zwingen», Berlin, 1801, SS. 178–180

(يوهان غوتليب فيخته «اعلام واضح كالشمس لأجل الجمهور الواسع عن الكنه الحقيقي للفلسفة الحديثة . ـ محاولة لاجبار القارئ على الفهم» برلين . عام ١٨٠١ ، ص ١٧٨ـ١٨٠ . **الناشر**) .

لا شيء في مذهب ماخ وافيناريوس موضوع دراستنا لا شيء غير صياغة المثالية الذاتية بتعابير واساليب اخرى وان ادعاءاتهما بانهما ارتفعا فوق المادية والمثالية وذللا التضاد بين وجهة النظر المنطلقة من الشيء الى الادراك ووجهة النظر المعاكسة لها انما هي صورة هزيلة عن الفيختية المجدّدة قليلاً فان فيخته يظن هو ايضاً انه ربط «بصورة لا انفصام لعراها» بين «انا» و«البيئة» بين الادراك والشيء وانه «حل» المسألة بالاستشهاد بكون الانسان لا يستطيع ان يتفلت من نفسه بالذات وهذا بتعبير آخر تكرار لحجة بركلي انّي لا احسّ الا باحساساتي ولا يحق لي ان افترض «المواضيع في حد ذاتها» خارج احساسي ان اختلاف اساليب التعبير عند بركلي في عام ١٧١٠ وفيخته في عام ١٨٠١ وافيناريوس في اعوام ١٨٩١ – ١٨٩٤ لا يغير البتة كنه الامر اي خط المثالية الذاتية الفلسفي الاساسي ان العالم هو احساسي لا انا «يستحضره» (يستخلصه يستنتجه) انانا الشيء يرتبط بالادراك بصورة لا انفصام لعراها التنسيق الذي لا انفصام لعراه بين انا والبيئة هو تنسيق مبدئي نقدي تجريبي كل هذه هي الموضوعة ذاتها كل هذه هي الزبالة القديمة مع لافتة مجملة قليلاً او معاد صبغها

ان الاستشهاد «بالواقعية الساذجة» التي تدافع عنها كما يزعم فلسفة من هذا الطراز هو **سفسطة** من ارخص صنف فان «الواقعية الساذجة» عند اي انسان سليم لم يعش في مستشفى المجانين او لم يتعلم على يد الفلاسفة المثاليين تتلخص في كون الاشياء البيئة العالم توجد **بصورة مستقلة** عن احساسنا عن ادراكنا عن انانا وعن الانسان بوجه عام ان تلك **التجربة** ذاتها (لا بمعنى الكلمة الماخي بل بمعنى الكلمة الانساني) التي خلقت فينا الاقتناع الثابت بأنه يوجد بصورة مستقلة عنّا اناس

آخرون وليس مجرد مركبات احساساتي بالعالي والمنخفض والاصفر والصلب والخ هذه التجربة ذاتها تخلق اقتناعنا بان الاشياء العالم البيئة توجد بصورة مستقلة عنّا ان احساساتنا وادراكنا ليست غير **صورة** عن العالم الخارجي وغني عن البيان ان الانعكاس لا يمكن ان يوجد بدون المعكوس في حين ان المعكوس يوجد بصورة مستقلة عن العاكس وان المادية تضع **عن وعي** في اساس نظريتها عن المعرفة اقتناع البشرية «الساذج»

أوليس هذا التقييم «للتنسيق المبدئي» نتيجة للتحيز المادي ضد الماخية ؟ كلا اطلاقاً فان الفلاسفة الاختصاصيين الغرباء عن كل تحيز للمادية وحتى الذين يكرهونها ويتبنون هذه او تلك من انظمة المثالية مجمعون على ان التنسيق المبدئي عند افيناريوس وشركاه هو مثالية ذاتية مثلاً ان فوندت الذي لم يفهم السيد يوشكيفيتش رأيه الطريف يقول صراحة ان نظرية افيناريوس التي تزعم انه يستحيل بدون **انا** ما وبدون مراقب او واصف اعطاء وصف كامل للمعني او لما وجدناه هي «خلط زائف بين مضمون التجربة الفعلية والمحاكمة بصددها» ويقول فوندت ان العلوم الطبيعية تتجرد تماماً من كل مراقب «والحال ان هذا التجرد لا يمكن الا لسبب واحد فقط ، هو ان ضرورة رؤية (hinzudenken ،حرفياً — استحضار) الفرد الذي يعيش التجربة في كل مضمون للتجربة ان هذه الضرورة التي تقبلها الفلسفة النقدية التجريبية بالتوافق مع الفلسفة الكمونية هي على العموم فرضية غير معللة تجريبياً ونابعة من الخلط الزائف بين مضمون التجربة الفعلية والمحاكمة بصددها » (المقالة المذكورة ص ٣٨٢) لأن انصار مذهب الكمونية (شوبّه رمكــــه ليكلر شوبرت-زولدرن) الذين يشيرون بانفسهم — كما سنرى فيما بعد — الى تعاطفهم الحار مع افيناريوس ينطلقون على **وجه الضبط** من هذه الفكرة عن الصلة «التي لا تنفصم

عراها» بين الذات والموضوع اما فوندت فقد بين بالتفصيل قبل ان يحلل افيناريوس ان الفلسفة الكمونية ليست غير «ونوع معدل» من البركلية ، وانه ينبغي للفوارق الكلامية ، مهما تنكر انصار مذهب الكمونية لبركلي ان لا تحجب عنّا بالفعل «مضموناً اعمق للمذاهب الفلسفية» اي بالضبط مذهب بركلي او مذهب فيخته *

ثم ان الكاتب الانجليـــزي نورمان سميت الذي درس مؤلف افيناريوس «فلسفة التجربة الخالصة» ، يعرض هذا الاستنتاج بصورة سافرة وقاطعة اكثر بكثير

«ان اغلبية المطلعين على مؤلف افيناريوس «المفهوم الانساني عن العالم» يوافقون اغلب الظن على ان نتائجه الايجابية وهمية تماماً مهما كان نقده (للمثالية) مقنعاً واذا حاولنا ان نفسّر نظريته عن التجربة حسبما يريدون تصويرها اي على وجه الضبط كنظرية واقعية حقاً (genuinely realistic) فانها تتملص من كـــل عرض واضح فان كل مدلولها ينحصر في انكار الذاتية التي تطيح بها هذه النظرية كما يزعم ولكننا حين نترجم تعابير افيناريوس التكنيكية الى لغة ابسط ، فاننا نرى اين يكمن المصدر الحقيقي لهذه التعمية فقد صرف افيناريوس الانتباه عن نقاط الضعف في موقفه بتوجيه هجومه الرئيسي ضد نقطة الضعف هذه على وجه الضبط» (اي النقطة المثالية) «المشوومة بالنسبة لنظريته بالذات» * * «على كل امتداد

* المقالة المذكورة الفقرة ج «الفلسفة الكمونية ومثالية بركلي» ص ٣٧٣ ، ٣٧٥ قارنوا ص ٣٨٦ و٤٠٧ حول حتمية السوليبسيسم من وجهة النظر هذه ص ٣٨١

* * Norman Smith. «Avenarius' Philosophy of Pure Experience» في «Mind», (١٦) vol. XV, 1906, pp. 27–28 (نورمان سميت . «فلسفة التجربـــة الخالصـــة عند افيناريوس» في مجلة «الفكر» . المجلد ١٥ ، عام ١٩٠٦ ، ص ٢٧–٢٨ . **الناشر**) .

محاكمات افيناريوس يقدم له غموض تعبير «التجربة» خدمة طيبة فان هذا التعبير (experience) يعني تارة ذاك الذي يقوم بالتجربة ويعني طوراً ما يجرّبونه والمعنى الاخير يشار اليه على الاخص حين يكون المقصود طبيعة انانا (of the self) ان هذين المعنيين لتعبير «التجربة» يتطابقان في الواقع مع تقسيمه الهام للبحث المطلق والنسبي» (وقد سبق واشرت الى معنى هذا التقسيم عند افيناريوس) «ووجهتا النظر هاتان لا تتوافقان بالفعل في فلسفته لأنه حين يسلم بشرعية المقدمة القائلة ان التجربة تكتمل بالفكرة بصورة مثلى» (الوصف الكامل للبيئة يكتمل بصورة مثلى بالفكرة عن انا المراقب) «فانه يتقدم بفرضية ليس في وسعه ان يجمعها مع زعمه بالذات بان لا شيء يوجد خارج الموقف من انانا (to the self) ان التكميل الامثل للواقع المعني الذي يحصل من انشطار الاجسام المادية الى عناصر ليست في منال حواسنا» (المقصود هنا العناصر المادية التي اكتشفتها العلوم الطبيعية والذرات الالكترونات وما الى ذلك وليس تلك العناصر التي اختلقها ماخ وافيناريوس) «او من وصف الارض في تلك الازمنة التي لم يكن فيها اي كائن بشري في الارض ، — ان هذا بمعنى الكلمة الدقيق ليس تكميلاً للتجربة بل تكميل لما نجرّبه ان هذا لا يكمل غير حلقة من حلقات التنسيق التي قال عنها افيناريوس انه يستحيل الفصل بينها وهذا ما يؤدي بنا الى ما لم تجر تجربته يوماً (لم يكن موضوع تجربة has not been experienced) وليس هذا وحسب بل ايضاً الى ما لا يمكن تجربته ابداً في اي حال من الاحوال من قبل كائنات شبيهة بنا ولكن ازدواج معنى تعبير «تجربة» يهب هنا على وجه الضبط الى نجدة افيناريوس فان افيناريوس يرى ان الفكر شكل حقيقي (فعلي genuine) للتجربة بقدر ما هو عليه الادراك الحسي ، وهو بالتالي يعود الى الوراء نحو الحجة القديمة

المبتذلة (time-worn) التي تتذرع بها المثالية الذاتيـــة والتـــي تقول على وجه الضبط ان الفكر والواقع لا ينفصلان لأنه لا يمكن ادراك الواقع الا في الفكر ، وان الفكر يتطلب وجود من يفكر اذن ، لا بعث اصيل وعميق ما للواقعية بل مجرد بعث للمثالية الذاتية في اخشن (crudest) اشكالها ، – تلك هي النتيجـــة النهائية لمحاكمات افيناريوس الوضعية» (ص ٢٩)

ان تعمية افيناريوس الذي يكرر كلياً خطأ فيخته مدحوضة هنا بصورة ممتازة فان القضاء الشهير بواسطة كليمة «تجربة» على التضاد بين المادية (عبثاً يقول سميت الواقعية) والمثالية قد غدا في الحال خرافة ما ان بدأنا ننتقل الى مسائل ملموسة معينة ومنها مسألة وجود الارض **قبل** الانسان **قبل** اي كائن يحسّ وسنتحدث قريباً عن هذا بمزيد من التفصيل اما الآن فنلاحظ ان ن سميت خصم نظرية افيناريوس ليس وحده الذي ينزع القناع عن افيناريوس وعن «واقعيته» الموهومة بل ينزعه كذلك نصير مذهب الكمونية شوبّه الذي رحب ترحيباً حاراً بصدور «المفهوم الانساني عن العالم» بوصفه **تأكيداً للواقعية الساذجة** * ذلك ان شوبه نفسه موافق **تماما** على **مثل هذه** «الواقعية» اي على مثل هذه التعمية للماديـــة التي قام بها افيناريوس وقد كتب الى افيناريوس يقول – لقد ادعيت دائماً بمثل هذه «الواقعية» وبنفس الحق مثلك hochverehrter Herr College (ايها السيد الزميـــل الجزيل الاحترام) لأنهم افتروا علـّي انا نصير مذهب الكمونية بزعمهم اني مثالي ذاتي «ان مفهومي للتفكير قابل للتوفيق بشكل ممتاز (verträgt sich vortrefflich) مع نظريتك ايها السيد

* راجعوا رسالة و شوبـــه المفتوحـــة الى ر افيناريوس في «Vierteljahrsschrift für wissenschaftliche Philosophie», Bd. 17, 1893, SS. 364–388.

الزميل الجزيل الاحترام ، «نظرية التجربة الخالصة» (ص ٣٨٤) «ان الصلة واستحالة الفصل بين عضوي التنسيق» لا يعطيهما بالفعل الا **أنانا** (das Ich ، اي الوعي الذاتي المجرد ، الفيختي ، الفكر المفصول عن الدماغ) وقد كتب شوبه الى افيناريوس (ص ٣٨٨) يقول «ان ما اردت شطبه انما افترضته ضمناً» ويصعب القول من ذا الذي ينزع القناع عن المعمّي افيناريوس بمزيد مـــن الايلام سميت بدحضه الصريح والواضح ام شوبه باعجابه بمؤلف افيناريوس الختامي ان قبلة ولهلم شوبّه في الفلسفة ليست البتة افضل من قبلة بيوتر ستروفه او السيد منشيكوف في السياسة

ثم ان او ايفالد الذي يمدح ماخ لأن ماخ لم يستسلـــــم للمادية يتحدث عن التنسيق المبدئي «اذا قلنا ان التناسب بين العضو المركزي والعضو المضاد ضرورة عرفانية لا يمكن التراجع عنها فذلك يعني – مهما كانت الاحرف التي كتب بها على اللافتة تعبير «المذهب النقدي التجريبي» كبيرة وصارخة – تبني وجهة نظر لا تختلف في شيء عن المثالية المطلقة» (تعبير غير صحيح فقد كان ينبغي القول المثالية الذاتية لان مثالية هيغل المطلقة تسلم بوجود الارض والطبيعة والعالم الفيزيائي بدون الانسان معتبرة الطبيعة مجرد «وجود مغاير» للفكرة المطلقة) «وبالعكس اذا لم نتمسك بدأب وانسجام بهذا التنسيق واذا منحنا الاعضاء المضادة استقلالها فان جميع الامكانيات الميتافيزيائية تطفو دفعة واحدة وخاصة باتجاه الواقعية المتعالية» * (المؤلف المذكور ص ٥٦ – ٥٧)

ان السيد فريدلندر الذي يتستر بالاسم المستعار ايفالد يطلق نعت الميتافيزياء والواقعية المتعالية على **المادية** وهو اذ يدافع

---

* المتعالي _ transcendentae . **المعرب** .

بنفسه عن احد ضروب المثالية يوافق كلياً مع الماخيين والكانطيين في ان المادية هي الميتافيزياء في انها «من البداية الى النهاية ميتافيزياء في غاية الغرابة» (ص ١٣٤) وهو فيما يتعلق «بتعالي» * وميتافيزيائية المادية رفيق بالفكر لبازاروف وجميع ماخيينا وعن هذا سنتحدث بوجه خاص فيما بعد اما هنا فمن المهم ان نلاحظ ايضا كيف يتبدد هنا **بالفعل** الادعاء الغيليرتري * * الفارغ بتجاوز المثالية والمادية وكيف توضع المسألة بتشدد لا يلين «منح الاعضاء المضادة الاستقلال» ، هذا يعني (اذا ترجمناه من لغة افيناريوس المتصنّع المغالية في التزويق الى لغة بشرية) اعتبار الطبيعة العالم الخارجي مستقلاً عن وعي الانسان واحساسه وهذه هي المادية وان بناء نظرية المعرفة على مقدمة الصلة التي لا انفصام لها بين الموضوع واحساس الانسان («مركبات الاحساسات= الاجسام «عناصر العالم» متماثلة في النفسي والفيزيائي تنسيق افيناريوس وما الى ذلك) يعني الانزلاق حتماً الى المثالية هذه هي الحقيقة البسيطة والمحتمة التي يمكن ببعض الانتباه اكتشافها بسهولة تحت ركام تعابير ومصطلحات افيناريوس وشوبّه وايفالد والاخرين المغرقة في التكلف التي تغمض الامر قصداً وعمداً وتدفع الجمهور الواسع عن الفلسفة

ان «التوفيق» بين نظرية افيناريوس وبين «الواقعية الساذجة» قد استثار في آخر المطاف الشكوك حتما عند تلامذته فان ا فيللي يقول مثلاً ان الرأي العادي الذي يزعم ان افيناريوس توصل الى

---

* التعالي – transcensus **المعرب**

* * نسبة الى الكلمة الالمانية «غيليرتر» Gelehrter – اي «العالم ، المتعلم» والمقصود بها من يستوعب العلم الكتبي المفصول عن الحياة وعن النشاط العملي والعلم الطليعي . مدرسي (سكولاستي) ، سطحي . **المعرب** .

المركزي الموجود بالقوة لا يوازي ابداً الصفر حتى حين لا يكون ثمة والدان (elterliche Bestandteile) ، بل توجد فقط «اجزاء مكونة للبيئة» قادرة على ان تصبح والدين (ص ١٤١)

اذن التنسيق لا تنفصم عراه والقول بذلك الزامي على الناقد التجريبي بغية انقاذ اسس فلسفته والاحساسات ومركباتها فان الانسان هو العضو المركزي لهذا التنسيق وحين لا يكون ثمة انسان حين لا يكون قد ولد بعد فان العضو المركزي لا يوازي مع ذلك الصفر بل اصبح فقط عضواً مركزياً **موجوداً بالقوة** فلا يبقى لنا الا ان نعجب من تواجد اناس قادرين على ان يأخذوا على محمل الجد فيلسوفاً كهذا يدلي بمحاكمات كهذه فحتى فوندت الذي تحفظ قائلا انه ليس البتة عدواً لكل ميتافيزياء (اي لكل ايمانية) يضطر الى الاعتراف «بالتغميض الصوفي لمفهوم التجربة» هنا بواسطة تعبير «موجود بالقوة» الذي يقضي على كل تنسيق (المقالة المذكورة ص ٣٧٩)

وبالفعل ، هل يمكن التحدث بجدّ يا ترى ، عن تنسيق تتلخص استحالة انفصامه في كون احد اعضائه موجوداً بالقوة ؟

اوليس هذا يا ترى من الصوفية اوليس هذا يا ترى عتبة مباشرة الى الايمانية ؟ اذا كان يمكن تصور العضو المركزي الموجود بالقوة حيال البيئة المقبلة ، فلماذا لا يمكن تصوره حيال البيئة **الماضية** اي **بعد موت** الانسان ؟ ستقولون ان افيناريوس لم يستخلص هذا الاستنتاج من نظريته اجل ولكن النظرية السخيفة والرجعية لم تصبح من جراء ذلك الا نظرية اكثر جبانة ولم تصبح افضل من ذي قبل ففي عام ١٨٩٤ لم يعرضها افيناريوس الى النهاية او خاف ان يعرضها الى النهاية ان يفكر فيها نسجام الى النهاية ولكن ر شوبرت-زولدن كما سنرى قد استشهد في عام ١٨٩٦ **بهذه النظرية على وجه الدقة** ، ولأجل

استخلاص استنتاجات لاهوتية **على وجه الضبط** فاستحق في عام ١٩٠٦ **تحبيذ** ماخ الذي قال ان شوبرت-زولدرن يسير «**بسبل قريبة جداً**» (الى الماخية) («تحليل الاحساسات» ص ٤) وكان انجلس يملك الحق الكامل في انتقاد دوهرينغ الملحد السافر لأنه **ترك** في فلسفته بصورة غير منطقية **ثغرات** امام الايمانية وقد لام انجلس مراراً على هذا – وبملء الحق والصواب – المادي دوهرينغ الذي لم يستخلص في السبعينيات على الاقل استنتاجات لاهوتية اما عندنا فيتواجد اناس يرغبون في ان يعتبروهم ماركسيين ويحملون الى الجماهير فلسفة قريبة جداً من الايمانية

وقد كتب افيناريوس في المرجع نفسه قد يبدو انه لا يحق للعلوم الطبيعية من وجهة النظر النقدية التجريبية على وجه الضبط ان تطرح مسألة مراحل في بيئتنا الحالية سبقت من حيث الزمن وجود الانسان» (ص ١٤٤) جواب افيناريوس «ان من يسأل عن هذا لا يمكنه التهرب من استحضار نفسه بالذات» (sich hinzuzudenken اي تصور نفسه حاضراً عند هذا) ويستطرد افيناريوس قائلاً «وبالفعل ان ما يريده عالم الطبيعيات (رغم انه لم يدرك هذا بما يكفي من الوضوح) يقتصر من حيث جوهر الامر على ما يلي باي نحو يجب تعريف الارض او العالم قبل ظهور الكائنات الحية او الانسان ، اذا كنت استحضر نفسي بصفة متفرج تقريباً كأنما يمكن ان نتصور اننا نراقب تاريخ كركب آخر او حتى نظام شمسي آخر من ارضنا بواسطة ادوات راقية»

لا يمكن للشيء ان يوجد بصورة مستقلة عن ادراكنا «نحن نستحضر دائماً انفسنا بالذات كعقل يسعى الى ادراك هذا الشيء»

ان هذه النظرية نظرية ضرورة «استحضار» ادراك الانسان حيال كل شيء حيال الطبيعة قبل الانسان انما عرضتها في المقطع الاول باقوال «الوضعي الحديث» ر . افيناريوس ، وفي المقطع الثاني

باقوال المثالي ي غ فيخته * ان سفسطائية هذه النظرية جلية للعيان الى حد انه من المزعج تحليلها فاذا كنا «نستحضر» انفسنا، فان حضورنا سيكون **متخيلا** في حين ان وجود الارض قبل الانسان **فعلي** وبالفعل **لم يكن بوسع** الانسان ان يكون شاهداً مثلا، على حالة الارض الملتهبة، و«تصور» حضوره في هذه الحالة انما هو **ظلامية** تماماً كما لو اني شرعت ادافع عن وجود جهنم بالذريعة التالية لو كنت «استحضرت» نفسي كمراقب لكنت استطعت ان اراقب جهنم ان «التوفيق» بين المذهب النقدي التجريبي وبين العلوم الطبيعية يتلخص في كون افيناريوس يتفضل ويوافق على «استحضار» امكانية التسليم بما **نفته** العلوم الطبيعية وما من امرئ متعلم نوعاً وسليم نوعاً يخالجه الشك في ان الارض كانت موجودة عندما **لم يكن من الممكن** ان تكون فيها اية حياة اي احساس اي «عضو مركزي» وان كل نظرية ماخ وافيناريوس التي ينجم منها ان الارض هي مركب احساسات («الاجسام هي مركبات احساسات») او «مركب عناصر يتماثل فيها النفسي مع الفيزيائي» او «عضو مضاد لا يمكن ابداً في ظله ان يكون العضو المركزي موازياً للصفر» هي بالتالي **ظلامية فلسفية** وتعني السير بالمثالية الذاتية الى حد المحال

لقد رأى بتسولدت سخافة الموقف الذي تورط فيه السيد افيناريوس فخجل وفي مؤلفه «مقدمة الى فلسفة التجربة الخالصة» (المجلد الثاني) يكرس فقرة كاملة (الفقرة ٦٥) «لمسألة واقعية مراحل الارض السابقة» (او الباكرة – frühere)

---

* J. G. Fichte. «Rezension des «Aenesidemus»», 1794, في Sämtliche Werke, Bd. I, S. 19 (يوهان غوتليب فيخته «مراجعة لـ«اينيزيدم»» عام ١٧٩٤، في مجموعة المؤلفات، المجلد الاول، ص ١٩ **الناشر**)

اينيزيدم – فيلسوف الريبية الاغريقي (القرن الاول قبل المسيح). **المعرب**.

يقول بتسولدت «ان الـ**انا** (das Ich) يضطلع في مذهب افيناريوس بدور يختلف عما عند شوبّه» (ونلاحظ ان بتسولدت يعلن صراحة وغير مرة ان فلسفتنا قد اسسها **ثلاثة** اشخاص افيناريوس وماخ وشوبّه) «ولكن مع ذلك بدور هو على الارجح مفرط في الاهمية بالنسبة لنظريته» (اغلب الظن ان ما اثر في بتسولدت ، كون شوبّه قد نزع القناع عن افيناريوس ، بقوله ان كل شيء عند افيناريوس ايضاً يرتكز **فعلا** على الـ**انا** فقط ويريد بتسولدت ان يتصحح) ويستطرد بتسولدت قائـلا «قـال افيناريوس ذات مرة «بوسعنا **طبعاً** ان نتصور مكاناً لم تطأه بعدُ قدم الانسان ولكن لكي يكون من الممكن **تصور** (حرف التأكيد لافيناريوس) مثل هذه البيئة لهذا الغرض ينبغي ما نسميه **انا** (Ich-Bezeichnetes) **الذي** هذا التصور هو تصوره (حرف التأكيد لافيناريوس) («Vierteljahrsschrift für wissenschaftliche Philosophie“ 18. Bd., 1894, S. 146, Anmerkung)”

ويعترض بتسولدت

«ولكن المسألة الهامة لا تقوم البتة من الناحية العرفانية فيما اذا كان بوسعنا على العموم ان نتصور مكاناً كهذا بل تقوم فيما اذا كان يحق لنا ان نتصور انه يوجد او وجد بصورة مستقلة عن التفكير الفردي اياً كان»

ما هو صحيح صحيـــح فبوســـع الناس ان يتصوروا و«يستحضروا» لانفسهم اية جهنم واية عفاريت ولوناتشارسكي ذهب الى حد انه «استحضر» لنفسه . - ولنقل بلطف - مفاهيم دينية ولكن مهمة نظرية المعرفة تكمن على وجه الضبط في تبيان عدم واقعية هذه الاستحضارات وخياليتها ورجعيتها

اما انه لا بد من النظام ن (اي الدماغ) لأجل التفكير فان هذا بديهي بنظر افيناريوس وبنظر الفلسفة التي ادافع عنها . . .»

هذا غير صحيح فان نظرية افيناريوس في عام ١٨٧٦ هي نظرية الفكر بدون الدماغ وفي نظريته العائدة الى سنوات ١٨٩١–١٨٩٤ يوجد كما سنرى الآن عنصر مماثل من الهذيان المثالي

ولكن هل يكون هذا النظام ن **شرطاً لوجود** (حرف التأكيد لبتسولدت) مثلاً العهد الثانوي (Sekundärzeit) للارض» ؟ واذا بتسولدت ، – وقد اورد هنا محاكمة افيناريوس التي استشهدت بها والتي تتعلق بما تريده بالذات العلوم الطبيعية وبالكيفية التي نستطيع بها «استحضار» المراقب يعترض قائلا

«كلا نحن نريد ان نعرف ما اذا كان يحق لنا ان نتصور الارض في ذلك العهد البعيد موجودة مثلما اتصورها موجودة امس او منذ دقيقة او ما اذا كان ينبغي بالفعل اشتراط وجود الارض بمنحنا الحق (كما اراد **فيللي**) في ان نتصور على الاقل انه يوجد مع الارض في الزمن المعني نظام ما ن وان في ادنى درجات تطوره ؟» (وسنتحدث الآن عن فكرة فيللي هذه)

«ان افيناريوس يتحاشى استنتاج فيللي الغريب بواسطة تلك الفكرة القائلة ان الشخص الذي يطرح المسألة لا يمكنه ان يستغيب نفسه (sich wegdenken اي ان يتصور نفسه غائباً) او لا يمكنه ان يتحاشى استحضار نفسه (sich hinzuzudenken راجعوا «المفهوم الانساني عن العالم» ص ١٣٠ من الطبعة الالمانية الاولى) ولكن افيناريوس يجعل على هذا النحو من **انا** الفردي للشخص الذي يطرح المسألة او الفكرة عن **انا** كهذا بوصفه شرطاً لحقنا في تصور وجود الارض في ذلك الزمن وليس بوصفه شرطاً لمجرد عمل الفكرة عن الارض غير المأهولة

من السهل تجنب هذه السبل الخاطئة اذا لم يول هذا الـ **انا** مثل هذه القدر الكبير من الاهمية النظرية ان الامر الوحيد الذي يجب ان تطالب به نظرية المعرفة مع حسبان الحساب لهذه او تلك من النظرات الى ما هو بعيد عنّا في المكان وفي الزمان ، هو ان يكون

6*

قابلا للتصور وان يكون من الممكن تعريفه بمدلول واحـــد (eindeutig) والباقي كله هو شأن العلوم المختصة» (المجلد الثاني ص ٣٢٥)

لقد جعل بتسولدت من قانون السببية قانون القابلية للتعريف الوحيد المدلول وادخل في نظريته كما سنرى ادناه **قبلية** * هذا القانون وهذا يعني ان بتسولدت ينقذ نفسه من المثالية الذاتية والسوليبسيسم عند افيناريوس (ويقال هذا باللغة الاصطلاحية الاستاذية «يضفي على **انا**نا اهمية خارقة») بواسطة افكار **كانطية** ان نقص العامل الموضوعي في مذهب افيناريوس واستحالة التوفيق بينه وبين مقتضيات العلوم الطبيعية التي تعلن ان الارض (الموضوع) قد وجدت قبل ظهور الكائنات الحية (الذات) بزمن طويل ، – قد اجبرا بتسولدت على التمسك بالسببية (التعريف الوحيد المدلول) كانت الارض موجودة لأن وجودها قبل الانسان مرتبط سببياً بوجود الارض الحالي اولا من اين جاءت السببية ؟ القبلية – يقول بتسولدت ثانياً أليست التصورات عن جهنم والعفاريت و«استحضارات» لوناتشارسكي مرتبطة هي ايضاً بالسببية ؟ ثالثاً على كل حال يظهر ان نظرية «مركبات الاحساسات» قد قضى عليها بتسولدت فان بتسولدت لم يحل التناقض الموجود عنـــد افيناريوس والذي يعترف به بل ازداد ارتباكاً لأنه لا يمكن ان يكون ثمة سوى حل واحد الاعتراف بان العالم الخارجي الذي يعكسه وعينا يوجد بصورة مستقلة عن وعينا وهذا الحـــل المادي هو وحده الذي يتفق فعلا مع العلوم الطبيعية وهو وحده الذي يستبعد حل مسألة السببية حلا مثالياً من قبل بتسولدت وماخ ، الامر الذي سنتحدث عنه بوجه خاص

وللمرة الاولى طرح الناقد التجريبي الثالث ، ر فيللي ، مسألة

---

* قبلية – a priori . **المعرب** .

هذه الصعوبة بالنسبة لفلسفة افيناريوس في عام ١٨٩٦ في مقالته «Der Empiriokritizismus als einzig wissenschaftlicher Standpunkt» («المذهب النقدي التجريبي بوصفه وجهة النظر العلمية الوحيدة») فما العمل بالعالم قبل الناس ؟ – يسأل هنا فيللي * ويجيب في البدء اثر افيناريوس «نحن ننتقل الى الماضي **بالفكر**» ولكنه يقول فيما بعد انه ليس من الالزامي اطلاقاً ان نفهم **التجربة** من كل بد بمعنى تجربة الانسان «لأنه يجب اعتبار عالم الحيوانات – حتى وان كان المقصود دودة تافهة للغاية – كالناس البدائيين (Mitmenschen) ما دمنا نأخذ حياة الحيوانات بالارتباط مع التجربة العامة» (٧٣–٧٤) وهكذا كانت الارض قبل الانسان «تجربة» دودة قامت بوظيفة «العضو المركزي» لأجل انقاذ «تنسيق» افيناريوس وفلسفة افيناريوس فلا غرابة اذا كان بتسولدت قد حاول ان يقي نفسه من مثل هذه المحاكمة التي ليست درة من درر السخافة وحسب (تُعزى الى الدودة فكرة عن الارض تتناسب مع نظريات الجيولوجيين) بل لا تساعد كذلك فيلسوفنا في شيء لأن الارض قد وجدت لا قبل الانسان وحسب بل ايضاً قبل اية كائنات حية على العموم

وقد حاكم فيللي مرة اخرى في هذا عام ١٩٠٥ فاذا بالدودة تختفي ** ولكن «قانون وحدة المدلول» الذي قال به بتسولدت لم يرض فيللي بالطبع اذ انه لم ير هنا غير «الصورية المنطقية» يقول المؤلف ان مسألة العالم قبل الانسان المطروحة بطريقة بتسولدت تقودنا على الارجح «من جديد الى

* «Vierteljahrsschrift für wissenchaftliche Philosophie» المجلد ٢ ١٨٩٦ ، ص ٧٢

** R. Willy. «Gegen die Schulweisheit», ١٩٠٥ ، ص ١٧٣–١٧٨ .

الاشياء-في-ذاتها لما يسمى الفكر السليم ؟» (اي الى المادية فيا للهول بالفعـــل !) ماذا تعني ملايين السنين بدون حياة «أوليس الوقت نفســه يا ترى شيئاً-في-ذاتــه ؟ كــلا طبعاً ! * وما دام الحال هكذا فان هذا يعني ان الاشياء خارج الانسان ليست غير تصورات اجزاء من خيال يتراءى للناس بواسطة بعض القطــع التي نجدهــا حولنا ولماذا لا يكون الحال هكذا بالفعل ؟ وهل ينبغي للفيلسوف يا ترى ان يخشى سيول الحياة ؟ اني اقول لنفسي دع جانباً تفلسفات الانظمة واغتنم اللحظة (ergreife den Augenblick) تلك اللحظـة التي تعيشها والتي هي وحدها تمنح السعادة» (١٧٧-١٧٨)

هكذا اذن هكذا اذن إمّا المادية وإمّا السوليبسيسم الى هذا خلص ر فيللي رغم كل جمله الصياحة عند دراسة مسألة الطبيعة قبل الانسان

الحاصل تكلم امامنا ثلاثة من عرافي المذهب النقدي التجريبي بذلوا قصارى جهدهم للتوفيق بين فلسفتهم والعلوم الطبيعية لرفء فتق السوليبسيسم وقد ردد افيناريوس حجة فيختــه واستعاض عن العالم الفعلي بعالم متخيَّل وابتعد بتسولدت عن المثالية الفيختية واقترب من المثالية الكانطية اما فيللي الذي مني بالفشل مع «الدودة» فقد تملكه اليأس وافشى الحقيقة عن غيــر قصد إمّا الماديــة وإمّا السوليبسيسم او حتى عدم الاعتراف باي شيء ما عدا اللحظة الراهنة

ولا يبقى لنا غير ان نبين للقارئ **كيف** فهم الماخيون مـن ابناء بلدنا هذه المسألة وكيف عرضوها واليكـم بازاروف في «دراسات «في» فلسفة الماركسية» ص ١١

---

* وسنتحدث عن هذا بصورة خاصة مع الماخيين فيما يلي مـــن العرض .

«يبقى لنا الآن ان ننزل تحت قيادة vademecum * نـــا الامين» (والمقصود به بليخانوف) «الى آخر وارهب طبقة من طبقات جهنم السوليبسيسم الى تلك الطبقة التي تتهدد فيها كل مثالية ذاتية كما يؤكد بليخانوف ضرورة تصور العالم في الصور التي تصوّرتها الايكتيوسورات ** والاركيوبتيريكسات *** «لننتقل بالفكر ، - يكتب هو بليخانوف ، - الى ذلك العهد الذي لم يكن يوجد فيه في الارض غير اجداد للانسان بعيدين جداً ، مثلاً ، الى العهد الثانوي وهنا نتساءل كيف كان آنذاك حال المكان والزمان والسببية ؟ باية صور ذاتية كانت آنذاك ؟ بالصور الذاتيـــة للايكتيوسورات ؟ واي عقل فرض آنذاك قوانينه على الطبيعة ؟ عقل الاركيوبتيريكس ؟ عن هذه الاسئلة لا تستطيع فلسفـــة كانط ان تعطي جواباً فيجب نبذها لأنه يستحيل التوفيـــق بينها وبين العلم المعاصر» («ل فورباخ» ص ١١٧»)

هنا يقطع بازاروف الاستشهاد من بليخانوف على وجـــه الضبط قبل جملة بالغة الاهميـــة كما سنرى الآن «تقول المثالية لا موضوع بدون ذات ولكن تاريخ الارض يبين ان الموضوع قد وجد قبل ظهور الذات بزمن طويل اي قبل زمـــن طويل من ظهور العضويات التي تملك درجة ملحوظة من الوعي ان تاريخ التطور يكشف صحة المادية»

لنواصل الاستشهاد من بازاروف

ولكن هل الشيء البليخانوفي في ذاتـــه يعطي الجواب المنشود ؟ لنتذكر انه لا يمكننا ان نملـــك وفقاً لبليخانوف

---

* مرشد **الناشر**

** الايكتيوسور - ichthyosaurus - زحافة بحرية منقرضـــة **المعرب**

*** الاركيوبتيريكس - archaeopteryx - طيـــر مـــن الازمـــان الغابرة . **المعرب** .

ايضاً اية فكرة عن الاشياء كما هي في ذاتها وكل ما نعرفه هو مظاهرها ونتائج فعلها في اعضاء حواسنا «وليس لها عدا هذا الفعل اي صورة» (« ل فورباخ» ص ١١٢) اي من اعضاء الحواس كانت موجودة في عهـد الايكتيوسورات طبعـاً اعضاء حواس الايكتيوسورات والحيوانات المماثلة لهـا فقط وكانت تصورات الايكتيوسورات فقط المظاهر الفعلية الواقعية للاشياء في ذاتها ومن هنا ينجم انه وفقاً لبليخانوف ايضاً ينبغي للعالم الاحاثي اذا ما شاء ان يبقى في تربة «واقعية» ان يكتب تاريخ العهد الثانوي في الصور التي تصوّرتها الايكتيوسورات وهنا بالتالي لا خطوة الى الامام بالقياس الى السوليبسيسم»

هذا هو النص الكامل (ونعتذر من القراء لطول الاستشهاد ولكنه لا يمكن غير ذلك) لمحاكمة ماخي يجدر تخليدها بوصفهـا نموذجاً رائعاً على التشوش

فان بازاروف يتصور انه آخذ بليخانوف بكلامه فاذا لم يكن للاشياء في ذاتها اية صورة عدا الفعل في اعضاء حواسنا فان هذا يعني انه لم يكن لها وجود في العهد الثانوي الا «كصورة» تخلقها اعضاء حواس الايكتيوسورات وهذه محاكمة مادي ؟! اذا كانت «الصورة» نتيجة فعل «الاشياء في ذاتها» في اعضاء الحواس ، فانه ينجم من هنا ان الاشياء **لا توجد بنحو مستقل** عن اعضاء الحواس اياً كانت ؟ ؟

ولكن لنفترض وان لثانية ان بازاروف «لم يفهم» بالفعل كلمات بليخانوف (مهما كان هذا الافتراض مستحيلاً) وانها بدت له غير واضحة فليكن كذلك وهنا نتساءل أيقوم بازاروف ببهلوانات الفروسية ضد بليخانوف (الذي يرفع الماخيون انفسهم من شأنه ويجعلون منه الممثل الوحيد للمادية !) ام يقوم بتوضيح مسألة **المادية** ؟ فاذا كان بليخانوف يبدو لك غير واضـح او

متناقضاً وما الى ذلك فلماذا لم تأخذ ماديين آخرين ألانك لا تعرفهم ؟ ولكن الجهل ليس حجة

اذا كان بازاروف لا يعرف بالفعل ان المقدمة الاساسية للمادية هي الاعتراف بالعالم الخارجي الاعتراف بوجود **الاشياء** خارج ادراكنا وبصورة مستقلة عنه فاننا نواجه هنا بالفعل حالة بارزة من الجهل المطبق .واننا نذكر القارئ ببركلي الذي لام الماديين في عام ١٧١٠ على اعترافهم «بالمواضيع في حد ذاتها» الموجودة بصورة مستقلة عن ادراكنا والتي يعكسها هذا الادراك ويقيناً ان كل امرئ حر في الوقوف الى جانب بركلي او اي كان **ضد** الماديين فهذا امر لا جدال فيه ولكن لا جدال كذلك في ان التحدث عن الماديين وتشويه او جهل المقدمة الاساسية للمادية **جمعاء** انما يعنيان تشويش المسألة غاية التشويش

هل كان بليخانوف على حق حين قال انه لا موضوع بدون الذات بنظر المثالية وان الموضوع يوجد بنظر المادية بصورة مستقلة عن الذات ومعكوساً بقدر متفاوت من الصحة في ادراكه ؟ اذا كان هذا **غير** صحيح فانه كان يتعين على من يحترم الماركسية وان قليلا ان يبين غلطة بليخانوف **هذه** وان يأخذ بالحسبان في مسألة المادية والطبيعة قبل الانسان **لا** بليخانوف بل شخصاً ما آخر ماركس انجلس فورباخ اما اذا كان هذا صحيحاً او اذا كنت على الاقل عاجزاً عن العثور على الغلطة هنا فان محاولتك لخلط الاوراق لتشويش ابسط تصور في رأس القارئ عن الفرق بين المادية والمثالية هي بذاءة ادبية

اما اولئك الماركسيون الذين يهتمون بالمسألة **بصرف النظر** عن كل كلمة يقولها بليخانوف فاننا نسوق من اجلهم رأي ل فورباخ الذي كان مادياً كما هو معروف (ولربما **ليس** لبازاروف ؟) ، والذي انتقل ماركس وانجلس بواسطته ، كما هو

معروف من مثالية هيغل الى فلسفتهما المادية فقد كتب فورباخ في اعتراضه على هايم يقول

«ان الطبيعة التي ليست موضوع الانسان او الوعي هي بالطبع بالنسبة للفلسفة التأملية او على الاقل بالنسبة للمثالية شيء كانطي في ذاته» (وسنتحدث فيما بعد بالتفصيل عن خلط ماخيينا بين الشيء الكانطي في ذاته والشيء المادي في ذاته) «تجريد بدون واقع ولكن الطبيعة بالضبط تتسبب للمثالية بالفشل ان العلوم الطبيعية تقودنا بالضرورة في حالتها الراهنة على الاقل الى تلك النقطة التي لمّا تكن قد توفرت فيها الظروف لأجل الوجود البشري والتي لمّا تكن فيها الطبيعة اي الارض موضوعاً لعين الانسان ولوعيه والتي كانت فيها بالتالي كائناً غير بشري اطلاقاً (absolut unmenschlichesWesen). قد تعترض المثالية على هذا قائلة ولكن هذه الطبيعة هي طبيعة تتصورها انت (von dir gedachte) طبعاً ولكنه لا ينجم من هذا ان هذه الطبيعة لم يكن لها وجود بالفعل في حقبة معينة من الزمن مثلما انه لا ينجم من كون سقراط وافلاطون غير موجودين بالنسبة لي اذا لم افكر فيهما ان سقراط وافلاطون لم يوجدا في زمنهما في الواقع بدوني» *

* L. Feuerbach. Sämtliche Werke, herausg. von Bolin und Jodl, Band VII, Stuttgart, 1903, S. 510; او Karl Grün, «L. Feuerbach in seinem Briefwechsel und Nachlaß, sowie in seiner philosophischen Charakterentwicklung», I. Band, Lpz., 1874, SS. 423–435 (ل فورباخ المؤلفات الكاملة اصدار بولين ويودل المجلد ٧ شتوتغارت ، ١٩٠٣ ، ص ٥١ ؛ او كارل غرون «ل فورباخ ، مراسلاته وتراثه الادبي ، وكذلك تحليل تطوره الفلسفي» . المجلد الاول ، ليبزيغ ، عام ١٨٧٤ ، ص ٤٢٣ـ٤٣٥ . **الناشر**) .

هكذا حاكم فورباخ بصدد المادية والمثالية من وجهة نظر الطبيعة قبل الانسان وقد دحض فورباخ سفسطة افيناريوس («استخصار مراقب») دون علمه «بالوضعية الحديثة» ومع علمه جيداً بالسفسطات المثالية القديمـة والحال ان بازاروف لا يعطي البتة اي شيء عدا تكرار سفسطة المثاليين هذه «لـو كنت هناك (في الارض في العهد ما قبل الانسان) لكنت رأيـت العالم بصورة ما» («دراسات في فلسفة الماركسية» ص ٢٩) وبتعبير آخر اذا تقدمت بفرضية من الجلي انها سخيفة وتناقض العلوم الطبيعية (كأنما بوسع الانسان ان يكون مراقباً للعهد مـا قبل الانسان) ، فاني اجعل فلسفتي منسجمة

ولهذا يمكن الحكم على معرفة بازاروف للقضية او عـلى اساليبه الادبية وهو الذي لم ينبس ببنت شفة عن «الصعوبة» التي كسر افيناريوس وبتسولدت وفيللي رؤوسهم عليها فضلا عن انه خلط كل شيء في كيس واحد وقدم للقارئ تشوشاً ما بعده تشوش بحيث لم يبق اي فرق بين المادية والسوليبسيسم فان المثالية معروضة على انها «الواقعية» بينما عزي الى المادية انكار وجود الاشياء خارج فعلها في اعضاء الحواس اجل اجل إما ان فورباخ لم يكن يعرف الفرق الاولي بين المادية والمثالية وإمّا ان بازاروف وشركاه صوروا الحقائق الاولية في الفلسفة بطريقة جديدة تماماً

او اليكم ايضاً فالنتينوف انظروا الى هذا الفيلسوف المعجب طبعاً ببازاروف ١ – «ان بركلي هو مؤسس نظريـة التضايف الخاصة بالتواجد النسبي للذات وللموضوع» (١٤٨) ولكن هذا ليس البتة مثالية بركلي ولا شيء من هذا القبيل هذا «تحليل عميق التفكير» ٢ – «ان المقدمات الاساسية للنظرية مصاغة عند افيناريوس في الشكل الاكثر واقعية ، خارج صور (!) تفسيرها

(التفسير فقط !) المثالي العادي» (١٤٨) ان التعمية كما يتضح تتصيد الرضع ! ٣ - «نظرة افيناريوس الى نقطة انطلاق المعرفة ان كل فرد يجد نفسه في بيئة معينة اي ان الفرد والبيئة يُعطَيان على انهما عضوا تنسيق واحد متصلان ولا تنفصم عراهما (!)» (١٤٨) يا للروعة هذا ليس مثالية - فان فالنتينوف وبازاروف قد ارتفعا فوق المادية والمثالية هذا «لاانفصامية» الموضوع عن الذات الاكثر «واقعية» ٤ - «هل القول المعاكس صحيح وهو انه لا وجود لعضو مضاد لا يناسبه العضو المركزي - الفرد ؟ مفهوم (!) ، انه غير صحيح في العهد الاقدم اخضرت الغابات ولم يكن الانسان موجوداً» (١٤٨) اللاانفصامية - تعني انه **يمكن** الفصم اوليس هذا «مفهوماً» يا ترى ؟ ٥ - «ومع ذلك تكون مسألة الموضوع في حد ذاته سخيفة من وجهة نظر نظرية المعرفة» (١٤٨) وكيف لا عندما لم تكن ثمة عضويات حساسة كانت الاشياء مع ذلك «مركبات عناصر» **متماثلة** مع الاحساسات ٦ - «ان المدرسة الكمونية في شخص شوبرت-زولدرن وشوبّه قد البست هذه (!) الافكار شكلا غير صالح فوجدت نفسها في مأزق السوليبسيسم» (١٤٩) لا سوليبسيسم في «هذه الافكار» كما ان المذهب النقدي التجريبي ليس البتة ترديداً للنظرية الرجعية لانصار مذهب الكمونية الذين يكذبون حين يعربون عن عطفهم على افيناريوس

هذه ليست فلسفة ايها السادة الماخيون ، بل رصف لكلمات لا رابط بينها .

٥ ـ هل يفكر الانسان بواسطة الدماغ ؟

يجيب بازاروف عن هذا السؤال بالايجاب بصورة جازمة تماماً وقد كتب يقول «اذا اضفي على موضوعة بليخانوف القائلة «ان الوعي هو الحالة الداخلية (؟ بازاروف) للمادة» شكل أنسب مثلاً كل عملية نفسية هي وظيفة عملية الدماغ» ، فلن يجادل ضدها لا ماخ ولا افيناريوس .» («دراسات «في» فلسفة الماركسية» ٢٩)

بنظر الفأر ليس ثمة وحش اقوى من القطة وبنظر الماخيين الروس ليس ثمة مادي اقوى من بليخانوف فهل طرح بليخانوف **وحده** بالفعل او هل كان بليخانوف هو اول من طرح تلك الموضوعة المادية القائلة ان الادراك هو الحالة الداخلية للمادة ؟ واذا كانت صياغة المادية عند بليخانوف لم تعجب بازاروف فلماذا كان ينبغي ان يؤخذ بليخانوف بالحسبان وليس انجلس ولا فورباخ ؟

لأن الماخيين يخافون من الاعتراف بالحقيقة وهم يناضلون ضد المادية ويتظاهرون بانهم يناضلون ضد بليخانوف وهذا اسلوب جبان ولامبدئي

ولكن لننتقل الى المذهب النقدي التجريبي ان افيناريوس «لن يجادل» ضد ان الفكر هو وظيفة الدماغ ان كلمات بازاروف هذه كذب سافر فان افيناريوس لا **يجادل** ضد الموضوعة المادية وحسب بل يبني كذلك «نظرية» كاملة لدحض هذه الموضوعة على وجه الضبط يقول افيناريوس في «المفهوم الانساني عن العالم» «ان دماغنا ليس مسكناً مقعداً صانعاً ليس اداة او عضواً حاملا او اساساً والخ للتفكير» (ص ٧٦ - ، الاستشهاد مأخوذ بتعاطف من مؤلف ماخ «تحليل الاحساسات» ، ص ٣٢) . «ان

التفكير ليس ساكناً او آمراً وليس نصفاً او جانباً والخ ولكنه ليس ايضاً نتاجاً وليس حتى وظيفة فيزيولوجية او حتى حالة على العموم للدماغ» (المرجع نفسه) وليس باقل من الجزم يفصح افيناريوس عن رأيه في مؤلفه «ملاحظات» ان «التصورات» «ليست وظائف الدماغ (الفيزيولوجية النفسية النفسية الفيزيائية)» (الفقرة ١١٥ ص ٤١٩ من المقالة المذكورة) ان الاحساسات ليست «وظائف الدماغ النفسية» (الفقرة ١١٦)

اذن ليس الدماغ حسب افيناريوس عضو الفكر وليس الفكر وظيفة الدماغ لنأخذ انجلس فاذا بنا نرى في الحال صيغاً مادية على المكشوف ومضادة تماماً لهذا فان انجلس يقول في مؤلفة «ضد دوهرينغ» «ان التفكير والادراك هما نتاجا الدماغ البشري» (ص ٢٢ من الطبعة الالمانية الخامسة) (١٧) والفكرة نفسها تتكرر مراراً عديدة في هذا المؤلف وفي كتاب «لودفيغ فورباخ» نقرأ العرض التالي لنظرات فورباخ ونظرات انجلس «ان عالم الاشياء (stofflich) هذا الذي ندركه بالحواس والذي ننتمي اليه نحن انفسنا هو العالم الوحيد الواقعي» «اما ادراكنا وتفكيرنا مهما يبدوا فائقي الاحساس فانهما نتاج (Erzeugnis) جهاز مادي جسمي هو الدماغ ليست المادة نتاج الروح بل الروح نفسه ليس سوى اعلى نتاج للمادة فهذه طبعاً مادية بحتة» (الطبعة الالمانية الرابعة ص ١٨) او ص ٤ انعكاس مجريات الطبيعة «في الدماغ المفكر» (١٨) والخ وهكذا دواليك

ان وجهة النظر المادية هذه يرفضها افيناريوس الذي يسمّي «تفكير الدماغ» بـ«**فتشية * العلوم الطبيعية**» («المفهوم الانساني

* فتشية ـ fetichisme ، تيمية اي عبادة الاشياء المسحورة او عبادة الاشياء المادية لذاتها . **المعرب** .

عن العالم» الطبعة الالمانية الثانية ص ٧٠) ومن هنا ينجم ان افيناريوس لا يعلل نفسه باقل وهم بصدد اختلافه التام في هذه النقطة مع العلوم الطبيعية وهو يعترف ، — كما يعترف ماخ وجميع انصار مذهب الكمونية — ، بان العلوم الطبيعية تتبنى وجهة نظر مادية عفوية غير واعية وهو يعترف ويعلن صراحة انه **يختلف بالتأكيد** مع «**علم النفس السائد**» («الملاحظات» ص ١٥٠ وكثير غيرهـــا من الصفحات) ان علم النفس السائد هذا يقوم بـ«حقن» — وهذه كلمة جديدة استنبطها فيلسوفنا بشق النفس — غير جائز اى بادخال الفكر في الدماغ او الاحساسات فينا ان «هاتين الكلمتين» (في نا= in uns) ، — كما يقـول افيناريوس في المكان نفسه — ، تنطويان على تلك المقدمة (Annahme) التي يعارضها المذهب النقدي التجريبـــي «ان هذا **الادخال** (Hineinverlegung) للمرئي والخ في الانســـان هو مـــا نسميـــه **بالحقن**» * (ص ١٥٣ الفقرة ٤٥)

ان الحقن يتراجع «مبدئياً» عن «المفهوم الطبيعي عن العالم» (natürlicher Weltbegriff) قائلاً «في» عوضاً عن ان يقـــول «امامي» (vor mir ، ص ١٥٤) «جاعلاً من احدى مقومـــات البيئة (الواقعيـــة) احدى مقومات التفكير (المثالي)» (المرجـــع نفسه) «من اللاميكانيكي» amechanique (كلمة جديدة عوضاً عن النفسي) «الذي يتكشف بطلاقة وجلاء في المعطى (او الذي نجده im Vorgefundenen) يجعل الحقن شيئـــاً يتخفى سراً latetant) ، — يقول افيناريوس «بطريقة جديدة») في الجهاز العصبي المركزي» (المرجع نفسه)

امامنا **التعمية** ذاتها التي رأيناها في مثال الدفاع المزعوم عن

---

* الحقن — introjection . **المعرب** .

«الواقعية الساذجة» من قبـل انصار المذهب النقدي التجريبي وانصار مذهب الكمونية ان افيناريوس يعمل بنصيحة المكار عند تورغينيف (١٩) يجب الزعيق اكثر ما يكون ضد العيوب التي تدرك انها عيوبك فان افيناريوس يحاول ان يتظاهر بانه يحارب المثالية فمن الحقن كما يزعم يستخلصون عادة المثالية الفلسفية ويحولون العالم الخارجي الى احساس الى تصور وما الى ذلك اما انا فاني ادافع عن «الواقعية الساذجة» ، عن كون كل المعطى اي «الانا» والبيئة على السواء حقيقة واقعة واحدة ، دون ان ادخل العالم الخارجي في دماغ الانسان

ان السفسطائية هنا هي تماماً نفس السفسطائية التي رأيناها في مثال التنسيق الشهير فان افيناريوس بصرفه انتباه القارئ بالتهجمات على المثالية ، يدافع فعلاً ، بكلمات مختلفة بعض الشيء ، عن المثالية ذاتها ان الفكر ليس وظيفة الدماغ والدماغ ليس عضو الفكر والاحساسات ليست وظيفة الجهاز العصبي كلا ان الاحساسات انما هي «عناصر» نفسية فقط في حالة واحدة وفي حالة اخرى (رغم انها عناصر «متماثلة» ولكنها) فيزيائية وبالتعابير المشوشة الجديدة والكلمات المزوقة الجديدة التي تعبر كما يزعم ،عن «نظرية» جديدة لم يفعل افيناريوس غير ان راوح في مكانه وعاد الى مقدمته المثالية الاساسية

واذا كان ماخيونا الروس (مثلاً بوغدانوف) لم يلاحظوا «التعمية» ورأوا دحض المثالية في الدفاع «الجديد» عنها فاننا نجد في تحليل المذهب النقدي التجريبي من قبل الفلاسفة ـ الاختصاصيين تقييماً سليماً لكنه افكار افيناريوس الذي يتكشف باستبعاد التعابير المزوقة

في عام ١٩٠٣ ، كتب بوغدانوف (مقالة : «التفكير المتسلط»

في مجموعة «من بسيكولوجيا المجتمع» ص ١١٩ وما يليهـــا) يقول

«لقد رسم ريخارد افيناريوس لوحـــة فلسفية في غايـــة التناسق والكمال عن تطور اثنينية الروح والجسد ان كنـــه «مذهبه عن الحقن» يتلخص فيما يلي» (نحن لا نرى مباشرة سوى الاجسام الفيزيائية مستخلصين من باب الافتراض فقط وجود الانفعالات عند الآخرين اي وجود النفسي عنـــــد انسان آخر)

وتزداد الفرضية تعقداً بكون انفعالات الانسان الآخر توضع داخل جسمه وتدخل (تحقن) في عضويته وهذه فرضية نافلة وحتى فرضية تولد طائفة من التناقضات وان افيناريوس يشير بانتظام الى هذه التناقضات عارضاً سلسلة متتابعة من المراحل التاريخية في تطور الاثنينية ثم في تطور المثالية الفلسفية ؛ – ولكنه لا داعي هنا يدعونا الى السير وراء افيناريوس «ان الحقن يبرز بمثابة تفسير لاثنينية الروح والجسد»

لقد علق بوغدانوف في صنّارة الفلسفة الاستاذيـــة اذ صّدق ان «الحقن» موجه ضد المثالية وصدق بوغدانوف **على العمياء** ذلك التقييم للحقن الذي اعطاه افيناريوس نفسه دون ان يلاحظ **الابرة** المصوبة ضد المادية فان الحقن ينكر ان يكون الفكـــر وظيفة الدماغ وان تكون الاحساسات وظيفـــة الجهاز العصبي المركزي عند الانسان اي انه ينكر الحقيقـــة الاوليـــة في الفيزيولوجيا وذلك لأجل تحطيم الماديـــــة واذا «الاثنينية» تـُدْحَض **بطريقة مثالية** (رغم كل الغضـــب الديبلوماسي الذي يتملك افيناريوس على المثالية) لأن الاحساس والفكر يصبحان بالتالي **الاولين** وليس الثانويين ، وليس نتاجاً للمادة ان افيناريوس لم يدحض الاثنينية هنا الا بقدر ما «دحض» وجود الموضوع بدون الذات ، وجود المادة بدون الفكر ، وجود العالم الخارجي بصورة

مستقلة عن احساساتنا اي انه «دحضها» **بطريقة مثالية** ان افيناريوس قد احتاج الى الانكار السخيف لكون الصورة المرئية للشجرة هي وظيفة شبكية عيني واعصابي ودماغي لأجل دعم النظرية بشأن الصلة «التي لا تنفصم عراها» للتجربة «الكاملة» التي تحتوي «**انا**»نا والشجرة معاً اي البيئة

ان مذهب الحقن هو تخبيص يمرر الهراء المثالي خلسة ويناقض العلوم الطبيعية التي تتبنى بثبات وجهة النظر القائلة ان الفكر هو وظيفة الدماغ وان الاحساسات **اي** صور **العالم الخارجي** توجد **فينا** كحاصل لتأثير الاشياء في اعضاء حواسنا ان القضاء المادي على «اثنينية الروح والجسد» (اي الاحادية المادية) يقوم في ان الروح لا يوجد بصورة مستقلة عن الجسد ان الروح هو الثانوي هو وظيفة الدماغ هو انعكاس العالم الخارجي اما القضاء المثالي على «اثنينية الروح والجسد» (اي الاحادية المثالية) فيقوم في ان الروح **ليس** وظيفة الجسد وان الروح هو بالتالي الاولي وان «البيئة» و«**انا**» لا يوجدان الا في الصلة التي لا انفصام لعراها بين «مركبات العناصر» ذاتها وعدا هذين الاسلوبين المتضادين تماماً للقضاء على «اثنينية الروح والجسد» لا يمكن ان يكون ثمة اسلوب ثالث اذا لم تؤخذ الاختيارية * بالحسبان اي التخبيص العشوائي بين المادية والمثالية وهذا التخبيص عند افيناريوس هو الذي بدا لبوغدانوف وشركاه «الحقيقة خارج المادية والمثالية»

ولكن الاختصاصيين-الفلاسفة ليسوا سذجاً وسريعي التصديق بقدر الماخيين الروس صحيح ان كلا من هؤلاء السادة من الاساتذة رؤساء الكراسي يدافع عن منهج«ه **هو**» لدحض المادية او على

* الاختيارية – eclectisme . **المعرب** .

الاقل «للتوفيق» بين المادية والمثالية ،– ولكنهم حين يواجهون منافساً يفضحون بدون تكلف الاجزاء غير المترابطة من المادية والمثالية في شتى المناهج «الحديثة» و«الاصيلة» واذا كان بعض المثقفين الشبان قد علقوا في صنّارة افيناريوس فان الامر لم ينطل على المحنـك فوندت فان المثالي فوندت قد نزع القناع بجلافة عن وجـه المتكلف افيناريوس **باطرائه على نزعة مذهب الحقن المناوئة للمادية**

فقد كتب فوندت يقول «اذا كان المذهب النقدي التجريبي يلوم المادية المبتذلة على كونها تُعبّر ،– بواسطة تعابير من نوع الدماغ «يملك» الفكر او «ينتج» التفكير – عن موقف لا تمكـن ملاحظته عموماً بواسطة مراقبة الواقع ووصفه» (فان «الواقع» هو بنظر فوندت كما ينبغي الظن كون الانسان يفكر بدون مساعدة الدماغ !) فان هذا اللوم هو بالطبع وجيه» (المقالة المذكورة ص ٤٧–٤٨)

وكيف لا ! فضد المادية سيسير المثاليون دائماً مع افيناريوس وماخ غير المنسجمين الا انـه من المؤسف –، كما يضيف فوندت ،– ان نظرية الحقن هذه «لا تمت باية صلة الى مذهب الصف الحياتي المستقل اذ انه من الجلي انها موصولة من الخارج بهذا المذهب بعد وقوع الامر فقط وبطريقة اصطناعيه جداً (ص ٣٦٥)

يقول او ايفالد ان الحقن «ليس اكثر من اختلاق للمذهب النقـدي التجريبـي ضروري له لستر اخطائـه» (l. c. * ص ٤٤) «نحن نلاحظ تناقضاً غريباً من جهة ، من شأن القضاء على الحقن وبعث المفهوم الطبيعي عن العالم ان يعيدا للعالم طابعه كحقيقة واقعية حية ومن جهة اخرى ، يؤدي المذهب النقدي التجريبي ،

---

* loco citato – في المكان المذكور . **الناشر** .

بواسطة التنسيق المبدئي الى النظرية المثالية البحتة عن التناسب المطلق بين العضو المضاد والعضو المركزي وعليه يلف افيناريوس ويدور في حلقة فقد شن حملة على المثالية والقى سلاحه امام المثالية عشية الاشتباك الحربي السافر معها فقد اراد تحرير عالم المواضيع من سلطة الذات ،– فربط هذا العالم من جديد بالذات وان ما يقضي عليه بالنقد فعلا انما هو كاريكاتور عن المثالية وليس تعبيرها العرفاني الصحيح فعلا» (l.c. ، ص ٦٤–٦٥)

يقول نورمان سميث «ان قول افيناريوس المأثور المستشهد به احياناً كثيرة – وهو ان الدماغ ليس مقعداً للفكر ولا عضواً له ولا حاملاً له ،– هو انكار لتلك التعابير الوحيدة التي نملكها وحدنا لأجل تحديد علاقة هذا وذاك» (المقالة المذكورة ، ص ٣٠)

ولا غرابة كذلك اذا كانت نظرية الحقن التي يحبذها فوندت تثير عطف الروحاني السافر جيمس ورد * الذي يشنها حرباً دائبة على «الطبيعية واللاعرفانية» ، وخاصة على ت هكسلي (لا لأنه لم يكن مادياً على ما يكفي من الوضوح والجزم ،– الامر الذي لامه انجلس عليه ،– بل) لأن المادية هي التي تسترت من حيث جوهر الامر تحت لاعرفانيته

ولنلاحظ ان الماخي الانجليزي ك بيرسون الذي يتجاهل التحيلات الفلسفية اياً كانت ، والذي لا يعترف لا بالحقن ولا بالتنسيق ولا «باكتشاف عناصر العالم» يحصل على نتيجة محتمة من

---

* James Ward. «Naturalism and Agnosticism», 3rd ed., Lond., 1906, vol. II, pp. 171, 172 (جيمس ورد «الطبيعية واللاعرفانية» ، الطبعة الثالثة ، لندن ، عام ١٩٠٦ ، المجلد الثاني ، ص ١٧١–١٧٢ . **الناشر**) .

الماخية الخالية من مثل هذه «الاغطية» اي بالذات المثاليـــة الذاتية الخالصة ان بيرسون لا يعرف ايـــة «عناصر» فان «الانطباعات الحسية» (sense-impressions) هي كلمتـــه الاولى والاخيرة وهو لا يخامره ادنى شك في ان الانسان يفكر بواسطة الدماغ والتناقض بين هذه الموضوعة (المطابقة وحدها للعلم) ونقطة انطلاق فلسفته بقي عارياً يفقأ العين ان بيرسون يغضب شديد الغضب ويزعق في حربه ضد مفهوم المادة بوصفها شيئاً ما موجوداً بصورة مستقلة عن انطباعاتنا الحسية (الفصل السابع من مؤلفه «قواعد العلم») ويردد بيرسون جميـــع حجج بركلي ويعلن ان المادة لاشيء ولكن عندما يدور الكلام حول علاقة الفكر بالدماغ فان بيرسون يعلن قطعاً «من الارادة والوعي المرتبطين بالآلية المادية لا يمكننـــا ان نخلص الى اي شيء كان يشبه الارادة والوعي بدون هذه الآلية» * بل ان بيرسون يتقدم بالموضوعة التالية بوصفها حاصل القسم المعني من بحوثه «ليس للادراك اي معنى فيما وراء حدود الجهاز العصبي المشابه لجهازنا ومن غير المنطقي القول ان المادة كلها مدركة» (ولكنه من المنطقي الافتراض أن المادة كلها تملك خاصة مشابهة من حيث الجوهر للاحساس خاصة العكس) «ومن غير المنطقي اكثر القول ان الوعي او الارادة يوجدان خارج المادة» (المرجع نفسه ص ٧٥ الموضوعة الثانية) لقد خبص بيرسون واي تخبيص المادة لا تعدو ان تكون مجموعات من انطباعات حسية هذه هي مقدمته هذه هي فلسفته وهذا يعني ان الاحساس والفكر – الاولي المادة – الثانوي كلا ان الوعي لا يوجد بدون المادة وحتى كأنما بدون الجهاز العصبي اي ان الوعي والاحساس همـــا

* «The Grammar of Science», 2nd. ed., Lond., 1900, p. 58.

الثانوي الماء على الارض الارض على الحوت الحوت على الماء ان «عناصر» ماخ وتنسيق افيناريوس وحقنه لا تقضي البتة على هذا التخبيص ولا تفعل غير ان تغمّض المسألة وتمحو الآثار بواسطة رطانة علمية فلسفية

وان التعابير الخاصة التي استنبطها افيناريوس هي رطانة من هذا الطراز نفسه يكفي التحدث عنها ببالــغ الايجاز فقد استنبط وفرة لا نهاية لها من مختلف الكلمات المبهمــة من نوع «نوتــال» (notal) و«سيكورال» (secural) و«فيدينسيـــال» (fidencial) وهكذا دواليك وهلم جراً الا ان ماخيينــا الروس يتجنبون بحياء وخجل هذا الهراء الاستاذي بمعظمه ومن النادر فقط يطلقون على القارئ (لاصعاقه) مصلحاً ما مثل «existential» ما ، وما الى ذلك ولكن اذا اعتبر السذج هذه الكليمات بيوميكانيكاً خاصاً فان الفلاسفــة الالمان ، – وهم الذين يحبون الكلمات «العويصة» – ، يضحكون على افيناريوس فسواء قلت «نوتال» – «notal»—(notus ـ معروف) ام قلت ان شيئاً ما معروف لي فلا فرق ، – هكذا يقول فوندت في فقرة عنوانها «الطابع السكولاستي للمنهج النقدي التجريبي» وبالفعل هذه سكولاستية خالصــة تماماً ومطبقة فان واحداً من اشد تلامذة افيناريوس اخلاصاً له وهو ر فيللي قد تحلى بالشجاعة للاعتراف صراحة بهذا فهو يقول «لقد حلم افيناريوس بالبيوميكانيك ولكنــه لا يمكن التوصل الى فهم حياة الدماغ الا بواسطة الاكتشافات الفعلية وليس البتة بذلك الاسلوب الذي حاول افيناريوس اللجوء اليـــه ان بيوميكانيك افيناريوس لا يرتكز ابداً على اية مراقبات جديدة وسمته المميزة هي الانشاءات التخطيطية الجامدة البحتة للمفاهيم علماً بانها انشاءات لا تتسم حتى بطابع فرضيات تفتح افقاً معيناً ، –

فهي مجرد كليشهات تأمل (blosse Spekulierschablonen) تحجب عنا كالجدار منظر الابعاد» *

ان الماخيين الروس سيبدون بعد قليل اشبه بهواة الموضة الذين يعجبون بالقبعة التي ابلاها فلاسفة اوروبا البرجوازيون

٦ ـ عن سوليبسيسم ماخ وافيناريوس

لقد رأينا ان المثالية الذاتية هي نقطة الانطلاق والمقدمة الاساسية في فلسفة المذهب النقدي التجريبي ان العالم هو احساسنا ، – تلك هي المقدمة الاساسية التي تموهها كلمة «عنصر» ونظريات «الصف المستقل» و«التنسيق» و«الحقن» ولكن لا تغيرها البتة ان سخافة هذه الفلسفة تتلخص في كونها تؤدي الى السوليبسيسم الى الاعتراف بوجود الفرد المتفلسف وحده دون غيره ولكن ماخيينا الروس يؤكدون للقارئ ان «اتهام» ماخ «بالمثالية وحتى بالسوليبسيسم» هو «الذاتية المتطرفة» هكذا يقول بوغدانوف في مقدمة «تحليل الاحساسات» ص ١١ وهذا ما تكرره كل الزمرة الماخية بكثرة كثيرة من الاشكال

بعد ان عرفنا اية اغطية يلجأ اليها ماخ وافيناريوس لتغطية السوليبسيسم عندهما يجب الآن ان نضيف امراً آخر هو ان «الذاتية المتطرفة» للتأكيدات تخص كلياً بوغدانوف وشركاه لأن الكتاب من اكثر الاتجاهات تبايناً قد كشفوا من زمان في المطبوعات الفلسفية خطأ الماخية الاساسي تحت كل اغطيتها لنكتف بمجرد **مجمل** للاراء التي تبيّن بصورة كافية «ذاتية» عدم

* R. Willy. «Gegen die Schulweisheit», S. 169. يقيناً ان المتحذلق بتسولدت لن يدلي باعترافات كهذه فهو يجتر بغرور التافه الضيق الافق سكولاستية افيناريوس «البيولوجية» . (المجلد الاول ، الفصل الثاني) .

المعرفة عند ماخيينا ولنلاحظ هنا ان الفلاسفة-الاختصاصيين يتعاطفون جميعهم تقريباً مع المثالية بمختلف صورها فان المثالية في نظرهم ليست البتة ملامة كما هي بالنسبة لنا نحن الماركسيين ولكنهم يقررون الاتجاه الفلسفي **الفعلي** لماخ حين يعارضون منهجاً من مناهج المثالية بمنهج آخر مثالي هو ايضاً منهج يبدو لهم اكثر انسجاماً وتماسكاً

او ايفالد في كتابه المكرس لتحليل مذهب افيناريوس «مبدع المذهب النقدي التجريبي» يحكم على نفسه بالسوليبسيسم volens-nolens* (l. c. ، ص ٦١-٦٢)

هانس كلينبيتر تلميذ ماخ الذي يتحفظ بنحو خاص في مقدمة كتاب «Erkenntnis und Irrtum» بصدد تضامنه مع ماخ «ان ماخ هو على وجه الضبط مثال على التساوق بين المثالية النظرية-العرفانية وبين مقتضيات العلوم الطبيعية» (كل شيء «متساوق» بنظر الاختياريين !) «مثال على ان بوسع العلوم الطبيعية ان تنطلق جيداً من السوليبسيسم دون ان تتوقف عنده» («Archiv für systematische Philosophie» (٢٠) Band VI, 1900, S. 87)

ا لوكّا في دراسته لمؤلف ماخ «تحليل الاحساسات» اذا وضعنا جانباً سوء الفهم (Mißverständnisse) فان «ماخ يقف في تربة المثالية الصرف» «ليس من المفهوم كيف ينكر ماخ انه من اتباع بركلي. («Kantstudien» (٢١) Band VIII, 1903, SS. 416, 417)

ف اورشليم – وهو كانطي مغرق في الرجعية يعرب ماخ عن تضامنه معه في المقدمة ذاتها («قرابة» في الافكار «اوثق» مما كان

---

* سواء شاء ام ابى . **الناشر** .

يظن ماخ من قبل (S. X. Vorwort* «Erg. u. Irrt.»: 1906, – «ان الظاهرية ** المنسجمة تؤدي الى السوليبسيسم» ولذا يجب اقتباس شيء مـــا والى حد مـــا مـــن كانط (راجعوا «Der kritische Idealismus und die reine Logik», 1905, S. 26 ***)

١ هونيغسفالد الخيار بالنسبة لانصار مذهـــب الكمونية ولانصار المذهب النقدي التجريبي إمّا السوليبسيسم وإمّا الميتافيزياء بروح فيختـــه او شيلينـــغ او هيغـــل» («Über die Lehre Hume's von der Realität der Außendinge», 1904, S. 68 ****)

والعالم الفيزيائي الانجليزي اوليفر لودج في كتاب مكرس لتقريع المادي هيكّل يتحدث عرضاً كأنما عن شيء معروف للجميع عن «انصار مذهب السوليبسيسم مثـــل بيرسون وماخ (Sir Oliver Lodge. «La vie et la matière», P., 1907, p. 15 *****)

وفيمـــا يتعلق بالماخي بيرسون اعربت صحيفة علماء الطبيعة الانجليز «Nature» («الطبيعة») (٢٢) بلسان عالـــم الهندسة ا ت ديكسون عن رأي واضح تماماً يجب سوقه لا لأنه كان جديداً بل لأن الماخيين الروس ظنوا بسذاجـــة ان

---

* ص X ، المقدمة **الناشر**

** الظاهرية – phénomenalisme ، مذهب الظواهر **المعرب**

*** «المثالية النقديـــة والمنطق الخالص» ١٩٠٥ ، ص ٢٦ **الناشر**

**** «مذهب هيوم بشأن واقعية العالم الخارجي» ، ١٩٠٤ ، ص ٦٨ **الناشر**

***** اوليفر لودج «الحياة والمادة» ، باريس ، عام ١٩٠٧ ، ص ١٥ . **الناشر** .

تخبيص ماخ الفلسفي هو «فلسفة العلوم الطبيعية» (بوغدانوف ص XII وغيرها من مقدمة «تحليل الاحساسات»)

فقد كتب ديكسون يقول «ان اساس كل مؤلف بيرسون هو الموضوعة القائلة اننا ما دمنا لا نستطيع ان نعرف اي شيء معرفة تامة غير الانطباعات الحسية (sense-impressions) فان الاشياء التي نقول عنها عادة بانها اشياء موضوعية او خارجية ، لا تعدو ان تكون مجموعات من الانطباعات الحسية ولكن البروفسور بيرسون يسلم بوجود ادراكات اخرى وهو لا يسلم بهذا الوجود ضمناً بكونه يخصص كتابه لها وحسب بل يسلم به ايضاً صراحة في كثير من الاماكن في كتابه» وبموجب قياس التمثيل بمراقبة حركات اجساد اشخاص آخرين يخلص بيرسون الى القول بوجود ادراك آخر فما دام الادراك الآخر واقعياً فان هذا يعني التسليم بوجود اناس آخرين ايضاً خارجاً عني «يقيناً انه لن يكون بوسعنا ان ندحض بهذه الطريقة مثالياً منسجماً يزعم ان الاشياء الخارجية ليست وحدها فقط بل الادراكات الاخرى ايضاً غير واقعية وانها لا توجد الا في خياله ولكن الاعتراف بواقعية الادراكات الاخرى يعني الاعتراف بواقعية الوسائل التي نخلص بها الى القول بوجود ادراك آخر اي بوجود شكل خارجي للاجسام البشرية» والمخرج من المأزق هو الاعتراف «بالفرضية» القائلة ان انطباعاتنا الحسية تناسبها خارجاً عنّا حقيقة واقعية موضوعية ان هذه الفرضية تفسر بصورة مرضية انطباعاتنا الحسية «انا لا استطيع ان ارتاب جدياً في ان البروفسور بيرسون نفسه يؤمن فيها مثله مثل غيره ولكن اذا ما تعين عليه ان يعترف صراحة بذلك فانه سيضطر الى ان يكتب من جديد كل صفحة تقريباً من مؤلفه «قواعد العلم»» *

* «Nature», 1892, July 21, p. 269.

الهزء بهذا يستقبل علماء الطبيعة المفكرون الفلسفة المثالية التي تستثير اعجاب ماخ

واليكم اخيراً رأي العالم الفيزيائي الالماني لودفيغ بولتسمان ان الماخيين سيقولون اغلب الظن كما قال ف ادلر ان هذا العالم فيزيائي من المدرسة القديمة ولكن المقصود **الآن** ليس البتة نظريات الفيزياء بل المسألة الفلسفية الاساسية فضد «المولعين بالعقائد العرفانية الجديدة» كتب بولتسمان يقول «ان عدم الثقة بتصورات لا يمكننا ان نستخلصها الا من الانطباعات الحسية المباشرة قد ادى الى التطرف المعاكس مباشرة للايمان الساذج السابق يقولون لقد أُعطيتنا الانطباعات الحسية فقط وابعد من ذلك لا يحق لنا ان نخطو اية خطوة ولكن لو كان هؤلاء الناس منسجمين لتعين عليهم ان يطرحوا السؤال اللاحق هل أُعطيتنا انطباعاتنا الحسية الماضية الخاصة بنا ؟ اننا لم نُعطَ مباشرة سوى انطباع حسي واحد او سوى فكرة واحدة ، — واعني بها على وجه الضبط الفكرة التي نفكر بها في اللحظة المعنية وهذا يعني انه اذا كنت منسجماً تعين عليّ لا ان انكر وجود اناس آخرين عدا **اناني** بالذات وحسب بل ان انكر ايضاً وجود جميع التصورات في الماضي» *

ان هذا العالم الفيزيائي يستخف بكامل الحق والصواب بوجهة نظر ماخ وشركاه التي يُزعم انها «جديدة» «ظاهرية» لاعتباره اياها سخافة قديمة من سخافات المثالية الذاتية الفلسفية

كلا ان اولئك الذين «لم يروا» ان السوليبسيسم هو غلطة ماخ الاساسية مصابون بالعمى «الذاتي»

---

* Ludwig Boltzmann. «Populäre Schriften», Lpz., 1905, S. 132. قارنوا SS. 168, 177, 187 وغيرها (لودفيغ بولتسمان «مقالات مبسطة» ليبزيغ عام ١٩٠٥ ، ص ١٣٢ . قارنوا ص ١٦٨ ، ١٧٧ ، ١٨٧ ، وغيرها . **الناشر**) .

الفصل الثاني

نظرية المعرفة في المذهب النقدي التجريبي وفي المادية الدياليكتيكية . — ٢

١ — «الشيء في ذاته» او ف تشيرنوف يدحض ف انجلس

لقد كتب ماخيونا عن «الشيْ في ذاته» الكثير الكتير بحيث لو جمعنا كل ما كتبوه لكان الحاصل اكوامـاً وتلالاً من الورق المطبوع ان «الشيْ في ذاته» انما هو bête noire * حقيقي بالنسبة لبوغدانوف وفالنتينوف وبازاروف وتشيرنوف وبرمان ويوشكيفيتش فليست ثمة كلمات «قوية» لم يطلقوها بحقه وليست ثمة تهكمات لم ينهالوا بها عليه ومن يحاربون بسبب هذا «الشي في ذاته» النحس ؟ هنا يبدأ انقسام فلاسفة الماخية القائمة في روسيا الى احزاب سياسية فان جميع الماخيين الذين يرغبون في ان يكونوا ماركسيين يحاربون ضد «الشي في ذاتـه» **البليخانوفي** متهمين بليخانوف بانـه ضل السبيل وانحرف الى الكانطية وبانه تراجع عن انجلس (سنتحدث عن التهمة الاولى في الفصل الرابع وسنتحدث هنا عن التهمة الثانية) ان الماخي السيد ف تشيرنوف الشعبي العدو اللدود للماركسية يحمل صراحة **على انجلس** ذوداً عن «الشيْ في ذاته»

من العار ان نعترف ولكنه من الاثـم ان نخفي ان العداوة السافرة للماركسيـة قد جعلـت هذه المرة من السيد فكتور تشيرنوف خصماً ادبياً **اكثر** مبدئية من رفاقنا في الحزب ومناظرينا

* حرفياً : الوحش الاسود . الفزاعة . موضع الحقد والكره . **الناشر** .

في الفلسفة (٢٣) لأن **الضمير غير الشريف** (او لربما ايضاً بالاضافة عدم الاطلاع على المادية ؟) هما وحدهما اللذان حملا الماخيين الذين يرغبون في ان يكونوا ماركسيين على ان يتركوا جانباً انجلس بطريقة ديبلوماسية ويتجاهلوا فورباخ كلياً ويراوحوا في مكانهم بوجه الحصر حول بليخانوف وهذا على وجه الضبط مراوحة وعراك ممل وحقير ومماحكة لتلميذ انجلس مع التهرب من تحليل نظرات المعلم تحليلاً صريحاً وبما ان مهمة هذه الملاحظات العاجلة تبيان رجعية الماخية وصحة مادية ماركس وانجلس فاننا سنترك جانباً ضوضاء الماخيين الذين يرغبون في ان يكونوا ماركسيين وجلبتهم مع بليخانوف ونعود رأساً الى انجلس الذي يدحضه الناقد التجريبي السيد ف تشيرنوف ففي مؤلفه «دراسات فلسفية وسوسيولوجية» (موسكو عام ١٩٠٧ ، — مجموعة مقالات كتبت جميعها باستثناء عدد قليل منها قبل عام ١٩٠٠) تبدأ مقالة «الماركسية والفلسفة المتعالية» مباشرة بمحاولة معارضة ماركس بانجلس وباتهام انجلس «بالمادية العقائدية الجامدة الساذجة» «بالجمود العقائدي المادي الفائق الخشونة» (ص ٢٩ و ٣٢) ويعلن السيد ف تشيرنوف ان محاكمة انجلس ضد الشي في ذاته عند كانط وضد خط هيوم الفلسفي مثال «كاف» وبهذه المحاكمة نبدأ نحن ايضاً

يعلن انجلس في مؤلفه «لودفيغ فورباخ» ان المادية والمثالية هما الاتجاهان الفلسفيان الاساسيان المادية تعتبر ان الطبيعة هي الاولي والروح هو الثانوي وتضع في المرتبة الاولى الوجود وفي المرتبة الثانية التفكير اما المثالية فتفعل العكس وهذا الفرق الجذري بين «المعسكرين الكبيرين» اللذين ينقسم اليهما فلاسفة «مختلف مدارس» المثالية والمادية ، انما يضعه انجلس

في رأس الزاوية متهماً صراحة «بالتشوش» اولئك الذين يستعملون تعبيري المثالية والمادية بمعنى آخر

يقول انجلس ان «اعلى مسألة في الفلسفة بكاملها» ، «المسألة الاساسية الكبرى في كل فلسفة ولا سيما في الفلسفة الحديثة» هي «مسألة علاقة الفكر بالوجود علاقة الروح بالطبيعة» وبعد ان قسم انجلس الفلاسفة الى «معسكرين كبيرين» في هذه المسألة الاساسية اشار الى انه يوجد «مظهر آخر» للمسألة الفلسفية الاساسية عنيت بها «ما هي العلاقة بين افكارنا عن العالم المحيط بنا وهذا العالم نفسه ؟ وهل يستطيع فكرنا ان يعرف العالم الواقعي وهل نستطيع في تصوراتنا ومفاهيمنا عن العالم الواقعي ان نكوّن انعكاساً صادقاً عن الواقع ؟» *

«ان اكثرية الفلاسفة الكبرى قد اجابوا عن هذه المسألة بالايجاب» هكذا يقول انجلس مصنفاً في عدادهم لا جميع الماديين وحسب بل ايضاً المثاليين الاشد انسجاماً وبينهم مثلاً المثالي المطلق هيغل الذي اعتبر العالم الواقعي تحقيقاً «للفكرة المطلقة» التي وجدت في مكان ما منذ الازل علماً بان الروح البشري اذا ما عرف العالم الواقعي معرفة صحيحة عرف بالتالي فيه ومن خلاله «الفكرة المطلقة»

«ولكن هناك الى جانب ذلك» (اي الى جانب الماديين والى

---

* فريدريك انجلس «لودفيغ فورباخ» والخ الطبعة الالمانية الرابعة ص ١٥ الترجمة الروسية ، طبعة جينيف عام ١٩٠٥ ص ١٢-١٣ يترجم السيد ف تشيرنوف Spiegelbild - «انعكاس المرآة» - متهماً بليخانوف بانه يقدم نظرية انجلس «بشكل اضعف بكثير مما هي عليه» اذ انه يقول بالروسية «الانعكاس» فقط وليس «انعكاس المرآة» هذه مماحكة ؛ فان Spiegelbild تستعمل بالالمانية بمعنى Abbild ايضاً (انعكاس ، صورة . **الناشر**) .

جانب المثاليين المنسجمين) «عدداً من الفلاسفة الاخرين ممن يشكون في امكانية معرفة العالم او على الاقل معرفته الكاملة وفي عداد هؤلاء نجد بين الفلاسفة الحديثين هيوم وكانط اللذين قاما بدور على جانب كبير من الاهمية في تطوير الفلسفة (٢٤)

وبعد ان يورد السيد ف تشيرنوف كلمات انجلس هذه يندفع الى المعركة ويبدي الملاحظة التالية على كلمة «كانط»

«في عام ١٨٨٨ كان من الغريب نوعاً ان ينعت «بالحديثين» فلاسفة مثل كانط ومثل هيوم على الاخص ففي ذلك الوقت ، كان من الطبيعي اكثر سماع اسماء كوهن لانغه ريل لآس ليبمان هيرينغ ومن اليهم ولكن انجلس على ما يبدو لم يكن قوياً في الفلسفة «الحديثة»» (ص ٣٣ الملاحظة رقم ٢)

ان السيد ف تشيرنوف وفيّ لنفسه ففي المسائل الاقتصادية والمسائل الفلسفية على السواء يشبه بالقدر نفسه فوروشيلوف (٢٥) بطل رواية تورغينيف الذي يقضي تارة على الجاهل كاوتسكي * وطوراً على الجاهل انجلس بمجرد الاستشهاد باسماء «علماء» ! ولكن المصيبة ان ذوي المكانة الذين ذكرهم السيد تشيرنوف انما هم اولئك **الكانطيون الجدد** الذين يقول عنهم انجلس **في الصفحة ذاتها** من مؤلفه «لودفيغ فورباخ» انهم **رجعيون** نظريون يحاولون احياء جثة تعاليم كانط وهيوم المدحوضة من زمان ان السيد تشيرنوف الشجاع لم يفهم ان انجلس يدحض بالضبط بمحاكمته البروفسورات المشوشين ذوي المكانة (بنظر الماخية) !

---

* ف ايلين «المسألة الزراعية» ، القسم الاول سانت بطرسبورغ عام ١٩٠٨ ، ص ١٩٥ (راجعوا : لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٥ ، ص ١٤٧ . **الناشر**) .

وبعد ان يشير انجلس الى ان هيغل قد اورد الحجج «الحاسمة» ضد هيوم وكانط وان فورباخ اكمل هذه الحجج باعتبارات ظريفة اكثر مما هي عميقة يتابع قائلاً

«ان اعظم دحض حاسم لهذه الشعوذات الفلسفية ولجميع الشعوذات الاخرى (او الاختلاقات ، Schrullen) هو التطبيق وعلى الاخص التجربة والصناعة فاذا استطعنا ان نبرهن على صحة فهمنا لظاهرة طبيعية معينة بخلق هذه الظاهرة بانفسنا باستحصالها من شروطها وباستخدامها فوق ذلك في سبيل اغراضنا فبذلك تحل نهاية مقولة كانط بشأن «الشيء في ذاته» الذي لا يمكن ادراكه» (او الذي لا يمكن استيعابه unfassbaren – وهذه الكلمة الهامة لم ترد لا في ترجمة بليخانوف ولا في ترجمة السيد ف تشيرنوف) فان المواد الكيماوية المتكونة في الاجسام النباتية والحيوانية ظلت مثل هذه «الاشياء في ذاتها» الى ان اخذت الكيمياء العضوية بتحضيرها الواحدة بعد الاخرى وبذلك اصبح «الشيء في ذاته» «شيئاً من اجلنا» كالاليزارين مثلاً وهي المادة الصباغية في نبات الفوّة التي لم نعد نتحصل عليها من جذور الفوّة المزروعة في الحقول ، بل نتحصل عليها بثمن ارخص وبصورة ابسط جداً من قطران الفحم الحجري» (ص ١٦ من المؤلف المذكور) (٢٦)

واذ يورد السيد ف تشيرنوف هذه المحاكمة يثور ثائره ويقضي كلياً على المسكين انجلس اسمعوا «اما انه يمكن الحصول على الاليزارين من قطران الفحم الحجري «بثمن ارخص وبصورة ابسط» فان هذا لن يدهش بالطبع اي كانطي جديد ولكن اما انه يمكن استخلاص دحض «الشيء في ذاته» ، فضلاً عن الاليزارين ، من القطران نفسه وبالثمن الرخيص نفسه ، فان هذا

سيبدو بالطبع ، – وليس للكانطيين الجدد وحدهم ، – اكتشافاً رائعاً ولم يسبق له مثيل»

«ان انجلس على ما يبدو اذ علم ان «الشيء في ذاته» لا تمكن معرفته حسبما يقول كانط قلب هذه النظرية الى نظرية معاكسة وقرر ان كل ما لم تتم معرفته بعد هو الشيء في ذاته (ص ٣٣)

اسمع ايها السيد الماخي اكذب ولكن اعرف حدّك فانك هنا بالذات امام انظار الجمهور تشوه ذلك المقطع بالذات الذي تقتبسه من انجلس والذي تريد انت ان «تحطمه» دون ان تفهم حتى عمّا يدور الحديث هنا

اولاً ليس من الصحيح ان انجلس «يستخلص دحض الشيء في ذاته» فان انجلس قد قال بصراحة ووضوح انه يدحض **مقولة كانط** بشأن الشيء في ذاته **الذي لا يمكن ادراكه** (او معرفته) ان السيد تشيرنوف يشوش نظرة انجلس المادية الى وجود الاشياء بصورة مستقلة عن وعينا ثانياً اذا كانت نظرية كانط تقول ان الشيء في ذاته لا تمكن معرفته فان النظرية «**المعاكسة**» ستكون التالية ان **ما لا تمكن معرفته** هو الشيء في ذاته **فاحل** السيد تشيرنوف **ما لم تتم معرفته بعد** محل ما لا تمكن معرفته دون ان يفهم انه بذلك شوش من جديد نظرة انجلس المادية وحرّف معناها

ان السيد ف تشيرنوف قد ضلله اولئك الرجعيون في الفلسفة الرسمية الذين اتخذهم مرشدين له وضللوه الى حد انه طفق يضج ويزعق ضد انجلس **دون ان يفهم اي شيء** في المثال المذكور لنحاول ان نفسر لممثل الماخية ما هو المقصود هنا

ان انجلس يقول بصراحة ووضوح انه يعترض على هيوم

وكانط معاً ولكنه لا توجد عند هيوم اية «اشياء في ذاتها لا تمكن معرفتها» فما هو المشترك اذن بين هذين الفيلسوفين ؟ هو انهما **يفصلان مبدئياً** «الظواهر» عمّا يظهر الاحساس عن المحسوس الشيء من اجلنا عن «الشيء في ذاته» علماً بان هيوم يتجاهل كلياً «الشيء في ذاته» وهو يعتبر مجرد الفكرة عنه امراً غير جائز فلسفياً ويعتبرها من «الميتافيزياء» (كما يقول الهيوميون والكانطيون) اما كانط فانه يسلم بوجود «الشيء في ذاته» ولكنه يقول عنه «انه لا تمكن معرفته» وانه يختلف مبدئياً عن الظاهرة ويعود الى ميدان مختلف مبدئياً الى ميدان «الغيبي» (Jenseits)* المستحيل على المعرفة ولكن المفتوح امام الايمان

فيم يكمن كنه اعتراض انجلس ؟ في الأمس لم نكن نعرف ان الاليزارين موجود في قطران الفحم الحجري اما اليوم فقد عرفنا هذا (٢٧) وهنا نتساءل هل كان الاليزارين موجوداً في الامس في قطران الفحم الحجري ؟

اجل بالطبع ومن شأن كل شك في هذا المجال ان يكون بمثابة تهكم على العلوم الطبيعية المعاصرة

واذا كان أجل فانه تنبع من هنا ثلاثة استنتاجات عرفانية هامة

١ – توجد الاشياء بصورة مستقلة عن وعينا بصورة مستقلة عن احساسنا خارجاً عنّا لأنه لا ريب في ان الاليزارين كان موجوداً في الأمس في قطران الفحم الحجري كما انه لا ريب في اننا لم نكن نعرف اي شيء في الأمس عن هذا الوجود ولم نكن نحصل على اية احساسات من هذا الاليزارين

---

* Jenseits – الغيبي . الجانب الآخر ، العالم الآخر . **المعرب** .

٢ – لا يوجد ولا يمكن ان يوجد قطعاً اي فرق مبدئي بين الظاهرة والشيء في ذاته ان الفرق يقوم ببساطة بين ما صار معروفاً وبين ما لم تتم معرفته بعد اما الاختلاقات الفلسفية فيما يتعلق بالحدود الخاصة بين هذا وذاك فيما يتعلق بكون الشي في ذاته موجوداً «في الجانب الآخر» من الظواهر (كانط) او فيما يتعلق بانه يمكن ويجب عزل النفس بحاجز فلسفي ما عن مسألة العالم الذي لم نعرفه بعد في هذا القسم منه او ذاك ولكن الموجود خارجاً عنّا (هيوم) ، – فان كل هذا كلام فارغ Schrulle شعوذة تلفيق

٣ – في نظرية المعرفة كما في جميع ميادين العلم الاخرى تجب المحاكمة بطريقة دياليكتيكية وهذا يعنى انه يجب علينا لا ان نفترض معرفتنا ناجزة وثابتة لا تتغير بل ان نحلل ونبحث باي طريقة تظهر **المعرفة** من **اللامعرفة** باي طريقة تصبح المعرفة غير الكاملة غير الدقيقة اكمل وادق

وما دمتم قد اخذتم بوجهة نظر تطور المعرفة البشرية من اللامعرفة فانكم ترون ان ملايين الامثلة ، البسيطة كمثال اكتشاف الاليزارين في قطران الفحم الحجري وملايين المراقبات لا من تاريخ العلم والتكنيك وحسب بل ايضاً من الحياة اليومية لكل فرد وللجميع تبيّن للمرء تحول «الاشياء في ذاتها» الى «اشياء من اجلنا» وانبثاق «الظاهرات» عندما تشعر اعضاء حواسنا بدفعة من الخارج من هذه او تلك من الاشياء ، – وزوال «الظاهرات» عندما تقضي هذه العقبة او تلك على امكانية تأثير الشيء الموجود بصورة بيّنة بالنسبة لنا على اعضاء حواسنا وان الاستنتاج الوحيد والمحتم من هذا – ، الاستنتاج الذي يستخلصه جميع الناس في الممارسة البشرية الحيّة والذي تضعه المادية عن وعي في اساس عرفانها – ، هو انه توجد اشياء ، مواد ، اجسام خارجاً

عنّا وبصورة مستقلة عنّا وان احساساتنا هي صور العالم الخارجي اما نظريــــة ماخ المعاكســــة (الاجسام هي مركبات احساسات) فهي هراء مثالي حقيــــر ولكن السيد تشيرنوف كشف مرة اخرى «بتحليله» لانجلس صفاته الفوروشيلوفية فان المثال البسيط الذي ساقه انجلس بدا له «غريباً وساذجاً» وهو لا يرى الفلسفة الا في الاختلاقات المتحذلقــة ولا يعرف كيف يميز بين الاختيارية الاستاذية وبين النظريــــة الماديــــة المنسجمة عن المعرفة

وليس من الممكن كماليس ثمة داع لتحليل جميع محاكمات السيد تشيرنوف اللاحقة فهي ايضاً من الهراء المتحذلق (كالزعم مثلاً ان الذرة هي شيء في ذاته بنظر الماديين !) ولكننا نشير فقط الى رأي عن ماركس يتعلق بموضوعنا (وضلل بعضهم على ما يبدو) ويزعم ان ماركس يختلف عن انجلس والمقصود هنا موضوعة ماركس **الثانية** عن فورباخ وترجمة بليخانوف لكلمــــة Diesseitigkeit *

واليكم هذه الموضوعة الثانية

«ان مسألة ما اذا كان التفكير الانساني يتسم بحقيقة موضوعية ليست مطلقاً قضية نظرية ، انما هي قضية عملية . ففي النشاط العملي ينبغي على الانسان ان يثبت حقيقة تفكيره اي فعاليته وقوته ووجوده في هذا الجانب (Diesseitigkeit كونه ليس من الغيبيات **المعرب**) والنقاش حول فعالية او عدم فعالية التفكير المنعزل عن النشاط العملي انما هو قضية سكولاستية بحتة» (٢٨)

وعند بليخانوف يرد عوضاً عن «يثبت وجود التفكيــــر في هذا الجانب» (الترجمة الحرفية) يثبت ان التفكير «لا يتوقف في هذا الجانــــب مــن الظواهر» واذا السيد ف . تشيرنوف

* الوجود في هذا الجانب . **الناشر** .

يصرخ «لقد ازيل التناقض بين انجلس وماركس بخارق البساطة» «ينجم كأنّ ماركس مثل انجلس قد قال بامكانية معرفة الاشياء في ذاتها وبكون التفكير عائداً الى الغيبيات» (المؤلف المذكور ص ٣٤ الملاحظة)

ها هو ذا فوروشيلوف الذي يكوم بكل جملة تلالاً من التشويش فمن الجهل ايها السيد فكتور تشيرنوف ان لا يعرف المرء ان جميع الماديين يقولون بامكان معرفة الاشياء في ذاتها ومن الجهل ايها السيد فكتور تشيرنوف او من التهاون الذي لا حدّ له اذا كنت تقفز من فوق الجملة **الاولى بالذات** من الموضوعة دون ان تعبأ بان «الحقيقة الموضوعية» (gegenständliche Wahrheit) للتفكير **لا** تعني **غير وجود** المواضيع (=«الاشياء في ذاتها») التي يعكسها التفكير **بصورة حقيقية** ومن الجهل ايها السيد فكتور تشيرنوف ان تزعم انه «ينجم» من التحوير البليخانوفي (فقد اعطى بليخانوف تحويراً وليس ترجمة) ان ماركس دافع عن كون التفكير **عائداً الى الغيبيات** لأن الهيوميين والكانطيين وحدهم يوقفون التفكير البشري «في هذا الجانب من الظواهر» اما جميع الماديين بمن فيهم ماديو القرن السابع عشر الذين يبيدهم الاسقف بركلي (راجعوا «المقدمة») فان «الظواهر» هي بنظرهم «اشياء من اجلنا» او **نسخ** عن «المواضيع في حد ذاتها» يقيناً ان تحوير بليخانوف الحر ليس الزامياً بالنسبة لاولئك الذين يريدون ان يعرفوا ماركس نفسه ولكنه من الالزامي امعان الفكر في محاكمة ماركس وليس القفز والنط على طريقة فوروشيلوف

ومن الطريف والمفيد الاشارة الى انه اذا كنا نجد عند من يسمون انفسهم بالاشتراكيين عدم الرغبة او عدم القدرة على امعان الفكر في «موضوعات» ماركس ، فان الكتاب البرجوازيين

الاختصاصيين في الفلسفة يبرهنون احياناً عن مزيد من حسن الذمة وانا اعرف كاتباً من هذا النوع كان يدرس فلسفة فورباخ ويحلل بالارتباط معها «موضوعات» ماركس هذا الكاتب هو البر ليفي ،الذي خصص الفصل الثالث من القسم الثاني من كتابه عن فورباخ لدراسة تأثير فورباخ في ماركس * ودون ان اتناول ما اذا كان ليفي يفسر فورباخ بصورة صحيحة في كل مكان ام لا وكيف ينتقد ماركس من وجهة النظر البرجوازية العادية اكتفي بايراد تقييم البر ليفي للمضمون الفلسفي «لموضوعات» ماركس الشهيرة ففيما يتعلق بالموضوعة الاولى يقول البر ليفي «يعترف ماركس من جهة مع المادية السابقة كلها ومع فورباخ بان تصوراتنا عن الاشياء تتطابق مع المواضيع الفعلية والمنفردة (المتميزة distincts) القائمة خارجاً عنا

لقد اتضح دفعة واحدة لالبر ليفي كما يرى القارئ الموقف الاساسي الذي لا تقفه المادية الماركسية فقط بل تقفه كذلك **كل** مادية المادية «السابقة كلها» وهو الاعتراف بالمواضيع الفعلية خارجاً عنّا هذه المواضيع التي «تتطابق» تصوراتنا معها هذه الالفباء التي تتعلق بالمادية **كلها** على العموم لا يجهلها غير الماخيين في روسيا ويتابع ليفي قائلاً

من جهة اخرى يعرب ماركس عن الأسف لكون المادية قد اتاحت للمثالية الانصراف الى تقييم اهمية القوى النشيطة» (اي النشاط العملي البشري) «هذه القوى النشيطة انما يجب

* Albert Lévy. «La philosophie de Feuerbach et son influence sur la littérature allemande», Paris, 1904 (البر ليفي «فلسفة فورباخ وتاثيرها في الادب الالماني» باريس عام ١٩٠٤ ـ الناشر) . ص‌ص ٢٤٩ ـ ٣٣٨ ـ تاثير فورباخ في ماركس ؛ ص‌ص ٢٩٠ـ٢٩٨ ـ تحليل «الموضوعات» .

انتزاعها من المثالية كما يعتقد ماركس لأجل ادخالها ايضاً في النظام المادي ولكنه ينبغي بالطبع صبغ هذه القوى بذلك الطابع الفعلي والحسي الذي لم يكن بوسع المثالية ان تعترف لها به وهكذا تكون فكرة ماركس التالية كما ان المواضيع الفعلية القائمة خارجاً عنّا تتطابق مع تصوراتنا كذلك يتطابق النشاط العملي الجاري خارجاً عنّا نشاط الاشياء مع نشاطنا الظاهري وبهذا المعنى تشترك البشرية في المطلق لا بواسطة المعرفة النظرية وحسب بل ايضاً بواسطة النشاط العملي وعليه يكتسب النشاط البشري كله تلك الكرامة تلك العظمة التي تتيح له ان يواكب النظرية فمن الآن وصاعداً يكتسب النشاط الثوري اهمية ميتافيزيائية

البر ليفي بروفسور والحال ان البروفسور الموقر لا يسعه ألاّ ينعت الماديين بالميتافيزيائيين وكل مادية هي «ميتافيزياء» بنظر البروفسورات المثاليين والهيوميين والكانطيين لأن المادية ترى وراء Phénomène (الظاهرة الشيء من اجلنا) شيئاً واقعياً خارجاً عنّا ؛ ولهذا كان البر ليفي على حق من حيث الجوهر حين يقول ان «نشاط الاشياء» يتطابق ، بنظر ماركس ، مع «نشاط» البشرية «الظاهري» اي ان نشاط البشرية العملي لا يتسم بمدلول ظاهري (بمعنى الكلمة الهيومي والكانطي) وحسب بل ايضاً بمدلول موضوعي فعلي ان لمعيار النشاط العملي كما سنبين بالتفصيل في المكان المعني (الفقرة ٦) مدلولاً عند ماخ يختلف تماماً عنه عند ماركس ان القول «تشترك البشرية في المطلق» انما يعني ان معرفة الانسان تعكس الحقيقة المطلقة (راجعوا ادناه الفقرة ٥) وان نشاط البشرية العملي اذ يتحقق من صحة تصوراتنا يؤكد فيها ما يتطابق مع الحقيقة المطلقة . ويتابع البر ليفي قائلاً :

وحين يصل ماركس الى هذه النقطة يصطدم طبعاً باعتراض النقد فقد سلم بوجود الاشياء في ذاتها التي نظريتنا حيالها ترجمة انسانية لها وهو لا يستطيع ان يتهرب من الاعتراض العادي ما الذي يضمن لك صحة الترجمة ؟ بم تثبت ان الفكر البشري يعطيك الحقيقة الموضوعية ؟ على هذا الاعتراض يرد ماركس في الموضوعة الثانية» (ص ٢٩١)

ان القارئ يرى ان البر ليفي لا يشك لحظة في اعتراف ماركس بوجود الاشياء في ذاتها

٢ ـ عن «التعالي» ، او ف بازاروف
«يعالج» انجلس

ولكن اذا كان الماخيون الروس الذين يرغبون في ان يكونوا ماركسيين قد تحاشوا بطريقة ديبلوماسية **واحداً** من أهم واحزم بيانات انجلس فقد «عالجوا» بالمقابل بياناً **آخر** من بياناته على طريقة تشيرنوف تماماً ومهما كانت مهمة اصلاح تشويهات وتحريفات معنى الاستشهادات مملة وشاقة فليس بوسع من يريد التحدث عن الماخيين الروس ان يتملص منها

اليكم كيف عالج بازاروف انجلس

يقول انجلس في مقالته «المادية التاريخية» * عن اللاعرفانيين الانجليز (اي عن الفلاسفة السائرين على خط هيوم) ما يلي

---

* مقدمة الترجمة الانجليزية «للاشتراكية الطوبوية واشتراكية العلمية» وقد ترجمها انجلس نفسه الى الالمانية في «Neue Zeit», XI, 1 (١٨٩٢-١٨٩٣ ، العدد الاول) ص ١٥ وما يليها الترجمة الروسية ، اذا لم اكن على خطأ ، وحيدة واحدة - في مجموعة «المادية التاريخية» ، ص ١٦٢ وما يليها يورد بازاروف الاستشهاد في «دراسات «في» فلسفة الماركسية» ، ص ٦٤ .

ان صاحبنا اللاعرفاني يقر ايضاً بان معرفتنا كلهـا تقوم على اساس المعطيات (Mitteilungen) التي نتلقاها بواسطة حواسنا

وهكذا لنلاحظ من اجل اصحابنـا الماخيين ان اللاعرفاني (الهيومي) ينطلق هو ايضـاً من **الاحساسات** ولا يقرّ باي مصدر آخر للمعارف ان اللاعرفاني هو «**وضعي**» خالص وليأخـذ انصار «الوضعية الحديثة» علماً بذلك

ولكن - يضيف هو (اي اللاعرفاني) - من اين نعرف ان حواسنا تقدم لنا صوراً (Abbilder) صحيحة عن الاشياء التي ندركها ؟ ويواصل قوله ويبلغنا انه حين يتحدث عن الاشياء او عن صفاتها لا يقصد في الواقع هذه الاشياء او صفاتهـا التي لا يمكنه ان يعرف اي امر ثابت اكيد عنهـا انما يقصد فقط انطباعاتها على حواسه (٢٩)

اي هما الخطان من الاتجاهات الفلسفية اللذان يواجه هنا انجلس احدهما بالآخر ؟ الخط الاول هو ان الحواس تعطينـا صوراً صحيحة عن الاشياء واننا نعرف هذه **الاشياء نفسها** وان العالم الخارجي يؤثر في اعضاء حواسنا وهذه هي المادية التي لا يتفق معها اللاعرفاني وفيم يتلخص **جوهر** خط اللاعرفاني ؟ في انه **لا يمضي الى ابعد** من الاحساسات في انه **يتوقف في هذا الجانب من الظواهر** رافضاً ان يرى اي امـر «ثابت» «اكيد» **فيما** وراء حدود الاحساسات اما عن **هذه الاشياء نفسها** (اي عن الاشياء في ذاتها عن «المواضيع في حد ذاتها» كما كان يقول الماديون الذين تجادل معهم بركلي) فلا يمكننا ان نعرف اي امر ثابت اكيد - هذا ما يقولـه اللاعرفاني بكل وضوح وهذا يعني ان المادي يؤكد في ذلك الجدال الذي يتحدث عنه انجلس وجود **الاشياء** في ذاتهـا وامكان معرفتهـا . ان اللاعرفاني **لا يقبل حتى بفكرة**

الاشياء في ذاتها عندما يعلن اننا عاجزون عن معرفة اي امر ثابت اكيد عنها

وهنا نتساءل بم تختلف وجهة نظر اللاعرفاني التي عرضها انجلس عن وجهة نظر ماخ ؟ بكليمة «العنصر» «الجديدة» ؟ ولكن من الصبيانية البحتة ان يظن المرء ان بوسع المصطلحات ان تغير الخط الفلسفي وان الاحساسات المسماة «بالعناصر» لم تبق احساسات او بالفكرة «الجديدة» القائلة ان العناصر نفسها تشكل الفيزيائي في حالة ما وتشكل النفسي في حالة اخرى ؟ ولكن الم تلاحظوا يا ترى ان اللاعرفاني عند انجلس يضع **هو ايضاً** «الانطباعات» محل «هذه الاشياء نفسها» ؟ اذن يميّز اللاعرفاني هو ايضاً **من حيث جوهر الامر** بين «الانطباعات» الفيزيائية والنفسية ان الفرق **ينحصر** من جديد في المصطلحات وعندما يقول ماخ الاجسام **هي** مركبات احساسات فان ماخ بركلي وعندما «يصحح» ماخ «نفسه» ويقول ان «العناصر» يمكن ان تكون فيزيائية في حالة ونفسية في حالة اخرى فان ماخ لاعرفاني هيومي ولا يتخطى ماخ في فلسفته هذين **الخطين** ولا يمكن الا للساذج الذي لا حدّ لسذاجته ان يصدق كلام هذا المشوش حين يقول انه «تجاوز» بالفعل المادية والمثالية على السواء

ان انجلس يمتنع قصداً وعمداً عن ذكر الاسماء في عرضه ولا ينتقد بعض ممثلي الهيومية (يميل الفلاسفة المحترفون شديد الميل الى نعت التغييرات التافهة التي يجريها هؤلاء او اولئك منهم في التعابير او في الحجج بالمناهج الاصيلة) بل ينتقد **كل** خط الهيومية ان انجلس لا ينتقد الجزئيات بل ينتقد الجوهر ويأخذ **ذلك الاساسي** الذي **ينحرف** به جميع الهيوميين عن المادية ولهذا يقع ميل وهكسلي وماخ على السواء تحت سياط نقد انجلس .

فسواء قلنا ان المادة هي امكانية الاحساس الدائمة (حسب جون ستوارت ميل) ام ان المادة هي مركبات ثابتة الى هذا الحد او ذاك من «عناصر» – احساسات (حسب ارنست ماخ) ، – فاننا نبقى **ضمن حدود** اللاعرفانية او الهيومية ان وجهتي النظر هاتين او بالاصح هاتين الصيغتين **يغطيهما** عرض اللاعرفانية عند انجلس ان اللاعرفاني لا يمضي الى ابعد من الاحساسات عندما يعلن انه **لا يستطيع** ان يعرف اي امر ثابت اكيد عن مصدرها او عن اصلها وما الى ذلك واذا كان ماخ يعلق اهمية عظيمة على خلافه مع ميل في هذه المسألة فذلك على وجه الدقة لأن ماخ يصح عليه الوصف الذي اعطاه انجلس عن البروفسورات رؤساء الكراسي Flohknacker لقد قرصتم البرغوث ايها السادة بادخال التعديلات الطفيفة وتغيير المصطلحات عوضاً عن ان تتخلوا عن وجهة النظر النصفية الاساسية

فكيف يدحض المادي انجلس – ، في بداية المقالة يعارض انجلس على المكشوف وبصورة قاطعة اللاعرفانية بماديته ، – الحجج المعروضة ؟

انه يقول

لا ريب ان هذه وجهة نظر من الصعب على ما يبدو دحضها بالحجج وحدها ولكن قبل ان بدأ الناس بتقديم الحجج كانوا يعملون «في البدء كان العمل» وقد حل العمل الانساني هذه الصعوبة قبل ان يختلقها التفلسف الانساني بزمن طويل «The proof of the pudding is in the eating» (البرهان على نوعية الكعكة او التحقق من الكعكة امتحانها انما هو اكلها) . «ففي اللحظة التي نستعمل فيها شيئاً ما لانفسها وفقاً لصفاته التي ندركها – في هذه اللحظة بالذات نمتحن امتحاناً لا خطأ فيه صحة او عدم صحة مدركاتنا الحسية . فاذا كانت هذه المدركات خاطئة ، كان رأينا

في امكانية استعمال الشيء المعني خاطئاً ايضاً لا محالة وكان لا بدّ من ان تؤدي كل محاولة لمثل هذا الاستعمال الى الاخفاق ولكن اذا نجحنا في بلوغ هدفنا اذا تبين لنا ان الشيء ينطبق على فكرتنا عنه وانه يعطي النتيجة التي توقعناها من استعماله كان ذلك الدليل الايجابي على ان مدركاتنا بالشيء وصفاته تنطبق ضمن هذه الحدود على الواقع القائم خارجاً عنّا

وعليه نرى ان النظرية المادية نظرية عكس الاشياء من قبل الفكر معروضة هنا بأكمل الوضوح توجد الاشياء خارجاً عنّا ومدركاتنا وتصوراتنا هي صورها والتحقق من صحة هذه الصور وفصل الحقيقية عن الخاطئة يعطيه النشاط العملي ولكن لنستمع قليلاً ايضاً الى انجلس فيما يقوله لاحقاً (فهنا يقطع بازاروف الاستشهاد من انجلس او من بليخانوف لأنه يرى من النافل على ما يبدو ان يأخذ انجلس بعين الاعتبار)

وحين نرى بالعكس اننا اخطأنا فاننا نعرف بعد وقت قصير على الاغلب كيف نكتشف سبب هذا الخطأ فنجد ان المدرك الذي كان اساس امتحاننا اما انه كان بحد نفسه سطحياً وغير كامل واما انه كان مرتبطاً بنتائج مدركات اخرى على نحو لا يبرره الواقع» (الترجمة الروسية في «المادية التاريخية» غير صحيحة) «وما دمنا نطور حواسنا ونستخدمها على نحو صحيح وما دمنا نحصر نشاطنا في الحدود التي رسمتها مدركاتنا الحاصلة والمستخدمة على نحو صحيح فاننا سنجد دائماً ان نجاح اعمالنا يقدم البرهان على تطابق (Übereinstimmung) مدركاتنا مع الطبيعة الموضوعية (gegenständlich) للاشياء التي ندركها وحسب معرفتنا حتى الآن لم يحدث مرة ان ترتب علينا ان نستنتج ان مدركاتنا الحسية المعللة علمياً ، تولد في

دماغنا افكاراً عن العالم الخارجي تحيد بحكم طبيعتها عن الواقع او ان هناك تنافراً لازباً بين العالم الخارجي ومدركاتنا الحسية به
ولكن يطل اللاعرفاني الكانطـي الجديد ويقول (٣٠)
نحن نترك لمرة اخرى تحليل حجج الكانطيين الجدد ولنلاحظ ان المطلع قليلاً جداً على المسألة او حتى مجرد الانسان المنتبه لا يمكنه ان لا يفهم ان انجلس يعرض هنا تلك المادية نفسهـا التي يحاربها جميع الماخيين في كل زمان ومكان والآن انظروا الى اساليب بازاروف في معالجة انجلس
فقد كتب بازاروف بصدد المقطع الذي نوهنا بــه مــن الاستشهاد
«هنا يقف انجلس بالفعل ضد المثالية الكانطية
هذا غير صحيح فان بازاروف يخبّص ففي المقطع الذي اورده هو واوردناه نحن بصورة اكمل **لا وجود لاية كلمة لا** عن الكانطية **ولا** عن المثالية ولو ان بازاروف قرأ بالفعل كــل مقالة انجلس لكان رأى من كل بّد ان انجلس لا يتحدث عـن الكانطية الجديدة وعن كل خط كانط **الا في** الفقرة **التالية** اي حيث قطعنا استشهادنا ولو ان بازاروف قرأ بانتباه وامعن الفكر في ذلك المقطع الذي اورده هو نفسه لكان رأى من كل بّد انه **لا يوجد اي شيء** لا مثالي ولا كانطي في حجج اللاعرفاني التي يدحضها انجلس هنا لأن المثالية لا تبدأ الا حين يقول الفيلسوف ان الاشياء هي احساساتنا وان الكانطية لا تبدأ الا حين يقول الفيلسوف ان الشيء في ذاته يوجد ولكن تستحيل معرفته لقد خلط بازاروف بين الكانطية والهيومية ولقد خلط هذا لأنه وهو نفسه نصف بركلي نصف هيومي من الشيعة الماخية لا يفهم (كما سنبيّن بالتفصيل ادناه) الفارق بين المعارضة الهيومية والمعارضة المادية للكانطية .

ويستطرد بازاروف قائلاً

ولكن حججه – ويا للأسف ! – موجهة ضد فلسفة بليخانوف بقدر ما هي موجهة ضد فلسفة كانط وعند مدرسة بليخانوف الاورثوذكسي كما سبق واشار بوغدانوف الى هذا سوء تفاهم مشؤوم مع الوعي فانه يبدو لبليخانوف – كما لجميع المثاليين – ان كل المعطى حسياً اي المدرك هو «ذاتي» ، وان الانطلاق فقط من المعطى فعلاً ، انما يعني ان يكون المرء سوليبسياً ، وانه لا يمكن ايجاد الوجود الفعلي الا فيما وراء حدود كل المعطى مباشرة

هذا تماماً بروح تشيرنوف وتأكيداته بان ليبكنخت كان شعبياً روسياً حقاً فاذا كان بليخانوف مثالياً انحرف عن انجلس فلماذا لست مادياً وانت نصير انجلس كما تزعم ؟ ان هذا مجرد تعمية حقيرة ايها الرفيق بازاروف فبالعبارة الماخية **«المعطى مباشرة»** تبدأ بخلط الفارق بين اللاعرفانية والمثالية والمادية فافهم ان «المعطى مباشرة» «المعطى فعلاً» هو تخبيص من الماخيين والكمونيين وغيرهم من الرجعيين في الفلسفة هو مسخرة يتقنع فيها اللاعرفاني (واحياناً المثالي ايضاً عند ماخ) بلباس المادي ان المادي يرى ان العالم الخارجي الذي احساساتنا صورة عنه هو «المعطى فعلاً» ويرى المثالي ان الاحساس هو «المعطى فعلاً» فضلاً عن انه يعتبر العالم الخارجي «مركب احساسات» ويرى اللاعرفاني ان «المعطى مباشرة» هو ايضاً احساس ولكن اللاعرفاني **لا يمضي الى أبعد** ، لا نحو الاقرار المادي بواقعية العالم الخارجي ولا نحو الاقرار المثالي بان العالم هو احساسنا ولهذا كان قولك «انه لا يمكن ايجاد الوجود الفعلي» (حسب تعبير بليخانوف) «الا فيما وراء حدود **كل المعطى مباشرة**» سخافة تنبع حتماً من موقفك الماخي . ولكن اذا كان من

حقك ان تشغل اي موقف بما في ذلك الموقف الماخي فليس من حقك ان تحرّف انجلس حين تتحدث عنه والحال يبدو من اقوال انجلس بوضوح ما بعده وضوح ان الوجود الفعلي يقوم بنظر المادي **فيما وراء حدود** «مدركات» الانسان «الحسية» وانطباعاته وتصوراته في حين ان اللاعرفاني يعتقد انه يستحيل **تجاوز حدود** هذه المدركات ان بازاروف قد صدّق ماخ وافيناريوس وشوبّه حين زعموا ان المعطى «مباشرة» (او **فعلاً**) يجمع بين ال **انا** المدرَك والبيئة المحسوسة في التنسيق الشهير «الذي لا انفصام لعراه» واذا به يحاول ان يدس للمادي انجلس هذا الهراء بصورة غير ملحوظة بالنسبة للقارئ

يبدو كأنّ المقطع المذكور آنفاً والمأخوذ من انجلس قد كتبه هذا الاخير قصداً وعمداً لكي يبدد بشكل مبسط ومفهوم لدى الجميع سوء الفهم المثالي هذا

ليس عبثاً كان بازاروف في مدرسة افيناريوس فهو يواصل تعميته فوراء ستار النضال ضد المثالية (التي لا يدور الحديث ابداً حولها عند انجلس) يمرر بالتهريب «التنسيق» **المثالي** حسناً يا رفيق بازاروف

يسأل اللاعرفاني من اين نعرف ان حواسنا الذاتية تقدم لنا صورة صحيحة عن الاشياء ؟

انت تخبص يا رفيق بازاروف فان انجلس لا يقول بنفسه ولا ينسب حتى الى عدوه اللاعرفاني سخافة من طراز الحواس «**الذاتية**» فلا وجود لحواس اخرى غير الحواس الانسانية اي «الذاتية» لأننا نحاكم من وجهة نظر الانسان وليس من وجهة نظر العفريت وها أنت تبدأ من جديد بدس الماخية الى انجلس ان اللاعرفاني – كما يقال ، – يعتبر الحواس وبالادق الاحساسات ذاتية **فقط** (ان اللاعرفاني **لا** يعتبر هذا !) ، في حين

اننا انا وافيناريوس قد «نسّقنا» الموضوع في صلة لا تنفصم عراها مع الذات حسناً يا رفيق بازاروف !

ولكن ما تسمونه «صحيحاً» ، - يعترض انجلس ، - ان الصحيح هو ما يؤكده نشاطنا العملي ولذا بما ان مدركاتنا الحسية تؤكدها التجربة فانها ليست «ذاتية» اي انها ليست اعتباطية ، او وهمية بل صحيحة فعلية مأخوذة بذاتها

انت تخبص يا رفيق بازاروف فانت تستعيض عن مسألة وجود الاشياء خارج احساساتنا ومدركاتنا وتصوراتنا بمسألة معيار صحة تصوراتنا عن «هذه» الاشياء «نفسها» او بالادق انت **تحجب** المسألة الاولى بالثانية والحال ان انجلس يقول بصراحة ووضوح ان ما يفصله عن اللاعرفاني ليس فقط شك اللاعرفاني في صحة الصور بل ايضاً شك اللاعرفاني فيما اذا كان يمكن التحدث عن **الاشياء نفسها** فيما اذا كان يمكن معرفة وجودها معرفة «ثابتة اكيدة» لماذا احتاج بازاروف الى هذا التزوير ؟ لقد احتاج اليه لكي يموه ويشوش المسألة **الاساسية** بالنسبة للمادية (وبالنسبة لانجلس بوصفه مادياً) مسألة وجود الاشياء خارج وعينا هذه الاشياء التي تثير الاحساسات بفعلها في اعضاء الحواس فلا يمكن ان يكون المرء مادياً اذا لم يحل بالايجاب هذه المسألة ولكن بامكانه ان يكون مادياً مع وجود آراء مختلفة في مسألة معيار صحة هذه الصور التي تقدمها لنا الحواس

كذلك يخبص بازاروف عندما ينسب الى انجلس صيغة سخيفة وجاهلة في الجدال ضد اللاعرفاني تزعم ان مدركاتنا الحسية تؤكدها «**التجربة**» فان انجلس لم يستعمل ولم يكن بوسعه ان يستعمل **هنا** هذه الكلمة لأن انجلس **كان يعرف** ان المثالي بركلي واللاعرفاني هيوم والمادي ديدرو كانوا جميعهم على السواء يستشهدون بالتجربة .

ضمن تلك الحدود التي نتعامل فيهـــا مع الاشياء **تتطابق التصورات عن الشيء وعن صفاته مع الواقع القائم خارجاً عنّا**» ان كون التصورات «تتطابق» يختلف قليلاً عن كونهـــا «هيروغليفاً» «تتطابق» – هذا يعني ان التصور الحسي انما **هو** (حرف التأكيد لبازاروف) ، ضمن الحدود المعنية ، الواقع القائم خارجاً عنّا

الامور بخواتيمها هاهوذا انجلس محوّر ومكيف على ماخ ومطبوخ ومقدم في صلصة ماخية المهم ان لا يغص اصحابنـــا الطباخون الاجلاء الموقرون بهذه الطبخة

«التصور الحسي انما **هو** الواقع القائم خارجاً عنا» ! **وهذا هو** بالذات ذلك السخف الاساسي ذلك التشوش الاساسي والزيف الاساسي في الماخية الذي نبع منه كل هراء هذه الفلسفة الباقي والذي ينهال بسببه الرجعيون المتطرفون ووعاظ الاكليريكية الكمونيون عـــلى ماخ وافيناريوس بالقبلات ومهمـــا راوغ ف بازاروف ومهما تحايل ومهمـــا لجأ الى الاساليـــب الديبلوماسية لتجنب النقاط الحساســـة فقد زل لسانـــه في آخر الامر وكشف طبيعته الماخية ان القول «التصور الحسي **انما هو** الواقع القائـــم خارجاً عنّا» يعني **العودة الى الهيومية او حتى الى البركلية** التي تخفت في **ضباب** «التنسيـــق» وهذا كذب مثالي او رواغ لاعرفاني ايها الرفيق بازاروف لأن التصور الحسي **ليس** الواقع القائم خارجاً عنّا بل **صورة** فقط عـــن هذا الواقع انت تريد ان تتمسك بازدواجية معنى الفعـــل الروسي «**تطابق**» ؟ انت تريد ان تجبر القارئ غير المطلع على ان يصدق ان فعل «تطابق» يعني هنا «ان يكون الشيء نفســـه» وليس «تناسب» ؟ هذا يعني بناء كل تزييف انجلس لاظهاره بصورة ماخ على تشويه معنى الاستشهاد ، لا اكثر .

خذوا الاصل الالماني تروا كلمتي «stimmen mit» اي تتناسب تتوافق تتصاوت – الترجمة الاخيرة حرفية لأن «Stimme» تعني «صوت» ولا يمكن لكلمتي «stimmen mit» ان تعنيا «**تطابق**» بمعني «**ان يكون** الشيء نفسه» بل انه من الواضح تماماً ولا يمكن ان لا يكون من الواضح للقارئ الذي لا يعرف الالمانية ولكن الذي يطالع انجلس بذرة من الانتباه ان انجلس يفسر «التصور الحسي» طوال الوقت كله على امتداد كل محاكمته على انه **صورة** (Abbild) الواقع القائم خارجاً عنّا وانه لا يمكن بالتالي استعمال فعل «совпадать» («تطابق») بالروسية الا بمعنى التناسب التوافق وما الى ذلك وحين تنسب الى انجلس الفكرة التي تزعم ان «التصور الحسي انما **هو** الواقع القائم خارجاً عنّا» فان ذلك سيكون درة التشويه الماخي درة دس اللاعرفانية والمثالية وتصويرهما بصورة المادية ولذا لا بدّ من الاعتراف بان بازاروف قد ضرب جميع الارقام القياسية في هذا المجال

وهنا نتساءل كيف يمكن لاناس لم يجنوا ان يؤكدوا بوعي وبصيرة «ان التصور الحسي (ايا كانت الحدود التي يجري ضمنها فلا شأن لهذا) انما هو الواقع القائم خارجاً عنّا» ؟ ان الارض هي واقع قائم خارجاً عنّا ولا يمكن لها لا ان «تتطابق» (بمعنى ان تكون الشي نفسه) مع تصورنا الحسي ولا ان تكون معه في تنسيق لا انفصام لعراه ولا ان تكون «مركب عناصر» مماثلة للاحساس في حالة اخرى لأن الارض كانت موجودة عندما لم يكن ثمة وجود لا للانسان ولا لاعضاء الحواس ولا للمادة المنظمة في ذلك الشكل الاعلى الذي تلاحظ بفضله بقدر ما من الوضوح خاصة المادة في ان تكون لها احساسات .

والحكاية كلها انه لأجل ستر كل سخافة هذا الزعم المثالية تستخدم تلك النظريات المختلقة التي درسناها في الفصل الاول نظريات «التنسيق» و«الحقن» وعناصر العالم المكتشفة حديثاً ان صيغة بازاروف التي صاغها سهواً وبدون تبّصر ممتازة بكونها تكشف بجلاء السخافة الصارخة التي يجب نبشها لولا ذلك من تحت اكوام الترهات المتحذلقة الفارغة شبـــه العلميـــة الاستاذية

مرحى لك يا رفيق بازاروف سننصب لك في حياتـــك تمثالاً ونتقش على جانب منه صيغتـــك وعـــلى جانب آخر الى الماخي الروسي الذي دفن الماخية عند الماركسيين الروس

سوف نتحدث بصورة خاصة عن نقطتين تناولهما بازاروف في الاستشهاد المذكور هما معيار النشاط العملي عند اللاعرفانيين (بمن فيهم الماخيون) وعند الماديين والفرق بين نظرية الانعكاس (او التصوير) ونظريـــة الرموز (او الهيروغليفات) اما الآن فلنواصل قليلاً ايضاً الاستشهاد من بازاروف

وماذا يوجد فيمـا وراء هذه الحدود ؟ ان انجلس لا ينبس ببنت شفة عن هذا وهو لا يفصح في اي مكان عن الرغبة في القيام بذلك «التعالي» بذلك الخروج الى ما وراء حدود العالـم المعطى حسياً بالخروج القائم في اساس نظرية المعرفة عنـد بليخانوف

وراء ايـة حدود «هذه» ؟ وراء حدود ذلك «التنسيق» الذي اختلقه ماخ وافيناريوس والذي يمزج على حد زعمهما الـ **أنا** والبيئـة الذات والموضوع بصورة لا انفصام لعراها ؟ ان السؤال الذي يطرحه بازاروف ، يخلو بحد ذاته من كل معنى

ولو انه طرح المسألة بصورة انسانية لرأى بوضوح ان العالم الخارجي يقوم «وراء حدود» احساسات الانسان ومدركاته وتصوراته ولكن كلمة «التعالي» تفضح بازاروف ايضاً وايضاً وهذا «شعوذة» كانطية وهيومية مميزة هذا يعني اقامة حد **مبدئي** بين **الظاهرة** وبين **الشيء في ذاته** وان الانتقال من الظاهرة او اذا شئتم من احساسنا ومدركنا وما الى ذلك الى الشيء القائم خارج المدرك والاحساس هو **التعالي** – كما يقول كانط – ، وهذا **التعالي** مسموح به لا لأجل المعرفة بل لأجل الايمان ويعترض هيوم قائلاً ان التعالي غير مسموح به **اطلاقاً** وان الكانطيين شأنهم شأن الهيوميين يقولون عن الماديين انهم واقعيون **متعالون** وانهم «ميتافيزيائيون» يقومون **بانتقال** (باللاتينية transcensus) غير مشروع من ميدان الى ميدان آخر مختلف مبدئياً وبوسعكم ان تجدوا عند اساتذة الفلسفة المعاصرين السائرين على خط كانط وهيوم الرجعي (خذوا على الاقل الاسماء التي ذكرها فوروشيلوف – تشيرنوف) ترديدات لا نهاية لها بآلاف الصيغ لهذه التهم الموجهة الى المادية بالنزوع الى «الميتافيزيائية» و«التعالي» وقد اقتبس بازاروف الكلمة ومجرى التفكير على السواء من الاساتذة الرجعيين ويتقدم به متفاخراً باسم «الوضعية الحديثة» ولكن الحكاية كلها ان فكرة «التعالي» نفسها اي فكرة الحد **المبدئي** بين الظاهرة والشيء في ذاته هي فكرة سخيفة للاعرفانيين (بمن فيهم الهيوميون والكانطيون) والمثاليين وقد سبق واوضحنا هذا على ضوء المثال الذي اورده انجلس عن الاليزارين وسنوضحه ايضاً باقوال فورباخ ويوسف ديتزغن ولكن لننه اولاً مسألة «معالجة» بازاروف لانجلس

«. . . يقول انجلس في مكان من مؤلفه «ضد دوهرينغ» ان

«الوجود» خارج العالم الحسي هو « offene Frage » **اي مسألة لا** نملك اية معطيات لحلها وحتى لطرحها»

وهذه الحجة يرددها **بازاروف** اثر الماخي الالماني فريدريخ آدلر وهذا المثال الاخير يكاد يكون اسوأ من «التصور الحسي» الذي «انما هو الواقع القائم خارجاً عنا» وفي الصفحة ٣١ (الطبعة الالمانية الخامسة) من «ضد دوهرينغ» يقول انجلس

«ان وحدة العالم لا تقوم في وجوده رغم ان وجوده مقدمة لوحدته لأنه ينبغي في البدء ان **يوجد** العالم قبل ان يكون بامكانه ان يكون **واحداً** ان الوجود مسألة معلقة على العموم (offene Frage) ابتداء من ذلك الحد الذي ينقطع عنده مجال بصرنا (Gesichtskreis) ان وحدة العالم الفعلية تتجسد في ماديته ، وهذه الاخيرة لا يثبتها زوج من جمل الشعوذة بل يثبتها التطور المديد والصعب للفلسفة والعلوم الطبيعية» (٣١)

فانظروا الى هذا الخبيص الجديد الذي صنعه طباخنا انجلس يتحدث عن الوجود **فيما وراء** ذلك الحد الذي ينتهي عنده مجال بصرنا اي مثلاً عن وجود الناس على المريخ وخلافه وواضح ان هذا الوجود هو بالفعل المسألة المعلقة ولكن بازاروف الذي لا يورد الاستشهاد بكامله كأنما قصداً وعمداً يحور كلام انجلس بحيث يبدو كأن مسألة «**الوجود خارج العالم الحسي**» مسألة معلقة ! ! هذه سخافة ما بعدها سخافة ؛ وهنا تُنسب الى انجلس نظرة اولئك الاساتذة في الفلسفة الذين اعتاد بازاروف ان يصدق كلامهم والذين سماهم يوسف ديتزغن عن حق وصواب بخدم الاكليريكية او الايمانية حملة الشهادات وبالفعل تؤكد الايمانية بالايجاب انه يوجد شيء ما «خارج العالم الحسي» ولكن الماديين المتضامنين مع العلوم الطبيعية يرفضون هذا الرأي قطعاً . وفي الوسط يقف البروفسورات ، والكانطيون ، والهيوميون

(بمن فيهم الماخيون) وخلافهم الذين «وجدوا الحقيقة خارج المادية والمثالية» والذين «يوفقون» قائلين هذه مسألة معلقة ولو ان انجلس قال ذات يوم شيئاً من هذا القبيل لكان من الخزي والعار ان يقول المرء عن نفسه بانه ماركسي

ولكن كفى ان نصف صفحة من الاستشهادات من بازاروف هي كبة من التخبيص على درجة من التعقد بحيث نرانا مضطرين الى الاكتفاء بما قيل دون ان نتتبع لاحقاً جميع تذبذبات الفكر الماخي

٣ ـ لودفيغ فورباخ ويوسف ديتزغن والشيء في ذاته

لكي نبين الى اي حد من الخراقة والسخافة يبلغ اصحابنا الماخيون في زعمهم ان الماديين ماركس وانجلس قد انكرا وجود الاشياء في ذاتها (اي الاشياء خارج احساساتنا وتصوراتنا وما اليها) وامكان معرفتها وانهما سلّما بوجود حد مبدئي ما بين الظاهرة والشيء في ذاته نسوق بضعة مقتبسات اخرى من فورباخ فان مصيبة اصحابنا الماخيين هي انهم طفقوا يتحدثون بكلمات البروفسورات الرجعيين عن المادية الدياليكتيكية دون ان يعرفوا **لا** الدياليكتيك **ولا** المادية

يقول لودفيغ فورباخ «ان الروحانية الفلسفية المعاصرة التى تسمي نفسها بالمثالية توجه الى المادية اللوم التالي الماحق بنظرها المادية – حسب زعم الروحانية – هى الاعتقادية * اي انها تنطلق من العالم الحسي (sinnlichen) باعتباره حقيقة موضوعية لا جدال فيها (ausgemacht) ، وتعتبرها عالماً في ذاته

* الاعتقادية – dogmatism . **المعرب** .

(an sich) ، اي عالماً موجوداً بدوننا ، في حين ان العالم ليس بالفعل غير نتاج الروح» (Sämtliche Werke, X. Band, 1866, S. 185*)

هذا واضح على ما يبدو أليس كذلك ؟ العالم في ذاته هو العالم الموجود **بدوننا** ان هذا هو مادية فورباخ وكانت مادية القرن السابع عشر التي عارضها بركلي قد تلخصت ايضاً في الاعتراف «بالمواضيع بحد ذاتها» الموجودة خارج ادراكنا ان تعبير «An sich» (بحد ذاته او «في ذاته») كما يفهمه فورباخ يتعارض كلياً مع تعبير «An sich» كما يفهمه كانط تذكروا الاقتباس المذكور اعلاه من فورباخ الذي يتهم كانط بان «الشيء في ذاته» هو بنظره «تجريد بدون واقع» اما بنظر فورباخ فان «الشيء في ذاته» هو «التجريد **مع** الواقع» اي العالم الموجود خارجاً عنا وتمكن تماماً معرفته ولا يختلف مبدئياً في شيء عن «الظاهرة»

ويفسر فورباخ بصورة ظريفة وواضحة جداً انه من بالغ السخافة تقبل «انتقال» ما من عالم الظاهرات الى العالم في ذاته تقبل هاوية ما يستحيل عبورها وخلقها الكهنة واقتبسها منهم اساتذة الفلسفة اليكم احد هذه التفسيرات

«يقيناً ان منتوجات الخيال هي ايضاً منتوجات الطبيعة لأن قوة الخيال مثلها مثل جميع قوى الانسان الاخرى هي ايضاً في آخر المطاف (zuletzt) من حيث اساسها من حيث اصلها قوة من قوى الطبيعة ولكن الانسان هو مع ذلك كائن يختلف عن الشمس والقمر والنجوم يختلف عن الحجارة والحيوانات والنباتات يختلف – خلاصة القول – ، عن جميع تلك الكائنات

---

* مجموعة المؤلفات . المجلد ١٠ ، عام ١٨٦٦ ، ص ١٨٥ . **الناشر** .

(Wesen) التي يرمز اليها بالتعبير العام الطبيعة ومن هنا ينجم ان تصورات (Bilder) الانسان عن الشمس والقمر والنجوم وعن جميع الكائنات الاخرى في الطبيعة (Naturwesen) هي منتوجات **اخرى** تختلف عن مواضيعها في الطبيعة رغم ان هذه التصورات هي منتوجات الطبيعة» (Werke, Band VII, Stuttg., 1903, S. 516)

ان مواضيع تصوراتنا تختلف عن تصوراتنا والشيء في ذاته يختلف عن الشيء من اجلنا لأن هذا الاخير ليس غير جزء او جانب من الاول كما ان الانسان نفسه ليس غير جزء من الطبيعة المنعكسة في تصوراته

ان عصب الذوق عندي هو ايضاً من منتوجات الطبيعة شأنه شأن الملح ولكنه لا ينجم من هذا ان طعم الملح يعتبر مباشرة كما هو عليه خاصة الملح الموضوعية وان الملح كما هو عليه (ist) بصفته موضوع الاحساس فقط يعتبر كذلك متواجداً بحد ذاته (an und für sich)، وان الاحساس بالملح على اللسان يعتبر خاصة الملح كما نستحضر الملح بدون احساس (des ohne Empfindung gedachten Salzes) وقبل ذاك ببضع صفحات «ان الملوحة كطعم هي تعبير ذاتي عن خاصة الملح الموضوعية» (ص ٥١٤)

ان الاحساس هو نتيجة تأثير شيء في ذاته موجود موضوعياً وخارجاً عنا فى اعضاء حواسنا تلك هي نظرية فورباخ. ان الاحساس هو صورة ذاتية للعالم الموضوعي للعالم an und für sich كذلك الانسان هو كائن من كائنات الطبيعة (Naturwesen) مثل الشمس والنجم والنبات والحيوان والحجر، ولكنه يختلف مع ذلك عن الطبيعة، وبالتالي تختلف

الطبيعة في رأس الانسان وقلبه عن الطبيعة القائمة خارج رأس الانسان وخارج قلب الانسان

ان الانسان هو الكائن الوحيد الذي تحقق فيه حسب اعتراف المثاليين انفسهم مطلب «تماثل الذات والموضوع» لأن الانسان هو شيء لا يطال اي شك مساواته ووحدته مع كياني ولكن ألا يشكل الانسان يا ترى بالنسبة لانسان آخر حتى لاقرب شخص منه موضوعاً للخيال موضوعاً للتصور ؟ ألا يدرك كل انسان يا ترى انساناً آخر حسبما يدركه عقله بطريقته الخاصة (in und nach seinem Sinne) ؟ واذا كان هناك حتى بين انسان وانسان بين تفكير وتفكير فرق لا يمكن تجاهله فباي قدر يجب ان يربو الفرق بين الكائن بحد ذاته (Wesen an sich) غير المفكر غير الانساني غير المتماثل معنا وبين هذا الكائن نفسه حسبما نراه بالفكر ونتصوره ونفهمه ؟» (ص ٥١٨ المرجع نفسه)

ان كل فرق مبهم عويص داه بين الظاهرة والشيء في ذاته هو هراء فلسفي مطبق وفي الواقع العملي ، شاهد كل انسان ملايين المرات تحول «الشيء في ذاته» تحولاً بسيطاً وجلياً الى ظاهرة الى «شيء من اجلنا» وهذا التحول انما هو المعرفة وان «مذهب الماخية القائل اننا ما دمنا **لا** نعرف **غير** الاحساسات فانه لا يسعنا ان نعرف عن **وجود** اي شيء فيما وراء حدود الاحساسات انما هو سفسطة قديمة للفلسفة المثالية واللاعرفانية مقدمة في صلصة جديدة

يوسف ديتزغن مادي دياليكتيكي وسنبين ادناه ان اسلوبه للتعبير غالباً ما يكون غير دقيق وانه غالباً ما يسقط في حمأة التشوش الامر الذي تمسك به مختلف الافراد غير الاذكياء (بمن فيهم يفغينى ديتزغن) ، وكذلك اصحابنا الماخيون بالطبع

ولكنهم لم يكلفوا انفسهم عناء تحليل الخط المهيمن في فلسفته وعناء فصل المادية بوضوح عن العناصر الغريبة او انهم لم يستطيعوا القيام بذلك

يقول ديتزغن في مؤلفه «كنه عمل الدماغ» (الطبعة الالمانية عام ١٩٠٣ ص ٦٥) «لنأخذ العالم بوصفه «شيئاً في ذاته» فمن السهل ان نفهم ان «العالم **في ذاته**» والعالم كما **يظهر** لنا ظاهرات العالم لا يختلفان احدهما عن الأخر اكثر مما يختلف الكل عن الجزء» «ان الظاهرة تختلف عما يظهر كما تختلف عشرة اميال من الطريق عن الطريق كله لا اكثر ولا اقل» (ص ٧١-٧٢) ولا يوجد هنا ولا يمكن ان يوجد اي فرق مبدئي اي «تعال» اي «عدم تناسق فطري» ولكن يوجد فرق بالطبع يوجد انتقال **الى ما وراء حدود** الانطباعات الحسية نحو **وجود** الاشياء خارجاً عنا

ويقول ديتزغن في مؤلفه «جولات اشتراكي في ميدان نظرية المعرفة» (الطبعة الالمانية عام ١٩٠٣ «Kleinere philosoph. Schriften» ص ١٩٩) «نحن نعرف ان كل تجربة هي جزء مما يتخطى اذا تكلمنا كما يتكلم كانط حدود كل تجربة» «ان كل جزيئة سواء كانت جزيئة من الغبار او من الحجر او من الشجرة هي بالنسبة للوعي الذي ادرك جوهره شيء **تستحيل معرفته الى النهاية** (Unauskenntliches) اي ان كل جزيئة هي مادة لا ينضب لها معين لأجل القدرة العرفانية الانسانية وهي بالتالي شيء يتخطى حدود التجربة» (ص ١٩٩)

انتم ترون اذا **تكلمنا كما يتكلم كانط** اي باللجوء - لاغراض التبسيط بوجه الحصر لأجل المقارنة - الى تعابير كانط **الخاطئة** والمشوشة يعترف ديتزغن بالخروج «الى ما وراء حدود التجربة» . وهذا مثال جيد على ما يتشبث به الماخيون ،

بالانتقال من المادية الى اللاعرفانية نحن لا نريد ان نخرج «الى ما وراء حدود التجربة» ونحن نعتقد ان «التصور الحسي **انما هو** الواقع الموجود خارجاً عنا»

وضد هذه الفلسفة بالذات يقول ديتزغن «ان التصوف السقيم يفصل بصورة غير علمية الحقيقة المطلقة عن الحقيقة النسبية وهو يجعل من الشيء الظاهر و«الشيء في ذاته» اي من الظاهرة والحقيقة مقولتين مختلفتين فيما بينهما toto coelo (كلياً على طول الخط مبدئياً) ولا تحتويهما اية مقولة مشتركة» (ص ٢٠٠)

احكموا الآن على مبلغ اطلاع وظرافة الماخي الروسي بوغدانوف الذي لا يريد ان يعترف بانه ماخي ويريد ان يعتبروه ماركسياً في الفلسفة

«لقد شغل الماديون ممن ميلهم الى النقد اقوى» «الوسط الذهبي» – بين «النفسية الشاملة والمادية الشاملة» (««الاحادية التجريبية» الكتاب الثاني الطبعة الثانية عام ١٩٠٧ ص ٤٠–٤١) – «فهم ينكرون الاستحالة المطلقة لمعرفة «الشيء في ذاته» ولكنهم يعتبرون في الوقت نفسه ان «الشيء في ذاته» يختلف **مبدئياً** (حرف التأكيد لبوغدانوف) عن «الظاهرة» وانه دائماً بالتالي «تمكن معرفته بصورة غامضة» فقط في الظاهرة وانه خارج التجربة من حيث المضمون (اي على ما يبدو حسب «العناصر» التي ليست بصورة عناصر التجربة) ولكنه قائم ضمن حدود ما يسمى باشكال التجربة اي الزمان والمكان والسببية وتلك هي على وجه التقريب وجهة نظر الماديين الفرنسيين من القرن الثامن عشر وكذلك بين الفلاسفة الحديثين وجهة نظر انجلس وتابعه الروسي بلتوف»

هذه كبة من التشوش التام . ١ – ان ماديي **القرن السابع**

عشر الذين يجادلهم بركلي يقرون بأنه يمكن تماماً معرفة «المواضيع في حد ذاتها» لأن تصوراتنا افكارنا ليست سوى نسخ او انعكاسات لهذه المواضيع الموجودة «خارج العقل» (راجعوا «المقدمة») ٢ - على التفريق «المبدئي» بين الشيء في ذاته وبين الظاهرة يعترض **فورباخ** قطعاً ومن بعده يوسف ديتزغن كما ان انجلس يدحض هذا الرأي بالمثال الموجز عن تحول «الاشياء في ذاتها» الى «اشياء من اجلنا» ٣ - اخيراً اما ان الماديين يعتبرون ان الاشياء في ذاتها «تمكن معرفتها دائماً في الظاهرة بصورة غامضة فقط» فان هذا مجرد هراء كما رأينا من دحض انجلس للاعرفانى ان سبب تشويه المادية من قبل بوغدانوف انما هو عدم فهمه للعلاقة بين الحقيقة المطلقة والحقيقة النسبية (الامر الذي سنتحدث عنه ادناه) اما فيما يتعلق بالشيء في ذاته «خارج التجربة» و«بعناصر التجربة» فان هذا هو نفس التخبيص الماخي الذي تحدثنا عنه اعلاه كفاية

ترديد هراء لا يصدق بحق الماديين في اثر الاساتذة الرجعيين والتنكر لانجلس في عام ١٩٠٧ ومحاولة «تكييف انجلس في عام ١٩٠٨ للاعرفانية - تلك هي فلسفة «الوضعية الحديثة» للماخيين في روسيا

٤ - هل توجد حقيقة موضوعية ؟

يعلن بوغدانوف «ان الماركسية تنطوي بنظري على انكار الموضوعية المطلقة للحقيقة اياً كانت على انكار الحقائق الخالدة على اختلافها» («الاحادية التجريبية» الكتاب الثالث ص IV-V) ماذا يعني تعبير الموضوعية **المطلقة** ؟ ان «الحقيقة السرمدية» هي «الحقيقة الموضوعية بمعنى الكلمة المطلق» -

هكذا يقول بوغدانوف في المكان نفسه ولكنه لا يوافق على الاعتراف «بالحقيقة الموضوعية الا ضمن حدود عهد معين»

من الجلي هنا ان بوغدانوف خلط بين مسألتين ١ – هل توجد حقيقة موضوعية اي هل يمكن ان يقوم في التصورات الانسانية مضمون لا يتوقف على الذات لا يتوقف لا على الانسان ولا على الانسانية ؟ ٢ – اذا كان أجل أيمكن للتصورات البشرية التي تعرب عن الحقيقة الموضوعية ان تعرب عنها دفعة واحدة بصورة كلية بلا شك بصورة مطلقة ام بصورة تقريبية فقط بصورة نسبية فقط ؟ هذه المسألة الثانية هي مسألة العلاقة بين الحقيقة المطلقة والحقيقة النسبية

يجيب بوغدانوف عن المسألة الثانية بوضوح وصراحة ودقة ناكراً اقل تسليم بالحقيقة المطلقة ومتهماً انجلس **بالاختيارية** بسبب هذا التسليم وسوف نتحدث فيما بعد بنحو خاص عن هذا الاكتشاف لاختيارية انجلس من قبل بوغدانوف اما الآن فاننا سنتناول المسألة الاولى التي يحلها بوغدانوف هي ايضاً حلاً سلبياً دون ان يقول ذلك صراحة ، – لأنه يمكن انكار عنصر النسبي * في هذه او تلك من التصورات البشرية دون انكار الحقيقة الموضوعية ولكنه لا يمكن انكار الحقيقة المطلقة دون انكار وجود الحقيقة الموضوعية

ويكتب بوغدانوف بعد ذلك بقليل ص IX ان معيار الحقيقة الموضوعية لا وجود له بالمعني البلتوفي ان الحقيقة هي الشكل الايديولوجي – الشكل المنظّم للتجربة الانسانية

لا شأن هنا لا «للمعنى البلتوفي» لأن المقصود احدى المسائل الفلسفية الاساسية وليس البتة بلتوف ولا **لمعيار** الحقيقة

* وقع خطأ في النص على ما يبدو فمن حيث المعنى ، كان يجب ان يقال «المطلق» وليس «النسبي» . **الناشر** .

الذي يجب التحدث عنه على انفراد دون خلط هذه المسألة بمسألة ما اذا كانت **توجد** حقيقة موضوعية ان جواب بوغدانوف السلبي عن هذه المسألة الاخيرة واضح اذا كانت الحقيقة شكلاً ايديولوجياً **فقط** فان هذا يعني انه لا يمكن ان تكون ثمة حقيقة مستقلة عن الذات عن البشرية لأننا لا نعرف مع بوغدانوف ايديولوجية اخرى غير الايديولوجية الانسانية وجواب بوغدانوف السلبي يتبدى بمزيد من الوضوح من نصف جملته الثاني اذا كانت الحقيقة شكل التجربة الانسانية فان هذا يعني انه لا يمكن ان تكون ثمة حقيقة مستقلة عن البشرية لا يمكن ان تكون ثمة حقيقة موضوعية

ان انكار بوغدانوف للحقيقة الموضوعية هو اللاعرفانية والذاتية وان خرافة هذا الانكار جلية للعيان وان على الاقل من المثال المذكور آنفاً مثال الحقيقة التاريخية الطبيعية وحدها ان العلوم الطبيعية لا تتيح الشك في ان تأكيدها لوجود الارض قبل البشرية هو حقيقة وهذا يتفق تماماً مع نظرية المعرفة المادية فان وجود المعكوس المستقل عن العواكس (استقلال العالم الخارجي عن الوعي) هو المقدمة الاساسية للمادية وان تأكيد العلوم الطبيعية بان الارض وجدت قبل البشرية هو حقيقة موضوعية ولكن هذه الموضوعة التي تقول بها العلوم الطبيعية لا تتفق مع فلسفة الماخيين ومع مذهبهم بشأن الحقيقة اذا كانت الحقيقة الشكل المنظِّم للتجربة الانسانية فلا يمكن ان يكون القول بوجود الارض **خارج** كل تجربة انسانية قولاً صحيحاً

ولكن هذا لا يكفي فاذا لم تكن الحقيقة غير الشكل المنظِّم للتجربة الانسانية فان هذا يعني ان العقيدة الكاثوليكية مثلاً هي ايضاً حقيقة لأنه لا مجال لادنى شك في ان الكاثوليكية هي «شكل منظِّم للتجربة البشرية» . ولقد شعر بوغدانوف نفسه بزيف

نظريته الصارخ هذا ولذا من فائق الطرافة ان نرى كيف حاول ان يتخلص من الورطة التي وقع فيها

نقرأ في الكتاب الاول من «الاحادية التجريبية» «يجب ان يتواجد اساس الموضوعية في ميدان التجربة الجماعية ونحن ننعت بالموضوعية تلك من معطيات التجربة التي لها اهمية حيوية واحدة بالنسبة لنا وبالنسبة للناس الآخرين تلك من المعطيات التي لا نبني عليها نشاطنا بدون تناقض وحسب بل التي يجب باقتناعنا ان يرتكز عليها ايضاً الناس الآخرون لكي لا يقعوا في تناقض ان الطابع الموضوعي للعالم الفيزيائي يتلخص في انه موجود لا من اجلي وحدي بل من اجل الجميع» (غير صحيح! فهو موجود بصورة مستقلة عن «الجميع») «وانه يتسم بالنسبة للجميع باهمية معينة مماثلة باقتناعي للاهمية التي يتسم بها بالنسبة لي ان موضوعية الصف الفيزيائي - انما هي **اهميته العامة**» (ص ٢٥ حرف التأكيد لبوغدانوف) «ان موضوعية الاجسام الفيزيائية التي نلتقي بها في تجربتنا تتكون في آخر المطاف على اساس التحقق المتبادل من آراء مختلف الناس وعلى اساس التنسيق بينها ان العالم الفيزيائي انما هو بوجه عام التجربة المنسقة اجتماعياً المتساوقة اجتماعياً وبكلمة **التجربة المنظمة اجتماعياً**» (ص ٣٦ حرف التأكيد لبوغدانوف)

لن نكرر ان هذا تعريف خاطئ من اساسه مثالي وان العالم الفيزيائي موجود بصورة مستقلة عن الانسانية وعن التجربة الانسانية وان العالم الفيزيائي كان موجوداً عندما لم يكن من الممكن ان تقوم ثمة اية «اجتماعية» واية «تنظيمية» للتجربة الانسانية والخ وسنتناول الآن فضح الفلسفة الماخية من جانب آخر فان الموضوعية تُعرَّف بحيث تصلح لهذا التعريف تعاليم الدين التي تتسم بلا ريب «باهمية عامة» ، والخ . . ولنستمع

من جديد الى بوغدانوف «نذكر القراء مرة اخرى ان التجربة «الموضوعية» ليست البتة التجربة «الاجتماعية» ان التجربة الاجتماعية ابعد من ان تكون كلها منظمة اجتماعياً وهي تنطوي دائماً على تناقضات مختلفة ولذا لا تتوافق بعض اقسامها مع بعضها الآخر قد توجد عفاريت الغابات وجنيات البيوت في ميدان التجربة الاجتماعية لشعب ما او لفئة ما من الشعب مثلاً فئة الفلاحين ولكنه لا يجوز ادراجها من جراء ذلك في التجربة المنظمة اجتماعياً او في التجربة الموضوعية لأنها لا تتوافق مع التجربة الجماعية الباقية ولا تتوضع في اشكالها المنظّمة مثلاً في سلسلة السببية» (ص ٤٥)

يقيناً انه يطيب لنا جداً ان بوغدانوف نفسه «لا يدرج» التجربة الاجتماعية المتعلقة بعفاريت الغابات وجنيات البيوت وما الى ذلك في التجربة الموضوعية ولكن هذا التصحيح الصغير الحسن النية بروح انكار الايمانية لا يصحح البتة الخطأ الجذري في كل الموقف البوغدانوفي فمن المؤكد ان التعريف البوغدانوفي للموضوعية وللعالم الفيزيائي يبطل لأن لتعاليم الدين «اهمية عامة» اكبر مما لتعاليم العلم فان البشرية لا تزال تتمسك في غالبيتها حتى الآن بالتعاليم الاولى بتعاليم الدين ان الكاثوليكية «منظمة موفقة منسقة اجتماعياً» من جراء تطورها خلال قرون وقرون وهي «**تتوضع**» في «سلسلة السببية» بشكل لا مراء فيه اطلاقاً لأن الاديان لم تنبثق بدون سبب ولأنها لا تبقى البتة بفعل الصدفة في صفوف سواد الشعب في ظل الظروف الراهنة ولأن اساتذة الفلسفة يسايرونها «بصورة طبيعية» تماماً واذا كانت هذه التجربة الاجتماعية – الدينية ذات الاهمية العامة الاكيدة وذات التنظيم الرفيع الاكيد «لا تتوافق» مع «تجربة» العلم فان هذا يعني انه يوجد بين هذه وتلك فرق مبدئي ، جذري ، محاه

بوغدانوف عندما انكر الحقيقة الموضوعية ومهما حاول بوغدانوف ان «يصحح نفسه» بالقول ان الايمانية او الاكليريكية لا تتوافق مع العلم يبق مع ذلك واقع لا ريب فيه هو ان انكار الحقيقة الموضوعية من قبل بوغدانوف «يتوافق» كلياً مع الايمانية فان الايمانية المعاصرة لا تنكر البتة العلم وهي لا تنكر الا «ادعاءات» العلم «المفرطة» واعني بالضبط الادعاء بالحقيقة الموضوعية واذا كانت الحقيقة الموضوعية موجودة (وهكذا يعتقد الماديون) واذا كانت العلوم الطبيعية التي تعكس العالم الخارجي في «تجربة» الانسان هي وحدها التي تستطيع ان تعطينا الحقيقة الموضوعية فان الايمانية كل ايمانية تُنكَر من كل بد اما اذا لم تكن الحقيقة الموضوعية موجودة واذا لم تكن الحقيقة (بما فيها الحقيقة العلمية) غير شكل منظّم للتجربة البشرية فان هذا بحد ذاته يعني الاعتراف بالمقدمة الاساسية للاكليريكية اذيفتح الباب امامها ويخلي المكان لأجل «الاشكال المنظّمة» للتجربة الدينية

ونتساءل هذا الانكار للحقيقة الموضوعية أيخص شخصياً بوغدانوف الذي لا يريد ان يعترف بانه ماخي ام ينبع من اسس مذهب ماخ وافيناريوس ؟ عن هذا السؤال لا يمكن الجواب الا بالمعنى الاخير فاذا لم يكن يوجد في الدنيا غير الاحساس (افيناريوس عام ١٨٧٦) واذا كانت الاجسام مركبات احساسات (ماخ في «تحليل الاحساسات») فمن الواضح اننا امام الذاتية الفلسفية التي تؤدي حتماً الى انكار الحقيقة الموضوعية واذا كانت الاحساسات تسمى »بعناصر» تعطي الفيزيائي في حالة والنفسي في حالة اخرى فان هذا كما رأينا لا يفعل غير ان يشوش النقطة المنطلقية الاساسية في المذهب النقدي التجريبي ولكنه لا ينكرها . ان ماخ وافيناريوس يقران بان الاحساسات

هي مصدر معارفنا وهما يتبنيان بالتالي وجهة نظر المذهب التجريبي (كل المعرفة تنشأ من التجربة) او المذهب الحسي (كل المعرفة تنشأ من الاحساسات) ولكن وجهة النظر هذه تؤدي الى التفريق بين الاتجاهين الفلسفيين الاساسيين المثالية والمادية ، ولكنها لا تزيل الفوارق بينهما ايا كانت الحلل الكلامية «الجديدة» («العناصر») التي ترتديها ففي وسع السوليبسي اي المثالي الذاتي وفي وسع المادي ان يعترفا على السواء بان الاحساسات هي منشأ معارفنا وبركلي وديدرو انطلقا على السواء من لوك لا ريب ان المقدمة الاولى في نظرية المعرفة تتلخص في ان الاحساسات هي المنشأ الوحيد لمعارفنا ان ماخ يعترف بهذه المقدمة الاولى ولكنه يشوش المقدمة الثانية الهامة القائلة بالواقعية الموضوعية المعطاة للانسان في احساساته او التي تشكل منشأ الاحساسات البشرية وانطلاقاً من الاحساسات يمكن السير حسب خط الذاتية الذي يؤدي الى السوليبسيسم («الاجسام هي مركبات او تركيبات احساسات») ويمكن السير حسب خط الموضوعية الذي يؤدي الى المادية (الاحساسات صور الاجسام صور العالم الخارجي) بالنسبة لوجهة النظر الاولى – اي اللاعرفانية او ابعد قليلاً المثالية الذاتية – لا يمكن ان توجد الحقيقة الموضوعية اما بالنسبة لوجهة النظر الثانية اي للمادية فمن المهم الاعتراف بالحقيقة الموضوعية ان هذه المسألة الفلسفية القديمة مسألة النزعتين او بالاصح مسألة الاستنتاجين الممكنين من مقدمتي المذهب التجريبي والمذهب الحسي لم يحلها ماخ ولم يذللها ولم يتغلب عليها بل **شوشها** عن طريق سوء استعماله لكلمة «عنصر» وما الى ذلك ان انكار الحقيقة الموضوعية من قبل بوغدانوف هو نتيجة محتمة للماخية بأسرها ، وليس تملصاً منها .

وينعت انجلس في مؤلفه «لودفيغ فورباخ» هيوم وكانط بانهما فيلسوفان «يعارضان امكانية معرفة العالم او على الاقل معرفته الكاملة» ويدفع انجلس بالتالي الى المرتبة الاولى ما يجمع بين هيوم وكانط وليس ما يفرق بينهما وفضلاً عن ذلك يشير انجلس الى ان «الشيء الحاسم في دحض هذا الرأي» (رأي هيوم ورأي كانط) «قد قاله هيغل» (ص ١٥-١٦ من الطبعة الالمانية الرابعة) (٣٢) وفي هذا الصدد يبدو لي انه لا يخلو من الفائدة والطرافة ان اشير الى ان هيغل قد اعتبر **المادية** «منهجاً منسجماً للمذهب التجريبي» وكتب يقول «ان الظاهري (das Äußerliche) على العموم هو الحقيقي بالنسبة للمذهب التجريبي وحتى اذا كان المذهب التجريبي يسلّم فيما بعد بشيء ما فوق الاحساس فهو ينكر امكان معرفته (soll doch eine Erkenntnis desselben (d. h. des Übersinnlichen) nicht statt finden können) ويعتبر من الضروري التقيد بوجه الحصر بما يعود الى ميدان الادراك (das der Wahrnehmung Angehörige) ولكن هذه المقدمة الاساسية اعطت في تطورها المتتابع (Durchführung) ما أسمي فيما بعد **بالمادية** فان المادة ، مأخوذة بذاتها ، هي بالنسبة لهذه المادية الموضوعي حقاً» (das wahrhaft Objektive) *

جميع المعارف تنشأ من التجربة من الاحساسات من المدركات هكذا هو الحال ولكننا نتساءل هل **الواقع الموضوعي** «يعود الى ميدان الادراك» اي هل هو منشأ الادراك ؟

---

* Hegel. «Enzyklopädie der philosophischen Wissenschaften im Grundrisse», Werke, VI. Band (1843), S. 83. قارنوا S. 122 (هيغل «موسوعة العلوم الفلسفية في عرض موجز» المؤلفات . المجلد ٦ (عام ١٨٤٣) ، ص ٨٣ . قارنوا ص ١٢٢ . **الناشر**) .

اذا كان نعم فأنتم ماديون واذا كان كلا فانكم غير منسجمين وستصلون بلا مناص الى الذاتية الى اللاعرفانية سواء أنكرتم امكان معرفة الشيء في ذاته وموضوعية الزمان والمكان والسببية (حسب كانط) ام رفضتم فكرة الشيء في ذاته (حسب هيوم) ان انعدام انسجام مذهبكم التجريبي وفلسفتكم بصدد التجربة سيتلخص في هذه الحال في انكم تنكرون المضمون الموضوعي في التجربة تنكرون الحقيقة الموضوعية في المعرفة القائمة على التجربة

ان انصار خط كانط وهيوم (وفي عداد هؤلاء ماخ وافيناريوس لأنهما ليسا بركليين خالصين) يسموننا نحن الماديين «بالميتافيزيائيين» لأننا نعترف بالواقع الموضوعي الذي نحصل عليه في التجربة نعترف بمنشأ احساساتنا الموضوعي المستقل عن الانسان واثر انجلس ننعت نحن الماديين انصار كانط وهيوم **باللاعرفانيين** (agnostiques – المعرب .) لانهم ينكرون الواقع الموضوعي بوصفه منشأ احساساتنا ان agnostique (اغنوصتيك) كلمة يونانية a تعني باليونانية **لا** gnosis – **معرفة** (عرفان) اللاعرفاني يقول **لا اعرف** ما اذا كان يوجد واقع موضوعي تعكسه وتصوره احساساتنا واعلن انه يستحيل معرفة ذلك (راجعوا اعلاه كلمات انجلس الذي عرض موقف اللاعرفاني) ومن هنا – انكار الحقيقة الموضوعية من قبل اللاعرفاني والتساهل التساهل الحقير التافه الضيق الافق الجبان حيال التعاليم بشأن عفاريت الغابات وجنيات البيوت والقديسين الكاثوليك وما ماثل ان ماخ وافيناريوس اللذين يتقدمان بحذلقة وادعاء بتعابير «جديدة» ووجهة نظر «جديدة» كما يزعمان يكرران بالفعل جواب اللاعرفاني مخبصين ومرتبكين : من جهة ، الاجسام هي مركبات احساسات (الذاتية

الصرف البركلية الصرف) من جهة اخرى اذا سمينا الاحساسات عناصر امكن تصور وجودها بصورة مستقلة عن اعضاء حواسنا

يطيب للماخيين ان يتشدقوا بانهم فلاسفة يثقون كلياً بمعطيات اعضاء حواسنا وانهم يعتبرون العالم فعلاً كما يبدو لنا حافلاً بالاصوات والالوان والخ ويزعمون في الوقت نفسه ان العالم بنظر الماديين ميت وانه يخلو من الاصوات والالوان وانه يختلف بحد ذاته عما يبدو لنا وهلم جراً مثل هذا الكلام يردده مثلاً اي بتسولدت سواء في مؤلفه «مقدمة في فلسفة التجربة الخالصة» ام في مؤلفه «قضية العالم من وجهة النظر الوضعية» (عام ١٩٠٦) وبعد بتسولدت يكرر ويعلك ذلك السيد فكتور تشيرنوف معجباً بالفكرة «الجديدة» اما بالفعل فان الماخيين ذاتيون ولاعرفانيون لأنهم يثقون **بشكل غير كاف** بمعطيات اعضاء حواسنا ويتبعون المذهب الحسي بشكل غير منسجم وهم لا يعترفون بالواقع الموضوعي المستقل عن الانسان منشأ لاحساساتنا وهم لا يرون في الاحساسات صورة صحيحة عن هذا الواقع الموضوعي فيدخلون في تناقض مباشر مع العلوم الطبيعية ويفتحون الباب امام الايمانية اما المادي فانه على العكس يرى ان العالم اكثر غنى وحيوية وتنوعاً مما يبدو لأن كل خطوة في تطور العلم تكشف فيه جوانب جديدة ان المادي يرى ان احساساتنا هي صور الواقع الموضوعي الوحيد والاخير ، – الاخير ليس بمعنى انه صار معروفاً الى النهاية بل بمعنى انه لا يوجد ولا يمكن ان يوجد عداه واقع آخر ان وجهة النظر هذه تغلق الباب نهائياً ليس فقط امام الايمانية كل ايمانية بل ايضاً امام تلك السكولاستية الاستاذية التي لا ترى في الواقع الموضوعي منشأ احساساتنا «فتستنتج» ، عن طريق الانشاءات الكلامية المصطنعة مفهوم

الموضوعي بوصفه شيئاً ذا اهمية منظماً اجتماعياً وهكذا دواليك وهلم جراً دون ان يكون بمقدورها واحياناً كثيرة دون ان ترغب في فصل الحقيقة الموضوعية عن التعاليم بشأن عفاريت الغابات وجنيات البيوت

ان الماخيين يهزون اكتافهم بازدراء بصدد النظرات «الشائخة» عند «العقائديين الجامدين» – الماديين الذين يتمسكون بمفهوم **المادة** الذي دحضه حسبما يزعم «العلم الحديث» و «المذهب الوضعي الحديث» وسوف نتحدث بنحو خاص عن النظريات الجديدة في الفيزياء المتعلقة ببنية المادة ولكنه لا يجوز البتة الخلط كما يفعل الماخيون بين التعاليم بشأن هذه البنية او تلك للمادة وبين المقولة العرفانية ، – خلط مسألة الخواص الجديدة للانواع الجديدة من المادة (مثلاً الالكترونات) وبين المسألة القديمة في نظرية المعرفة مسألة مصادر معرفتنا مسألة وجود الحقيقة الموضوعية وهلم جراً يقولون لنا ان ماخ قد «اكتشف عناصر العالم» الاحمر الاخضر الجامد الرخو ،المدوي الطويل وهكذا دواليك ولكننا نتساءل أيُعطَى الانسان حين يرى الاحمر ويحس بالجامد وما الى ذلك الواقع الموضوعي ام لا ؟ هذه المسألة الفلسفية القديمة القديمة جداً قد شوشها ماخ فاذا كان لا يعطَى تنزلقون لا محالة مع ماخ الى الذاتية واللاعرفانية الى احضان الكمونيين اى اضراب منشيكوف الفلسفيين التي تستحقونها واذا كان يعطَى فلا بد في هذه الحال من مفهوم فلسفي لأجل هذا الواقع الموضوعي ،وهذا المفهوم قد صيغ من زمان من قديم الزمان وهذا المفهوم انما هو **المادة** ان المادة مقولة فلسفية للاشارة الى الواقع الموضوعي الذي عطَى للانسان في احساساته والذي تستنسخه ، تصوره ، تعكسه احساساتنا ، وهو موجود

بصورة مستقلة عنها ولهذا كان القول بانه يمكن لهذا المفهوم ان «يشيخ» **لعثمة اطفال** وتكراراً لا معنى له لحجج الفلسفة **الرجعية** الدارجة فهل كان من الممكن ان يشيخ خلال الفي سنة من تطور الفلسفة الصراع بين المثالية والمادية ؟ الصراع بين نزعتي او خطي افلاطون وديموقريطس في الفلسفة الصراع بين الدين والعلم ؟ الصراع بين انكار الحقيقة الموضوعية والاعتراف بها ؟ الصراع بين انصار المعرفة فوق الاحساس وبين اخصامها ؟

ان مسألة قبول او رفض مفهوم المادية هي مسألة ثقة الانسان بمدلولات اعضاء حواسه مسألة مصدر معرفتنا المسألة التي طرحت ونوقشت منذ بادئ بدء الفلسفة المسألة التي يمكن ان يجلببها البروفسورات المهرجون بألف حلة وحلة ولكن التي لا يمكن ان تشيخ كما لا يمكن ان تشيخ مسألة ما اذا كان البصر واللمس والسمع والشم مصدر المعرفة البشرية ان اعتبار احساساتنا صوراً عن العالم الخارجي والاعتراف بالحقيقة الموضوعية وتبني وجهة نظر النظرية المادية للمعرفة انما هو الشيء نفسه ولتبيان هذا اكتفي بايراد استشهاد من فورباخ ومن دليلين في الفلسفة لكي يستطيع القارئ ان يرى مبلغ بساطة هذه المسألة

كتب لودفيغ فورباخ يقول «ما أخسّ ان ننكر ان الاحساس هو الانجيل البشرى (Verkündung) من المخلص الموضوعي» * التعابير كما ترون ، غريبة ، فظيعة ، ولكن الخط الفلسفي واضح تماماً فان الاحساس يكشف للانسان الحقيقة الموضوعية «ان احساسي ذاتي ولكن اساسه او سببه (Grund) موضوعي» (ص ١٩٥) – قارنوا الاستشهاد المذكور اعلاه حيث يقول فورباخ

Feuerbach. Sämtliche Werke, X. Band, 1866, SS. 194–195 *

ان المادية تنطلق من العالم الحسي بوصفه الحقيقــة الاخيرة (ausgemachte) الموضوعية

ونقرأ في «قاموس العلوم الفلسفية» لمؤلفــه فرانــك * المذهب الحسي هو تعليم يستخلص جميع افكارنــا «من تجربــة الحواس حاصراً المعرفة في الاحساس» ويكون المذهب الحسي ذاتياً (الريبية والبركلية) واخلاقياً (الابيقورية (٣٣)) وموضوعياً «ان المذهب الحسي الموضوعي هو المادية لأن المادة او الاجسام هي برأي الماديين الموضوعات الوحيدة التى يمكنها ان تؤثر في حواسنا» (atteindre nos sens)

ويقول شفيغلر في مؤلفه «تاريخ الفلسفــة» «اذا كان المذهب الحسي قد اكد انه تمكن معرفة الحقيقة او الواقع بواسطة الحواس على وجه الحصر فلا يبقى (الكلام يتناول هنا فلسفة اواخر القرن الثامن عشر في فرنسا) غير صياغة هذا الرأي صياغــة موضوعية واذا بنا نجد امامنا موضوعة المادية الحسي وحده موجود وليس ثمة وجود آخر غير الوجود المادي» **

وهذه الحقائق الاولية التي دخلت في الكتب المدرسية نساها ماخيونا

٥ ــ الحقيقة المطلقة والحقيقة النسبية ، او بصدد اختيارية انجلس التي اكتشفها أ بوغدانوف

حقق بوغدانوف اكتشافه هذا عام ١٩٠٦ فى مقدمته للكتاب الثالث من مؤلف «الاحادية التجريبية» فقد كتب بوغدانوف يقول «**يعرب** انجلس في مؤلفه «ضد دوهرينغ» عن رأيه **تقريباً** بالمعنى

---

* «Dictionnaire des sciences philosophiques», Paris, 1875 («قاموس العلوم الفلسفية» باريس ، عام ١٨٧٥ **الناشر**)

** Dr. Albert Schwegler. «Geschichte der Philosophie im Umriß», 15-te Aufl., S. 194 (الدكتور البرت شفيغلر . «عرض لتاريخ الفسلفة» ، الطبعة ١٥ ، ص ١٩٤ . **الناشر**) .

الذي وصفت به الآن نسبية الحقيقة» (ص V) – اي بمعنى انكار الحقائق الخالدة على اختلافها بمعنى «انكار الموضوعية المطلقة للحقيقة اياً كانت» «ان انجلس غير محق في تردده في كونه يعترف عبر كل سخره «بحقائـــق خالـــدة» ما» وان حقيرة (ص VIII) «ان عدم الانسجام هنا فقط يجيز هنا التحفظـــات الاختيارية كما عنـــد انجلس (ص IX) لنورد مثالاً على دحض اختيارية انجلس من قبل بوغدانوف «توفي نابليون فى ٥ ايار ١٨٢١» – هكذا يقول انجلس فى مؤلفه «ضد دوهرينـغ» (الفصل عن «الحقائق الخالدة») موضحاً لدوهرينغ ما يتعين ان يقتصر عليه اية Plattheiten «مستويات» يتعين ان يكتفي بها ذلك الذي يدعي في العلوم التاريخية باكتشاف الحقائق الخالدة واذا بوغدانوف يعترض على انجلس كما يلي «ما هي هذه «الحقيقة» ؟ وما هو «الخالد» فيها ؟ ان الاقرار بتناسب احادي لم يعد يتسم على الارجح بالنسبة لجيلنا باية اهمية فعلية لا يمكن ان يكون نقطة انطلاق لاي نشاط ولا تؤدي الى اي شيء» (ص IX) وفي الصفحة VIII «هل يمكن اطلاق «Plattheiten» على «Wahrheiten» ؟ هل «المستويات» حقائـــق يا ترى ؟ الحقيقـــة انمـــا هي شكـــل منظّم حي للتجربـــة وهي تقودنا الى مكان ما في نشاطنا وتعطي نقطـــة ارتكاز في كفاحنا الحيوي»

من هذين الاستشهادين يظهر بما يكفي من الوضوح ان بوغدانوف **يتشدق** عوضـــاً عـــن دحض انجلس فاذا كنت لا تستطيع ان تؤكـــد بان موضوعـــة «توفي نابليـــون في ٥ ايار ١٨٢١» خاطئة ام غير دقيقة فانك تعترف بانها صحيحة واذا كنت لا تؤكد انه يمكن دحضها في المستقبل ، فانك تعترف

بان هذه الحقيقة خالدة اما نعت الجمل من نوع الجملة القائلة ان الحقيقة هي «شكل منظّم حي للتجربة» بانهـــا اعتراض فان هذا يعني اظهار مجرد **مجموعة عشوائية من الكلمات** بمظهر الفلسفة أكان للارض ذلك التاريخ المعروض في الجيولوجيا ام ان الارض خُلقت في سبعة ايام ؟ هل يجوز التهرب من هذه المسألة ، يا ترى ، بجمل عن الحقيقة «الحية» (ما يعني هذا ؟) التي «تقود» الى مكان ما وهكذا دواليك ؟ وهل معرفة تاريخ الارض وتاريخ البشرية «لا تتسم باية اهمية فعلية» يا ترى ؟ ان هذا مجرد لغو مزوّق يستر به بوغدانوف **تراجعه** لأن هذا تراجع حين عمد الى تقديم البرهان على ان التسليم بالحقائق الخالدة من قبل انجلس يعني الاختيارية وحين يتهرب في الوقت نفسه من المسألة بالضجيج والطنين فقط تاركـــاً بدون دحض القول ان نابليون قد توفي فعلاً في ٥ ايار ١٨٢١ وانه من السخافة اعتبار هذه **الحقيقة** قابلة للدحض في المستقبل

ان المثال الذي اخذه انجلس بسيط جداً وبوسع كل امرىء ان يورد بدون جهد عشرات من هذه الامثلة على **الحقائق** التي هي خالدة مطلقة والتي ليس من الجائز الا للمجانين ان يشكوا فيها (كما يقول انجلس حين يسوق مثلاً آخر من الطراز نفسه «تقـع باريس في فرنســا») لماذا يتحدث انجلس هنـــا عن «المستويات» ؟ لأنه يدحض ويسخر من المادي الميتافيزيائي العقائدي الجامد دوهرينغ الذي لم يعرف كيف يطبق الدياليكتيك على مسألة العلاقة بين الحقيقة المطلقة والحقيقة النسبية ان المادي هو من يعترف بالحقيقة الموضوعية التي تكشفها لنا اعضاء الحواس ان الاعتراف بالحقيقة الموضوعية اي بالحقيقة المستقلة عن الانسان وعن الانسانية يعني الاعتراف بنحو او آخر بالحقيقة المطلقة . وهذا التعبير «بنحو او آخر» هو الذي يفصل المادي –

الميتافيزيائي دوهرينغ عن المادي – الدياليكتيكي انجلس فيميناً وشمالاً نثر دوهرينغ في اعقد مسائل العلم على العموم ومسائل علم التاريخ على الخصوص كلمات الحقيقة الخالدة النهائية الاخيرة فسخر منه انجلس ورد عليه قائلاً توجد بالطبع حقائق خالدة ولكنه ليس من الذكاء في شيء استعمال كلمات كبيرة (gewaltige Worte) للاشارة الى اشياء بسيطة ولأجل دفع المادية الى الامام ينبغي التخلي عن اللعبة السخيفة بتعبير الحقيقة الخالدة ينبغي لنا ان نعرف كيف نطرح ونحل بطريقة دياليكتيكية مسألة العلاقة بين الحقيقة المطلقة والحقيقة النسبية هذا هو السبب الذي من اجله احتدم النضال منذ ثلاثين سنة بين دوهرينغ وانجلس ، اما بوغدانوف الذي استطاع ان «**لا يلاحظ**» التوضيح الذي اعطاه انجلس **في الفصل نفسه** عن مسألة الحقيقة المطلقة والحقيقة النسبية بوغدانوف الذي استطاع ان يتهم انجلس «بالاختيارية» لتسليمه بموضوعة اولية لا مراء فيها بالنسبة **لكل** مادية ، – فانه لم يفعل غير ان ابان بذلك مرة اخرى جهله المطلق للمادية والدياليكتيك على السواء

كتب انجلس في مطلع الفصل المذكور (القسم الاول الفصل التاسع) من مؤلفه «ضد دوهرينغ» «ونصل الى المسألة التالية هل يمكن لنتاجات المعرفة البشرية واذا كان يمكن فاي منها ان تكون لها الاهمية السيِّدة والحـق المطلق (Anspruch) في اعتبارها حقيقية» (ص ٧٩ من الطبعة الالمانية الخامسة) ويحل انجلس هذه المسألة على النحو التالي

«ان سيادة التفكير تتحقق في صف الذين يفكرون بطريقة غير سيِّدة اطلاقاً اما المعرفة التي لها الحق المطلق في اعتبارها حقيقية فانها تتحقق في صف المغالطات النسبية وليس بوسع هذه ولا ذاك» (ليس بوسع المعرفة الحقيقية تماماً ولا

التفكير السيّد) «ان يتحققا كلياً الا في حال استمرار حياة البشرية الى ما لا نهاية له

وهنا نجد من جديد ذلك التناقض الذي واجهناه اعلاه التناقض بين طابع التفكير البشري الذي يبدو لنا مطلقاً بحكم الضرورة وبين تحقيقه في الافراد الذين لا يفكرون الا بطريقة محدودة وهذا التناقض لا يمكن حله الا في صف الاجيال البشرية المتتابعة الذي هو بالنسبة لنا على الاقل، صف لا نهاية له عملياً وبهذا المعنى يكون التفكير البشري سيداً بقدر ما هو عديم السيادة، وتكون قدرته على المعرفة غير محدودة بقدر ما هي محدودة سيّداً وغير محدود من حيث طبيعته» (او بنيته Anlage) ، «ودعوته وامكانيته وهدفه النهائي التاريخي غير سيّد ومحدود من حيث التحقيق المنفرد من حيث الواقع المعطى في هذا الزمن او ذاك» (ص ٨١) *

ويستطرد انجلس قائلاً «كذلك بالضبط هو الحال فيما يتعلق بالحقائق الخالدة» (٣٤)

ان هذه المحاكمة خارقة الاهمية فيما يتعلق بمسألة **النسبية** بمبدأ نسبية معارفنا الذي يؤكد عليه جميع الماخيين فان الماخيين **جميعهم** يصرون على انهم من انصار مبدأ النسبية، — ولكن الماخيين الروس مع تكرارهم الكلمات اثر الالمان يخافون او لا يعرفون كيف يطرحون بوضوح وصراحة مسألة علاقة النسبية

---

* قارنوا ف تشيرنوف، المؤلف المذكور ص ٦٤ وما يليها ان الماخي السيد تشيرنوف يتبنى كلياً موقف بوغدانوف الذي لا يرغب في الاعتراف بانه ماخي اما الفرق فهو ان بوغدانوف يحاول ان **يطمس** اختلافه مع انجلس، وان يصوره بصورة صدفة، وما الى ذلك، بينما يشعر تشيرنوف بان الحديث يتناول النضال ضد المادية وضد الديالكتيك على السواء .

بالدياليكتيك فان الاعتراف بنسبية معارفنا **ينفي** بنظـــر بوغدانوف (كما بنظر جميع الماخيين) اقل تسليــم بالحقيقــة المطلقة اما بنظر انجلس فمن الحقائق النسبية تتكوّن الحقيقة المطلقة بوغدانوف – نصير النسبية انجلس – دياليكتيكي واليكم محاكمة لانجلس من الفصل نفسه من مؤلف «ضد دوهرينغ» ليست اقل اهمية

«ان الحقيقة والخطأ شأنهما شأن جميع المقولات المنطقية المتحركة ضمن حدي التضاد لا يتسمان باهمية مطلقـــة الا ضمن حدود ميدان خارق الضيق وقد سبق لنا ورأينا هذا وكان بوسع السيد دوهرينغ ان يعرف هذا لو كان مطلعاً لدرجة ما على مبادىء الدياليكتيك على مقدماته الاولى التي تتناول على وجه الدقة عدم كفاية جميع التضادات ذات الحدين وما ان نشرع في استعمال تضاد الحقيقة والخطأ خارج حدود الميدان الضيق المذكور اعلاه حتى يصبح هذا التضاد نسبياً وبالتالي غير صالح للاسلوب العلمي الدقيق للتعبير اما اذا حاولنا ان نستعمل هذا التضاد خارج حدود الميدان المذكور بوصفه تضاداً مطلقاً فاننا نمنى بالاخفاق كلياً فان حدي التضاد يتحول كل منهما الى ضده اي ان الحقيقة تصبح خطأ ويصبح الخطأ حقيقة» (ص ٨٦) (٣٥) ويلي مثال – قانون بويل (حجم الغازات متناسب عكساً مع الضغط) ان «ذرة الحقيقة» الكامنة في هذا القانون ليست حقيقة مطلقة الا ضمن حدود معينة ولا يكون القانون حقيقة «الا بصورة تقريبية»

وهكذا يستطيع التفكير البشري بحكم طبيعته ان يعطينا وهو يعطينا الحقيقة المطلقة التي تتكون من مجمل الحقائق النسبية وكل درجة في تطور العلم تضيف ذرات جديدة الى مجمل الحقيقة المطلقة هذا ، ولكن حدود حقيقة كل موضوعة علمية هي حدود

نسبية لانها تتسع تارة وتضيق طوراً من جراء نمو المعرفة اللاحق وقد قال ديتزغن فى «الجولات» «بوسعنا ان نرى ونسمع ونشم ونلمس الحقيقة المطلقة ومن المؤكد ان بوسعنا كذلك ان **نعرفها** ولكنها لا تدخل كلياً (geht nicht auf) **في المعرفـة**» (ص ١٩٥) «غني عن البيان ان اللوحة لا تستنفد الموضوع المعني، وان الرسام يبقى وراء موديله كيف يمكن ان «تتطابق» اللوحة مع الموديل ؟ تقريباً اجل» (ص ١٩٧) «ليس بوسعنا ان نعرف الطبيعة واقسامها الا نسبياً لأن لكل قسم رغم انه ليس سوى قسم نسبي من الطبيعة طبيعة المطلق طبيعة الكل الطبيعي بحد ذاته (des Naturganzen an sich) الذي لا تستنفده المعرفة فمن اين نعرف انه تقوم وراء ظاهرات الطبيعة وراء الحقائق النسبية طبيعة شاملة غير محدودة مطلقة لا تكشف نفسها كلياً امام الانسان ؟ من اين هذه المعرفة انها ملازمة لنا بالفطرة وهي معطاة مع الوعي» (ص ١٩٨) هذا الرأي الاخير هو احد نواقص ديتزغن التي حملت ماركس على التنويه في رسالة الى كوغلمان بالتشوش في مفاهيم ديتزغن (٣٦) ولا يمكن التحدث عن وجود فلسفة خاصة عند ديتزغن تختلف عن المادية الدياليكتيكية الا بالتشبث بمثل هذه المقاطع غير الصحيحة ولكن ديتزغن يصحح نفســـه **في الصفحة ذاتها** «اذا كنت اقول ان المعرفة عن الحقيقة اللامتناهية المطلقة ملازمة لنا بالفطرة وانها المعرفـة الواحدة والوحيـدة a priori فان التجربة ايضاً تؤكد مع ذلك هذه المعرفة الفطرية» (ص ١٩٨)

من جميع اقوال انجلس وديتزغن هذه يظهر بوضوح انه لا يوجد بنظر المادية الدياليكتيكية حد يستحيل تجاوزه بين الحقيقة النسبية والحقيقة المطلقة ولم يفهم بوغدانوف هذا البتة ما دام قد كتب : «انها (اي نظرة المادية القديمة الى العالم) ترغب

في ان تكون **معرفة موضوعية** اطلاقاً **اجوهر الاشياء** (حرف التأكيد لبوغدانوف) وهي لا تتطابق مع الشرطية التاريخية لكل ايديولوجية» (الكتاب الثالث من «الاحادية التجريبية» ،ص IV)
ان **مدى** اقتراب معارفنا من الحقيقة الموضوعية المطلقة هي شرطية تاريخياً من وجهة نظر المادية المعاصرة اي من وجهة نظر الماركسية ولكن وجود هذه الحقيقة **امر لا ريب فيه** كما انه لا ريب في اننا نقترب منها ان محيطات اللوحة شرطية تاريخياً ولكن لا ريب في ان هذه اللوحة تعكس موديلاً موجوداً موضوعياً ان الامر التالي وهو متى وفي اية ظروف تقدمنا في معرفتنا لجوهر الاشياء حتى اكتشاف الاليزارين في قطران الفحم الحجري او حتى اكتشاف الالكترونات في الذرة هو امر شرطي تاريخياً ولكنه لا ريب في ان كل اكتشاف من هذا النوع هو خطوة الى الامام تخطوها «المعرفة الموضوعية اطلاقاً» خلاصة القول ان كل ايديولوجية شرطية تاريخياً ولكنه لا ريب في ان كل ايديولوجية علمية (خلافاً مثلاً للايديولوجية الدينية) تناسبها حقيقة موضوعية طبيعة مطلقة ستقولون هذا التفريق بين الحقيقة النسبية والحقيقة المطلقة غير واضح وانا سأردّ عليكم انه على وجه الدقة «غير واضح» الى حد انه يحول دون تحويل العلم الى عقيدة بمعنى هذه الكلمة السيىء الى شيء ما ميت متحجر متجمد ولكنه في الوقت نفسه وعلى وجه الدقة «واضح» الى حد انه يتيح التنصل بصورة حازمة ونهائية عن الايمانية وعن اللاعرفانية عن المثالية الفلسفية وعن سفسطة اتباع هيوم وكانط هنا يوجد حدّ لم تروه وبما انكم لم تروه فقد انزلقتم الى مستنقع الفلسفة الرجعية وهذا هو الحد بين المادية الدياليكتيكية وبين النسبية

نحن من انصار النسبية . هكذا يعلن ماخ وافيناريوس

وبتسولدت نحن من انصار النسبية هكذا يردد معهم السيد تشيرنوف وبعض الماخيين الروس الراغبين في ان يكونوا ماركسيين اجل ايها السيد تشيرنوف وايها الرفاق الماخيون هنا بالذات يكمن خطأكم لأن من يضع النسبية في اساس نظرية المعرفة يحكم حتماً على نفسه اما بالريبية المطلقة واللاعرفانية والسفسطائية وإمّا بالذاتية فان النسبية بوصفها اساس نظرية المعرفة لا تعني الاعتراف بنسبية معارفنا وحسب بل تعني كذلك انكار اي مقياس او موديل موضوعي موجود بصورة مستقلة عن البشرية تقترب منه معرفتنا النسبية ومن وجهة نظر النسبية الخالصة يمكن تبرير كل سفسطائية اعتبار ما اذا كان نابليون قد توفي في ٥ ايار ١٨٢١ ام لم يتوف امراً «شرطياً» يمكن اعتبار قبول الايديولوجية الدينية («الملائمة» جداً على صعيد ما) الى جانب الايديولوجية العلمية («الملائمة» على صعيد آخر) مجرد «ملاءمة» لأجل الانسان او لأجل الانسانية والخ

ان الدياليكتيك ، – كما سبق واوضح هيغل ، – **ينطوي** على عنصر النسبية والانكار والريبية ، ولكنه **لا ينحصر** في النسبية ان الدياليكتيك المادي لماركس وانجلس ينطوي بلا ريب على النسبية ولكنه لا ينحصر فيها اي انه يعترف بنسبية جميع معارفنا لا بمعنى انكار الحقيقة الموضوعية بل بمعنى الشرطية التاريخية لمدى اقتراب معارفنا من هذه الحقيقة

يكتب بوغدانوف مع اشارة التأكيد «**ان الماركسية المنسجمة لا تقبل بعقائدية وبجمود**» كما هي عليهما الحقائق الخالدة («الاحادية التجريبية» الكتاب الثالث ص IX)

هذا تخبيص فاذا كان العالم مادة متحركة ومتطورة بصورة سرمدية (كما يعتقد الماركسيون) يعكسها الوعي البشري المتنامي ، فما شأن «الجمود» هنا ؟ ان المقصود

هنا ليس البتة جوهر الاشياء الثابت الذي لا يتغير ولا الوعي الثابت الذي لا يتغيّر بل **التطابق** بين الوعـــي الذي يعكس الطبيعة والطبيعة التي يعكسها الوعي وفي هذه المسألة – وهذه المسألة فقط كان لتعبير «العقائدية» مذاق خاص فلسفـــي مميّز فهو تعبير المثاليين واللاعرفانيين المفضل **ضد** الماديين كما سبق ورأينا من مثال فورباخ المادي «العتيق» كفاية نفاية عتيقة عتيقة جداً – بهذه الصورة تتبدى جميـــع الاعتراضـــات الموجهة ضد المادية الواردة من وجهة نظر «المذهب الوضعي الحديث» السيىء الشهرة

٦ – مقياس الواقع العملي في نظرية المعرفة

لقد رأينا ان ماركس في عام ١٨٤٥ وانجلس في عام ١٨٨٨ وعام ١٨٩٢ ادخلا مقياس الواقع العملي في اساس النظرية المادية للمعرفة (٣٧) ان طرح مسألة ما اذا كان «التفكير البشري يتطابق مع الحقيقة الملموسة» (اي الموضوعية) في معزل عن الواقع العملي انما هو سكولاستية – هكذا يقول ماركس في الموضوعة الثانية عن فورباخ ان افضل دحض للاعرفانية الكانطية والهيومية وكذلك لشتى الشعوذات الفلسفيـــة (Schrullen) انمـــا هو الواقـــع العملي – هكذا يردد انجلس «ان نجاح اعمالنا يثبت توافـــق (تطابق Übereinstimmung) احساساتنـــا مع الطبيعة الملموسة» (الموضوعية) «للاشياء المدركة» – هكذا يعترض انجلس عـــلى اللاعرفانيين (٣٨)

قارنوا بهذا محاكمة ماخ بصدد مقياس الواقع العملي «في التفكير اليومي والكلام العادي يقابلون عادة **الظاهري** ، **الوهمي** **بالواقع** . فحين نمسك قلماً امامنا في الهواء ، نراه في وضع مستقيم

واذا انزلناه في الماء بوضع مائل فاننا نراه ملتوياً في الحالة الاخيرة يقولون «القلم **يبدو ملتوياً ولكنه في الواقع** مستقيم» ولكن على اي اساس نعتبر **واحداً** من الحالين واقعاً وننزل **بآخر** الى درك **الوهم** ؟ حين نقترف هذا الخطأ الطبيعي – وهو اننا في الاحوال غير العادية نتوقع مع ذلك حلول ظواهر عادية فان توقعاتنا ستكون بالطبع باطلة ولكن الذنب في ذلك ليس ذنب الوقائع ان للقول **بالوهم** في مثل هذه الاحوال معنى من وجهة النظر العملية ولكن ليس البتة من وجهة النظر العلمية وبالقدر نفسه ليس ثمة اي معنى من وجهة النظر العلمية للمسألة التي يتناولها البحث احياناً كثيرة مسألة ما اذا كان العالم موجوداً فعلاً ام انه ليس سوى وهم من اوهامنا انه حلم ولا اكثر ولكن حتى الحلم غير المعقول اطلاقاً انما هو واقع ليس اسوأ من اي واقع آخر» («تحليل الاحساسات» ص ١٨ – ١٩)

من الصحيح ان الحلم غير المعقول ليس وحده واقعاً بل ان الفلسفة غير المعقولة تكون هي ايضاً واقعاً ومن المستحيل الشك في هذا بعد الاطلاع على فلسفة ارنست ماخ فهو مثل احط سفسطائي يخلط بين البحث العلمي التاريخي والنفساني للضلالات البشرية وشتى «الاحلام غير المعقولة» التي حلمتها البشرية من نوع الايمان في عفاريت الغابات وجنيات البيوت وما الى ذلك وبين التفريق العرفاني بين الحقيقي و«غير المعقول» ومثل ذلك مثل اقتصادي يقول ان نظرية سينيور التي تزعم ان «الساعة الاخيرة» من عمل العامل هي التي تعطي الرأسمالي الربح كله ونظرية ماركس واقعان على السواء ولذا فان مسألة معرفة اية نظرية منهما تفصح عن الحقيقة الموضوعية واية نظرية تفصح عن اوهام البرجوازية وعن مأجورية بروفسوراتها ليس لها اي معنى من وجهة النظر العلمية . ان دبّاغ الجلود يوسف ديتزغن قد رأى في

نظرية المعرفة العلمية اي المادية «سلاحاً شاملاً ضد الايمان الديني» («Kleinere philosophische Schriften», S. 55 *) اما بنظر البروفسور العادي ارنست ماخ فان الفرق بين النظرية المادية للمعرفة والنظرية المثالية الذاتية للمعرفة «ليس له اي معنى من وجهة النظر العلمية» ! ان العلم لاحزبي في نضال المادية ضد المثالية والدين وهذه الفكرة هي الفكرة المفضلة لا عند ماخ وحده بل ايضاً عند جميع البروفسورات البرجوازيين المعاصرين هؤلاء «الخدم ذوي الشهادات الذين يختبلون الشعب بالمثالية المصطنعة» حسبما قال يوسف ديتزغن نفسه ايضاً بكل حق وصواب (ص ٥٣ المصدر نفسه)

وهذه هي المثالية الاستاذية المصطنعة بالذات حين ينقل ارنست ماخ مقياس النشاط العملي الذي يفصل بالنسبة للجميع ولكل فرد بين الوهم والواقع الى خارج حدود العلم الى خارج حدود نظرية المعرفة فان الواقع العملي البشري يثبت صحة النظرية المادية للمعرفة هكذا قال ماركس وانجلس واعلنا ان المحاولات لحل المسألة العرفانية الاساسية في معزل عن الواقع العملي انما هي ضرب من «السكولاستية» و«الشعوذات الفلسفية» اما بنظر ماخ فان الواقع العملي شيء ونظرية المعرفة شيء آخر تماماً ومن الممكن وضعهما جنباً الى جنب دون اشتراط الثانية بالاول يقول ماخ في مؤلفه الاخير «المعرفة والضلال» (ص ١١٥ من الطبعة الالمانية الثانية) «المعرفة هي انفعال نفسي نافع (fördernde) بيولوجياً» «ان النجاح هو وحده الذي يمكنه ان يفصل المعرفة عن الضلال» (ص ١١٦)

---

* «مؤلفات فلسفية صغيرة» . ص ٥٥ . **الناشر** .

«المفهوم هو فرضية عمل فيزيائية» (ص ١٤٣) ان ماخيينا الروس الذين يرغبون في ان يكونوا ماركسيين يعتبرون بسذاجة مدهشة جمل ماخ من هذا النوع برهاناً على انه **يقترب** من الماركسية ولكن ماخ يقترب هنا من الماركسية كما اقترب بيسمارك من الحركة العمالية او كما اقترب الاسقف يفلوغي من الديموقراطية وعند ماخ **ترد** مثل هذه الموضوعات **الى جانب** نظريته المثالية عن المعرفة ولا تحدد اختيار هذا الخط المعين او ذاك في علم العرفان (gnoséologie) فلا يمكن للمعرفة ان تكون نافعة بيولوجياً نافعة في نشاط الانسان العملي في صيانة الحياة في صيانة النوع إلاّ اذا عكست الحقيقة الموضوعية المستقلة عن الانسان وبنظر المادي يثبت «نجاح» الواقع العملي البشري تطابق تصوراتنا مع الطبيعة الموضوعية للاشياء التي ندركها اما بنظر السوليبسي فان «النجاح» هو كل ما هو ضروري **لي في الواقع العملي** الذي يمكن بحثه بمعزل عن نظرية المعرفة يقول الماركسي اذا ادرجنا مقياس الواقع العملي في اساس نظرية المعرفة فاننا نحصل حتماً على المادية اما ماخ فانه يقول ليكن الواقع العملي مادياً اما النظرية فهي امر خاص

كتب ماخ في «تحليل الاحساسات» «عملياً قلّما نستطيع اذ نقوم باعمال ما ان نستغني عن تصور **الأنا** كما لا نستطيع ان نستغني عن تصور الجسم مادّين ايدينا الى شيء ما وفيزيولوجياً نبقى انانيين وماديين بنفس القدر من الاستمرارية الذي نرى فيه باستمرار طلوع الشمس اما نظرياً فانه لا يتعين علينا البتة ان نتبنى هذه النظرة» (ص ٢٨٤ — ٢٨٥)

الانانية ليست هنا في مكانها لأن هذه مقولة ليست البتة مقولة عرفانية كذلك لا شأن هنا لتحرك الشمس الظاهري حول الارض ، لأنه ينبغي لنا ان ندرج ايضاً ممارسة المراقبات الفلكية ،

والاكتشافات والخ في الواقع العملي الذي يشكل بالنسبة لنا المقياس في نظرية المعرفة يبقى هذا الاعتراف القيّم من ماخ وهو ان الناس يسترشدون كلياً وعلى وجه الحصر في نشاطهم العملي بالنظرية المادية للمعرفة اما محاولة الاستغناء عنها «نظرياً» فانها لا تعبّر الا عن تطلعات ماخ السكولاستية السطحية والمثالية المصطنعة

اما الى اي درجة ليست جديدة هذه الجهود الرامية الى فرز النشاط العملي وتصويره بصورة شيء لا يصح بحثه في علم المعرفة لأجل اخلاء المكان للاعرفانية والمثالية فان هذا يبيّنه المثال التالي من تاريخ الفلسفة الكلاسيكية الالمانية ففي الطريق من كانط الى فيخته يقف هنا غ ا شولتسه (المسمى في تاريخ الفلسفة شولتسه - اينيزيدم) ان شولتسه يدافع على المكشوف عن خط الريبة والشك في الفلسفة قائلاً عن نفسه انه تابع لهيوم (وتابع من بين القدماء لبيرون وسكستوس) وينكر قطعاً كل شيء في ذاته وامكانية المعرفة الموضوعية ويطالب قطعاً بان لا نمضي ابعد من «التجربة» ابعد من الاحساسات علماً بانه يتوقع كذلك الاعتراض من المعسكر الآخر «بما ان الشكّاك عندما يشترك في شؤون الحياة يعترف بان واقع الاشياء الموضوعية امر لا ريب فيه ويتصرف وفقاً لذلك ويسلّم بمقياس الحقيقة فان مسلك الشكاك بالذات هو افضل واوضح دحض لشكه وريبته» * ويرد شولتسه باستياء

---

* G. E. Schulze. «Aenesidemus oder über die Fundamente der von dem Prof. Reinhold in Jena gelieferten Elementarphilosophie», 1792, S. 253 (غ شولتسه «اينيزيدم او عن اسس الفلسفة البسيطة التي يقدمها البروفسور رينهولد من يينا»، عام ١٧٩٢ ص ٢٥٣ **الناشر**) .

وغضب «ان الحجج من هذا النوع لا تصلح الا للرعاع (Pöbel, S. 254) لأن ريبيتي لا تمس النشاط العملي الحيوي وتبقى ضمن حدود الفلسفة» (ص ٢٥٥)

كذلك يأمل المثالي الذاتي فيخته هو ايضاً بان يجد ضمن حدود فلسفة المثالية مكاناً لأجل تلك «الواقعية المحتمة (sich aufdringt) بالنسبة لنا جميعاً وحتى بالنسبة لأحزم المثاليين عندما تسير الامور الى حد الفعل الواقعية التي ترى ان الاشياء موجودة بصورة مستقلة تماماً عنّا في معزل عنّا» (Werke, I, 455)

ان الوضعية الحديثة عند ماخ لم تتقدم كثيراً بالمقارنة مع شولتسه وفيخته ونشير من باب الطرافة الى انه لا يوجد في الدنيا احد في هذه المسألة بنظر بوغدانوف غير بليخانوف بنظر الفأر لا وحش اقوى من الهر ان بازاروف يضحك من «فلسفة بليخانوف السالتوفيتالية» («دراسات» ص ٦٩) لأن بليخانوف كتب جملة سخيفة فعلاً مفادها ان «الايمان» في وجود العالم الخارجي «هو salto vitale» (سالتو فيتاله – قفزة حيوية) «محتمة للفلسفة» («ملاحظة على لودفيغ فورباخ» ص ١١١) ان تعبير «الايمان» وان كان مأخوذاً بين اهلة صغيرة ومكرراً بعد هيوم يكشف تشوش التعابير عند بليخانوف ، وهذا اكيد ولكن ما شأن بليخانوف هنا ؟ لماذا لم يأخذ بازاروف مادياً آخر فورباخ مثلاً ؟ ألانه لا يعرفه لا اكثر ولا اقل ؟ ولكن الجهل ليس حجة وفورباخ مثله مثل ماركس وانجلس يقوم هو ايضاً «بقفزة» غير جائزة ، من وجهة نظر شولتسه وفيخته وماخ الى النشاط العملي في المسائل الاساسية في نظرية المعرفة وحين ينتقد فورباخ المثالية يعرض جوهرها باستشهاد يفقأ العين من كتابات فيخته يضرب الماخية كلها ضربة رائعة . فقد

كتب فيخته يقول «انت تعتقد ان الاشياء فعلية وانها توجد خارجاً عنك لمجرد انك تراها وتسمعها وتلمسها ولكن البصر واللمس والسمع ليست سوى احساسات انت لا تحس الاشياء بل تحس فقط احساساتك» (**فورباخ** Werke, X. Band, S. 185) ويعترض فورباخ قائلاً الانسان ليس **انا** مجرداً ولكنه إمّا رجل وإمّا امرأة ومسألة ما اذا كان العالم احساساً تمكن مساواتها بالمسألة التالية أيكون انسان آخر احساسي ام ان علاقاتنا في الواقع العملي تثبت العكس ؟ «ان خطأ المثالية الجذري يكمن على وجه الدقة في كونها لا تطرح وتحل مسألة الموضوعية والذاتية مسألة واقعية او لاواقعية العالم الا على الصعيد النظري» (١٨٩ المرجع نفسه) ان فورباخ يأخذ بالحسبان كل مجمل الواقع العملي البشري اساساً لنظرية المعرفة ويقول يقيناً ان المثاليين يعترفون هم ايضاً في الواقع العملي بواقعية **انانا وأنت** الآخر سواء بسواء ويعتقد المثاليون «ان هذه وجهة نظر تصلح لأجل الحياة فقط ولا تصلح لأجل التأمل ولكن التأمل الذي يدخل في تناقض مع الحياة ويجعل من وجهة نظر الموت والنفس المفصولة عن الجسم وجهة نظر الحقيقة، — ان هذا التأمل هو تأمل ميت زائف» (ص ١٩٢) فقبل ان **نحس** نتنفس ولا يسعنا ان نعيش بدون الهواء والمأكل والشراب

«هذا يعني اذن ان الحديث يتناول المأكل والشراب عند تحليل مسألة مثالية العالم او واقعيته ؟ — يهتف المثالي الغاضب — يا للسفالة واي انتهاك للعادة الطيبة عادة شتم المادية بالمعنى العلمي من منبر الفلسفة ومن منبر اللاهوت بكل قوة ومن ثم ممارسة المادية بأخشن معانيها الى المائدة» (ص ١٩٥) . ويهتف فورباخ ان مساواة الاحساس الذاتي منطبقاً مع العالم

الموضوعي «تعني المساواة بين الاحتلام والانسال» (ص ١٩٨)

هذه الملاحظة ليست من الملاحظات اللطيفة جداً ولكنها تصيب لا حاجب بل عين اولئك الفلاسفة الذين يعلّمون ان التصور الحسي هو الواقع الموجود خارجاً عنّا

يجب ان تكون وجهة نظر الحياة وجهة نظر الواقع العملي وجهة النظر الاولى والاساسية في نظرية المعرفة ووجهة النظر هذه تؤدي حتماً الى المادية نابذة منذ بادىء بدء الاختلاقات اللامتناهية للسكولاستية الاستاذية ويقينا انه ينبغي ان لا يغيب عن البال في هذه الحال ان مقياس الواقع العملي لا يسعه ابداً من حيث جوهر الامر ان يؤكد او يدحض **كلياً** اي تصور بشري كان وهذا المقياس هو ايضاً «غير واضح» الى درجة انه لا يتيح لمعارف الانسان ان تتحول الى «مطلق» وهو في الوقت نفسه واضح الى درجة انه يتيح خوض النضال بلا هوادة ضد جميع انواع المثالية واللاعرفانية واذا كان مايؤكده واقعنا العملي هو الحقيقة الوحيدة الاخيرة الموضوعية نبع من هنا الاعتراف بان سبيل العلم الذي يتبنى وجهة النظر المادية هو السبيل الوحيد الى هذه الحقيقة مثلاً يوافق بوغدانوف على الاعتراف بان لنظرية ماركس بشأن تداول النقد حقيقة موضوعية «بالنسبة لزمننا» فقط ناعتاً امر ايلاء هذه النظرية حقيقة «موضوعية فوق التاريخ» «بالجمود العقائدي» («الاحادية التجريبية» الكتاب الثالث ص VII) وهذا تخبيص من جديد فان تطابق هذه النظرية مع الواقع العملي لا يمكن ان تغيّره اية ظروف مقبلة للسبب البسيط نفسه الذي تكون بموجبه **خالدة** حقيقة ان نابليون توفي في ٥ ايار ١٨٢١ ولكن بما ان مقياس الواقع العملي اي سير تطور **جميع** البلدان الرأسمالية في العقود الاخيرة من السنين ، — لا يثبت الا الحقيقة الموضوعية لنظرية ماركس

الاجتماعية – الاقتصادية **كلها** على العموم وليس لهذا القسم او ذاك لهذه الصيغة او تلك وما الى ذلك فمن الواضح ان القول هنا «بجمود» الماركسيين «العقائدي» يعني القيام بتنازل لا يغتفر في صالح الاقتصاد البرجوازي ان الاستنتاج الوحيد من ذلك الرأي الذي يشاطره الماركسيون والذي يقول ان نظرية ماركس هي حقيقة موضوعية يتلخص فيما يلي بالسير **على طريق** النظرية الماركسية سنقترب اكثر فاكثر من الحقيقة الموضوعية (دون ان نستنفدها ابداً) اما بالسير **على اي طريق آخر** ، فلا يسعنا ان نصل الى اي شيء ، غير التخبيص والكذب .

الفصل الثالث

نظرية المعرفة في المادية الدياليكتيكية والمذهب النقدي التجريبي . – ٣

١ – ما هي المادة ؟ ما هي التجربة ؟

السؤال الاول من هذين السؤالين يطرحه المثاليون اللاعرفانيون بمن فيهم الماخيون ابداً ودائماً على الماديين والسؤال الثاني يطرحه الماديون على الماخيين لنحاول تفهم المشكلة

يقول افيناريوس في مسألة المادة

«لا وجود «للفيزيائي» – «المادة» – بالمعنى المطلق الميتافيزيائي في داخل «التجربة الكاملة» المطَّهرة لأن «المادة» بهذا المعنى ليست غير تجريد والا كانت مجملَ الاعضاء المضادة في حال تجردها من كل عضو مركزي وكما انه لا يمكن تصور (undenkbar) العضو المضاد بدون العضو المركزي في التنسيق المبدئي اي في «التجربة الكاملة» كذلك فان «المادة» بالمعنى المطلق الميتافيزيائي هي ايضاً سخافة كاملة (Unding) » («Bemerkungen» ، ص ٢ * ، في المجلة المذكورة الفقرة ١١٩)

من هذه الرطانة يتبين شيء واحد هو ان افيناريوس يسمي الفيزيائي او المادة بالمطلق والميتافيزيائي لأن العضو المضاد حسب نظريته نظرية التنسيق المبدئي (او ايضاً بالاسم الجديد نظرية «التجربة الكاملة») لا ينفصل عن العضو المركزي ولأن

---

* «Bemerkungen zum Begriff des Gegenstandes der Psychologie», S. 2. («ملاحظات بصدد موضوع علم النفس» ، ص ٢) . **الناشر** .

البيئة لا تنفصل عن الـ **أنا** واللاانا لا ينفصل عن الـ **أنا** (كما قال ا غ فيخته) اما ان هذه النظرية هي مثالية ذاتية في ثوب آخر فقد سبق لنا وتحدثنا عن ذلك في مكانه وطابع حملات افيناريوس على «المادة» واضح تماماً ان المثالي ينكر وجود الفيزيائي بصورة مستقلة عن النفسي ولذا يرفض المفهوم الذي صاغته الفلسفة لأجل هذا الوجود اما ان المادة هي «فيزيائي» (اي الامر الذي اكثر ما يعرفه الانسان والمعطى له مباشرة والذي لا يشك احد في وجوده ما عدا المجانين) فان افيناريوس لا ينكر هذا ولكنه يطالب فقط بقبول نظريته» بصدد الصلة التي لا انفصام لعراها بين البيئة والأنا

ويعرب ماخ عن الفكرة نفسها بصورة ابسط بدون الشعوذات فلسفية «ان ما نسمّيه بالمادة ليس غير الصلة الطبيعية المعروفة بين **العناصر** («الاحساسات»)» («تحليل الاحساسات» ص ٢٦٥) يبدو لماخ انه بتقديم هذا الزعم يقوم «**بانقلاب** جذري» في النظرة العادية الى العالم اما في الواقع فان ذلك هو المثالية الذاتية القديمة المستور عريها بكلمة «عنصر»

واخيراً يقول الماخي الانجليزي بيرسون الذي يحارب المادية بضراوة وجنون «من وجهة النظر العلمية لا يمكن ان يكون ثمة اعتراض على تصنيف مجموعات معينة دائمة الى هذا الحد او ذاك من المدركات الحسية بجمعها معاً وتسميتها بالمادة وهكذا نقترب كثيراً جداً من تعريف ج ست ميل القائل ان المادة هي امكانية الاحساس الدائمة ولكن هذا التعريف للمادة لا يشبه البتة التعريف القائل ان المادة شيء يتحرك» («The Grammar of Science» 1900, 2nd ed., p. 249*) هنا لا وجود لورقة تين «العناصر» والمثالي يمد اليد مباشرة الى اللاعرفاني

ان القارئ يرى ان جميع محاكمات مؤسسي المذهب النقدي

* «قواعد العلم» ، ١٩٠٠ ، الطبعة الثانية ، ص ٢٤٩ . **الناشر** .

التجريبي هذه تدور كلياً وعلى وجه الحصر في اطار المسألة العرفانية المزمنة مسألة العلاقة بين الفكر والوجود بين الاحساس والفيزيائي كان لا بدّ من سذاجة الماخيين الروس اللامتناهية لاستشفاف شيء ما هنا يمت وان بصلة ما الى «العلوم الطبيعية الحديثة» او الى «الوضعية الحديثة» وان جميع الفلاسفة الذين ذكرناهم يستعيضون بعض منهم بصراحة وبعض آخر بتصعيرة عن خط المادية الفلسفي الاساسي (من الوجود الى الفكر ، من المادة الى الاحساس) بخط المثالية المعاكس فان انكارهم للمادة هو حل معروف من سحيق الزمان للمسائل النظرية العرفانية بمعنى انكار المصدر الخارجي الموضوعي لاحساساتنا للواقع الموضوعي المتطابق مع احساساتنا وبالعكس يتجلى الاعتراف بالخط الفلسفي الذي ينكره المثاليون واللاعرفانيون في التعريفين التاليين المادة هي ما ينتج الاحساس بالتأثير في اعضاء حواسنا المادة هي الواقع الموضوعي المعطى لنا في الاحساسات؛ وما الى ذلك

ان بوغدانوف اذ يتظاهر بانه يتجادل مع بلتوف فقط يتجنب انجلس بجبانة ويبدي امتعاضه من هذه التعريفات التي هي حسبمايزعم «مجرد ترديدات» («الاحادية التجريبية» ، الفصل الثالث ، ص XVI) لتلك «الصيغة» (وينسى صاحبنا «الماركسي» ان يضيف انها صيغة **انجلس**) القائلة ان المادة هي الاولى والروح هي الثانوية بنظر اتجاه في الفلسفة بينما الحال بالعكس بنظر الاتجاه الآخر ان جميع الماخيين في روسيا يرددون «الدحض» البوغدانوفي باعجاب وابتهاج ! والحال كان بوسع تفكير في منتهى البساطة ان يبين لهؤلاء الناس انه لا يمكن لا يمكن من حيث جوهر الامر اعطاء تعريف آخر للمفهومين الاخيرين لعلم العرفان إلا بالاشارة الى اي منهما يعتبر الاولي ماذا يعني اعطاء «تعريف» ؟ انه يعني قبل كل شيء ايعاب مفهوم معني في مفهوم آخر ، اوسع . مثلاً ، حين اعرّف ، الحمار هو

حيوان ادرج مفهوم «الحمار» ضمن مفهوم اوسع ونتساءل الآن هل هناك مفاهيم يمكن ان تستعملها نظرية المعرفة اوسع من مفاهيم الوجود والفكر المادة والاحساس الفيزيائي والنفسي ؟ كلا فان هذه مفاهيم واسعة الى اقصى حدّ ، اوسع المفاهيم ، وابعد منها لم يمض حتى الآن علم العرفان من حيث جوهر الامر (اذا لم نأخذ بالحسبان التغيرات الممكنة **دائماً في المصطلحات**) ولا يمكن لغير الشعوذة او لاقصى قلة العقل ان يطالب «بتعريف» كهذا لهذين «الصفين» من المفاهيم الواسعة الى اقصى حدّ لا يقتصر على «مجرد الترديد» ان هذا او ذاك يؤخذ بوصفه الاولي خذوا المحاكمات الثلاث المذكورة اعلاه بصدد المادة ففيما تنحصر جميعها ؟ في ان هؤلاء الفلاسفة ينطلقون من النفسي ، او الـ **أنا** الى الفيزيائي ، او البيئة كما من العضو المركزي الى العضو المضاد ، — او من الاحساس الى المادة ، — او من المدرك الحسي الى المادة وهل كان بوسع افيناريوس وماخ وبيرسون ، من حيث جوهر الامر ، ان يعطوا «تعريفاً» مغايراً ما عن المفاهيم الاساسية عدا الاشارة الى **اتجاه** خطهم الفلسفي ؟ هل كان بوسعهم ان يعرّفوا بنحو آخر ان يعرّفوا ايضاً بنحو ما خاص ، ماهو الـ **أنا** ، ما هو الاحساس ما هو المدرك الحسي ؟ حسبنا ان نطرح السؤال بوضوح حتى نفهم اية سخافة في منتهى العظمة ينطق بها الماخيون حين يطالبون الماديين بتعريف للمادة لا ينحصر في الترديد ان المادة ، الطبيعة ، الوجود الفيزيائي هو الاولي وان الروح ، الوعي ، الاحساس النفسي هو الثانوي

ولكن عبقرية ماركس وانجلس تجلت فيمـــا تجلت في احتقارهما للتلاعب المتحذلـــق بالكلمات الجديدة والتعابير العويصة والـ«يات» المعقدة وفي قولهما ببساطة وصراحة يوجد في الفلسفة خط مادي وخط مثالي وبينهما توجد مختلف تلاوين اللاعرفانية . وان المساعي لايجاد وجهة نظر «جديدة» في الفلسفة

تعكس نفس فقر الروح الذي تعكسه المساعي لابتداع نظرية «جديدة» للقيمة ونظرية «جديدة» للريع وما الى ذلك

وعن افيناريوس يفيد تلميذه كارستانيان انه اعرب عن رأيه في حديث خاص قائلاً «انا لا اعرف لا الفيزيائي ولا النفسي انما اعرف الثالث فقط» ورداً على ملاحظة كاتب قال ان افيناريوس لم يعط مفهوم هذا الثالث اجاب بتسولدت «نحن نعرف لماذا لم يستطع تقديم هذا المفهوم فبالنسبة للثالث لا يوجد مفهوم مضاد (Gegenbegriff) مفهوم مناسب) ان السؤال ما هو الثالث ؟ مطروح بصورة غير منطقية» («Einführung in die Philosophie der reinen Erfahrung», II, 329*) اما انه يستحيل تعريف المفهوم الاخير فان بتسولدت يفهم هذا ولكنه لا يفهم ان الاستشهاد «بالثالث» هو مجرد شعوذة لأن كلاً منّا يعرف ما هو الفيزيائي وما هو النفسي ولكن اياً منّا لا يعرف في الوقت الحاضر ما هو «الثالث» وبهذه الشعوذة ، لم يفعل افيناريوس غير ان طمس الآثار معلنا **الانا في ، الواقع** الاولي (العضو المركزي) والطبيعة (البيئة) الثانوي (العضو المضاد)

ويقيناً ان التضاد بين المادة والوعي لا يتسم هو ايضاً باهمية مطلقة الا ضمن حدود ميدان ضيق جداً في الحالة المعنية ضمن الحدود التالية بوجه الحصر حدود المسألة العرفانية الاساسية المتعلقة بما يصح اعتباره الاولي وما يصح اعتباره الثانوي وفيما وراء هذه الحدود لا مجال للشك في نسبية هذا التضاد

لنمعن النظر الآن في استعمال كلمة التجربة في الفلسفة النقدية التجريبية ان الفقرة الاولى من «نقد التجربة الخالصة» تعرض «التسليم» بما يلي «ان اي جزء بيئتنا لعلى علاقة مع الافراد

---

* «مقدمة لفلسفة التجربة الخالصة» . المجلد ٢ ، ٣٢٩ . **الناشر** .

البشريين بحيث انه اذا اصبح هذا الجزء ماثلاً لاعلنوا عن تجربتهم هذا وذاك اعرف عن سبيل التجربة هذا وذاك تجربة او نبع من التجربة يتوقف على التجربة» (الصفحة ١ الترجمة الروسية) اذن تُعَرَّف التجربة بواسطة المفهومين نفسيهما **انا** والبيئة علماً بان «مذهب» «الصلة التي لا انفصام لعراها» بينهما يختفى لزمن ما وبعد «المفهوم التركيبي عن التجربة الخالصة» «عن التجربة على وجه التحديد بوصفهـــا اعلانـــاً تشكل اجزاء البيئـــة وحدها مقدمة له في كل قوامه» (ص ١ - ٢) اذا اعتبرنا ان البيئة توجد بصورة مستقلة عن «اعلانات» الانسان و«تصريحاته» توفرت امكانية تفسير التجربة تفسيراً مادياً «المفهوم التحليلي عن التجربة الخالصـــة» «بوصفهـــا اعلانـــاً على وجـــه التحديد لم يُخلط بشيء ليس بدوره تجربة وليس بالتالي غير التجربة» (ص ٢) التجربة هي التجربة ومع ذلك يتواجد اناس يعتبرون هذا الهراء العلمي المزعوم حكمة حقيقية

ومن الضروري ان نضيف ايضاً ان افيناريوس يدرس في المجلد الثاني من «نقد التجربة الخالصة» «التجربة» بوصفها «حالة خاصة» **للنفسي** وانه يقسم التجربة الى sachhafte Werte (قيم ملموسة) gedankenhafte Werte (قيم فكرية) ، وان «التجربة بالمعنى الواسع» تشمل هذه الاخيرة وان «التجربة الكاملة» والتنسيق المبدئي («Bemerkungen») هما الشيء نفسه وبكلمة «ما تريده ، تطلبه» ان «التجربـــة» تستر الخط المادي والخط المثالي في الفلسفة مكرسة الخلط بينهما واذا كان ماخيونا يصدّقون «التجربة الخالصة» بسذاجة ، فان ممثلي مختلف الاتجاهات في المطبوعات الفلسفية يشيرون جميعهم الى سوء استعمال هذا المفهوم من جانب افيناريوس فقد كتب ا ريل يقول «ان ماهية التجربة الخالصة تبقى عند افيناريوس غير واضحة وقوله «التجربة الخالصة هي تجربة لم تُخلط بشيء ليس بدوره تجربة «يدور في حلقة بكل جلاء»

وكتب فوندت («Systematische Philosophie», Lpz., 1907, S. 102*)
يقـــول ان التجربــــة الخالصة عند افيناريوس تعني تـــارة
اي تخيـــل كان وتعنـــي طوراً تصريحـــات متسمـــة بطابـــع
«الملموس» («Philosophische Studien»», XIII. Band, S. 92-93**)
ان افيناريوس **يمدّد** مفهـــوم التجربـــة (ص ٣٨٢) وقد كتب
كوفيلارت يقـــول «على التعريف الدقيق لمصطلحي التجربـــة
والتجربة الخالصة ، يتوقف معنى كل هذه الفلسفة الا ان افيناريوس
لا يعطي هذا التعريف الدقيق» («Revue Néo-Scolastique», 1907,
février., p. 61***) ويقـــول نورمـــان سميت («Mind», vol. XV,
p. 29****) «عدم وضوح المصطلح التجربة تقدم خدمات طيبـــة
لافيناريوس» في تمرير المثالية بذريعة النضال ضدها

«اني اعلن على رؤوس الاشهاد ان مغزى فلسفتي الداخلي
روحها انه ليس للانسان اي شيء على العموم عدا التجربـــة
فان الانسان يتوصل الى كل ما يتوصل اليه عبر التجربة فقط
اي فيلسوف متحمس للتجربة الخالصة هذا الفيلسوف أليس
كذلك ؟ ان صاحب هذا القول هو المثالي الذاتي ي غ فيخته
(«Sonn. Ber, etc.», S.12****) ومعلوم من تاريخ الفلسفة ان تفسير
مفهوم «التجربة» فرّق بين الماديين والمثاليين الكلاسيكيين وفي

* «الفلسفة النظامية» ليبزيغ عام ١٩٠٧ ، ص ١٠٢ **الناشر**

** «دراسات فلسفية» المجلد ١٣ ص ٩٢-٩٣ **الناشر**

*** «المجلة السكولاستية الجديدة» عام ١٩٠٧ شباط (فبراير) ص ٦١ **الناشر**

**** «الفكر» المجلد ١٥ ، ص ٢٩ **الناشر**

***** «Sonnenklarer Bericht an das größere Publikum über das eigentliche Wesen der neuesten Philosophie», S. 12 («ابلاغ واضـــح كالشمس للجمهور الواسع بشان جوهر الفلسفة الحديثة الحقيقي» ، ص ١٢) . **الناشر** .

الوقت الحاضر تجلبب الفلسفة الاستاذية من كل شاكلة وطراز نزعتها الرجعية بجلباب البيانات الطنانة بصدد «التجربة» وبالتجربة يستشهد جميع انصار مذهب الكمونية. ويطري ماخ في مقدمة الطبعة الثانية لمؤلفه «المعرفة والضلال» كتاب البروفسور ف اورشليم هذا الكتاب الذي نقرأ فيه «ان القبول باولوية الوجود الرباني لا يناقض اى تجربة» («Der krit. Id. etc.», S. 222*)

لا يبقى لنا غير ان نتأسف لاولئك الذين صدقوا افيناريوس وشركاه وظنوا بانه يمكن بواسطة كلمة «التجربة» تجاوز الفرق «الشائخ» بين المادية والمثالية واذا كان فالنتينوف ويوشكيفيتش يتهمان بوغدانوف الذي انحرف قليلاً عن الماخية الخالصة بسوء استعمال كلمة «التجربة» ، فان هذين السيدين يكشفان هنا جهلهما وحسب ذلك ان بوغدانوف «غير مذنب» في هذا البند لقد اقتبس **فقط** على العمياء تخبيص ماخ وافيناريوس وعندما يقول «ان الوعي والتجربة النفسية المباشرة مفهومان متماثلان» («الاحادية التجريبية» المجلد ٢ ص ٥٣) ان المادة «ليست تجربة» بل «المجهول الذي ينبع منه كل معروف» («الاحادية التجريبية» ، المجلد ٣ ص XIII) ، — فانه يفسر التجربة تفسيراً **مثالياً** ويقيناً انه ليس اول ** ولا آخر من يبني تُظيْمات مثالية على كلمة «التجربة» وعندما يعترض على الفلاسفة الرجعيين ، قائلاً ان محاولات تخطي حدود

---

* «Der kritische Idealismus und die reine Logik», S. 222 («المثالية النقدية والمنطق الخالص» ص ٢٢٢) **الناشر**

** في انجلترا يقوم الرفيق بلفورت باكس من زمان بمثل هذه الامور ومؤخراً قال له الناقد الفرنسي لكتابه «The Roots of Reality» («جذور الواقع» **الناشر**) ، وليس بدون سُمّ وسخر «التجربة — كلمة اخرى فقط عوضاً عن الوعي» ، فاعلن اذن على المكشوف انك مثالي («Revue de Philosophie» (٣٩) ,1907, N° 10, p. 399).

التجربة «لا» تؤدي بالفعل «الا الى تجريدات فارغة وصور متناقضة كانت جميع عناصرها مأخوذة من التجربة ايضاً» (المجلد الاول ص ٤٨) فانه يقابل التجريدات الفارغة التى يخترعها الوعي البشري بما يوجد خارج الانسان وبصورة مستقلة عن وعيه اي انه يفسر التجربة تفسيراً مادياً

وعلى النحو نفسه ، لا يندر لماخ ، مع ان المثالية هي وجهة نظره الانطلاقية (الاجسام هي مركبات احساسات او مركبات «عناصر») ، ان ينحرف الى التفسير المادي لكلمة «التجربة». فهو يقول في مؤلفه «الميكانيك» (الطبعة الالمانية الثالثة ، عام ١٨٩٧ ، ص ١٤) على المرء ، لا ان يتفلسف من نفسه (nicht aus uns herausphilosophieren) ، بل ان يأخذ من التجربة» ان التجربة تُقَابَل هنا بالتفلسف من النفس اي انها تُفَسَّر كشيء موضوعي معطى للانسان من الخارج تُفَسَّر تفسيراً مادياً واليكم مثالاً آخر «ان ما نلاحظه في الطبيعة وان كان غير مفهوم وغير مُحَلَّل من قبلنا ينطبع في تصوراتنا وهذه التصورات **تقلد** (nachahmen) فيما بعد في أعم وأثبت (stärksten) خطوطها عمليات الطبيعة ونحن نملك في هذه التجربة احتياطياً (Schatz) هو دائماً في منال يدنا (المرجع نفسه ص ٢٧) هنا تؤخذ الطبيعة باعتبارها الاولي ، والاحساسات والتجربة باعتبارها الثانوي . ولو ان ماخ تبنى بدأب وانسجام وجهة النظر هذه في القضايا الاساسية في علم العرفان لكان جَنَّب الانسانية «مركبات» مثالية كثيرة وغبية اليكم المثال الثالث «ان الصلة الوثيقة بين الفكر والتجربة تخلق علم الطبيعة المعاصر ان التجربة تولد الفكر والفكر يستمر في تطوره ويُقَارن من جديد بالتجربة» والخ («Erkenntnis und Irrtum», S. 200*). ان «فلسفة» ماخ الخاصة قد

* «المعرفة والضلال» ، ص ٢٠٠ . **الناشر** .

رمي بها هنا جانباً والمؤلف ينتقل بصورة عفوية الى وجهة النظر العادية عند علماء الطبيعة الذين ينظرون الى التجربة نظرة مادية

الحاصل ان كلمة «التجربـــة» التي يبني عليها الماخيون انظمتهم قد كانت من قديم الزمان وسيلة لستر الانظمة المثالية ولا تزال الآن عند افيناريوس وشركاه وسيلة للانتقال الاختياري من الموقف المثالي الى المادية وبالعكس ان مختلف «تعاريف» هذا الفهوم لا تعبّر الا عن الخطين الاساسيين في الفلسفة اللذين أبانهما انجلس ببالغ السطوع

٢ ــ خطأ بليخانوف بصدد مفهوم «التجربة»

يقول بليخانوف في الصفحتين ١٠ و١١ من مقدمتـــه لكتاب «لودفيغ فورباخ» (طبعة عام ١٩٠٥)

«يقول كاتب الماني ان **التجربة** هي بالنسبة للمذهب النقدي التجريبي موضوع البحث وحسب وليست البتة وسيلة للمعرفة واذا كان الحال هكذا فان معارضة المادية بالمذهب النقدي التجريبي تفقد كل معنى كما ان المحاكمات بصدد ان المذهب النقدي التجريبي مدعو للحلول محل المادية تغدو فارغة وباطلة تماماً»

هذا تخبيص مطبق

فان فر كارستانيان وهو من اشـــد اتباع افيناريوس «ارثوذكسية» يقول في مقالته عن المذهب النقدي التجريبي (رداً على فوندت) «ان التجربة ليست «بالنسبة لـ«نقد التجربة الخالصة» وسيلة للمعرفة بل مجرد موضوع للبحث» * ومن هنا ينجم

* «Vierteljahrsschrift für wissenschaftliche Philosophie», Jahrg. 22, 1898, S. 45 («المجلة الفصلية للفلسفة العلمية» ، السنة الـ٢٢ عام ١٨٩٨ ، ص ٤٥ . **الناشر**) .

بموجب نظرة بليخانوف ان معارضة المادية بنظرات فر كارستانيان تفقد كل معنى

ان فر كارستانيان يردد حرفياً تقريباً اقوال افيناريوس الذي يعارض قطعاً في «ملاحظات» النظرة الى التجربة بوصفها «وسيلة للمعرفـــة» «بمعنى نظريات المعرفـــة النظريات السائدة الميتافيزيائية تماماً من حيث الجوهر» بفهمه للتجربة على انها ما أُعطي لنا ما نجده (das Vorgefundene) (l. c., S. 401) واثر افيناريوس يقول بتسولدت ايضاً الشيء نفسه في مؤلفه «مقدمة في فلسفة التجربة الخالصة» (المجلد الاول ص ١٧٠) وهكذا ينجم بموجب نظرة بليخانوف ان معارضة المادية بنظرات كارستانيان وافيناريوس وبتسولدت تفقد كل معنى إمّا ان بليخانوف لم «يقرأ الى النهاية» كارستانيان وشركاه وإمّا أخذ استشهاده «بكاتب الماني» من مرجع بعيد جداً عن المصدر

فماذا يعني هذا القول من ابرز النقاد التجريبيين الذي لم يفهمه بليخانوف ؟ ان كارستانيان يريد ان يقول ان افيناريوس يأخذ في مؤلفه «نقد التجربة الخالصـــة» **موضوعاً** للبحث التجربـــة اي «الآراء البشرية» اياً كانت ويقول كارستانيان (ص ٥٠ من المقالة المذكورة) ان افيناريوس لا يبحث هنا فيما اذا كانت هذه الآراء فعلية ام اذا كانت تتعلق مثلاً **بالاشباح** انه يجمّع يصنّف ، يبوّب شكلاً وحسب شتى الآراء البشرية **المثالية والمادية على السواء** (ص ٥٣) دون تناول جوهر المسألة وان كارستانيان لعلى تمام الحق حين يسمّي وجهة النظر **هذه** «بالريبية على الاغلب» (ص ٢١٣) ولكن كارستانيان يدافع في هذه المقالة فيما يدافع عن معلمه العزيز دون الاتهام المخزي (من وجهة نظر البروفسور الالماني) بالمادية الذي اطلقه فوندت فاي ماديين نحن من فضلك ! – ذلك هو كنه اعتراض كارستانيان ، – اذا كنا نتحدث

عن «التجربة» ولكن ليس البتة بالمعنى العادي الشائع الذي يؤدي او قد يؤدي الى المادية بل بمعنى بحثنا نحن في كل ما «يقوله» الناس بوصفه تجربة ان كارستانيان وافيناريوس يعتبران النظره الى التجربة بوصفها وسيلة للمعرفة نظرة مادية (قد يكون هذا عادياً للغاية ولكنه غير صحيح مع ذلك ، كما رأينا من مثال فيخته) وان افيناريوس يتنصّل من تلك «الميتافيزياء» «السائدة» التي تعاند في اعتبار الدماغ عضو الفكر دون ان تأبه لنظريتي الحقن والتنسيق وبما نجده او المعطى (das Vorgefundene) يقصد افيناريوس بالضبط الصلة التي لا تنفصم عراها بين **انا** والبيئة الامر الذي يؤدي الى تفسير «التجربة» تفسيراً مثالياً مشوشاً

اذن تحت كلمة «التجربة» يمكن بلا ريب ان يتستر الخط المادي والخط المثالي في الفلسفة وكذلك الخط الهيومي والخط الكانطي ولكن لا تعريف التجربة على انها موضوع البحث * ولا تعريفها على انها وسيلة المعرفة يقرران بعد اي شيء في هذا المجال ثم ان ملاحظات كارستانيان ضد فوندت لا تمت هي ايضاً باية صلة الى مسألة معارضة المادية بالمذهب النقدي التجريبي

ونلاحظ من باب الطرافة ان بوغدانوف وفالنتينوف قد اظهرا في الرد على بليخانوف في هذه النقطة اطلاعاً ليس افضل اطلاقاً فقد قال بوغدانوف «ليس من الواضح تماماً» (الفصل الثالث ، ص XI) و«على النقاد التجريبيين إن يحللوا هذه الصيغة ويقبلوا او

* خيل الى بليخانوف ، على الارجع ، ان كارستانيان قال «موضوع المعرفة المستقل عن المعرفة» وليس «موضوع البحث» ؟ لو كان كذلك ، لكان بالفعل مادية ولكن لا كارستانيان ولا على العموم ايا كان من المطلعين على المذهب النقدي التجريبي قال وكان بوسعه ان يقول شيئا كهذا .

يرفضـــوا الشرط» موقف مربـــح انا لست ماخيـــاً ولذا لست ملزماً بان اتفهم باي معنى يتحدث عن التجربـــة المدعو افيناريوس او المدعو كارستانيان ان بوغدانوف يرغب في الاستفادة من الماخية (والتخبيص الماخي فيما يخص «التجربة») ولكنه لا يرغب في تحمل المسؤولية عن هذا التخبيص

واستنسخ الناقد التجريبي «الخالص» فالنتينوف ملاحظـــة بليخانوف ورقص امام الملأ رقصة الكنكان متهكمـــاً من كون بليخانوف لم يذكر اسم الكاتب ولم يوضح ماهية الامر (ص ١٠٨– ١٠٩ من الكتاب المذكور) بيد ان هذا الفيلســـوف الناقـــد التجريبي لم يرد **باية كلمة** بصدد جوهر الامر واعترف بانـــه «طالع ثلاث مرات ان لم يكن اكثر» ملاحظة بليخانوف (ولم يفهم شيئاً على الارجح) فيا للماخيين

٣ ـ بصدد السببية والضرورة في الطبيعة

ان مسألة السببية ترتدي اهمية كبيرة بخاصة لاستجلاء الخط الفلسفي لهذا المذهب الحديث او ذاك ولذا يجب علينا ان نتناول المسألة بمزيد من التفصيل

لنبدأ بعرض النظرية المادية عن المعرفة في هذه النقطة ان ل فورباخ قد عرض آراءه بوضوح خاص في اعتراضه المذكور آنفاً على ر هايم

يقول هايم «ان الطبيعة والعقل البشري يتفارقان تماماً عنده (عند فورباخ) وتنحفر بينهما هوة كاملة يستحيل اجتيازها لا من هذا الجانب ولا من ذاك ويبني هايم هذا اللوم على الفقرة ٤٨ من مؤلفي «جوهر الدين» حيث جاء انه «لا يمكن فهم الطبيعة الا بواسطة الطبيعة نفسها ، وان ضرورتها ليست ضرورة انسانية او منطقية ، ليست

ضرورة ميتافيزيائية او رياضية ، وان الطبيعة وحدها دون غيرها هي كائن لا يمكن قياسه باي مقياس بشري رغم اننا نشبه ظاهراتها بالظاهرات البشرية المماثلة ونطبق عليها لكي نجعلها مفهومة لنا تعابير ومفاهيم بشرية ومنها مثلا نظام هدف قانون ونحن مضطرون الى تطبيق مثل هذه التعابير عليها بحكم لغتنا» ماذا يعني هذا ؟ هل اريد ان اقول بهذا لا يوجد في الطبيعة اي نظام ولذا يمكن مثلاً ان يأتي الصيف بعد الخريف والشتاء بعد الربيع والخريف بعد الشتاء ؟ لا يوجد هدف ولذا لا يوجد مثلاً بين الرئتين والهواء بين النور والعين بين الصوت والاذن اي تناسق وتوافق ؟ لا يوجد نظام ولذا مثلاً تتحرك الارض تارة في خط اهليلجي وطوراً في خط دائري وتدور حول الشمس تارة خلال سنة وطوراً خلال ربع ساعة ؟ يا للسخافة ماذا اردت ان اقول في هذا المقطع ؟ لا شيء اكثر من التمييز بين ما يخص الطبيعة وبين ما يخص الانسان ان هذا المقطع لا يقول ان الكلمات والتصورات عن النظام والهدف والقانون لا يطابقها اي شيء فعلي في الطبيعة وهو ينكر تماثل الفكر والوجود فقط ينكر ان يكون النظام والخ موجوداً في الطبيعة تماماً كما في رأس الانسان او في شعوره فان النظام والهدف والقانون ليست اكثر من كلمات يترجم بها الانسان شؤون الطبيعة الى لغته **هو** لكي يفهمها ان هذه الكلمات ليست خالية من المعنى ليست خالية من مضمون موضوعي (nicht sinn-d. h. gegenstandlose Worte) ولكنه من الضروري مع ذلك تمييز الاصل عن الترجمة فان النظام والهدف والقانون تعبر بالمعنى البشري عن شيء ما اعتباطي

ان مذهب التأليه الديني يخلص **مباشرة** من صدفية نظام وعقلانية وقانونية الطبيعة الى اصلها الاعتباطي الى وجود كائن يختلف عن الطبيعة ويحمل النظام والعقلانية والسنن الى الطبيعة ،

العمائية * (dissolute) في حد ذاتها (an sich) الغريبة عن كل تحديد ان عقل انصار مذهب التأليـــه الديني هو عقـــل مناقض للطبيعة ومحروم كلياً من فهم ماهية الطبيعة ان عقل انصار مذهب التأليه الديني يقسم الطبيعة الى كائنين – احدهما مادي والثاني شكلي او روحي» (Werke, VII. Band, 1903, S. 518-520**).

اذن يعترف فورباخ بالسنن الموضوعية في الطبيعـة بالسببية الموضوعية التي لا تعكسها التصورات البشرية عـن النظام والقانون وخلافهما الا بصورة صحيحة تقريباً ان اعتراف فورباخ بالقانونية الموضوعية في الطبيعة يرتبط عنده ارتباطاً لا انفصام لعراه بالاعتراف بالواقعية الموضوعية للعالـــم الخارجي والمواد والاجسام والاشياء التي يعكسها ادراكنا ان نظرات فورباخ نظرات مادية بشكل منسجم فان فورباخ ينسب عن حق وصواب الى اتجاه الايمانية جميع النظرات الاخرى على اختلافها او بالاصح كل خط فلسفي آخر في مسألة السببية ، وانكار السنن الموضوعية والسببية والضرورة في الطبيعة لأنه من الواضح ، بالفعل ، ان الخط الذاتي في مسألة السببية ، اي استخلاص نظام وضرورة الطبيعة من الوعي من العقل ، من المنطق وما الى ذلك وليس من العالم الموضوعي الخارجي ، لا يفصل العقل البشري عن الطبيعة وحسب ، لا يعارض الثانية بالاول وحسب بل يجعل كذلك من الطبيعة **جزءاً** من العقل عوضاً عن ان يعتبر العقل جزءاً من الطبيعة ان الخط الذاتي في مسألة السببية هو المثالية الفلسفية (التي تشكل نظريتا السببية عند هيوم وكانط على السواء نوعين من انواعها) اي ايمانية موهنة مميّعة الى هذا الحد او ذاك اما الاعتراف بالسنن الموضوعية للطبيعـــــة

---

* **العمائية** – chaotique من chaos عماء – خليط ، مشوش . **المعرب** .

** المؤلفات . المجلد ٧ ، عام ١٩٠٣ ، ص ٥١٨–٥٢٠ . **الناشر** .

وبانعكاس هذه السنن انعكاساً صحيحاً تقريباً في رأس الانسان فهو المادية

اما فيما يخص انجلس فانه لم يتأتّ له اذا لم اكن على خطأ ان يعارض خصيصاً ، في مسألة السببية ، الاتجاهات الاخرى بوجهة نظره المادية ولم يكن ثمة ما يدعوه الى القيام بذلك ، ما دام قد فصل نفسه على العموم بصورة واضحة تماماً عن جميع اللاعرفانيين في مسألة اكثر جذرية ، هي مسألة واقعية العالم الخارجي الموضوعية ولكن كل من قرأ مؤلفات انجلس الفلسفية وان ببعض الانتباه لا بد ان يتضح له ان انجلس لم يبد حتى اي ظل لشك بصدد وجود السنن الموضوعية ، والسببية ، والضرورة في الطبيعة لنكتف ببعض الامثلة ففي الفقرة الاولى من «ضد دوهرينغ» يقول انجلس «لكي نفهم مختلف جوانب» (او اجزاء اللوحة العامة للظاهرات العالمية) «نضطر الى انتزاعها من صلتها الطبيعية (natürlich) او التاريخية ودراسة كل منها بمفرده حسب خصائصه ، حسب اسبابه ومسبباته الخاصة» (ص ٥ — ٦) اما ان هذه الصلة الطبيعية ، الصلة بين ظاهرات الطبيعة موجودة موضوعياً فان هذا جليّ للعيان وان انجلس يؤكد بخاصة على النظرة الدياليكتيكية الى السبب والمسبَّب «السبب والمسبَّب هما تصوران لا يتسمان باهمية مأخوذين بذاتيهما ، الا شرط تطبيقهما على كل حالة بمفردها ؛ ولكن ما ان نبحث هذه الحالة بمفردها في صلتها المشتركة مع الكل العالمي بمجمله ، حتى يتلاقى هذان التصوران ويتشابكان في تصور التفاعل الشامل الذي تتبادل فيه الاسباب والمسبَّبات اماكنها باستمرار فان كل ما هو هنا او الآن سبب يصبح هناك او آنذاك مسبَّباً والعكس بالعكس» (ص ٨) وعليه ، ان المفهوم البشري للسبب والمسبَّب يبسّط دائماً بعض الشيء الصلة الموضوعية بين ظاهرات الطبيعة ، عاكساً اياها بصورة تقريبية فقط ، عازلاً

بصورة مصطنعة هذه او تلك من جوانب العملية العالمية الواحدة الوحيدة واذا وجدنا ان قوانين التفكير تتطابق مع قوانين الطبيعة ، فان هذا يصبح مفهوماً تماماً ، – كما يقول انجلس ، – اذا اخذنـــا بالحسبان ان التفكير والادراك هما «نتاجا الدماغ البشري وان الانسان نفسه هو نتاج الطبيعـــة» ومفهوم ان «نتاجات الدماغ البشري ، بكونها هي نفسها في آخر المطاف نتاجات الطبيعة ، لا تناقض الترابط الطبيعي (Naturzusammenhang) الباقي بـــل تطابقـــه» (ص ٢٢) (٤٠) اما انه توجد صلة طبيعية موضوعيـــة بين ظاهرات العالم فان هذا امر لا شك فيه وعلى الدوام يتحدث انجلس عن «قوانين الطبيعـــــة» عـــــن «ضرورة الطبيعـــــة» (Naturnotwendigkeiten) دون ان يرى من الضروري ان يوضح ويفسر بنحو خاص موضوعات المادية المعروفة للجميع

كذلك نقرأ في «لودفيغ فورباخ» ان «القوانين العامة لحركة العالم الخارجي والتفكير البشري متماثلة من حيث جوهر الامر اما من حيث المظهر فلا تختلف الا بقدر ما يستطيع الرأس البشري ان يطبقها بصورة واعية ، في حين انها في الطبيعة – وعلى الغالب حتى الآن في التاريخ البشري ايضاً – تشق لنفسها طريقاً بصورة غير واعية بشكل ضرورة خارجيـــــة بين عدد لامتناه من الصدف الظاهرية» (ص ٣٨) ويتهم انجلس الفلسفة الطبيعية القديمة بانها استعاضت عن «الصلات الفعلية التي لا تعرفها بعد» (بين ظاهرات الطبيعة) بصلات «متأتية خارجية» (٤٢) (٤١). ان الاقرار

~~الظاهرية» (ص ٣٨) . ويتهم انجلس الفلسفة الطبيعية القديمة بانها~~

بالسنن الموضوعية والسببية والضرورة في الطبيعة واضح تماماً عند انجلس بجانب الاشارة الى الطابع النسبي لمنعكساتنا اي للمنعكسات البشرية ، التقريبية لهذه القانونية في هذه المفاهيم او تلك .

وحين ننتقل الى ي ديتزغن يجب قبل كل شيء ان نلاحظ تشويهاً من التشويهات التي لا عدّ لها للقضية من قبل اصحابنا

الماخيين فان احد مؤلفي «دراسات «في» فلسفة الماركسية» ، وهو السيد غلفوند يقول لنا «يمكن ايجاز النقاط الاساسية من عقيدة ديتزغن في الموضوعات التالية ٩) – ان التبعية السببية التي ننسبها الى الاشياء لا تكمن بالفعل في الاشياء بالذات» (ص ٢٤٨) **هذا لغو وهراء** فان السيد غلفوند الذي تشكل آراؤه الخاصة خليطاً من المادية واللاعرفانية ، **حَرَّف كلياً** ي ديتزغن يقيناً انه يمكننا ان نجد عند ي ديتزغن عدداً لا يستهان به من التشوشات والنواقص والاخطاء التي تفرح قلوب الماخيين وتجبر كل مادي على الاقرار بان ي ديتزغن فيلسوف غير منسجم تماماً أما ان يُعزي الى المادي ي ديتزغن الانكار الصريح للنظرة المادية الى السببية فلا يقدر على هذا غير امثال غلفوند غير الماخيين الروس

يقول ي ديتزغن في مؤلفه «جوهر عمل الرأس» (الطبعة الالمانية عام ١٩٠٣) «ان المعرفة العلمية الموضوعية تفتش عن الاسباب ، لا في الايمان ، لا في التأمل بل في التجربة ، في الاستقراء ، لا a priori بل a posteriori * ان علم الطبيعة يفتش عن الاسباب ، لا خارج الظاهرات لا خلفها بل فيها او بواسطتها» (ص ٩٤ – ٩٥) «ان الاسباب هي نتاجات قدرة التفكير ولكنها ليست نتاجات خالصة لها بل تنجم عنها بالتحالف مع مادة حساسة فان المادة الحساسة تعطي السبب الناجم على هذا النحو وجوده الموضوعي وكما نطلب من الحقيقة ان تكون حقيقة ظاهرة موضوعية ، كذلك نطلب من السبب ان يكون فعلياً ان يكون سبب مسبَّب معطى موضوعياً» (ص ٩٨ – ٩٩) «ان سبب الشيء هو صلته» (ص ١٠٠)

من هنا يتضح ان السيد غلفوند تقدم بزعم **مناقض صراحة للواقع** فان عقيدة المادية التي عرضها ي ديتزغن تعترف بان «التبعية السببية» **تكمن** «في الاشياء بالذات» الا ان السيد غلفوند

* لا قبل التجربة ، بل بعد التجربة . **الناشر** .

احتاج لأجل الخليط الماخي الى الخلط بين الخط المادي والخط المثالي في مسألة السببية

لننتقل الى هذا الخط الثاني

ان افيناريوس يعرض النقاط الانطلاقية لفلسفته في هذه المسألة عرضاً واضحاً في مؤلفه الاول «الفلسفة بوصفها تفكيراً في العالم وفقاً لمبدأ انفاق الحد الادنى من الجهد» ففي الفقرة ٨١ نقرأ ما يلي «اذا لم نحس (لم نعلم من خلال التجربة : erfahren) بالقوة بوصفها شيئاً يستثير الحركة فاننا لا نحس كذلك **بضرورة** اية حركة ان كل ما نحس به (erfahren) هو ان شيئاً يتبع آخر» امامنا وجهة نظر هيومية في انقى صورها ان الاحساس والتجربة لا يقولان لنا شيئاً عن اية ضرورة وان الفيلسوف الذي يؤكد (بالاستناد الى مبدأ «الاقتصاد في الفكر») انه لا يوجد غير الاحساس لم يكن بوسعه ان يخلص الى اي استنتاج آخر ثم نقرأ «بما ان تصوّر **السببية** يتطلب القوة والضرورة او الاكراه ، بوصفها مقومات تكاملية لأجل تحديد المسبَّب فانه يسقط معها» (الفقرة ٨٢) «ان الضرورة تبقى بوصفها درجة احتمال توقع العواقب» (الفقرة ٨٣ موضوعة)

ان هذه ذاتية واضحة تماماً في مسألة السببية واذا ما بقي المرء منسجماً نوعاً فلا يمكنه ان يخلص الى استنتاج آخر دون ان يعترف بان الواقع الموضوعي هو مصدر احساساتنا

لنأخذ ماخ في فصل خاص عن «السببية والتفسير» («Wärmelehre», 2. Auflage, 1900, S. 432-439) * نقرأ ما يلي «ان نقد هيوم (لمفهوم السببية) لا يزال ساري المفعول» ان كانط

* Mach, E. «Die Prinzipien der Wärmelehre», 2. Auflage, 1900, S. 432–439 (ماخ «مبادئ مذهب الدفء» ، الطبعة الثانية ، عام ١٩٠٠ ، ص ٤٣٢–٤٣٩) . **الناشر** .

وهيوم يحلان بطريقة مختلفة قضية السببية (ان ماخ لا يأبه للفلاسفة الآخريـن !) «ونحـن ننحـاز» الى حـل هيـوم عدا الضرورة **المنطقية** (حرف التأكيد لماخ) لا توجد اي ضرورة اخرى فيزيائية مثلا» هذه هي بالضبط النظرة التي حاربها فورباخ ببالغ الحزم ولا يخطر لماخ حتى في البال ان ينكر قرابته مع هيوم الماخيون الروس وحدهم دون غيرهم كان بوسعهم ان يذهبوا الى حد الزعم «بامكان الجمع» **بين** لاعرفانية هيوم ومادية ماركس وانجلس ونحن نقرأ في مؤلف ماخ «الميكانيك» ما يلي «لا وجود في الطبيعة لا للسبب ولا للمسبَّب» (S. 474, 3. Auflage, 1897) «لقد قلت مراراً ان جميع اشكال قانون السببية تنبع من التطلعات الذاتيـــة (Trieben) وليس من الضروري للطبيعة ان تتطابق معها» (ص ٤٩٥)

هنا تجدر الاشارة الى ان ماخيينا الروس يستعيضون بسذاجة مذهلة عن مسألة الاتجاه المادي او الاتجاه المثالي لجميع المحاكمات بصدد قانون السببية بمسألة هذه الصياغة او تلك لهذا القانون وقد صدقوا فلاسفة المذهب النقدي التجريبي الالمان في انه اذا قال المرء «العلاقة الوظيفية» ، عنى هذا اكتشاف «الوضعية الحديثة» وخلّص من «فتشية» التعابير كتعبير «الضرورة» «القانون» وما الى ذلك يقيناً ان هذه ترهات وسفاسف لا غير وقد كان فوندت على حق تام في السخر من **تغيير الكلمة** هذا (ص ٣٨٣ و٣٨٨ من المقالة المذكورة في «Philosophische Studien») الذي لا يغير في شيء من جوهر الامر فان ماخ نفسه يتحدث عن «جميع اشكال» قانون السببية ويبدي في مؤلفه «المعرفة والضلال» (الطبعة الثانية ص ٢٧٨) تحفظاً بديهياً مفاده ان مفهوم الوظيفة لا يمكنه ان يعبر بمزيد من الدقة عن «تبعية العناصر» الا متى توفرت امكانية التعبير عن نتائج البحوث بمقادير **قابلة للقياس** ، – وهذا ما لا يتوفر حتى

في علوم مثل الكيمياء الا جزئياً ومن وجهة نظر ماخيينا السريعي التصديق بالاكتشافات الاستاذية ينجم اغلب الظن ان فورباخ (ناهيك عن انجلس) لم يكن يعرف ان مفاهيم النظام والسنة وما اليهما انما يمكن التعبير عنها رياضياً بمعادلة وظيفية معينة في حال توفر شروط معينة

ان المسألة النظرية العرفانية الهامة فعلاً التي تفرّق بين الاتجاهات الفلسفية ليست مسألة الدرجة من الدقة التي بلغتها اوصافنا للصلات السببية وامكانية التعبير عن هذه الاوصاف في معادلة رياضية دقيقة ،– بل مسألة ما اذا كانت السنة الموضوعية للطبيعة او خواص عقلنا القدرة الملازمة له على معرفة حقائق قبلية معينة وما الى ذلك هي مصدر معرفتنا لهذه الصلات وهذا ما يفصل الماديين فورباخ وماركس وانجلس بلا مرد عن اللاعرفانيين (الهيوميين) افيناريوس وماخ

لا يندر لماخ – الذي يكون من الاثم اتهامه بالانسجام – ان «ينسى» في بعض الاماكن من مؤلفاته توافقه مع هيوم ونظريته الذاتية بشأن السببية محاكماً «بكل بساطة» كعالم طبيعيات اي من وجهة نظر مادية عفوية مثلاً ، نقرأ في «الميكانيك» ما يلي «تعلـّمنا الطبيعة ان نجد في ظاهراتها التماثل» (ص ١٨٢ من الترجمة الفرنسية) فاذا كنا **نجد** التماثل في ظاهرات الطبيعة فهل هذا يعني ان هذا التماثل موجود بصورة موضوعية خارج عقلنا ؟ كلا وفي هذه المسألة ذاتها مسألة التماثل في الطبيعة يتفوه ماخ بما يلي «ان القوة التي تدفعنا الى ان نستكمل في الافكار الوقائع الملاحظة مناصفة فقط هي قوة تداعي الافكار وهذه القوة تشتد من جراء التكرار فتبدو لنا آنذاك قوة لا تتوقف على ارادتنا وعلى مختلف الوقائع قوة توجه الافكار **و** (حرف التأكيد لماخ) الوقائع على السواء ، وتبقيها متطابقة بعضها مع بعض ، **كقانون** للافكار

وللوقائع اما اننا نعتبر انفسنا قادرين على اجراء التنبوءات بالاستناد الى هذا القانون فان ذلك يثبت فقط (!) تماثل بيئتنا الكافي ، ولكنه لا يثبت البتة **ضرورة** نجاح التنبوءات» («Wärmelehre», S. 383) .

اذن ، يمكن ويجب البحث عن ضرورة ما **علاوة على** تماثل البيئة ، اي الطبيعة اما اين نبحث فهذا سر الفلسفة المثالية التي تخشى الاعتراف بقدرة الانسان العرفانية مجرد انعكاس للطبيعة بل ان ماخ يعرّف قانون الطبيعة في مؤلفه الاخير «المعرفة والضلال» على انه «حدّ للتوقع» (الطبعة الثانية ص ٤٥٠ وما يليها) ان السوليبسيسم يفوز مع ذلك

لننظر الى موقف الكتاب الآخرين من الاتجاه الفلسفي ذاته يقول الانجليزي كارل بيرسون بما يلازمه من قطعية «ان قوانين العلم هي نتاجات العقل البشري اكثر بكثير مما هي وقائع العالم الخارجي» («The Grammar of Science», 2nd. ed., p. 36) «ان الشعراء والماديين الذين يتحدثون عن الطبيعة بوصفها السيد (sovereign) على الانسان غالباً جداً ما ينسون ان نظام وتعقد الظاهرات اللذين يثيران اعجابهم على الاقل هما نتاج لمؤهلات الانسان العرفانية بقدر ذكرياته وافكاره بالذات» (ص ١٨٥) «ان كون قانون الطبيعة واسع الشمول مدين بوجوده لقدرة العقل البشري على الاختراع» (ib.*) «**الانسان هو صانع قانون الطبيعة**» هكذا جاء في الفقرة الرابعة من الفصل الثالث «ان القول بان الانسان يعطي الطبيعة القوانين يتضمن معنى اكبر بكثير مما يتضمنه القول المعاكس بان الطبيعة تعطي الانسان القوانين» — رغم ان هذه النظرة الاخيرة (المادية) — كما يعترف البروفسور الجزيل الاحترام بمرارة — «منتشرة في زمننا ، لسوء

* — ibidem — المرجع ذاته . **الناشر** .

الحظ ، على نطاق واسع جداً» (ص ٨٧) وفي الفصل الرابع المخصص لمسألة السببية تصوغ الفقرة ١١ **موضوعة** بيرسون «**الضرورة تعود الى عالم المفاهيم وليس الى عالم المدركات**» تجدر الاشارة الى ان المدركات او الانطباعات الحسية «انما هي بالذات» ، بنظر بيرسون الواقع الموجود خارجاً عنّا «لا ضرورة داخلية في ذلك التماثل الذي تتكرر به مجموعات معينة من المدركات في تلك الرتابة من المدركات ولكن وجود رتابة المدركات شرط ضروري لوجود الكائنات المفكرة ان الضرورة تكمن بالتالي في طبيعة الكائن المفكر وليس في المدركات نفسها انها نتاج القدرة العرفانية» (ص ١٣٩)

ان صاحبنا الماخي الذي يعرب ماخ «نفسه» غير مرة عن تضامنه التام معه قد توصل على هذا النحو بسلامة الى المثالية الكانطية الصرف الانسان هو الذي يعطي الطبيعة القوانين وليست الطبيعة هي التي تعطي الانسان القوانين ليس المهم هنا تكرار مذهب القبلية اثر كانط – ان هذا لا يحدد الخط المثالي في الفلسفة ، بل يحدد صيغة خاصة لهذا الخط – ، بل المهم ان العقل والتفكير والوعي هي هنا الاولي والطبيعة هي الثانوي فليس العقل جزءاً من الطبيعة احد نتاجاتها العليا انعكاساً لعملياتها بل الطبيعة هي جزء من العقل الذي يتمدد تلقائياً بالتالي ويتحول من عقل بشري عادي بسيط ، معروف من الجميع الى عقل «خارق الحد» ، كما قال ي ديتزغن مبهم الهي ان الصيغة الكانطية الماخية «الانسان يعطي الطبيعة القوانين» هي صيغة الايمانية واذا ما فتح ماخيونا عيونهم عجباً حين يقرأون في مؤلفات انجلس ان العلامة المميزة الاساسية للمادية هي اعتبار ان الطبيعة هي الاولي وليس الروح ، – فان هذا يبين فقط الى اي حد هم عاجزون عن التمييز بين

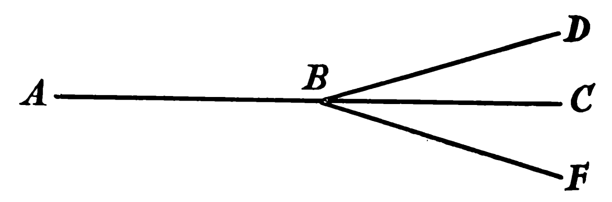
الاتجاهات الفلسفية الهامة فعلاً وبين التلاعب الاساتيذي بالادعاء العلمي وبالكلمات العويصة المعقدة

وان ي بتسولدت ، الذي يعرض ويطور افيناريوس في مؤلفه من مجلدين يمكنه ان يكون مثالاً رائعاً على السكولاستية الرجعية الملازمة للماخية فهو يقول «ان الجوهرية والسببية لا تزالان الى الآن ايضاً بعد مرور ١٥٠ سنة على هيوم تشلان رجولة التفكير» («مقدمة الى فلسفة التجربة الخالصة» المجلد الاول ص ٣١) وبديهي ان السوليبسيين هم «اشد رجولة» من الجميع اذ انهم اكتشفوا الاحساس بدون مادة عضوية ، والفكر بدون دماغ والطبيعة بدون سنة موضوعية «والصيغة الاخيرة للسببية الصيغة التي لم نذكرها بعد الضرورة او **ضرورة الطبيعة** ، تنطوي على شيء ما صوفي وغير واضح» – على فكرة «الفتشية» وفكرة «التشبيه» * والخ (ص ٣٢ و٣٤) يا للصوفيين المساكين فورباخ وماركس وانجلس لقد تحدثوا على الدوام عن ضرورة الطبيعة ، ناهيك عن انهم نعتوا انصار خط هيوم بالرجعيين النظريين .

ان بتسولدت ارفع من كل «تشبيه» فقد اكتشف قانوناً عظيماً هو «**قانون احادية المدلول**» الذي يزيل كل غموض ، وكل اثر «للفتشية» ، وما الى ذلك وهلم جراً وهكذا دواليك مثلاً متوازي اضلاع القوى . (ص ٣٥) يستحيل «اثباته» يجب الاعتراف به بوصفه «واقعاً من التجربة» لا يجوز التسليم بان الجسم اذ يتلقى الدفعات ذاتها يتحرك باشكال مختلفة «نحن لا يسعنا التسليم بمثل هذا الغموض والاعتباط من الطبيعة بل يجب ان نطالبها بالتحديد والسنة (ص ٣٥) هكذا اذن نحن نطالب الطبيعة بالسنة والبرجوازية تطالب بروفسوراتها بالرجعية . «ان تفكيرنا يطالب الطبيعة بالتحديد والطبيعة تخضع دائماً لهذا المطلب ، – بل اننا سنرى

* التشبيه – anthropomorphisme . **المعرب** .

انها مضطرة بمعنى ما للخضوع له» (ص ٣٦) في حال دفع الجسم على الخط AB ، لماذا يتحرك نحو C وليس نحو D ولا نحو F، والخ ؟



«لماذا لا تختار الطبيعة اياً من الاتجاهات الممكنة الاخرى التي لا عدّ لها ؟» (ص ٣٧) لأنهـا ستكون في هذه الحال «متعددة المدولولات» بينما الاكتشاف النقدي التجريبي العظيم الذي حققه يوسف بتسولدت يطالب **باحادية المدلول**

وبمثل هذا اللغو الذي يفوق الوصف يملأ «النقاد التجريبيون» عشرات الصفحات

لقد اشرنا غير مرة الى ان موضوعتنا لا تستمد قوتها من مجمل التجارب المنفردة واننا على العكس نطالب الطبيعة بالاعتراف بها (seine Geltung) وبالفعل ، قبل ان اصبحت قانوناً كانت بالنسبة لنا مبدأ نطبقه على الواقع اي مسلـّمة * وهي صحيحة بصورة قبلية كما يقال بصورة مستقلة عن ايـة تجربـة منفردة قد يبدو انه لا يليـق بفلسفـة التجربـة الخالصة ان تروج الحقائق القبليـة عائدة على هذا النحو الى الميتافيزياء الاشد عقماً ولكن قبلينا منطقي فقط ، وليس نفسانياً ولا ميتافيزيائياً» (ص ٤٠) اذن بالطبع اذا نعتنا القبلي بانه منطقي ، فان كل رجعية مثل هذه الفكرة تزول من جراء ذلك ، وترتفع هذه الفكرة الى مستوى «الوضعية الحديثة !»

* المسلـّمة ـ postulat . **المعرب** .

ثم يعلـّمنا ي بتسولدت فيما بعد قائلاً : لا يمكن ان يكون ثمة تحديد وحيد المدلول للظاهرات النفسية فان دور الخيال وشأن المخترعين العظام وما الى ذلك تخلق هنا استثناءات في حين ان قانون الطبيعة او قانون الروح لا يحتملان «اية استثناءات» (ص ٦٥) امامنا اذن ميتافيزيائي خالص تماماً لا يلم بتاتاً بنسبية الفرق بين الصدفي والضروري

ويواصل بتسولدت قائلاً لربما ينهونني الى تعليل حوادث التاريخ او تطور الطبع في المؤلفات الشعرية ؟ «اذا نظرنا بانتباه فاننا نرى غياب احادية المدلول وليس ثمة اي حدث تاريخي واية مأساة ليس بوسعنا ان نتصور المشتركين فيهما يتصرفون على نحو مغاير في ظل احوال نفسية معنية» (ص ٧٣) «ان احادية المدلول في المجال النفسي ليست غائبة وحسب ، بل نملك الحق ايضاً في **المطالبة** بغيابها عن الواقع (حرف التأكيد لبتسولدت) وعلى هذا النحو يرتفع مذهبنا الى مصف **المسلـّمة** اي الى مصف الشرط الضروري لأية تجربة سابقة الى مصف **قبلي منطقي**» (حرف التأكيد لبتسولدت ص ٧٦)

وهذا «القبلي المنطقي» يواصل بتسولدت استعماله في مجلدي مؤلفه «مقدمة» وفي كتيـّبه الصادر عام ١٩٠٦ «لوحة العالم من وجهة النظر الوضعية»* امامنا مثال ثان على ناقـد تجريبـي بارز انزلق بصورة غير ملحوظة الى الكانطية ويروج اشد المذاهب

---

* J. Petzoldt. «Das Weltproblem von positivistischem Standpunkte aus», Lpz., 1906, S. 130 (يوسف بتسولدت «قضية العالم من وجهة النظر الوضعية» ليبزيغ ١٩٠٦ ، ص ١٣٠ **الناشر**) «ومن وجهة نظر النقد التجريبي ايضاً يمكن ان يكون قبلي منطقي السببية هي القبلي المنطقي لأجل الدوام التجريبـي (erfahrungsmäßig ، المعطى في التجربة) لبيئتنا» .

اغراقاً في الرجعية ممزوجة بصلصة معدّلة قليلاً جداً وليس هذا من قبيل الصدفة ، لأن مذهب ماخ وافيناريوس في السببية هو من حيث اساسه بالذات كذب مثالي مهما كانت الجمل عن «الوضعية» التي يسترونه بها طنانة ان الفرق بين نظرية هيوم ونظرية كانط في السببية هو فرق من الدرجة الثانية بين اللاعرفانيين الذين يجمعون على الاساسي اي على انكار السنة الموضوعية للطبيعة حاكمين حتماً بهذا على انفسهم بهذه الاستنتاجات المثالية او تلك فان رودولف فيللي وهو ناقد تجريبي اكثر «ذمة ووجداناً» من ي بتسولدت بقليل ، ويستحي من قرابته مع الكمونيين يرفض مثلاً كل نظرية بتسولدت بشأن «احادية المدلول» باعتبار انها لا تعطي شيئاً عدا «الصورية المنطقية» ولكن هل يحسن ر فيللي موقفه بتنكره لبتسولدت ؟ كلا ابداً لأنه يتنكر للاعرفانية الكانطية في صالح اللاعرفانية الهيومية بوجه الحصر فقد كتب يقول «نحن نعرف من زمان منذ زمن هيوم ان «الضرورة» هي وصف (Merkmal) منطقي صرف غير «متعال» او كما قد اقول بطيبة خاطر وكما سبق لي وقلت وصف كلامي (sprachlich) صرف» (R. Willy: «Gegen die Schulweisheit», Münch., 1905, S. 91; cf. 173, 175*)

ان اللاعرفاني ينعت نظرتنا النظرة المادية الى الضرورة بالنظرة «المتعالية» ، لأن كل اعتراف بالواقع الموضوعي المعطى لنا في التجربة هو «تعال» غير مشروع من وجهة نظر تلك «الحكمة المدرسية» الكانطية والهيومية ذاتها التي لا يرفضها فيللي بل يطهرها قليلاً فقط

والى درب اللاعرفانية ذاته ينعطف على الدوام ، من عداد الكتاب

* ر فيللي «ضد الحكمة المدرسية» ، مونيخ ، ١٩٠٥ ، ص ٩١ ؛ قارن ص ١٧٣ ، ١٧٥ . **الناشر** .

الفرنسيين من الاتجاه الفلسفي الذي ندرسه هنري بوانكاره الفيزيائي الكبير والفيلسوف الصغير الذي اعتبر ب يوشكيفيتش اخطاءه بالطبع آخر كلمة في الوضعية الحديثة ، «الحديثة» الى حد ان الامر احتاج الى « ية» جديدة الرمزية التجريبية * فان قوانين الطبيعة هي بنظر بوانكاره (الذي سنتحدث عن نظراته بالاجمال في الفصل عن الفيزياء الجديدة) رموز مصطلحات يبتدعها الانسان لأجل «**الملاءمة**» «ان الواقع الموضوعي الحقيقي الوحيد هو التناسق (harmonie – **المعرب**) الداخلي للعالم» علماً بان بوانكاره ينعت بالموضوعي ما هو ذو دلالة عامة ما تعترف به اغلبية الناس او جميع الناس ** ، – اي انه يقضي على الحقيقة الموضوعية بطريقة ذاتية صرف مثل جميع الماخيين ، – ويعلن قطعاً فيما يخص «التناسق» بصدد ما اذا كان هذا «التناسق» **خارجاً عنّا** «كلا بلا ريب» واضح تماماً ان التعابير الجديدة لا تغيِّر البتة خط اللاعرفانية الفلسفي القديم المتقادم لأن جوهر نظرية بوانكاره «الاصيلة» يتلخص في انكار (وان كان بوانكاره ابعد من ان يكون منسجماً) واقعية الطبيعة الموضوعية وكونها سنة موضوعية ولهذا من الطبيعي تماماً ان يكون الكانطيون الالمان ، – خلافاً للماخيين الروس الذين يعتبرون الصيغ الجديدة للاخطاء القديمة اكتشافات حديثة ، – قد رحبوا بمثل هذه النظرات ، بوصفها انتقالاً في مسألة فلسفية جوهرية الى جانبهم الى جانب اللاعرفانية فنحن نقرأ عند الكانطي فيليب فرانك قوله «ان عالم الرياضيات الفرنسي هنري برانكاره يدافع

---

* الرمزية التجريبية – empiriosymbolisme **المعرب**

** Henri Poincaré. «La Valeur de la Science», Paris, 1905, pp. 7, 9 (هنري بوانكاره «قيمة العلم» باريس عام ١٩٠٥ ، ص ٧ ٩ **الناشر**) . توجد ترجمة روسية .

عن وجهة النظر القائلة ان موضوعات كثيرة من أعم موضوعات العلوم الطبيعية النظرية (قانون القصور الذاتي قانون بقاء الطاقة وما الى ذلك) التي يصعب احياناً كثيرة القول بصددها ما اذا كانت تجريبية الاصل او قبلية الاصل لا تعود بالفعل الى هذه ولا الى تلك ، لأنها مقدمات اصطلاحية صرف رهن بالهوى البشري» ويهتف الكانطي باعجاب «وعليه تجدد فلسفة الطبيعة الحديثة بنحو غير متوقع الفكرة الاساسية في المثالية النقدية ومفادها ان التجربة تملأ فقط الاطار الذي يجلبه معه الانسان الى الدنيا .» *

لقد اوردنا هذا المثال لكي نبيِّن للقارئ بجلاء درجة سذاجة اصحابنا يوشكيفيتش وامثاله وشركاه الذين يعتبرون نظرية ما مثلاً «نظرية الرمزية» شيئاً **حديثاً** ، في حين ان الفلاسفة المطلعين نوعاً يقولون ببساطة وصراحة انتقل الى وجهة نظر المثالية الانتقادية لأن كنه وجهة النظر هذه ليس الزامياً في ترديد صيغ كانط بل في الاعتراف بالفكرة الاساسية **المشتركة** بين هيوم وكانط على السواء وهي فكرة انكار السنة الموضوعية للطبيعة واستخلاص هذه او تلك من «شروط التجربة» هذه او تلك من المبادئ والمسلّمات والمقدمات **من الذات** من الوعي البشري وليس من الطبيعة ولقد كان انجلس على حق حين قال ان كنه الامر ليس انتماء هذا الفيلسوف او ذاك الى مدرسة من المدارس العديدة للمادية او المثالية بل فيما يعتبره الاولي الطبيعة العالم الخارجي المادة المتحركة ام الروح ، العقل الوعي ، وما الى ذلك (٤٣)

اليكم وصفاً آخر للماخية في هذه المسألة خلافاً لسائر الخطوط الفلسفية ، اعطاه الكانطي المطلع ا لوكّا فان «ماخ يلتصق كلياً

---

* «Annalen der Naturphilosophie», (٤٢) VI. B., 1907, SS. 443, 447

بهيوم» * في مسألة السببية «ان ب فولكمان يستخلص ضرورة التفكير من ضرورة عمليات الطبيعة ، – وهذه وجهة نظر تعترف بواقع الضرورة على نقيض ماخ وبالتوافق مع كانط ، – ولكنه يرى مصدر الضرورة على نقيض كانط لا في التفكير بل في عمليات الطبيعة» (ص ٤٢٤)

ان ب فولكمان عالم فيزيائي يكتب كثيراً في المسائل العرفانية ويميل الى المادية مثل الاغلبية الساحقة من علماء الطبيعيات وان كانت مادية غير منسجمة وجلة مبتورة فان الاعتراف بضرورة الطبيعة واستخلاص ضرورة التفكير منها هو من المادية اما استخلاص الضرورة والسببية والسنة وخلافها من التفكير فهو من المثالية ان النقص الوحيد الذي يشوب الاستشهاد المذكور هو انه ينسب الى ماخ الانكار التام لكل ضرورة ولقد رأينا ان الحال ليس هكذا لا فيما يخص ماخ ولا فيما يخص كل الاتجاه النقدي التجريبي الذي بابتعاده قطعاً عن المادية ينزلق حتماً الى المثالية

يبقى لنا ان نقول بضع كلمات خصيصاً عن الماخيين الروس فهم يرغبون في ان يكونوا ماركسيين ، وقد «قرأوا» جميعهم ان انجلس فصل المادية قطعاً عن اتجاه هيوم ولم يكن بوسعهم ان لا يسمعوا من ماخ ذاته ومن كل مطلع على فلسفته وان بعض الشيء ان ماخ وافيناريوس يسيران في خط هيوم ولكنهم جميعهم يجهدون لان لا ينبسوا **ببنت شفة** عن الهيومية وعن المادية في مسألة السببية ! ان التشوش يسود عندهم سيادة مطلقة اليكم بضعة امثلة فان

---

* E. Lucka. «Das Erkenntnisproblem und Machs «Analyse der Empfindungen» في «Kantstudien», VIII. Bd., S. 409 (ا . لوكا . «قضية المعرفة و«تحليل الاحساسات» عند ماخ» في «البحوث الكانطية» ، المجلد ٨ ، ص ٤٠٩ . **الناشر**) .

السيد ب يوشكيفيتش يروج رمزية تجريبيـــة «جديـدة» و«الاحساسات بالازرق والصلب وخلاف ذلـــك هذه المعطيات المزعومة للتجربـــة الخالصة» و«هذه الانشاءات للعقـــل الخالص المزعوم مثل الوهم او مثل لعبة الشطرنـــج» كل هذه «رموز تجريبية» («دراسات» ص ١٧٩) «ان المعرفة رمزية تجريبية وهي اذ تتطور تسير نحو رموز تجريبية على درجة اعلى فأعلى من الرمزية» «ومن هذه الرموز التجريبية ما يُسمَّى بقوانين الطبيعة» (ib) «ان ما يُسمَّى بالواقع الحقيقي الوجود في حد ذاته انما هو ذلك النظام الانفينـــي» * (يا للعالم العلامـــة السيد يوشكيفيتش !) «الاقصى من الرموز الذي تسعى اليه معرفتنا» (ص ١٨٨) «ان سيل المعطى» «القائم في اساس معرفتنـــا» «لامعقول» «لامنطقي» (ص ١٨٧ ١٩٤) ان الطاقة «قلّما تكون شيئاً جوهراً مثلها مثل الزمان والمكان والكتلة والمفاهيـــم الاساسية الاخرى في العلوم الطبيعية فان الطاقة انما هي ثابت رمز تجريبي مثل الرموز التجريبية الاخرى التي تلبي – لوقت ما – الحاجة الانسانية الاساسيـــة القاضيـــة بادخال العقـــل logos في سيل المعطيات اللامعقول» (ص ٢٠٩)

يظهر امامنا في بدلة مهرج مصنوعـــة من مزق التعابير «الحديثة» المبرقشـــة البراقـــة مثالـي ذاتـــي يرى ان العالم الخارجي الطبيعة ، وقوانينها ، – ان كل هذه رموز لمعرفتنا ان سيل المعطيات يخلو من المعقولية من النظام من التوافق مع القوانين فان معرفتنا تحمل العقل اليه الاجرام السماوية بما فيها الارض رموز للمعرفة الانسانيـة واذا كانت العلوم الطبيعية تعلّم ان الارض قد وجدت قبل زمن طويل من امكان ظهور

---

* infini – اللامتناهي . **المعرب** .

الانسان والمادة العضوية فاننا قد غيّرنا كل هذا **ونحن** الذين ندخل نظام حركة الكواكب وهذا النظام هو نتاج معرفتنا ولكن السيد يوشكيفيتش يشعر بان هذه الفلسفة تمدد العقل البشري وتجعل منه مسبِّب الطبيعة منشىء الطبيعة فاذا به يضع الى جانب العقل «**اللوغوس**»اي العقل في التجريد لا العقل العادي بل **العقل الاول** لا وظيفة الدماغ البشري بل شيئاً كائناً قبل كل دماغ شيئاً الهياً ان آخر كلمة «للوضعية الحديثة» انما هي تلك الصيغة القديمة للايمانية التي سبق وفضحها فورباخ

لنأخذ أ بوغدانوف في عام ١٨٩٩ عندما كان لا يزال نصف مادي وبدأ للتو يتأرجح تحت تأثير العالم الكيماوي الكبير جداً والفيلسوف المشوش جداً ولهلم اوستفالد كتب يقول «ان الصلة السببية العامة بين الظاهرات هي الوليد الاخير والافضل للمعرفة البشرية وهي قانون عام ، اعلى من بين تلك القوانين التي ، — اذا استعملنا كلمات فيلسوف — يفرضها العقل البشري على الطبيعة» («العناصر الاساسية والخ ص ٤١)

الله يعلم من اية ايد اخذ بوغدانوف آنذاك مقتبسه ولكن هناك امر واقع وهو ان «كلمات الفيلسوف» التي يكررها هذا «الماركسي» بثقة وتصديق هي كلمات **كانط** فيا للحادث المزعج ويشتد ازعاجه خصوصاً وانه لا يمكن حتى تفسيره «بمجرد» التأثر باوستفالد

في عام ١٩٠٤ كتب بوغدانوف ، وكان قد تخلى عن مادية العلوم الطبيعية وعن اوستفالد على السواء : «. . ان الوضعية المعاصرة تعتبر قانون السببية مجرد وسيلة لربط الظاهرات ربطاً عرفانياً في صف متواصل ، مجرد شكل لتنسيق التجربة» («من بسيكولوجيا المجتمع» ، ص ٢٠٧) أما ان هذه الوضعية المعاصرة هي لاعرفانيــــة تنكر الضرورة الموضوعية للطبيعة الموجودة قبل وخارج كل «معرفة» وكل

انسان ، فان بوغدانوف إمّا لم يعرف ذلك ، وإمّا لزم الصمت عنه فقد صدّق ما سمّاه البروفسورات الالمان «بالوضعية المعاصرة» واخيراً في عام ١٩٠٥ كتب بوغدانوف بعد ان اجتاز جميع الاطوار السابقـــة والطور النقدي التجريبي وبلغ الطور «الاحادي التجريبي» «ان القوانين لا تعود البتة الى مجال التجربة انها غير معطاة في التجربة ، بل يخلقها التفكير ، كوسيلة لتنظيم التجربة ، لترتيبها بتناسق في وحدة متآلفة» («الاحادية التجريبية» المجلد الاول ، ص ٤٠) «القوانين – انما هي تجريدات للمعرفة ؛ والقوانين الفيزيائية قلّما تتمتع بالخواص الفيزيائية مثلما القوانين النفسانية تتمتع بالخواص النفسية» (ibid.) .

اذن ، القانون القائل ان الخريف يتبعه الشتاء ، والشتاء يتبعه الربيع لم يُعْطَ لنا في التجربة بل اختلقه التفكير كوسيلة لتنظيم تنسيق توفيق اي شيء مع اي شيء يا رفيق بوغدانوف ؟

«الاحادية التجريبية ممكنة لسبب واحد فقط هو ان المعرفة تنسق التجربة بنشاط مزيلة تناقضاتها التي لا عدّ لها خالقة لأجلها اشكالاً منظّمة عامة مستعيضة عن عالم العناصر العمائي الاولي بعالم العلاقات المشتق المنظّم» (ص ٥٧) هذا غيـــر صحيح فان الفكرة التي تزعم ان بمقدور المعرفة ان «تخلق» اشكالاً عامة ان تستعيض عن العماء الاولي بالنظام وما الى ذلك هي فكرة الفلسفة المثالية ان العالم هو الحركة الطبيعية للمادة وبما ان معرفتنا هي النتاج الاعلى للطبيعة ففي مقدورها ان **تعكس** فقط هذه السنة

الحاصل ان اصحابنا الماخيين الذين يؤمنون على العمياء بالبروفسورات الرجعيين «الحديثين» يكررون اخطاء اللاعرفانيـــة الكانطية والهيومية في مسألة السببية ، دون ان يروا لا مدى

التناقض الجلي بين هذين المذهبين وبين الماركسية اي المادية ولا واقع انزلاقهم الى المثالية

٤ ـ «مبدأ الاقتصاد في التفكير» ومسألة «وحدة العالم»

ان «مبدأ انفاق الحد الادنى من الجهد» الذي وضعه ماخ وافيناريوس وكثيرون غيرهما في اساس نظرية المعرفة هو بلا ريب ، ميل «ماركسي» في علم العرفان»

هكذا يقول ف بازاروف في «دراسات» ص ٦٩

عند ماركس «اقتصاد» وعند ماخ «اقتصاد» ولكن هل بالفعل «لا ريب» انه يوجد بين هذا وذاك وان ظل لصلة ؟

ان مؤلف افيناريوس «الفلسفة بوصفها تفكيراً في العالم وفقاً لمبدأ انفاق الحد الادنى من الجهد» (١٨٧٦) يطبق هذا «المبدأ» ، كما رأينا ، على نحو بحيث يعلن باسم «الاقتصاد في التفكير» ان **الاحساس وحده** موجود ويُعلن ان السببية و«الجوهر» (الكلمة التي يطيب للسادة البروفسورات استعمالها «من **باب** المهابة والوقار» عوضاً عن كلمة ادق واوضح المادة) «قد أ'زيحا» باسم هذا الاقتصاد نفسه اي ان الحاصل هو احساس بلا مادة فكر بلا دماغ ان هذا الهراء الصرف هو محاولة لتمرير **المثالية الذاتية** في صلصة جديدة **وهذا** الطابع بالذات لهذا المؤلف **الاساسي** في مسألة «الاقتصاد في التفكير» السيىء الشهرة انما **يعترف به الجميع** في المطبوعات الفلسفية كما رأينا واذا كان اصحابنا الماخيون لم يروا المثالية الذاتية تحت الراية «الجديدة» فان هذا من **باب** الطرائف والغرائب

يستشهد ماخ فيما يستشهد ، في مؤلفه «تحليل الاحساسات» (الترجمة الروسية ص ٤٩) ببحثه في هذه المسألة الصادر عام ١٨٧٢ . وهذا البحث ، كما رأينا ، هو تحقيق لوجهة نظر الذاتية

الخالصة ، وحصر للعالم في الاحساسات اذن مؤلفان اساسيان ادخلا في الفلسفة هذا «المبدأ» الشهير يروجان بالمثالية فما الحكاية ؟ ذلك ان مبدأ الاقتصاد في التفكير اذا ما وُضع فعلاً «**في اساس** نظرية المعرفة» لا يمكنه ان يؤدي **الى اي شيء** عدا المثالية الذاتية ان «التفكير» باني انا وحدي فقط موجود مع احساساتي هو «الاكثر اقتصاداً» ، – وهذا امر لا جدال فيه ما دمنا ندخل في **علم العرفان** مفهوماً بمثل هذا القدر من السخافة

هل «التفكير» في ان الذرة غير قابلة للانشطار «اكثر اقتصاداً» من «التفكير» في انها تتألف من الكترونات موجبة وسالبة ؟ هل «التفكير» في ثورة برجوازية روسية يقوم بها الليبيراليون «اكثر اقتصاداً» من «التفكير» في ثورة برجوازية روسية تجرى ضد الليبيراليين ؟ حسبنا طرح السؤال لكي نرى سخافة وذاتية تطبيق مقولة «الاقتصاد في التفكير» هنا . فان تفكير الانسان يكون «اقتصادياً» حين يعكس الحقيقة الموضوعية **بصورة صحيحة** علماً بان الممارسة الاختبار الصناعة هي معيار هذه الصحة ولا يمكن التحدث جدياً عن الاقتصاد في التفكير في نظرية المعرفة الا في حال انكار الواقع الموضوعي اى في حال انكار **اسس** الماركسية !

واذا القينا نظرة الى ابحاث ماخ بعد المؤلف الذي نحن بصدده، فاننا نرى **تفسيراً** للمبدأ الشهير يعني كلياً انكاره التام مثلاً . في «مذهب الدفء» يعود ماخ الى فكرته المفضلة عن «طبيعة» العلم «الاقتصادية» (ص ٣٦٦ من الطبعة الالمانية الثانية) ولكننا كما يضيف في الحال لا نسيّر الاقتصاد من اجل الاقتصاد (ص ٣٦٦ القول نفسه مكرر في ص ٣٩١) «هدف الاقتصاد العلمي هو لوحة عن العالم اكمل ما يمكن هادئة» (ص ٣٦٦) وما دام الحال هكذا فان «مبدأ الاقتصاد» يزاح من حيث جوهر الامر لا من اسس علم العرفان وحسب ، بل ايضاً من علم العرفان بوجه

عام ان القول بان هدف العلم هو اعطاء لوحة عن العالم صادقة (ولا شأن البتة هنا للهدوء) انما يعني تكرار موضوعة مادية وان قول هذا انما يعني الاعتراف بالواقعية الموضوعية للعالم حيال معرفتنا بالواقعية الموضوعية للموديل حيال اللوحة ان **اقتصادية** التفكير **في مثل هذه** الحالة انما هي **كلمة** خرقاء ومضحكة بتزويقها عوضاً عن كلمة صحة فان ماخ يخبّص هنا بحكم العادة اما الماخيون فانهم ينظرون ويصلّون على التخبيص !

وفي «المعرفة والضلال» نقرأ في فصل «امثلة عن سبل البحث»

«ان وصف كيرخهوف الكامل والبسيط للغاية (١٨٧٤) والتصوير الاقتصادي للفعلي (ماخ ١٨٧٢) و«التوفيق بين التفكير والوجود والتوفيق بين علميات الفكر بعضها مع بعض» (غراسمان ١٨٤٤) — ، كل هذا يعبر بفوارق صغيرة عن الفكرة ذاتها»

أوليس هذا يا ترى نموذجاً على التخبيص ؟ ان «الاقتصاد في الفكر» الذي استخلص منه ماخ في عام ١٨٧٢ وجود الاحساسات **وحدها دون غيرها** (وهي وجهة نظر اضطر هو نفسه فيما بعد الى الاقرار بانها مثالية) **يُجعل موازياً** للقول المادي الصرف لعالم الرياضيات غراسمان بضرورة التوفيق بين التفكير **والوجود** ! يُجعل موازياً **للوصف** البسيط للغاية (**للواقع الموضوعي** الذي لم يخطر في بال كيرخهوف حتى ان يشك في وجوده !)

ان تطبيق مبدأ «الاقتصاد في التفكير» **على هذا النحو** ما هو الا نموذج عن تذبذبات ماخ الفلسفية الطريفة . واذا ازلنا مقاطع كالطرائف او lapsus * فان الطابع المثالي «لمبدأ الاقتصاد في التفكير» **يصبح** امراً لا شك فيه فان الكانطي هونيغسفالد اذ يناظر فلسفة ماخ ، **يحيي** «مبدأه في الاقتصاد» باعتباره تقرّباً من «حلقة افكار الكانطية» (Dr. Richard Hönigswald. «Zur Kritik der Machschen

* هفوات ، اخطاء . **المعرب** .

Philosophie», Brl., 1903, S. 27*) وبالفعل اذا لم نعترف بالواقع الموضوعي المعطى لنا في الاحساسات فمن اين يمكن ان ينبع «مبدأ الاقتصاد» ان لم يكن **من الذات** ؟ من المؤكد ان الاحساسات لا تنطوي على اي «اقتصاد» وهذا يعني ان التفكير يعطي شيئاً لا وجود له في الاحساسات ! وهذا يعني ان «مبدأ الاقتصاد» لا ينبع من التجربة (=الاحساسات) بل يسبق كل تجربة ويشكل شرطها المنطقي مثل مقولة كانط ويستشهد هونيغسفالد بالمقطع التالي من «تحليل الاحساسات» «بناء على توازننا الجسدي والروحي نستطيع ان نخلص الى القول بتوازن العمليات الجارية في الطبيعة وتجانسها وتحديدها الوحيد المدلول» (الترجمة الروسيـــة ص ٢٨١) وبالفعل لا سبيل الى الريب في الطابع المثالي الذاتي لمثل هذه الموضوعـــات في قرب ماخ مـــن بتسولـــدت الذي تمادى الى حد القول بالقبلية

وبالاستناد الى «مبدأ الاقتصاد في التفكير» يسمّي المثالي فوندت ماخ ببالـــغ الدقـــة والصواب «كانط بالمقلـــوب» («Systematische Philosophie», Lpz., 1907, S. 128**) فعند كانط قبلي وتجربة وعند ماخ تجربة وقبلي لأن مبدأ الاقتصاد في التفكير هو عند ماخ من حيث جوهر الامر قبلي (ص ١٣٠) ان العقدة المحكمة (Verknüpfung) إمّا تكمن في الاشياء «كقانون موضوعي للطبيعة (الامر الذي يرفضه ماخ قطعاً) ، وإمّا تكون مبدأ ذاتياً للوصف» (ص ١٣٠) ان مبدأ الاقتصاد عند ماخ ذاتي ، وهو kommt wie aus der Pistole geschossen ، اي : يظهر في هذه الدنيا

---

* الدكتور ريخارد هونيغسفالد «مساهمة في نقد فلسفة ماخ» برلين ، عام ١٩٠٣ ، ص ٢٧ **الناشر**

** «الفلسفة النظامية» ، ليبزيغ ، عام ١٩٠٧ ، ص ١٢٨ . **الناشر** .

الله اعلـــم من اين كمبدأ لاهوتي قادر على اكتساب مختلف المعاني (ص ١٣١) انتم ترون ان اختصاصيي التعابير الفلسفية ليسوا سذجاً مثل اصحابنا الماخيين المستعدين لان يصدقوا القول ان الكلمة «الجديدة» تزيل التضاد بين الذاتية والموضوعيـــة بين المثالية والمادية

واخيراً لنشتسهد ايضاً بالفيلسوف الانجليزي جيمس ورد الذي يقول عن نفسه بدون مواربة انه احادي روحاني. وهو لا يتناظر مع ماخ، بل بالعكس، يستعمل، كما سنرى فيما بعد، التيار الماخي كله في الفيزياء لأجل نضاله ضد المادية وهويصرح بوضوح ان «معيار البساطة» عند ماخ «هو على الاغلب ذاتي وليس موضوعياً» («Naturalism and Agnosticism», v. I, 3rd ed., p. 82*).

اما انه كان يوسع مبدأ الاقتصاد في الفكر بوصفه اساس علم العرفان ان يعجب الكانطيين الالمان والروحانيين الانجليز، فلا يمكن لهذا بعد كل ما قيل اعلاه ان يبدو غريباً واما ان الذين يرغبون في ان يكونوا ماركسيين يقربون بين الاقتصاد السياسي للمادي ماركس وبين الاقتصاد العرفاني لماخ، فان هذا من باب الفكاهة الصرف.

وسيكون من المناسب هنا التحدث بايجاز عن «وحدة العالم» فان السيد ب يوشكيفيتش قد بين بوضوح في هذه المسألة – للمرة المائة والالف – ذلك التخبيص اللامتناهي الذي يجلبه اصحابنـــا الماخيون ويقول انجلس في مؤلفه «ضد دوهرينغ» معترضاً على دوهرينغ الذي استخلص وحدة العالم من وحدة التفكير «ان وحدة العالم الفعلية تتجسد في ماديته، وهذه الاخيرة لا يثبتها زوج من جمل الغش والاحتيال بل يثبتها تطور الفلسفة والعلوم الطبيعية المديد

---

* «الطبيعية واللاعرفانية»، المجلد الاول، الطبعة الثالثة، ص ٨٢.
الناشر.

والعسير» (ص ٣١) (٤٤) ويستشهد السيد يوشكيفيتش بهذه الفقرة و«يعترض» قائلاً «ليس من الواضح هنا قبل كل شيء ما يعنيه بالضبط الزعم ان «وحدة العالم تتجسد في ماديته» (الكتاب المذكور ص ٥٢)

هذا لطيف ، أليس كذلك ؟ هذا الشخص عمد الى الثرثرة امام الملأ بصدد فلسفة الماركسية لكي يعلن ان ابسط موضوعات المادية «ليست واضحة» له ! ولقد بين انجلس بمثال دوهرينغ ان الفلسفة ، اذا كانت منسجمة نوعاً تستطيع ان تستخلص وحدة العالم إما من التفكير – وهي في هذه الحال عاجزة حيال الروحانية والايمانية («ضد دوهرينغ» ص ٣٠) وتنحصر حجج مثل هذه الفلسفة في جمل غش واحتيال – ، وإما من ذلك الواقع الموضوعي الموجود خارجاً عنا والذي يسمى من غابر الزمان في علم العرفان بالمادة والذي تدرسه العلوم الطبيعية ولا جدوى من التحدث بجد مع شخص يكون هذا الامر «ليس واضحاً» له لأنه يتحدث هنا عن «عدم الوضوح» لكي يتهرب بالغشر والاحتيال من الجواب بصدد جوهر موضوعة انجلس المادية الواضحة تماماً مردداً فضلاً عن ذلك لغواً دوهرينغياً صرفاً بصدد «المسلّمة الجذرية عن تلاحم الوجود وتجانسه المبدئي» (يوشكيفيتش الكتاب المذكور ص ٥١) عن المسلمات بوصفها «موضوعات» لن يكون «من الدقيق والصائب القول انها مستخلصة من التجربة لان التجربة العلمية لا تكون ممكنة الا بفضل وضع هذه «الموضوعات» في اساس البحث» (المرجع نفسه)

هذا لغو وهراء لأنه لو كان هذا السيد يكنّ وان قدراً قليلاً من الاحترام للكلمة المطبوعة لرأى الطابع **المثالي** على العموم **والكانطي** على الخصوص للفكرة الزاعمة انه يمكن ان تكون ثمة موضوعات غير مأخوذة من التجربة ، وبدونها تستحيل التجربة . مجموعة كلمات

مقتطفة من مختلف الكراريس ومشبوكـــة باخطاء المادي ديتزغن البيّنة ، — هذه هي «فلسفة» السادة يوشكيفيتش واضرابه

من الافضل ان ننظر الى محاكمات ناقد تجريبي جدي هـو يوسف بتسولدت بصدد مسألة وحدة العالم فان الفقرة ٢٩ من المجلد الثاني من مؤلفه «مقدمة» معنونة كما يلي «السعي الى المتماثل (einheitlich) في ميدان المعرفة مسلمة احادية مدلول كل ما يجرى» اليكم نماذج من محاكماته في **الوحدة** فقط يقوم ذلك الهدف الطبيعي الذي لا يتخطى حدوده اي شيء نستحضره والذي يمكن فيه بالتالي للتفكير ان يتوصل الى الهدوء اذا اخذ بالحسبان جميع وقائع الميدان المناسب» (ص ٧٩) لا ريب ان الطبيعة ابعد من ان تتجاوب دائماً مع مطلب **الوحدة** ، ولكنه لا ريب كذلك انها مع ذلك ، في كثير من الحالات تلبي الآن مطلب **الهدوء** ، ويجب ان نعتبر ان الاكثر احتمالاً بالاستناد الى جميع بحوثنا السابقة ، هو ان الطبيعة ستلبي هذا المطلب في المستقبل في جميع الحالات ولهذا من الأصح ان نعرّف الحالة الروحية الفعلية بالطموح الى حالات ثابتـة اكثر مما الى الوحـدة ان مبـدأ الحالات الثابتة يمضي الى ابعد واعمق واقتراح هيكل بان توضع الى جانب المملكة النباتية والحيوانية مملكة الفرطيسات (٤٥) ايضاً هو حل لا ينفع لأنه يخلق صعوبتين جديدتين عوضاً عن الصعوبة الواحدة السابقة فمن قبـــل كان الحد بين النباتات والحيوانات مشكوكاً فيه اما الآن فلا يمكن ان نفصل الفرطيسات بصورة قاطعة لا عن النباتات ولا عن الحيوانات وجلي للعيان ان هذه الحالة ليست نهائية (endgütig) فيجب القضاء بنحو او آخر على هذا **الازدواج في معنى** المفاهيم وان حتى عن طريق التوافـــق بين الاختصاصيين والحل باغلبية الاصوات ، اذا لم تكن ثمة وسائــــل اخرى» (ص ٨٠ — ٨١) .

يكفي على ما يبدو أليس كذلك ؟ اما ان الناقد التجريبي بتسولدت لا يفضل على دوهرينغ **وان بشعرة** فهو امر واضح ولكنه يجب ان نكون عادلين حيال الخصم ايضاً فان بتسولدت يتحلى وان بما يكفي من الذمة العلمية لكي يرفض المادية في كل من مؤلفاته رفضاً **قاطعاً لا عودة عنه** بوصفها اتجاهاً فلسفياً وهو لا يتذلل على كل حال ، الى حد ان يتلون بلون المادية ، ويعلن ان ابسط الفوارق بين الاتجاهات الفلسفية الاساسية «غير واضحة»

٥ ـ المكان والزمان

بما ان المادية تعترف بوجود الواقع الموضوعي اي المادة المتحركة بصورة مستقلة عن وعينا فانه يتعين عليها حتماً ان تعترف كذلك بالواقعية الموضوعية للزمان والمكان ، خلافاً قبل كل شيء للكانطية التي تقف في هذه المسألة الى جانب المثالية وتعتبر الزمان والمكان شكلين من اشكال التأمل البشري وليس واقعاً موضوعياً وان الفرق الجذري بين الخطين الفلسفيين الاساسيين في هذه المسألة ايضاً انما يدركه بكل وضوح الكتاب من اكثر الاتجاهات تبايناً والمفكرون المنسجمون نوعاً لنبدأ من الماديين

كتب فورباخ يقول «ان الزمان والمكان ليسا مجرد شكلين من الظاهرات بل شرطان جذريان (Wesensbedingungen) ... للوجود» (Werke, II, 332) وبما ان فورباخ يعترف بان العالم المحسوس الذي ندري به عبر الاحساسات هو واقع موضوعي فانه ينبذ ايضاً بالطبع الفهم الظاهري (كما قد يقول ماخ عن نفسه) او اللاعرفاني (كما يقول انجلس) للزمان والمكان :

فكما ان الاشياء او الاجسام ليست مجرد ظاهرات ليست مركبات احساسات بل واقع موضوعي يؤثر في حواسنا كذلك المكان والزمان ليسا مجرد شكلين للظاهرات بل شكلان واقعيان موضوعيان للوجود فليس ثمة في العالم اي شيء غير المادة المتحركة والمادة المتحركة لا تستطيع ان تتحرك الا في المكان والزمان ان التصورات البشرية عن المكان والزمان نسبية ولكن الحقيقة المطلقة تتكون من هذه التصورات النسبية وهذه التصورات النسبية تسير في سياق تطورها على خط الحقيقة المطلقة وتقترب منها وان تغير التصورات البشرية عن الزمان والمكان قلما يدحض الواقع الموضوعي لهذا وذاك مثلما تغير المعارف العلمية عن بنية واشكال حركة المادة لا يدحض الواقعية الموضوعية للعالم الخارجي

وحين فضح انجلس المادي دوهرينغ ذا التفكير المشوش وغير المنسجم امسك به في الامر التالي بالذات وهو انه يتحدث عن تغير **مفهوم** الزمان (وهذه مسألة لا جدال فيها بنظر الفلاسفة المعاصرين الكبار نوعاً من **اشد** الاتجاهات الفلسفية **تباينا)** ، **متهرباً** من اعطاء جواب واضح عن السؤال التالي المكان او الزمان أهما واقعيان ام مثاليان ؟ وتصوراتنا النسبية عن المكان والزمان أهي **خطوات اقتراب** من اشكال الوجود الواقعية الموضوعية ؟ ام انها مجرد منتوجات الفكر البشري المتطور المنتظم المنسق وما الى ذلك ؟ في هذا وفي هذا فقط تكمن المسألة العرفانية الاساسية التي تفصل بين الاتجاهين الفلسفيين الجذريين فعلاً وقد كتب انجلس يقول «اننا لا نعبأ بما يتغير في رأس السيد دوهرينغ من مفاهيم فالمقصود ليس **مفهوم** الزمان بل الزمان **الفعلي** الذي لن يتهرب منه السيد دوهرينغ في اي حال من الاحوال بمثل هذه السهولة» (اي بالجمل عن تغير

المفاهيم) («ضد دوهرينغ الطبعة الالمانية الخامسة ص ٤١) (٤٦)

ان هذا على ما يبدو واضح الى حد انه بوسع السيد يوشكيفيتش واضرابه ان يفهموا كنه المسألة أليس كذلك ؟ فان انجلس يعارض دوهرينغ بموضوعة يعترف بها الجميع وبديهية بنظر كل مادي هي موضوعة **فعلية** الزمان اي موضوعة واقعية الزمان الموضوعية وذلك حين يقول انه **لا يمكن التهرب** بالمحاكمات عن تغير مفهومي الزمان والمكان من الاعتراف صراحة بهذه الموضوعة او من انكارها ولا تنحصر القضية هنا في ان ينكر انجلس ضرورة البحث في تغير وفي تطور مفاهيمنا عن الزمان والمكان وينكر اهميته العلمية ، – بل في ان نحل بدأب وانسجام المسألة العرفانية اي مسألة مصدر واهمية كل معرفة بشرية على العموم وان كل مثالي فلسفي فطن نوعاً – والحال ان انجلس قصد في سياق كلامه عن المثاليين مثاليي الفلسفة الكلاسيكية ذوي الانسجام العبقري – يعترف بسهولة بتطور مفاهيمنا عن الزمان والمكان دون ان يكف عن ان يكون مثالياً مع اعتباره مثلاً ان المفاهيم المتطورة عن الزمان والمكان تقترب من الفكرة المطلقة عن هذا وذاك وما شابه وليس بوسع المرء ان يتبنى بثبات في الفلسفة وجهة نظر معادية لكل ايمانية ولكل مثالية اذا لم يعترف بكل صراحة ووضوح بان مفاهيمنا المتطورة عن الزمان والمكان **تعكس** زماناً ومكاناً واقعيين موضوعيين وانها تقترب هنا ايضاً كما على العموم من الحقيقة الموضوعية

ويعلم انجلس دوهرينغ قائلاً «ان الشكلين الاساسيين لكل وجود هما المكان والزمان ان الوجود خارج الزمان سخافة جسيمة مثل الوجود خارج المكان» (المرجع نفسه) .

ما الذي دفع انجلس الى ان يكرر حرفياً تقريباً في النصف الاول من هذه الجملة ما قاله فورباخ والى التذكير في النصف الثاني منها بذلك النضال الذي خاضه فورباخ بمثل هذا النجاح ضد سخافات مذهب التأليه الديني الجسيمة ؟ ان ما دفعه هو ان دوهرينغ كما يتبين من الفصل نفسه من مؤلف انجلس لم يستطع ان يربط بين اجزاء فلسفته دون الاعتماد تارة على «العلة الغائية» للعالم وطوراً على «الدفعة الاولى» (وهذا تعبير آخر لأجل المفهوم عن الله كما يقول انجلس) اغلب الظن ان دوهرينغ اراد ان يكون مادياً وملحداً باخلاص لا يقل عن اخلاص رغبة اصحابنا الماخيين في ان يكونوا ماركسيين، ولكنه **لم يستطع** ان يعرض بتتابع وانسجام وجهة النظر الفلسفية التي من شأنها ان تزيح بالفعل كل تربة من تحت اقدام السخافة المثالية وسخافة التأليه وبما ان دوهرينغ لا يعترف – او على الاقل لا يعترف بوضوح وجلاء (لان دوهرينغ تأرجح وخبّص في هذه المسألة) – بواقعية الزمان والمكان الموضوعية فانه ينزلق حتماً وليس من باب الصدفة على سطح منحدر حتى «العلل الغائية» و«الدفعات الاولى» لأنه حرم نفسه معياراً موضوعياً يحول دون تخطي حدود الزمان والمكان فاذا كان الزمان والمكان **مجرد** مفهومين فمن حق البشرية التي خلقتهما ان **تتخطى حدودهما** ومن حق البروفسورات البرجوازيين ان يتقاضوا الرواتب من الحكومات الرجعية لقاء دفاعهم عن شرعية هذا التخطي لقاء دفاعهم المباشر او غير المباشر عن «السخافة» القروسطية

ولقد بيّن انجلس لدوهرينغ ان انكار واقعية الزمان والمكان الموضوعية هو على الصعيد النظري تخبيص فلسفي وهو على الصعيد العملي استسلام او عجز امام الايمانية

والآن انظروا الى «مذهب» «الوضعية الحديثة» في هذا

الموضوع فنحن نقرأ عند ماخ ما يلي «ان المكان والزمان هما نظامان منظمـــان (او منسقـــان wohlgeordnete) من صفوف الاحساسات» («الميكانيك» الطبعة الالمانية الثالثة ص ٤٩٨) هذه سخافة مثالية بينة تنبع حتماً من المذهب القائل ان الاجسام هي مركبات احساسات ليس الانسان مع احساساته هو الذي يوجد في المكان والزمان بل المكان والزمان هما اللذان يوجدان في الانسان ويتعلقان بالانسان ويولدهما الانسان – هذا ما يتحصل عند ماخ وهو يحزر انه ينزلق نحو المثالية و«يقاوم» ملفقاً طائفة من التحفظات مغرقاً المسألة على غرار دوهرينغ في محاكمات طويلة للغاية (راجعوا على الاخص «المعرفة والضلال») عن تغير مفاهيمنا عن المكان والزمان وعن نسبيتهما وما الى ذلك ولكن هذا لا ينقذه ولا يمكن ان ينقذه لأنه لا يمكن التغلب فعلاً على الموقف المثالي في هذه المسألة إلا بالاعتراف بواقعية المكان والزمان الموضوعية والحال ان ماخ لا يريد هذا في اي حال من الاحوال وهو يبني النظرية العرفانية عن الزمان والمكان على مبدأ النسبية وحســـب وليس بمقدور هذا البناء ان يؤدي من حيث جوهر الامر الى اي شيء غير المثاليــة الذاتية كما سبق واوضحنا ذلك في معرض الكلام عن الحقيقة المطلقة والحقيقة النسبية

واذ يقاوم ماخ الاستنتاجات المثالية المحتمة من مسلماتــه يجادل ضد كانط ، مدافعاً عن نشوء مفهوم المكان من التجربـــة («المعرفة والضلال» ، الطبعة الالمانية الثانية ، ص ٣٥٠ ٣٨٥) ولكن اذا كان الواقع الموضوعي **غير** معطى لنا في التجربة (كما يعلّم ماخ) فان هذا الاعتراض على كانط لا يقضي البتة على موقف اللاعرفانية المشترك عند كانط وماخ **على حد سواء** فاذا كنا نأخذ مفهوم المكان من التجربة ، **دون ان يكون** انعكاساً للواقع

الموضوعي القائم خارجاً عنا فان نظرية ماخ تبقى مثالية ان وجود الطبيعة **في الزمان** الذي يقاس بملايين السنين **قبل** ظهور الانسان والتجربة الانسانية يبين خرافة هذه النظرية المثالية

كتب ماخ يقول «ان الزمان والمكان يعنيان على الصعيد الفيزيولوجي احساسات بالاتجاه تحدد مع المدركات الحسية اطلاق (Auslösung) ردود فعل التكيف العقلانية بيولوجياً اما على الصعيد الفيزيائي فان الزمان والمكان يعنيان تبعية العناصر الفيزيائية بعضها لبعض» (المرجع نفسه ص ٤٣٤)

ان النسبي ماخ يكتفي ببحث **مفهوم** الزمان في اصعدة مختلفة ! وهو يراوح في مكانه مثل دوهرينغ فاذا كانت «العناصر» هي الاحساسات فان تبعية العناصر الفيزيائية بعضها لبعض لا يمكن ان توجد خارج الانسان قبل الانسان قبل المادة العضوية واذا كان بوسع الاحساسات بالزمان والمكان ان تعطي الانسان الاتجاه العقلاني بيولوجياً فذلك بشرط واحد على وجه الحصر هو ان تعكس هذه الاحساسات **الواقع الموضوعي** القائم خارج الانسان : فلم يكن بوسع الانسان ان يتكيف بيولوجياً للبيئة لو لم تعطه احساساته تصوراً **صحيحاً موضوعياً** عنها ان نظرية المكان والزمان ترتبط بعرى وثيقة بحل المسألة الاساسية في علم العرفان وهي أتمثل احساساتنا صوراً للاجسام والاشياء ، ام ان الاجسام هي مركبات لاحساساتنا ان ماخ لا يفعل غير ان يتخبط بين هذا الحل وذاك

فهو يقول الفيزياء المعاصرة تتبنى نظرة نيوتن الى الزمان المطلق والمكان المطلق (ص ٤٤٢ – ٤٤٤) الى الزمان والمكان مأخوذين بذاتيهما هذه النظرة تبدو «لنا» سخيفة هكذا يستطرد ماخ ، دون ان يخطر في باله ، اغلب الظن ، انه

يوجد في الدنيا ماديون ونظرية مادية عن المعرفة ولكن هذه النظرة كانت **في الواقع العملي غير ضارة** (unschädlich ص ٤٤٢) ولذا ظلت زمناً طويلاً لا تتعرض لاي نقد

ان هذه الملاحظة الساذجة عن عدم ضرر النظرة المادية تفضح ماخ كلياً ! اولاً، ليس من الصحيح ان المثاليين ظلوا «زمناً طويلاً» لا ينتقدون هذه النظرة فان ماخ يتجاهل بكل بساطة الصراع بين النظرية المثالية والنظرية المادية عن المعرفة فى هذه المسألة وهو يتهرب من عرض النظرتين بصراحة وجلاء ثانياً ان ماخ اذ يعترف «بعدم ضرر» النظرات المادية التى يعارضها انما يعترف بالتالي من حيث جوهر الامر بصحتها لأنه كيف امكن ان يبقى عدم الصحة خلال قرون غير ضار ؟ واين اختفى ذلك المعيار للواقع العملي الذي حاول ماخ ان يتغزل به ؟ ان النظرة المادية الى واقعية الزمان والمكان الموضوعية لا يمكن ان تكون «غير ضارة» الا لسبب واحد هو ان العلوم الطبيعية **لا تتخطى** حدود الزمان والمكان حدود العالم المادي تاركة هذه المهمة لبروفسورات الفلسفة الرجعية ان «عدم الضرر» هذا يعني الصحة

ان نظرة ماخ المثالية الى المكان والزمان هي «ضارة» اولاً لأنها تفتح الابواب على مصاريعها امام الايمانية وثانياً لأنها **تغري** ماخ نفسه باستخلاص استنتاجات رجعية مثلاً في عام ١٨٧٢، كتب ماخ انه «ليس من الالزامي تصور العناصر الكيماوية موجودة في المكان الثلاثي المقاييس» («Erhaltung der Arbeit» ص ٢٩ * ومكرر في ص ٥٥) ان التصرف على هذا النحو يعني ان المرء «يفرض على نفسه حداً لا لزوم له . فليس ثمة اية ضرورة لاستحضار اشياء تصورية بحتة (das bloss Gedachte)

* «مبدأ صيانة العمل»، ص ٢٩ . **الناشر** .

في المكان اي بالنسبة الى المنظور والمحسوس كما انه ليس ثمة اية ضرورة لاستحضارها في مستوى معين ما من الصوت» (ص ٢٧) «اما انه لم يمكن حتى الآن انشاء نظرية مرضية عن الكهرباء فان هذا يتوقف اغلب الظن على انهم ارادوا ان يفسروا الظاهرات الكهربائية من كل بدّ بالعمليات الجزيئية في المكان الثلاثي المقاييس» (ص ٣٠)

ان هذه المحاكمة هي من وجهة نظر تلك الماخية الصريحة وغير المشوشة التي دافع عنها ماخ على المكشوف في عام ١٨٧٢ محاكمة لا جدال فيها اطلاقاً اذا كان يستحيل الاحساس بالجزيئات والذرات اي العناصر الكيماوية فان هذا يعني انها «اشياء تصورية بحتة» (das bloss Gedachte) . ولكن بما ان الحال هكذا وبما انه ليس للمكان والزمان اية اهمية واقعية موضوعية فمن الواضح انه ليس من الالزامي اطلاقاً ان يتصور المرء الذرات **على صعيد المكان** ! «فلتحد» الفيزياء والكيمياء «نفسيهما» بالمكان الثلاثي المقاييس الذي تتحرك فيه المادة ومع ذلك يمكن لتفسير الكهرباء البحث عن عناصرها في مكان **ليس** ثلاثي المقاييس !

اما ان اصحابنا الماخيين يتجنبون باحتراس سخافة ماخ هذه ،رغم انه يكررها في عام ١٩٠٦ («المعرفة والضلال» الطبعة الثانية ص ٤١٨) فان هذا مفهوم لأنه لو لم يفعلوا ذلك لاضطروا الى ان يطرحوا على المكشوف مسألة النظرة المثالية والنظرة المادية الى المكان بدون مواربات وبدون محاولات «للتوفيق» بين التضادات ومفهوم كذلك ان يكون احد زعماء المدرسة الكمونية وهو انطون فون ليكلر قد تلقف **بكل حزم** آنذاك بالذات ، في السبعينيات ، عندما كان ماخ مجهولاً

تماماً ولقي حتى الرفض من جانب «الفيزيائيين الاورثوذكسيين» لطبع مقالاته محاكمة ماخ **هذه على وجه الضبط** بوصفها تبرؤاً رائعاً من المادية واعترافاً بالمثالية ! لأن ليكلر لم يكن قد اختلق آنذاك او لم يقتبس من شوبّه وشوبرت-زولدرن او من رمكه نعتاً «جديداً» هو «المدرسة الكمونية» بل سمّى نفسه صراحة **بالمثالي الناقد** * ان هذا المدافع بلا لبس ولا ابهام عن الايمانية والمروج بها صراحة في مؤلفاته الفلسفية نادى على الفور بماخ تقديراً لهذه الاقوال فيلسوفاً عظيماً و«ثورياً بافضل معاني الكلمة» (ص ٢٥٢) وكان على حق تام فان محاكمة ماخ تعني الانتقال من معسكر العلوم الطبيعية الى معسكر الايمانية اذ ان العلوم الطبيعية سواء في عام ١٨٧٢ ام في عام ١٩٠٦ قد فتشت وتفتش وتجد-**وتتلمس** على الاقل-ذرة الكهرباء الالكترون في المكان الثلاثي المقاييس ان العلوم الطبيعية لا تتردد في ان المادة التي تدرسها لا توجد الا في المكان الثلاثي المقاييس ، وان دقائق هذه المادة ، مع انها صغيرة الى حد اننا لا نستطيع ان نراها توجد بالتالي «الزاماً» في المكان نفسه الثلاثي المقاييس .وفي غضون اكثر من ثلاثة عقود من السنين تصرمت منذ سنة ١٨٧٢ واحرز فيها العلم نجاحات هائلة مدهشة في مضمار بنية المادة بقيت النظرة المادية الى الزمان والمكان «غير ضارة» اي متفقة كما من قبل مع العلوم الطبيعية في حين ان نظرة ماخ وشركاه المعاكسة كانت تنازلاً «ضاراً» عن الموقف في صالح الايمانية

---

* Anton von Leclair. «Der Realismus der modernen Naturwissenschaft im Lichte der von Berkeley und Kant angebahnten Erkenntniskritik», Prag. 1879 (انطون فون ليكلر «واقعية العلوم الطبيعية المعاصرة على ضوء نقد المعرفة الذي اعطاه بركلي وكانط» ، براغ ، عام ١٨٧٩) . الناشر .

ويدافع ماخ في مؤلفه «الميكانيك» عن اولئك من علماء الرياضيات الذين يدرسون مسألة الاماكن التصورية ذات **كذا** من المقاييس ويدافع عنهم لرد التهمة الزاعمة بنظره انهم مسؤولون عن الاستنتاجات «الفظيعة» الناجمة من دراساتهم ان الدفاع عادل تماماً ولا مراء فيه ولكن انظروا اي موقف **عرفاني** يشغله ماخ في هذا الدفاع ويقول ماخ ان الرياضيات الحديثة قد طرحت مسألة هامة ومفيدة جداً هي مسألة المكان ذي **كذا** من المقاييس بوصفه مكاناً تصورياً ولكن المكان الثلاثي المقاييس وحده يبقى «حالة فعلية» (ein wirklicher Fall) (الطبعة الثالثة ص‌ص ٤٨٣ — ٤٨٥) ولهذا عبثاً رغب «كثيرون من اللاهوتيين ممن واجهوا المصاعب بصدد المكان الذي يحشرون فيه جهنم» وكذلك الروحانيون في ان يستخلصوا لانفسهم فائدة من المقياس الرابع (المرجع نفسه)

حسناً جداً ! ان ماخ لا يرغب في ان ينضم الى اللاهوتيين والروحانيين . ولكن بم يفصل نفسه عنهم في **نظريته بصدد المعرفة؟** بكون المكان الثلاثي المقاييس هو وحده **فعلياً** فما هو هذا الدفاع دون اللاهوتيين وشركاهم اذا كنت لا تعترف للمكان والزمان بالواقعية الموضوعية ؟ فمن هنا ينجم انك تلجأ الى طريقة الاقتباسات الصامتة من المادية حين يتعين التنحي عن الروحانيين لأن الماديين اذ يعتبرون العالم الفعلي المادة التي نحسها واقعاً موضوعياً انما يحق لهم ان يستخلصوا من هنا ان اية اختلاقات بشرية ايا كانت اغراضها تتخطى حدود الزمان والمكان **ليست فعلية** اما انتم ايها السادة الماخيون فانكم تنكرون كون «الفعلي» واقعاً موضوعياً تناضلون ضد المادية وتمررونه خفية من جديد حين ينبغي النضال ضد المثالية المنسجمة ، الجريئة حتى النهاية والمكشوفة !

واذا لم يكن في مفهوم الزمان والمكان **النسبي** شيء غير النسبية واذا لم يكن ثمة واقع موضوعي (=موجود بصورة مستقلة عن الانسان والبشرية على السواء) تعكسه هذه المفاهيم النسبية، فلماذا لا تملك البشرية، لماذا لا تملك اغلبية البشر الحق في مفهوم عن كائنات خارج الزمان والمكان؟ اذا كان يحق لماخ ان يفتش عن ذرات الكهرباء او عن الذرات على العموم **خارج** المكان الثلاثي المقاييس فلماذا لا يحق لاغلبية البشر ان تفتش عن ذرات او اسس الاخلاق **خارج** المكان الثلاثي المقاييس؟

كتب ماخ في المرجع نفسه «لم تظهر بعد قابلة بوسعها ان تساعد على الوضع بواسطة مقياس رابع»

حجة ممتازة ولكن لأجل اولئك الذين يرون في معيار الواقع العملي تأكيداً للحقيقة **الموضوعية** لواقعية عالمنا المحسوس **الموضوعية** واذا كانت احساساتنا تعطينا صورة صحيحة موضوعياً عن العالم الخارجي الموجود بصورة مستقلة عنا فان هذه الحجة المستندة الى الاستشهاد بالقابلة الى الاستشهاد بالواقع العملي البشري كله تكون صالحة ولكن الماخية كلها بوصفها اتجاهاً فلسفياً لا تنفع البتة في هذه الحال

ويواصل ماخ مستشهداً بمؤلفه الصادر عام ١٨٧٢ «اني آمل بان احداً لن يدافع عن شيطنة ما (die Kosten einer Spukgeschichte bestreiten) بواسطة ما قلته وكتبته في هذه المسألة»

لا يمكن الأمل في ان نابليون لم يمت في ٥ ايار (مايو) ١٨٢١ لا يمكن الأمل في ان الماخية لن تؤدي خدمة « للشيطنة» اذا كانت قد خدمت ولا تزال تخدم الكمونيين

وليس الكمونيين وحدهم كما سنرى فيما بعد فان المثالية الفلسفية ليست سوى شيطنة مستورة ، مجمَّلة . ولكن انظروا

الى الممثلين الفرنسيين والانجليز للمذهب النقدي التجريبي وهم اقل مغالاة في التزويق من ممثلي هذا التيار الفلسفي الالمان فان بوانكاره يقول ان مفهومـي المكان والزمان نسبيان وانه بالتالي (هذا فعلاً «بالتالي» بالنسبة للاماديين) «ليست الطبيعة هي التي تعطينـا (او تفرض – impose) اياهمـا» (هذين المفهومين) «بل نحن الذين نعطي الطبيعة اياهما لأننا نجدهما ملائمين» (.l. c، ص ٦) أفـلا يبرر هذا اعجـاب الكانطيين الالمان ؟ أفلا يؤكد هذا بيانات انجلس القائلة انه يجب على المذاهب الفلسفية المنسجمة ان تعتبر ان الاولي هو إما الطبيعة وإما تفكير الانسان ؟

ان آراء الماخي الانجليزي كارل بيرسون واضحة تماماً فهو يقول «لا يسعنا ان نؤكد ان للمكان والزمان وجوداً فعلياً فهما ليسا موجودين في الاشياء ، بل موجودان في اسلوبنا (our mode) لادراك الاشياء» (.l.c، ص ١٨٤) هذه مثاليـة صريحـة ومكشوفة «ان الزمان ، مثل المكان هو احد الاساليب (حرفياً الخطط ، plans) التي ترتـب (arranges) بها هذه الآلـة المصنفة العظيمة ، اي القدرة العرفانيـة البشرية ، مادتها» (المرجع نفسه) ويقول كارل بيرسون في الاستنتاج الاخير الذي عرضه كالمعتاد في موضوعات دقيقة وواضحة «المكان والزمان ليسا من وقائع عالـم الظواهـر (phenomenal world) بل اسلوبـان (modes) ندرك بهما الاشياء وليسا لامتناهيين ولا قابلين للقسمة الى ما لا نهاية له لأنهما بحكم جوهرهما (essentially) محدودان بمضمون مدركاتنـا» (ص ١٩١ استنتاجات من الفصل الخامس عن المكان والزمان)

ان عدو المادية النزيه والشريف بيرسون الذي – واكرر قولى – يعرب ماخ غير مرة عن اتفاقـه التام معه ، والذي يعلـن

صراحة اتفاقه مع ماخ لا يلفق لافتة خاصة لأجل فلسفته بل يسمّي بدون اقل مواربة اولئك المؤلفين الكلاسيكيين اللذين يأخذ منهما خطه الفلسفي وهما هيوم وكانط (ص ١٩٣)

واذا كان قد تواجد في روسيا اناس سذج صدقوا ان الماخية اعطت حلاً « جديداً» لمسألة المكان والزمان فان علماء الطبيعة ، من جهة والفلاسفة المثاليين من جهة اخرى قد حددوا في الادب الانجليزي دفعة واحدة وبوضوح تام ، موقفهم من الماخي كارل بيرسون اليكم مثلاً رأي البيولوجي لويد مورغان «ان العلوم الطبيعية مأخوذة بذاتها تعتبر عالم الظاهرات شيئاً خارجياً بالنسبة لعقل المراقب مستقلاً عنه » ، في حين ان البروفسور بيرسون يشغل «موقفاً مثالياً» * «ان للطبيعيات بوصفها علماً الاساس التام برأيي لاعتبار المكان والزمان مقولتين موضوعيتين خالصتين فمن حق البيولوجي برأيي ان يدرس توزع العضويات في المكان ، والجيولوجي - توزعها في الزمان ، دون ان يتوقفا ليشرحا للقارىء ان المقصود هو مجرد المدركات الحسية المدركات الحسية المتراكمة الاشكال المعروفة للمدركات قد يكون كل هذا جيداً ، ولكنه في غير محله في الفيزياء وفي البيولوجيا» (ص ٣٠٤) ان لويد مورغان هو ممثل تلك اللاعرفانية التي سمّاها انجلس «بالمادية الخجلة» ومهما كانت ميول مثل هذه الفلسفة «ساعية للتوفيق» تبين انه من المستحيل التوفيق بين آراء بيرسون والعلوم الطبيعية وعند بيرسون «العقل اولاً في المكان ، ثم المكان في العقل» ، - هكذا يقول ناقد آخر * *

* «Natural Science» (٤٧) ,vol. I, 1892, p. 300.

* * J. M. Bentley عن بيرسون في «The Philosophical Review» (٤٨) , vol. VI, 5, 1897, Septemb., p. 523 (ج م بنتلي عن بيرسون في «المجلة الفلسفية» ، المجلد ٦ ، ٥ ، ١٨٩٧ . ايلول (سبتمبر) ، ص ٥٢٣ . **الناشر** .)

فردّ رايل (R. J. Ryle) المدافع عن كارل بيرسون «لا سبيل الى الريب في ان مذهب المكان والزمان المرتبط باسم كانط هو مكسب ايجابي بالغ الشأن حققته النظرية المثالية عن المعرفة البشرية منذ زمن الاسقف بركلي ومن ابرز سمات مؤلف بيرسون «قواعد العلم» اننا نجد هنا للمرة الاولى على الارجح في مؤلف عالم انجليزي الاعتراف الكامل بصحة مذهب كانط الاساسية وكذلك عرضاً وجيزاً ولكن واضحاً له . .» *

وهكذا **لا يوجد وان ظل لشك** في انجلترا لا عند الماخيين انفسهم ولا عند اخصامهم من معسكر علماء الطبيعة ، ولا عند انصارهم من معسكر الاختصاصيين – الفلاسفة ، بصدد الطابع المثالي لمذهب ماخ في مسألة الزمان والمكان وهذا الطابع المثالي «لم يلاحظه» بعض الكتاب الروس فقط الراغبين في ان يكونوا ماركسيين

فان ف بازاروف مثلاً قد كتب في «دراسات» ص ٦٧ يقول «لقد شاخت الآن كثرة من نظرات انجلس المنفردة وبينها مثلاً تصوره عن المكان «الخالص» والزمان «الخالص»

وكيف لا ! ان نظرات المادي انجلس قد شاخت ولكن نظرات المثالي بيرسون والمثالي المخبص ماخ هي أحدث الآراء واطرف ما في الأمر هنا هو ان بازاروف نفسه حتى لا يخامره الشك في انه يمكن تصنيف المفاهيم عن المكان والزمان – والمقصود بالذات الاعتراف بواقعيتهما الموضوعية ام انكارها – في عداد «**النظرات المنفردة**» خلافاً «**لنقطة انطلاق العقيدة**» التي يرد ذكرها في الجملة التالية عند هذا الكاتب هاكم مثالاً ملموساً عن «الحساء الاختياري البائس» الذي تكلم عنه انجلس عندما تناول الحديث الفلسفة الالمانية في الثمانينيات من القرن الماضي لأن

---

* R. J. Ryle عن بيرسون في «Natural Science», Aug. 1892. p. 454.

معارضة «نقطة انطلاق» العقيدة المادية عند ماركس وانجلس «بنظرتهما المنفردة» الى واقعية الزمان والمكان الموضوعية انما هي سخافة صارخة كما لو انك تعارض «نقطة انطلاق» نظرية ماركس الاقتصادية «بنظرته المنفردة» الى القيمة الزائدة وان فصل مذهب انجلس بشأن واقعية الزمان والمكان الموضوعية عن مذهبه بشأن تحول «الاشياء في ذاتها» الى «اشياء من اجلنا» عن اعترافه بالحقيقة الموضوعية والمطلقة اي بالضبط بالواقع الموضوعي المعطى لنا في الاحساسات عن اعترافه بسببية الطبيعة وضرورتها وسنتها الموضوعية انما يعني تحويل فلسفة متكاملة الى «مخلوطة» ان بازاروف مثله مثل جميع الماخيين قد ضل السبيل حين خلط بين قابلية المفاهيم البشرية عن الزمان والمكان للتغير وطابعها النسبي الصرف وبين ثبات الواقع التالي وهو ان الانسان والطبيعة لا يوجدان الا في الزمان والمكان في حين ان الكائنات خارج الزمان والمكان التي اختلقتها الاوهام الدينية الصوفية ويدعمها توهم الجمهور الجاهل والمضام من البشر هي من وضع خيال مريض ومن شعوذات المثالية الفلسفية ونتاج رديء لنظام اجتماعي رديء يمكن ان تشيخ بل وتشيخ فعلاً كل يوم نظرية العلم عن بنية المادة عن التركيب الكيماوي للغذاء عن الذرة والالكترون ولكن لا يمكن ان تشيخ الحقيقة القائلة ان الانسان لا يستطيع ان يتغذى بالافكار ويلد الاولاد في ظل الحب الافلاطوني وحده اما الفلسفة التي تنكر واقعية الزمان والمكان الموضوعية فانها خرقاء ومتعفنة داخلياً وزائفة مثل انكار هذه الحقائق الاخيرة وان احتيالات المثاليين واللاعرفانيين هي كذلك عموماً واجمالاً منافقة مثل وعظ الفريسيين بالحب الافلاطوني

ولتبيان هذا الفرق بين نسبية مفاهيمنا عن الزمان والمكان

والتضاد **المطلق** ضمن حدود علم العرفان بين الخط المادي والخط المثالي في هذه المسألة اسوق استشهاداً موصوفاً آخر من «ناقد تجريبي» قديم جداً وخالص جداً ، هو بالضبط الهيومي شولتسه – اينيزيدم الذي كتب في عام ١٧٩٢ يقول

«اذا خلصنا من التصورات الى «الاشياء خارجاً عنّا» فان «المكان والزمان هما» في هذه الحال «شيء فعلي خارج عنّا وموجود فعلاً» لأنه لا يمكن تصور وجود الاجسام الا في مكان موجود (vorhandenen)،ولأنه لا يمكن تصور وجود المتغيرات الا في الزمان الموجود» (l. c. ، ص ١٠٠)

هكذا بالضبط ان شولتسه تابع هيوم اذ ينبذ قطعاً المادية واقل تنازل امامها يرسم في عام ١٧٩٢ علاقة مسألة المكان والزمان بمسألة الواقع الموضوعي خارجا عنّا تماماً كما يرسم المادي انجلس هذه العلاقة في عام ١٨٩٤ (المقدمة الاخيرة التي كتبها انجلس لمؤلفه «ضد دوهرينغ» مؤرخة في ٢٣ ايار – مايو – ١٨٩٤) ولكن هذا لا يعني ان تصوراتنا عن الزمان والمكان لم تتغير في غضون مائة سنة وانه لم يتم جمع مادة جديدة ضخمة عن **تطور** هذه التصورات (وان فوروشيلوف – تشيرنوف وفوروشيلوف – فالنتينوف سواء بسواء يشيران الى هذه المادة ويزعمان انها تدحض انجلس) بل يعني ان العلاقة بين المادية واللاعرفانية بوصفهما الخطين الفلسفيين الاساسيين لم يكن من الممكن ان تتغير مهما تقدم به اصحابنا الماخيون من نعوت «جديدة»

ثم ان بوغدانوف هو ايضاً لا يضيف اي شيء الى الفلسفة القديمة فلسفة المثالية واللاعرفانية غير نعوت «جديدة»
وعندما يردد محاكمات هيرينغ وماخ بصدد الفرق بين المكان الفيزيولوجي والمكان الهندسي او بين مكان المدرك الحسي والمكان

المطلق («الاحادية التجريبية» المجلد الاول ص ٢٦) فانه يردد كلياً خطأ دوهرينغ فان المسألة التالية كيف يدرك الانسان المكان بواسطة مختلف اعضاء الحواس وكيف تنشأ من هذه المدركات عن طريق التطور التاريخي المديد مفاهيم مجردة عن المكان شيء ومسألة ما اذا كان الواقع الموضوعي المستقل عن البشر يتطابق مع مدركات البشر هذه ومع مفاهيمهم هذه شيء آخر الا ان هذه المسألة الاخيرة مع انها المسألة الفلسفية الوحيدة «لم يلاحظها» بوغدانوف تحت كومة البحوث المفصلة المتعلقة بالمسألة الاولى ولهذا لم يستطع ان يعارض بشكل واضح تخبيص ماخ بمادية انجلس

ان الزمان ، مثله مثل المكان ، «هو شكل التنسيق الاجتماعي لتجربة مختلف الافراد» (المرجع نفسه ص ٣٤) و«موضوعيته»هما هي «مدلوليتهما العامة» (المرجع نفسه)

هذا زيف مطبق فان الدين الذي يعبّر عن التنسيق الاجتماعي لتجربة القسم الاكبر من البشر هو ايضاً ذو مدلولية عامة ولكن تعاليم الدين مثلاً ،عن ماضي الارض وعن خلق العالم لا يطابقها اي واقع موضوعي اما نظرية العلم القائلة ان الارض وجدت **قبل** كل حياة اجتماعية **قبل** البشر **قبل** المادة العضوية وجدت في سياق زمان **معين** في مكان **معين** بالنسبة الى سائر الكواكب اما هذه النظرية (مع انها نسبية في كل درجة من تطور العلم كما هي نسبية كل مرحلة من تطور الدين) **فيطابقها** الواقع الموضوعي وينجم عند بوغدانوف ان اشكالاً مختلفة للمكان والزمان تتكيف لتجربة الناس ولقدرتهم العرفانية اما في الواقع فالأمر على العكس تماماً فان «تجربت»نا ومعرفتنا تتكيفان اكثر فاكثر للمكان **الموضوعي** والزمان **الموضوعي** ، **عاكستين** اياهما بصورة أصح فأصح وأعمق فأعمق .

٦ ـ الحرية والضرورة

في الصفحتين ١٤٠-١٤١ من «دراسات» يورد لوناتشارسكي محاكمات انجلس في مؤلفه «ضد دوهرينغ» بصدد هذه المسألة ويوافق كلياً على الوصف «المذهل من حيث الوضوح والدقة» الذي اعطاه انجلس للمسألة في «الصفحة العجيبة» * من المؤلف المذكور

والعجائب هنا كثيرة فعلاً و«أعجب» ما في الامر ان الاهمية العرفانية لمحاكمات انجلس بصدد الحرية والضرورة «لم يلاحظها» لا لوناتشارسكي ولا الجمع الغفير من الماخيين الآخرين الراغبين في ان يكونوا ماركسيين لقد قرأوا حقاً وفعلاً واستنسخوا حقاً وفعلاً ولكنهم لم يفهموا شيئاً

يقول انجلس «ان هيغل هو اول من تفهم بشكل صحيح العلاقة بين الحرية والضرورة فالحرية بنظره هي معرفة الضرورة «ان الضرورة عمياء **ما دامت غير مفهومة**» فليس في الاستقلال الموهوم عن قوانين الطبيعة تتجسد الحرية بل في معرفة هذه القوانين وفي الامكانية المرتكزة على هذه المعرفة لاجبار قوانين الطبيعة بصورة منهاجية على ان تفعل فعلها من اجل اهداف معينة وهذا ينطبق سواء على قوانين الطبيعة الخارجية ام على القوانين التى توجه الوجود الجسدي والروحي للانسان نفسه وهذه فئتان من القوانين نستطيع ان نفصل احداهما عن الاخرى في تصورنا اكثر ما نستطيع وليس البتة في الواقع وبالتالي

---

* يقول لوناتشارسكي «... صفحة الاقتصاد الديني العجيبة اقول هذا ، مجازفاً باثارة ابتسامة القارئ غير المتدين» ان مغازلاتك مع الدين يا رفيق لوناتشارسكي مهما كانت نواياك طيبة ، لا تثير الابتسام ، بل تثير الاشمئزاز .

لا تعني حرية الارادة سوى القدرة على اتخاذ القرارات عن معرفة للامر وهكذا كلما كانت محاكمة الانسان بصدد مسألة ما **اوفر حرية** كلما تقرر مضمون هذه المحاكمة بقدر اوفر من **الضرورة** ان الحرية تتجسد في السيادة على انفسنا بالذات وعلى الطبيعة الخارجية هذه السيادة المرتكزة على معرفة ضرورات الطبيعة (Naturnotwendigkeiten) (ص ١١٢ – ١١٣ الطبعة الالمانية الخامسة) (٤٩)

لنر على اية مقدمات عرفانية ترتكز كل هذه المحاكمة

اولاً يعترف انجلس منذ بادىء بدء محاكماته بقوانين الطبيعة بقوانين الطبيعة الخارجية بضرورة الطبيعة ، – اي بكل ما يعلنه ماخ وافيناريوس وبتسولدت وشركاهم «ميتافيزياء» ولو ان لوناتشارسكي اراد ان يمعن الفكر في محاكمات انجلس «العجيبة» ، لما كان بوسعه ان لا يرى الفرق الاساسي بين النظرية المادية بشأن المعرفة وبين اللاعرفانية والمثالية اللتين تنكران السنة للطبيعة او تعلنان انها مجرد سنة «منطقية» وهكذا دواليك وهلمّ جراً

ثانياً ان انجلس لا يعمد الى تلفيق «تعريفات» للحرية والضرورة من نوع تلك التعريفات السكولاستية التي تشغل اكثر ما تشغل بال البروفسورات الرجعيين (من طراز افيناريوس) وتلامذتهم (من طراز بوغدانوف) فان انجلس يأخذ معرفة الانسان وارادته – من جهة وضرورة الطبيعة – من جهة اخرى وعوضاً عن اي تعريف يقول ببساطة ان ضرورة الطبيعة هي الاولي وان ارادة الانسان ووعيه هما الثانوي . وينبغي لهذين الاخيرين ، ينبغي لهما حتماً والزاماً ان يتكيفا للاولى ويعتبر انجلس هذا امراً بديهياً الى حد انه لا يرى من المجدي اطالة الكلام لشرح نظرته ان ماخيي روسيا وحدهم استطاعوا ان **يتشكوا** من التعريف العام

الذي اعطاه **انجلس** عن المادية (الطبيعـــة هي الاولي الوعي هو الثانوي تذكروا «حيرة» بوغدانوف في هذا الصدد !) وان يجدوا في الوقت نفسه **احد التطبيقات الملموسة** من قبل انجلس لهذا التعريف العام والاساسي «عجيباً» و«وصائباً للغاية»

ثالثاً لا يشك انجلس في وجود «الضرورة العمياء» وهو يعترف بوجــود الضرورة **غير المعروفة** من قبل الانسان وهذا ما يتبين بوضوح ما بعده وضوح من المقطع المذكور اعلاه ولكن من وجهة نظر الماخيين كيف يمكن للانسان ان **يعرف** عن وجود ما **لا يعرفه** ؟ ان يعرف عن وجود الضرورة غير المعروفة ؟ أوليس هذا يا ترى من «الصوفية» من «الميتافيزيـــاء» أوليس هذا اعترافاً «بالتمائم» و«الاصنام» أوليس هذا «الشيء في ذاته غير المعروف الكانطي» ؟ لو ان الماخيين امعنوا الفكر لما كان في وسعهم ان لا يروا **التشابه التام** بين محاكمات انجلس بصدد امكانية معرفة الطبيعة الموضوعية للاشياء وبصدد تحول «الشيء في ذاته» الى «شيء من اجلنا» ، من جهة ، وبين محاكماته بصدد الضرورة العمياء ، غير المعروفة من جهة اخرى ان تطور الوعي لدى كل فرد بشري بمفرده وتطور المعارف الجماعية لعموم البشر يبينان لنا لدى كل خطوة تحـــول «الشيء في ذاته» غير المعروف الى «شيء من اجلنا» معروف تحول الضرورة العمياء غير المعروفة ، «الضرورة في ذاتها» الى «ضرورة من اجلنا» معروفة وعلى الصعيد العرفاني ليس ثمة قطعاً اي فرق بين هذا التحول وذاك لأن وجهة النظر الاساسيـــة هنا وهناك واحدة – وهـــي بالذات وجهة النظر المادية ، الاعتراف بالواقعية الموضوعية للعالم الخارجي ولقوانين الطبيعة الخارجية علماً بانه من الممكن تماماً ان يعرف الانسان هذا العالم وهذه القوانين ولكن لن يكون بامكانه يوماً ان يعرفها **الى النهاية** . فنحن لا نعرف ضرورة الطبيعة

في ظاهرات الطقس ولذا نحن حتما عبيد الطقس ولكن رغم **عدم معرفة** هذه الضرورة **نعرف نحن** انها موجودة ومن اين هذه المعرفة ؟ من معرفتنا ان الاشياء موجودة خارج ادراكنا وبصورة مستقلة عنه اي بالضبط من تطور معارفنا الذي يبين ملايين المرات لكل انسان ان اللامعرفة تعقبها المعرفة عندما يؤثر الشيء في اعضاء حواسنا والعكس بالعكس فان المعرفة تتحول الى لامعرفة عندما تزول امكانية هذا التأثير

رابعاً يطبق انجلس بكل وضوح في المحاكمة المذكورة طريقة «القفزة الحيوية» في الفلسفة اي انه يقوم **بقفزة** من النظرية الى التطبيق وما من بروفسور من اولئك البروفسورات العلماء (والحمقى) في الفلسفة الذين يسير وراءهم اصحابنا الماخيون يسمح لنفسه ابداً بمثل هذه القفزات المعيبة بالنسبة لممثلي «العلم الخالص» فان نظرية المعرفة التي يجب فيها «طبخ» «التعريفات» قولاً بشكل ادهى هي بنظرهم شيء بينما التطبيق شيء آخر تماماً اما عند انجلس فان التطبيق البشري الحي كله يقتحم نظرية المعرفة بالذات مقدماً المعيار **الموضوعي** للحقيقة فما دمنا لا نعرف قانون الطبيعة فان هذا القانون الموجود والذي يفعل فعله في معزل عن ادراكنا خارج ادراكنا يجعلنا عبيداً «للضرورة العمياء» ومتى عرفنا هذا القانون الذي يفعل فعله (كما كرر ماركس آلاف المرات) **بصورة مستقلة** عن ارادتنا وادراكنا فاننا نصبح اسياد الطبيعة ان السيادة على الطبيعة هذه السيادة التي تتجلى في نشاط البشر العملي هي نتيجة لانعكاس ظاهرات الطبيعة وعملياتها انعكاساً صحيحاً موضوعياً في رأس الانسان هي دليل على ان هذا الانعكاس (في حدود ما يبينه لنا الواقع العملي) هو حقيقة موضوعية مطلقة خالدة

وعلام نحصل في النتيجة ؟ ان كل خطوة في محاكمة انجلس ،

وكل جملة وكل موضوعة تقريباً حقاً وفعلاً مبنية تماماً وبوجه الحصر على اساس علم العرفان للمادية الدياليكتيكية على مقدمات تصفع وجه الهراء الماخي كله بصدد الاجسام بوصفها مركبات احساساتنا بصدد «العناصر» بصدد «تطابق التصور الحسي مع الواقع الموجود خارجاً عنا» وخلافه وهكذا دواليك وهلم جراً ودون الارتباك اطلاقاً من جراء هذا يطرح الماخيون المادية جانباً ويكررون (à la * برمان) التفاهات البالية عن الدياليكتيك، ويقبلون في الوقت نفسه بحفاوة وترحاب **واحداً** من مجالات تطبيق المادية الدياليكتيكية وقد استقوا فلسفتهم من الحساء الاختياري البائس ولا يزالون يقدمون للقراء الحساء نفسه يأخذون قطعة صغيرة من اللاعرفانية وقليلاً من المثالية من عند ماخ ويجمعون كل هذا مع قطعة صغيرة من مادية ماركس الدياليكتيكية ويتمتمون ان هذا الخليط هو **تطوير** للماركسية وهم يظنون انه اذا كان ماخ وافيناريوس وبتسولدت وجهابذتهم الآخرون غير ملمين بتاتاً بحل هيغل وماركس للمسألة (مسألة الحرية والضرورة) فمرد ذلك الى مجرد الصدفة فان كل ما في الامر انهم لم يقرأوا صفحة ما معينة في كتيب ما معني وليس البتة ان هؤلاء «الجهابذة» كانوا ولا يزالون جهلاء مطبقين فيما يتعلق بتقدم الفلسفة **الفعلي** في القرن التاسع عشر كانوا ولا يزالون ظلاميين فلسفيين

اليكم محاكمة ظلامي من هذا الطراز، هو بروفسور في الفلسفة من البروفسورات العاديين للغاية في جامعة فيينا ارنست ماخ

«لا يمكن تقديم البرهان على صحة موقف الحتمية او اللاحتمية. ولا يمكن ان يبت في هذه المسألة غير علم ناجز او غير علم

---

* à la – على طريقة. **المعرب**.

اقيم الدليل على انه مستحيل والمقصود هنـا مقدمات نحملهـا (man heranbringt) الى دراسة الاشياء، حسبما ننسب الى النجاحات او الاخفاقات السابقة في البحوث وزناً ذاتيا (subjektives Gewicht) كبيـراً الى هذا الحـد او ذاك ولكـن كل مفكـر هو اثنـاء البحث حتمـي بالضرورة على الصعيد النظري» («المعرفة والضلال» الطبعة الالمانية الثانية ص ٢٨٢ – ٢٨٣)

أوليس من الظلامية ان تُفصَل النظرية الخالصـة باهتمام عن التطبيق ؟ ان تُحصر الحتمية في ميدان «البحث» بينمـا تخضع المسألة للتقييـم «الذاتي» في ميدان الاخلاق وفي ميدان النشاط الاجتماعي وفي جميـع الميادين الباقيـة عدا ميدان «البحث» ؟ يقول المتحذلق العالم – انا حتمي في مكتبي اما ان يهتم الفيلسوف بعقيدة متكاملة تشمل النظرية والتطبيق على السواء وتقوم على الحتمية فلا مجال حتى للكلام عن هذا ان ماخ ينطق بتفاهة لأن مسألة العلاقة بين الحرية والضرورة غير واضحة اطلاقاً بالنسبة له من الناحية النظرية

ان كل اكتشاف جديد يظهر نواقص معرفتنـا ويبين راسب التبعيات غير الملحوظ حتى الآن» (ص ٢٨٣) ممتاز هل ان هذا «الراسب» هو الشيء في ذاته» الذي تعكسه معرفتنا بصورة اعمق فأعمق ؟ لا شيء من هذا القبيل وهكذا ان من يدافع في حقل النظرية عن الحتمية المتطرفة لا بدّ له هو ايضاً ان يبقـى بلا مناص في حقل التطبيـق لاحتمياً» (ص ٢٨٣) وهكـذا تقاسمـوا حبيـاً * النظريـة –

---

* ماخ في «الميكانيك» : «ان آراء الناس الدينية تبقى **شيئاً خاصاً** صرفاً طالما لم يحاولوا ان يفرضوها على غيرهم من الناس او ان يطبقوها في مسائل تتعلق بميدان آخر» (ص ٤٣٤ . الترجمة الفرنسية) .

للبروفسورات ، التطبيق – للاهوتيين ! او في النظرية – الموضوعية (اي المادية «الخجلة») في التطبيق – «الطريقة الذاتية في السوسيولوجيا» (٥٠) اما ان هذه الفلسفة التافهة المبتذلة تحظى بعطف ايديولوجيي البرجوازية الصغيرة الروس الشعبيين ابتداء من ليسيفيتش الى تشيرنوف فلا غرابة في الامر واما ان الذين يرغبون في ان يكونوا ماركسيين قد تولعوا بهذا اللغو والهذر ساترين بحياء استنتاجات ماخ السخيفة بخاصة فان هذا مؤسف جداً

ولكن ماخ لا يكتفي في مسألة الارادة بالتخبيص واللاعرفانية المتذبذبة بل يمضي الى ابعد بكثير فنحن نقرأ في «الميكانيك» «ان احساسنا بالجوع لا يختلف من حيث الجوهر عن سعي حمض الكبريتيك الى الزنك وارادتنا لا تختلف كثيراً عن ضغط الحجر على مسنده» «وهكذا نصبح اقرب الى الطبيعة» (اي بموجب مثل هذه النظرة) «دون ان نحتاج الى تحليل الانسان الى كومة يستحيل فهمها من الذرات المبهمة او الى ان نجعل من العالم نظاماً من التركيبات الروحية» (ص ٤٣٤ الترجمة الفرنسية) اذن لا حاجة الى المادية («الذرات المبهمة» او الالكترونات اي الاعتراف بواقعية العالم المادي الموضوعية) لا حاجة الى مثالية تعتبر العالم «وجوداً آخر» للروح ولكن من المسلم به مثالية تعتبر العالم **ارادة** ! نحن لسنا اعلى من المادية وحسب بل اعلى ايضاً من مثالية هيغل «ما» ولكننا لا نعارض مغازلة المثالية بروح شوبنهاور ان اصحابنا الماخيين الذين يتظاهرون بانهم ابرياء مهانون لدن اي تذكير بقرابة ماخ من المثالية الفلسفية قد فضلوا هنا ايضاً ان يلزموا الصمت المطبق حول هذه النقطة الحساسة ولكنه من الصعب ان نجد في المطبوعات الفلسفية عرضاً لآراء ماخ لا ينوه بميله الى

Willensmetaphysik اي الى المثالية الارادية والى هذا اشار يو باومان * علماً بان الماخي غ كلينبيتر الذي يعترض عليه لم يدحض هذه النقطة بل اعلن ان ماخ هو بالطبع «اقرب الى كانط وبركلي مما الى التجريبية الميتافيزيائية» (اي الى المادية العفوية) «السائدة في العلوم الطبيعية» (المرجع نفسه المجلد ٦ ص ٨٧) والى هذا يشير ايضاً ا بيخر ملاحظاً ما يلي اذا كان ماخ يعترف في بعض الاماكن بالميتافيزياء الارادية ويتبرأ منها في اماكن اخرى فان هذا يشهد على اعتباطية تعابيره اما في الواقع فان قرابة ماخ من الميتافيزياء الارادية امر لا شك فيه ** وامتزاج هذه الميتافيزياء (اي المثالية) «بمذهب الظاهرية» (اي باللاعرفانية) يعترف به ايضاً لوكا *** والى الامر نفسه يشير فوندت **** اما ان ماخ نصير لمذهب الظاهرية و«ليس غريباً عن المثالية الارادية» فان هذا ورد ايضاً في الكتاب الدراسي الخاص بتاريخ الفلسفة الحديثة من تأليف ايبرفيغ - هينتسه *****

خلاصة القول ان اختيارية ماخ ونزوعه الى المثالية واضحان للجميع باستثناء الماخيين الروس على ما يبدو

---

* «Archiv für systematische Philosophie», 1898, II, Bd. 4, S. 63
(«ارشيف الفلسفة النظامية»، عام ١٨٩٨ II، المجلد ٤، ص ٦٣ **الناشر**)، مقالة عن نظرات ماخ الفلسفية

** Erich Becher. «The Philosophical Views of E. Mach» في «Philosophical Review», vol. XIV, 5, 1905, pp. 536, 546, 547, 548
(ايريخ بيخر «نظرات ا ماخ الفلسفية» في «المجلة الفلسفية»، المجلد ١٤، ٥، ١٩٠٥، ص ٥٣٦، ، ٥٤٦، ٥٤٧، ٥٤٨ **الناشر**)

*** E. Lucka. «Das Erkenntnisproblem und Machs «Analyse der Empfindungen» في «Kantstudien», Bd. VIII, 1903, S. 400.

**** «Systematische Philosophie», Lpz., 1907, S. 131.

***** «Grundriß der Geschichte der Philosophie», Bd. 4, 9. Auflage, Brl., 1903, S. 250 («عرض في تاريخ الفلسفة»، المحلد ٤، الطبعة التاسعة، برلين، عام ١٩٠٣، ص ٢٥٠. **الناشر**).

الفصل الرابع

المثاليون الفلسفيون بوصفهم انصار وورثة المذهب النقدي التجريبي

حتى الآن تناولنا المذهب النقدي التجريبي بمفرده اما الآن فيجب النظر اليه في تطوره التاريخي في ترابطه مع الاتجاهات الفلسفية الاخرى وهنا تتقدم الى المرتبة الاولى مسألة موقف ماخ وافيناريوس من كانط

١ ـ نقد الكانطية من اليسار ومن اليمين

دخل ماخ وافيناريوس الى حلبة الفلسفة في السبعينيات من القرن الماضي عندما كان نداء «الى الوراء نحو كانط (٥١) النداء الدارج في بيئة البروفسورات الالمان ولقد انطلق مؤسسا المذهب النقدي التجريبي من كانط على وجه الضبط في تطورهما الفلسفي كتب ماخ يقول «بجزيل الشكر يجب ان اعترف ان مثاليته (مثالية كانط) النقدية بالذات هي التي كانت نقطة الانطلاق لكل تفكيري النقّاد ولكنني لم استطع البقاء وفياً له فبعد فترة وجيزة جداً عدت من جديد الى نظرات بركلي» ثم «توصلت الى نظرات قريبة من نظرات هيوم وفي الوقت الحاضر ايضاً لا ازال اعتبر بركلي وهيوم مفكرين اكثر انسجاماً من كانط» . («تحليل الاحساسات» ، ص ٢٩٢) .

وهكذا اذن يعترف ماخ بكل وضوح انه بدأ من كانط وسار في خط بركلي وهيوم لنر الى افيناريوس

فقد لاحظ افيناريوس في مقدمة مؤلفه «مقدمات «لنقد التجربة الخالصة»» (عام ١٨٧٦) ان كلمات ««نقد التجربة الخالصة» تشير الى موقفه من مؤلف كانط «نقد العقل الخالص» ، «وبالطبع الى موقف التناحر» حيال كانط (ص IV طبعة عام ١٨٧٦) ففيم يتلخص تناحر افيناريوس هذا حيال كانط ؟ في ان كانط كما يعتقد افيناريوس «قد طهّر التجربة» بصورة غير كافية وعن «تطهير التجربة» هذا يتحدث افيناريوس في مؤلفه «المقدمات» (الفقرتان ٥٦ و٧٢ وكثير غيرهما) ومِمَّ «يطهر» افيناريوس مذهب كانط عن التجربة ؟ اولاً من القبلية فهو يقول في الفقرة ٥٦ «ان مسألة ما اذا كان يجب ان نستبعد من مضمون التجربة «مفاهيم العقل القبلية» بوصفها نافلة ونخلق بهذه الصورة وعلى الاغلب **تجربة خالصة** ، توضع هنا بقدر ما اعلم للمرة الاولى» ولقد سبق ورأينا ان افيناريوس قد «طهّر» الكانطية على هذا النحو من الاعتراف بالضرورة والسببية

ثانياً انه يطهر الكانطية من التسليم بالجوهر (الفقرة ٩٥) اي بالشيء في ذاته الذي هو كما يعتقد افيناريوس «غير معطى في مادة التجربة الفعلية بل يدخله التفكير فيها»

وسنرى الآن ان تعريف افيناريوس هذا لخطه الفلسفي يتطابق كلياً مع تعريف ماخ ولا يختلف عنه الا من حيث التفنن في التعبير ولكنه من الضروري الاشارة بادىء ذي بدء الى ان افيناريوس ينطق **بكذبة بيّنة** حين يزعم انه هو الذي طرح **للمرة الاولى** في عام ١٨٧٦ مسألة «تطهير التجربة» اي مسألة تطهير المذهب الكانطي من القبلية ومن التسليم بالشيء في ذاته اما في الواقع فان تطور الفلسفة الكلاسيكية الالمانية بعد كانط على الفور قد انشأ

نقد الكانطية **في ذلك الاتجاه بالذات** الذي شنّه فيه افيناريوس وهذا الاتجاه يمثله في الفلسفة الكلاسيكية الالمانية شولتسه ـ اينيزيدم نصير لاعرفانية هيوم واي .غ .فيختـه نصير البركلية اي المثالية الذاتية ففي عام ١٧٩٢ انتقد شولتسه ـ اينيزيدم كانط لتسليمه بالقبلية **على وجه الضبط** (l. c. ، ص ٥٦ و ١٤١ وكثير غيرهما) والشيء في ذاته قال شولتسه – نحن الريبيين او انصار هيوم نرفض الشيء في ذاته لأنه يتخطى «حدود كل تجربة» (ص ٥٧) نحن نرفض **المعرفة الموضوعية** (ص ٢٥) نحن ننكر ان يكون الزمان والمكان موجودين فعلاً خارجاً عنّا (ص ١٠٠) نحن نرفض وجود الضرورة (ص ١١٢) والسببية ، والقوة والخ (١١٣) في التجربة فلا يمكن ان ننسب اليها «الواقعية خارج تصوراتنا» (ص ١١٤) ان كانط يحاول ان يثبت القبلية «بطريقة عقائدية جامدة» قائلاً انه ما دمنا لا نستطيع ان نفكر بنحو آخر فان هذا يعني انه يوجد قانون قبلي للتفكير ويرد شولتسه على كانط قائلاً «هذه الحجة استعملوها من زمان في الفلسفة للبرهنة على الطبيعة الموضوعية لما هو موجود خارج تصوراتنا» (ص ١٤١) وبالمحاكمة على هذا النحو تمكن نسبة السببية الى الاشياء في ذاتها (ص ١٤٢) «ان التجربة لا تبين لنا ابداً (wir erfahren niemals) ان تأثير الاشياء الموضوعية فينا يولد تصورات» ، ولم يبرهن كانط البتة «ان هذا الشيء الموجود خارج عقلنا انما كان يجب الاعتراف به على انه الشيء في ذاته الذي يختلف عن احساسنا (Gemüt) يمكن تصور الاحساس بوصفه الاساس **الوحيد** لكل معرفتنا» (ص ٢٦٥) ان النقد الكانطي للعقل الخالص «يضع في اساس محاكماته المقدمة القائلة ان كل معرفة تبدأ من تأثير الاشياء الموضوعية في اعضاء حواسنا (Gemüt) ، ثم يجادل هذا النقد نفسه في صحة وواقعية هذه المقدمة»

(ص ٢٦٦) ان كانط لم يدحض المثالي بركلي في شيء (ص ٢٦٧ - ٢٧٢)

ومن هنا يتبيّن ان الهيومي شولتسه يرفض مذهب كانط عن الشيء في ذاته بوصفه تنازلاً لامبدئياً للمادية اي للزعم «العقائدي الجامد» بان الواقع الموضوعي معطى لنا في الاحساس، اي، بتعبير آخر، ان تصوراتنا يولّدها تأثير الاشياء الموضوعية (المستقلة عن ادراكنا) في اعضاء حواسنا ان اللاعرفاني شولتسه يلوم اللاعرفاني كانط على ان التسليم بالشيء في ذاته يناقض اللاعرفانية ويقود الى المادية كذلك - ولكن بمزيد من الحزم - ينتقد المثالي الذاتي فيخته كانط قائلاً ان تسليم كانط بالشيء في ذاته المستقل عن **أنا**نا هو «**الواقعية**» (Werke, I, S. 483) وان كانط يفرّق «بصورة غير واضحة» بين «الواقعية» و«المثالية» ويرى فيخته ما يلازم كانط والكانطيين من عدم انسجام صارخ في كونهم يسلمون بالشيء في ذاته بوصفه «اساس الواقعية الموضوعية» (ص ٤٨٠) ويدخلون بالتالي في تناقض مع المثالية النقدية وقد صاح فيخته مخاطباً مفسّري كانط الواقعيين «عندكم الارض على الحوت والحوت على الارض ان شيئكم في ذاته الذي هو فكرة فقط يؤثر في **أنا**نا (ص ٤٨٣)

وهكذا ضل افيناريوس ضلالاً شديداً حين توهّم انه يقوم «للمرة الاولى» «بتطهير التجربة» عند كانط من القبلية ومن الشيء في ذاته، وحين توهّم انه يخلق بذلك اتجاهاً «جديداً» في الفلسفة اما في الواقع فانه واصل خطاً **قديماً** هو خط هيوم وبركلي وشولتسه-اينيزيدم واي .غ .فيخته لقد توهم افيناريوس انه «يطهر التجربة» على العموم اما في الواقع فانه لم يفعل غير ان **طهر اللاعرفانية من الكانطية** وهو اذ ناضل لم يناضل ضد لاعرفانية كانط (اللاعرفانية هي انكار للواقع الموضوعي، المعطى

لنا في الاحساس) ، بل ناضل **في سبيل لاعرفانية اكثر طهارة** ، **في** سبيل ازالة تسليم كانط المناقض للاعرفانية والزاعم انه يوجد شيء في ذاته حتى وان كان مستحيلاً على المعرفة ووهمياً وغيبياً وانه توجد ضرورة وسببية حتى وان كانت قبلية معطاة في التفكير وليس في الواقع الموضوعي لقد ناضل ضد كانط لا **من اليسار** كما ناضل ضد كانط الماديون بل **من اليمين** كما ناضل ضد كانط الريبيون والمثاليون وقد توهم انه سار الى الامام ، ولكنه سار بالفعل الى الوراء ، نحو ذلك البرنامج لنقد كانط الذي اعرب عنه كونو فيشر بدقة وصواب في معرض كلامه عن شولتسه ـ اينيزيدم بالكلمات التالية «ان نقد العقل الخالص باستثناء العقل الخالص» (اي القبلية) «هو الريبية ان نقد العقل الخالص باستثناء الشيء في ذاته هو مثالية بركلية» («تاريخ الفلسفة الجديدة» ، الطبعة الالمانية ، عام ١٨٦٩ المجلد الخامس ، ص ١١٥)

هنا اقتربنا من واقعة من اطرف وقائع كل «صليبيتنا الماخية» ، كل حملة الماخيين في روسيا ضد ماركس وانجلس ان الاكتشاف الحديث الذي حققه بوغدانوف وبازاروف ويوشكيفيتش وفالنتينوف والذي يطبلون ويزمرون له في كل ناد وواد يتلخص في كون بليخانوف يقوم «بمحاولة منحوسة للتوفيق بين انجلس وكانط بواسطة الشيء في ذاته المحور نوعاً الممكنة معرفته قليلاً جداً» («دراسات» ص ٦٧ وكثير غيرها) ان اكتشاف اصحابنا الماخيين هذا يكشف امامنا هاوية لا قعر لها حقاً وفعلاً من التشوش الرهيب من عدم الفهم الفظيع منتهى الفظاعة لكانط ولكل مجرى تطور الفلسفة الكلاسيكية الالمانية

ان السمة الاساسية التى تختص بها فلسفة كانط هي التوفيق بين المادية والمثالية ، والمساومة بين هذه وتلك ، الجمع في نظام

واحد بين اتجاهات فلسفية مختلفة متضادة فعندما يسلم كانط بان تصوراتنا يطابقها شيء ما خارج عنّا شيء مـا في ذاتـه فان كانط هو مادي وعندما يعلن كانط ان هذا الشيء في ذاته مستحيل على المعرفة متعال غيبي فانه يبرز هنا كمثالي وبما ان كانط يعترف بان التجربة الاحساسات هي المصدر الوحيد لمعارفنا فانه يوجه فلسفته في خط المذهب الحسي وعبر المذهب الحسي وبشروط معينة في خط الماديـــة وبما ان كانط يعترف بقبلية المكان والزمان والسببية والخ ، فانه يوجه فلسفته صوب المثالية وبسبب هذا التذبذب ناضـــل الماديون المنسجمون والمثاليون المنسجمون على السواء (وكذلـــك اللاعرفانيون «الخالصون» الهيوميون) ضد كانط بلا رحمـــة ولا هوادة فان الماديين قد رأوا خطيئة كانط في مثاليته ودحضوا سمات نظامه المثالية واكدوا على امكان معرفة الشيء في ذاته وعلى كونـــه غير غيبى وعلى عدم وجود اي فرق مبدئي بينـــه وبين الظاهرة وضرورة استخلاص السببية وخلافها لا من قوانين الفكر القبليـــة بـل من الواقع الموضوعي اما اللاعرفانيون والمثاليون فقـد رأوا خطيئة كانط في تسليمـــه بالشيء في ذاتـــه بوصفـه تنازلاً في صالـح الماديـة او «الواقعيـة» او «الواقعيـــة الساذجة» علماً بان اللاعرفانيين نبذوا القبليـــة ايضاً علاوة على الشيء في ذاته بينما طالب المثاليون بان يُستَخرَج بصورة منسجمة من الفكر الخالص لا قبلية اشكال التأمل فحسب، بل ايضاً العالم كله على العموم (ماغطين تفكير الانسان حتى **الأنا** المجردة او حتى «الفكرة المطلقة» او حتى **الارادة** الشاملة والخ وهكذا دواليك) وها هم اصحابنا الماخيون الذين «لم يلحظوا» انهم اتخذوا لانفسهم معلمين اناساً كانوا ينتقدون كانط من وجهة نظر الريبية والمثالية ، قد اخذوا يمزقون البستهم ويرشون الرماد

على رؤوسهم عندما رأوا اناساً فظيعين ينتقدون كانط **من وجهة نظر مضادة كلياً** ويرفضون في نظام كانط اصغر عناصر اللاعرفانية (الريبية) والمثالية، ويبرهنون ان الشيء في ذاته واقعي موضوعياً، ومن الممكن تماماً معرفته وانه غير غيبي ولا يختلف البتة مبدئياً عن الظاهرة وانه يتحول الى ظاهرة لدى كل خطوة من تطور الوعي الفردي للانسان ومن تطور الوعي الجماعي للبشرية وصاحوا النجدة هذا خلط غير شرعي بين المادية والكانطية

حين اقرأ تأكيدات اصحابنا الماخيين بانهم ينتقدون كانط بصورة اشد انسجاماً وحزماً بكثير من اي ماديين شائخين يخيل الي دائماً بان بوريشكيفيتش جاء الى رفقتنا واخذ يصيح لقد انتقدت الكاديت (٥٢) بانسجام وحزم اشد بكثير مما انتقدتموهم انتم ايها السادة الماركسيون وغني عن البيان ايها السيد بوريشكيفيتش ان الناس المنسجمين في السياسة يستطيعون ان ينتقدوا وسوف ينتقدون دائماً الكاديت من وجهات نظر متضادة تماماً ولكنه لا يجوز مع ذلك ان تنسى انك انتقدت الكاديت لأنهم ديموقراطيون **اكثر من اللزوم** بينما نحن انتقدناهم لانهم ديموقراطيون **اقل من اللزوم** وان الماخيين ينتقدون كانط لأنه مادي اكثر من اللزوم بينما نحن ننتقده لأنه مادي اقل من اللزوم ان الماخيين ينتقدون كانط من اليمين ونحن من اليسار

ان الهيومي شولتسه والمثالي الذاتي فيخته هما في تاريخ الفلسفة الكلاسيكية الالمانية نموذجان عن النوع الاول من النقد. فهما يحاولان كما سبق ورأينا ان يستأصلا من الكانطية عناصرها «الواقعية» وكما انتقد شولتسه وفيخته كانط نفسه كذلك انتقد الهيوميون من انصار مذهب النقد التجريبي، والمثاليون الذاتيون من انصار مذهب الكمونية الكانطيين الجدد الالمان من النصف الثاني من القرن التاسع عشر. ثم ان الخط نفسه، خط هيوم وبركلي،

برز في حلة كلامية مجدّدة نوعاً فقد لام ماخ وافيناريوس كانط لا على انه ينظر الى الشيء في ذاته نظرة واقعية ومادية اقل من اللزوم، بل على انه **يُسَلِّم** بوجودة لا على انه يرفض ان يستخلص سببية وضرورة الطبيعة من الواقع الموضوعي بل على انه يسلم بوجه عام بالسببية والضرورة اياً كانت (عدا السببية والضرورة «المنطقيتين» الخالصتين) كان انصار مذهب الكمونية يجارون انصار مذهب النقد التجريبي منتقدين كانط من وجهة النظر الهيومية والبركلية ايضاً مثلاً، ان ليكلر قد لام كانط في عام ١٨٧٩، في نفس مؤلفه الذي مدح فيه ماخ بوصفه فيلسوفاً ممتازاً على «عدم انسجامه وعلى ميله (Connivenz) نحو الواقعية» اللذين تجليا في مفهوم «**الشيء في ذاته**» الذي هو «الرسب (Residuum) الاسمي عن الواقعية المبتذلة» («Der Real. der mod. Nat. etc.», S. 9*) ان ليكلر يسمي المادية بالواقعية المبتذلة «من باب التشديد» وقد كتب ليكلر يقول «برأينا انه تجب ازالة جميع تلك الاجزاء المكوّنة من نظرية الكانطية التي تميل الى realismus vulgaris بوصفها لامبدئية ونتاجاً هجيناً (zwitterhaft) من وجهة نظر المثالية» (ص ٤١) ان «ظاهرات التناقض وعدم الانسجام» في تعاليم كانط تنبع «من خلط (Verquikkung) الانتقادية المثالية ببقايا غير مذللة من العقائدية الواقعية» (ص ١٧٠) ان ليكلر يعني بالعقائدية الواقعية المادية

وقد لام نصير آخر لمذهب الكمونية، هو يوهانس رمكه كانط على انه **يفصل نفسه بطريقة واقعية** عن بركلي بواسطة الشيء في ذاته

* «Der Realismus der modernen Naturwissenschaft im Lichte der von Berkeley und Kant angebahnten Erkenntniskritik», S. 9 – («واقعية العلوم الطبيعية المعاصرة في ضوء نقد المعرفة الذي اعطاه بركلي وكانط»، ص ٩). **الناشر**.

(Johannes Rehmke. «Die Welt als Wahrnehmung und Begriff», Brl., 1880, S. 9*) «ان نشاط كانط الفلسفي قد اتسم من حيث الجوهر بطابع جدلي فقد وجّه فلسفته بواسطة الشيء في ذاته ضد العقلانية الالمانية» (اي ضد الايمانية القديمة من القرن الثامن عشر) «وبواسطة التأمل الخالص ضد التجريبية الانجليزية» (ص ٢٥) «وقد اشبه الشيء في ذاته الذي يقول به كانط بفخ متحرك منصوب فوق حفرة يبدو هذا الشيء بريئاً ولا خطر منه ولكن ما ان تطأه حتى تسقط فجأة في هوة **العالم في ذاته**» (ص ٢٧) فاليكم لماذا لا يحظى كانط بحب انصار ماخ وافيناريوس، انصار مذهب الكمونية لأنه يقترب في شيء ما من «هوة» المادية

واليكم الآن نماذج عن نقد كانط من اليسار. فان فورباخ يلوم كانط على **مثاليته** لا على «واقعيته» ناعتاً نظامه «بالمثالية على اساس التجريبية» (Werke, II, 296)

واليكم محاكمة لفورباخ بشأن كانط ذات اهمية خاصة «يقول كانط «اذا اعتبرنا مواضيع احساساتنا ظواهر بسيطة، – وهكذا يجب اعتبارها، – فاننا نعترف بذلك بان الشيء في ذاته يقوم في اساس الظواهر رغم اننا لا نعرف كيفية بنيانه بحد ذاته بل نعرف فقط ظواهره اي ذلك الاسلوب الذي يؤثر (affiziert) به هذا المجهول في حواسنا ومن هنا ينجم ان عقلنا لكونه يدرك وجود الظواهر يعترف كذلك بوجود الشيء في ذاته؛ وعليه، نستطيع ان نقول ان تصور جواهر تقوم في اساس الظواهر اي جواهر ليست سوى جواهر تصورية، ليس مسموحاً به وحسب، بل ضروري ايضاً»». وبما ان فورباخ قد اختار من كانط مقطعاً يعتبر

---

* يوهانس رمكه «العالم بوصفه مدركاً ومفهوماً» برلين ١٨٨٠، ص ٩. **الناشر**.

فيه الشيء في ذاته مجرد شيء تصوري ، جوهر تصوري ، وليس واقعاً ، فانه يوجه كل انتقاده الى هذا بالذات فهو يقول ومن هنا ينجم ان مواضيع الاحساسات مواضيع التجربة هي بالنسبة للعقل ظواهر فقط وليست الحقيقة «ان الجواهر التصورية لو ترون ليست مواضيع فعلية بالنسبة للعقل ان فلسفة كانط هي تناقض بين الذات والموضوع بين الجوهر والوجود بين التفكير والكينونة ان الجوهر هنا يخص العقل والوجود يخص الحواس ان الوجود بدون الجوهر» (اي وجود الظاهرات بدون الواقعية الموضوعية) «هو مجرد ظاهرة انه اشياء حسية والجوهر بدون الوجود انما هو جواهر تصورية **نومنات** * وهذه يمكن ويجب تصوّرها ولكنه ينقصها الوجود - بالنسبة لنا على الاقل - ، تنقصها الموضوعية وهي اشياء في ذاتها اشياء حقيقية ولكنها ليست اشياء واقعية فيا للتناقض فصل الحقيقة عن الواقع والواقع عن الحقيقة !» (Werke, II, S. 302-303) ان فورباخ يلوم كانط لا على انه يسلم بالاشياء في ذاتها بل على انه لا يسلم بفعليتها اي بواقعيتها الموضوعية على انه يعتبرها مجرد فكرة «جواهر تصورية» ، وليس «جواهر تملك وجوداً» ، اي واقعية ، موجودة **فعلاً** ان فورباخ يلوم كانط على تراجعه عن المادية

في ٢٦ آذار (مارس) ١٨٥٨ كتب فورباخ الى بولين يقول «ان فلسفة كانط هي تناقض فهي تؤدي بضرورة محتمة الى مثالية فيخته او الى المذهب الحسي» الاستنتاج الاول «يتعلق بالماضي» ، والثاني - «بالحاضر والمستقبل» (Grün, 1. c. , II, 49) وقد سبق ورأينا ان فورباخ يدافع عن المذهب الحسي الموضوعي اي

* بالفرنسية noumène بالانكليزية noumenon . **المعرب** .

** غرون . في المكان المذكور . **الناشر** .

عن المادية وان الانعطاف الجديد من كانط الى اللاعرفانيـــة والمثالية الى هيوم وبركلي هو بلا ريب ، **رجعي** حتى من وجهة نظر فورباخ وان تابعه المتحمس البريخت راو الذي اخذ عن فورباخ مزاياه ونواقصه على السواء – النواقص التي تغلب عليها ماركس وانجلس ، – قد انتقد كانط بروح معلمه كلياً «ان فلسفة كانط هي امفيبوليا (ذات معنيين) فهي مادية ومثالية في آن واحد وفي طبيعتها المزدوجة هذه يكمن المفتاح لجوهرهـا ان كانط بوصفه مادياً او تجريبياً لا يستطيـــع ان يتملص من الاعتراف بالوجود (Wesenheit) للاشياء الواقعة خارجاً عنا ولكن بوصفه مثالياً ، لم يكن بوسعه ان يتخلص من الرأي الباطل الزاعم ان الروح هي شيء يختلف تماماً عن الاشياء الحسية توجد اشياء فعلية وتوجد روح بشرية تدرك هذه الاشياء فكيف تقترب هذه الروح من اشياء تختلف عنها تماماً ؟ ان كانط يلجأ الى الحيلة التاليـة ان الروح تملك a priori معارف معينة يجب بفضلها على الاشياء ان تظهر لها كما تظهر لها ومن هنا ينجم ان كوننا نفهم الاشياء كما نفهمها هو من صنعنا لأن الروح العائشة فينا ليست سوى روح الهية ؛ وكما خلق الله العالم من العدم كذلك تخلق روح الانسان من الاشياء شيئاً ليست هذه الاشياء بحد ذاتهـــا هذا الشيء وهكذا يضمن كانط للاشياء الواقعية وجودها بوصفها «اشياء في ذاتها» ان الروح ضرورية لكانط لأن الخلود هو بالنسبة له مسلـّمة اخلاقية . يقول راو موجهاً كلامـــــه الى الكانطيين الجدد على العموم والى المشوش ا .لانغه الذي زوّر «تاريخ المادية» على الخصوص ان «الشيء في ذاته» ، ايها السادة ، هو ما يفصل مثالية كانط عن مثالية بركلي انه يشكل جسراً من المثالية الى المادية ، – ذلك هو نقدي للفلسفة الكانطية وليدحض هذا النقد كل من في مقدوره ان يدحضه ان التمييز بين المعرفـــة a priori و«الشيء في ذاته» نافل تماماً

بنظر المادي فهو لا يقطع في اي مكان الصلات الدائمة في الطبيعة ولا يعتبر المادة والروح شيئين مختلفين كلياً فيما بينهما بل مجرد جانبي الشيء الواحد نفسه ولهذا لا يحتاج الى اية شعوذات لأجل تقريب الروح من الاشياء» *

وبعد ان انجلس ، كما رأينا ، يلوم كانط على انه لاعرفاني ، وليس على انه يتراجع عن اللاعرفانية المنسجمة وفي عام ١٩٠٠ جادل لافارغ تلميذ انجلس ضد الكانطيين (وفي عدادهم كان آنذاك شارل رابوبورت) على النحو التالي

في اوائل القرن التاسع عشر عمدت برجوازيتنا بعد ان انجزت مهمة التدمير الثوري الى انكار فلسفتها الفولتيرية ومن جديد صارت الكاثوليكية دارجة على الموضة وزخرفها (peinturlurait) شاتوبريان بالاصباغ الرومانطيقية واستورد سيباستيان مرسيه مثالية كانط لكي يقضي على مادية الموسوعيين التي كان روبسبيير قد اعدم دعاتها على المقصلة

وفي اواخر القرن التاسع عشر الذي سيسمى في التاريخ بقرن البرجوازية ، يحاول المثقفون ان يسحقوا مادية ماركس وانجلس بواسطة فلسفة كانط وقد بدأت هذه الحركة الرجعية في المانيا – ونحن لا نقول هذا لاهانة اصحابنا الاشتراكيين – التكامليين الذين يودون لو ينسبوا الشرف كله الى مؤسس مدرستهم مالون اما في الواقع فان مالون نفسه قد خرج من مدرسة هوخبرغ وبرنشتين وسائر تلامذة دوهرينغ الذين اخذوا يصلحون الماركسية

---

* Albrecht Rau. «Ludwig Feuerbach's Philosophie, die Naturforschung und die philosophische Kritik der Gegenwart», Leipzig, 1882, S S. 87–89 (البريخت راو «فلسفة لودفيغ فورباخ والعلوم الطبيعية المعاصرة والنقد الفلسفي المعاصر» ، ليبزيغ ، عام ١٨٨٢ ، ص ٨٧–٨٩ . **الناشر** .)

في زوريخ» (يقصد لافارغ الحركة الفكريـــة المعروفة في الاشتراكية الالمانيـــة خلال النصف الثاني من السبعينيات في القرن الماضي (٥٣)) «يجب ان نتوقع ان يقدم لنا جوريس وفورنيير ومثقفونـا ايضاً كانط عندمـــا يتفهمون تعابيره ان رابوبورت يخطيء حين يؤكد انه «يوجد تطابق بين الفكرة والواقع» بنظر ماركس فنحن اولاً لا نستعمـــل ابداً مثـــل هذه التعابير والمصطلحات الميتافيزيائية ان الفكرة واقعية مثل الموضوع الذي هي انعكاسه في الدماغ ولكي اسلي (récréer) نوعاً الرفاق الذين يتأتي لهم الاطلاع على الفلسفة البرجوازية اعرض ماهية هذه القضيـة الشهيرة التي استحوذت ببالغ الشدة على العقول الروحانيـة

ان العامل الذي يأكل السجق والذي يتقاضى ٥ فرنكات في اليوم يعرف جيداً جداً ان رب عمله ينهبه وانه يأكل لحم الخنزيـــر وان رب العمل سارق وان السجق لذيذ الطعم ومغذ للجسم لا شيء من هذا القبيل ، – يقول السفسطائي البرجوازي ، سواء كان اسمـــه بيرون او هيوم او كانط ، – فان رأي العامل في هـــذا الصدد هو رأي خاص اي ذاتي ويحق لـــه بالقدر نفســـه ان يظن ان رب العمل محسن اليه وان السجق مصنوع من جلد مفروم لانه لا يستطيع ان يعرف **الشيء في ذاته**

ان المسألة مطروحة بصورة غير صحيحة ، وهنا بالذات تكمن صعوبتها فلكي يعرف المرء الموضوع يتعين عليه اولاً ان يتحقق مما اذا كانت حواسه لا تخدعه لقد مضى الكيماويون الى ابعد وتغلغلوا الى داخل الاجسام وحللوها وفككوها الى عناصرها ثم قاموا بالعملية المعاكسة اي بالتركيب وركبوا اجساما من عناصرها ومنذ ان يصبح بمقدور الانسان ان ينتـــج من هذه العناصر اشياء لاجل استهلاكه يغدو بوسعه – ، كما يقول انجلس ، – ان يعتبر انه يعرف **الاشياء في ذاتها** . ولو ان الـــه

المسيحيين كان موجوداً ولو انه خلق العالم لما فعل اكثر من ذلك» *

لقد سمحنا لانفسنا بايراد هذا المقتطف الطويل لكي نبيّن كيف فهم لافارغ انجلس ، وكيف انتقد كانط من اليسار ، لا على تلك الجوانب من الكانطية التي تتميز بها عن الهيومية بل على تلك الجوانب المشتركة بين كانط وهيوم لا على التسليم بالشيء في ذاته بل على النظرة المادية الناقصة اليه

واخيراً ينتقد ك كاوتسكي هو ايضاً في مؤلفه «الاخلاق» كانط وينتقده كذلك من وجهة نظر مضادة تماماً للهيومية والبركلية وهو يكتب ضد علم العرفان عند كانط قائلاً «في خواص قدرتي البصرية ، يكمن ما يتيح لي ان ارى الاخضر الاحمر الابيض اما ان الاخضر يختلف عن الاحمر فان هذا يشهد على امر ما قائم خارجاً عني على فرق فعلي بين الاشياء ان العلاقات والفوارق بين الاشياء نفسها التي تدلني عليها تصورات مختلفة في المكان والزمان ، هي علاقات وفوارق فعلية في العالم الخارجي وهي ليست مشروطة بطابع مقدرتي العرفانية . . في مثل هذه الحال» (اذا ما كان مذهب كانط بصدد مثالية الزمان والمكان صحيحاً) «لن يكون بوسعنا ان نعرف شيئاً عن العالم القائم خارجاً عنّا لن يكون بوسعنا حتى ان نعرف ان هذا العالم موجود» (ص ٣٣-٣٤ الترجمة الروسية)

وهكذا ، سارت **كل مدرسة** فورباخ وماركس وانجلس من كانط نحو اليسار نحو الانكار التام لكل مثالية ولكل لاعرفانية امـــا

---

* Paul Lafargue. «Le matérialisme de Marx et l'idéalism de Kant» في «Le Socialiste» (٥٤) بتاريخ ٢٥ شباط (فبراير) ١٩٠٠ (بول لافارغ «مادية ماركس ومثالية كانط» في جريدة «السوسياليست» . **الناشر**) .

اصحابنا الماخيون فقد ساروا وراء الاتجاه **الرجعي** في الفلسفة وراء ماخ وافيناريوس اللذين انتقدا كانط من وجهة النظر الهيومية والبركلية ويقيناً ان السير وراء اي كان من الرجعيين الفكريين هو حق مقدس لكل مواطن وعلى الاخص لكل مثقف ولكن اذا عمد اولئك الذين قطعوا تماماً كل صلة لهم **بأسس الماركسية** بالذات في الفلسفة وشرعوا فيما بعد يلفون ويدورون ويشوشون ويراوغون ويؤكدون انهم «هم ايضاً» ماركسيون في الفلسفة انهم موافقون «تقريباً» مع ماركس وانهم لم يفعلوا غير ان «أكملو»ه قليلاً جداً ، — فان هذا يمسي مشهدية غير مستطابة ابداً

٢ ـ بصدد سخر «الرمزي التجريبي» يوشكيفيتش من «الناقد التجريبي» تشيرنوف

كتب السيد ب يوشكيفيتش يقول «من المضحك ، بالطبع ان نرى كيف يريد السيد تشيرنوف ان يجعل من نصير كونت وسبنسر الوضعي اللاعرفاني ميخايلوفسكي سلفاً لماخ وافيناريوس» (l. c. ص ٧٣)

ان المضحك هنا انما هو قبل كل شيء الجهل المذهل الذي يتصف به السيد يوشكيفيتش وهو مثل فوروشيلوف واضرابه جميعهم يستر هذا الجهل بمجموعة من الكلمات والاسماء العلمية وجملته المذكورة اعلاه ترد في فقرة مخصصة لموقف الماخية من الماركسية الا ان السيد يوشكيفيتش الذى اخذ يتحدث عن هذا لا يعرف ان انصار خط هيوم وانصار خط كانط سواء بسواء هم بنظر انجلس (كما بنظر كل مادي) لاعرفانيون بالقدر نفسه ولهذا ، حين يعارض المرء الماخية باللاعرفانية على العموم بينما ماخ نفسه يعترف بانه من انصار هيوم ، فان هذا يعني انه امي كلياً على

الصعيد الفلسفي ان تعبير «الوضعية اللاعرفانية» هو ايضاً سخيف لأن انصار هيوم هم بالذات يقولون عن انفسهم انهم وضعيون وكان يتوجب على السيد غ يوشكيفيتش ، - وقد اتخذ بتسولدت معلماً له - ، ان يعرف ان بتسولدت ينسب المذهب النقدي التجريبي مباشرة الى الوضعية واخيراً ، من السخافة كذلك ذكر اسمي اوغست كونت وهربرت سبنسر لأن الماركسية لا تنبذ ما يميّز وضعياً عن وضعي آخر بل تنبذ ما يجمع بينهما ما يجعل من الفيلسوف وضعياً وليس مادياً

وكل هذه المجموعة من الكلمات انما احتاجها صاحبنا فوروشلوف لكي «يفلق رأس» القارىء ويَصِمّه بطنين الكلمات ويصرف انتباهه عن **جوهر القضية** الى السفاسف والتوافه والحال ان جوهر القضية يتلخص في الاختلاف الجذري بين المادية وبين كل تيار الوضعية الواسع الذي يوجد **في داخله** او كونت وه سبنسر وميخايلوفسكي وعدد من الكانطيين الجدد وماخ مع افيناريوس سواء بسواء وعن جوهر القضية هذا تحدث انجلس باكمل ما يكون من الوضوح والدقة في مؤلفه «لودفيغ فورباخ» عندما صنّف **جميع** الكانطيين والهيوميين في ذلك الزمن (اي في الثمانينيات من القرن الماضي) في معسكر الاختياريين الحقيرين المشتغلين بسفاسف الامور (Flohknacker حرفياً قارص البرغوث) وما الى ذلك (٥٥) اما من يمكن ومن يجب ان تطلق عليهم هذه الاوصاف فان اصحابنا فوروشيلوف واضرابه لم يرغبوا في التفكير بذلك وبما انهم عاجزون عن التفكير فاننا نسوق لهم مقارنة واضحة ان انجلس لم يذكر **اية** اسماء عندما تحدث في سنة ١٨٨٨ وفي سنة ١٨٩٢ عن الكانطيين والهيوميين بوجه عام (٥٦) والاستشهاد الوحيد عند انجلس بكتاب ما انما هو الاستشهاد بمؤلف شتاركه عن فورباخ ، الذي حلله انجلس .

يقول انجلس «يبذل شتاركه قصارى الجهد لكي يدافع عن فورباخ دون حملات ونظريات الاساتذة المحاضرين ممن يضجون في الوقت الحاضر في المانيا منتحلين اسم الفلاسفة وهذا بالطبع امر هام بالنسبة لاولئك الذين يهتمون بالذرية المنحطة للفلسفة الكلاسيكية الالمانية وقد كان هذا يبدو ضرورياً لشتاركه نفسه ولكننا نعفي القارىء منه» («Ludwig Feuerbach», S. 25 (٥٧))

لقد اراد انجلس ان «يعفي القارىء» اي ان يجنّب الاشتراكيين-الديموقراطيين امر التعرف المستطاب على الثرثارين المنحطين الذين يسمون انفسهم بالفلاسفة فمن هم ممثلو «الذرية المنحطة» هؤلاء ؟

نفتح كتاب شتاركه (C. N. Starke. «Ludwig Feuerbach», Stuttgart, 1885*) ونقرأ الاستشهادات الدائمة بانصار **هيوم وكانط** وعن هذين الخطين يفصل شتاركه فورباخ وان شتاركه يستشهد فضلاً عن ذلك باقوال **ا ريل وفندلباند ، وا لانغه** (ص ٣ ١٨-١٩ ١٢٧ وما يليها عند شتاركه)

نفتح كتاب ا افيناريوس «المفهوم الانساني عن العالم» الصادر في سنة ١٨٩١ ونقرأ في الصفحة ١٢٠ من الطبعة الالمانية الاولى «ان نتيجة تحليلنا النهائية تتطابق - وان لم يكن بصورة مطلقة (durchgehend) ، تبعاً لاختلاف وجهات النظر - مع ما خلص اليه باحثون آخرون ومنهم مثلاً **ا لآس ، ا . ماخ ، ا ريل ، ف . فوندت** قارنوا كذلك **شوبنهاور**»

على من كان يضحك صاحبنا فوروشيلوف - يوشكيفيتش ؟

ان افيناريوس لا يشك البتة في قرابته المبدئية - لا في مسألة جزئية بل في مسألة «النتيجة النهائية» للمذهب النقدي التجريبي» -

* ك ن شتاركه . «لودفيغ فورباخ» ، شتوتغارت ، عام ١٨٨٥ . **الناشر** .

من **الكانطيين** ريل ولآس ، من **المثالي** فوندت اما ماخ ، فانه يذكره بين كانطيين اثنين وبالفعل ، أليست هذه يا ترى ، زملة واحدة ، اذا عمل ريل ولآس على تكييف كانط ليشبه هيوم واذا عمل ماخ وافيناريوس على تكييف هيوم ليشبه بركلي ؟

وهل من داع للاستغراب اذا كان انجلس اراد ان «يعفي» العمال الالمان ان يجنبهم امر الاطلاع عن كثب على كل هذه الزملة من الاساتذة المحاضرين «قارصي البرغوث» ؟

لقد عرف انجلس كيف يشفق على العمال الالمان ولكن اضراب فوروشيلوف لا يشفقون على القارىء الروسي

وتجب الاشارة الى ان الجمع الاختياري من حيث جوهر الامر بين كانط وهيوم او بين هيوم وبركلي يمكن ان يتم بنسب مختلفة اذا جاز القول ، مع التأكيد من باب التفضيل تارة على هذا العنصر من الخليط وطوراً على ذاك وقد سبق ورأينا ، مثلاً ، ان ماخياً واحداً فقط ، هو غ كلينبيتر ، يعتبر نفسه وماخ على المكشوف سوليبسيين (اي بركليين منسجمين) اما الهيومية في مفاهيم ماخ وافيناريوس فيؤكدها على العكس كثيرون من تلامذتهما وانصارهما بتسولدت ، فيللي ، بيرسون ، الناقد التجريبي الروسي ليسيفيتش ، الفرنسي هنري ديلاكروا * وغيرهم لنضرب مثالاً واحداً عن عالم كبير بخاصة جمع هو ايضاً في الفلسفة بين هيوم وبركلي ، ولكنه ابرز على الاخص العناصر المادية في هذا الخليط انه عالم الطبيعيات

---

* «Bibliothèque du congrès international de philosophie», vol. IV. Henri Delacroix. «David Hume et la philosophie critique» («مكتبة مؤتمر الفلسفة العالمي» ، المجلد ٤ هنري ديلاكروا «دافيد هيوم والفلسفة الانتقادية» **الناشر**) في عداد انصار هيوم يصنف المؤلف افيناريوس والكمونيين في المانيا ، ش . رينوفيه ومدرسته («الانتقاديون الجدد») في فرنسا .

الانجليزي الشهير ت هكسلي الذي روّج تعبير «اللاعرفاني» والذي عناه انجلس بلا ريب قبل كل شيء واكثر من كل شيء عندما تحدث عن اللاعرفانية الانجليزية . وقد نعت انجلس في عام ١٨٩٢ هذا الصنف من اللاعرفانيين «بالماديين الخجولين» (٥٨) وان الروحاني الانجليزي جيمس ورد الذي حمل في كتابه «الطبيعية واللاعرفانية» على «زعيم اللاعرفانية العلمي» بصورة رئيسية (المجلد ٢ ، ص ٢٢٩) هكسلي يؤكد تقديـــر انجلس حين يقول «ان ميل هكسلي الى الاعتراف بالاسبقية للجانب الفيزيائي» («لمجموعـــة العناصر» حســب ماخ) «يتجلى احياناً كثيرة بدرجة من القوة بحيث انه يكاد يكون من المستحيل هنا على العموم التحدث عن الموازاة ورغم ان هكسلي يرفض بخارق الشدة نعت المادي باعتباره خزياً وعاراً على لاعرفانيتـــه الطاهرة الذيل لا اعرف كاتباً آخر يستحق اكثر منه هذا النعت» (المجلد ٢ ص ٣٠-٣١) ويسوق جيمس ورد لتأكيـــد صحة رأيه بيانات لهكسلي من النوع التالي «ان كل من يلم بتاريخ العلم يوافق على ان تقدمه كان يعني في كل الازمـــان ويعني الآن اكثر مما في اي وقت مضى توسع ميدان ما نسميـــه بالمادة والسببية ، ويعني وفقاً لذلك ، زوال ما نسميـــه بالروح والتلقائية من جميع ميادين الفكـــر البشري زوالاً تدريجياً» او «سواء عبّرنا عن ظواهر المادة بتعابير الروح ام عبرنـــا عن ظواهر الروح بتعابير المادة فان هذا ليس مهماً بحد ذاته اذ ان هذه الصياغة وتلك هي حقيقية بمعنى نسبي معين» («مركبات عناصر ثابتة نسبياً» حسب ماخ) «ولكن التعابير والمصطلحات المادية افضل من وجهة نظر تقدم العلم في جميع النواحي لأنها تربط الفكر بظواهر العالـــم الاخرى في حين ان التعابيـــر والمصطلحات المعاكسة او الروحانية فارغة تماماً (utterly barren) ولا تؤدي الى شيء ، اللهـم الى التشوش والغموض . . . ويكاد لا

يكون ثمة اي شك في انه بقدر ما يتقدم العلم بقدر ما يجرى عرض جميع ظاهرات الطبيعة بمزيد من الاتساع ومزيد من الانسجام بواسطة الصيغ او الرموز المادية» (المجلد الاول ص ١٧ – ١٩)

هكذا حاكم «المادي الخجول» هكسلي الذي لم يشأ في اي حال من الاحوال ان يعترف بالمادية بوصفها «الميتافيزياء» التي تمضي بصورة غير مشروعة الى ابعد من «مجموعات الاحساسات» وقد كتب هكسلي نفسه يقول «لو اضطررت الى الاختيار بين المادية المطلقة والمثالية المطلقة لاضطررت الى تبني الاخيرة «الشيء الوحيد الذي نعرفه بصورة اكيدة انما هو وجود العالم الروحي» (J. Ward المجلد ٢ ص ٢١٦ المرجع نفسه)

ان فلسفة هكسلي هي خليط من الهيومية والبركلية مثلها مثل فلسفة ماخ ولكن الحملات البركلية عند هكسلي هي من باب الصدفة في حين ان لاعرفانيته هي بمثابة ورقة تين لستر المادية اما عند ماخ فان «صبغة» الخليط مغايرة واذا الروحاني ورد الذي يحارب هكسلي بضراوة يربت بلطف على كتف افيناريوس وماخ

٣ ـ الكمونيون باعتبارهم انصار ماخ وافيناريوس

في معرض الكلام عن المذهب النقدي التجريبي لم يكن بمقدورنا ان نتجنب الاستشهاد مراراً وتكراراً بفلاسفة ما يسمى المدرسة الكمونية ، التي يعتبر شوبّه وليكلر ورمكه وشوبرت-زولدرن ممثليها الرئيسيين وينبغي ان ننظر الآن في موقف المذهب النقدي التجريبي من الكمونيين وفي جوهر الفلسفة التي يروجها هؤلاء الاخيرون .

في عام ١٩٠٢ كتب ماخ يقول في الوقت الحاضر ارى سواء طائفة كاملة من الفلاسفة ، - من الوضعيين والنقاد التجريبيين وانصار الفلسفة الكمونية ، - ام عدداً قليلاً جداً من علماء الطبيعة قد شرعوا دون ان يعرفوا شيئاً بعضهم عن بعض يشقون طرقاً جديدة تتلاقى رغم جميع الفوارق الفردية في نقطة واحدة تقريباً» («تحليل الاحساسات» ص ٩) هنا اولاً تجب الاشارة الى اعتراف ماخ النادر الصدق بان **عدداً قليلاً جداً** من علماء الطبيعة هم من انصار فلسفة يزعم انها «جديدة» ولكنها بالفعل قديمة جداً هي الفلسفة الهيومية البركلية ثانياً انها لخارقة الاهمية نظرة ماخ الى هذه الفلسفة «الجديدة» بوصفها **تياراً واسعاً** يقف فيه الكمونيون من الند للند مع الوضعيين والنقاد التجريبيين ويكرر ماخ في مقدمة الترجمة الروسية لمؤلفه «تحليل الاحساسات» (عام ١٩٠٦) «وهكذا تتكشف حركة مشتركة واحدة» (ص ٤) ويقول ماخ في مكان آخر «انا قريب جداً من اتباع الفلسفة الكمونية انا لم اجد في هذا الكتاب (كتاب شوبّه «دراسة نظرية المعرفة والمنطق») شيئاً لا يمكنني ان اوافق عليه بكل طيبة خاطر مع قيامي - في اقصى الاحوال - بتعديلات تافهة» (ص ٤٦) ويرى ماخ ان شوبرت-زولدرن يمضي هو ايضاً في «طرق قريبة جداً» (ص ٤) اما ولهلم شوبّه فان ماخ حتى **يكرس** له مؤلفه الفلسفي الاخير والملخص اذا جاز القول «المعرفة والضلال»

وفي عام ١٨٩٤ كتب مؤسس آخر للمذهب النقدي التجريبي هو افيناريوس ان عطف شوبّه على المذهب النقدي التجريبي «يفرحه» و«يشجعه» وان «الفرق» (Differenz) بينه وبين شوبّه «يوجد ، على الارجح ، بصورة موقتة فقط»

(vielleicht nur einstweilen noch bestehend*) واخيــــراً ان بتسولدت الذي يعتبر ف ليسيفيتش تعاليمه الكلمة الاخيرة في المذهب النقدي التجريبي **ينادي صراحة بالثلاثي** شوبّه وماخ وافيناريوس عـــلى وجـــه الضبط **زعماء الاتجـــاه «الجديـــــد»** («Einführung in die Philosophie der reinen Erfahrung», Bd. II, 1904, S. 295**, «D. Weltproblem», 1906, S. V, 146***). وعند ذلك يقف بتسولدت قطعاً ضد فيللـــي («Einf.», II, 321) الذي يكاد يكون الماخي البارز الوحيد ممن خجل من قرابته مـــع شوبّه وامثاله وحاول ان ينفصل عنه مبدئياً ، الامر الذي حصل من جرائه تلميذ افيناريوس على توبيخ من معلمه العزيز فقد كتب افيناريوس الكلمات المذكورة اعلاه عن شوبّه في ملاحظته على مقالة فيللي ضد شوبّه ، علماً بانه اضاف ان نقد فيللي «غدا ، على الارجح ، اشدّ ممـــا كان يلـــزم» («Viertljschr. f. w. Ph.», 18 Jahrg., 1894, S. 29 وهنا ايضاً ترد مقالة فيللي ضد شوبّه)

بعد اطّلاعنا على تقييم الكمونيين من قبل النقاد التجريبيين لننتقل الى تقييم النقاد التجريبيين من قبل الكمونيين وقد سبـــق لنا ونوهنا بالرأى الذي اعرب عنه ليكلر في سنة ١٨٧٩ وفي سنة ١٨٨٢ يشير شوبرت-زولدرن صراحة الى «موافقته» «جزئياً مـــع فيخته الاب» (اي مع الممثل الشهير للمثالية الذاتية ، يوهان غوتليب

* «Vierteljahrsschrift für wissenschaftliche Philosophie», 1894, 18 Jahrg., Heft I, S. 29 (المجلة الفصلية للفلسفة العلمية ، عام ١٨٩٤ السنة ١٨ الدفتر الاول ، ص ٢٩ **الناشر**)

** «مقدمة لفلسفة التجربة الخالصـــــة» المجلد الثاني عام ١٩٠٤ ص ٢٩٥ **الناشر**

*** «Das Weltproblem von positivistischem Standpunkte aus», 1906, S. V, 146 («قضية العالم من وجهة النظر الوضعية» ، سنة ١٩٠٦ ، ص ٥ و ١٤٦ . **الناشر**) .

فيخته الذي كان عنده هو ايضاً مثله مثل يوسف ديتزغن ابن فلسفي فاشل) ، ثم «مع شوبّه وليكلر ، **وافيناريوس** وجزئياً مع رمكه» ، علماً بانه يستشهد **بماخ** بمتعة خاصة * («Erh. d. Arb.») ضد «الميتافيزياء التاريخية الطبيعية» ** – فهكذا يسمّي جميع الاساتذة المحاضرين والبروفسورات الرجعيين في المانيا المادية التاريخية الطبيعية وبعد صدور مؤلف افيناريوس «المفهوم الانساني عن العالم» رحّب ف شوبّه في سنة ١٨٩٣ بهذا المؤلف في «رسالة مفتوحة الى ر افيناريوس» بوصفه «تأكيداً للواقعية الساذجة» التي يدافع عنها شوبّه نفسه على حد زعمه وقد كتب شوبّه يقول «ان فهمي للتفكير يتطابق بصورة رائعة مع «تجربتك (تجربة افيناريوس) الخالصة»» *** ثم عمد شوبرت-زولدرن في عام ١٨٩٦ الى استخلاص رصيد ذلك «الاتجاه المنهاجي في الفلسفة» الذي «يعتمد» عليه فاعاد اصل نسبه الى بركلي وهيوم عبر **ف . ا لانغه** («من لانغه يبدأ بالضبط تاريخ بداية اتجاهنا في المانيا») ، ثم الى لآس وشوبّه وشركاهما الى **افيناريوس وماخ** من الكانطيين الجدد **ريل** من الفرنسيين ش رينوفيه

---

* «Die Geschichte und die Wurzel des Satzes von der Erhaltung der Arbeit» («مبدأ صيانة العمل تاريخه وجذره») **الناشر**

** Dr. Richard von Schubert-Soldern. «Über Transcendenz des Objects und Subjects», 1882, S. 37; §5 قارنوا كذلك مؤلفة «Grundlagen einer Erkenntnistheorie», 1884, S. 3 (الدكتور ريخارد فون شوبرت-زولدرن «في تعالي الموضوع والذات» سنة ١٨٨٢ ص ٣٧ والفقرة ٥ قارنوا كذلك مؤلفه «اسس نظرية المعرفة» سنة ١٨٨٤ ص ٣ **الناشر**)

*** «Vierteljahrsschrift für wissenschraftliche Philosophie», 17. Jahrg., 1893, S. 384.

والخ * واخيراً نقرأ في «المقدمة» البرنامجية المطبوعة في العدد الاول من لسان حال الكمونيين الفلسفي الخاص الى جانب اعلان الحرب على المادية والتعبير عن العطف على شارل رينوفيه «وحتى في معسكر علماء الطبيعة انفسهم ترتفع منذ حين اصوات بعض علماء الطبيعـــة للدعوة ضد تعاظم الاعتداد بالنفس عند رفاقهـــم في الاختصاص ضد الروح غير الفلسفية التي سادت في العلـــوم الطبيعية ومن هؤلاء ، مثلاً الفيزيائي ماخ في كل مكان تبدأ تتحرك قوى نضرة وتعمل على تدمير الايمان الاعمى في عصمة العلوم الطبيعية عن الخطأ ، وتبدأ تفتش من جديد عن السبل الاخرى المؤدية الى اعماق المجهول تفتش عن مدخـل افضـل الى مقام الحقيقة» * *

كلمتان عن ش رينوفيه انه رئيس مدرسة نافذة وواسعة الانتشار في فرنسا هي مدرسة من يسمَّون بالانتقاديين الجدد ان فلسفته النظرية هي عبارة عن جمع بين ظاهرية هيوم وقبلية كانط وهي ترفض قطعاً الشيء في ذاته وهي تعلن الصلـــة بين الظاهرات النظام القانون قبلياً وتكتب كلمة «القانون» باحرف كبيرة وتجعل منه قاعدة للدين والكهنة الكاثوليك فرحون جداً بهذه الفلسفة والماخـي فيللـي ينعت رينوفيـه بغضب «بالرسول بطرس الثاني» ، و«ظلامي المدرسة العليا» ، و«داعية ماكر لحريــة الارادة» (* * * «Gegen die Schulweisheit», S. 129).

---

* Dr. Richard von Schubert-Soldern. «Das menschliche Clück und die soziale Frage», 1896, SS. V, VI (الدكتـــور ريخـــارد فون شوبرت-زولدرن «السعادة البشرية والقضيـــة الاجتماعيـــة» سنة ١٨٩٦ ، ص V ، VI. **الناشر**)

* * «Zeitschrift für immanente Philosophie» (٥٩) Bd. I, Berlin, 1896, SS. 6, 9.

* * * «ضد الحكمة المدرسية» ، ص ١٢٩ . **الناشر** .

وهاكـــم من اي طراز هـــم رفاق الكمونيين بالفكـــر الذين **يحيون بحرارة** فلسفة ماخ فعندما صدر مؤلفـــه «الميكانيك» بالترجمـــة الفرنسيـــة كتب لســـان حال «الانتقاديين الجدد» «L'Année Philosophique» (٦٠) التي يصدرها معاون رينوفيـــه وتلميذه بيلون يقول «لا جدوى من القول الى اية درجة يتطابق العلم الوضعي للسيد ماخ في نقده للجوهر للشيء للشيء في ذاته مع المثالية الانتقادية الجديدة» (المجلد ١٥ سنة ١٩٠٤ ص ١٧٩)

اما فيما يخص الماخيين الروس فانهم جميعهم يخجلون من قرابتهم مع الكمونيين ، – ولم يكن من الممكن بالطبع توقع امر آخر من اناس لم يسلكـــوا قصداً وعمداً درب ستروفـــه ومنشيكوف وشركاهمـــا الا ان بازاروف وحده يسمّي «بعض ممثلي المدرسة الكمونية» «بالواقعيين» * ويعلن بوغدانـــوف بايجاز (**وفعلاً بصورة غير صحيحة**) ان «المدرسة الكمونية هي مجرد شكل متوسط بين الكانطية ومذهب النقد التجريبي» («الاحادية التجريبية» ٣ XXII) ويكتب ف تشيرنوف «ان الكمونيين لا يقتربون على العموم من الوضعية الا بجانـــب واحد من نظريتهم بينا يتخطون بجوانبها الاخرى اطار الوضعيـــة بعيداً» («دراسات فلسفيـــة وسوسيولوجيـــة» ٣٧) ويقول فالنتينوف ان «المدرســـة الكمونيـــة أضفت على هذه الافكار (الماخية) شكلاً غير لائق وتورطت في مأزق السوليبسيسم» l. c. ،

* «الواقعيون في الفلسفة المعاصرة ، هم بعض ممثلي المدرســـة الكمونية التي نجمت من الكانطية ، مدرسة ماخ – افيناريوس وكثير من التيارات القريبة منهما ، يجدون انه لا وجود البتة لاي اساس لرفض منطلق الواقعية الساذجة» . «دراسات» ، ص ٢٦ .

ص ١٤٩) هنا كما ترون يطلبون ما يشاؤون الدستور وسمك السفريوغا مع الفجل الحار والواقعية والسوليبسيسم ان اصحابنا الماخيين يخافون ان يقولوا الحقيقة عن الكمونيين بصراحة ووضوح

ذلك ان الكمونيين هم رجعيون في منتهى الرجعية ودعاة سافرون للايمانية واناس متكاملون في ظلاميتهم **وما من احد** منهم لم يدفع **على المكشوف** باكثر مؤلفاته اتساماً بالسمة النظرية في علم العرفان الى الدفاع عن الدين ، الى تبرير هذه الظاهرة القروسطية او تلك ففى عام ١٨٧٩ يدافع ليكلر عن فلسفته باعتبارها تلبي «جميع متطلبات العقل الديني النزعة» (* «Der Realismus etc», S. 73) وفي عام ١٨٨٠ يكرس رمكه «نظريته عن المعرفة» للقس البروتستانتي بيدرمان ويختم كتابه بالوعظ لا بالاله فوق الاحساس بل بالاله بوصفه «مفهوماً واقعياً» (أوليس لهذا السبب يا ترى صَنَّف بازاروف «بعض» الكمونيين في عداد «الواقعيين» ؟) علماً بان «مسألة تبيان موضوعية هذا المفهوم الواقعي يعود حلها الى الحياة العملية» وبان «الاعتقادية المسيحية» لبيدرمان تعلَن نموذج «اللاهوت العلمي» (J.Rehmke. «Die Welt als Wahrnehmung und Begriff», Berlin, 1880, S. 312) ويؤكد شوبّه في «المجلة لأجل الفلسفة الكمونية» انه اذا كان الكمونيون ينكرون المتعالي فان هذا المفهوم لا يشمل البتة الاله والحياة المقبلة (« Zeitschrift für immanente Philosophie», II. Band. S. 52**) ويدافع في مؤلفه «الاخلاق» عن «صلة القانون الاخلاقي بالعقيدة الميتافيزيائية»

---

* «Der Realismus der modernen Naturwissenschaft im Lichte der von Berkeley und Kant angebahnten Erkenntniskritik», S. 73. **الناشر**

** «مجلة الفلسفة الكمونية» ، المجلد ٢ ، ص ٥٢ . **الناشر** .

ويشجب «الكلام السخيف» عن فصل الكنيسة عن الدولة (Dr. Wilhelm Schuppe. «Grundzüge der Ethik und Rechtsphilosophie», Bresl. 1881, S. 181, 325*) ويخلص شوبرت-زولدرن في مؤلفه «أسس نظرية المعرفة» الى القول بالوجود المسبق **لأنانا** قبل وجود الجسم وبالوجود اللاحق **لأنانا** بعد الجسم اي بخلود الروح (l. c. ، ص ٨٢) والخ وفي مؤلفه «المسألة الاجتماعية» يدافع علاوة على «الاصلاحات الاجتماعية» عن الحق الانتخابي المراتبي ضد بيبل ويقول ان «الاشتراكيين-الديموقراطيين يتجاهلون واقع انه لولا الهبة الالهية – التعاسة –، لما كان للسعادة وجود» (ص ٣٣٠) ومع ذلك يتباكى زاعماً ان المادية «تسود» (ص ٢٤٢) «ان من يؤمن في زمننا بالحياة في الآخرة وان باحتمالها فقط انما يعتبرونه احمق (ib.)

وها كم اضراب منشيكوف الالمان الذين لا يقلون في شيء عن رينوفيه من حيث شدة الظلامية يعيشون في علاقة متينـــة من التسري مع النقاد التجريبيين ان القرابة النظرية بين الجماعتين لا مراء فيها والكانطية عند الكمونيين ليست اكثر مما عند بتسولدت او بيرسون وقد سبـــق ورأينا انهم يعتبرون انفسهم تلامذة لهيوم وبركلي وهذا التقييم للكمونيين معترف به عموما في المطبوعات الفلسفية ولكي نبين بجلاء من اي مقدمات عرفانية ينطلق انصار ماخ وافيناريوس هؤلاء نسوق بعض الموضوعات الاساسية النظرية من مؤلفات الكمونيين

في عام ١٨٧٩ ،لم يكن ليكلر قد اخترع بعد اسم «الكمونيين» الذي يعني بالضبط «التجريبي» «المعطى في التجربة» والذى هو

---

* الدكتور ولهلم شوبـــه «اسس الاخلاق وفلسفة الحق» بريسلاو ، عام ١٨٨١ ، ص ١٨١ ، ٣٢٥ . **الناشر** .

عبارة عن لافتة كاذبة لستر العفن كما هي كاذبة لافتات الاحزاب البرجوازية الاوروبية فان ليكلر يسمي نفسه علناً وصراحة في مؤلفه الاول «بالمثالي الانتقادي» («.Der Realismus etc»، ص ١١، ٢١ وكثير غيرهما) وفي هذا المؤلف ينتقد كانط كما سبق ورأينا لتنازله في صالح المادية مشيراً بوضوح الى طريقه **هو من** كانط الى فيخته وبركلي وضد المادية على العموم **وضد ميل اغلبية علماء الطبيعيات الى المادية** على الخصوص يشن ليكلر نضالاً لا رحمة فيه ولا هوادة مثله مثل شوبّه وشوبرت-زولدرن ورمكه على حد سواء

يقول ليكلر «لنعد الى الوراء الى وجهة نظر المثالية النقدية ولن ننسب الى الطبيعة اجمالاً والى عمليات الطبيعة وجوداً متعالياً» (اي وجوداً خارج الوعي البشري) «وحينئذ سيكون بالنسبة للذات مجملُ الاجسام وجسمُه الخاص ،- اذ انه يراه ويلمسه مع جميع تغيراته - ، ظاهرة معطاة مباشرة لتعايشات مترابطة على الصعيد المكاني ولتتابعات على صعيد الزمان وينحصر تفسير الطبيعة كله في ملاحظة قوانين هذه التعايشات والتتابعات» (ص ٢١)

الى الوراء نحو كانط قال الكانطيون الجدد الرجعيون الى الوراء نحو فيخته ونحو بركلي - هذا ما يقوله **من حيث جوهر الامر** الكمونيون الرجعيون اما بالنسبة لليكلر فان كل موجود انما هو «مركبات الاحساسات» (ص ٣٨) علماً بانه يرمز الى بعض فئات الخواص (Eigenschaften) المؤثرة في حواسنا مثلاً بحرف M ، والى الفئات الاخرى المؤثرة في المواضيع الاخرى للطبيعة بحرف (ص ١٥٠ وغيرها) وفضلاً عن ذلك ، يتحدث ليكلر عن الطبيعة بوصفها «ظاهرة الوعي» (Bewußtseinsphänomen) لا لانسان واحد ، بل «للنوع البشري» «(ص ٥٥-٥٦) . واذا اخذنا

بعين الاعتبار ان ليكلر اصدر هذا الكتاب في نفس مدينة براغ حيث كان ماخ بروفسوراً في الفيزياء وان ليكلر يستشهد باعجاب وابتهاج بمؤلف ماخ « «Erhaltung der Arbeit» » الصادر في عام ١٨٧٢ ولا يستشهد الا به وحده فان السؤال التالي يتبادر عفو الخاطر الى الذهن الا يجب الاعتراف بان نصير الايمانية والمثالي السافر ليكلر هو المؤسس الفعلي لفلسفة ماخ «الاصيلة» ؟

اما فيما يخص شوبّه الذي توصل ، على حد قول ليكلير * الى «استنتاجات مماثلة» فانه كما سبق ورأينا يدعـي فعلاً بالدفاع عن «الواقعية الساذجة» ويبكي بكاء مراً في «رسالة مفتوحة الى ر افيناريوس» بصدد «التشويه المستقر لنظريتي (نظرية ولهلم شوبّه) عن المعرفة بتحويلها الى مثالية ذاتية» اما فيما تتلخص الحيلة الفظة التي سماها الكموني شوبّـــه بالدفاع عن الواقعية فان هذا يتبين بما يكفي من الوضوح من جملة له نطق بها ضد فوندت الذي يصنف الكمونيين بلا تردد في عداد انصـــار فيختـــه في عداد المثاليـــين الذاتيـــين .(«Philosophische Studien», l.c., S. 386, 397, 407**)

فقد اعترض شوبّه على فوندت قائلاً «ان الموضوعة القائلة «الوجود هو الوعي» «تعني عندي ان الوعي مستحيل بدون العالم الخارجي ، وان الاخير يخص بالتالي الاول ، اي انها تعني ان الصلة المطلقة (Zuzammengehörigkeit) بين هذا وذاك ، التي اشرت اليها

---

* «Beiträge zu einer monistischen Erkenntnistheorie», Bresl., 1882., S. 10 («دراسات في النظرية الاحادية بصدد المعرفة» بريسلاو سنة ١٨٨٢ ، ص ١٠ **الناشر**)

** «دراسات فلسفية» ، في المكان المذكور . ص ٣٨٦ ، ٣٩٧ ، ٤٠٧ . **الناشر** .

واوضحتها مراراً عديدة تلك الصلة التي يؤلفان فيها الكل الاولي الواحد للوجود» *

لا بّد ان يتسم المرء بقدر كبير من السذاجة لكي لا يرى المثالية الذاتية الاصيلة في مثل هذه «الواقعية» فكروا فقط العالم الخارجي «يخص الوعي» وهو على صلـــة **مطلقة** معـــه وبالفعل افتروا على البروفسور المسكين بتصنيفـــه بصورة «مستقرة» في عداد المثاليين الذاتيين ان هذه الفلسفة تتطابق كلياً مع «التنسيق المبدئي» الذي قال به افيناريوس فليس من الممكن ان تفصل بينهما اية تحفظات واحتجاجات من جانب تشيرنوف وفالنتينوف لان الفلسفتين سترسلان معاً الى متحف اختلاقات البروفسورات الالمان الرجعية ومن باب الطرائف التي تدل ايضاً وايضاً على نقص التفكير عند السيد فالنتينوف نشير الى انـه ينعت شوبّه بالسوليبسي (وغني عن البيان ان شوبّه اقسم اليمين واستشهد بالله بالهمة نفسها بانه ليس سوليبسياً وكتب مقالات خاصة في هذا الموضوع مثل ماخ وبتسولدت وشركاهما) في حين انه يعجب العجـــب بمقالـــة بازاروف في «دراسات» واود لو اترجم الى اللغة الالمانية قول بازاروف المأثور «التصور الحسي **انما هو** الواقع الموجود خارجاً عنّا» ولو ارسله الى كموني فطن نوعاً فانه سينهال على بازاروف بالقبلات الحارة مثلما انهال على ماخ وافيناريوس بالقبلات الحارة شوبّه وليكلير وشوبرت-زولدرن ومن لف لفهم لأن قول

Wilhelm Schuppe. «Die immanente Philosophie und Wilhelm Wundt» في «Zeitschrift für immanente Philosophie», Band II, S. 195

(ولهلم شوبه «الفلسفة الكمونية وولهلم فوندت» في «مجلة الفلسفـــة الكمونية» ، المجلد ٢ ، ص ١٩٥ . **الناشر** .

بازاروف هذا انمـــا هو **الفا واوميغا** * مذاهـــب المدرســـة الكمونية

واليكم اخيراً شوبرت-زولدرن ايضاً «مادية العلوم الطبيعية» ، «ميتافيزياء» الاعتراف بواقعية العالم الخارجي الموضوعية هي العدو الرئيسي لهذا الفيلسوف («اسس نظرية المعرفة» عام ١٨٨٤ ص ٣١ وكل الفصل الثاني «ميتافيزيـاء العلـوم الطبيعية») «العلوم الطبيعية تتجرد عن جميع علاقات الوعي» (ص ٥٢) – هنا بالذات يكمن الشر الرئيسي (ففي هذا تتلخص المادية !») لأنه ليس بمقدور الانسان ان يخرج من «الاحساسات ، وبالتالي من حالات الوعي» (ص ٣٣ ٣٤) وفي عام ١٨٩٦ يعترف شوبرت-زولدرن قائلاً يقيناً ان وجهة نظري هـــي **سوليبسيسم عرفاني نظري** («المسألـة الاجتماعيـة» ص X) ولكنه ليس «ميتافيزيائياً» ولا «عملياً» «ان ما هو معطى لنـا مباشرة انما هو الاحساسات مركبات الاحساسات المتغيرة دوماً» («.Über Transc والخ ص ٧٣ * *)

يقول شوبرت-زولدرن «لقد اعتبـر ماركس ان عمليـــة الانتاج المادية هي سبب العمليات والبواعث الداخلية مثلمـــا تعتبر العلوم الطبيعية بالنحو نفسه (وبالقدر نفسه من الزيف) ان العالم الخارجي العام» (للبشرية) «هو سبب العوالم الخارجيـة الفردية» («المسألة الاجتماعية» ص XVIII) اما فيما يتعلق بالصلة بين مادية ماركس التاريخية وبين الماديـة التاريخيـــة

---

* الفا – الحرف الاول في الابجدية اليونانية اوميغا – الحرف الاخير فيها ؛ الفا واوميغا – الف وياء او بداية ونهاية **المعرب**

* * «Über Transcendenz des Objects und Subjects» ص ٧٣ . **الناشر** .

الطبيعية والمادية الفلسفية على العموم فانه لا يخطر حتى في بال هذا النصير من انصار ماخ ان يشك في ذلك

«ان كثيرين وحتى الاغلبية على الارجح سيتبنون الرأي القائل انه تستحيل اية ميتافيزياء من وجهة النظر السوليبسية العرفانية اي ان الميتافيزياء هي دائماً متعالية وبعد تفكير اعمق لا يسعني ان اوافق على هذا الرأي اليكم حججي ان الاساس المباشر لكل الامور المعطاة انما هو الصلة الروحية (السوليبسية) التي **الأنا** الفردي (عالم التصورات الفردي) مع جسمه هو نقطتها المركزية والعالم الباقي يستحيل تصوره بدون هذا **الأنا** وهذا **الأنا** يستحيل تصوره بدون العالم الباقي مع القضاء على **الأنا** الفردي يتناثر العالم هو ايضاً هباء ،— وهذا امر غير ممكن ،— ومع القضاء على العالم الباقي لا يبقى كذلك مكان لأجل **الأنا** الفردي لأنه لا يمكن فصله عن العالم الا من الناحية المنطقية وليس في الزمان وفي المكان ولهذا يجب على **أناي** الفردي ان يتواجد حتماً ايضاً بعد موتي ما دام العالم كله لا يزول معه (المرجع نفسه ص XXIII)

ان «التنسيق المبدئي» و«مركبات الاحساسات» والابتذال الماخي بمختلف اشكاله كل هذا يقدم خدمة وفية لمن يلزم

ما هو العالم الآخر (das Jenseits) من وجهة النظر السوليبسية ؟ ان هذا هو مجرد تجربة ممكنة في المستقبل لاجلي انا» (ibid) «يقيناً ان الروحانية مثلاً لم تبرهن Jenseits الخاص بها ولكنه لا يمكن في اي حال من الاحوال مقابلة الروحانية بمادية العلوم الطبيعية لأن هذه المادية كما رأينا ليست سوى جانب واحد من العملية العالمية في داخل» («التنسيق المبدئي»=«الصلة الروحية الشاملة») (ص XXIV)

وكل هذا يقال في نفس المقدمة الفلسفية لكتاب «المسألة

الاجتماعية» (سنة ١٨٩٦) الذي يبرز فيه شوبرت - زولدرن **دائماً** في صحبة ماخ وافيناريوس ان الماخية هي عند حفنة الماخيين في روسيا فقط وسيلة لثرثرة المثقفين بوجه الحصر في حين ان دورها كخادمة للايمانية يعلن في وطنها على المكشوف !

٤ - الى اين ينمو المذهب النقدي التجريبي ؟

لنلق الآن نظرة الى تطور الماخية بعد ماخ وافيناريوس لقد رأينا ان فلسفتهما هي خليط مجموعة من موضوعات عرفانية متناقضة وغير مترابطة وينبغي لنا الآن ان نرى كيف والى اين اي في اي اتجاه تنمو هذه الفلسفة فان هذا سيساعدنا في حل بعض المسائل «المختلف عليها» عن طريق الاستشهاد بالوقائع التاريخية التي لا جدال حولها وبالفعل نرى ان اختيارية وتشوش المقدمات الفلسفية المنطلقية للاتجاه الذي ندرسه يجعلان من المحتم تماماً قيام تفسيرات مختلفة له ومجادلات عقيمة حول الجزئيات والصغائر ولكن المذهب النقدي التجريبي مثله مثل كل تيار فكري انما هو شيء حي متنام متطور وواقع نموه في هذا الاتجاه او ذاك سيساعد خيراً من المحاكمات المسهبة على حل المسألة **الاساسية** مسألة جوهر هذه الفلسفة الحقيقي فلا يحكمون على الانسان بموجب ما يقوله او يظنه عن نفسه ، بل بموجب افعاله وعلى الفلاسفة يجب الحكم لا بموجب اللافتات التي يعلقونها بانفسهم على انفسهم («الوضعية» فلسفة «التجربة الخالصة» «الاحادية» او «الاحادية التجريبية» «فلسفة العلوم الطبيعية» وما الى ذلك) بل بموجب ما يلي كيف يحلون فعلاً المسائل النظرية الاساسية مع من يمشون يداً بيد ، ماذا يعلـّمون وماذا علـّموا تلامذتهم واتباعهم

وهذه المسألة الاخيرة هي التي تهمنا الآن ان كل ما هو جوهري قد قاله ماخ وافيناريوس منذ اكثر من ٢٠ سنة وخلال هذه الحقبة من الزمن لم يكن من الممكن الاّ يتبيّن **كيف فهم** هذين الزعيمين اولئك الذين ارادوا ان يفهموهما ومن يعتبرانهم (وعلى الاقل ماخ الذي بقي حياً بعد وفاة زميله) مواصلي عملهما ولكي نكون دقيقين لنأخذ اولئك الذين يسمون انفسهم بانفسهم بتلامذة ماخ وافيناريوس (او اتباعهما) واولئك الذين يصنفهم ماخ في هذا المعسكر فنحصل بالتالي على فكرة عن المذهب النقدي التجريبي بوصفه **تياراً** فلسفياً وليس بوصفه مجموعة من الطرائف الادبية

يوصي ماخ في مقدمة الترجمة الروسية لمؤلفه «تحليل الاحساسات» بهانس كورنيليوس (ص ٤) باعتباره «باحثاً شاباً» يسلك «ان لم يكن السبل نفسها فسبلاً قريبة» وفي نص «تحليل الاحساسات» ، «يشير» ماخ مرة اخرى فيما يشير اليه «برضى وسرور الى مؤلفات» هـ كورنيليوس وغيره ممن «كشفوا كنه إفكار افيناريوس وطوروها» (ص ٤٨) لنأخذ كراس هـ. كورنيليوس «مقدمة الى الفلسفة» (الطبعة الالمانية سنة ١٩٠٣) فاننا نرى ان مؤلفه يشير هو ايضاً الى سعيه الى الحذو حذو ماخ وافيناريوس (ص VIII ٣٢) وهكذا نجد امامنا **تلميذاً يعترف به معلمه** وهذا التلميذ يبدأ هو ايضاً من الاحساسات-العناصر (ص ١٧ ٢٤) ويعلن قطعاً انه يكتفي **بالتجربة** (ص VI) وينعت نظراته «بالتجريبية المنسجمة او العرفانية» (ص ٣٣٥) ويشجب بكل حزم سواء «احادية جانب» المثالية ام «اعتقادية» المثاليين والماديين على حدّ سواء (ص ١٢٩) وينبذ بخارق الهمة «سوء الفهم المحتمل» (ص ١٢٣) وهو كأنما ينجم من فلسفته اعتبار العالم موجوداً في

رأس الانسان ويجامل الواقعية الساذجة بتفنن لا يقل عن تفنن افيناريوس او شوبّه او بازاروف (ص ١٢٥ «ان للمدرك البصري ولكل مدرك آخر مكاناً لوجوده حيث نجده وفقط حيث نجده ، اي حيث يحصره الوعي الساذج الذي لم تمسه الفلسفة الكاذبة») ، ثم يخلص هذا التلميذ الذي يعترف به معلمه الى القول **بالخلود وبالله** ان هذا الشرطي الريفي في الكرسي الاستاذي اي تلميذ «الوضعيين الحديثين» يطلق صواعقه قائلاً المادية تحول الانسان الى آلة اوتوماتيكية «لا داعي الى القول انها مع تقويضها الايمان في حرية قراراتنا تقوض كل تقييم القيمة الاخلاقية لتصرفاتنا وتقوض مسؤوليتنا وهي كذلك لا تترك مكاناً لأجل فكرة استمرار حياتنا بعد الموت» (ص ١١٦) خاتمه الكتاب ان التربية (اغلب الظن تربية الشباب الذي يستغفله فطحل العلم هذا) ضرورية لا لأجل النشاط فقط ولكن «قبل كل شيء» «كتربية لأجل الاحترام (Ehrfurcht) لا حيال القيم الموقتة للتقليد الصدفي بل حيال القيم الثابتة للواجب والجمال حيال المبدأ الالهي (dem Göttlichen) في داخلنا وخارجنا» (ص ٣٥٧)

قارنوا بهذا زعم ا بوغدانوف انه **لا مكان اطلاقاً** (حرف التأكيد لبوغدانوف) و«لا يمكن ان يكون مكان» في فلسفة ماخ نظراً لانكاره لكل «شيء في ذاته» لأجل افكار الاله وحرية الارادة وخلود الروح («تحليل الاحساسات» ص XII) بينما يعلن ماخ في هذا الكراس نفسه (ص ٢٩٣) «لا وجود لفلسفة ماخ» ويوصي لا بالكمونيين وحسب بل ايضاً بكورنيليوس الذي ابان كنه افكار افيناريوس اولاً ينجم من هنا ان بوغدانوف **لا يعرف البتة** «فلسفة ماخ» بوصفها تياراً لا يندس تحت كنف الايمانية وحسب ، بل يمضي كذلك الى حد الايمانية .

ثانياً ان بوغدانوف **لا يعرف البتة** تاريخ الفلسفة لأن ربط انكار الافكار المذكورة بانكار كل شيء في ذاته انما يعني السخر من هذا التاريخ. فهل يتجرأ بوغدانوف على انكار واقع ان جميع انصار هيوم المنسجمين اذ ينكرون كل شيء في ذاته انما **يتركون مكاناً** لأجل هذه الافكار ؟ اولم يسمع بوغدانوف بالمثاليين الذاتيين الذين ينكرون كل شيء في ذاته ويخصصون بالتالي مكاناً لأجل هذه الافكار ؟ «لا يمكن ان يكون مكان» لأجل هذه الافكار في فلسفة واحدة **بوجه الحصر** هي الفلسفة التي تعلم انه لا يوجد غير الوجود الحسي ان العالم هو مادة متحركة اي ان العالم الخارجي الذي يعرفه الجميع وكل فرد اي العالم الفيزيائي هو الواقع الموضوعي الوحيد اي في فلسفة المادية وبسبب هذا بسبب هذا على وجه الضبط يحارب ضد المادية سواء الكمونيون الذين اوصى بهم ماخ ام كورنيليوس تلميذ ماخ وكل الفلسفة الاستاذية المعاصرة

وقد شرع اصحابنا الماخيون يتبرأون من كورنيليوس عندما دلوهم بالاصبع الى البذاءة الا ان هذه التبرؤات لا تكلف كثيراً ان فريدريخ آدلر لم «يتلق تحذيراً» على ما يبدو ولذا يوصي بكورنيليوس هذا في المجلة الاشتراكية («Der Kampf» سنة ١٩٠٨ ٥ ص ٢٣٥ * «مؤلف سهل على القراءة وجدير بتوصية رفيعة») ومن خلال الماخية يجعلون من الرجعيين الفلسفيين السافرين ومن مروجي الايمانية معلمين للعمال

وبدون تحذير لاحظ بتسولدت زيف كورنيليوس ولكن اسلوبه للنضال ضد هذا الزيف هو درة حقاً اسمعوا «ان القول بان العالم هو تصور» (كما يؤكد المثاليون الذين نحاربهم لا

---

* «النضال». عام ١٩٠٨، الدفتر ٥، ص ٢٣٥. **الناشر**.

تمزحوا !) «ليس له معنى الا اذا شاؤوا ان يقولوا بذلك انه تصور لدى الناطق او على الاقل لدى جميع الناطقين (المعربين عن آرائهم) اي انه رهن في وجوده بتفكير هذا الشخص او هؤلاء الاشخاص على وجه الحصر ان العالم لا يوجد الا ما دام يتصوره هذا الشخص وان العالم لا يوجد حين لا يتصوره اما نحن فاننا ، على العكس نجعل العالم رهناً لا بتفكير شخص بمفرده او بضعة افراد او بصورة افضل واوضح : لا **بفعل** التفكير ، لا بالتفكير **الفعلي** (الواقعي) اياً كان بل بالتفكير على العموم علماً باننا نجعل ذلك بصورة منطقية خالصة وان المثالي يخلط هذا وذاك واذا النتيجة نصف سوليبسيسم لاعرفاني كما نراه عند كورنيليوس» («.Einf» ، المجلد ٢ ص ٣١٧» *)

لقد دحض ستوليبين وجود المكاتب السوداء (٦١) وهشـم بتسولدت المثاليين تهشيماً ولكن المدهش ان هذا القضاء على المثالية يشبه النصائح الموجهة الى المثاليين بان يستروا مثاليتهم بمزيد من الدهاء ان العالم رهن بتفكير الناس ، — هذه هي المثالية السيئة العالم رهن بالتفكير على العموم ، — هذه هي الوضعيـة الحديثة الواقعية النقدية وبكلمة ، — الشعوذة البرجوازيـــة الخالصة واذا كان كورنيليوس نصف سوليبسي لاعرفاني فان بتسولدت نصف لاعرفاني سوليبسي انتم تقرصون برغوثــاً ايها السادة !

لنواصل يقول ماخ في الطبعة الثانية لمؤلفه «المعرفـــة والضلال» ان البروفسور الدكتور هانس كلينبيتر يعطي «عرضاً منتظماً» (لآراء ماخ) «يمكنني ان اوافق عليه في كل ما هو جوهري»

---

* «Einführung in die Philosophie der reinen Erfahrung», II, 317
الناشر .

(«Die Erkenntnistheorie der Naturforschung der Gegenwart», Lpz., 1905 «نظرية المعرفة في العلوم الطبيعية المعاصرة») . لنأخذ هانس رقم ٢ ان هذا البروفسور هو ناشر مثابر للماخية كومة من المقالات عن نظرات ماخ في مجلات فلسفية خالصة باللغة الالمانية وباللغة الانجليزية ترجمات مؤلفات اوصى بها ماخ ومع مقدمة لماخ وبكلمة يد «المعلم» اليمنى اليكم نظراته كل تجربتي (الخارجية والداخلية) وكل تفكيري وجميع تطلعاتي معطاة لي بوصفها عملية نفسية بوصفها جزءاً من ادراكي» (ص ١٨ من الكتاب المذكور) «ان ما نسميه بالفيزيائي هو بناء من عناصر نفسيـــة» (ص ١٤٤) «**ان الاقتناع الذاتي ، وليس الحقيقـــة الموضوعية** (Gewißheit) **هو الهدف الوحيد الذي يمكن ان يبلغه العلم ، كل علم**» (٩ ، حرف التأكيد لكلينبيتر الذي يضيف في هذا المكان الملاحظة التالية «هكذا جاء تقريباً عند كانط في «نقد العقل العملي»») «ان افتراض ادراكات الغير هو افتراض لا يمكن ابداً ان تؤكد التجربة صحته» (ص ٤٢) «انا لا اعرف ما اذا كان يوجد خارجاً عني **أنات** اخرى» (ص ٤٣) الفقرة ٥ «عن النشاط» («العفوية»=التلقائية) «في الادراك» ان تعاقب التصورات يجرى عند الجهاز الاوتوماتيكي الحيواني بصورة آلية بحتة والشيء نفســـه يجري عندنا عندما نحلم «عن هذا تختلف من حيث جوهر الامـــر خاصة وعينا في الحالة العادية اي بالضبط عنده خاصـــة لا وجود لها عند تلك» (الاجهزة الاوتوماتيكية) «ومن الصعب على الاقل تفسيرها تفسيراً ميكانيكياً او اوتوماتيكياً ، هي ما يسمى النشاط الذاتي **لأنانا** بوسع كل امرىء ان يقابل حالات وعيـــه بنفسه ان يتحكم فيها ان يقدمها او ان يزيحها الى المؤخرة بمزيد من الحدّة ، ان يحللها ، ويقارن بين اجزائها ، والخ . . . كل هذا

واقع من التجربة (المباشرة) ان **انانا** يختلف من حيث الجوهر عن مجمل جميع حالات الادراك ولا يمكن مساواته بهذا المجمل فان السكر يتألف من الكربون والهيدروجين والاوكسيجين واذا ما نسبنا الى السكر روحاً سكرية فلا بدّ بموجب قياس التمثيل من ان تملك خاصة تحريك دقائق الهيدروجين والاوكسيجين والكربون كما يطيب لها» (ص ٢٩–٣٠) الفقرة ٤ في الفصل التالي «ان فعل المعرفـــة هو فعل ارادة (Willenshandlung) » «يجب ان تعتبر من الوقائع الاكيدة انقسام جميع انفعالاتي النفسية الى مجموعتين اساسيتين كبيرتين الاعمال الاضطرارية والاختيارية في عداد الاولى ترد جميع الانطباعات عن العالم الخارجي» (ص ٤٧) . «اما انه يمكن ان نعطي نظريات كثيرة عن ميدان واحد من الوقائع فان هذا واقع معروف للفيزيائي بنفس القدر الذي لا يتطابق به مع مقدمات اية نظرية مطلقة عن المعرفة وهذا الواقع يعزي الى الطابع الارادي لتفكيرنا وفيه يتجلى عدم تعلق ارادتنا بالظروف الخارجية (ص ٥٠)

احكموا الآن على جرأة تصريحات بوغدانوف الزاعمة انه «لا مكان اطلاقاً لأجل حرية الارادة» في فلسفة ماخ ، في حين ان ماخ نفسه يوصي بشخص مثل كلينبيتر وقد سبق ورأينا ان هذا الاخير لا يخفي مثاليته ومثالية ماخ وفي ١٨٩٨–١٨٩٩ كتب كلينبيتر «ان هرتس يعرض نظرة ذاتانية مماثلة» (كما عند ماخ) «الى طبيعة مفاهيمنا واذا كان ماخ وهرتس» (اما باي قدر من الصواب يشبك كلينبيتر هذا الفيزيائي الشهير في الامر ، فسنتحدث عن ذلك بنحو خاص) «قد استحقا من وجهة نظر المثالية الفضـل بكونهما يؤكدان على الاصل الذاتي **لجميع** مفاهيمنا وعلى الصلـة بينها وليس لبعض المفاهيم فقد استحقا من وجهة نظر التجريبية فضلاً ليس اقل شأناً باقرارهما بان التجربة وحدها هي التي تحل

مسألة صحة المفاهيم بوصفها مرجعاً مستقلاً عن التفكير» («Archiv für systematische Philosophie» ، المجلد ٥ ١٨٩٨—١٨٩٩ ص ١٦٩—١٧٠ *) وفي سنة ١٩٠٠ كتب كلينبيتر ان كانط وبركلي رغم جميع الفوارق بينهما وبين ماخ «يقفان على كل حال اقرب اليه مما تقف منه التجريبية الميتافيزيائية» (اي المادية ! ان السيد البروفسور يتحاشى تسمية الشيطان باسمه !) «السائدة في العلوم الطبيعية والتي تشكل الموضوع الرئيسي لحملات ماخ» (.ib ، المجلد ٦ ص ٨٧) وفي عام ١٩٠٣ كتب كلينبيتر «ان نقطة انطلاق بركلي وماخ لا تدحض» «ماخ – منجز قضية كانط» («Kantstudien» ، المجلد ٨ ١٩٠٣ ص ٣١٤ ٢٧٤ **)

كذلك يقول ماخ في مقدمة الترجمة الروسية لمؤلفه «تحليل الاحساسات» عن ت. تسيهن بانه «يسلك ان لم يكن السبل نفسها ، فسبلاً قريبة جداً» لنأخذ كتاب البروفسور ت تسيهن «النظرية النفسية الفيزيولوجية عن المعرفة» (Theodor Ziehen: Psycho-physiologische Erkenntnistheorie, Jena, 1898) فاننا نرى ان المؤلف قد استشهد في المقدمة بماخ وافيناريوس وشوبّه والخ وهنا نجد بالتالي من جديد تلميذاً يعترف به معلمه ان نظرية تسيهن «الحديثة» تتلخص في كون «الجمع» وحده قادراً على الظن بان «الاشياء الفعلية تستثير احساساتنا» (ص ٣) وانه «لا يمكن ان تقوم عند مدخل نظرية المعرفة اية كتابة غير كلمات بركلي : «ان المواضيع الخارجية لا توجد بحد ذاتها بل توجد في عقولنا» (ص ٥)

* «ارشيف الفلسفة النظامية» المجلد ٥ ١٨٩٨—١٨٩٩ ص ١٦٩—١٧٠ **الناشر**

** «دراسات كانطية» ، المجلد ٨ ، ١٩٠٣ ، ص ٣١٤ ، ٢٧٤ . **الناشر** .

«الاحساسات والتصورات معطاة لنا وهذا وذاك نفسي اللانفسي كلمـــة لا معنى لها» (ص ١٠٠) ان قوانين الطبيعـــة ليســـت علاقات بين اجسام مادية بل علاقات «بين احساسات مخفضة» (ص ١٠٤ في هذا المفهوم «الجديد» – «الاحساسات المخفضة» – تتلخص كل اصالة البركلية التسيهنية !)

وقد تبرأ بتسولدت من تسيهن بوصفه مثالياً ، في عام ١٩٠٤ في المجلد الثاني من مؤلفه «مقدمة» (ص ٢٩٨ – ٣٠١) وفي عام ١٩٠٦ ادرج كورنيليوس وكلينبيتر وتسيهن وفرفورن في قائمة **المثاليين او الاحاديين النفسيين** («Das Weltproblem etc.», S. 137. الملاحظة) وعند جميع هؤلاء السادة البروفسورات لو ترون «سوء فهم» في تفسير «نظرات ماخ وافيناريوس» (المرجع نفسه)

فيا للمسكينين ماخ وافيناريوس فليس الاعداء وحدهـــم افتروا عليهما بصدد المثاليـــة و«حتى» (كما يقول بوغدانوف) بصدد السوليبسيسم كلا فان الاصدقاء ، والتلامذة ، والاتباع والاختصاصيين-البروفسورات فهموا ايضاً معلميهم فهمـاً سيئاً بالمعنى المثالي واذا كان المذهب النقدي التجريبي يتحول الى مثالية ، فان هذا لا يبرهن البتة على كون مقدماته الاساسية البركلية المشوشة زيفاً مطبقاً خلصنا يا رب فان هذا مجرد «««سوء فهم» صغير – بمعنى الكلمة النوزدريفي-البتسولدتي (٦٢)

ولعل اكثر ما يدعو الى الضحـك هنا هو ان حارس النقاوة والبراءة نفسه بتسولدت ، اولاً ، «أكمل» ماخ وافيناريوس بـ «قبلية منطقية» ، وثانياً ، قرنهما مع مروج الايمانية ولهلم شوبّه

ولو كان بتسولدت يعرف انصار ماخ الانجليز لكان اضطر الى تطويل قائمة الماخيين الساقطين (بسبـــب من «سوء الفهم») في المثالية وتطويلها بصورة ملحوظة وقد سبق لنا واشرنا الى كارل بيرسون الذي اطراه ماخ ، بوصفه مثالياً كاملاً . اليكم آراء اخرى

«لمفترين» اثنين يقولان عن بيرسون الشيء نفسه «ان مذهب البروفسور ك بيرسون هو مجرد صدى لتعاليم بركلي العظيمة حقاً» (* Howard V. Knox في «Mind», Vol. VI, 1897, p. 205) «ما من شك في ان السيد بيرسون مثالي بادق معاني الكلمة» (Georges Rodier في «Revue philosophique» (٦٣) 1888, II, vol, 26, p. 200 **) اما المثالي الانجليزي وليام كليفورد الذي يعتبره ماخ «قريباً جداً» من فلسفته («تحليل الاحساسات» ص ٨)، فانه يتعين بالاحرى اعتباره معلماً لماخ لا تلميذاً له لأن مؤلفات كليفورد الفلسفية صدرت في السبعينيات من القرن الماضي ان «سوء الفهم» هنا ينبع مباشرة من ماخ الذي «لم يلاحظ» في عام ١٩٠١ المثالية في تعاليم كليفورد القائلة ان العالم هو «مادة روحية» (mind-stuff) – «موضوع اجتماعي» «تجربة عالية التنظيم» والخ *** ولوصف شعوذة الماخيين الالمان، تجب الاشارة الى ان كلينبيتر يرفع في عام ١٩٠٥ هذا المثالي الى صف مؤسسي «علم العرفان في العلوم الطبيعية المعاصرة»

ويشير ماخ في الصفحة ٢٨٤ من مؤلفه «تحليل الاحساسات»

---

* هوفارد ف نوكس في مجلة «الفكر» المجلد ٦، عام ١٨٩٧، ص ٢٠٥ **الناشر**

** جورج روديه في «المجلة الفلسفية»، ١٨٨٨، الطبعة الثانية، المجلد ٢٦، ص ٢٠٠ **الناشر**

** William Kingdon Clifford. «Lectures and Essays», 3rd ed., Lond., 1901, vol. II, pp. 55, 65, 69 (وليام كينغدون كليفورد «مطالعات وبحوث»، الطبعة الثالثة، لندن، ١٩٠١، المجلد ٢، ص ٥٥، ٦٥، ٦٩ **الناشر**) ص ٥٨ «انا مع بركلي ضد سبنسر»؛ ص ٥٢ «الموضوع هو جملة من التغيرات في ادراكي، وليس شيئاً ما في خارجه».

الى الفيلسوف الاميركي ب كاروس «الذي اقترب» (من البوذيـــة ومن الماخية) فان كاروس الذي يقول عن نفسه انه «معجب» بماخ و«صديق شخصي» له ، يحرر في شيكاغو مجلة «مونيست» (٦٤) المكرسة للفلسفـــة والمجلـــة الصغيرة «The Open Court» («المنبر المفتوح») (٦٥) المكرسة للدعوة الى الدين تقول هيئة تحرير هذه المجلة الصغيرة الواسعة الشعبية «ان العلم هو وحي رباني» «نحن نتبنى الرأي القائل ان بوسع العلم ان يحدث اصلاحاً في الكنيسة يحفظ من الدين كل ما فيه من صحيح وسليم وجيد» وماخ المحرر الدائم في «مونيست» ينشر فيها مؤلفاته الجديدة فصلاً فصلاً ويصلح كاروس «قليلاً جداً» ماخ بروح كانط معلناً ان ماخ «مثالي او كما قد اقول ذاتي» ولكنه ، هو كاروس على اقتناع رغم الخلافات الجزئية «باننا انا وماخ نفكر تفكيراً واحداً» * ويعلن كاروس ان احاديتنا «ليست مادية ولا روحانية ولا لاعرفانية وهي تعني ببساطة وبوجه الحصر الانسجامية وهي تأخذ التجربة كاساس لهـا وتستعمل الاشكال المصنفـة لعلاقات التجربة كطريقة» (يبدو ان هذا استنساخ من مؤلف ا بوغدانوف «الاحادية التجريبية» !) شعار كاروس «لا اللاعرفانية بل العلم الوضعي لا الصوفية بل الفكر الواضح لا الفوقطبيعية ولا المادية بل النظرة الاحادية الى العالم لا العقيدة بل الدين لا الايمان كمذهب بل الايمان كمزاج» (not creed, but faith)

* «The Monist», vol. XVI, 1906, July; P. Carus: «Pr. Mach's Philosophy», pp. 320, 345, 333 («مونيست» المجلد ١٦ سنـة ١٩٠٦ تموز – يوليو ب كاروس «فلسفـة البروفسور ماخ» ص ٣٢٠ ، ٣٤٥ ، ٣٣٣ **الناشر**) وهذا رد على مقالة كلينبيتر في المجلة ذاتها .

وتطبيقاً لهذا الشعار يعظ كاروس «بلاهوت جديد» «بلاهوت علمي» او تيونوميا * تنكر حرف التوراة ولكنها تلح على الفكرة التالية وهي ان «الحقيقة كلها ربانية وان الرب يكشف نفسه في العلوم الطبيعية كما في التاريخ» * * وتجب الاشارة الى ان كلينبيتر يوصي ، في الكتاب المذكور اعلاه عن علم العرفان في العلوم الطبيعية المعاصرة بكاروس الى جانب اوستفالد وافيناريوس والكمونيين (ص ١٥١-١٥٢) وعندما تقدم هيكل بموضوعاته لأجل اتحاد الاحاديين عارضه كاروس قطعاً اولاً عبثاً ينبذ هيكّل القبلية التي «تتلاءم تماماً مع الفلسفة العلمية» ثانياً يعارض كاروس مذهب الحتمية الهيكلي الذي «ينفي امكانية حرية الارادة» ثالثاً «يقترف» هيكل «خطأ قوامه انه يؤكد على وجهة نظر الطبيعي الوحيدة الجانب ضد روح المحافظة التقليدية الملازمة للاديان ولهذا يبرز كعدو للاديان القائمة عوضاً عن ان يبذل الجهد بسرور على تطويرها اسمى التطوير في تفسيرات جديدة للعقائد اصح مما مضى» (.ib ، المجلد ١٦ ١٩٠٦ ص ١٢٢) ويعترف كاروس نفسه «ان كثيرين من ذوي التفكير الحر يعتبرونني رجعياً ويلومونني على اني لا انضم الى جوقة حملاتهم على الدين كل دين ، بوصفه وهماً» (ص ٣٥٥)

واضح تماماً اننا نواجه زعيم شلة من الكويتبين الانذال الاميركيين الذين يعملون على تخدير الشعب بافيون الدين وقد وقع ماخ وكلينبيتر في عضوية هذه الشلة كذلك اغلب الظن من جراء «سوء فهم» صغير

---

* Theonomie **المعرب**

* * المرجع نفسه ، المجلد ١٣ ، ص ٢٤ وبعدها . مقالة كاروس : «اللاهوت بوصفه علماً» .

٥ ـ «احادية» أ بوغدانوف «التجريبية»

يكتب بوغدانوف عن نفسه قائلاً «انا لا اعرف شخصيــاً في الادب حـتى الآن سوى احادي تجريبي واحـــد هو المدعو ا بوغدانوف ولكنني بالمقابل اعرفه جيداً جداً وبوسعي ان اؤكد بان نظراته تتجاوب كلياً مع الصيغة المقدسة لاولية الطبيعــة بالنسبة للروح واعني بذلك انه يعتبر كل ما هو موجود بمثابة سلسلة متواصلة من التطور تضيع حلقاتها الدنيا في عماء العناصر ، بينما حلقاتها العليا التي نعرفها تمثل **تجربة الناس** (حرف التأكيد لبوغدانوف) النفسية ، والحلقات الاعلى منها تمثل التجربة الفيزيائية ، علماً بان هذه التجربة والمعرفة التي تنشأ عنهــا تتطابقان مع ما يسمى عادة بالروح» («الاحاديـــة التجريبية» المجلـــد ٣ ص XII).

ان الصيغة التي يسخر منها بوغدانوف هنا ناعتاً اياهــا «بالمقدسة» هي موضوعة انجلس المعروفة لدينا ولكن بوغدانوف يتحاشى باسلوب ديبلوماسي عن ذكر اسمه فكأنه يقول نحن لا نفترق عن انجلس في الرأي ولا شيء من هذا القبيل

ولكن انظروا بمزيد من الانتباه الى هذا الموجز الذي وضعــه بوغدانوف نفسه «لاحاديته التجريبية» السيئة الشهرة و«بدائله» ان العالم الفيزيائي يُسمى عنده **تجربة الناس** ، ويُعلَن ان التجربة الفيزيائية «**اعلى**» في سلسلة التطور من التجربة النفسية الا ان هذه سخافـــة صارخة وهي بالضبط سخافة من نوع السخافات الملازمة لكل فلسفة مثالية اياً كانت وهذا هزل حقاً اذا ما اظهر بوغدانوف مثل هذا «النظام» بمظهر المادية ايضاً وعندي انا ايضاً ، لو ترون الطبيعة هي الاولية والروح هي الثانوية واذا طبقنــا تعريف انجلس على هذا النحو ، فان هيغل ايضاً مادي لأن عنده ايضاً

تأتي التجربة النفسية (تحت اسم الفكرة المطلقة) في البدء ثم يليها «فوقها» العالم الفيزيائي الطبيعة واخيراً معرفة الانسان الذي يعرف الفكرة المطلقة من خلال الطبيعة ولن ينكر اي مثالي اولية الطبيعة بهذا المعنى لأن هذا ليس بالفعل اولية لأن الطبيعة لا تؤخذ بالفعل على انها معطى **مباشرة**، على انها نقطة انطلاق علم العرفان. فهناك ايضاً بالفعل ممر طويل يؤدي **عبر تجريدات** «النفسي» الى الطبيعة ولا شأن لاسماء هذه التجريدات فسواء أسميت الفكرة المطلقة ام **الأنا** الشاملة ام الارادة العالمية وما الى ذلك فبذلك تتمايز **انواع** المثالية، ومن هذه الانواع توجد كثرة لا عد لها فان كنه المثالية يكمن في اعتبار النفسي نقطة الانطلاق الاولية ومنه تُشتق الطبيعة، **ثم بعد ذلك** يُشتق من الطبيعة الوعي البشري العادي. ولهذا يغدو هذا «النفسي» الانطلاقي الاولي دائماً **تجريداً ميتاً** يستر اللاهوت المميع مثلاً كل **يعرف** ما هي **الفكرة** البشرية ولكن الفكرة بدون الانسان وقبل الانسان، الفكرة فى المجرد، الفكرة المطلقة انما هي اختلاق لاهوتي من المثالي هيغل وكل يعرف ما هو الاحساس الانساني ولكن الاحساس بدون الانسان وقبل الانسان انما هو هراء تجريد ميت شعوذة مثالية وبمثل هذه الشعوذة المثالية بالذات يقوم بوغدانوف عندما يبني السُلّم التالي

١ – عماء «العناصر» (ونحن نعرف انه لا يكمن وراء كلمة العنصر هذه اي مفهوم بشري غير **الاحساس**)

٢ – تجربة الناس النفسية

٣ – تجربة الناس الفيزيائية

٤ – «المعرفة الناشئة منها»

لا احساسات (بشرية) بدون الانسان اذن الدرجة الاولى هي تجريد مثالي ميت ان ما نواجهه هنا من حيث جوهر الامر، ليس احساسات **بشرية** عادية ويعرفها الجميع، بل

احساسات مختلقة احساسات **ليست لأحد** احساسات **على العموم** ، احساسات ربانية مثلما غدت الفكرة الانسانية العادية عند هيغل ربانية ما ان فصلوها عن الانسان وعن الدماغ الانساني لتسقط الدرجة الاولى

ولتسقط الدرجة الثانية ايضاً لأن احداً من البشر لا يعرف والعلوم الطبيعة لا تعرف **النفسي قبل** الفيزيائي (والحال ان الدرجة الثانية تأتي عند بوغدانوف **قبل** الثالثة) فان العالم الفيزيائي كان موجوداً قبل ان يكون من الممكن ان يظهر النفسي بوصفه النتاج الاعلى للاشكال العليا للمادة العضوية ان الدرجة الثانية عند بوغدانوف هي كذلك تجريد ميت هي فكرة بدون دماغ هي عقل الانسان مفصولاً عن الانسان

ولكن اذا طرحنا جانباً الدرجتين الاوليين ففي وسعنا في هذه الحال وفي هذه الحال فقط ان نحصل على لوحة عن العالم متطابقة فعلاً مع العلوم الطبيعية ومع المادية ونعني بذلك ١ — العالم الفيزيائي موجود **بصورة مستقلة** عن وعي الانسان وكان موجوداً **قبل** الانسان بزمن طويل ، **قبل** اية «تجربة للناس» ٢ — النفسي الوعي والخ هي النتاج الاعلى للمادة (اي للفيزيائي) هي وظيفة ذلك القسم ذي التعقد الخاص من المادة الذي يسمى بدماغ الانسان

كتب بوغدانوف يقول «ان ميدان البديل يتطابق مع ميدان الظاهرات الفيزيائية فليس من المطلوب تبديل الظاهرات النفسية باي شيء لأنها مركبات مباشرة» (ص XXXIX)

وهذا بالذات هو المثالية لأن النفسي اي الوعي التصور الاحساس وما الى ذلك ، يؤخذ على انه **المباشر** ، بينما يستخلص الفيزيائي منه ويوضع تحته ان العالم هو **اللا — أنا** الذي صنعه **أنا**نا ، — هكذا قال فيخته . العالم هو الفكرة المطلقة ، — هكذا قال

هيغل .العالم هو الارادة ،–هكذا قال شوبنهاور العالم هو مفهوم وتصور–، هكذا يقول الكموني رمكه الوجود هو الوعي –هكذا يقول الكموني شوبه الفيزيائي هو بديل النفسي ،–هكذا يقول بوغدانوف لا بد ان يكون المرء اعمى لكي لا يرى كنهاً مثالياً واحداً في مختلف الحلل الكلامية

يكتب بوغدانوف في الطبعة الاولى من «الاحادية التجريبية» ص ١٢٨–١٢٩ يقول «لنطرح على انفسنا السؤال التالي ما هو «الكائن الحي» مثلاً «الانسان» ؟ ويجيب «ان الانسان» هو قبل كل شيء مركب معين من «انفعالات مباشرة»» لاحظوا «**قبل كل شيء**» !–«**وبعد ذلك** في سياق تطور التجربة اللاحق يظهر «الانسان» لنفسه وللآخرين جسمـــاً فيزيائيـــاً في عداد الاجسام الفيزيائية الاخرى»

ولكن هذا مجرد «مركب» هراء لا يصلح الا لاستخلاص خلود الروح او فكرة الاله وما الى ذلك. الانسان هو قبل كل شيء مركب انفعالات مباشرة ثم جسم فيزيائي **في التطور اللاحق** وهذا يعني انه توجد «انفعالات مباشرة» **بدون** جسم فيزيائي **قبل** الجســـم الفيزيائي من المؤسف ان هذه الفلسفة البديعة لم تصل بعد الى مدارسنا الدينية فهناك يستطيعون ان يقدروا جميع مزاياها

لقد اعترفنا بان الطبيعة الفيزيائية ذاتها **مشتقة** (حرف التأكيد لبوغدانوف) من مركبات ذات طابع مباشر (بينها التنسيقات النفسية) وانها انعكاس لمثل هذه المركبات في مركبات اخرى مماثلة لها ولكنها من الطراز الاشد تعقداً (في التجربة المنظمـــة اجتماعياً للكائنات الحية)» (ص ١٤٦)

ان الفلسفة التي تعلم ان الطبيعة الفيزيائية نفسها هـــي مشتقة انما هي فلسفة الاكليروس في أخلص مظاهرها وان طابعها هذا لا يتغير البتة من جراء تبرؤ بوغدانوف نفسه بشدة من

الدين كل دين فان دوهرينغ هو ايضاً كان ملحداً بل انه اقترح حتى منع الدين في بنيانه «الاشتراكي الكلي» ومع ذلك كان انجلس على كامل الحق عندما بين ان «نظام» دوهرينغ لا تترابط عراه بعضها مع بعض بدون الدين (٦٦) والشيء نفسه فيما يتعلق ببوغدانوف ولكن مع الفارق الجوهري التالي وهو ان المقطع المذكور ليس عدم انسجام من باب الصدفة بل كنه «احاديته التجريبية» وكل «بديله» فاذا كانت الطبيعة مشتقة فمن البديهي انه لا يمكن اشتقاقها الا من شيء ما اكبر واغنى واوسع واقدر من الطبيعة من شيء ما موجود لأنه لأجل «انتاج» الطبيعة ، لا بد من الوجود بصورة مستقلة عن الطبيعة وهذا يعني انه يوجد شيء **خارج** الطبيعة **وينتج** الطبيعة فضلاً عن ذلك وهذا ما يسمى بالروسية بالله ولقد حاول الفلاسفة المثاليون على الدوام ان يغيروا هذا الاسم الاخير وان يجعلوه اكثر تجريداً واشد غموضاً ، وفي الوقت نفسه (لأجل احتمال الصدق) اقرت الى «النفسي» بوصفه «مركباً مباشراً» بوصفه معطى مباشرة لا يتطلب ادلة ان الفكرة المطلقة الروح الشاملة ، الارادة العالمية ، «**البديل**» النفسي «**العام**» للفيزيائي ، – كل هذا انما هو الفكرة نفسها ولكن في صيغ مختلفة فان اي انسان يعرف – والعلوم الطبيعية تبحث – الفكرة ، الروح الارادة ، النفسي كوظيفة الدماغ الانساني العامل بصورة عادية اما فصل هذه الوظيفة عن المادة المنظمة بطريقة معينة وتحويل هذه الوظيفة الى تجريد شامل عام و«تبديل» كل الطبيعة الفيزيائية بهذا التجريد ، – فان هذا هذيان المثالية الفلسفية هذا تهكم بالعلوم الطبيعية

ان المادية تقول ان «التجربة المنظمة اجتماعياً للكائنات الحية» هي مشتق من الطبيعة الفيزيائية نتيجة لتطورها الطويل للتطور من حالة للطبيعة الفيزيائية لم تكن توجد فيها ولم يكن من

الممكن ان توجد فيها لا الاجتماعية ، ولا التنظيمية ولا التجربة ولا الكائنات الحية اما المثالية ، فانها تقول ان الطبيعة الفيزيائية مشتقة من هذه التجربة للكائنات الحية وبقول هذا تجعل المثالية الطبيعة مساوية للاله (هذا اذا كانت لا تخضعها له) لأن الاله هو بلا ريب مشتق من التجربة المنظمة اجتماعياً للكائنات الحية ومهما قلبتم الفلسفة البوغدانوفية فانها لا تحتوي اي شيء عدا التشوش الرجعي

يبدو لبوغدانوف ان الحديث عن التنظيم الاجتماعي للتجربة هو «اشتراكية عرفانية» (الكتاب الثالث ص XXXIV) هذه ترهات مجانين فان الجزويت ، - اذا حاكمنا على هذا النحو بصدد الاشتراكية ، - هم انصار متحمسون «للاشتراكية العرفانية» لأن نقطة الانطلاق في علم العرفان عندهم انما هي اله بوصفه «تجربة منظمة اجتماعياً» ولا ريب في ان الكاثوليكية هي تجربة منظمة اجتماعياً ولكنها لاتعكس الحقيقة الموضوعية (التي ينكرها بوغدانوف والتي يعكسها العلم) ، بل تعكس استغلال جهل الشعب من قبل طبقات اجتماعية معينة

واني الجزويت فاننا نجد «اشتراكية» بوغدانوف «العرفانية» بكليتها عند الكمونيين الذين يحبهم ماخ ويرى ليكلر الطبيعة عبارة عن الوعي «للنوع البشري» («Der Realismus etc.», S. 55*) وليس للفرد بمفرده وهذه الاشتراكية العرفانية الفيختية سيقدمها لكم الفلاسفة البرجوازيون قدر ما يطيب لكم فان شوبّه يؤكد هو ايضاً على das generische, das gattungsmäßige Moment des Bewußtseins (قارنوا ص ٣٧٩-٣٨٠ في

* «Der Realismus der modernen Naturwissenschaft im Lichte der von Berkeley und Kant angebahnten Erkenntniskritik», S. 55. **الناشر** .

«Vierteljahrsschrift für wissenschaftliche Philosophie»* المجلد ١٧) اي العنصر المشترك النوعي في المعرفة ان الظن ان المثالية الفلسفية تزول من جراء الاستعاضة عن وعي الفرد بوعي البشرية ، او عن تجربة فرد واحد بالتجربة المنظمة اجتماعياً انما يعني الظن ان الرأسمالية تزول من جراء الاستعاضة عن رأسمالي واحد بشركة مساهمة

وقد كرر صاحبانا الماخيان الروسيان يوشكيفيتش وفالنتينوف على اثر المادي رحمتوف ان بوغدانوف مثالي (وشتما فضلاً عن ذلك رحمتوف على المكشوف بشتائم العربدة والشقاوة) ولكنهما لم يستطيعا ان يمعنا الفكر لمعرفة منبع هذه المثالية ينجم عندهما ان بوغدانوف ظاهرة فردية ،صدفة حادثة خاصة هذا غير صحيح قد يخيل لبوغدانوف شخصياً انه قد اخترع نظاماً «اصيلاً» ولكن حسبنا ان نقارنه مع تلميذي ماخ المذكورين اعلاه حتى نرى زيف هذا الرأي فان الفرق بين بوغدانوف وكورنيليوس اقل كثيراً من الفرق بين كورنيليوس وكاروس والفرق بين بوغدانوف وكاروس اقل (من حيث النظام الفلسفي وليس بالطبع من حيث كون الاستنتاجات الرجعية واعية) من الفرق بين كاروس وتسيهن ، والخ وما بوغدانوف غير مظهر من مظاهر تلك «التجربة المنظمة اجتماعياً» التي تشهد على صيرورة الماخية الى المثالية وما كان من الممكن ان يظهر بوغدانوف (والمقصود هنا بالطبع **وعلى وجه الحصر** بوغدانوف بوصفه فيلسوفاً) في هذه الدنيا لو لم يتضمن مذهب معلمه ماخ «عناصر» . . من البركلية . ولا يسعني ان اتصور «انتقاماً» من بوغدانوف اشد «رعباً» مما لو ترجم كتابه «الاحادية التجريبية» الى اللغة الالمانية ، مثلاً واحيل

---

* «المجلة الفصلية للفلسفة العلمية» . **الناشر** .

الى ليكلر وشوبرت-زولدرن ، وكورنيليوس ، وكلينبيتر ، وكاروس وبيلون (معاون رينوفيه وتلميذه الفرنسي) من اجل ابداء الرأى ولو جرى ذلك لكان رفاق ماخ بالفكر الاكيدون هؤلاء واتباعه السافرون جزئياً قالوا بقبلاتهم الموجهـــة الى «التبديل» اكثر مما بمحاكماتهم

بيد ان من المشكوك ان يكون من الصحيح اعتبار فلسفـــة بوغدانوف نظاماً متكاملاً وجامداً ففي غضون تسع سنوات من ١٨٩٩ الى ١٩٠٨ اجتاز بوغدانوف اربعة اطوار في تيهانه الفلسفي . كان في البدء مادياً «طبيعياً تاريخياً» (اي لاواعياً نصفياً ووفيـــاً بصورة عفوية لروح العلوم الطبيعية) فان مؤلف «العناصر الاساسية في النظرة التاريخية الى الطبيعة» يحمل اثاراً بينة من هذا الطور الدرجـــة الثانية – النظرية الدارجة في اواخر العقد العاشر من القرن الماضي «نظرية الطاقـــة» التي ابتدعها اوستفالد اي اللاعرفانية المشوشة التي تنزلق هنا وهناك الى المثالية ومن اوستفالد (على غلاف كتاب اوستفالد «محاضرات في فلسفة الطبيعة» وردت عبارة «يهدى الى ا ماخ») انتقل بوغدانوف الى ماخ اي انه تبنى المقدمات الاساسية للمثالية الذاتية غير المنسجمة وغير المتتابعة مثلها مثل كل فلسفة ماخ الطور الرابع محاولات اقصاء بعض تناقضات الماخية وانشاء ما يشبه المثالية الموضوعية «ان نظرية التبديل العام» تبين ان طريق بوغدانوف ترسم قوساً من ١٨٠ درجة تقريباً ، ابتداء من نقطة انطلاقه وهذا الطور من الفلسفة البوغدانوفية أيقع ابعد ام اقرب الى المادية الدياليكتيكية مما كانت تقع الاطوار السابقة ؟ اذا كان يقع في مكان واحد فهو آنذاك أبعد بالطبع اما اذا كان يواصل التحرك الى امام في نفس الخط المتقوس الذي تحرك فيه خلال تسع سنوات فهو اقرب اذ تلزمه الآن خطوة جدية واحدة **فقط** لكي يستدير من جديد صوب المادية . اي بالضبط

لكي يطرح جانباً بصورة شاملة تبديله الشامل لأن هذا التبديل الشامل يجمع معاً في جديلة صينية واحدة جميع خطايا المثالية النصفية جميع جوانب ضعف المثالية الذاتية المنسجمة مثلما si licet parva componere magnis!) – هذا اذا كان يجوز تشبيه الصغير بالعظيم) – مثلما جمعت معاً «الفكرة المطلقة» لهيغل جميع تناقضات المثالية الكانطية وجميع جوانب ضعف الفيختية وبقيت لفورباخ خطوة جدية واحدة **فقط** لكي يستدير من جديد صوب المادية اي بالضبط لكي يطرح جانباً بصورة شاملة لكي يقصي بصورة مطلقة الفكرة المطلقة «تبديل» الطبيعة الفيزيائية الهيغلي هذا «بالنفسي» ولقد قص فورباخ الجديلة الصينية للمثالية الفلسفية اي انه اتخذ الطبيعة اساساً بدون اي «تبديل»

من يعش ير ما اذا كانت الجديلة الصينية للمثالية الماخية ستظل تنمو زمناً طويلاً

٦ – «نظرية الرموز» (او الهيروغليفات) ونقد هلمهولتز

اضافة الى ما قيل اعلاه عن المثاليين بوصفهم رفاقاً بالفكر وورثة للمذهب النقدي التجريبي سيكون من المناسب الاشارة الى طابع النقد الماخي لبعض من الموضوعات الفلسفية التي تناولتها مطبوعاتنا الفلسفية مثلاً ان اصحابنا الماخيين الذين يرغبون في ان يكونوا ماركسيين قد انقضوا بفرحة خاصة على «هيروغليفات» بليخانوف (٦٧) اي على النظرية التي تقول ان احساسات الانسان وتصوراته ليست نسخاً عن الاشياء والعمليات الفعلية في الطبيعة وليست صوراً لها بل علامات اصطلاحية ، رموز هيروغليفات وما ماثل ويسخر بازاروف من هذه المادية الهيروغليفية وتجب الاشارة الى ما يلي : لو انه رفض المادية الهيروغليفية في صالح

المادية غير الهيروغليفية **لكان على حق** ولكن بازاروف يستعمل هنا من جديد اسلوباً من اساليب الشعوذة ممرراً خلسة وتهريباً تنكره للمادية تحت راية نقد «الهيروغليفية» فان انجلس لا يتحدث لا عن الرموز ولا عن الهيروغليفات بل عن نسخ الاشياء صورها رسومها انعكاساتها في المرآة وعوضاً عن تبيان خطأ التراجع البليخانوفي عن الصيغة التي اعطاها انجلس عن المادية يحجب بازاروف عن القارىء حقيقة انجلس بخطأ بليخانوف

ولكي نوضح خطأ بليخانوف وتشويش بازاروف على السواء لنأخذ ممثلاً كبيراً «لنظرية الرموز» (ان المسألة لا تتغير بالاستعاضة عن كلمة الرموز بكلمة الهيروغليف) هو هلمهولتز ولنر كيف انتقد الماديون وكذلك المثاليون سوية مع الماخيين هلمهولتز

ان هلمهولتز شخصية كبيرة جداً في العلوم الطبيعية ولكنه كان في الفلسفة غير منسجم مثله مثل الاغلبية الساحقة من علماء الطبيعة فقد كان يميل الى الكانطية ولكنه لم يتمسك بوجهة النظر هذه بصورة منسجمة في علم العرفان اليكم ، مثلاً ، محاكمات من مؤلفه «علم البصريات الفيزيولوجية» بصدد اتفاق المفاهيم مع المواضيع لقد اعتبرت الاحساسات **رموزاً** للظاهرات الخارجية وقد رفضت كل تشبيه لها بالاشياء التي تمثلها» (ص ٥٧٩ من الترجمة الفرنسية ص ٤٤٢ من الاصل الالماني) هذه لاعرفانية ولكننا نقرأ فيما بعد في الصفحة ذاتها «ان مفاهيمنا وتصوراتنا هي **ردود فعل** تستثيرها في نظامنا العصبي وفي ادراكنا اشياء نراها او نتصورها» هذه مادية الا ان هلمهولتز يتصور بصورة غير واضحة العلاقة بين الحقيقة المطلقة والحقيقة النسبية ، كما يتبين من محاكماته اللاحقة . مثلاً . يقول هلمهولتز بعد ذلك بقليل :

«واني اعتقد بالتالي انه لا معنى البتة للتحدث عن حقيقة تصوراتنا الا بمعنى الحقيقة **العملية** ان التصورات التي نكونها عن الاشياء **لا يمكن ان تكون** سوى رموز ، سوى علامات طبيعية لأجل المواضيع علامات نتعلم استعمالها لأجل ضبط حركاتنا وافعالنا وعندما نتعلم تفسير هذه الرموز تفسيراً صحيحاً ، – فانه سيصبح في وسعنا بواسطتها ان نوجه افعالنا بحيث نتوصل الى النتيجة المنشودة» هذا غير صحيح فان هلمهولتز ينزلق هنا الى الذاتية ، الى انكار الواقع الموضوعي والحقيقة الموضوعية ويتمادى الى حد النطق بخطأ صارخ حين يختم المقطع بالكلمات التالية «ان الفكرة والموضوع الذي تمثله هما شيئان يعودان اغلب الظن الى عالمين مختلفين تماماً ولا يفصل على هذا النحو بين الفكرة والواقع بين الوعي والطبيعة غير الكانطيين ولكننا نقرأ بعد قليل «اما فيما يخص في المقام الاول صفات الاشياء الخارجية فحسبنا القليل من التفكير لكي نرى ان جميع الصفات التي نستطيع ان ننسبها اليها تعني بوجه الحصر **تأثير** اشياء خارجية اما في حواسنا واما في اشياء اخرى من اشياء الطبيعة» (ص ٥٨١ من الترجمة الفرنسية ص ٤٤٥ من الاصل الالماني واني اترجم نقلاً عن الترجمة الفرنسية) هنا ينتقل هلمهولتز من جديد الى وجهة نظر مادية لقد كان هلمهولتز كانطياً غير ثابت تارة يعترف بقوانين الفكر القبلية وطوراً يميل الى «واقعية» الزمان والمكان «المتعالية» (اي الى النظرة المادية اليهما) ، وحيناً يستخلص احساسات الانسان من الاشياء الخارجية المؤثرة في اعضاء حواسنا وحيناً آخر يعلن ان الاحساسات هي مجرد رموز اي علامات اعتباطية ما مفصولة عن عالم الاشياء المعنية «المختلف تماماً» (قارن :

Victor Heyfelder. «Über den Begriff der Erfahrung bei Helmholtz», Brl., 1897*).

اليكم كيف يعبر هلمهولتز عن نظراته في خطاب القاه عام ١٨٧٨ عن «الوقائع في الادراك» (وقد نعت ليكلر هذا الخطاب بانه «حدث كبير في المعسكر الواقعي») «ان احساساتنا ليست غير ردود فعل تستثيرها في اعضائنا اسباب خارجية اما كيف يتكشف رد الفعل هذا فان ذلك بالطبع يتوقف لدرجة كبيرة جداً على طابع الجهاز الذي يجري التأثير فيه وبما ان نوعية احساسنا تنبئنا بخواص التأثير الخارجي الذي استتبع هذا الاحساس ، – فمن الممكن اعتبار الاحساس **علامة** (Zeichen) له ولكن لا **صورة** عنه لأن المطلوب من الصورة تشابهاً معيناً مع الشيء المصور اما العلامة ، فلا يطلب منها اي تشابه مع ما هي علامته » («Vorträge und Reden», 1884, S. 226**) المجلد الثاني) . واذا لم تكن الاحساسات صور الاشياء بل كانت مجرد علامات او رموز «لا تشابه لها» معها فان مقدمة هلمهولتز المادية الانطلاقية تتقوض ويتعرض لبعض الشك وجود الاشياء الخارجية لأن العلامات او الرموز ممكنة تماماً حيال الاشياء الموهومة وكل امريء يعرف امثلة عن علامات او رموز **كهذه** ويحاول هلمهولتز اثر كانط ان يقيم ما يشبه حداً مبدئياً بين «الظاهرة» و«الشيء في ذاته» ويضمر هلمهولتز للمادية الصريحة ، الواضحة ، السافرة سوء ظن يستحيل تذليله ولكنه يقول مع ذلك فيما بعد بقليل «انا لا ارى كيف يمكن دحض نظام المثالية الذاتية الاشد تطرفاً التي قد ترغب في اعتبار الحياة حلماً من الاحلام يمكن القول عن هذا

---

* فكتور هايفلدر «في مفهوم التجربة عند هلمهولتز» برلين ، عام ١٨٩٧ **الناشر**

* * «تقارير وخطابات» ، سنة ١٧٧٤ ، ص ٢٢٦ . **الناشر** .

النظام انه غريب ، غير مرض اطلاقاً ، – واميل الى الانضمام في هذا الصدد الى اقوى تعابير الانكار ، – ولكنه من الممكن تطبيقه بتتابع .
ان الفرضية الواقعيـــة بالعكس تركن الى رأي (او شهادة Aussage) المراقبة الذاتية العادية ومفاده ان تغيرات الادراك التي تتتبع عملاً معيناً لا تمت باي صلة نفسية الى البثة السابقة من الارادة فان هذه الفرضية تعتبر ان كل ما تؤكده المدركات اليومية اي العالم المادي القائـــم خارجاً عنا موجود بصورة مستقلة عن تصوراتنا» (ص ٢٤٢–٢٤٣) . «لا ريب ان الفرضية الواقعية هي ابسط فرضية يمكننا ان نضعها ، فرضية مجربة ومؤكدة في ميادين للتطبيق في منتهى الاتساع ومحددة بدقـــة في مختلف اقسامها وبالتالي صالحة وناجعة الى اقصى حد بوصفها اساساً لأجل العمل» (ص ٢٤٣) ان لاعرفانية هلمهولتز تشبه هي ايضاً «مادية خجلة» مرفقـــة بالتهجمات الكانطية خلافاً لتهجمات هكسلي البركلية
ولهذا ينتقد البريخت راو تابع فورباخ انتقاداً قاطعـــاً نظرية الرموز لهلمهولتز بوصفها تراجعاً لامبدئياً عن «الواقعية» يقول راو ان نظرة هلمهولتز الاساسية هي مقدمة واقعية «نعرف» بموجبها «بمساعدة حواسنا خواص الشيء الموضوعية» * ان نظرية الرموز لا تتوافق مع نظرة كهذه (مادية تماماً كما رأينا) لأنها تحمل نوعاً من عدم الثقة حيال الحساسية من عدم الثقة حيال شهادات اعضاء حواسنا ولا جدال في ان الصورة لا يمكن لها ابداً ان تشبه الموديل كلياً ولكن الصورة شيء والرمز **العلامـــة الاصطلاحية** شيء آخر فان الصورة تفترض بالضرورة ومن كـــل بد الواقعية الموضوعية لما هو «مصور» اما «العلامة الاصطلاحية»

---

* Albrecht Rau. «Empfinden und Denken», Giessen, 1896. S. 304
(البريخت راو «الاحساس والتفكير» ، غيسن ، عام ١٨٩٦ ، ص ٣٠٤ **الناشر**) .

الرمز الهيروغليف فهي مفاهيم تحمل معا عنصر اللاعرفانية غير الضروري ابداً ولذا كان ا راو على حق تام حين يقول ان هلمهولتز يدفع بنظرية الرموز جزية للكانطية يقول راو «لو ان هلمهولتز ظل مخلصاً لنظرته الواقعيــــة ولو تمسك بثبات بالمبدأ القائل ان خواص الاجسام تعبر عن علاقات الاجسام فيمـا بينها وعن علاقاتها معنا لما كان بحاجة اغلب الظن الى كل نظرية الرموز هذه لكان بوسعه في هذه الحال ان يقول بايجاز ووضوح «الاحساسات التي تستثيرها فينا الاشياء هي صور لماهية هذه الاشياء» (المرجع نفسه ص ٣٢٠)

هكذا ينتقد مادي هلمهولتز فهو يرفض المادية الهيروغليفية او الرمزية او المادية النصفية عند هلمهولتز باسم مادية فورباخ المنسجمة

ثم ان المثالي ليكلر (ممثل «المدرسة الكمونية» المستطابة على عقل ماخ وقلبه) يتهم هو ايضاً هلمهولتز بعدم الثبات بالتأرجح بين المادية والروحانية («Der Realismus etc.» S. 154*) ولكن نظرية الرموز ليست بنظر ليكلر مادية بصورة غير كافيــة بل مادية اكثر من اللزوم وقد كتب ليكلر يقول «يعتقد هلمهولتز ان مدركات وعينا تعطي نقاط ارتكاز كافية لأجل معرفـــة التتابع في الزمان وتماثل الاسباب المتعالية او اختلافهـــا وهذا كاف بنظر هلمهولتز لأجل افتراض نظام طبيعي في ميدان المتعالي» (ص ٣٣ ، – اي في ميدان الواقعي الموضوعي) ويبرق ويرعد ليكلر ضد هذا «الوهم الاعتقادي لهلمهولتز» ويهتف قائلاً «ان الاله اللبركلي بوصفه السبب الفرضي للنظام **الطبيعي** للافكار في وعينا ،

* «Der Realismus der modernen Naturwissenschaft im Lichte der von Berkeley und Kant angebahnten Erkenntniskritik», S. 154. – **الناشر** .

يستطيع على اقل تقدير ان يلبي حاجتنا الى تفسير سببي كما يلبيها عالم الاشياء الخارجية» (ص ٣٤) «ان تطبيق نظرية الرموز بانسجام يستحيل بدون شوائب كثيرة من الواقعية المبتذلة» (ص ٣٥) – اي من المادية

هكذا قرّع «المثالي الناقد» في عام ١٨٧٩ هلمهولتز بسبب ماديته وبعد عشرين سنة عمد كلينبيتر تلميذ ماخ الذي اطراه ماخ ودحض هلمهولتز «الشائخ» بواسطة فلسفة ماخ «الحديثة» في مقالته «بصدد النظرات المبدئية الى الفيزياء عند ارنست ماخ وهنريخ هرتس» * على النحو التالي لندع جانباً موقتاً هرتس (الذي كان غير منسجم من حيث الجوهر مثل هلمهولتز) ولنر الى المقارنة التي اجراها كلينبيتر بين ماخ وهلمهولتز فان كلينبيتر يسوق جملة من المقتبسات من الكاتبين ويؤكد بتشديد خاص على تصريحات معروفة لماخ مفادها ان الاجسام هي رموز تصورية لأجل مركب الاحساسات والخ ويقول

«اذا تتبعنا مجرى فكر هلمهولتز ، فاننا نجد المقدمات الاساسية التالية

١ – توجد مواضيع العالم الخارجي

٢ – ان تغيير هذه المواضيع غير ممكن بدون تأثير سبب ما (على اعتباره سبباً واقعياً)

٣ – «السبب حسب معنى هذه الكلمة الاولي ، هو ما يبقى بدون تغير بوصفه باقياً او موجوداً وراء الظواهر المتعاقبة اي بالضبط المادة وقانون فعلها القوة» (مقتبس اخذه كلينبيتر عن هلمهولتز)

---

* «Archiv für Philosophie», (٦٨) II, Systematische Philosophie, Band V, 1899, SS. 163–164 على الاخص («ارشيف الفلسفة» القسم الثانى . الفلسفة النظامية ، المجلد ٥ ، عام ١٨٩٩ ، ص ١٦٣–١٦٤ على الاخص . الناشر) .

٤ – يمكن استخلاص جميع الظواهر من اسبابها بطريقة صارمة ووحيدة المدلول على صعيد المنطق
٥ – ان بلوغ هذا الهدف يعني امتلاك الحقيقة الموضوعية التي يعتبر اكتسابها (Erlangung) بالتالي امراً ممكناً» (ص ١٦٣).

ويستاء كلينبيتر من هذه المقدمات وتناقضها وخلق قضايا لا حل لها ويشير الى ان هلمهولتز لا يتقيد بدقة بهذه النظرات اذ يستعمل احياناً «اساليب في الكلام شبيهة نوعاً بفهم ماخ فهماً منطقياً صرفاً بعض الشيء لكلمات» المادة والقوة والسبب والخ

«ليس من الصعب ان نجد مبعث عدم رضانا من هلمهولتز اذا تذكرنا كلمات ماخ الرائعة والواضحة للغاية الفهم الخاطىء لكلمات الكتلة القوة والخ هذا ما يشوب محاكمة هلمهولتز كلها فان هذه الكلمات مجرد مفاهيم مجرد منتوجات لخيالنا وليست البتة اشياء واقعية موجودة خارج التفكير ليس بمقدورنا اطلاقاً ان نعرف اية اشياء واقعية ومن مراقبات حواسنا، ليس بمقدورنا على العموم، من جراء عدم كمالها، ان نستخلص فقط استنتاجاً ذي مدلول واحد ولا يمكننا ابداً ان نؤكد اننا مثلاً سنحصل على عدد معين واحد اذا شاهدنا مقياساً مدرجاً معيناً (durch Ablesen einer Skala) فمن الممكن دائماً ضمن حدود معينة وجود اعداد كثيرة الى ما لا نهاية له تتطابق جيداً بالقدر نفسه مع وقائع المشاهدة اما ان نعرف شيئاً واقعياً قائماً خارجاً عنا فاننا عاجزون تماماً عن هذا افترضوا حتى ان هذا ممكن واننا عرفنا اشياء واقعية ففي هذه الحال لن يكون من حقنا ان نطبق عليها قوانين المنطق لأنها قوانيننا **نحن** وانه لا يمكن تطبيقها الا على مفاهيمنا **نحن** على منتوجات فكرنا **نحن** (حرف التأكيد في كل مكان لكلينبيتر). فبين الوقائع لا توجد صلة منطقية، بل يوجد مجرد تتابع؛ وهنا تستحيل الاحكام الدامغة. فليس من

الصحيح بالتالي القول ان واقعاً هو سبب واقع آخر ومع هذا الزعم يسقط كل استنتاج هلمهولتز المبني على هذا المفهوم واخيراً يستحيل بلوغ الحقيقة الموضوعية اي الموجودة بصورة مستقلة عن اي ذات ويستحيل ذلك لا بحكم خصائص حواسنا وحسب بل ايضاً لأننا لا نستطيع على العموم لكوننا بشراً (wir als Menschen) ان نكوّن ابداً اي تصور عما هو موجود بصورة مستقلة تماماً عنا» (ص ١٦٤)

ويرى القارئ ان صاحبنا تلميذ ماخ مع تكراره الكلمات المفضلة لدى معلمه ولدى بوغدانوف الذي لا يعتبر نفسه ماخياً ، انما ينبذ كل فلسفة هلمهولتز بمجملها ينبذها من وجهة النظر المثالية بل ان المثالي حتى لا يبرز بنحو خاص نظرية الرموز اذ انه يعتبرها انحرافاً عن المادية غير هام ولربما من باب الصدفة ولكن كلينبيتر يعتبر هلمهولتز ممثلاً «للنظرات التقليدية في الفيزياء» «هذه النظرات التي يتمسك بها الآن الفيزيائيون بمعظمهم» (ص ١٦٠)

وبالنتيجة يتبين لنا ان بليخانوف اقترف خطأ بيناً في عرضه للمادية وان بازاروف شوش المسألة كلياً حيث خلط في كومة واحدة المادية والمثالية وقابل «نظرية الرموز» او «المادية الهيروغليفية» بهراء مثالي يزعم ان «التصور الحسي هو بالذات الواقع الموجود خارجاً عنا» وعن الكانطي هلمهولتز كما عن كانط نفسه مضى الماديون الى اليسار والماخيون الى اليمين

٧ ـ بصدد نقد دوهرينغ المزدوج

لنشر الى سمة صغيرة مميزة اخرى في تشويه الماخيين للمادية تشويهاً هائلاً فان فالنتينوف يريد ان يهزم الماركسيين بمقارنة مع بوخنر الذي ، كما يزعم ، تجمعه ببليخانوف كثرة من الاشياء

المتماثلة ، رغم ان انجلس فصل نفسه بكل حدة ووضوح عن بوخنر اما بوغدانوف الذي تناول المسألة نفسها من جانب آخر فكأنه يدافع عن «مادية علماء الطبيعيات» التي «من المعتاد التحدث عنها بازدراء» («الاحادية التجريبية» ، الكتاب الثالث ، ص X) ولكن فالنتينوف وبوغدانوف على السواء يخبصان هنا بوقاحة . فان ماركس وانجلس قد «تحدثا» دائماً «بازدراء» عن الاشتراكيين الاردياء ، ولكنه ينجم من هنا ان ما يتطابق مع روحهما هو مذهب الاشتراكيـــة الصحيحة العلمية وليس الانتقالات من الاشتراكية الى النظرات البرجوازية وقد ندد ماركس وانجلس على الدوام بالمادية **الرديئة** (وبصورة رئيسية بالمادية المنافية للدياليكتيك) ولكنهمـــا نددا بها من وجهة نظر مادية اعلى اكثر تطوراً هي **الماديـــة** الدياليكتيكية وليس من وجهة نظر الهيومية او البركلية وعن الماديين الارد ياء تحدث ماركس وانجلس وديتزغـــن باكتراث راغبين في ان يصلحوا اخطاءهم ولكنهم ما كانوا رغبوا حتى في التحدث عن الهيوميين والبركليين ، وعن ماخ وافيناريوس واكتفوا بملاحظة اشد ازدراء بحق **كل** اتجاههم ولهذا فان تصعيرات اصحابنـــا الماخيين اللامتناهية وتكشيراتهم بصدد هولباخ وشركاه وبوخنر وشركاه والخ تعني كلياً وبوجه الحصر ذر الرماد في عيون الجمهور ، وتغطية تراجع الماخية كلها عن اسس المادية بوجه عام ، وخوفاً من التحاسب بصراحة ووضوح مع انجلس

ومن الصعب الاعراب عن الرأي بشكل اوضح ممـــا اعرب انجلس عن رأيه في المادية الفرنسية في القرن الثامن عشر وفي بوخنر وفوغت ومولیشوت في نهاية الفصل الثاني من مؤلفه «لودفيغ فورباخ» **ولا يسع** المرء ان لا يفهم انجلس اذا **كان لا يرغـــب** في تشويهـــه . نحن ، ماركس وانا ، ماديان . هكذا يقـــول

انجلس في هذا الفصل موضحاً الفرق **الاساسي** الذي يميز جميع مدارس المادية عن **كل معسكر** المثاليين، عن كل الكانطيين والهيوميين عامة وان انجلس **يلوم فورباخ على بعض من خور العزيمة** وعلى الخفة اللذين تجليا في كونه قد تبرأ في بعض الاماكن من المادية بوجه عام بسبب من اخطاء هذه او تلك من مدارس الماديين يقول انجلس ان فورباخ «لم يكن من حقه (durfte nicht) ان يخلط بين مذهب المبشرين المتجولين (بوخنر وشركاه) وبين المادية على العموم» (ص ٢١) (٦٩) ان الرؤوس التي افسدتها مطالعة تعاليم البروفسورات الرجعيين الالمان والايمان الاعمى بصحتها هي وحدها التي كان بمقدورها **ان لا تفهم** طابع **مثل هذه** الملامات التي وجهها انجلس الى فورباخ

يقول انجلس بوضوح ما بعده وضوح ان بوخنر وشركاه «لم يتخطوا في شيء حدود تعاليم معلميهم» اي ماديي القرن الثامن عشر، ولم يقوموا **باية خطوة الى الامام** وعلى هذا، **وعلى هذا فقط** يلوم انجلس بوخنر وشركاه لا على ماديتهم كما يظن الجهلاء بل على انهم **لم يدفعوا** المادية **الى امام** على انه «**حتى لم يخطر لهم في البال تطوير نظرية**» المادية «**الى ابعد**». على هذا **فقط** يلوم انجلس بوخنر وشركاه وعلى الفور يعدد انجلس **بنداً بنداً، ثلاث** «محدوديات» (Beschränktheit) اساسية عند الماديين الفرنسيين في القرن الثامن عشر تخلص منها ماركس وانجلس ولكن لم يستطع ان يتخلص منها بوخنر وشركاه المحدودية الاولى كان مفهوم الماديين القدماء «ميكانيكياً» **بمعنى** انهم «طبقوا اصول الميكانيك بوجه الحصر على العمليات الجارية في الطبيعة الكيماوية والعضوية» (ص ١٩) وسنرى في الفصل التالي كيف اسفر عدم فهم كلمات انجلس هذه عن انحراف بعض الناس الى المثالية بسبب من الفيزياء الجديدة. فان انجلس ينبذ المادية **الميكانيكية** ليس

لنفس ما يتهمها به الفيزيائيون من الاتجـــاه المثالي (والماخي ايضاً) «الحديث» المحدودية الثانية ميتافيزيائية نظرات الماديين القدماء بمعنى «**كون فلسفتهم منافية للدياليكتيك**» وهـــذه المحدودية يشاطرها كلياً مع بوخنر وشركاه اصحابنا الماخيون الذين كما رأينا لم يفهموا شيئاً على الاطلاق فيما يتعلق بتطبيق انجلس للدياليكتيك على علم العرفان (الحقيقة المطلقة والنسبية مثلاً) المحدودية الثالثة الاحتفاظ بالمثالية «في اعلى» في ميدان العلوم الاجتماعية وعدم فهم المادية التاريخية

وبعد ان عدد وفسّر انجلس هذه «المحدوديـات» الثلاث بوضوح يستنفد المسألـــة (ص ١٩-٢١) اضاف **في الحال** ان بوخنروشركاه لم يتجاوزوا «**هذه الحدود**» (über diese Schranken).

وبسبب هذه الاشياء الثلاثة **بوجه الحصر** وضمن هذه الحدود **بوجه الحصر** ينبذ انجلس سواء مادية القرن الثامن عشر ام تعاليم بوخنر وشركاه اما في جميع مسائل المادية الاخرى وهي مسائل ابسط (شوهها الماخيون) **فليس هناك ولا يمكن ان يكون اي فرق** بين ماركس وانجلس من جهة، وجميع هؤلاء الماديين القدماء من جهة اخرى والتشوش في هذه المسألة الواضحة تماماً قد جاء به الماخيون الروس وحدهم دون غيرهم لأن معلميهم ورفاقهم بالفكر الاوروبيين الغربيين يرون بجلاء الاختلاف الجذري بين خط ماخ وشركاه وخط الماديين على العمــوم وقد احتــاج اصحابنا الماخيون الى تشويش المسألة لكي يظهروا قطيعتهم مع الماركسية وانتقالهم الى معسكر الفلسفة البرجوازية بمظهر «تعديلات طفيفة» على الماركسية

خذوا دوهرينغ من الصعب ان نتصور ما هو اشد اتساماً بالازدراء من آراء انجلس عنه ولكن انظروا **كيف انتقد ليكلر دوهرينغ هذا ذاته في نفس الوقت الذي انتقده فيـــه انجلس**،

وكيف اطرى «فلسفة» ماخ «المثورة» فان دوهرينـــغ هو بنظر ليكلر **«اليسارية المتطرفة» في** المادية «وهي تعلن على المكشوف ان الاحساس مثله مثل كل مظهر للوعي والعقل بوجه عام هو افراز العضوية الحية وظيفتها زهرتها العليا مفعولها الاجمالي وما الى ذلك» .(Der Realismus والخ ، عام ١٨٧٩ ص ٢٣ – ٢٤ *)

فهل على هذا انتقد انجلس دوهرينغ ؟ كلا ففي هذا **اتفق تماماً في الرأي** مع دوهرينغ كما مع اي مادي آخر لقد انتقد انجلس دوهرينغ من وجهة نظر مضادة تماماً ، انتقده على عدم انسجام ماديته على نزواته المثالية التي تترك منفذاً امام الايمانية

«ان الطبيعة نفسها تعمل في الكائن الذي يملك تصورات وكذلك من خارجه على ان تخلق بطريقة طبيعية مفاهيم واضحة وان تكوّن المعرفة الضرورية عن مجرى الاشياء» ان ليكلر يورد كلمات دوهرينغ هذه وينقض بجنون على المادية التي تتبنى وجهة النظر هذه على «الميتافيزياء الخشنة غاية الخشونة» الملازمة لهذه المادية على «خداع النفس» وهلم جراً وهكذا دواليك (ص ١٦٠ و ١٦١ – ١٦٣)

فهل على هذا انتقد انجلس دوهرينغ ؟ كلا لقد سخر انجلس من كل تزويق في الكلام ولكن **انجلس اتفق تماماً في الرأي مع دوهرينغ** كما مع اي مادي آخر فيما يتعلق بالاعتراف بالسنة الموضوعية للطبيعة التي يعكسها الوعي

«ان التفكير هو الشكل الاعلى للواقع الباقي كله

«ان المقدمة الاساسية للفلسفة انما هي استقلالية وتميز العالم

---

* «Der Realismus der modernen Naturwissenschaft im Lichte der von Berkeley und Kant angebahnten Erkenntniskritik», 1879, S. 23–24 **الناشر** .

الواقعي موضوعياً عن فئة ظاهرات الوعي التي تنبثق في هذا العالم وتعرفه» هذه الكلمات يوردها ليكلر مع جملة من تهجمات دوهرينغ على كانط والخ ويتهم دوهرينغ من جراء ذلك «باليتافيزياء» (ص ٢١٨-٢٢٢) ، بالاعتراف «بالعقيدة الميتافيزيائية» ، وما ماثل.

فهل على هذا انتقد انجلس دوهرينغ ؟ كلا ففيما يتعلق بكون العالم موجوداً بصورة مستقلة عن الوعي وبكون كل تراجع عن هذه الحقيقـــة من جانب الكانطيين والهيوميين والبركليين والخ هو زيف اتفق انجلس تماماً في الرأي مع دوهرينغ كما مع اي مادي آخر ولو ان انجلس رأى **من اي جانب** يوجه ليكلر بمصاحبة ماخ النقد الى دوهرينغ لكان نعت هذين الرجعيين الفلسفيين بتعابير اشد اتساماً بالازدراء **بمائة مرة مما** نعت بها دوهرينغ فان دوهرينغ كان بنظر ليكلر صورة مجسدة للواقعية والمادية الخبيثتين (قارنوا ايضاً «Beiträge zu einer monistischen Erkenntnistheorie», 1882, S. 45) اما شوبه معلم ماخ ورفيقه في الفكر فقد اتهم دوهرينغ في عام ١٨٧٨ «بالواقعية الهذيانية» Traumrealismus * ثأراً لنعت «المثالية الهذيانية» الذي اطلقه دوهرينغ ضد جميع المثاليين اما بنظر انجلس فالامر **على العكس بالضبط** فان دوهرينغ كان مادياً **على درجة غير كافية** من الوضوح والانسجام

ولقد دخل ماركس وانجلس وي ديتزغن على السواء حلبة الفلسفة في وقت كانت تسود فيه المادية في اوساط المثقفين الطليعيين على العموم وفي اوساط العمال على الخصوص ولهذا

---

* Dr. Wilhelm Schuppe. «Erkenntnistheoretische Logik», Bonn, 1878, S. 56 (الدكتور ولهلم شوبه «المنطق العرفاني النظري» ، بون ، عام ١٨٧٨ ، ص ٥٦ . **الناشر**) .

من الطبيعي تماماً ان يكون ماركس وانجلس قد وجها كل انتباههما لا الى تكرار القديم بل الى **تطوير** المادية تطويراً نظرياً جدياً الى تطبيقها على التاريخ اي الى **استكمال بناء** صرح الفلسفة المادية **تماماً وكلياً** ومن الطبيعي تماماً ان يكونا **قد اكتفيا** في ميدان علم العرفان باصلاح اخطاء فورباخ وبالسخر من تفاهات المادي دوهرينغ وبنقد اخطاء بوخنر (راجعوا ي ديتزغن) ، وبالاشارة الى ما افتقر اليه **على الاخص** هؤلاء الكتاب الاوسع شعبية وشهرة في اوساط العمال عنينا به الديالكتيك اما الحقائق الاولية للمادية التي زعق بها المبشرون المتجولون في عشرات المطبوعات ، فان ماركس وانجلس وديتزغن لم يأبهوا بها ، بل وجهوا كل انتباههم للحيلولة دون ابتذال هذه الحقائق الاولية ودون تبسيطها بافراط ولكي لا تؤدي الى تحجر الفكر («المادية من تحت المثالية من فوق») الى نسيان الثمرة **القيمة** للانظمة المثالية الى نسيان الديالكتيك الهيغلي - هذه الدرة التي لم يستطع الديوك بوخنر ودوهرينغ وشركاهما (مع ليكلر وماخ وافيناريوس وخلافهم) ان يفرزوها من كومة زبل المثالية المطلقة

واذا تصورنا بصورة ملموسة نوعاً هذه الظروف التاريخية لمؤلفات انجلس وي ديتزغن الفلسفية اتضح لنا تماماً لماذا **تجنبا** ابتذال الحقائق الاولية للمادية **اكثر** مما **دافعا** عن هذه الحقائق بالذات كذلك تجنب ماركس وانجلس ابتذال المطالب الاساسية للديموقراطية السياسية اكثر مما دافعا عن هذه المطالب بالذات

ان تلامذة الرجعيين الفلسفيين هم وحدهم استطاعوا ان «لا يلحظوا» هذا الامر وان يصوروا المسألة للقراء بحيث يبدو كأن ماركس وانجلس لم يفهما ما يعنيه ان يكون المرء مادياً .

٨ ـ كيف امكن ان أعجب يوسف ديتزغن الفلاسفة الرجعيين ؟

ان المثال المذكور اعلاه عن غلفوند يتضمن الجواب عن هذا السؤال ، ولن نتتبع الحالات التي لا عد لها من معاملة اصحابنا الماخيين لديتزغن على طريقة هلفوند فمن الاصوب ان نسوق جملة من محاكمات ي ديتزغن نفسه لكي نبين جوانب ضعفه

يقول ديتزغن «ان الفكر هو وظيفة الدماغ» (Das Wesen» der menschlichen Kopfarbeit», 1903, S. 52 توجد ترجمة روسية «جوهر عمل الرأس») «الفكر هو نتاج الدماغ ان مكتبي بوصفه مضمون فكري يتطابق مع هذا الفكر لا يختلف عنه ولكن هذا المكتب خارج رأسي هو موضوعه مختلف تماماً عنه» (ص ٥٣) ولكن ديتزغن يكمل هذه الموضوعات المادية الواضحة تماماً بما يلي «ولكن التصور غير الحسي هو ايضاً حسي مادي اي فعلي ان الروح لا تختلف عن المكتب والنور والصوت اكثر مما تختلف هذه الاشياء بعضها عن بعض» (ص ٥٤) هنا خطأ بين اما ان الفكر والمادة هما على السواء «فعليان» اي موجودان فان هذا صحيح ولكن القول عن الفكر بانه مادي انما يعني القيام بخطوة خاطئة نحو خلط المادية بالمثالية وهذا على الارجح من حيث جوهر الامر هفوة في التعبير اذ ان ديتزغن يقول بصورة صحيحة في مكان آخر «ان للروح والمادة على الاقل امراً مشتركاً هو انهما موجودان» (ص ٨٠) ويقول ديتزغن «التفكير هو عمل جسماني فلأجل التفكير احتاج الى مادة يمكن التفكير بها وهذه المادة معطاة لنا في ظاهرات الطبيعة والحياة المادة هي حد الروح والروح لا تستطيع ان تتجاوز حدود المادة . الروح هي نتاج المادة ،

ولكن المادة هي شيء اكبر من نتاج الروح . . .» (ص ٦٤) الا ان الماخيين يستنكفون عن تحليل مثل هذه المحاكمات المادية للمادي ي ديتزغن فهم يفضلون التشبث بالتشوش وعدم الدقة عند ديتزغن مثلاً يقول ديتزغن انه من الممكن ان يكون علماء الطبيعيات «مثاليين في خارج ميدانهم فقط» (ص ١٠٨) فهل هكذا هو الحال ولماذا ؟ ان الماخيين يلزمون الصمت في هذا الصدد ولكن ديتزغن يعترف في صفحة سابقة «بالجانب الايجابي للمثالية المعاصرة» (ص ١٠٦) و«بناقصة المبدأ المادي» الامر الذي لا بد له ان يفرح الماخيين ان الفكرة التي عبر عنهـا ديتزغن باسلوب غير صحيح تتلخص فيما يلي ان اختلاف المادة عن الروح هو ايضاً **نسبي ، وليس مفرطاً** (ص ١٠٧) هذا صحيح ، ولكن ما ينبع من هنا ليس ناقصة المادية بل ناقصة المادية الميتافيزيائية المنافية للديالكتيك

«ان الحقيقة البسيطة العلمية لا ترتكز على الفرد فان اسسها تقع في الخارج (اي في خارج الفرد) في مادتها وهي حقيقة موضوعية نحن نسمي انفسنا بالماديين ان الماديين الفلسفيين يتصفون بكونهم يضعون العالم الجسماني في البداية في الطليعة بينما يعتبرون الفكرة او الروح عاقبة في حين ان الخصوم يستخلصون الاشياء من الكلمة ، على طريقة الدين يستخلصون العالم المادي من الفكرة» («Kleinere philosophische Schriften», 1903, S. 59, 62*) بيد ان الماخيين يتحاشون هذا الاعتراف بالحقيقة الموضوعية وهذا التكرار لتعريف المادية على **طريقة انجلس** ولكن ها هو ذا ديتزغن يقول «كان بوسعنا ان نسمي انفسنا بالقدر نفسه من الحق بالمثاليين لأن

* «مؤلفات فلسفية صغيرة» . عام ١٩٠٣ ، ص ٥٩ ، ٦٢ . **الناشر** .

نظامنا يرتكز على النتيجة الاجمالية للفلسفة على دراسة الفكرة دراسة علمية على الفهم الواضح لطبيعة الروح» (ص ٦٣) ليس من الصعب التشبث بهذه الجملة البينة الخطأ لأجل التبرؤ من المادية اما في الواقع فان صيغة ديتزغن هي اكثر خطأ من الفكرة الاساسية التي تتلخص في الاشارة الى ان المادية القديمة لم تستطع ان تدرس الافكار دراسة علمية (بمساعدة المادية التاريخية)

واليكم محاكمة ديتزغن بصدد المادية القديمة «كما ان فهمنا للاقتصاد السياسي هو مكسب علمي تاريخي كذلك هي المادية وكما نتميز بوضوح تام عن اشتراكيي الماضي كذلك نتميز عن الماديين السابقين ولا يجمع بيننا وبين هؤلاء الاخيرين سوى اعترافنا بان المادة هي مقدمة الفكرة او اساسها الاول» (ص ١٤٠) ما اكثر ما تدل عليه هذه الكلمة «سوى» ! فهي تنطوي على **جميع** الاسس العرفانية للمادية **خلافاً** للاعرفانية والماخية والمثالية. ولكن انتباه ديتزغن يرمي الى التنصل من المادية المتبذلة.

ولكن فيما بعد يأتي مقطع غير صحيح ابداً «يجب توسيع مفهوم المادة والى هنا تعود جميع ظاهرات الواقع وبالتالي قدرتنا على المعرفة والايضاح» (ص ١٤١) هذا تشويش من شأنه ان يخلط المادية والمثالية فحسب تحت ستار «توسيع» الاولى ان التشبث بمثل هذا «التوسيع» يعني نسيان **اساس** فلسفة ديتزغن اي الاعتراف بان المادة هي الاولية هي «حد الروح» وبعد بضعة اسطر يصلح ديتزغن بنفسه من حيث جوهر الامر خطأه «الكل يوجه الجزء المادة توجه الروح» (ص ١٤٢) «بهذا المعنى نستطيع ان نرى الى العالم المادي بوصفه السبب الاول بوصفه خالق السماء والارض» (ص ١٤٢) . اما انه يجب ادراج الافكار ايضاً في مفهوم المادة ،

كما يردد ديتزغن في «جولات» (ص ٢١٤ من الكتاب المذكور) فان هذه لخبطة لأن معارضة الروح بالمادة المثالية بالمادية على اساس علم العرفان ، — هذه المعارضة التي يصر عليها ديتزغن نفسه ، — تفقد معناها في حالة هذا الادراج اما انه يجب ان لا تكون هذه المعارضة «مفرطة» ، مضخمة ، ميتافيزيائية فان هذا امر لا جدال فيه (والتأكيد على هذا مأثرة المادي **الدياليكتيكي** ديتزغن الكبيرة) ان حدود الضرورة المطلقة والصحة المطلقة لهذه المعارضة النسبية هي بالضبط الحدود التي تعين **اتجاه** الدراسات العرفانية وانه لمن الخطأ الفادح اللجوء فيما وراء هذه الحدود الى التضاد بين المادة والروح بين الفيزيائي والنفسي بوصفه تضاداً مطلقاً

ان ديتزغن يعرب عن افكاره باسلوب مائع مبهم اشبه بالخبيص — خلافاً لانجلس ولكنه ، مع التغاضي عن نواقص العرض والاخطاء الجزئية لا يدافع عبثاً عن «**نظرية العرفان المادية**» (ص٢٢٢ وكذلك ص ٢٧١) عن «**المادية الدياليكتيكية**» (ص ٢٢٤) يقول ديتزغن «ان نظرية العرفان المادية تتلخص في الاعتراف بان عضو المعرفة الانساني لا يشع باي نور ميتافيزيائي بل هو قطعة من الطبيعة تعكس قطعات اخرى من الطبيعة» (ص ٢٢٢ — ٢٢٣) «ان القدرة العرفانية ليست مصدراً ما خارق الطبيعة للحقيقة بل اداة شبيهة بالمرآة تعكس اشياء العالم او الطبيعة» (ص ٢٤٣) ان اصحابنا الماخيين العميقي التفكير يتحاشون تحليل كل موضوعة بمفردها من موضوعات **نظرية العرفان المادية** لدى ي ديتزغن ويتشبثون **بتراجعاته** عنها بالغموض واللخبطة وقد امكن ان اعجب ي ديتزغن الفلاسفة الرجعيين لأنه يلخبط في بعض الاماكن وحيث تكون اللخبطة ، يكون الماخيون ؛ وهذا غدا من البديهيات .

في ٥ كانون الاول (ديسمبر) ١٨٦٨ كتب ماركس الى كوغلمان يقول «من زمان ارسل الي ديتزغن مقطعاً من مخطوطة عن «مقدرة التفكير» يتضمن رغم بعض التشوش في المفاهيم ورغم الافراط في التكرار ، كثرة من الافكار الممتازة والجديرة بالاعجاب بوصفها نتاج تفكير مستقل من عامل» (ص ٥٣ الترجمة الروسية) ان السيد فالنتينوف يورد هذا الرأي **ولا يخطر في باله** ان يتساءل فيم استشف ماركس **التشوش** عند ي ديتزغن أفيما يقرب ديتزغن من ماخ ام فيما يميز ديتزغن عن ماخ ؟ ان السيد فالنتينوف لم يطرح هذا السؤال لأنه قرأ ديتزغن وقرأ رسائل ماركس ايضاً على طريقة بتروشكا بطل قصة غوغول والحال ليس من الصعب ايجاد الجواب عن هذا السؤال فان ماركس قد سمى غير مرة عقيدته بالمادية الدياليكتيكيـة كما ان مؤلف انجلس «ضد دوهرينغ» **الذي قرأه ماركس كله في المخطوطة** ، يعرض هذه العقيدة بالضبط ومن هنا كان بوسع السادة امثال فالنتينوف ان يفهمـوا ان **تشوش** ي ديتزغن لا يمكـن ان يتلخص الا في **تراجعاته** عن تطبيق الدياليكتيـك بانسجام عن **المادية** المنسجمة وخاصة عن كتاب «ضد دوهرينغ»

أفلا يحزر الآن السيد فالنتينوف مع شلته انه لا يمكن ان ينعت ماركس بالتشـوش عنـد ديتزغـن **الا ما يقرب ديتزغن من ماخ** الذي مضى من كانط نحو بركلي وهيوم وليس نحو المادية ؟ أم لربما نعت المادي ماركس بالتشوش نظرية ديتزغن المادية الخاصة بالمعرفة على وجه الضبط وحبذ تراجعاته عن المادية ؟ ام حبذ ماركس ما يختلف عن كتاب «ضد دوهرينغ» المكتوب بمشاركته ؟

ومن يضلل اصحابنا الماخيون الذين يرغبون في ان يحسبوهم ماركسيين ، ويعلنون فضلاً عن ذلك على رؤوس الاشهاد بان

ماخ«هم» قد حبذ ديتزغن ؟ لم يفطن ابطالنـــا الى انه لا يمكن لماخ ان يحبذ ديتزغن الا لسبب واحد فقط هو ان ماركس نعت ديتزغن بالمشوش

ان ديتزغن لا يستحق مثل هذا التنديد الحاد ، في حال تقييمه بصورة عامة فهو مادي بتسعة اعشاره ، ولم يدّع يوماً لا بالاصالة ولا بفلسفة خاصة تتميز عن المادية وقد تحدث ديتزغن عن ماركس مراراً عديدة ولم يحدث عنه الا بوصفه **رئيس اتجاه** («Kleinere phil. Schr.» ص٤ – رأي عام ١٨٧٣ ص ٩٥ – عام ١٨٧٦ حيث قيل ان ماركس وانجلس «كانا ذوي مدرسة فلسفية ضرورية» ، اي ذوي تحصيل فلسفي ؛ ص ١٨١ – عام ١٨٨٦ – قيل عن ماركس وانجلس انهما «مؤسسان معترف بهما» لاتجاه) كان ديتزغن ماركسياً وان يفغيني ديتزغن وكذلك – ويا للأسف ! – الرفيق ب داوغه يقدمان له خدمة الدب باختلاقهما «الاحادية الطبيعية» ، «الديتزغنية» وما الى ذلك فان «الديتزغنيـــة» خلافاً للمادية الديالكتيكية ، هي **تشوش** ، هي **خطوة** نحو الفلسفة الرجعية هي محاولة لانشاء النهج لا مما هو عظيم عند يوسف ديتزغن (فعند هذا العامل – الفيلسوف الذي اكتشف المادية الديالكتيكية على طريقته كثرة من الاشياء العظيمة !) ، بل **مما هو ضعيف عنده !**

واني اكتفي بمثلين يبينان كيف ينزلق الرفيق ب داوغه ويفغيني ديتزغن الى الفلسفة الرجعية

يكتب ب داوغه في الطبعـــة الثانيـــة من «المكتسبات» ص ٢٧٣ «وحتى النقد البرجوازي يشير الى صلة فلسفة ديتزغن بالمذهب النقدي التجريبي وبالمدرسة الكمونية» وفيما بعد «ولا سيما بمدرسة ليكلر» (في استشهاد من «النقد البرجوازي»)

اما ان ب . داوغه يقدر ويحترم ي . ديتزغن ، فان هذا

لا ريب فيه ولكن لا ريب كذلـــك في انه **يخزي** ي ديتزغن بايراده **بدون احتجاج** ، رأي مخربش برجوازي يقرّ**ب** العدو الألد للايمانية والبروفسورات «خدم» البرجوازية «ذوي الشهادات» من مروج الايمانية السافر والرجعي العريق ليكلر لربما ردد داوغه رأي غيره في الكمونيين وليكلر لأنه لم يطلع شخصياً على كتابات هؤلاء الرجعيين ولكن ليأخذ درساً من هذا ان الطريق من ماركس الى خصائص ديتزغن – الى ماخ – الى الكمونيين– هو طريق الى المستنقع وليس الاقتراب من ليكلر وحسب بل الاقتراب من ماخ ايضاً يبرزان ديتزغن – المشوش على نقيض ديتزغن – المادي

وسأدافع عن ي ديتزغن دون ب داوغه اني اؤكد ان ي ديتزغن لم يستحق خزياً كتقريبه من ليكلر وبوسعي ان استشهد بشاهد هو الاكبر نفوذاً في هذه المسألة برجعي وفيلسوف للايمانيـــة و«كموني» مثـــل ليكلر اي بالضبط بشوبرت-زولدرن ففي عام ١٨٩٦ كتب شوبرت-زولدرن يقول «ان الاشتراكيين-الديموقراطيين ينضمون بطيبة خاطر الى هيغـــل بقدر اكبر او اقل (وعادة اقل) من الحق ولكنهـــم يجعلـــون من فلسفة هيغل فلسفة مادية قارنوا ي ديتزغن فعند ديتزغن يصبح المطلق الدنيـــا (universum – **المعرب**) وهذه الاخيرة تصبح شيئاً في ذاته ذاتاً مطلقاً ظاهراته هي محمولاته اما ان ديتزغن يجعل على هذا النحو من تجريد خالص للغاية اساس عملية ملموسة فانه لا يلاحظ ذلك بالطبع مثلما لم يلاحظه هيغل ان هيغل وداروين وهيكل والمادية التاريخية الطبيعية يخلطهم ديتزغن احياناً كثيرة بصورة عمائيـــة» («المسألـــة الاجتماعية» ص XXXIII) ان شوبرت-زولدرن يتفهـــم التلاوين الفلسفية خيراً مما يتفهمها ماخ الذي يطري الجميع واي

شخص كان بمن فيهم الكانطي اورشليم ايضاً

اما يفغيني ديتزغن فقد دفعته السذاجة الى التشكي للجمهور الالماني من ان الماديين الضيقين في روسيا قد «اهانوا» يوسف ديتزغن وترجم الى اللغة الالمانية مقالتي بليخانوف وداوغه عن يوسف ديتزغن (راجعوا J. Dietzgen: «Erkenntnis und Wahrheit» Stuttg., 1908* الملحقات) واضر «الاحادي الطبيعي» المسكين نفسه بتشكيه فان فرانتس مهرينغ الذي هو ملم نوعاً بالفلسفة وبالماركسية قد كتب في مقالته الانتقادية ان **بليخانوف محق من حيث الجوهر ضد داوغه** («Neue Zeit» 1908, N° 38, 19 Juni, Feuilleton, S. 432**) اما ان يوسف ديتزغن **بتراجعه** عن ماركس وانجلس قد وقع في ورطة (ص ٤٣١) فان هذا بنظر مهرينغ امر لا يطاله الشك وقد رد يفغيني ديتزغن على مهرينغ بنبذة طويلة وبكاءة تمادى فيها الى حد القول ان يوسف ديتزغن يمكن ان يكون نافعاً «لأجل الجمع» بين «الاخوة الاورثوذكس والمحرفين المتعادين» («N.Z.», 1908, N° 44, 31 Juli, S. 652)

واليك تحذيراً آخر يا رفيق داوغه ان الطريق من ماركس الى «الديتزغنية» و«الماخية» هي **طريق الى المستنقع** لا بالنسبة للاشخاص بالطبع لا بالنسبة لرياض او سمير او كميل بل بالنسبة للاتجاه

ولا تصيحوا ايها السادة الماخيون اني استشهد «بذوي المكانة» فان صيحاتكم ضد ذوي المكانة هي مجرد تغطية لكونكم تستعيضون عن ذوي المكانة الاشتراكيين (ماركس انجلس ، لافارغ مهرينغ كاوتسكي) بذوي مكانة برجوازيين (ماخ بتسولدت افيناريوس الكمونيين) فالافضل لكم ان لا تثيروا مسألة «ذوي المكانة» و«التسلط»

* ي ديتزغن «المعرفة والحقيقة» ، شتوتغارت ، عام ١٩٠٨ **الناشر**

** «الازمنة الحديثة» ، عام ١٩٠٨ العدد ٣٨ ، ١٩ حزيران (يونيو) ، مقالة هجائية ، ص ٤٣٢ . **الناشر** .

الفصل الخامس

الثورة الحديثة في علم الطبيعيات ، والمثالية الفلسفية

منذ سنة نشرت مجلة «Die Neue Zeit» مقالة يوسف دينه ـ دينس «الماركسية والثورة الحديثة في علم الطبيعيات» (١٩٠٦ - ١٩٠٧ العدد ٥٢) ان نقص هذه المقالة هو تجاهل الاستنتاجات العرفانية التي تُستَخلص من الفيزياء «الجديدة» والتي تهمنا خصوصا في الوقت الحاضر ولكن هذا النقص بالذات هو الذي يجعل وجهة نظر المؤلف المذكور واستنتاجاته طريفة بخاصة بالنسبة لنا فان يوسف دينه ـ دينس يتبنى مثل كاتب هذه الاسطر وجهة نظر ذلك «الماركسي العادي» نفسه الذي يتحدث عنه اصحابنا الماخيون بمثل هذا الازدراء الجليل مثلاً يكتب السيد يوشكيفيتش «ان الماركسي المتوسط العادي يسمّي نفسه عادة بالمادي الدياليكتيكي» (الصفحة الاولى من كتابه) . وهذا الماركسي العادي بالذات في شخص يوسف دينه ـ دينس قارن الاكتشافات الحديثة في علم الطبيعيات ولا سيما في الفيزياء (اشعة اكس اشعة بكيريل الراديوم (٧٠) والخ) **مباشرة** مع مؤلف انجلس «ضد دوهرينغ» فالى اي استنتاج ساقته هذه المقارنة ؟ كتب يوسف دينه ـ دينس يقول «في شتى ميادين العلوم الطبيعية تم اكتساب معارف جديدة وجميعها تنحصر في نقطة اراد انجلس ان يضعها في المرتبة الاولى ، اي بالضبط الى الفكرة القائلة

انه «لا توجد» في الطبيعة «اية متضادات مستعصية اية خطوط فاصلة وفوارق مثبتة عنوة» وانه اذا كانت تصادف في الطبيعة متضادات وفوارق فان جمودها وطابعها المطلق انما نحن وحدنا نحملهما الى الطبيعة» وقد اكتشفوا مثلاً ان النور والكهرباء ليسا سوى مظهري القوة الواحدة نفسها من قوى الطبيعة «(٧١) ويوماً بعد يوم يصبح من المحتمل اكثر من ذي قبل ان الالفة الكيماوية تنحصر في عمليات كهربائية . والعناصر الكيماوية غير القابلة للتفكيك وللانشطار التي يتزايد عددها باستمرار كأنما ازدراء بوحدة العالم تغدو قابلة للتفكيك والانشطار وقد امكن تحويل عنصر الراديوم الى عنصر الهيليوم (٧٢) «وكما تنحصر جميع قوى الطبيعة في قوة واحدة كذلك تؤول جميع مواد الطبيعة الى **مادة واحدة**» (حرف التأكيد ليوسف دينه-دينس) وبعد ان يورد المؤلف رأي احد الكتاب الذين يعتبرون الذرة مجرد متكثّف من الاثير يهتف قائلاً «باي بهاء يتأكد قول انجلس ان الحركة هي شكل وجود المادة» «ان جميع ظاهرات الطبيعة هي حركة والفرق بينها ينحصر في كوننا نحن الناس ندرك هذه الحركة في اشكال مختلفة ان الحقيقة هي بالضبط كما قال انجلس فان الطبيعة ، مثلها مثل التاريخ ، تخضع لقانون الحركة الديالیكتيكي»

ومن ناحية اخرى لا يسع المرء ان يأخذ في يده مطبوعات الماخية او المطبوعات عن الماخية ولا تقع عينه فيها على استشهادات متحذلقة بالفيزياء الجديدة التي دحضت المادية كما يزعم وما الى ذلك من الترهات اما ان هذه الاستشهادات معللة فان هذه مسألة اخرى ولكن الصلة بين الفيزياء الجديدة او بالاصح بين مدرسة معينة في الفيزياء الجديدة وبين الماخية وسائر انواع الفلسفة المثالية المعاصرة لا تترك مجالاً لاي شك وان تحليل الماخية مع تجاهل هذه الصلة - ، كما يفعل بليخانوف (٧٣) ، -

انما يعني التهكم على روح المادية الدياليكتيكية اي التضحية بطريقة انجلس ارضاء لهذا الحرف او ذاك عند انجلس فان انجلس يقول صراحة انه «عند كل اكتشاف يشكل عهداً حتى في ميدان تاريخ الطبيعة» (ناهيك عن تاريخ البشرية) «ينبغي حتماً على المادية ان تغير شكلها» (لودفيغ فورباخ» ص ١٩ من الطبعة الالمانية .) (٧٤) ومن هنا ينجم ان اعادة النظر في «شكل» مادية انجلس اعادة النظر في موضوعات فلسفته عن الطبيعة لا تنطوي على اي شيء «تحريفي» بمعنى الكلمة الشائع وليس هذا وحسب بل بالعكس تقتضيها الماركسية بالضرورة ونحن لا نلوم البتة الماخيين على اعادة النظر هذه بل نلومهم على اسلوبهم **التحريفي الصرف** ومفاده خيانة **كنه** المادية تحت ستار نقد **شكلها** واقتباس الموضوعات الاساسية في الفلسفة البرجوازية الرجعية بدون اية محاولة لحسبان الحساب بنحو صريح وسافر وقاطع لتأكيدات لانجلس من المؤكد انها بالغة الشأن في المسألة المعنية ومنها مثلاً تأكيده القائل الحركة غير ممكنة بدون المادة» («ضد دوهرينغ» ص ٥٠) (٧٥)

وغني عن البيان اننا اذ نحلل مسألة الصلة بين مدرسة من مدارس الفيزيائيين الحديثين وانبعاث المثالية الفلسفية لأبعد عن فكرة تناول التعاليم الفيزيائية المختصة فان الاستنتاجات العرفانية من بعض الموضوعات المحددة والاكتشافات المعروفة للجميع هي وحدها التي تهمنا وهذه الاستنتاجات العرفانية تتبادر الى الذهن من تلقاء ذاتها على درجة من القوة والتواتر بحيث ان كثيرين من الفيزيائيين شرعوا يتناولونها منذ حين وفضلاً عن ذلك توجد الآن بين الفيزيائيين اتجاهات مختلفة ، وتتكون مدارس معينة على هذا الاساس . ولهذا تقتصر مهمتنا على ان نعرض بجلاء كنه الخلافات بين هذه الاتجاهات ، وموقف هذه الاتجاهات من الخطين الاساسيين في الفلسفة .

١ ـ ازمة الفيزياء المعاصرة

يقول الفيزيائي الفرنسي الشهير هنري بوانكاره في كتابه عن «قيمة العلم» ان هناك «علائم ازمة جدية» في الفيزياء ويكرس فصلاً خاصاً لهذه الازمة (الفصل الثامن ص ١٧١) ان هذه الازمة لا تقتصر على كون «الثوري العظيم – الراديوم» يقوض مبدأ بقاء الطاقة «كذلك تتعرض للخطر جميع المبادىء الاخرى» (ص ١٨٠) مثلاً يظهر ان مبدأ لافوازيه او مبدأ بقاء الكتلة ، قد قوضته النظرية الالكترونية بشأن المادة فبموجب هذه النظرية تتشكل الذرات من دقائق متناهية الصغر ذات شحنة سالبة او موجبة ومسماة بالالكترونات و«موضوعة في بيئة نسميها الاثير» ان تجارب الفيزيائيين تعطي مادة لأجل حساب سرعة حركة الالكترونات وكتلتها (او علاقة كتلتها بشحنتها الكهربائية) ويظهر ان سرعة هذه الحركة قابلة للمقارنة مع سرعة النور (٣٠٠٠٠٠ كيلومتر في الثانية) اذ انها تبلغ ، مثلاً قرابة ثلث سرعة النور وفي هذه الاحوال لا بد من ان تؤخذ بالحسبان كتلة الالكترون المزدوجة تجاوباً مع ضرورة التغلب على الجمود اولاً للالكترون نفسه وثانياً للاثير ان الكتلة الاولى هي كتلة الالكترون الفعلية او الميكانيكية والثانية هي «الكتلة الكهردينامية التي تمثل جمود الاثير» الا انه يظهر ان الكتلة الاولى توازي الصفر ويظهر ان كل كتلة الالكترونات او على الاقل كتلة الالكترونات السالبة ، هي من حيث اصلها ، كهردينامية كلياً وعلى وجه الحصر وتزول الكتلة وتتقوض اسس الميكانيك ويتقوض مبدأ نيوتن وتتقوض المساواة بين الفعل ورد الفعل والخ (٧٦)

ويقول بوانكاره : امامنا «انقاض» المبادىء القديمة للفيزياء ،

«انهزام المبادىء العام» ولكنه يتحفظ قائلاً صحيح ان جميع الاستثناءات المشار اليها عن المبادىء تتعلق بمقادير متناهية في الصغر ، - ومن الممكن اننا لا نعرف بعد مقادير اخرى متناهية في الصغر تقاوم تقويض القوانين القديمة ، - والراديوم نادر جداً فضلاً عن ذلك ولكن «مرحلة الشكوك» تواجهنا على كل حال ولقد سبق ورأينا استنتاجات المؤلف العرفانية من «مرحلة الشكوك» هذه «ليست الطبيعة هي التي تعطينا (او تفرض علينا) مفهومي المكان والزمان بل نحن الذين نعطيهما للطبيعة» «ان كل ما ليس فكراً هو لاشيء مطبق» هذه استنتاجات مثالية ان تحطيم المبادئ الاساسية يثبت (وذلك هو مجرى تفكير بوانكاره) ان هذه المبادئ ليست نسخاً او صوراً ما عن الطبيعة ليست انعكاسات لشيء ما خارجي حيال وعي الانسان بل نتاجات لهذا الوعي ان بوانكاره لا يطور هذه الاستنتاجات بانسجام ولا يهتم بالجانب الفلسفي من المسألة اهتماماً جوهرياً نوعاً وان هذا الجانب يتناوله باكثر ما يكون من التفصيل الكاتب الفرنسي في المسائل الفلسفية آبل ري في كتابه «نظرية الفيزياء عند الفيزيائيين المعاصرين» (Abel Rey: «La théorie de la physique chez les physiciens contemporains», Paris, F. Alcan, 1907). صحيح ان المؤلف نفسه وضعي اي مشوش ونصف ماخي ولكن هذا يوفر في هذه الحالة حتماً بعض التسهيلات لأنه لا يمكن الظن بان ري يرغب في «الافتراء» على معبود اصحابنا الماخيين لا تمكن الثقة بري حين يدور الحديث حول التعريف الفلسفي الدقيق للمفاهيم وحول المادية على الخصوص لأن ري هو ايضاً بروفسور وهو بهذه الصفة مليء بازدراء لا حدّ له للماديين (ويتميز بجهل لا حدّ له فيما يتعلق بعلم العرفان المادي) . ولا داعي الى القول ان ماركس او انجلس او من هم من

طرازهما غير موجودين البتة بالنسبة لمثل هؤلاء من «فحول العلم» ولكن ري يوجز بدقة وبحسن ذمة على العموم المطبوعات الخارقة الغنى المتعلقة بالمسألة وليس المطبوعات الفرنسية وحسب بل الانجليزية والالمانية ايضاً (اوستفالد وماخ على الخصوص) ولذا سنستشهد احياناً كثيرة بمؤلفه

يقول المؤلف ان انتباه الفلاسفة على العموم وكذلك اولئك الذين يريدون لهذه الدوافع او تلك ان ينتقدوا العلم على العموم يتجه الآن نحو الفيزياء على الخصوص «في معرض مناقشة حدود المعارف الفيزيائية وقيمتها ينتقدون من حيث الجوهر شرعية العلم الايجابي ، وامكانية معرفة الموضوع» (ص ١–٢) ومن «ازمة الفيزياء المعاصرة» يستعجلون في استخلاص الاستنتاجات المتشككة (ص ١٤) ففيم يتلخص جوهر هذه الازمة ؟ في غضون الثلثين الاولين من القرن التاسع عشر كان الفيزيائيون متفقين فيما بينهم في كل ما هو جوهري «كانوا يؤمنون بالتفسير الميكانيكي الصرف للطبيعة وكانوا يعتقدون ان الفيزياء ليست سوى ميكانيك اشد تعقداً انها بالضبط ميكانيك جزيئية ولم يختلفوا الا فيما يتعلق باساليب حصر الفيزياء في الميكانيك اي بتفاصيل النزعة الميكانيكية» . «وفي الوقت الحاضر ، يبدو المشهد الذي تقدمه لنا العلوم الفيزيائية الكيماوية معاكساً تماماً وحلت اشد الخلافات محل الاجماع السابق علماً بان الخلافات لا تخص التفاصيل بل الافكار الاساسية والموجِّهة ولئن كان من المبالغة القول ان لكل عالم ميوله الخاصة فمن مثل الضروري مع ذلك ان نلاحظ ان للعلم ولا سيما للفيزياء ، مثله الفن مدارس كثيرة تختلف استنتاجاتها في معظم الاحيان بل تتعادى صراحة احياناً

ومن هنا يمكن ان نرى مبلغ اهمية وسعة ما أسمي بازمة الفيزياء المعاصرة .

ان الفيزياء التقليدية كانت تعتقد قبل النصف الثاني من القرن التاسع عشر انه يكفي مجرد مواصلة الفيزياء حتى يتم الحصول على ميتافيزياء المادة ولقد اضفت هذه الفيزياء على نظرياتها مغزى انطولوجياً * وهذه النظريات كانت ميكانيكية كلياً وعليه كانت الميكانيكية التقليدية» (ويستعمل ري هذه الكلمة بمعنى خاص بمعنى نظام من نظرات تحصر الفيزياء في الميكانيك) «تمثل بالتالي، ما فوق نتائج التجربة، ما وراء حدود نتائج التجربة، المعرفة **الفعلية** للعالم المادي ولم يكن ذلك تعبيراً فرضياً عن التجربة بل كان عقيدة» (ص ١٦)

هنا من المناسب ان نقطع حبل كلام «الوضعي» المحترم فواضح انه يرسم لنا الفلسفة المادية للفيزياء التقليدية غير راغب في ان يسمي الشيطان (اي المادية) باسمه فلا بدّ ان تبدو المادية للهيومي ميتافيزياء عقيدة خروجاً عن حدود التجربة والخ فان الهيومي ري، فضلاً عن انه لا يعرف المادية، يبدي جهلاً مطبقاً بصدد الدياليكتيك، بصدد الفرق بين المادية الدياليكتيكية والمادية الميتافيزئية بالمعنى الذي اضفاه انجلس على هذه الكلمة ولهذا مثلاً كانت العلاقة بين الحقيقة المطلقة والحقيقة النسبية غير واضحة اطلاقاً لري

ان الملاحظات الانتقادية التي وردت ضد الميكانيكية التقليدية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر قد قوضت هذه المقدمة للواقعية الانطولوجية للميكانيكية وعلى هذا الانتقاد ترسخت النظرة الفلسفية الى الفيزياء وقد غدت هذه النظرة تقليدية تقريباً في الفلسفة في اواخر القرن التاسع عشر فالعلم حسب هذه النظرة لا يعدو ان يكون صيغة رمزية اساليب

---

* الانطولوجيا – ontologie علم الوجود . **المعرب** .

للاشارة (للاعتـلام repérage لوضع العلائـم والاشارات والرموز) وبمـا ان اساليب الاشارة هذه تختلـف باختلاف المدارس فسرعان ما ظهر استنتاج يقول انه لا يشار في هذه الحالة الا الى ما تم صنعه (façonné) من قبل الانسان لأجـل الاعتلام (لأجل التمييز برمز) وقد غدا العلم انتاجـاً للفن من اجل هواة الفن انتاجاً للفن من اجل المنفعيين ووجهتا النظر هاتان شرعوا بالطبع يفسرونهما في كل مكان بانهما تعنيان انكار امكانية العلم فان العلم بوصفه وسيلة فنية خالصة للتأثير في الطبيعة بوصفه تكنيكياً منفعياً عادياً لا يحق له ان يتسمى بالعلم اذا لم نشوه معنى الكلمات ان القول بان العلم لا يستطيع ان يكون غير هذه الوسيلة الفنية للتأثير انما يعني انكار العلـم بمعنى الكلمة الحقيقي

ان افلاس النزعة الميكانيكية التقليدية او بالاصح ذلك النقد الذي تعرّضت له قد ادى الى الموضوعة التالية لقد مني العلـم هو ايضاً بالافلاس فمن استحالة اتباع النزعة الميكانيكية التقليديـة ببساطة وعلى وجه الحصر ، خلصوا الى القول باستحالة العلم» (ص ١٦–١٧)

ويطرح المؤلـف السـؤال التالـي «الازمـة المعاصرة في الفيزياء أهي حادثة موقتة وخارجية في تطور العلم ام ان العلـم يستدير فجأة الى الوراء ويفارق نهائياً ذلك السبيل الذي سار فيه ؟

ولئن كانت العلوم الفيزيائية الكيماوية التي ظلت في سياق التاريخ من حيـــث جوهر الامر نصيرة الانعتاق ، تمنى بكارثة في هذه الازمة التي لا تترك لها سوى قيمة وصفات نافعة تكنيكياً ولكن التي تفرّغها من كل شأن من حيث معرفة الطبيعة فينبغي ان ينجم من هنا انقلاب تام سواء في منطق الافكار ام

في تاريخ الافكار ان الفيزياء تفقد كل قيمة تربوية وتمسي روح العلم الايجابي التي تمثلها كاذبة وخطرة» ان العلم يستطيع ان يعطي وصفات عملية فقط ولا يستطيع ان يعطي معرفة فعلية. «يجب البحث عن معرفة الواقعي بوسائل اخرى يجب السير في سبيل آخر يجب ان يعاد الى الحدس الذاتي، الى الشعور الصوفي بالواقع وبكلمة الى الملغز ما كان من المظنون ان العلم قد انتزعه منها» (ص ١٩)

ان المؤلف بوصفه وضعياً، يعتبر ان هذه النظرة غير صحيحة وان ازمة الفيزياء موقتة اما باي نحو يطهر ري ماخ وبوانكاره وشركاهما من هذه الاستنتاجات فسنرى هذا فيما بعد والآن نكتفي بملاحظة واقع «الازمة» وشأنها فمن اقوال ري الاخيرة التي اوردناها يتضح لنا اية عناصر رجعية استغلت هذه الازمة وزادتها شدة وتفاقماً ان ري يقول صراحة في مقدمة كتابه ان «الحركة الايمانية واللاعقلية في السنوات الاخيرة من القرن التاسع عشر» تسعى الى «الاعتماد على الروح العام للفيزياء المعاصرة» (ص II). وفي فرنسا يسمون بالايمانيين (بالفيديين - من الكلمة اللاتينية fides ومعناها الايمان) اولئك الذين يضعون الايمان فوق العقل ويسمى المذهب الذي ينكر حقوق العقل او ادعاءاته بالمذهب اللاعقلي ومن هنا ينجم ان جوهر «الازمة المعاصرة في الفيزياء» يتلخص في كون الفيزياء القديمة رأت في نظرياتها «معرفة فعلية للعالم المادي» اي انعكاساً للواقع الموضوعي اما التيار الجديد في الفيزياء فانه لا يرى في النظرية سوى رموز وعلامات واشارات لأجل النشاط العملي اي انه ينكر وجود الواقع الموضوعي المستقل عن وعينا والذي يعكسه وعينا ولو ان ري استعمل تعابير فلسفية صحيحة لكان عليه ان يقول ان نظرية العرفان المادية، التي كانت الفيزياء السابقة تتقبلها بصورة

عفوية قد حلت محلها النظرية المثالية واللاعرفانية الامر الذي استغلته الايمانية رغم انف المثاليين واللاعرفانيين

ولكن هذا التبدل الذي يشكل الازمة لا يتصوره ري بصورة يبدو معها كأنّ جميع الفيزيائيين الجدد يقفون ضد جميع الفيزيائيين القدماء كلا فهو يبيّن ان الفيزيائيين المعاصرين ينقسمون حسب ميولهم العرفانية الى ثلاث مدارس – المدرسة الطاقية او المفاهيمية (conceptuelle من كلمة concept – الفكرة العامة او المفهوم الخالص) والمدرسة الميكانيكية او الميكانيكية الجديدة التي لا تزال تتمسك بها اغلبية الفيزيائيين الساحقة والمدرسة الانتقادية القائمة بين الاولى والثانية والى الاولى ينتسب ماخ ودوهيم والى الثالثة هنري بوانكاره والى الثانية كيرخهوف وهلمهولتز وتومسون (اللورد كلفين) ومكسويل من الفيزيائيين القدماء ولارمور ولورنتس من الفيزيائيين الحديثين اما ما هو كنه الخطين الاساسيين الاثنين (لأن الثالث ليس مستقلاً بل متوسطاً) فيتبين من اقوال ري التالية

«ان النزعة الميكانيكية التقليدية قد بنت نظام العالم المادي». وقد انطلقت في المذهب عن بنية المادة من «عناصر متجانسة ومتماثلة نوعياً» علماً بانه كان يجب اعتبار العناصر عناصر «لا تتغير ولا تُخترق»، والخ ان الفيزياء «بنت صرحاً **فعلياً** من مواد **فعلية** واسمنت **فعلي** وكانت في متناول الفيزيائي **العناصر المادية واسباب واسلوب** فعلها، وقوانين فعلها **الفعلية**» (ص ٣٣–٣٨). «ان تغيرات هذه النظرة الى الفيزياء تتجسد على الاغلب فى نبذ القيمة الانطولوجية للنظريات وفي التأكيد بشكل خارق على الاهمية الظاهرية لليفيزياء» «ان النظرة المفاهيمية تتناول «التجريدات الخالصة» و«تفتش عن نظرية تجريدية خالصة تستبعد قدر الامكان، فرضية المادة». «ان مفهوم الطاقة يصبح اساساً تحتانياً

(substructure) للفيزياء الجديدة ولهذا يمكن تسمية الفيزياء المفاهيمية اساساً بالفيزياء **الطاقية**» رغم ان هذه التسمية لا تصح مثلاً على ممثل للفيزياء المفاهيمة مثل ماخ (ص ٤٦)

ويقيناً ان هذا الخلط بين مذهب الطاقة والماخية عند ري هو غير صحيح بعض الشيء، مثله مثل التأكيد ان المدرسة الميكانيكية الجديدة تنتقل هي ايضاً الى النظرة الظاهرية الى الفيزياء (ص ٤٨) رغم كل خلافها مع انصار المفاهيمية ان مصطلحات ري «الجديدة» لا توضح القضية بل تعمّيها ولكنه لم يكن بوسعنا ان نتحاشاها وذلك لكي نعطي القارىء فكرة عن نظرة «الوضعي» الى ازمة الفيزياء وان معارضة النظرة القديمة بالمدرسة «الجديدة» تتطابق كلياً من حيث جوهر المسألة كما امكن ان يقتنع القارىء مع ما سبق وعرضناه من انتقاد لهلمهولتز من قبل كلينبيتر واذ يعرض ري نظرات مختلف الفيزيائيين يعكس في عرضه كل غموض وتقلقل نظراتهم الفلسفية ان **كنه** ازمة الفيزياء المعاصرة يكمن في تحطيم القوانين القديمة والمبادىء الاساسية القديمة في نبذ الواقع الموضوعي القائم خارج الوعي اي في الاستعاضة عن المادية بالمثالية واللاعرفانية «المادة زالت» – هكذا يمكن الاعراب عن الصعوبة الاساسية والنموذجية فيما يتعلق بكثير من المسائل الجزئية والتي خلقت هذه الازمة وهذه الصعوبة نتناولها الآن

٢ ـ «المادة زالت»

نصادف عند الفيزيائيين المعاصرين تعبيراً كهذا حرفياً لدن وصف الاكتشافات الحديثة فان ل هولفيغ مثلاً قد عنون في كتابه «تطور العلوم» فصلاً عن النظريات الجديدة بشأن المادة :

«هل توجد المادة ؟» وفي هذا الفصل يقول «الذرة تفقد ماديتها المادة تزول» * ولكي نرى كيف يستخلص الماخيون من هنا بسهولة استنتاجات فلسفية جذرية لنأخذ فالنتينوف مثلاً فقد كتب يقول «ان القول بان التفسير العلمي للعالم يحصل على تعليل راسخ «في المادية **فقط**» ، ليس اكثر من اختلاق زد على ذلك انه اختلاق سخيف» (ص ٦٧) وبصفة مدمِّر لهذا الاختلاق السخيف يستشهد فالنتينوف بالفيزيائي الايطالي المعروف اوغست ريغي الذي يقول ان النظرية الالكترونية «هي نظرية الكهرباء اقل مما هي نظرية المادة فان النظام الجديد يُحل الكهرباء محـــل المادوحسب» (Augusto Righi. «Die moderne Theorie der physikalischen Erscheinungen», Lpz., 1905, S. 131** (توجد ترجمة روسية) ويورد فالنتينوف هذه الكلمات (ص ٦٤) ويهتف قائلا

«لماذا يسمح اوغست ريغي لنفسه بتوجيه هذه الاهانة الى المادة المقدسة ؟ لربما لأنه سوليبسي مثالي انتقادي برجوازي احادي تجريبي او شخص حتى شر من ذلك ؟»

ان هذه الملاحظة التي تبدو للسيد فالنتينوف سمًا قاتلاً ضد الماديين تبيّن كل سذاجته البتولية في مسألة المادية الفلسفية . فان السيد فالنتينوف لم يفهم البتة فيما تتجسد الصلة **الفعلية** بين

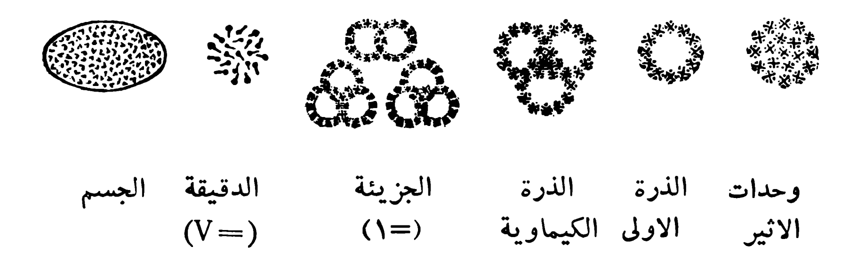
---

* L. Houllevigue. «L'évolution des sciences», Paris (A. Collin), 1908, pp. 63, 87, 88. قارنوا مقالته «Les idées des physiciens sur la matière» في «Année Psychologique» (٧٧) ، 1908

(ل هولفيـــغ «تطور العلوم» باريس كونين) ١٩٠٨ ص ٦٣ ٨٧ ٨٨ قارنوا مقالته «افكار الفيزيائيين حول المادة» في «الحولية النفسانية» ١٩٠٨ **الناشر**)

** اوغست ريغي «النظرية المعاصرة للظواهر الفيزيائيـــة» . ليبزيغ ، عام ١٩٠٥ ، ص ١٣١ . **الناشر** .

المثالية الفلسفية و«زوال المادة» والحال ان «زوال المادة» **هذا** الذي يتحدث عنه في اثر الفيزيائيين المعاصرين لا يمت باي صلة الى التمييز العرفاني بين المادية والمثالية ولتوضيح هذا لنأخذ واحداً من اكثر الماخيين انسجاماً ووضوحاً هو كارل بيرسون فان العالـَم المادي هو بنظره مجموعات من المدركات الحسيـــة وهو يرسم «موديلنا الادراكي للعالم الفيزيائي» بالمخطط البياني التالي متحفظاً بانه لم يتقيد في رسم هذا المخطط بالنسبة بين المقاييس («The Grammar of Science», p. 282) :



ولكي يبسط كارل بيرسون مخططه البياني ينبذ كلياً مسألة العلاقة بين الاثير والكهرباء او بين الالكترونات الموجبـة والسالبة ولكن هذا ليس مهماً فالمهم هو ان وجهة نظر بيرسون المثالية تعتبر «الاجسام» مدركات حسية ثم بعد ذلك يتعلـــق تركيب هذه الاجسام من الدقائق والدقائـــق من الجزيئات والخ بالتغييرات في موديل العالم الفيزيائي وليس البتـــة بمسألة ما اذا كانت الاجسام رموز الاحساسات ام الاحساسات صور الاجسام ان المادية والمثالية تختلفان من حيث هذا الحل او ذاك لمسألة **مصدر** معرفتنا لمسألة علاقة المعرفة (و«النفسي» على العموم) بالعالم الفيزيائـــي ، في حين ان مسألـــة بنيان المادة ،

مسألة الذرات والالكترونات هى مسألة تتعلق بهذا «العالم الفيزيائي» وحده وحين يقول الفيزيائيون «المادة تزول» فانهم يريدون ان يقولوا بذلك ان علم الطبيعيات حصر حتى الآن جميع بحوثه للعالم الفيزيائي في المفاهيم الاخيرة الثلاثة المادة الكهرباء الاثير اما الآن فيبقى الاخيران **فقط** لأنه يمكن حصر المادة في الكهرباء * ويمكن تفسير الذرة على انها ضرب من نظام شمسي صغير الى ما لا حد له (٧٨) تتحرك في داخله الالكترونات السالبة بسرعة معينة (وهائلة الى ما لا قياس له كما رأينا) حول الاكترون الموجب (٧٩) وعوضاً عن عشرات العناصر يمكن بالتالي حصر العالم الفيزيائي في عنصرين او ثلاثة (لأن الالكترونين الموجب والسالب يشكلان «مادتين مختلفتين اختلافاً جوهرياً» كما يقول الفيزيائي بيلا ّ — (**Rey. 1 c., p. 294-295) وبالتالي يؤدي علم الطبيعيات الى «**وحدة المادة**» (المرجع نفسه) * * * — ذلك هو المضمون الفعلي لتلك الجملة

---

* راجعوا كذلك هذا الكتاب ص ٤٩٢ الملاحظة **الناشر** .

* * ري في المقطع المقتبس ص ٢٩٤—٢٩٥ **الناشر** .

* * * قارنوا Oliver Lodge. «Sur les électrons», Paris, 1906, p. 159 (اوليفر لودج «عن الالكترونات» باريس ١٩٠٦ ص ١٥٩ **الناشر**) ؛ «ان النظرية الكهربائية عن المادة» ، الاعتراف بالكهرباء «الجوهر الاساسي» انما هو «الفهم النظرى القريب لما سعى الفلاسفة دائما اليه اي لوحدة المادة» قارنوا كذلك Augusto Righi. «Über die Struktur der Materie», Lpz., 1908; J. J. Thomson. «The Corpuscular Theory of Matter», Lond., 1907; P. Langevin. «La physique des électrons» في «Revue générale des sciences» ,1905, pp. 257-276 (٨٠ (اوغست ريغي «بنيان المادة» ليبزيغ ، ١٩٠٨ ، ح ج تومسون «النظرية الجسيمية عن المادة» لندن ، ١٩٠٧ ب لانجيفن «فيزياء الالكترونات» في «المجلة العامة للعلوم» ، ١٩٠٥ ، ص ٢٥٧—٢٧٦ **الناشر**) .

عن زوال المادة عن حلول الكهرباء محل المادة والخ التي تحيّر الكثيرين والكثيرين «المادة تزول» - ان هذا يعني انـــه يزول ذلك الحدّ الذي كنا نعرف المادة اليه حتى الآن وان معرفتنا تمضي الى اعمق كذلك تزول خواص المادة التي كانت تبدو من قبل مطلقة ثابتة اولية (اللانفاذية الجمود الكتلة (٨١) وخلافها) والتي تتكشف الآن بوصفها نسبية ملازمة لبعض حالات المادة فقط. لأن «الخاصة» **الوحيدة** للمادة التي ترتبط المادية الفلسفية بالاعتراف بها انما هي خاصة **ان تكون واقعية موضوعية** ان توجد خارج وعينا

ان خطأ الماخية على العموم والفيزياء الجديدة الماخية يتلخص في تجاهل اساس المادية الفلسفية هذا وفي تجاهل الفرق بين المادية الميتافيزيائية والمادية الدياليكتيكيـة فان الاعتراف بعناصر ما ثابتة لا تتغير «بجوهر الاشياء الذي لا يتغير» وما الى ذلك ليس المادية بل هو مادية **ميتافيزيائية** اي منافية للدياليكتيك ولقد اشار يوسف ديتزغن الى ان «موضوع العلم لامتناه» وان ما لا يقاس ما لا تمكن معرفته الى النهاية **ما لا يمكن استنفاده** ليس اللامتناهي فقط بل ايضاً «اصغر ذرة» لأن «الطبيعة في كل اجزئها لا بداية لها ولا نهاية» («Kleinere philosophische Schriften», S. 229-230*). ولهذا ساق انجلس مثاله عن اكتشاف الاليزارين في قطران الفحـم الحجري وانتقد الماديـة **الميكانيكية** ولطرح المسألة من وجهة النظر الصحيحة الوحيدة اي من وجهة نظر المادية الدياليكتيكية يجب ان نسأل أتوجد الالكترونات والاثير **وما الى ذلك** خارج الوعي البشري بوصفهـا واقعية موضوعية، ام لا؟ عن هذا السؤال سيتعين على علماء الطبيعيات

---

* «مؤلفات فلسفية صغيرة»، ص ٢٢٩-٢٣٠. **الناشر**.

ان يجيبوا وهم يجيبون دوماً بدون تردد **اجل** كما يعترفون بلا تردد بوجود الطبيعة قبل الانسان وقبل المادة العضوية وبذلك تُحَلّ المسألة في صالح المادية لأن مفهوم المادة كما سبق وقلنا، لا يعني من الناحية العرفانية **اي شيء غير** الواقعية الموضوعية، الموجودة بصورة مستقلة عن الوعي الانساني والتي يعكسها هذا الوعي

ولكن المادية الديالكتيكية تلح على الطابع التقريبي النسبي لكل موضوعة علمية عن بنيان المادة وخواصها على انعدام الحدور المطلقة في الطبيعة على تحول المادة المتحركة من حالة الى اخرى متنافية معها على الارجح من وجهة نظرنا والخ ومهما كان تحول الاثير العديم الوزن الى مادة ذات وزن والعكس بالعكس عجيباً من وجهة نظر «العقل السليم» ومهما كان انعدام اية كتلة عند الالكترون عدا الكتلة الكهرمغناطيسية «غريباً» ومهما كان اقتصار القوانين الميكانيكية للحركة على ميدان ظاهرات الطبيعة وحدها وخضوع هذه القوانين لقوانين اعمق هي قوانين الظاهرات الكهرمغناطيسية والخ غير عادى، — فان كل هذا هو مجرد **تأكيد** آخر على صحة المادية الديالكتيكية فان الفيزياء الجديدة قد انحرفت الى المثالية وذلك بصورة رئيسية للسبب التالي على وجه الدقة وهو ان الفيزيائيين لم يكونوا يعرفون الديالكتيك لقد ناضلوا ضد المادية الميتافيزيائية (بمعنى هذه الكلمة الانجلسي وليس بمعناها الوضعي اي الهيومي) ضد «ميكانيكيتها» الوحيدة الجانب، — وفي هذه الحال قذفوا بالطفل مع الماء من الحمام وبما انهم انكروا ثبات العناصر وخواص المادة المعروفة حتى الآن فقد انزلقوا الى انكار المادة اي الى انكار واقعية العالم الفيزيائي الموضوعية وبما انهم انكروا الطابع المطلق للقوانين الاساسية والأهم، فقد انزلقوا الى انكار كل سنة موضوعية في الطبيعة

الى اعلان قانون الطبيعة اصطلاحاً صرفاً ، «تحديداً للتوقع» ، «ضرورة منطقية» وما الى ذلك وبما انهم اصروا على طابع معارفنا التقريبي النسبي فقد انزلقوا الى انكار الموضوع المستقل عن المعرفة والذي تعكسه هذه المعرفة بصورة صادقة تقريباً بصورة صحيحة نسبياً وهكذا دواليك وهلم جراً الى ما لا نهاية

ان محاكمات بوغدانوف في عام ١٨٩٩ بشأن «كنه الاشياء الذي لا يتغير» ومحاكمات فالنتينوف ويوشكيفيتش حول «الجوهر» والخ كل هذه هي ايضاً نتائج لجهل الدياليكتيك فان ما لا يتغير من وجهة نظر انجلس هو امر واحد فقط هو عكس الوعي البشري (حين يكون الوعي البشري موجوداً للعالم الخارجي الموجود المتطور بصورة مستقلة عن الوعي البشري ولا وجود بنظر ماركس وانجلس لاي ثابتية» اخرى او لاي «كنه آخر او لاي «جوهر مطلق» آخر بالمعنى الذي رسمت به الفلسفة الاستاذية الفارغة هذه المفاهيم فان «كنه» الاشياء او «الجوهر» **هما ايضاً** نسبيان وهما يعربان فقط عن تعميق المعرفة البشرية للمواضيع ولئن كان هذا التعميق لم يمض امس الى ابعد من الذرة واليوم الى ابعد من الالكترون والاثير فان المادية الدياليكتيكية تلح على الطابع الموقت النسبي التقريبي لجميع هذه **المراحل** من معرفة الطبيعة من قبل العلم المتطور المتقدم لدى الانسان ان الالكترون **لا ينضب** مثله مثل الذرة والطبيعة لامتناهية ولكنها **توجد** الى ما لا نهاية وان هذا الاعتراف القاطع الوحيد والمطلق الوحيد **بوجودها** خارج وعي الانسان واحساسه هو الذي يميز المادية الدياليكتيكية عن اللاعرفانية النسبية وعن المثالية .

لنضرب مثالين يبينان كيف تتأرجح الفيزياء الجديدة بلا وعي وبصورة عفوية بين المادية الدياليكتيكية التي لا تزال مجهولة بالنسبة للعلماء البرجوازيين وبين «الظاهرية» مع استنتاجاتها الذاتية (والايمانية على المكشوف فيما بعد) المحتمة

ان اوغست ريغي ذاته الذي **لم يعرف** السيد فالنتينوف كيف يسأله بصدد المسألة التي تهمه مسألة المادية يكتب في مقدمة كتابه «اما ماهية الالكترونات او الذرات الكهربائية بالضبط فان هذا لا يزال سراً حتى الوقت الحاضر ولكن رغم هذا لربما كتب للنظرية الجديدة ان تكتسب مع مر الزمن اهمية فلسفية لا يستهان بها لأنها تتوصل الى مقدمات جديدة تماماً فيما يتعلق ببنيان المادة الموزونة وتسعى الى حصر جميع ظاهرات العالم الخارجي في اصل مشترك واحد

«ان هذه الافضلية هي اغلب الظن غير هامة من وجهة نظر ميول زمننا الوضعية والنفعية ومن الممكن اعتبار النظرية قبل كل شيء وسيلة لترتيب ومقارنة الوقائع بصورة مناسبة ومن الممكن ان تكون مرشداً لدن البحث عن الظاهرات اللاحقة ولكن لئن كانوا في الازمنة السابقة يبالغون حسبما يبدو ، في الايمان بكفاءات الروح البشرية وفي الظن بسهولة وضع اليد على الاسباب الاخيرة لجمع الاشياء ففي زمننا يتواجد الميل الى التورط في الخطأ المعاكس» (l. c., S. 3)

لماذا يتحاشى ريغي هنا الميول الوضعية والنفعية ؟ لأنه وهو الذي لا يتبنى على ما يبدو اي وجهة نظر فلسفية معينة يتمسك عفوياً بواقعية العالم الخارجي وبالاعتراف بالنظرية الجديدة لا بوصفها «مناسبة» وحسب (بوانكاره) لا بوصفها «رمزاً تجريبياً» وحسب (يوشكيفيتش) لا بوصفها «تنسيقاً للتجربة» وحسب (بوغدانوف) ، وما الى ذلك مما يطلقونه هناك

على مثل هذه الشعوذات الذاتية بل ايضاً بوصفها خطوة لاحقة الى معرفة الواقع الموضوعي ولو ان هذا الفيزيائي اطلع على المادية **الدياليكتيكية** ، فلربما غدا حكمه بشأن الخطأ المعاكس لخطأ المادية الميتافيزيائية القديمة نقطة انطلاق لفلسفة صحيحة ولكن كل الجو الذي يعيش فيه هؤلاء الناس يستبعدهم عن ماركس وانجلس ويدفعهم الى احضان الفلسفة الرسمية المبتذلة

كذلك ري لا يلم البتة بالدياليكتيكية ولكنه اضطر هو ايضاً الى ان يلاحظ انه يوجد بين الفلاسفة الحديثين مواصلون لتقاليد النزعة «الميكانيكية» (اي المادية) وهو يقول ان طريق النزعة «الميكانيكية» لا يسلكه كيرخهوف ، وهرتس وبولتسمان، ومكسويل وهلمهولتز واللورد كلفين وحسب «فان اولئك الذين يصوغون اثر لورنس ولارمور النظرية الكهربائية عن المادة ويخلصون الى انكار دوام الكتلة معتبرينها وظيفة للحركة هم انصار خالصون للنزعة الميكا نيكية ، بل هم ، من وجهة نظر معينة ، اشد تمسكاً بها من اي كان ممن يمثلون آخر كلمة (l'aboutissant) للنزعة الميكانيكية **فانهم جميعهم انصار للنزعة الميكانيكية لأنهم يأخذون الحركات الفعلية نقطة الانطلاق**» (حرف التشديد لري ص ٢٩٠-٢٩١)

لو ان الفرضيات الجديدة التي تقدم بها لورنتس ولارمور ولانجيفن (Langevin) تأكدت صحتها بالتجربة واكتسبت قاعدة متينة كافية لأجل تنسيق الفيزياء لكان مما لا شك فيه ان قوانين الميكانيك المعاصر تتوقف على قوانين المغناطيسية الكهربائية ولكانت قوانين الميكانيك حالة خاصة ولكانت محصورة ضمن حدود معينة بدقة ولكان دوام الكتلة مبدأنا الخاص بالجمود احتفظا بمفعولهما بالنسبة للسرعات المتوسطة للاجسام فقط ، مع فهم تعبير «المتوسط» مطبقاً على احساساتنا وعلى الظاهرات والتي تشكل

تجربتنا العادية ولأصبح من الضروري اعادة بناء الميكانيك عموماً وبالتالي اعادة بناء الفيزياء عموماً بوصفها نظاماً

فهل يعني هذا عدولاً عن الميكانيكية ؟ كلا ابداً فان التقليد الميكانيكي الخالص يستمر في هذه الحال وتسير الميكانيكية في الطريق العادي لتطورها» (ص ٢٩٥)

«ان الفيزياء الالكترونية التي يجب نسبها الى عداد النظريات الميكانيكية من حيث روحها العامة تسعى الى اضفاء ترتبها على الفيزياء بأسرها ان فيزياء الالكترونات هذه ، — مع ان مبادئها الاساسية لا تؤخذ من الميكانيك بل تؤخذ من المعطيات الاختبارية لنظرية الكهرباء — ، تتوافق مع الروح الميكانيكية لأنها ١— تستعمل عناصر **شكلية** (figurés) ،**مادية** لكي تعرض الخواص الفيزيائية وقوانينها وهي تنعكس في تعابير الادراك ٢ — اذا كانت لا تعتبر الظاهرات الفيزيائية حالات خاصة من الظاهرات الميكانيكية فانها تعتبر الظاهرات الميكانيكية حالة خاصة من الظاهرات الفيزيائية وبالتالي تبقى قوانين الميكانيك **على صلة مباشرة** بقوانين الفيزياء وتبقى مفاهيم الميكانيك مفاهيم من نفس طراز المفاهيم الفيزيائية الكيماوية وقد كانت هذه المفاهيم في الميكانيكية التقليدية منسوخة (calqués) عن حركات **بطيئة نسبياً** اعتبرت نماذج لجميع الحركات الممكنة لأنها كانت وحدها فقط معروفة وفي منال المراقبة المباشرة الا ان التجارب **الجديدة** بينت انه من الضروري **توسيع** تصورنا عن الحركات الممكنة ويبقى الميكانيك التقليدي كله في عصمة ولكن لا يغدو من الممكن تطبيقه الا على الحركات البطيئة نسبياً

اما فيما يتعلق بالسرعات الكبيرة فان قوانين الحركة تختلف ان المادة تحصر في دقائق كهربائية في آخر عناصر الذرة . . . ٣ — تبقى الحركة ، التنقل في المكان ، العنصر الشكلي

(figuré) الوحيد في النظرية الفيزيائية ٤ - اخيراً - وهذا الاعتبار هو ارفع من جميع الاعتبارات الاخرى من وجهة نظر روح الفيزياء العام - تبقى النظرة الى الفيزياء والى طريقتها والى نظرياتها والى علاقتها بالتجربة **مماثلة تماماً** لنظرات الميكانيكية لنظرية الفيزياء ابتداء من عهد النهضة» (ص ٤٦ - ٤٧)

لقد اوردت هذه المقتطفات الطويلة بنصها الكامل من ري لأنه كان من المستحيل ان اعرض مزاعمه بنحو آخر نظراً لحرصه الدائم على تجنب «الميتافيزياء المادية» ولكن مهما تنصل ري والفيزيائيون الذين يتحدث عنهم من المادية يبقى مع ذلك مما لا ريب فيه ان الميكانيكية كانت منسوخة عن حركات فعلية بطيئة في حين ان الفيزياء الجديدة منسوخة عن حركات فعلية هائلة السرعة ففي الاعتراف بالنظرية صورة نسخة تقريبية عن الواقع الموضوعي ، - في هذا بالضبط تتلخص المادية وحين يقول ري انه يوجد بين الفيزيائيين الجدد «رد فعل ضد المدرسة المفاهيمية (الماخية) والطاقية» وحين ينسب الى عداد ممثلي رد الفعل هذا فيزيائيي النظرية الالكترونية (ص ٤٦) فانه لا يسعنا ان نتمنى برهاناً افضل على ان الصراع يدور من حيث جوهر الامر بين الميول المادية والميول المثالية ولكنه ينبغي ان لا يغيب عن البال ان الجهل المطبق للدياليكتيك يؤثر في ابرز النظريين علاوة على الخرافات العامة ضد المادية لدى جميع التافهين الضيقى الافق المتعلمين

٣ - هل تمكن الحركة بدون المادة ؟

ان ما يستتبع استعمال الفيزياء الجديدة من قبل المثالية الفلسفية او يستتبع الاستنتاجات المثالية من الفيزياء الجديدة ليس اكتشاف انواع جديدة من الشيء والقوة ، من المادة

والحركة بل القيام بمحاولة لتصور الحركة بدون المادة وهذه المحاولـــة بالذات لا يتبصر بها اصحابنـــا الماخيون بالفعـــل وهـــم لم يرغبـــوا في ان يأخذوا بالحسبـــان قول انجلس ان «الحركة **مستحيلة** بدون المادة» ان يوسف ديتزغـــن اعرب حتى في عام ١٨٦٩ في مؤلفه «جوهر عمل الرأس» عن نفس الفكرة التي اعرب عنها انجلس ، – ولكن والحق يقال ليس دون محاولاته الملخبطة العادية «للتوفيق» بين المادية والمثالية لندع جانباً هذه المحاولات التي تعزي بدرجة كبيرة الى ان ديتزغن يتناظر مع المادية البوخنرية الغريبة عن الدياليكتيك ولننظر الى بيانات ديتزغن ذاتها في المسألة التي تهمنا يقول ديتزغن «يريد المثاليون العام بدون الخاص الروح بدون المادة القوة بدون الشيء ، العلم بدون التجربة او بدون المادة ، المطلق بدون النسبي» («Das Wesen der menschlichen Kopfarbeit», 1903, S. 108*) وهكذا يقرن ديتزغـــن بالمثاليـــة السعـــي الى فصـــل الحركة عن المادة القوة عن الشيء ويضعه الى جانب السعـــي الى فصل الفكرة عن الدماغ ويستطرد ديتزغن قائلا «ان ليبيخ الذي يطيب له ان يقوم بتراجعات عن علمه الاستقرائي صوب التأمل الفلسفي يتكلم بمعنى المثالية لا تمكن رؤيـــة القوة» (ص ١٠٩) «ان الروحاني او المثالي **يؤمن** في جوهر القوة الروحي اي الخيالي غير الممكن تفسيره» (ص ١١٠) «ان التضاد بين القوة والشيء قديم مثل قدم التضاد بين المثاليـــة والماديـــة» (ص ١١١) «بديهي انه لا وجود للقوة بدون الشيء ولا وجود للشيء بدون القوة ان الشيء بدون القوة ، والقوة بدون الشيء انما هو امر سخيف غير معقول واذا كان علماء الطبيعيات المثاليون

---

* «جوهر عمـــل رأس الانسان» ، عام ١٩٠٣ ، ص ١٠٨

الناشر .

يؤمنون بوجود القوى غير المادي فانهم في هذه النقطة ليسوا علماء طبيعيات بل روحانيون» (ص ١١٤)

ومن هنا نرى انه توجد ايضاً منذ اربعين سنة علماء طبيعيات مستعدون للتسليم بامكان تصور الحركة بدون المادة وان ديتزغن اعتبرهم «في هذه النقطة» روحانيين فما هي صلة المثالية الفلسفية بفصل المادة عن الحركة باستبعاد الشيء عن القوة ؟ أوليس من «الاوفر» ، بالفعل تصور الحركة بدون المادة ؟

لنتصور مثالياً منسجماً يتبنى مثلاً وجهة النظر القائلة ان العالم كله هو احساسه او تصوره والخ (اذا اخذنا احساساً اوتصوراً «لايخص احداً» فمن جراء ذلك يتغير مجرد نوع المثالية الفلسفية ولكن جوهرها لن يتغير) ان هذا المثالي لن ينكر ابداً ان العالم هو حركة اي بالضبط حركة افكاره وتصوراته واحساساته اما مسألة معرفة ما يتحرك فان المثالي ينبذها ويعتبرها سخيفة ويقول تتعاقب احساساتي وتزول وتظهر التصورات وهذا كل ما في الأمر ولا شيء خارجاً عني «يتحرك» — وكفى ولا يمكن تصور تفكير اكثر «توفيراً» ولا يمكن دحض السوليبسي باية براهين وقياسات وتعريفات اذا كان يطبق نظرته بانسجام

ان الفرق الاساسي بين المادي ونصير الفلسفة المثالية يتجسد في اعتبار احساس الانسان ادراكه تصوره ووعيه على العموم صورة عن الواقع الموضوعي فان العالم هو حركة هذا الواقع الموضوعي الذي يعكسه وعينا وحركة التصورات ، والمدركات والخ تناسبها حركة المادة خارجاً عني ان مفهوم المادة لا يعبّر عن شيء عدا الواقع الموضوعي المعطى لنا في الاحساس ولهذا يعني فصل الحركة عن المادة فصل التفكير عن الواقع الموضوعي ، فصل احساساتي عن العالم الخارجي ، اي الانتقال الى جانب المثالية .

ان تلك الشعوذة التي يقومون بها عادة فيما يتعلق بانكار المادة بالتسليم بالحركة بدون المادة تتلخص في الصمت عن علاقة المادة بالفكر ويصورون الامر كأن هذه العلاقة لم توجد، في حين انها تمرر بالفعل سرا وتبقى غير ماثلة في بداية المحاكمة ولكنها تظهر فيما بعد بصورة غير ملحوظة الى هذا الحد او ذاك

يقولون لنا المادة زالت راغبين في استخلاص استنتاجات عرفانية من هنا ولكن هل بقى الفكر ؟ – نسأل نحن اذا كان كلا اذا زال الفكر ايضاً مع زوال المادة وزالت التصورات والاحساسات مع زوال الدماغ والجهاز العصبي فاذ ذاك يعني ان كل شيء زال بما في ذلك محاكماتكم بوصفها تجسيداً «للفكر» على كل حال (او للغباوة !) واذا كان نعم اذا كان يُفترض ان الفكر (التصور الاحساس والخ .) لا يزول في حال زوال المادة ، فان هذا يعني انكم انتقلتم سراً الى وجهة نظر المثالية الفلسفية وهذا بالذات ما يحدث دائماً لاولئك الذين يرغبون من باب «التوفير» في تصور الحركة بدون المادة لأنهم يعترفون **ضمنا** لمجرد كونهم يواصلون محاكمتهم بوجود الفكر **بعد** زوال المادة والحال ان هذا يعني ان المثالية الفلسفية البسيطة جداً او المعقدة جداً تؤخذ اساساً البسيطة جداً اذا حُصر الامر على المكشوف في السوليبسيسم (**انا** موجود والعالم كله ليس غير احساسي **انا**) المعقدة جداً اذا أُخذ التجريد الميت عوضاً عن فكر الانسان الحي وتصوره واحساسه الفكر لايخص احداً التصور لايخص احداً الاحساس لايخص احداً الفكر على العموم (الفكرة المطلقة الارادة الكلية وما الى ذلك) الاحساس بوصفه «عنصراً» غير معين ، «نفسياً» ، موضوعاً تحت الطبيعة الفيزيائية كلها ، وهكذا

دواليك وهلم جراً وبين انواع المثالية الفلسفية من الممكن في هذه الحال قيام آلاف التلاوين ومن الممكن دائماً صنع التلوين الواحد بعد الالف ومن الممكن ان يبدو لصاحب مثل هذا النظام الواحد بعد الألف (مثلاً نظام الاحادية التجريبية) الفرق بين نظامه والانظمة الباقية هاماً اما من وجهة نظر المادية فان هذه الفوارق ليست ذات شأن اطلاقاً فالمهم هو نقطة الانطلاق المهم هو ان محاولة **تصور** الحركة بدون المادة تمرر **الفكر** المفصول عن المادة وهذه هي المثالية الفلسفية بالضبط

ولهذا مثلاً نرى الماخي الانجليزي كارل بيرسون – وهو الماخي الاشد وضوحاً وانسجاماً وعداء للمراوغات في الكلام – يبدأ على المكشوف الفصل السابع من كتابه ، المخصص «للمادة» ، بفقرة تحمل العنوان المميز التالي : «**جميع الاشياء تتحرك ، ولكن في التصور الذهني فقط**» («All things move – but only in conception»). «فيما يتعلق بميدان المدركات ، لا جدوى من السؤال («it is idle to ask») عمّا يتحرك ولماذا يتحرك» («The Grammar of Science*).

ولهذا بدأت مصائب بوغدانوف الفلسفية ايضاً قبل اطلاعه على ماخ وبدأ ذلك منذ ان آمن في الكيماوي الكبير والفيلسوف الصغير اوستفالد الذي زعم انه يمكن تصور الحركة بدون المادة ويجدر التوقف عند هذا الواقع الغارق في القدم من تطور بوغدانوف الفلسفي خصوصاً وانه يستحيل تحاشي «مذهب الطاقة» عند اوستفالد في معرض الكلام عن صلة المثالية الفلسفية ببعض التيارات في الفيزياء الجديدة

كتب بوغدانوف في عام ١٨٩٩ يقول «لقد سبق وقلنا ان القرن التاسع عشر لم يفلح في البت بمسألة «جوهر

* – ص ٢٤٣ ، «قواعد العلم» . **الناشر** .

ان تلك الشعوذة التي يقومون بها عادة فيما يتعلق بانكار المادة بالتسليم بالحركة بدون المادة تتلخص في الصمت عن علاقة المادة بالفكر ويصورون الامر كأن هذه العلاقة لم توجد ، في حين انها تمرر بالفعل سرا وتبقى غير ماثلة في بداية المحاكمة ولكنها تظهر فيما بعد بصورة غير ملحوظة الى هذا الحد او ذاك

يقولون لنا المادة زالت راغبين في استخلاص استنتاجات عرفانية من هنا ولكن هل بقى الفكر ؟ - نسأل نحن اذا كان كلا اذا زال الفكر ايضاً مع زوال المادة وزالت التصورات والاحساسات مع زوال الدماغ والجهاز العصبي فاذ ذاك يعني ان كل شيء زال بما في ذلك محاكماتكم بوصفها تجسيداً «للفكر» على كل حال (او للغباوة !) واذا كان نعم اذا كان يُفترض ان الفكر (التصور الاحساس والخ .) لا يزول في حال زوال المادة ، فان هذا يعني انكم انتقلتم سراً الى وجهة نظر المثالية الفلسفية وهذا بالذات ما يحدث دائماً لاولئك الذين يرغبون من باب «التوفير» في تصور الحركة بدون المادة لأنهم يعترفون **ضمنا** لمجرد كونهم يواصلون محاكمتهم بوجود الفكر **بعد** زوال المادة والحال ان هذا يعني ان المثالية الفلسفية البسيطة جداً او المعقدة جداً تؤخذ اساساً البسيطة جداً اذا حُصر الامر على المكشوف في السوليبسيسم (**انا** موجود والعالم كله ليس غير احساسي **انا**) المعقدة جداً اذا أُخذ التجريد الميت عوضاً عن فكر الانسان الحي وتصوره واحساسه الفكر لايخص احداً التصور لايخص احداً الاحساس لايخص احداً الفكر على العموم (الفكرة المطلقة الارادة الكلية وما الى ذلك) الاحساس بوصفه «عنصراً» غير معين ، «نفسياً» ، موضوعاً تحت الطبيعة الفيزيائية كلها ، وهكذا

دواليك وهلم جراً وبين انواع المثالية الفلسفية من الممكن في هذه الحال قيام آلاف التلاوين ومن الممكن دائماً صنع التلوين الواحد بعد الالف ومن الممكن ان يبدو لصاحب مثل هذا النظام الواحد بعد الألف (مثلاً نظام الاحادية التجريبية) الفرق بين نظامه والانظمة الباقية هاماً اما من وجهة نظر المادية فان هذه الفوارق ليست ذات شأن اطلاقاً فالمهم هو نقطة الانطلاق المهم هو ان محاولة **تصور** الحركة بدون المادة تمرر **الفكر** المفصول عن المادة وهذه هي المثالية الفلسفية بالضبط

ولهذا مثلاً نرى الماخي الانجليزي كارل بيرسون – وهو الماخي الاشد وضوحاً وانسجاماً وعداء للمراوغات في الكلام – يبدأ على المكشوف الفصل السابع من كتابه ، المخصص «للمادة» ، بفقرة تحمل العنوان المميز التالي : «**جميع الاشياء تتحرك ، ولكن في التصور الذهني فقط**» («All things move – but only in conception»). «فيما يتعلق بميدان المدركات ، لا جدوى من السؤال («it is idle to ask») عمّا يتحرك ولماذا يتحرك» («The Grammar of Science*).

ولهذا بدأت مصائب بوغدانوف الفلسفية ايضاً قبل اطلاعه على ماخ وبدأ ذلك منذ ان آمن في الكيماوي الكبير والفيلسوف الصغير اوستفالد الذي زعم انه يمكن تصور الحركة بدون المادة ويجدر التوقف عند هذا الواقع الغارق في القدم من تطور بوغدانوف الفلسفي خصوصاً وانه يستحيل تحاشي «مذهب الطاقة» عند اوستفالد في معرض الكلام عن صلة المثالية الفلسفية ببعض التيارات في الفيزياء الجديدة

كتب بوغدانوف في عام ١٨٩٩ يقول «لقد سبق وقلنا ان القرن التاسع عشر لم يفلح في البت بمسألة «جوهر

---

* – ص ٢٤٣ ، «قواعد العلم» . **الناشر** .

الاشياء الذي لا يتغير» ان هذا الجوهر يضطلع بدون بارز حتى في عقائد اكثر مفكري القرن تقدماً تحت اسم «المادة»
(«العناصر الاساسية للنظرة التاريخية الى الطبيعة» ص ٣٨)

لقد قلنا ان هذا تخبيص فان الاعتراف بواقعية العالم الخارجي الموضوعية الاعتراف بوجود مادة خارج ادراكنا متحركة منذ الازل والى الابد ومتغيرة منذ الازل والى الابد يختلط هنا مع الاعتراف بجوهر الاشياء الذي لا يتغير فلا يمكن الظن بان بوغدانوف لم ينسب ماركس وانجلس في عام ١٨٩٩ الى عداد «المفكرين المتقدمين» ولكنه من الواضح انه لم يفهم المادية الديالكتيكية

لا يزالون يميزون عادة في عمليات الطبيعة جانبين المادة وحركتها فلا يمكن القول ان مفهوم المادة يتميز بوضوح كبير . وعن السؤال عن ماهية المادة ليس من السهل اعطاء جواب مرض يعرّفون المادة على انها «سبب الاحساسات» او على انها «الامكانية الدائمة للاحساسات» ولكنه من الجلي ان المادة مخلوطة هنا مع الحركة

واضح ان بوغدانوف يحاكم بصورة غير صحيحة فهو لا يكتفي بخلط الاعتراف المادي بالمصدر الموضوعي للاحساسات (المصاغ بدون وضوح في كلمتي سبب الاحساسات) مع تعريف ميل ّ اللاعرفاني للمادة بوصفها **امكانية** دائمة للاحساسات ان الخطأ الاساسي هنا هو ان المؤلف مع اقترابه عن كثب من مسألة وجود او عدم وجود المصدر الموضوعي للاحساسات يترك هذه المسألة في منتصف الطريق ويقفز الى مسألة اخرى الى مسألة وجود او عدم وجود المادة بدون الحركة بوسع المثالي ان يعتبر العالم **حركة** احساساتنا (ولو على الاقل احساساتنا «المنظمة اجتماعياً» و«المنسقة» الى اقصى حدّ) ،

في حين ان المادي يعتبر العالم حركة مصدر موضوعي موديل موضوعي لاحساساتنا بوسع المادي الميتافيزيائي اي المناهض للدياليكتيك ان يسلم بوجود المادة (وان موقتاً قبل «الدفعة الاولى» وما الى ذلك) بدون الحركة اما المادي الدياليكتيكي فانه لا يعتبر الحركة خاصة ملازمة للمادة لا تنفصل عنها وحسب بل يرفض كذلك النظرة المبسطة الى الحركة والخ

لعل التعريف التالي قد يكون التعريف الادق «ان المادة هي ما يتحرك» ولكن هذا لا معنى له كما لو قلنا ان المادة هي مبتدأ خبره «يتحرك» ولكن المسألة تتلخص اغلب الظن في كون الناس قد اعتادوا في عهد علم الاستاتيكا ان يروا في دور المبتدأ من كل بدّ امراً ما موزوناً «شيئاً» ما في حين انهم لم يوافقوا على ان يصبروا على هذا الشيء غير الملائم للتفكير الاستاتيكي اى «الحركة» الا باعتباره خبراً احدى صفات المادة

ان هذا يشبه اتهام اكيموف للايسكريين بان برنامجهم يخلو من كلمة البروليتاريا في حالة الرفع (٨٢) فان المسألة لا تتغير سواء قلت ان العالم هو مادة متحركة ام قلت ان العالم حركة مادية

ولكن لا بدّ ان يكون للطاقة حامل هكذا يقول انصار المادة «ولماذا ؟» – يسأل اوستفالد بصورة معقولة . «فهل الطبيعة ملزمة بان تتألف من مبتدأ وخبر ؟» (ص ٣٩)

ان جواب اوستفالد الذي اعجب كثيراً بوغدانوف في عام ١٨٩٩ هو مجرد سفسطائية فقد كان من الممكن الرد على اوستفالد بما يلي وهل آراؤنا ملزمة بان تتألف من الكترونات واثير ؟ وبالفعل ان استبعاد المادة من «الطبيعة» بالفكر بوصف المادة «مبتدأ» ، انما يعنى التسليم ضمناً بادخال **الفكر** بوصفه «مبتدأ» (اي

بوصفه شيئاً ما اولياً ، منطلقياً ، مستقلاً عن المادة) **في الفلسفة** . ان ما يستبعد ليس المبتدأ بل المصدر الموضوعي للاحساس ، ويصبح **الاحساس** هو «المبتدأ» اي ان الفلسفة تصبح بركلية مهما غيروا فيما بعد حلل كلمة «الاحساس» ولقد حاول اوستفالد ان يتهرب من هذه العنادية الفلسفية التي لا مناص منها (المادية ام المثالية) عن طريق استعمال كلمة «الطاقة» بشكل غير واضح ولكن محاولته بالذات هي التي تبيّن مرة اخرى بطلان هذه الاحتيالات فاذا كانت الطاقة حركة فقد اقتصرتم على نقل الصعوبة من المبتدأ الى الخبر واقتصرتم على تحوير السؤال هل المادة تتحرك ؟ الى سوأل هل الطاقة مادية ؟ أيجري تحول الطاقة خارج وعيي بصورة مستقلة عن الانسان والانسانية ام ان هذا مجرد افكار رموز علامات اصطلاحية وما الى ذلك ؟ وعلى هذا السؤال بالذات كسرت الفلسفة «الطاقية» رقبتها ، اي هذه المحاولة لطمس الاخطاء العرفانية القديمة بتعابير «جديدة»

اليكم امثلة تبين كيف تورط الطاقي اوستفالد في الضلالة فهو يقول في مقدمة كتابه «محاضرات في فلسفة الطبيعة» * انه يعتبر «مكسباً هائلاً اذا ازيلت الصعوبة القديمة - كيف الجمع بين مفهومي المادة والروح - بصورة بسيطة وطبيعية بحصر هذين المفهومين في مفهوم الطاقة» هذا ليس مكسباً بل خسارة لأن مسألة توجيه اجراء البحث العرفاني (واوستفالد لا يدرك بوضوح انه يطرح مسألة عرفانية على وجه الضبط وليس مسألة كيماوية !) في الاتجاه المادي ام في الاتجاه المثالي لا يحلها بل يخبصها استعمال كلمة «الطاقة» اعتباطاً

---

* Wilhelm Ostwald. «Vorlesungen über Naturphilosophie», 2. Aufl., Leipz., 1902, S. VIII (ولهلم اوستفالد «محاضرات في فلسفة الطبيعة» ، الطبعة الثانية ، ليبزيغ ، عام ١٩٠٢ ، ص VIII . **الناشر**)

يقيناً اننا اذا «حصرنا» المادة والروح معاً في هذا المفهـــوم فان القضاء **الكلامي** على التضاد سيكون امراً لا ريب فيه ولكن سخافة التعليم عن العفاريت والجن لا تزول اذا سميناه «بمذهب الطاقة» وفي الصفحة ٣٩٤ من «محاضرات» اوستفالـد نقرأ «امـا انـه يمكن تصوير جميـع الظاهرات الخارجيـة بصورة عمليـات بين الطاقات فانه يمكن تفسير هذا الامر بابسط نحو بكون عمليات وعينا على وجه الدقة هي نفسها طاقية وبكونها تنقل (aufprägen) خاصتها هذه الى جميع التجارب الخارجية» هذه مثالية خالصة لانه ينجم من هنا ان فكرنا ليس هو الذي يعكس تحول الطاقة في العالم الخارجي بل العالم الخارجي هو الذي يعكس «خاصة» وعينا! ويقول الفيلسوف الاميركي هيبن ببالغ الصواب مشيراً الى هذا المقطع وغيره من المقاطع المماثلة في محاضرات اوستفالد ان اوستفالد «يظهر هنا في لباس الكانطية» فان قابلية تفسير ظاهرات العالم الخارجي تستخلص من خواص عقلنا! * ويقول هيبن «من الجلي اننا اذا عرّفنا مفهوم الطاقة الاولي بحيث انه يشمل كذلك الظواهر النفسية فان هذا لن يكون ذلك المفهوم البسيط عن الطاقة الذي يلقى الاعتراف في الاوساط العلميـة او حتى من قبـل الطاقيين انفسهم» ان العلوم الطبيعية تعتبر تحول الطاقة عملية موضوعية مستقلة عن وعي الانسان وعن تجربة الانسانية اي انها تنظر اليه نظرة مادية وعند اوستفالد نفسه نجد في طائفة من الاحوال وحتى على الارجح في الاغلبية الساحقة من الاحوال انه يُقصـد بالطاقة الحركة **المادية**

---

* J. Gr. Hibben. «The Theory of Energetics and Its Philosophical Bearings», «The Monist», vol. XIII, N° 3, 1903, April, pp. 329-330

(ج غر هيبن «نظرية الطاقة ودلالتها الفلسفية» «الاحادي» المجلد ١٣، العدد ٣، عام ١٩٠٣، نيسان ــ ابريل، ص٣٢٩ــ٣٣٠. **الناشر**).

ولهذا بالذات ظهرت هذه الظاهرة الفريدة وهي ان تلميذ اوستفالد بوغدانوف بعد ان غدا تلميذ ماخ اخذ يلوم اوستفالد لا على انه لا يتمسك بنظرة مادية منسجمة الى الطاقة بل على انه يجيز (وحتى يضع في الاساس احياناً) النظرة المادية الى الطاقة ان الماديين ينتقدون اوستفالد لأنه يسقط في حمأة المثالية لأنه يحاول ان يوفق بين المادية والمثالية اما بوغدانوف فانه ينتقد اوستفالد من وجهة النظر **المثالية** فقد كتب بوغدانوف في عام ١٩٠٦ يقول ان مذهب الطاقة عند اوستفالد المعادي لنظرية الذرة ولكن القريب جداً في كل الباقي من المادية ، قد حظي باحر عواطفي ولكن سرعان ما لاحظت تناقضاً هاماً في فلسفة الطبيعة عنده فمع تأكيده مراراً عديدة على دلالة مفهوم الطاقة **على صعيد منهج البحث الخالص** لا يتقيد بها هو نفسه في كثير جداً من الاحوال فان الطاقة تتحول عنده مراراً من رمز خالص للعلاقة بين وقائع التجربة الى **جوهر** التجربة الى مادة العالم («الاحادية التجريبية» **الكتاب** الثالث ص XVI-XVII)

الطاقة – رمز خالص بعد هذا **يمكن** لبوغدانوف ان يجادل قدر ما يطيب له ضد «الرمزي التجريبي» يوشكيفيتش ضد «الماخيين الخالصين» النقاد التجريبيين والخ فمن وجهة نظر الماديين سيكون هذا جدالاً بين انسان يؤمن في الشيطان الاصفر وانسان يؤمن في الشيطان الاخضر لأن المهم ليس ما يفرق بوغدانوف عن سائر الماخيين بل ما يجمع بينه وبينهم وهو التفسير **المثالي** «للتجربة» و«الطاقة» وانكار الواقع الموضوعي الذي تتجسد تجربة الانسان في التكيف له والذي يتلخص «منهج البحث» العلمي الوحيد و«مذهب الطاقة» العلمي الوحيد في استنساخه .

«ان مادة العالم هي بالنسبة له (لمذهب الطاقة عند اوستفالد) امر لا يُعبأ به اذ تلائمه تماماً سواء المادية القديمــة ام مذهب النفسية الشامل» (ص XVII) . – اي المثالية الفلسفية؟ وقد انطلق بوغدانوف **من** مذهب الطاقة المشوش **لا في** الدرب المادي **بل في** الدرب **المثالي** «حين يصورون الطاقة بصورة الجوهر فان هذا لا يعدو ان يكون المادية القديمة ناقص الذرات المطلقة ، – المادية مع تعديل بمعنى ديمومة الموجود» (المرجع نفسه) اجل لقد انطلق بوغدانوف من المادية «القديمة» اي من المادية الميتافيزيائيــة عند علماء الطبيعيات لا الى الماديــة **الدياليكتيكية** التي ظل لا يفهمها في عام ١٩٠٦ كما لم يفهمها في عام ١٨٩٩ بل الى المثالية والى الايمانية لأنه ما من ممثل متعلم للايمانيــة المعاصرة ما من كمونــي ما من «انتقادي جديــد» والخ من يعترض على المفهوم «المنهجي» للطاقة وعلى تفسير الطاقة بوصفها «رمزاً خالصاً للعلاقة بين وقائع التجربة» خذوا ب كاروس الذي سبق وتعرفنا اعلاه كفاية على سحنته تروا ان هذا الماخي ينتقد اوستفالد **بالطريقة البوغدانوفية تماماً** فقد كتب كاروس يقول «المادية ومذهب الطاقة يعودان بالتأكيد الى مصف ذاته» («The Monist», vol. XVII, 1907, N° 4, p.536) «ان المادية تنيرنا قليلاً جداً عندما تقـول لنـا ان كـــل شـــيء مادة ان الاجسام هي مادة وان الفكـــر هو وظيفـــة المادة فقط ومذهب الطاقة عند البروفسور اوستفالد ليس البتة افضل ما دام يقول لنا ان المادة هي طاقة وان الروح هي عامل الطاقة فقط» (ص ٥٣٣)

ان مذهب الطاقة عند اوستفالد هو مثال جيد يبين باي سرعة تصبح التعابير «الجديدة» تعابير على الموضــة وباي سرعـــة يظهر ان اسلوباً معدّلاً نوعاً للتعبير لا يزيل البتة المسائل الفلسفية الاساسية والاتجاهات الفلسفية الاساسية . ومن الممكن الاعراب عن

المادية والمثالية (بقدر متفاوت من الانسجام ، بالطبع) بتعابير «مذهب الطاقة» كما بتعابير «التجربة» وما الى ذلك ان الفيزياء الطاقية هي مصدر محاولات مثالية جديدة لتصور الحركة بدون المادة ، وذلك بسبب انشطار دقائق من المادة كانت تعتبر حتى الآن غير قابلة للانشطار واكتشاف اشكال للحركة المادية كانت غير معروفة حتى الآن

٤ ـ اتجاهان في الفيزياء المعاصرة والمذهب الروحاني البريطاني

لكي نبين بصورة ملموسة ذلك الصراع الفلسفي الذي احتدم في الادب المعاصر بصدد هذه الاستنتاجات او تلك من الفيزياء الجديدة نترك الكلمة لمشتركين مباشرين في «المعركة» ونبدأ بالانجليز ان الفيزيائي ارتور ريكر يذود عن اتجاه – من وجهة نظر عالم الطبيعيات والفيلسوف جيمس ورد يذود عن اتجاه آخر – من وجهة نظر علم العرفان

ففي مؤتمر علماء الطبيعيات البريطانيين في غلاسغو المنعقد عام ١٩٠١ اختار رئيس الشعبة الفيزيائية ارتور ريكر موضوعاً لخطابه مسألة قيمة النظرية الفيزيائية ومسألة تلك الشكوك التي اصبح وجود الذرات والاثير على الخصوص عرضة لها وقد استشهد الخطيب بالفيزيائيين اللذين اثارا هذه المسألة وهما بوانكاره وبوينتينغ (وهذا الاخير رفيق بريطاني بالفكر للرمزيين او الماخيين) وبالفيلسوف ورد وبالكتاب المعروف الذي كتبه ا هيكّل وحاول ان يقدم عرضاً لنظراته *

* The British Association at Glasgow. 1901. Presidential Address by Prof. Arthur W. Rücker «The Scientific American. Supplement», 1901, N° 1345, N° 1346 (الرابطة البريطانية في غلاسغو عام ١٩٠١ خطاب الرئيس البروفسور ارتور ريكر «العلم الاميركي ملحق» عام ١٩٠١ ، العدد ١٣٤٥ والعدد ١٣٤٦ . **الناشر**) .

قال ريكر «ان المسألة المتنازع عليها تتلخص فيما يلي تلك الفرضيات التي تقوم في اساس اوسع النظريات العلمية انتشاراً أيجب اعتبارها بمثابة اوصاف دقيقة لبنية العالم المحيط بنا ام فقط بمثابة اوهام ملائمة» (بتعابير جدالنا مع بوغدانوف ويوشكيفيتش وشركاهما نسخة عن الواقع الموضوعي وعن المادة المتحركة ام مجرد «منهج للبحث» «رمز خالص» ، «اشكال لتنظيم التجربة» ؟) ويوافق ريكر على انه قد ينعدم الفرق عملياً بين النظريتين فان اتجاه النهر يمكن على الارجح ان يحدده سواء ذاك الذي ينظر فقط الى الشريط الازرق على الخريطة او على الرسم البياني ام ذاك الذي يعرف ان هذا الشريط يصور النهر بالفعل ان النظرية ستكون من وجهة نظر الوهم الملائم «تسهيلاً للذاكرة» «ترتيباً» لمراقباتنا تنسيقاً بينها وبين نظام اصطناعي معين و«ضبطاً لمعرفتنا» وتلخيصاً لها في معادلة والخ يمكن مثلاً الاكتفاء بكون الحرارة شكلاً للحركة او للطاقة و«الاستعاضة بالتالي عن المشهد الحي للذرات المتحركة بتصريح عديم اللون (colourless) عن الطاقة الحرارية التي لا نحاول ان نحدد طبيعتها الفعلية» الا ان ريكر مع اعترافه تماماً بامكان النجاحات العلمية الكبيرة في هذا الطريق «يتجرأ على الزعم انه لا يجوز اعتبار مثل هذا النهج التكنيكي بمثابة آخر كلمة للعلم في النضال من اجل الحقيقة» ان السؤال لا يزال مطروحاً «هل يمكننا ان نستخلص من الظاهرات التي تظهرها المادة بنية المادة ذاتها» ؟ «هل تتوفر لنا الاسس للظن ان موجز النظرية الذي سبق واعطاه العلم هو الى درجة ما نسخة عن الحقيقة وليس مجرد رسم بياني عنها» ؟

ولتحليل مسألة بنية المادة يأخذ ريكر الهواء على سبيل المثال ويقول ان الهواء يتألف من غازات وان العلم يحل «اي غاز اولي الى خليط من الذرات والاثير» وهنا بالذات ، - كما يستطرد قائلاً - ، يصيحون بنا «قف تستحيل رؤية الجزيئات والذرات يمكن ان تكون صالحة بوصفها «مجرد مفاهيم» (mere conceptions) «ولكنه لا يمكن اعتبارها اشياء واقعية» وينحي ريكر هذا الاعتراض بالاستشهاد بحالة من الحالات التي لا عدّ لها في تطور العلم ان حلقات كوكب زحل تبدو في التلسكوب كتلة متكاملة الا ان علماء الرياضيات برهنوا بالحساب ان هذا مستحيل واكد التحليل الطيفي صحة الاستنتاجات المستخلصة على اساس الحسابات واليكم اعتراضاً آخر ينسبون الى الذرات والاثير خواص لا تبينها لنا حواسنا في المادة العادية وهذا الاعتراض ايضاً ينحيه ريكر بالاستشهاد بامثلة من نوع انتشار الغازات والسوائل والخ وتثبت جملة من الوقائع والمراقبات والتجارب ان المادة تتألف من مختلف الدقائق او الحبوب ان مسألة معرفة ما اذا كانت هذه الدقائق هذه الذرات تختلف عن «البيئة الاولية» عن «البيئة الاساسية» التي تحيط بها (الاثير) ام انها اجزاء من هذه البيئة موجودة في حالة خاصة ، لا تزال معلقة دون ان تمس نظرية وجود الذرات وليس ثمة اساس للانكار القبلي خلافاً لمعطيات التجربة لوجود «الجواهر المادية الزائفة» المختلفة عن المادة العادية (الذرات والاثير) ان الاخطاء في التفاصيل لا مناص منها هنا ولكن كل مجمل المعطيات العلمية لا يدع مجالاً للشك في وجود الذرات والجزيئات

ثم يشير ريكر الى المعطيات الجديدة عن بنية الذرات من جسيمات (كريات الكترونات) سالبة الشحنة وينوه بتشابه نتائج مختلف التجارب والحسابات المتعلقة بحجم

الجزيئات : ان «التقريب الاول» يعطي قطراً قدره زهاء ١٠٠ مليميكرون جزء من مليون جزء من الميليمتر) واننا نتجاوز ملاحظات ريكر الجزئية وانتقـــاده للمذهب الحيوي الجديـــد (٨٣) ونورد استنتاجاته

«ان اولئك الذين بقللون من شأن الافكار التي كانت توجه حتى الآن تقدم النظريـــة العلميـــة يظنون احياناً كثيرة جداً انـــه لا اختيـــار الا بين زعمين متناقضين امـــا ان الذرة والاثير هما مجرد وهمين للخيال العلمـــي وإمّا ان النظريـــة الميكانيكية للذرات والاثير – هذه النظرية لا تزال الآن غيـــر مكتملـــة ولكن لـــو امكن استكمالهـــا – تعطينا تصوراً كاملاً ودقيقاً للغاية عن الوقائع وبرأيـــي انه يوجد سبيـــل متوسط» بوسع الانسان في غرفة مظلمة ان يتبين الاشياء باقصى الغموض ولكنه اذا لم يصطدم بمفروشة من المفروشات واذا لم يمض الى المرآة كمـــا الى الباب فان هذا يعني انـــه يرى شيئاً مـــا بنحو صحيح ولهذا لا حاجـة لنا الى التخلي عن المطالبة بالتغلغل الى اعمق من سطح الطبيعة ولا الى الادعاء باننا قد نزعنا جميع الاستار عن اسرار العالم المحيط بنا «تمكن الموافقة على اننا لم نرسم بعد لانفسنا لوحة كاملة تماماً لا عن طبيعة الذرات ولا عن طبيعة الاثير الذي توجد فيه هذه الذرات ولكني حاولت ان ابيّن ان نظرية الذرات صحيحة من حيث اسسها الرئيسية رغم الطابع التقريبي(tentative حرفياً التحسسي) لبعض نظرياتنا ورغم الكثير من المصاعب الجزئية وان الذرات ليست مفاهيم مساعـدة (helps) لأجـل الرياضيين (puzzled mathematicians) وحسـب بل ايضـاً وقائـــع فيزيائية»

هكذا اختتم ريكر خطابه . وان القارئ يرى ان الخطيب

لم يتناول مسائل علم العرفان ولكنه ذاد من حيث جوهر الامر باسم جمهور علماء الطبيعيات بـــلا ريب عن وجهـــة النظر المادية العفوية واليكم كنه موقفه ان نظرية الفيزياء هي نسجة (ادق فادق) عن الواقع الموضوعي. والعالم هو مادة متحركة نعرفها بشكل اعمق فأعمق ان عدم دقة فلسفة ريكر تنبع من الدفاع غير الالزامي عن النظرية «الميكانيكية» (ولِم لا عن النظرية الكهرمغناطيسية ؟) لحركة الاثير ومن عدم فهم العلاقة بين الحقيقة النسبية والحقيقة المطلقة ولا ينقص هذا الفيزيائي **غير** معرفة المادية **الدياليكتيكية** (هذا اذا لم نأخذ بالحسبان **طبعاً** تلـــك الاعتبارات الحياتية البالغـــة الاهميـــة التي تجبر البروفسورات البريطانيين على تسمية انفسهم «باللاعرفانيين»)

لنر الآن كيف انتقد الروحاني جيمس ورد هذه الفلسفة فقد كتب يقول المذهب الطبيعي ليس علماً والنظرية الميكانيكية عن الطبيعة التي تشكل اساساً له ليست هي ايضاً علماً ولكن رغم ان المذهب الطبيعي والعلوم الطبيعية النظرية المكانيكية عن العالم والميكانيك كعلم هي من الناحية المنطقية اشياء مختلفة، الا انها من النظرة الاولى مشابهة كثيراً بعضها لبعض ومترابطة بوثوق من الناحية التاريخية وليس هناك خطر الخلط بين العلوم الطبيعية والفلسفة ذات الاتجاه المثالي او الروحاني لأن هذه الفلسفة تشمل بالضرورة نقد المقدمات العرفانية التي يصنعها العلم عن غير وعي .» * صحيح فان العلوم الطبيعية تسلم **عن غير وعي** بان تعاليمها تعكس الواقـــع الموضوعي، وهذه الفلسفة **وحدها** توافق العلوم الطبيعية! «... ولكن

---

* James Ward. «Naturalism and Agnosticism », vol. I, 1906, p. 303
(جيمس ورد «المذهب الطبيعي واللاادريـــة» . المجلد الاول ، عام ١٩٠٦ ، ص ٣٠٣ . **الناشر**) .

الحال يختلف فيما يخص المذهب الطبيعي الذي هو طاهر الذيل، مثله مثل العلم نفسه، فيما يتعلق بنظرية العرفان. فان المذهب الطبيعي، مثله مثل المادية، هو، بالفعل، مجرد الفيزياء المنظور اليها كما الى الميتافيزياء لا ريب ان المذهب الطبيعي اقل تحجراً من المادية لأنه يبدي تحفظات لاعرفانية فيما يتعلق بطبيعة الواقع الاخير ولكنه يلح قطعاً على اولية الجانب المادي من «المستحيل على المعرفة» هذا

ان المادي ينظر الى الفيزياء كما ينظر الى الميتافيزياء حجة معروفة الاعتراف بالواقع الموضوعي خارج الانسان يُنعت بالميتافيزياء الروحانيون يلتقون مع الكانطيين والهيوميين في توجيه مثل هذه الملامات الى المادية وهذا مفهوم بدون تنحية الواقعية **الموضوعية** للاشياء والاجسام والمواضيع المعروفة للجميع ولكل فرد لا يمكن تمهيد الطريق امام «المفاهيم الواقعية» بروح رمكه

حين تنشأ مسألة كيفية تصنيف التجربة اجمالاً على نحو افضل» (انتحال من بوغدانوف يا سيد ورد !) «وهي مسألة فلسفية من حيث جوهرها يؤكد الطبيعي انه يتعين علينا ان نبدأ من الجانب الفيزيائي فان هذه الوقائع هي وحدها دقيقة محددة ومترابطة بشدة وكل فكرة تحرك نياط قلب الانسان انما يمكن كما يقولون لنا حصرها في اعادة توزيع دقيقة تماماً للمادة والحركة اما ان التأكيدات بمثل هذه الدلالة الفلسفية ومثل هذه السعة هي استنتاجات مشروعة من العلم الفيزيائي (اي من العلوم الطبيعية) فان الفيزيائيين المعاصرين لا يتجاسرون على المجاهرة بها صراحة ولكن كثيرين منهم يعتبرون ان اولئك الذين يسعون الى فض الميتافيزياء السرية، وفضح الواقعية الفيزيائية التي ترتكز عليها نظرية

العالم الميكانيكية هم مقوضون لشأن العلم وهذا تلميح الى ان ريكر ايضاً نظر على النحو نفسه الى فلسفتي اما بالفعل، فان انتقادي» (لهذه «الميتافيزياء» التي يكرهها ايضاً جميع الماخيين) «يرتكز كلياً على استنتاجات مدرسة الفيزيائيين اذا امكـــن تسميتها كذلك التي تتنامي عدداً وتوسع نفوذها اكثر فاكثر والتي ترفض هذه الواقعية القروسطية تقريبــاً ان هذه الواقعية ظلت زمناً طويلاً لا تلقى اي اعتراض الى حد ان الانتفاضة عليهــا يشبهونهــا بالمناداة بالفوضى العلميــة ولكنـــه من التهور حقاً الارتياب في اناس مثــل كيرخهوف وبوانكاره — واكتفي بذكـر اسمين ضخمين في عداد الكثير من الاسمـــاء — بانهم يريدون «تقويض شأن العلم» ولأجل فصلهـــم عن المدرسة القديمة التي يحق لنا ان نسمي اصحابهـــا بالواقعيين الفيزيائيين بوسعنـــا ان نسمي اصحاب المدرســة الجديدة بالرمزيين الفيزيائيين ان هذا التعبير غير موفــق كفايــة ولكنه يشيــر على الاقل الى فرق جوهــري بين المدرستين يهمنا نحن على الاخص في الظرف الراهن ان المسألة المتنازع عليها بسيطة جداً فان المدرستين تنطلقان بالطبــع من التجربة الحسية (perceptual) نفسها والمدرستان تستعملان نظامين مجردين من المفاهيم يتميزان في التفاصيل ولكنهما يتشابهان في الجوهر والمدرستان تلجآن الى الاساليب ذاتها للتحقق من صحة النظريات ولكن احداهما تعتقد انها تقترب اكثر فاكثر من الواقع الاخير وتترك وراءهـــا اكثر فاكثر من الظاهريات وتعتقد الثانيــة انهــا تطبــق (is substituting) المخططات الوصفيــة المعممة الصالحة لأجل العمليات الذهنية على الوقائع الملموسة المعقدة ولكن لا هذا الجانب ولا ذاك يلمسان قيمة الفيزياء بوصفها معرفة منظمة عن (حرف التأكيد لورد) الاشياء ؛ وامكانية

تطوير الفيزياء وتطبيقاتها العملية لاحقاً واحدة في هذه الحالة وتلك ولكن الفرق الفلسفي (speculative) بين المدرستين ضخم ومن هذه الناحية تصبح مسألة معرفة اية منهما على حق ذات شأن

ان طرح المسألة من جانب روحاني صريح ومنسجم روعة في الصواب والوضوح وبالفعل ان الفرق بين المدرستين في الفيزياء المعاصرة فلسفي **فقط** عرفاني فقط وبالفعل ان الفرق الاساسي يتجسد **فقط** في كون احداهما تعترف بالواقع «الاخير» (كان يجب القول الموضوعي) الذي تعكسه نظريتنا بينما تنكر الاخرى هذا معتبرة النظرية مجرد تصنيف للتجربة مجرد نظام من الرموز التجريبية وهكذا دواليك وهلمجراً ان الفيزياء الجديدة ، التي وجدت اصنافاً جديدة من المادة واشكالاً جديدة لحركتها قد طرحت بمناسبة تحطيم المفاهيم الفيزيائية القديمة مسائل فلسفية قديمة واذا كان اصحاب الاتجاهات الفلسفية «المتوسطة» («الوضعيون» الهيوميون الماخيون) لا يعرفون كيف يطرحون بوضوح المسألة المختلف عليها ، فان المثالي الصريح ورد قد رمى جانباً بجميع الاغطية

لقد كرس ريكر خطابه الرئاسي للدفاع عن الواقعية الفيزيائية ضد التفسير الرمزي الذي يدافع عنه في الآونة الاخيرة البروفسوران بوانكاره وبوينتينغ وانا» (ص ٣٠٥ – ٣٠٦ ويضيف ورد في امكنة اخرى من كتابه الى هذه القائمة دوهيم وبيرسون وماخ راجعوا المجلد الثاني ص ١٦١ ٦٣ ٥٧ ٧٥ ٨٣ وغيرها)

يتحدث ريكر على الدوام عن «الصور الذهنية» ويعلن على الدوام في الوقت نفسه ان الذرة والاثير هما شيء اكبر من الصور الذهنية . ان هذا الاسلوب في المحاكمة

يؤول بالفعل الى ما يلي في الحالة المعنية لا استطيع ان استحضر صورة اخرى ولهذا يجب ان يكون الواقع مشابهاً لها ان البروفسور ريكر يعترف بالامكانية المجردة لصورة فكرية اخرى وهو يسلم حتى بالطابع «التقريبي» (tentative) لبعض نظرياتنا وبكثير من المصاعب الجزئية» وهو يدافع في آخر المطاف عن فرضية عاملة (a working hypothesis) فقط فضلاً عن انها فرضية فقدت الكثير من مكانتها في النصف الاخير من القرن ولكن اذا كانت النظرية الذرية والنظريات الاخرى بصدد بنية المادة هي فرضيات عاملة فقط فضلاً عن انها فرضيات محدودة كلياً بظاهرات فيزيائية فلا يمكن بأي شيء تبرير النظرية الزاعمة ان الميكانيكية هي اساس كل شيء وانها تحصر وقائع الحياة والروح في ظواهر ثانوية اي انها تجعلها اذا جاز القول بمقدار درجة واحدة اكثر ظاهرية وبمقدار درجة واحدة اقل واقعية، من المادة والحركة. هذه هي النظرية الميكانيكية عن العالم واذا لم يؤيدها البروفسور ريكر صراحة فلا يبقى لنا شيء نتجادل بشأنه معه» (ص ٣١٤ - ٣١٥)

انه بالطبع لمن الهراء التام الزعم ان المادية قد اكدت واقعية «اصغر» للادراك او لوحة «ميكانيكية» الزاما عن العالم بوصفه **مادة متحركة** وليس لوحة كهرمغناطيسية ليس لوحة ما اشد تعقداً بما لا يقاس ولكن المثالي الصريح والسافر ورد **يتلقف** بحذاقة حاوٍ حقاً وبشكل افضل بكثير من اصحابنا الماخيين (اي المثاليين المشوشين) نقاط الضعف في المادية التاريخية الطبيعية «العفوية» ومنها، مثلاً، العجز عن توضيح العلاقة بين الحقيقة النسبية والحقيقة المطلقة ان ورد يشعوذ ويعلن انه ما دامت الحقيقة نسبية تقريبية «تلمس» كنه الامر فحسب فان هذا يعني انها لا تستطيع ان تعكس الواقع . ولكن الروحاني

طرح بالمقابل بصورة صحيحة للغاية مسألة الذرات وخلافها بوصفها «فرضية عاملة» **ولا تفكر** الايمانية المعاصرة المثقفة (وورد يستخرجها مباشرة من مذهبه الروحاني) **بان تطالب** باكثر من اعلان مفاهيم العلوم الطبيعية «فرضيات عاملة» سنعطيكم العلم ايها السادة علماء الطبيعيات فاعطونا علم العرفان الفلسفة ،– ذلك هو شرط المساكنة بين اللاهوتيين والبروفسورات في البلدان الرأسمالية «المتقدمة»

اما فيما يخص البنود الاخرى من علم العرفان عند ورد البنود التي يربطها بالفيزياء «الجديدة» فانه يتعيّن ان نضيف اليها ايضاً نضاله الحازم ضد **المادة** ما هي المادة ؟ ما هي الطاقة ؟ يسأل ورد متهكماً من فيض الفرضيات وتناقض بعضها لبعض اثير ام اثيرات ؟ «سائل كامل» جديد ما ينسبون اليه اعتباطاً صفات جديدة لا تصدق استنتاج ورد «نحن لا نجد اي شيء واضح غير الحركة ان الحرارة هي شكل للحركة والمطاطية هي شكل للحركة والنور والمغناطيسية هما شكل للحركة و حتى الكتلة نفسها تبدو في آخر المطاف كما يفترضون شكلاً للحركة – لحركة شيء ما ليس جسماً صلباً ولا سائلاً ولا غازاً ،– شيء ليس جسماً وليس مجموعة اجسام ،– ليس ظاهرياً ولا يجب ان يكون نومنياً ، * – apeiron * * (ابيرون – تعبير من الفلسفة الاغريقية=لا نهاية له لا حد له) حقيقي يمكننا ان نرفقه بمواصفاتنا الخاصة» (المجلد الاول ص ١٤٠)

---

* Nouméne – النومن مقابل للظاهرة ويطلق على الشيء في ذاته ، والحقيقة المطلقة التي تدرك بالحدس العقلي لا بالتجربة والادراك الحسي **المعرب**

* * في الطبعة الاولى ترجم لينين التعبير بما يلي : لا يخضع للتجربة ، لا يمكن معرفته . **الناشر** .

ان الروحاني مخلص لنفسه حين يفصل الحركة عن المادة فان حركة الاجسام تتحول في الطبيعة الى حركة ما ليس جسماً ذا كتلة دائمة الى حركة ما هو شحنة مجهولة من كهرباء مجهولة في اثير مجهول ، – ان هذا الدياليكتيك للتحويلات **المادية** المحققة في المختبر وفي المصنع لا يشكل في نظر المثالي (كما في نظر الجمهور الواسع وكما في نظر الماخيين) تأكيداً للدياليكتيك المادي بل يشكل حجة ضد المادية ان النظرية الميكانيكية بوصفها تفسيراً الزامياً (professed) للعالم تتلقى ضربة قاتلة من تقدم الفيزياء الميكانيكية ذاتها» (ص ١٤٣)

ونرد نحن العالم هو مادة متحركة وقوانين حركة هذه المادة يعكسها الميكانيك بالنسبة للحركات البطيئة وتعكسها النظرية الكهرمغناطيسية بالنسبة للحركات السريعة «ان الذرة الممدودة الصلبة ، التي لا تنشطر ، كانت دائماً سنداً للنظرة المادية الى العالم ولكن الذرة الممدودة لما فيه سوء حظ هذه النظرات لم تلبِّ المطالب (was not equal to the demands) التي تقدمت بها منها المعرفة المتنامية» (ص ١٤٤)

ان قابلية الذرة للانشطار ، واستحالة نفادها ، وقابلية جميع اشكال المادة وحركتها للتحول – كل هذا كان دائماً سنداً للمادية الدياليكتيكية . ان جميع الحدود في الطبيعة اصطلاحية نسبية متحركة وتعبر عن اقتراب عقلنا من معرفة المادة ولكن هذا لا يثبت البتة ان الطبيعة المادة ذاتها كانت رمزاً علامة اصطلاحية اي نتاجاً لعقلنا ان نسبة حجم الالكترون الى الذرة كنسبة حجم نقطة في هذا الكتاب الى حجم بناية طولها ٣٠ ساجناً * وعرضها ١٥ ساجناً وعلوها ٧½ سجناً (لودج) وهو يتحرك بسرعة في حدود ٢٧٠٠٠٠ كيلومتر في الثانية وكتلته تتغير حسب سرعته ، وهو

* الساجن=متر و ١٣ سنتيمتراً . **الناشر** .

يقوم بـ٥٠٠ الف مليار دورة في الثانية ، - كل هذا اشد تعقداً بكثير من الميكانيك القديم ولكن كل هذا هو حركة المادة في المكان وفي الزمان لقد كشف العقل الانساني الكثير من الطرائف في الطبيعة وسوف يكشف المزيد زائداً بذلك سلطانه عليها ولكن هذا لا يعني ان الطبيعة من صنع عقلنا او من صنع عقل مجرد اي اله ورد و «بديل» بوغدانوف وما الى ذلك

ان هذا المثال الاعلى (مثال «الميكانيكية») المطبق بدقة (rigorously) بوصفه نظرية العالم الفعلي يقودنا الى العدمية جميع التغيرات هي حركات لأن الحركات هي التغيرات الوحيدة التي نستطيع ان نعرفها وما يتحرك لا بدّ من ان يكون حركة ايضاً لكي يمكننا معرفته» (ص١٦٦) «ان تقدم الفيزياء كما حاولت ان ابيّن هو بالضبط اقوى وسيلة للنضال ضد الايمان الجاهل في المادة والحركة ضد اعتبارهما الجوهر الاخير (inmost) وليس الرمز الاكثر تجريداً لأجل مجمل الوجود اننا لن نصل ابداً الى الرب عبر الميكانيكية المجردة» (ص ١٨٠)

وها قد سار الامر هنا تماماً كما في «دراسات «في» فلسفة الماركسية» يجدر بك ان ترجع الى هذه «الدراسات» ايها السيد ورد الى لوناتشارسكي ويوشكيفيتش الى بازاروف وبوغدانوف صحيح انهم «اكثر حياء» منك ولكنهم يعظون بالشيء نفسه تماماً

٥ - اتجاهان في الفيزياء المعاصرة والمثالية الالمانية

في عام ١٨٩٦ كتب الكانطي-المثالي المعروف غرمن كوهن بابتهاج خارق المهابة في مقدمة الطبعة الخامسة لكتاب «تاريخ المادية» الذي زوره فريدريخ البرت لانغه . فقد هتف غرمن كوغن

(ص XXVI) قائلاً «ان المثالية النظرية اخذت تزعزع مادية علماء الطبيعيات ولربما ستنتصر عليهـا نهائياً عما قريب» «المثالية تشرّب (Durchwirkung) الفيزياء الجديدة» «كان لا بدّ لمذهب الذرة ان يخلي المكان للديناميكية» «ان الانعطاف الرائع يتلخص في انه كان مكتوباً للتعمق في القضايا الكيماوية للمادة ان يؤدي الى التغلب المبدئي على النظرة المادية الى المادة وكما ان فالس قام بالتجريد الاول بفرزه مفهوم المادة وربط بذلك الافكار التأملية في الالكترون كذلك كان مكتوباً لنظرية الكهرباء ان تقوم بانقلاب عظيم للغاية في فهم المادة وان تؤدي الى انتصار المثالية عن طريق تحول المادة الى قوة» (ص XXIX)

ان غرمن كوهن يشير بدقة ووضوح مثله مثل جيمس ورد الى الاتجاهين الفلسفيين **الاساسيين** دون ان يضيع (كما يضيع اصحابنا الماخيون) في الفوارق التافهة بين ضروب المثالية على اختلافها الطاقية منها والرمزية والنقدية التجريبية والاحادية التجريبية وهلمجراً فان كوهن يأخذ الميل الفلسفي **الاساسي** لتلك المدرسة في الفيزياء التي تُقترن الآن باسماء ماخ وبوانكاره وغيرهما واصفاً هذا الميل وصفاً صحيحاً بانه ميل **مثالي** ان «تحول المادة الى قوة» هو بنظر كوهن مكسب المثالية الرئيسي تماماً كما بنظر اولئك من علماء الطبيعيات «الروحانيين» الذين فضحهم يوسف ديتزعن في عام ١٨٦٩ تُعلَنْ الكهربـاء معاونة للمثالية لأنها قضت على النظرية القديمة عن بنية المادة وابانت انشطار الذرة وكشفت اشكالاً جديدة للحركة المادية تختلف عن الاشكال القديمة ولما يتناولها الدرس والبحث وغير عادية و«عجيبة» الى حد انه يمكن تفسير الطبيعة على انها حركة **غير مادية** (روحية ، فكرية ، نفسية) . زال حدّ الامس لمعرفتنا

لدقائق المادة المتناهية الصغر وبالتالي - كما يستنتج الفيلسوف المثالي ، - زالت المادة (ولكن الفكر بقي) ان اي فيزيائي واي مهندس يعرفان ان الكهرباء هي حركة (مادية) ولكن احداً لا يعرف **ما** يتحرك هنا وبالتالي - ، كما يستنتج الفيلسوف المثالي - يمكن خداع الناس غير الملمين بالفلسفة باقتراح مغر «بتوفيره» هيا بنا **نتصور** الحركة **بدون المادة**

ويحاول غرمن كوهن ان يتخذ بصفة حليف له الفيزيائي المشهور هنريخ هرتس ان هرتس هو معنا انه كانطي فعنده نجد تسليماً بالقبلية ان هرتس هو معنا انه ماخي ، - يعترض الماخي كلينبيتر ، - فعند هرتس نستشف «نفس النظرة الذاتانية الموجودة عند ماخ الى جوهر مفاهيمنا» * ان هذا الجدال الطريف حول **من معه** هرتس يعطي مثالاً جيداً يبين كيف يتلقف الفلاسفة المثاليون اقل خطأ اقل غموض في التعبير عند مشاهير علماء الطبيعيات لكي يبرروا وفاعهم المجدّد عن الايمانية وبالفعل تبين مقدمة هنريخ هرتس الفلسفية لمؤلفه «الميكانيك» ** وجهة النظر العادية عند عالم طبيعيات مذعور بزعيق البروفسورات ضد «ميتافيزياء» المادية ولكنه لا يستطيع في اي حال من الاحوال ان يتغلب على اقتناعه العفوي بواقعية العالم الخارجي وهذا ما يعترف به كلينبيتر نفسه الذي يرمي الى جمهور القراء من جهة كراريس مبسطة الاسلوب وكاذبة كلياً عن نظرية معرفة **العلوم الطبيعية** علماً

---

* «Archiv für systematische Philosophie», Bd. V, 1898–1899, SS. 169–170 («ارشيف الفلسفة النظامية» المجلد ٥ عام ١٨٩٨–١٨٩٩ ص ١٦٩–١٧٠ **الناشر**)

** Heinrich Hertz. «Gesammelte Werke», Bd. 3, Lpz, 1894, وخاصة SS. 1, 2, 49 (هنريخ هرتس مجموعة المؤلفات ، المجلد ٣ ، ليبزيغ ، عام ١٨٩٤ ، وخاصة ص ١ ، ٢ ، ٤٩ . **الناشر**) .

بان ماخ يرد في هذه الكراريس الى جانب هرتس والذي يعترف في مقالات فلسفية خاصة من جهة اخرى بان «هرتس خلافاً لماخ وبيرسون لا يزال يتمسك بالاوهام بصدد امكان تفسير الفيزياء كلها تفسيراً ميكانيكياً» * وبانه يحتفظ بمفهوم الشيء في ذاته و«بوجهة نظر الفيزيائيين العادية» وبان هرتس «ظل متمسكاً بفكرة وجود العالم في ذاته» ** وما الى ذلك

ومن الطريف والمفيد التنويه بنظرة هرتس الى مذهب الطاقة فقد كتب يقول «اذا سألنا لماذا يطيب للفيزياء المعاصرة ان تستعمل في محاكماتها اسلوب مذهب الطاقة في التعبير فان الجواب سيكون الجواب التالي لأنه من الاسهل على هذا النحو تجنب التحدث عن الاشياء التي نعرف عنها القليل القليل يقيناً اننا جميعاً على اقتناع بان المادة الموزونة تتألف من ذرات ولدينا تصورات واضحة كفاية عن احجامها وحركاتها في احوال معينة ولكن شكل الذرات وتماسكها وحركاتها مخفية تماماً عنا في اغلبية الاحوال ولهذا كانت تصوراتنا عن الذرات عبارة عن هدف هام وطريف لبحوث لاحقة مع انها ليست البتة صالحة جداً لتشكل اساساً متيناً للنظريات الرياضية» (l. c., III, 21) فقد كان هرتس يتوقع من دراسة الاثير لاحقاً توضيح «كنه المادة القديمة وجمودها وقوة جاذبيتها» (I, 354)

* «Kantstudien», VIII. Band. 1903, S. 309 («بحوث كانطية» المجلد ٨ ، عام ١٩٠٣ ، ص ٣٠٩ **الناشر**)

** «The Monist», vol. XVI, 1906, N. 2, p. 164 مقالة عن «احادية» ماخ .

ومن هنا يتبين انه حتى لا تخطر في بال هرتس امكانية النظر نظرة غير مادية الى الطاقة ان مذهب الطاقة كان بالنسبة للفلاسفة ذريعة للفرار من المادية الى المثالية اما عالم الطبيعيات فانه ينظر الى مذهب الطاقة نظرته الى اسلوب ملائم لعرض قوانين الحركة المادية في الوقت الذي ابتعد فيه الفيزيائيون اذا جاز القول ، عن الذرة ، ولكنهم لم يصلوا بعد الى الالكترون وهذا الوقت لا يزال الآن ايضاً يستمر بدرجة كبيرة فان الفرضيات تتعاقب الواحدة تلو الاخرى وعن الالكترون الموجب لا يعرفون البتة شيئاً ومنذ ثلاثة اشهر فقط (في ٢٢ حزيران – يونيو – ١٩٠٨) افاد جان بكيريل اكاديمية العلوم الفرنسية انه توفق ووجد هذا «الجزء» المكون الجديد من المادة» («Comptes rendus des séances de l'Académie des Sciences», p. 1311*) فكيف لا تستغل الفلسفة المثالية هذه الورقة الكاسبة ما دام العقل البشري لا يزال «يفتش» وحسب عن «المادة» فانها ليست بالتالي اكثر من «رمز» والخ

وهناك مثالي الماني آخر ذو تلوين اشد رجعية بكثير من تلوين كوهن هو ادوارد فون هارتمان ، كرس كتاباً كاملاً لموضوع «نظرة الفيزياء الحديثة الى العالم» («Die Weltanschauung der modernen Physik», Lpz., 1902). ومن المؤكد اننا لا نهتم بمحاكمات المؤلف الخاصة حول ذلك الضرب من المثالية الذي يذود عنه اننا نهتم بأمر واحد فقط ، هو ان نشير الى ان هذا المثالي يلاحظ هو ايضاً نفس الظاهرات التي لاحظها ري وورد وكوهن فان ادوارد هارتمان يقول «ان الفيزياء العصرية قد نشأت في تربة الواقعية ومن جراء التيار الكانطي الجديد والتيار اللاعرفاني

---

* «تقارير جلسات اكاديمية العلوم» ، ص ١٣١١ . **الناشر** .

في عهدنا وحسب اصبحت النتائج النهائية للفيزياء تُفَسَّر بالمعنى المثالي» (ص ٢١٨) وهناك ثلاثة انظمة عرفانية برأي ادوارد هارتمان تقوم في اساس الفيزياء الحديثة الهيلوكينيتيكا (من الكلمتين اليونانيتين hyle = المادة و kinesis=الحركة اي اعتبار الظاهرات الفيزيائية حركة المادة) مذهب الطاقة والحركية (اي الاعتراف بالقوة بدون المادة) ومفهوم ان المثالي هارتمان يذود عن «الحركية» ويستخلص من هذا ان قوانين الطبيعة هي فكرة عالمية اي انه باختصار «يبدل» الطبيعة الفيزيائية بالنفسي ولكنه مضطر الى الاعتراف بان القسم الاكبر من الفيزيائيين هم من انصار الهيلوكينيتيكا وبان هذا النظام هو «اكثر ما يُستعمل» (ص ١٩٠) وبان «المادية والالحاد اللذين يتهددان الهيلوكينيتيكا الخاصة» هما نقص خطير يشكو منه هذا النظام (ص ١٨٩) ويعتبر المؤلف مذهب الطاقة بحق وصواب نظاماً متوسطاً ويسميه بالمذهب اللاعرفاني (ص ١٣٦) يقيناً ان مذهب الطاقة «حليف للحركية الخالصة لأنه ينحّي المادة» (S. VI, p. 192)، ولكن لاعرفانيته لا تطيب لهارتمان بوصفها «موالاة للانجليز» مناقضة للمثالية الحقيقية عند الرجعي المتطرف الالماني حقاً

من خارق الدلالة والعبرة ان نرى كيف ان هذا المثالي المتشدد حزبياً (ان اللاحزبيين اغبياء مطبقون في الفلسفة كما في السياسة) يوضّح للفيزيائيين ماهية السير في هذا الخط العرفاني او ذاك يكتب هارتمان عن التفسير المثالي لآخر نتائج الفيزياء «ان قسماً تافهاً جداً من اولئك الفيزيائيين الذين يتبعون هذه الموضة يدركون تماماً كل اهمية هذا التفسير وجميع عواقبه وهم لم يلاحظوا ان الفيزياء بقوانينها الخاصة لم تحتفظ باستقلالها الا بقدر ما تمسك الفيزيائيون

خلافاً لمثاليتهم بالمقدمات الاساسيـــة **الواقعية** الا وهـــي وجود الاشياء في ذاتها تغيرها الفعلي في الزمان السببيـــة الفعلية وفقط بموجب هذه المقدمات الواقعيـــة المغزى المتعالي للسببية والزمان والمكان ذي المقاييس الثلاثة) اي فقط بشرط ان تتطابق الطبيعة التي يتحدث الفيزيائيون عن قوانينها مـع مملكة الاشياء في ذاتها يمكن التحدث عن قوانين الطبيعـة خلافاً للقوانين النفسانية ولا يمكن لقوانين الطبيعة ان تشكل تفسيراً لكون الاستنتاجات الضرورية منطقياً من صورنا هي صور النتائج الضرورية طبيعياً وتاريخياً لذلك المجهول الذي تعكسـه هذه الصور او ترمز اليه في وعينا الا اذا كانت تفعل فعلهـا في ميدان مستقل عن تفكيرنا» (ص ٢١٨-٢١٩)

ان هارتمـان يحذر بصواب ان مثاليـــة الفيزياء الجديدة هي بالضبط **موضة** وليست انعطافاً فلسفياً جدياً عن الماديـــة الطبيعية التاريخية ولهذا يوضح بشكل صحيح للفيزيائيين ان تحويل «الموضة» الى مثالية فلسفية منسجمة متكاملة يقتضي تعديل التعاليم عن الواقعية الموضوعية للزمان والمكان والسببية وقوانين الطبيعـــة تعديـــلاً جذريـــاً لا يجوز اعتبار الذرات والالكترونات والاثير وحدها مجرد رموز مجرد «فرضية عاملة» انما يجب ايـــاً اعتبار الزمان والمكـــان وقوانين الطبيعـــة والعالم الخارجي كله «فرضية عاملة» إما المادية وإما تبديل الطبيعة الفيزيائيـــة كلهـــا بالنفسي تبديلاً شاملاً هناك عدد هائل من الراغبين في الخلط بين الامرين ولكننا انا وبوغدانوف لسنا من عدادهم

كان لودفيـــغ بولتسمان (الذي توفي في عام ١٩٠٦) بين الفيزيائيين الالمان الفيزيائي الذي ناضل بثبات واستمرار ضد التيار الماخي . وقد سبق واشرنا الى انه عارض «هواية العقائد

العرفانيـــة الجديدة» بحصر الماخيـــة ببساطـــة ووضوح في السوليبسيسم (راجعوا اعلاه الفصل الاول الفقرة السادسة) ومن المؤكد ان بولتسمان يخشى ان يسمي نفسه بالمادي بـل انه يتحفظ خصيصاً قائلاً انه ليس البتـة ضد وجود الله * ولكن نظريته عن المعرفة هي مادية من حيث جوهر الامر وتعرب – كما يعترف مؤرخ العلوم الطبيعية في القرن التاسع عشر زيغموند غونتر * * – عن رأي اغلبية علماء الطبيعيات يقول لودفيـــغ بولتسمان «نحن نعرف وجود جميع الاشياء من الانطباعات التي تحدثها في حواسنا» (l. c., S. 29) ان النظرية هي «صورة» (او نسخة) عن الطبيعة عن العالم الخارجي (ص ٧٧) واولئك الذين يقولون ان المادة هـــي مجرد مركـــب من الاحساسات يعترض عليهم بولتسمان قائلاً ان الناس الآخرين هم ايضاً في هذه الحال مجرد احساسات المتكلم (ص ١٦٨) وهؤلاء «الايديولوجيون»، – كما يقول بولتسمان احيانـــاً عوضاً عن ان يقول المثاليون الفلسفيون –، يرسمون لنا «لوحة ذاتية عن العالم» (ص ١٧٦) ولكن بولتسمان يفضل «لوحة موضوعية ابسط عن العالم» «ان المثالي يشبه الزعم القائل ان المادة توجد مثلما توجد احساساتنا برأي طفل يزعم ان الحجر المضروب يشعر بالألم والواقعي يشبه الرأي القائل انه لا يمكن تصور نشوء النفسي من المادي او حتى من

---

* Ludwig Boltzmann. «Populäre Schriften», Lpz., 1905, S. 187
(لودفيغ بولتسمان «مقالات مبسطـــة» ليبزيغ عام ١٩٠٥ ص ١٨٧ **الناشر**)

* * Siegmund Günther. «Geschichte der anorganischen Naturwissenschaften im 19. Jahrhundert», Brl., 1901, SS. 942, 941.
(زيغموند غونتر «تاريخ العلوم عن الطبيعة غير العضوية في القرن التاسع عشر»، برلين، عام ١٩٠١، ص ٩٤٢، ٩٤١ . **الناشر**) .

تلاعب الذرات برأي انسان غير متعلم يزعم انه لا يمكن للشمس ان تبعد عن الارض مسافة ٢٠ مليون ميل لأنه لا يستطيع ان يتصور ذلك» (ص ١٨٦) الا ان بولتسمان لا يتخلى عن المثال الاعلى للعلم بتصوير الروح والارادة بصورة «فعلين معقدين لدقائق المادة» (ص ٣٩٦)

وضد مذهب الطاقة الاوستفالدي ناظر لودفيغ بولتسمان غير مرة من وجهة نظر الفيزيائي مثبتاً ان اوستفالد لا يستطيع لا ان يدحض معادلات الطاقة الحركية (نصف الكتلة مضروباً بمربع السرعة) ولا ان يقضي عليها وانه يدور في حلقة مفرغة مستخرجاً في البدء الطاقة من الكتلة (يقبل معادلة الطاقة الحركية) ومعرفاً فيما بعد الكتلة على انها الطاقة (ص ١١٢ ١٣٩) وفي هذا الصدد اتذكر عرض بوغدانوف لآراء ماخ في الكتاب الثالث من «الاحادية التجريبية» فقد كتب بوغدانوف مستشهداً بمؤلف ماخ «الميكانيك» «في العلم يُحصر مفهوم المادة في معامل الكتلة البارز في معادلات الميكانيك وهذا المعامل يبدو بعد التحليل الدقيق مقداراً معاكساً للتسارع لدى جسمين مركبين فيزيائيين» (ص ١٤٦) ومفهوم اننا اذا اخذنا **جسماً** ما كوحدة فمن الممكن الاعراب عن الحركة (الميكانيكية) لجميع الاجسام الاخرى بمجرد نسبة التسارع ولكن «الاجسام» (اي المادة) لا تزول البتة من جراء هذا لا تكف عن الوجود بصورة مستقلة عن وعينا وحين يحصرون العالم كله في حركة الالكترونات فانه سيكون من الممكن استبعاد الالكترون من جميع المعادلات وذلك للسبب التالي على وجه الضبط لأنه سيكون مقصوداً ضمناً في كل مكان ولأن النسبة بين فئات او مجموعات الالكترونات ستحصر في تسارعها المتبادل ، لو كانت اشكال الحركة بسيطة كما في الميكانيك .

وفي سياق النضال ضد فيزياء ماخ وشركاه «الظاهرية» اكد بولتسمان ان «اولئك الذين يفكرون بازالة النظرية الذرية بواسطة معادلات التفاضل لا يرون الغاب وراء الاشجار» (ص ١٤٤) . «واذا لم يعلل المرء نفسه بالاوهام بصدد اهمية معادلات التفاضل فلا يمكن ان يقوم اي شك في ان لوحة العالم (بواسطة معادلات التفاضل) ستكون مع ذلك بالضرورة لوحة ذرية لوحة عن كيف ستتغير في الزمان بموجب قواعد معروفة كميات هائلة من الاشياء الواقعة في المكان ذي الابعاد الثلاثة وغني عن البيان ان هذه الاشياء قد تكون متماثلة او مختلفة ثابتة او متغيرة» والخ (ص ١٥٦) يقول بولتسمان في خطاب القاه عام ١٨٩٩ امام مؤتمر علماء الطبيعيات في مونيخ «واضح تماماً ان الفيزياء الظاهرية لا تفعل غير ان تتستر بستار معادلات التفاضل اما في الواقع فانها تنطلق بالنحو نفسه من كائنات منفردة ذرية الشكل (Einzelwesen) وبما انه يتعين تصور هذه الكائنات متسمة تارة بهذه الخواص وطوراً بتلك الخواص بالنسبة لمختلف فئات الظواهر فسرعان ما تتبدى الحاجة الى نظرية ذرية اكثر بساطة وتماثلاً» (ص ٢٢٣) «ان مذهب الالكترونات يتطور على وجه الدقة ليصبح النظرية الذرية لجميع ظواهر الكهرباء» (ص ٣٥٧) ان وحدة الطبيعة تتكشف في «التماثلية المذهلة» بين معادلات التفاضل المتعلقة بميادين مختلفة من الظواهر «وبالمعادلات ذاتها يمكن حل مسائل الهيدروديناميك والاعراب عن نظرية الجهود ان نظرية الدردورات في السوائل ونظرية احتكاك الغازات (Gasreibung) تكشفان تماثلاً مذهلاً مع نظرية الكهرمغناطيسية والخ (ص ٧) ان اولئك الذين يعترفون «بنظرية الاستبدال العام» لن يتملصوا في اي حال من الاحوال من المسألة التالية من ذا الذي ابتدع «استبدال» الطبيعة الفيزيائية بهذه الدرجة من التماثل .

وكأنما للرد على اولئك الذين يرفضون «فيزيائي المدرسة القديمة» يحكي بولتسمان باسهاب عن كيف يتبنى بعض الاختصاصيين في «الكيمياء الفيزيائية» وجهة النظر العرفانية المقابلة للماخية فان مؤلف «واحد من خيرة» الاعمال التلخيصية في عام ١٩٠٣ على حد قول بولتسمان هو فوبل (Vaubel) ، «يتبنى موقفاً معادياً قطعاً من الفيزياء الظاهرية التي تحظى بالاطراء بمثل هذا التواتر البالغ» (ص ٣٨١) «انه يحاول ان يكوّن تصوراً ملموساً وجلياً اكثر ما يمكن عن طبيعة الذرات والجزيئات وعن القوى العاملة بينها وهذا التصور يجمعه مع احدث التجارب في هذا الميدان» (اليونات الالكترونات الراديوم ظاهرة زيمان والخ .) «ان المؤلف يتمسك بشدة باثنينية المادة والطاقة * عارضاً على الاخص قانون بقاء المادة وقانلان بقاء الطاقة وفيما يتعلق بالمادة يتمسك المؤلف ايضاً باثنينية المادة الموزونة والاثير ولكنه يعتبر هذا الاخير بالمعنى الادق مادياً» (ص ٣٨١) و«منذ باديء بدء يتبنى» المؤلف في المجلد الثاني من عمله (نظرية الكهرباء) «وجهة النظر القائلة ان الظواهر الكهربائية تنجم عن تفاعل وحركة اللامنقسمات الذرية الشكل عنينا بها الالكترونات» (ص ٣٨٣)

وبالتالي يتأكد بالنسبة لالمانيا ايضاً ما اعترف به بالنسبة لبريطانيا الروحاني جيمس ورد ونعني بذلك ان فيزيائيي المدرسة الواقعية يصنفون وقائع واكتشافات السنوات الاخيرة بقدر من التوفيق لا يقل عن القدر الذي يصنفها به

* يريد بولتسمان ان يقول ان المؤلف لا يحاول ان يتصور الحركة بدون المادة ومن المضحك التحدث هنا عن «الاثنينية» فان الاحادية الفلسفية و الاثنينية الفلسفية تتجسدان في التمسك بالمادية او بالمثالية بصورة منسجمة او بصورة غير منسجمة .

فيزيائيو المدرسة الرمزية وان الفرق الجوهري يتلخص في وجهة النظر العرفانية «**فقط**» *

* ان مؤلف ايريخ بيخر عن «المقدمات الفلسفية للعلوم الطبيعية الدقيقة» (Erich Becher. «Philosophische Voraussetzungen der exakten Naturwissenschaften», Lpz., 1907) الذي اطلعت عليه بعد الانتهاء من وضع كتابي هذا ، يؤكد ما قيل في هذا الباب فان المؤلف يقف اقرب ما يكون الى وجهة النظر العرفانية لدى هلمهولتز وبولتسمان اي الى المادية «الخجلة» والتي لم يتم التفكير فيها الى النهاية فيكرس عمله للدفاع عن المقدمات الاساسية للفيزياء والكيمياء ولتفسيرها وهذا الدفاع يتحول ، بالطبع ، الى نضال ضد الاتجاه الماخي (قارنوا ص ٩١ وغيرها) في الفيزياء ، هذا الاتجاه الدارج على الموضة ، ولكن الذي يستثير الرد والصد اكثر فاكثر وعن حق وصواب يصف ايريخ بيخر هذا الاتجاه «**بالوضعية الذاتانية**» (ص III) وينقل مركز ثقل النضال ضده الى البرهنة على «فرضية» العالم الخارجي (الفصول الثاني الى السابع) الى البرهنة على «وجود» ه «بصورة مستقلة عن المدركات البشرية» (von Wahrgenommenwerden unabhängige Existenz) ان انكار هذه «الفرضية» من قبل الماخيين يقودهم احياناً كثيرة الى **السوليبسيسم** (ص ٧٨-٨٢ وغيرها) ان نظرة ماخ القائلة ان «الاحساسات ومركباتها وليس العالم الخارجي» هي الموضوع الوحيد للعلوم الطبيعية (ص ١٣٨) انما يسميها بيخر «باحادية الاحساسات» (Empfindungsmonismus) ويصنفها في عداد «الاتجاهات الكونسيانسيوناليستية الخالصة» ان هذا التعبير الاخرق والسخيف مركب من الكلمة اللاتينية conscientia – **الوعي** ، ولا يعني سوى المثالية الفلسفية (قارنوا ص ١٥٦) وفي الفصلين الآخرين من الكتاب يقارن ايريخ بيخر بنحو لا بأس به بين النظرية القديمة ، الميكانيكية عن المادة وبين النظرية الجديدة الكهربائية عن المادة ، ولوحة العالم (الفهم «الحركي المطاطي» على حد تعبير المؤلف و«الحركي الكهربائي» للطبيعة) ان النظرية الاخيرة المرتكزة على التعاليم عن الالكترونات ، هي خطوة الى الامام في ادراك وحدة العالم ؛

٦ ـ اتجاهان في الفيزياء المعاصرة والايمانية الفرنسية

في فرنسا تمسكت الفلسفة المثالية بنفس القدر من الحزم بذبذبات الفيزياء الماخية ولقد رأينا كيف قابل النقاد الجدد مؤلف ماخ «الميكانيك» مشيرين فى الحال الى الطابع المثالي لاسس فلسفة ماخ وفي هذا المجال احرز الماخي الفرنسي بوانكاره (هنري) مزيداً من التوفيق فان الفلسفة المثالية المغرقة في الرجعية ذات الاستنتاجات الايمانية البيّنة قد تشبثت في الحال بنظريته ولقد حاكم ممثل هذه الفلسفة ليروا (Le Roy) كما يلي ان حقائق العلم هي علامات اصطلاحية رموز وانتم طرحتم ادعاءات سخيفة «ميتافيزيائية»، بادراك الواقع الموضوعي فكونوا منطقيين ووافقوا معنا على ان للعلم اهمية عملية فقط بالنسبة لميدان واحد من الافعال البشرية وان للدين **اهمية فعلية ليست اقل** من اهمية العلم بالنسبة لميدان آخر من الافعال ولا يحق للعلم «الرمزي» «الماخي» انكار اللاهوت وقد خجل هنري بوانكاره من هذه الاستنتاجات فهاجمها خصيصاً في كتابه «قيمة العلم» ولكن انظروا **اي** موقف عرفاني اضطر الى اتخاذه

وهي ترى ان «عناصر العالم المادي هي شحنات كهربائية» (Ladungen) (ص ٢٢٣) «ان اي فهم حركي خالص للطبيعة لا يعرف شيئاً غير عدد ما من الاشياء المتحركة، سواء أسميت بالالكترونات او باسم ما آخر ان حالة حركة هذه الاشياء في كل لحظة تالية من الزمان يحددها بصورة مشروعة تماماً وضع وحالة حركتها في اللحظة السابقة من الزمان» (ص ٢٢٥) ان النقص الاساسي الذي يعيب كتاب ايريخ بيخر هو جهل المؤلف للمادية الديالكتيكية جهلاً مطلقاً وهذا الجهل غالباً ما يدفعه الى تخبيصات وسخافات يستحيل هنا التوقف عندها .

لكي يتخلص من الحلفاء من طراز ليروا فقد كتب بوانكاره يقول ان السيد ليروا لا يعلن العقل عاجزاً بشكـــل لا مرد له الا لكي يخصص مكاناً اوسع لأجل المصادر الاخرى للمعرفة لأجل القلب والشعور والغريزة والايمان» (ص‌ص ٢١٤–٢١٥) «انا لا امضي الى النهاية» ان القوانين العلمية هي اصطلاحات رموز ولكن «اذا كانت للوصفات» العلمية قيمة بوصفها قاعدة لأجل التصرف فذلك لأنها عموماً واجمالاً كما نعرف تحظى بالنجاح وان معرفة هذا تعني معرفة شيء ما وما دام الحال هكذا فبأي حق تقول لنا انبا لا نستطيع ان نعرف شيئاً ؟» (ص ٢١٩)

ويستشهد هنري بوانكاره بمعيار الواقع العملي . ولكنه لا يفعل غير ان ينقل هذه المسألة الى مكان آخر الا انه لا يحلها لأنـــه يمكن تفسير هذا المعيار بالمعنى الذاتي والمعنى الموضوعي عـــلى السواء ويقر ليروا هو ايضاً بهذا المعيار لأجل العلم والصناعة ولكنه ينكر ان يكون بمقدور هذا المعيار ان يبرهن الحقيقـــة **الموضوعية** لأن هذا الانكار يكفيه لأجل الاعتراف بحقيقة الدين الذاتية الى جانب حقيقة العلم الذاتية (غير الموجودة بصورة مستقلة عن البشريـــة) ويرى هنري بوانكاره انـــه لا يجوز الاكتفاء بالاستشهاد بالواقع العملي ضد ليروا فينتقل الى مسألة موضوعية العلم .«ما هو معيار موضوعية العلم ؟ انه نفس معيار ايماننا في الاشياء الخارجية ان هذه الاشياء فعليـــة لأن الاحساسات التي تستثيرها فينا (qu'ils nous font éprouver) تبدو لنا موصولـــة فيما بينها باسمنت ما غير قابل للتوميز وليس بحادثة طارئة» (ص ٢٦٩–٢٧٠)

اما ان صاحب هذه المحاكمة يمكن ان يكون **فيزيائياً** كبيراً فان هذا جائز ولكنه لا جدال البتة في انه لا يمكن ان يأخذه على محمل الجد كفيلسوف غير فوروشيلوف ويوشكيفيتش واضرابهما .

انهم اعلنوا ان المادية قد دمرتها «نظرية» **تحتمي تحت كنف المادية** لدى اول ضغط من جانب الايمانية ! لأنه اذا اعتبرتم ان الاحساسات تستثيرها فينا اشياء فعلية وان «الايمان» في موضوعية العلم هو مثل «الايمان» في وجود الاشياء الخارجية الموضوعي فان هذا سيكون مادية خالصة للغاية

يمكن القول مثلاً ان للاثير واقعية لا تقل عما لاي جسم خارجي آخر» (ص ٢٧٠)

فاي ضجة كان أثارها الماخيون لو قال مادي هذا ولكم كان ظهر هنا من النكات غير الحادة بصدد «المادة الاثيرية» وما الى ذلك ولكن مؤسس الرمزية التجريبية الحديثة يتشدق بعد خمس صفحات «كل ما ليس فكراً هو عدم صرف لأنه لا يسعنا ان نخلق بالفكر شيئاً غير الفكر» (ص ٢٧٦) انك تخطىء يا سيّد بوانكاره فان مؤلفاتك تثبت ان هناك اناساً لا يمكنهم ان يخلقوا بالفكر غير السخافات ومن عداد هؤلاء الناس المشوّش الشهير جورج سوريل الذي يزعم ان «القسمين الاولين» من كتاب بوانكاره عن قيمة العلم «مكتوبان بروح ليروا» وانه يمكن بالتالي لهذين الفيلسوفين ان «يتصالحا» على ما يلي ان محاولة اقرار تشابه بين العلم والعالم هي وهم ولا داعي الى طرح مسألة ما اذا كان بوسع العلم ان يعرف الطبيعة اذ يكفي تطابق العلم مع الآليات التي نصنعها (Georges Sorel. «Les préoccupations métaphysiques des physiciens modernes», P., 1907, p. 77, 80, 81*).

ولكن اذا كان يكفي مجرد التنويه «بفلسفة» بوانكاره والتغاضي عنها فانه يجب تناول مؤلفات ا ري بالتفصيل

---

* جورج سوريل «اوهام الفيزيائيين المعاصرين الميتافيزيائية» ، باريس ، ١٩٠٧ ، ص ٧٧ ، ٨٠ ، ٨١ . **الناشر** .

وقد سبق لنا واشرنا الى ان الاتجاهين الاساسيين في الفيزياء المعاصرة اللذين يسميهما ري بالاتجاه «المفاهيمي» والاتجاه «الميكانيكي» الجديد» يتلخصان في الفرق بين علم العرفان المثالي وعلم العرفان المادي ويتعين علينا ان نرى الآن كيف يحل الوضعي ري المعضلة المقابلة كلياً لمعضلة الروحاني جيمس ورد والمثاليين كوهن وهارتمان عنينا بذلك الامتناع عن تلقف الاخطاء الفلسفية للفيزياء الجديدة وانحرافها صوب المثالية بل اصلاح هذه الاخطاء واثبات عدم شرعية الاستنتاجات المثالية (والايمانية) من الفيزياء الجديدة

ان كل مؤلف ا ري يتخلله كخيط احمر على خلفية بيضاء الاعتراف بواقع ان النظرية الجديدة لفيزياء «المفاهيميين» (الماخيين) قد تمسكت بها **الايمانية** (ص II ١٧ ٢٢٠ ٣٦٢ وغيرها) و«**المثالية الفلسفية**» (ص ٢٠٠) والريبية فيما يتعلق بحقوق العقل وحقوق العلم (ص ٢١٠ ٢٢٠) والذاتية (ص ٣١١) والخ ولهذا يجعل ا ري عن كامل الحق والصواب من تحليل «آراء الفيزيائيين المتعلقة بالقيمة الموضوعية للفيزياء» **مركز** عمله (ص ٣)

فما هي نتائج هذا التحليل ؟

لنأخذ المفهوم الاساسي مفهوم التجربة يؤكد ري ان التفسير الذاتاني الذي يعطيه ماخ (وسنعبّره لأجل البساطة والايجاز ممثلاً لتلك المدرسة التي يسميها ري بالمدرسة المفاهيمية) هو باطل تماماً صحيح انه يرد في عداد «السمات الجديدة الرئيسية لفلسفة اواخر القرن التاسع عشر» كون «التجريبية التي تغدو اكثر فاكثر تفنناً واغنى فأغنى بالتلاوين تؤدي الى الايمانية الى الاعتراف باولوية الايمان ، – التجريبية التي كانت فيما مضى سلاحاً عظيماً في نضال الريبية ضد مزاعم

الميتافيزياء اولم يحدث هذا لأنه جرى من حيث الجوهر تشويه المعنى الحقيقي لكلمة «التجربة» شيئاً فشيئاً عن طريق تلاوين غير ملحوظة؟ اما بالفعل، فان التجربة، - اذا أخذت في ظروف وجودها في ذلك العلم الاختباري الذي يحددها ويصقلها، - ان التجربة تقودنا الى الضرورة والى الحقيقة» (ص ٣٩٨) لا ريب في ان الماخية كلها بمعنى هذه الكلمة الواسع لا تعدو ان تكون تشويهاً لمعنى كلمة «التجربة» الحقيقي بواسطة تلاوين غير ملحوظة ولكن كيف يصلح ري هذا التشويه وهو الذي يتهم بالتشويه الايمانيين وحدهم ولا يتهم ماخ بالذات؟ اسمعوا «ان التجربة هي حسب التعريف العادي معرفة الموضوع وهذا التعريف أنسب في علم الفيزياء مما في اي مكان آخر ان التجربة هي ما ليس لعقلنا سلطان عليه ما لا يمكن لرغائبنا وارادتنا ان تغيره، - ما هو معطى ما لا ننتجه ان التجربة هي الموضوع في مواجهة (en face du) الذات» (ص ٣١٤)

اليكم نموذجاً عن دفاع ري عن الماخية وباي تبصر عبقري تحلى انجلس حين اطلق على الطراز الحديث من انصار اللاعرفانية الفلسفية ومذهب الظاهرية نعت «الماديين الخجولين» ان الوضعي والظاهري المتعصب ري نموذج ممتاز من هذا الطراز اذا كانت التجربة هي «معرفة الموضوع» اذا كانت «التجربة هي الموضوع في مواجهة الذات» اذا كانت التجربة تتلخص في كون «شيء ما خارجي (quelque chose du dehors) يوجد ويوجد بالضرورة» (se pose et en se posant s’impose, p. 324) فان هذا ينحصر على ما يبدو في المادية ان ظاهرية ري واشارته ببالغ الاجتهاد الى انه لا يوجد شيء عدا الاحساسات والى ان الموضوعي هو ذو دلالة عامة وهكذا دواليك، - ان كل هذا ورقة تين، تستير للمادية بالكلام الفارغ، ما داموا يقولون لنا :

«الموضوعي ما هو معطى لنا من الخارج ما هو مفروض (imposé) من قبل التجربة ما لا ننتجه ما هو منتوج بصورة مستقلة عنّا وما ينتجنا بدرجة ما» (ص ٣٢٠) ان ري يدافع عن «المفاهيمية» بالقضاء على المفاهيمية ولا يتم التوصل الى دحض الاستنتاجات المثالية من الماخية الا بتفسير الماخية بمعنى المادية الخجلة وان ري الذي اعترف هو نفسه بالفرق بين الاتجاهين في الفيزياء المعاصرة يبذل قصارى جهده لكي يمحو جميع الفوارق في مصلحة الاتجاه المادي مثلاً يقول ري بشأن مدرسة الميكانيكية الجديدة انها لا تقبل «لا باقل شك ولا باقل تردد» في مسألة موضوعية الفيزياء (ص ٢٣٧) «هنا (اي في تربة تعاليم هذه المدرسة) انتم بعيدون عن جميع تلك السبل الملتوية التي اضطررتم الى السير فيها من وجهة نظر سائر نظريات الفيزياء لكي تصلوا الى اقرار هذه الموضوعية»

ان هذه «السبل الملتوية» بالذات للماخية هي التي يحجبها ري ويلقي عليها الستار على طول عرضه ان السمة الاساسية التي تتسم بها المادية انما هي بالضبط كونها **تنطلق** من موضوعية العلم من الاعتراف بالواقع الموضوعي الذي يعكسه العلم بينما المثالية **تحتاج** الى «سبل ملتوية» لكي «تستخلص» الموضوعية بنحو او آخر من الروح من الوعي من «النفسي» ويكتب ري «ان المدرسة الميكانيكية الجديدة (اي السائدة) في الفيزياء **تؤمن في واقعية** النظرية الفيزيائية بالمعنى الذي **تؤمن** به البشرية **في واقعية** العالم الخارجي (ص ٢٣٤ الفقرة ٢٢ الموضوعة). وبنظر هذه المدرسة «تريد النظرية ان تكون نسخة (le décalque) عن الموضوع» (ص ٢٣٥)

صحيح وهذه السمة الاساسية في المدرسة «الميكانيكية الجديدة» لا تعدو ان تكون اساس علم العرفان **المادي** . وليس

بمقدور اي من تبرؤات ري من الماديين واي من تأكيداته ان الميكانيكيين الجدد هم ايضاً من حيث الجوهر ظاهريون وما الى ذلك ان تضعف هذا الواقع الجذري فان كنه الفرق بين الميكانيكيين الجدد (وهم ماديون متفاوتون في الخجل) والماخيين انما هو كون الاخيرين **يتراجعون** عن هذه النظرية للمعرفة وبتراجعهم عنها **ينزلقون** حتماً الى الايمانية

خذوا موقف ري من تعليم ماخ بشأن سببية وضرورة الطبيعة من النظرة الاولى فقط ، - كما يؤكد ري ، - «يقترب» ماخ «من الريبية» (ص ٧٦) ومن «الذاتية» (ص ٧٦) ان هذا «الالتباس» (équivoque, p. 115) يتبدد اذا اخذنا تعاليم ماخ بمجملها وري يأخذها بمجملها ويورد جملة من المقتبسات سواء من «مذهب الدفء» ام من «تحليل الاحساسات» ويتوقف خصيصاً عند الفصل عن السببية في الكتاب الاول من الكتابين المذكورين ، - ولكنه **ولكنه يتحاشى ايراد المقطع الحاسم ، بيان ماخ القائل انه لا وجود للضرورة الفيزيائية بل توجد الضرورة المنطقية فقط** وهنا يمكن القول فقط ان هذا ليس تفسيراً لآراء ماخ بل طلي لها بالمساحيق وان هذا محو للفوارق بين «الميكانيكية الجديدة» والماخية استنتاج ري «يواصل ماخ التحليل ويقبل استنتاجات هيوم وميل وجميع الظاهريين الذين يعتبرون ان السببية لا تنطوي على اي شيء **جوهري** وانها عادة التفكير وحسب ويتقبل ماخ من الظاهرية موضوعتها الاساسية التي يشكل مذهب السببية بالنسبة لها مجرد عاقبة اي بالضبط لا يوجد شيء غير الاحساسات ولكن ماخ يضيف في اتجاه موضوعاني صرف ان العلم اذ يبحث الاحساسات يجد فيها عناصر دائمة ومشتركة يكون لها اذا تم تجريدها من الاحساسات نفس الواقعية التي للاحساسات ، لأنها مستمدة من الاحساسات بواسطة المراقبة

الحسية وهذه العناصر الدائمة والمشتركة اي بالضبط الطاقة وتحولاتها هي اساس تصنيف الفيزياء» (ص ١١٧)

ينجم من هنا ان ماخ يتقبل النظرية الذاتية عن السببية عند هيوم ويفسرها بالمعنى الموضوعاني ويتملص ري مدافعاً عن ماخ باستشهادت بعدم انسجامه وخالصاً الى القول ان التجربة تؤدي في التفسير «الواقعي» لهذه التجربة، الى «الضرورة». والحال ان التجربة هي المعطى من الخارج واذا كانت ضرورة الطبيعة وقوانينها معطاة هي ايضاً للانسان من الخارج من الطبيعة الواقعية الموضوعية فمن البديهي آنذاك ان يزول كل فرق بين الماخية والمادية ويدافع ري عن الماخية دون «الميكانيكية الجديدة» بكونه يستسلم على طول الخط امام الاخيرة اذ يذود عن كلمة «الظاهرية» وليس عن كنه هذا الاتجاه

وبروح ماخ تماماً يستخلص بوانكاره مثلاً قوانين الطبيعة – بما فيها ضمناً القانون القائل ان للمكان ثلاثة ابعاد – من «الملاءمة» ولكن هذا لا يعني البتة «الاعتباطي» – كما يسرع ري الى «الاصلاح» كلا ان «الملائم» يعبر هنا عن «**التكيف للموضوع**» (حرف التأكيد لري ص ١٩٦) يا له من مثال رائع على التمييز بين المدرستين وعلى «دحض» المادية «اذا كانت نظرية بوانكاره تفصلها هوة يستحيل عبورها منطقياً عن تفسير المدرسة الميكانيكية الانطولوجي» (اي عن اعتراف هذه المدرسة بان النظرية هي صورة عن الموضوع) «اذا كان بمقدور نظرية بوانكاره ان تشكل سنداً لأجل المثالية الفلسفية فانها تتوافق جيداً في تربة العلم على الاقل مع التطور العام لافكار الفيزياء الكلاسيكية مع الميل الى اعتبار الفيزياء معرفة موضوعية توازي موضوقيتها موضوعية التجربة اي الاحساسات التي تنطلق منها التجربة» (ص ٢٠٠).

من جهة لا يمكن عدم الاعتراف ومن جهة اخرى يجب الاعتراف من جهة تفصل هوة يستحيل عبورها بوانكاره عن الميكانيكية الجديدة رغم ان بوانكاره يقف **في الوسط** بين «مفاهيمية ماخ والميكانيكية الجديدة في حين يبدو كأنّ ماخ غير مفصول اطلاقاً باية هاوية عن الميكانيكية الجديدة ومن جهة اخرى يمكن التوفيق كلياً بين بوانكاره والفيزياء الكلاسيكية التي تتبنى تماماً على حد قول ري نفسه وجهة نظر «الميكانيكية» من جهة بمقدور نظرية بوانكاره ان تشكل سنداً للمثالية الفلسفية ومن جهة اخرى تتوافق نظرية بوانكاره مع التفسير الموضوعي لكلمة «التجربة» من جهة شوّه هؤلاء الايمانيون الاردياء معنى كلمة «التجربة» عن طريق تحريفات غير ملحوظة متراجعين عن النظرة الصحيحة القائلة ان «التجربة هي الموضوع» ومن جهة اخرى تعني موضوعية التجربة امراً واحداً فقط هو ان التجربة هي الاحساسات ، – وهذا ما يوافق عليه كلياً بركلي وفيخته سواء بسواء

لقد التبس الامر على ري لأنه وضع امام عينيه مهمة يستحيل اداؤها قوامها «توفيق» التضاد بين المدرسة المادية والمدرسة المثالية في الفيزياء الجديدة فهو يحاول ان يضعف مادية المدرسة الميكانيكية الجديدة مصوراً بالظاهرية نظرات الفيزيائيين الذين يعتبرون نظريتهم صورة عن الموضوع * وهو يحاول ان

---

* ان «الموفق» ري لم يلق الستار على طرح المسألة من قبل المادية الفلسفية وحسب ، بل تحاشى كذلك تصريحات الفيزيائيين الفرنسيين المادية الاشد سطوعاً فلم يذكر مثلاً الفرد كورنو (A. Cornu) الذي توفي عام ١٩٠٢ فان هذا الفيزيائي قد استقبل «تدمير (او تذليل Überwindung المادية العلمية» الذي قال به اوستفالد بملاحظة تهكم وازدراء بصدد تفسير المسألة تفسيراً متحذلقاً وسطحياً

يضعف مثالية المدرسة المفاهيمية ، باترأ احزم تصاريح انصارها ومفسراً التصاريح الباقية بمعنى المادية الخجلة اما اي درجة من التوهم ومن التكلف بلـــغ في هذه الحال تبرؤ ري من المادية فيبينه مثلاً تقييمه للاهمية النظرية لمعادلات مكسويـــل وهرتس التفاضلية ان كون هذين الفيزيائيين يقصران نظريتهما على نظام المعادلات يشكل بنظـر الماخيين دحضـــاً للماديـــة المعادلات – وهذا كل شيء ليس ثمة اية مادة ليس ثمة اي واقع موضوعي هناك رموز فقط الا ان بولتسمان يدحض هذه

وسطحياً ومبتذلاً . (راجعوا «Revue générale des sciences, 1895, p. 1030-1031) («المجلة العامة للعلوم» ، عام ١٨٩٥ ص ١٠٣٠–١٠٣١ **الناشر**)

وفي مؤتمر الفيزيائيين العالمي المنعقد في باريس عام ١٩٠٠ قال كورنو «بقدر ما نزداد معرفة لظاهرات الطبيعة بقدر ما يتطور ويزداد دقـة المفهوم الديكارتي الجريء عن ميكانيكية العالم لا شيء يوجد في العالم الفيزيائي عدا المادة والحركة ان قضيـــة وحدة القوى الفيزيائية تتقدم من جديد الى المرتبة الاولى بعد الاكتشافات العظيمة التي تميزت بها اواخر القرن التاسع عشر ان الاهتمام الرئيسي لزعماء علمنا المعاصرين فارادي مكسويل هرتس تكلمنا فقط عن الفيزيائيين المشهورين الذين ماتوا) – يتركز على تعريف الطبيعة بمزيد من الدقة ، وحزر خواص **المادة العديمة الوزن** (matière subtile) ، خواص حامل الطاقة العالمية ان العودة الى الافكار الديكارتية جلية للعيان . («Rapports présentés au Congrès International de Physique», P., 1900, t. 4-me, p. 7) (تقارير مقدمة في مؤتمر الفيزياء العالمي ، باريس ، ١٩٠ ، المجلد ٤ ص ٧ **الناشر**) وعن حق وصواب يلاحظ لوسيان بوانكاره في كتابه عن «الفيزياء المعاصرة» ان هذه الفكرة الديكارتية قد اخذها وطورها موسوعيو القرن الثامن عشر (Lucien Poincaré. «La Physique moderne», P., 1906, p. 14) ولكن لا هذا الفيزيائي ولا الفرد كورنو يعرفان كيف طهـــر الماديان الدياليكتيكيان ماركس وانجلس هذه المقدمة الاساسية للمادية من وحدة جانب المادية **الميكانيكية** .

النظرة مدركاً انه يدحض الفيزياء الظاهرية ويدحض ري هذه النظرة معتقداً انه يدافع عن الظاهرية وهو يقول «لا يجوز الامتناع عن تصنيف مكسويل وهرتس في عداد «الميكانيكيين» على اساس انهما اكتفيا بمعادلات تشبه المعادلات التفاضلية في ديناميكا لاغرانج ولكن هذا لا يعني اننا لا نستطيع برأي مكسويل وهرتس ان نبني نظرية ميكانيكية عن الكهرباء على عناصر فعلية بل بالعكس فان امكانية ذلك يثبتها الواقع التالي وهو ان الظواهر الكهربائية تمثلها نظرية شكلها مماثل للشكل العام للميكانيك الكلاسيكي» (ص ٢٥٣) ان الالتباس في حل القضية الحالي «سيقل بقدر ما ترتسم بمزيد من الدقة طبيعة تلك الوحدات الكمية اي العناصر التي تدخل في المعادلات» ان عدم دراسة هذه او تلك من اشكال الحركة المادية ليس بنظر ري ذريعة لانكار مادية الحركة «تجانس المادة» (ص ٢٦٢)، - لا بوصفه مسلّمة بل بوصفه نتيجة التجربة وتطور العلم «تجانس موضوع الفيزياء»، - هذا هو الشرط لامكان تطبيق المقاييس وتطبيق الحسابات الرياضية

واليكم تقدير ري لمعيار الواقع العملي في نظرية المعرفة «لمقابلة مقدمات الريبية يحق لنا ان نقول ان قيمة العلم العملية تنبع من قيمته النظرية» (ص ٣٦٨) اما ان ماخ وبوانكاره وكل مدرستهما قد اخذوا مقدمات الريبية هذه بدون اي لبس وابهام على الاطلاق فان ري يفضل لزوم الصمت عن هذا «وهذه القيمة وتلك هما جانبا قيمتها الموضوعية اللذان لا ينفصلان والمتوازيان بكل دقة ان القول ان للقانون المعني من قوانين الطبيعة قيمة عملية يؤول من حيث الجوهر الى القول ان لقانون الطبيعة هذا اهمية موضوعية ان التأثير في الموضوع يفترض تغيير الموضوع، رد فعل الموضوع رداً متناسباً

مع توقعاتنا او تكهناتنا التي قمنا على اساسهـــا بهذا التأثير وبالتالي تتضمن هذه التوقعات او هذه التكهنات عناصر **يراقبها** الموضوع وفعلنا وهذا يعني ان هذه النظريات المختلفة تحتوى جزءاً من الموضوعي» (ص ٣٦٨) هذه نظرية للمعرفة مادية تماماً ومادية فقط لأن وجهات النظر الاخرى والماخية على الاخص تنكر الاهمية الموضوعية اي المستقلـــة عن الانسان والانسانية لمعيار الواقع العملي

الحاصل لقد تناول ري المسألة من جانب ليس البتة بالجانب الذي تناولها منه ورد وكوهن وشركاهما ولكن النتائج عنده ايضاً جاءت مماثلة لنتائجهم الاعتراف بالميـــل المادي والميل المثالي بوصفهما اساس انقسام المدرستين الرئيسيتين في الفيزياء المعاصرة

٧ ـ «الفيزيائي-المثالي» الروسي

بحكم بعض ظروف عملي المؤسفة لم استطع او يكاد ان اطلع على المطبوعات الروسية في المسألـــة التي نحن بصددها ولذا اكتفي بعرض مقالة هامة جداً بالنسبة لموضوعي هي مقالة الرجعي المتطرف الفلسفي الروسي المشهور السيـــد لوباتين «الفيزيائي-المثالي» المنشورة في «قضايا الفلسفة وعلم النفس» (٨٤) للسنة الماضية (سنـــة ١٩٠٧ ايلول – تشرين الاول (سبتمبر – اكتوبر)) ان المثالي الفلسفي الروسي حقـاً السيد لوباتين ينظر تقريباً الى المثاليين الاوروبيين المعاصرين مثلما ينظر «اتحاد الشعب الروسي» (٨٥) الى الاحزاب الرجعية الغربية ولكنه من الافيد بالتالي ان نرى كيف تتبدى الميول الفلسفية المتماثلة في اوضاع ثقافية ومعيشية مختلفة تماماً فان مقالة السيد لوباتين هي ، كما يقول الفرنسيون ، éloge – مديح للفيزيائي الروسي

المرحوم ن اي شيشكين (توفي عام ١٩٠٦) فقد افتتن السيد لوباتين بواقع ان هذا الرجل المتعلم الذي اهتم بالغ الاهتمام بهرتس والفيزياء الجديدة على العموم لم يكن كاديتياً يمينياً وحسب (ص ٣٣٩) بل كان كذلك انساناً عميق الايمان ومعجباً بفلسفة فل سولوفيوف وما الى ذلك وهلمجراً ولكن السيد لوباتين استطاع رغم «سعيه» على الاغلب الى ميدان متاخم للميدان الفلسفي والبوليسي ان يعطي مادة مـا لأجـل وصف نظرات الفيزيائي-المثالي **العرفانية** ايضاً فقد كتب لوباتين يقول «كان وضعياً حقيقياً في سعيه بلا كلل الى انتقاد اساليب البحث وفرضيات العلم ووقائعه اوسع انتقاد تبعاً لنفعها بوصفها وسائل ومادة لأجل بناء عقيدة كاملة ، ناجزة وفي هذا المجال كان ن اي شيشكين نقيضاً تاماً لكثيرين جداً من معاصريه ولقد حاولت مراراً في مقالاتي الصادرة سابقاً في هذه المجلة ان اوضح من اي مواد متباينة وغالباً متقلقلة يتألف ما يسمى بالعقيدة العلمية فهنا نجد وقائع ثابتة وتعميمات جريئة الى هذا الحد او ذاك وفرضيات ملائمة في اللحظة المعنية لأجل هذا الميدان العلمي او ذاك وحتى اوهاماً علمية ثانوية مساعدة وكل هذا يُرفع الى مصف حقائق موضوعية لا جدال فيها ويتعين الحكم من وجهة نظرها على اية افكار وعقائد ذات طابع فلسفي وديني ، على ان يُنبَذ منها كل ما ليس وارداً في هذه الحقائق ان صاحبنا المفكر-الطبيعي الرفيع الموهبة فل اي فرنادسكي قد بيّن بوضوح ما بعده وضوح ان مثل هذه الادعاءات بتحويل النظرات العلمية لعهد تاريخي معين الى نظام عقائدي جامد الزامي على الجميع فارغة وفي غير محلها والواقع ان هذا التحويل لم تقترفه الاوساط الواسعة من جمهور القراء وحسب (**ملاحظة السيد لوباتين** «لقد كُتبت من اجل هذه الاوساط جملة كاملة من الكتب المبسطة التي يكمن القصد

منها في الاقناع بوجود كتاب علمي للتعاليـــم بالسؤال والجواب يعطي حلاً لجميع المسائل ومن المؤلفات النموذجيـــة من هذا الطراز «القوة والمادة» لبوخنر او «الغاز العالم» لهيكّل») ولم يقترفه مختلف العلماء في الفروع المختصة من العلوم الطبيعيـــة وحسب فان ما هو اغرب بكثير هو ان الفلاسفـــة الرسميين يقترفونه باذلين جميع جهودهم احياناً بوجه الحصر على تقديم البرهان عن انهم لا يقولون شيئاً عدا ما قاله من قبل ممثلو مختلف العلوم المختصة مع فارق واحد هو انهم ينطقون به بلغتهـــم الخاصة

لم يكن لدى ن اي شيشكين اية اعتقادية مسبقة فهو نصير عن اقتناع لتفسير ظاهرات الطبيعة تفسيراً ميكانيكياً ، ولكن هذا التفسير هو بنظره مجرد طريقـــة للبحث» (ص ٣٤١)

هه هه انغام معروفة «لم يكن يعتقد اطلاقاً ان النظرية الميكانيكية تكشف كنه الظاهرات المدروسة ذاته ولم يكن يرى فى هذه النظرية الا الاسلوب الاكثر ملاءمة وفائدة لتوحيد هذه الظاهرات وتعليلها لاغراض العلم ولهذا لا يتطابق البتة بنظره الفهم الميكانيكي للطبيعة مع النظرة المادية اليها

تماماً كما عند اصحاب «دراسات «في» فلسفة الماركسية» !..

«بل بالعكس تماماً فقد كان يبدو له انه لا بّد للنظريـــة الميكانيكية ان تشغل في المسائل من المرتبة العليا موقفاً انتقادياً صرفاً وحتى توفيقياً

وهذا يعني بلغة الماخيين «تجاوز» التضاد «الشائخ والضيق والوحيد الجانب» بين المادية والمثالية «ان مسألـــة مبدأ الاشياء الاول ونهايتها الاخيرة ومسألة الكنه الداخلي لروحنا ومسألة حرية الارادة ومسألة خلود الروح والخ لا يمكن لها ، في سعة معناها الفعلي ، ان تكون من صلاحيـــة النظريـــة

الميكانيكية لأن هذه النظرية بوصفها طريقة للبحث تقتصر ضمن الحدود الطبيعية لامكان تطبيقها على وقائع التجربة الفيزيائية وحدها» (ص ٣٤٢) السطران الاخيران منتحلان بلا ريب من كتاب بوغدانوف «الاحادية التجريبية»

كتب شيشكين في مقالته «عن الظاهرات النفسية الفيزيائية من وجهة نظر النظرية الميكانيكية» («قضايا الفلسفة وعلم النفس» الكتاب الاول ص ١٢٧) «يمكن اعتبار النور مادة حركة كهرباء احساساً»

لا ريب في ان السيد لوباتين قد نسب شيشكين عن حق وصواب الى عداد الوضعيين وان هذا الفيزيائي يخص كلياً المدرسة الماخية في الفيزياء الجديدة فان شيشكين يريد ان يقول برأيه في النور ان مختلف النظرات الى النور هي عبارة عن طرائق مختلفة «لتنظيم التجربة» (حسب تعابير ا بوغدانوف) مشروعة بالقدر نفسه من وجهة النظر هذه او تلك او «صلات» مختلفة بين «العناصر» (حسب تعابير ماخ) وان تعاليم الفيزيائيين عن النور ليست على كل حال نسخة عن الواقع الموضوعي ولكن شيشكين يحاكم بشكل رديء جداً «يمكن اعتبار النور مادة حركة لا مادة بدون حركة ولا حركة بدون مادة في الطبيعة ان «التضاد» الاول الذي اورده شيشكين لا معنى له «كهرباء الكهرباء هي حركة مادة وبالتالي كان شيشكين هنا ايضاً على غير حق وقد أثبتت نظرية النور الكهرمغناطيسية ان النور والكهرباء هما شكلا حركة المادة ذاتها» (الاثير) «احساساً الاحساس هو صورة المادة المتحركة ولا يسعنا ان نعرف شيئاً لا عن اية اشكال للمادة ولا عن اية اشكال للحركة ، الا بواسطة الاحساسات والاحساسات يستثيرها تأثير المادة المتحركة في اعضاء حواسنا . هكذا يرى

علم الطبيعيات فان الاحساس بالنور الاحمر يعكس ذبذبات الاثير التي تحدث بسرعة ٤٥٠ الف مليار بالثانية تقريباً والاحساس بالنور الازرق يعكس ذبذبات الاثير التي تحدث بسرعة ٦٢٠ الف مليار بالثانية تقريباً وذبذبات الاثير موجودة بصورة مستقلة عن احساساتنا بالنور واحساساتنا بالنور رهن بتأثير ذبذبات الاثير في عضو البصر الانساني ان احساساتنا تعكس الواقع الموضوعي اي ما هو موجود بصورة مستقلة عن الانسانية والاحساسات الانسانية هكذا يرى علم الطبيعيات وما محاكمة شيشكين الموجهة ضد المادية غير سفسطائية رخيصة للغاية

٨ ـ جوهر المثالية «الفيزيائية» ومغزاها

رأينا ان مسألة الاستنتاجات العرفانية من الفيزياء الحديثة قد أثيرت وانها موضع بحث من شتى وجهات النظر سواء في المطبوعات الانجليزية ام الالمانية ام الفرنسية ولا يمكن ان يقوم اي شك في ان امامنا تياراً فكرياً عالمياً لا يتوقف على اي نظام فلسفي بل ينبع من بعض الاسباب العامة القائمة خارج الفلسفة وان استعراض المعطيات الوارد اعلاه يبين بلا ريب ان الماخية «مرتبطة» بالفيزياء الجديدة ـ ويبين في الوقت نفسه التصور **الخاطئ اصلاً** الذي ينشره اصحابنا الماخيون عن هذا الارتباط ففي الفلسفة كما في الفيزياء ينساق الماخيون بذل ومهانة **وراء الموضة** غير عارفين كيف يعطون من وجهة نظرهم الماركسية لمحة عامة عن التيارات المعروفة وكيف يقيّمون مكانها

ان زيفاً مزدوجاً يفعم كل الشقشقة في الموضوع التالي وهو ان فلسفة ماخ هي «فلسفة علم الطبيعيات في القرن العشرين» «الفلسفة الحديثة لعلم الطبيعيات» «الوضعية الحديثة لعلم الطبيعيات» ، وما الى ذلك (بوغدانوف في مقدمة كتاب «تحليل

الاحساسات» ص XII ،VI قارنـوا الشيء نفسه عنـد يوشكيفيتش وفالنتينوف وشركاهما) اولاً الماخية مرتبطة فكرياً بمدرسـة **واحدة** فقط في فرع **واحد** فقط من فروع العلوم الطبيعية المعاصرة ثانياً ،- **وهذا هو الرئيسي** - يرتبط بهذه المدرسة في الماخية **لا ما يميزها عن جميع الاتجاهات والانظمة الاخرى في الفلسفة المثالية ، بل ما تشترك به الماخية مع المثالية الفلسفية كلها اجمالاً** حسبنا ان نلقي نظرة **اجمالية** الى كـل التيار الفكري الذي نحن بصدده لكي لا يبقى وان ظل لشـك ،صحة هذه الموضوعة خذوا فيزيائيي هذه المدرسة الالماني ماخ الفرنسي هنري بوانكاره البلجيكي دوهيـم البريطاني ك بيرسون بينهم امور كثيرة مشتركة وعندهم اساس واحد واتجاه واحد ، كما يعترف كل منهم بذلك عن كل حق وصواب ، ولكن هذا المشترك لا يشمل لا مذهب النقد التجريبي على العموم ولا مذهب ماخ وان على الاقل عن «عناصر العالم» على الخصوص بل ان الفيزيائيين الاخيرين الثلاثة حتى لا يعرفون لا هذا المذهـب ولا ذاك والمشترك بينهم واحد «فقط» المثالية الفلسفيـة التي **يميلون** اليها جميعهم بلا استثناء بدرجات متفاوتة من الوعي بدرجات متفاوتة من الحزم خذوا الفلاسفة الذين يعتمدون عـلى **هذه المدرسة** في الفيزيـاء الجديدة ويحاولون ان يعللوهـا ويطوروها على الصعيد العرفاني تروا هنا من جديد الكمونيـين الالمان تلامذة ماخ والنقـاد الجدد والمثاليين الفرنسيين والروحانيين البريطانيين والروسي لوباتين وكذلك الاحادي التجريبي الوحيد أ بوغدانوف ان المشترك بينهم واحد فقط ونعني به انهم جميعاً يروجون المثالية الفلسفية بدرجات متفاوتة من الوعي بدرجات متفاوتة من الحزم بانحراف حاد ومتسرع صوب الايمانية او بنفور شخصي منها (أ . بوغدانوف) .

ان الفكرة الاساسية عند مدرسة الفيزياء الجديدة التي نحن بصددها هي انكار الواقع الموضوعي المعطى لنا في الاحساس والذي تعكسه نظرياتنا او الشك في وجود هذا الواقع هنا تنصرف هذه المدرسة عن **المادية** السائدة **حسب الاعتراف العام** بين الفيزيائيين (علماً بان المادية تسمى بصورة غير دقيقة بالواقعية والميكانيكية الجديدة والهيلوكينيتيكا وبان الفيزيائيين انفسهم لا يطورونها بصورة واعية الى حد ما) ،- تنصرف بوصفها مدرسة المثالية «الفيزيائية»

ولايضاح هذا التعبير الاخير الذي يبدو غريباً جداً لا بّد من لتذكير بواقعة من تاريخ الفلسفة الحديثة وعلم الطبيعيات الحديث ففي عام ١٨٦٦ انقض لودفيغ فورباخ على يوهانس موللر المؤسس الشهير للفيزيولوجيا الحديثة وصنفه «في عداد المثاليين الفيزيولوجيين» (Werke, X, S. 197) كانت مثالية هذا الفيزيولوجي تتلخص فيما يلي مع دراسة اهمية آلية اعضاء حواسنا في علاقاتها بالاحساسات ومع الاشارة مثلاً الى ان الاحساس بالنور يحصل في حال شتى ضروب التأثير في العين كان يميل الى ان يستنتج من هنا انكار كون احساساتنا هي صور عن الواقع الموضوعي وهذا الميل من مدرسة من مدارس علماء الطبيعيات الى «المثالية الفيزيولوجية» اي الى التفسير المثالي للنتائج المعروفة التي توصلت اليها الفيزيولوجيا انما لاحظه لودفيغ فورباخ بخارق الدقة وفيما بعد استغلت الفلسفة الرجعية خلال زمن طويل «صلة» الفيزيولوجيا بالمثالية الفلسفية الكانطية الصبغة على الاغلب وقد تلاعب ف ا لانغه بالفيزيولوجيا في صالح المثالية الكانطية ولدحض المادية ومن بين الكمونيين (الذين صنفهم ا بوغدانوف ببالغ الخطأ في خط الوسط بين ماخ وكانط) هّب ي . رمكه خصيصاً في عام ١٨٨٢ ضد التأكيد الموهوم

للكانطية من قبل الفيزيولوجيا * اما ان عدداً من الفيزيولوجيين الكبار **قد مال** في ذلك الزمن الى المثالية والكانطيـة فان هذا لا جدال فيه كمـا لا جدال في ان عدداً من كبار الفيزيائيين **يميل** في زمننا الى المثالية الفلسفية ان المثالية «الفيزيائية» اي مثالية مدرسة الفيزيائيين المعروفة في اواخر القرن التاسع عشر وفي اوائل القرن العشرين قلما «تدحض» المادية وقلـّما تثبت صلة المثالية (او المذهب النقدي التجريبي) بالعلوم الطبيعية كما قلـّما كانت دامغـــة مساعي ف ا لونغـــه والمثاليين «الفيزيولوجيين» المماثلة ان الانحراف صوب الفلسفة الرجعية الذي تكشف في هذه الحالة وتلك عند احدى مدارس علماء الطبيعيات في فرع من فروع العلوم الطبيعية هو تعرّج موقت مرحلة مَرَضية عابرة في تاريخ العلم مرض النمو مرض ناجم اكثر ما يكون عن **تحطيم** المفاهيم المستقرة القديمة **تحطيماً شديداً**

ان صلة المثالية «الفيزيائيـة» المعاصرة بازمـــة الفيزياء المعاصرة تلقى الاعتراف العام كما سبق وبيـّنـّا وقد كتـب ا ري قاصداً الارتيابيين اقل ممـا قصد انصار الايمانيـــة السافرين من طراز برونيتيير يقول «ان حجج النقد الارتيابي الموجهة ضد الفيزياء المعاصرة تتلخص من حيث الجوهر ، في حجة جميع الارتيابيين المشهورة في اختلاف الآراء» (بين الفيزيائيين) ولكن هذه الاختلافات «لا تثبت شيئاً ضد موضوعيـة الفيزياء» «في تاريخ الفيزياء كما في كل تاريخ يمكن تمييز مراحل كبيرة تتصف باختلاف اشكـــال النظريـــة باختلاف منظرهـــا

---

* Johannes Rehmke. «Philosophie und Kantianismus», Eisenach, 1882, S. 15 وما يليها (يوهانس رمكه «الفلسفـــة والكانطية» ، ايزيناخ ، عام ١٨٨٢ ، ص ١٥ وما يليها . **الناشر**) .

العام وما ان يظهر واحد من تلـــك الاكتشافات التي يتردد صداها في جميع اقسام الفيزياء مؤكدة واقعاً جذرياً ما كان غير معروف حتى ذاك او لم يلق التقييم التام حتى يتغير كل منظــر الفيزياء وتبدأ مرحلة جديدة هكذا كان بعد اكتشافات نيوتن وبعد اكتشافات جول – ماير وكارنو – كلاوزيوس والامر نفسه يجري اغلــب الظن بعد اكتشاف النشاط الاشعاعي ان المؤرخ الذي سيراقب الاحداث فيما بعد من بعض البعد الضروري سيرى بدون جهد دوام التطور حيث المعاصرون لا يرون غيــر النزاعات والتناقضات والانشقاق الى مدارس مختلفة اغلب الظن ان هذه الازمة التي عانتها الفيزياء في هذه السنوات الاخيرة انما تنتسب هي ايضاً الى الصنف نفسه من الازمات (خلافاً للاستنتاجات التي استخلصها النقد الفلسفي على اساس هذه الازمة) انها ازمة نمو (crise de croissance) نموذجية ناجمة عن الاكتشافات الجديدة العظيمة ولا جدال في ان الازمة تؤدي الى تحويل الفيزياء – ، ولولا هذا لما كان التطور والتقدم ، – ولكنها لا تغير الروح العلمية» (l. c., p. 370-372).

ان الموفق ري يحاول ان يجمع معاً جميــع مدارس الفيزياء المعاصرة ضد الايمانية هذا زيف حسن النية ولكنه زيف مع ذلك لأن انحراف مدرسة ماخ – بوانكاره – بيرسون الى المثالية (اي الى الايمانية المتفننة) ثابت لا مراء فيه اما موضوعية الفيزياء المرتبطة بأسس «الروح العلمية» خلافاً للروح الايمانية والتي يدافع عنها ري بمثل هذه الحرارة فهي لا تعدو ان تكون صيغة «خجلة» للمادية ان الروح الاساسية المادية في الفيزياء كما في جميع العلوم الطبيعية المعاصرة تتغلب على جميع الازمات عــلى اختلافها ولكن بنحو واحد فقط هو باحلال المادية الدياليكتيكية من كل بدّ محل المادية الميتافيزيائية .

اما ان ازمة الفيزياء المعاصرة تتلخص في تراجعها عن الاعتراف الصريح والقاطع وبلا عودة بالقيمة الموضوعية لنظرياتها فان الموفق ري يحاول احياناً كثيرة جداً ان يطمسها ولكن الوقائع اقوى من جميع محاولات التوفيق فقد كتب ري يقول «ان الرياضيين الذين يألفون التعامل مع علم الموضوع فيه ، – على الاقل حسبما يبدو ، – يخلقه عقل العالم او لا تتدخل فيه على كل حال الظاهرات الملموسة في البحوث قد كوّنوا لانفسهم تصوراً مفرطاً في التجريد عن الفيزياء فسعياً الى تقريب الفيزياء من الرياضيات نقلوا النظرية العامة عن الرياضيات الى الفيزياء ان جميع المختبرين يشيرون الى غزو (invasion) روح الرياضيات لاساليب المحاكمات الفيزيائية ولفهم الفيزياء اوليس هذا التأثير – الذي لا يفقد قوته لأنه يكون احياناً خفياً ، – هو الذي يفسر في معظم الاحيان عدم الثقة وتأرجح الفكر فيما يتعلق بموضوعية الفيزياء والسبل الملتوية التي يتوصلون فيها الى الموضوعية والعقبات التي يذللونها في هذه الحال ؟ (ص ٢٢٧)

لقد قيل هذا ببراعة «تأرجح الفكر» في مسألة موضوعية الفيزياء – في هذا يكمن جوهر المثالية «الفيزيائية» الدارجة على الموضة

كانت الاوهام المجردة في الرياضيات بمثابة جاجز بين الواقع الفيزيائي وذلك النحو الذي يفهم به الرياضيون علم هذا الواقع انهم يشعرون شعوراً غامضاً بموضوعية الفيزياء انهم يريدون ان يكونوا قبل كل شيء موضوعيين حين يعكفون على الفيزياء وهم يحاولون ان يعتمدوا على الواقع ويحتفظوا بهذا السند ولكن العادات القديمة تتغلب . وحتى في مذهب الطاقة الذي اراد ان يبني العالم بصورة

امتن وبعدد اقل من الفرضيات مما تبنيه الفيزياء الميكانيكية القديمة ، – التي سعت الى استنساخ (décalquer) العالم الحسي لا الى بعثه ، – لا نزال نوابه نظريات الرياضيين لقد فعل الرياضيون كل شيء لأجل انقاذ موضوعية الفيزياء ، لأنه لا يمكن بدون الموضوعية ، – وهذا ما يفهمونه جيداً جداً ، – حتى الكلام عن الفيزياء ولكن تعقد نظرياتهم وسبلهم الملتوية تترك في النفس شعور الارتباك هذا مفرط في التصنع مفرط في التأنق والتأليف (édifié) والمختبر لا يجد هنا تلك الثقة العفوية التي يبعثها في نفسه التماس الدائم مع الواقع الفيزيائي هذا ما يقوله من حيث الجوهر جميع الفيزيائيين الذين هم فيزيائيون في المقام الاول ، – وهؤلاء كثيرون جداً ، – او هم فيزيائيون فقط هذا ما تقوله المدرسة الميكانيكية الجديدة كلها ان ازمة الفيزياء تكمن في استيلاء روح الرياضيات على الفيزياء فان تقدم الفيزياء من جهة وتقدم الرياضيات من جهة اخرى قد أدّيا في القرن التاسع عشر الى التقارب الوثيق بين هذين العلمين ان الفيزياء النظرية قد غدت فيزياء رياضية وآنذاك بدأت مرحلة الفيزياء الشكلية اي الفيزياء الرياضية التي صارت رياضية خالصة ، – اي الفيزياء الرياضية لا بوصفها فرعاً من الفيزياء بل فرعاً من الرياضيات وفي هذا الطور الجديد كان لا بدّ للرياضي الذي اعتاد على العناصر المفاهيمة (المنطقية الصرف) التي تشكل مادة عمله الوحيدة والذي يشعر بانه مقيّد بالعناصر الخشنة المادية التي وجدها على غير ما يكفي من الليونة ، – كان لابدّ له ان يبذل جهده لكي يتجرد من هذه العناصر اكثر ما يمكن ويتصورها لنفسه بصورة لامادية تماماً بصورة منطقية خالصة او حتى لكي يتجاهلها كلياً . ان العناصر ، بوصفها معطيات فعلية ، موضوعية ، اي

بوصفها عناصر **فيزيائية** قد زالت تماماً ولم يبق غير العلاقات الشكلية الممثلة بمعادلات تفاضلية واذا لم يتملك الخبل الرياضي بسبب هذا العمل البنّاء لعقله فانه سيستطيع ان يجد صلة الفيزياء النظرية بالتجربة ولكن الحاصل سيكون من النظرة الاولى وبالنسبة للانسان غير المتحيز واغلب الظن بنياناً اعتباطياً للنظرية التصور المفهوم الخالص يحلان محل العناصر الفعلية هكذا تُفَسَّر تاريخياً بحكم الشكل الرياضي الذي ارتدته الفيزياء النظرية وعكة (le malaise) ازمة الفيزياء وابتعادها الظاهري عن الوقائع الموضوعية» (ص ٢٢٨-٢٣٢)

ذلك هو السبب الاول للمثالية «الفيزيائية» ان الادعاءات الرجعية تنجم عن تقدم العلم نفسه ونجاح علم الطبيعيات الضخم ، اي الاقتراب من عناصر متجانسة وبسيطة من عناصر المادة تجيز قوانين حركتها المعالجة الرياضية ، يؤدي الى نسيان المادة من قبل الرياضيين «المادة تزول» وتبقى المعادلات فقط وفي المرحلة الجديدة من التطور تظهر بطريقة جديدة ، على ما يزعم الفكرة الكانطية القديمة القائلة ان العقل يملي القوانين على الطبيعة وان غرمن كوهن الذي ابتهج كما رأينا بروح الفيزياء الجديدة المثالي يتمادى الى حد انه يعظ بادخال الرياضيات العليا في المدرسة وذلك لأجل بث روح المثالية في تلامذة المدارس الذي يزيحه عهدنا المادي (Geschichte des Materialismus von A. Lange, 5. Auflage, 1896, Bd. II, S. XLIX*). يقيناً ان هذا حلم سخيف لرجعي ، ولا يوجد هنا ولا يمكن ان يوجد اي شيء عدا تولع عرضي بالمثالية من قبل جزء صغير من الاختصاصيين ولكن

* ١ لانغه «تاريخ المادية» ، الطبعة الخامسة ، عام ١٨٩٦ ، المجلد الثاني ، ص ٤٩ . **الناشر** .

من اقصى الدلالة ان نرى باية وسائل متفننة يحاول ممثلو البرجوازية المتعلمة شأنهم شأن الغارق الذي يتمسك بقشة ان يصونوا او يجدوا مكاناً صغيرا لأجل الايمانية التي يولدها في اعماق الجماهير الشعبية الجهل والضيم وما يلازم التناقضات الرأسمالية من وحشية سخيفة

وهناك سبب آخر ولّد المثالية «الفيزيائية» هو مبدأ **نسبية** معرفتنا المبدأ الذي يفرض نفسه بقوة خاصة على الفيزيائيين في مرحلة تحطيم النظريات القديمة تحطيماً شديداً والذي يؤدي لا محالة – **في حال جهل الديالكتيك** – الى المثالية

ان هذه المسألة ، مسألة العلاقة بين النسبية والديالكتيك تكاد تكون أهم نقطة في تفسير المصائب النظرية للماخية فان ري مثلاً شأنه شأن جميع الوضعيين الاوروبيين لا يلم بتاتاً بالديالكتيك الماركسي فهو يستعمل كلمة «الديالكتيك» بمعنى التأمل الفلسفي المثالي على وجه الحصر ولهذا يتخبط بعجز لشعوره بان الفيزياء الجديدة قد جُنّت بالنسبية ويحاول ان يميز بين النسبية المعتدلة والنسبية غير المعتدلة ويقيناً «ان النسبية غير المعتدلة تتاخم منطقياً ان لم يكن في الواقع العملي الريبية الحقيقية» (ص ٢١٥) ولكن هذه النسبية «غير المعتدلة» لا وجود لها لو ترون عند بوانكاره وما في الامر ؟ يمكن على طريقة الصيدلي وزن اكثر بقليل او اقل بقليل من النسبية فيصلح بالتالي امر الماخية

والواقع ان الطرح الوحيد الصحيح نظرياً لمسألة النسبية يعطيه الديالكتيك المادي لماركس وانجلس ولا بدّ لجهل هذا الديالكتيك ان يؤدي **لا محالة** من النسبية الى المثالية الفلسفية وان عدم فهم هذا العامل يكفي وحده مع ذلك لحرمان الكتيّب السخيف الذي وضعه السيد برمان عن «الديالكتيك في ضوء

النظرية المعاصرة عن المعرفة» من كل اهمية فان السيد برمان كرر اللغو القديم القديم عن الدياليكتيك الذي لم يفهمه اطلاقاً ولقد سبق ورأينا ان عدم الفهم هذا يتكشف عند **جميع** الماخيين **لدى كل خطوة** في نظرية المعرفة

ان جميع الحقائق القديمة في الفيزياء بما فيها الحقائق التي كانت تعتبر ثابتة ولا جدال فيها تظهر حقائـق نسبية ،- **وهذا يعني** انه لا يمكن ان تكون ثمة اية حقيقة موضوعية مستقلة عن الانسان هكذا تحاكم لا الماخية كلها وحسب بل ايضاً المثالية «الفيزيائية» كلها على العموم اما ان الحقيقة المطلقة تتكون من مجمل الحقائق النسبية في تطورها وان الحقائق النسبيـــة هي انعكاسات صادقة نسبياً للموضوع المستقل عن البشرية وان هذه الانعكاسات تصبح صادقة اكثر فاكثر وان لكل دقيقـــة علمية بالرغم من نسبيتها عنصر الحقيقة المطلقة فان جميع هذه الموضوعات البديهية بالنسبة لكل من امعن الفكر في مؤلف انجلس «ضد دوهرينغ» هي بمثابة السر المغلق بالنسبـــة لنظرية العرفان «المعاصرة»

ان المؤلفات من طراز كتاب **ب** دوهيم «نظرية الفيزياء» * او كتاب ستالّو «مفاهيم ونظريات الفيزياء المعاصرة» ** اللذين يوصي بهما ماخ بخاصة تبيّن بخارق الوضوح ان هذين المثاليين «الفيزيائيين» يضفيان القـــدر الاكبر من الاهميـــة بوجـــه الدقة على اثبات نسبية معارفنا **متذبذبين** من حيث الجوهر ،

---

* P. Duhem. «La théorie physique, son objet et sa structure», Paris, 1906 (ب دوهيم «نظريـــة الفيزياء موضوعها وبنيتها» باريس ١٩٠٦ **الناشر**)

** J. B. Stallo. «The Concepts and Theories of Modern Physics», Lond., 1882. وهناك ترجمة فرنسية والمانية .

بين المثاليـــة وبين الماديـــة الدياليكتيكيـــة والمؤلفان كلاهما اللذان ينتسبان الى عهدين مختلفين ويتناولان المسألة من وجهتي نظر مختلفتين (دوهيم - فيزيائي من حيث الاختصاص عمل ٢٠ سنة في هذا الميدان ستالو - هيغلي مخلص سابق يجخل من كتاب فلسفـــة الطبيعـــة الذي اصدره عام ١٨٤٨ بالروح الهيغلي القديم) يحاربان بأشد الحزم الفهم الذري-الميكانيكي للطبيعة وهما يبرهنان محدودية هذا الفهم واستحالة الاعتراف به حداً لمعارفنا وتحجر الكثير من المفاهيم عند الكتاب الذين يتمسكون بهذا الفهم وهذا النقص الذي تعانيه المادية **القديمة** اكيد ، لا ريب فيه وعلى عدم فهم نسبية النظريات العلمية كافة ، وعدم معرفة الدياليكتيك ، والمبالغة في وجهة النظر الميكانيكية ،- على كل هذا لام انجلس الماديين السابقين ولكن انجلس استطاع (خلافاً لستالو) ان يطرح المثالية الهيغليـــة جانباً **ويفهم** نواة الدياليكتيك الهيغلي العبقرية حقاً ولقد تخلى انجلس عن المادية القديمة الميتافيزيائية في صالح المادية **الدياليكتيكية** وليس في صالح النسبية التي تنزلق الى الذاتيـــة فان ستالو مثلاً يقول «ان النظرية الميكانيكيـــة تنسب مع جميع النظريات الميتافيزيائية وجوداً مادياً مستقلاً الى مجموعات خاصة مثالية ولربما اصطلاحية تماماً من الصفات او الى صفات مختلفة ويعتبرها بمثابة وجوه مختلفة من الواقع الموضوعي» (ص ١٥٠) هذا صحيح اذا كنتم لا تتبرأون من الاعتراف بالواقع الموضوعي واذا كنتم تحاربون الميتافيزياء بوصفها مناهضة للدياليكتيك ان ستالو لا يدرك هذا بوضوح وهو لم يفهم الدياليكتيك المادي ولهذا غالباً ما ينزلق عبر النسبية الى الذاتية والمثالية

والشيء نفسه عند دوهيم فببذل قدر هائل من الجهد ومع امثلة فائقة الطرافة والقيمة من تاريخ الفيزياء كالتي غالباً ما نجدها عند ماخ يبرهن دوهيم ان «اياً من قوانين الفيزياء هو موقت

ونسبي لأنـــه تقريبي» (ص ٢٨٠) هذا الرجل يقتحم بابـــاً مفتوحاً ! - هكذا يقول الماركسي في نفســـه حين يقرأ محاكمات طويلة في هذا الموضوع ولكن مصيبة دوهيـــم وستالو وماخ وبوانكاره تتلخص بالذات في كونهم لا يرون الباب الذي فتحته المادية الدياليكتيكية وبما انهم لا يعرفون كيف يعطون النسبية صيغة صحيحة فانهم ينزلقون منها الى المثالية وقد كتـــب دوهيم يقول «ان قانون الفيزياء ، والحق يقال ، ليس صحيحاً ولا كاذباً بل تقريبي» (ص ٢٧٤) ان كلمـــة «بل» هذه هـــي بداية الزيف بداية محو الحدود بين نظريـــة العلم التي **تعكس الموضوع** بصورة تقريبية اي التي تقترب من الحقيقة الموضوعية وبين النظريـــة الاعتباطيـــة الخياليـــة الاصطلاحيـــة الصرف مثلاً نظرية الدين او نظرية لعبة الشطرنج

ان هذا الزيف يبلغ عند دوهيم حد اعلان مسألة ما اذا كان «الواقع المادي» يناســـب الظاهرات الحسيـــة **ميتافيزيائياً** (ص ١٠) لتسقط مسألة الواقعية ان مفاهيمنا وفرضياتنا هي مجرد رموز (signes, p. 26) انشاءات «اعتباطية» (٢٧) ومـــا الى ذلك ومن هنا خطوة واحدة الى المثالية الى «فيزياء المؤمن» التي يعظ بها السيد بيوتر دوهيم بروح الكانطيـــة (عند ري ص ١٢٦ قارنوا ص ١٦٠) امـــا الطيب الساذج آدلـــر (فريتس) - وهو ايضاً ماخي يرغب في ان يكون ماركسياً ! - فلم يجد شيئاً اذكى من «اصلاح» دوهيم على النحو التالي انه ينحّي «الوقائع المخفية وراء الظاهرات وذلك بوصفها مواضيع النظرية وحسب وليس بوصفها **مواضيع الواقع**» * هذا نقد للكانطية من وجهة نظر هيوم وبركلي نقد سبق وعرفناه

---

* «ملاحظـــة المترجم» للترجمـــة الالمانية لكتاب دوهيم ، Lpz., 1908, J. Barth.

ولكنه لا يمكن حتى ان يدور الحديث عن اي كانطية واعية عند دوهيم فهو يتأرجح وحسب مثل ماخ غير عارف على ما يسند نسبيته وفي جملة كاملة من الاماكن يقترب عن كثب من المادية الدياليكتيكية نحن نعرف الصوت «كما هو موجود حيالنا ولكن ليس كما هو في حد ذاته في الاجسام التي تولّد الصوت وهذا الواقع الذي لا تكشف منه احساساتنا غير الخارجي والسطحي توفر لنا امكانية معرفته نظريات علم الصوتيات وهي تبين لنا انه حيث لا تتلقف مدركاتنا غير ذلك الظاهري الذي نسميه بالصوت توجد بالفعل حركة دورية صغيرة جداً سريعة جداً» والخ (ص ٧) ليست الاجسام رموز الاحساسات بل الاحساسات هي رموز (والاصح – صور) الاجسام «ان تطور الفيزياء يستتبع نضالاً دائماً بين الطبيعة التي لا تكل عن اعطاء المادة وبين العقل الذي لا يكل عن المعرفة» (ص ٣٢) – الطبيعة لامتناهية كما ان اصغر دقيقة منها (بما في ذلك الالكترون) لامتناهية ولكن العقل يحول «الاشياء في ذاتها» بصورة لا متناهية ايضاً الى «اشياء من اجلنا» «ان النضال بين الواقع وقوانين الفيزياء سيدوم الى ما لا نهاية له وكل قانون تصوغه الفيزياء يقابله الواقع عاجلاً ام آجلاً بدحض فظ – بالدحض بواسطة الواقع ولكن الفيزياء ستنقح بلا كلل وتغير وتعقّد القانون المدحوض» (ص ٢٩٠) ولو ان المؤلف تمسك بصلابة بالوجود المستقل عن البشرية لهذا الواقع الموضوعي لكان ذلك عرضاً صحيحاً تماماً للمادية الدياليكتيكية

ان نظرية الفيزياء ليست نظاماً مصطنعاً تماماً نظاماً ملائماً اليوم وغير نافع غداً انما هي تصنيف طبيعي اكثر فاكثر انعكاس اوضح فأوضح لتلك الوقائع التي لا يمكن للطريقة الاختبارية ان تتأملها مباشرة «(حرفياً وجهاً لوجه : face à face, p. 445)

وبالجملة الاخيرة يغازل الماخي دوهيم المثالية الكانطية فكأنما ينكشف درب امام طريقة اخرى غير الطريقة «الاختبارية» كأنما نحن لا نعرف «الاشياء في ذاتها» رأساً مباشرة وجهاً لوجه ولكن اذا كانت نظرية الفيزياء تصبح طبيعية اكثر فاكثر فان هذا يعني انه توجد بصورة مستقلة عن ادراكنا «طبيعة» واقع «تعكسه» هذه النظرية ،– وهكذا هي بالضبط نظرة المادية الدياليكتيكية

خلاصة القول ان المثالية «الفيزيائية» اليوم شأنها تماماً شأن المثالية «الفيزيولوجية» في الامس تعني فقط ان مدرسة من مدارس علماء الطبيعيات في فرع واحد من فروع العلوم الطبيعية قد انزلقت الى الفلسفة الرجعية اذلم تستطع ان تنهض رأساً ودفعة واحدة من المادية الميتافيزيائية الى المادية الدياليكتيكية * ان هذه الخطوة تخطوها وستخطوها الفيزياء

---

* يقول الكيماوي الشهير وليام رمسي «غالباً ما سألوني اوليست الكهرباء اهتزازاً ؟ وكيف يمكن تفسير التلغراف اللاسلكي بتحرك دقائق صغيرة او جسيمات صغيرة ؟ الجواب عن هذا يتلخص فيما يلي : الكهرباء هي **شيء** ؛ **وهي** (حرف التاكيد لرمسي) هذه الجسيمات الصغيرة ، ولكن حين تتطاير هذه الجسيمات من موضوع ما تنتشر في الاثير موجة تشبه الموجة الضوئية ، وهذه الموجة يستفاد منها لأجل التلغراف اللاسلكي» (William Ramsay. «Essays Biographical and Chemical», Lond., 1908, p. 126) (وليام رمسي «نبذات بيوغرافية وكيماوية» لندن عام ١٩٠٨ ، ص ١٢٦ **الناشر**) وبعد ان يتحدث رمسي عن تحول الراديوم الى هيليوم ، يلاحظ قائلاً «على الاقل ، لم يعد من الممكن الآن اعتبار ما يسمى بالعنصر الواحد المادة الاخيرة فهو نفسه يتحول الى شكل ابسط للمادة» (ص ١٦٠) «لا ريب تقريباً ان الكهرباء السالبة هي شكل خاص للمادة ؛ في حين ان الكهرباء الموجبة هي مادة محرومة من الكهرباء السالبة اي هي مادة خالية من هذه المادة الكهربائية»

المعاصرة ولكن هذه الفيزياء تمضي نحو الطريقة الصحيحة الوحيدة ونحو الفلسفة الصحيحة الوحيدة للعلوم الطبيعية لا بطريق مستقيم بل بتعرجات لا بصورة واعية بل بصورة عفوية دون ان ترى بوضوح «هدفها النهائي» بل مقتربة منه تلمّساً مترنحة وحتى بالمقلوب احياناً ان الفيزياء المعاصرة هي في حالة الوضع وهي تضع المادية الدياليكتيكية والوضع مؤلم وعدا الكائن الحي والقادر على الحياة يعطي الوضع بلا مناص بعض المنتوجات الميتة بعض النفايات التي يتعين ارسالها الى المزبلة وفي عداد هذه النفايات كل المثالية الفيزيائية كل الفلسفة النقدية التجريبية مع الرمزية التجريبية والاحادية التجريبية وما شاكلهما

(ص ١٧٦) «ما هي الكهرباء ؟ من قبل كانوا يعتقدون انه يوجد نوعان من الكهرباء الموجبة والسالبة ففي ذلك الوقت لم يكن من الممكن الجواب عن السؤال المطروح ولكن البحوث الحديثة تجعل من المحتمل ان يكون ما اعتادوا على تسميته بالكهرباء السالبة جوهراً بالفعل (really) وبالفعل تم قياس الوزن النسبي لدقيقته وهذه الدقيقة توازي تقريباً جزءاً من ٧٠٠ جزء من كتلة ذرة الهيدروجين ان ذرات الكهرباء تسمى بالالكترونات» (ص ١٩٦) ولو كان بوسع اصحابنا الماخيين الذين يكتبون الكتب والمقالات في مواضيع فلسفية ان يفكروا ، لفهموا ان تعبير «المادة تزول» او تعبير «المادة تنحصر في الكهرباء» او ما الى ذلك ، ليس غير تعبير عاجز على الصعيد العرفاني عن تلك الحقيقة القائلة انه من الممكن اكتشاف اشكال جديدة للمادة ، اشكال جديدة للحركة المادية ، وحصر الاشكال القديمة في هذه الاشكال الجديدة ، والخ ..

الفصل السادس

المذهب النقدي التجريبي
والمادية التاريخية

ينقسم الماخيون الروس كما سبق ورأينا الى معسكرين المعسكر الاول السيد تشيرنوف ومعاونو «روسكويه بوغاتستفو» (٨٦) وهم اخصام كاملون ومنسجمون للمادية الدياليكتيكيـــة في الفلسفة والتاريخ على السواء وزمرة الماخيين الاخرى ،– وهي اكثر ما يهمنا هنا ،– ترغب في ان تكون من الماركسيين وتحاول بشتى الوسائـــل ان تؤكد للقراء بان الماخية تتفـــق مع ماديـــة ماركس وانجلس التاريخية صحيـــح ان هذه التأكيدات تبقى في معظم الاحيان مجرد تأكيدات فما من ماخي يرغب في ان يكون ماركسياً قام بأقل محاولة لكي يعرض بصورة نظامية نوعاً الميول الفعلية لمؤسسي المذهب النقدي التجريبي في ميدان العلوم الاجتماعية وسنتناول بايجاز هذه المسألـــة ونأخذ في البدء بيانـــات النقاد التجريبيين الالمان المتوفرة في المطبوعات ثم بيانات تلامذتهم الروس

١ ـ جولات النقاد التجريبيين الالمان
في ميدان العلوم الاجتماعية

في سنة ١٨٩٥ عندما كان ر افيناريوس لا يزال على قيد الحياة ، ظهرت في المجلة الفلسفية التي كان يصدرها مقالـــة

تلميذه ف بلي «الميتافيزياء في الاقتصاد السياسي» * ان جميع معلمي المذهب النقدي التجريبي يحاربون ضد الميتافيزياء لا في المادية الفلسفية السافرة الواعية وحسب بل ايضاً في العلوم الطبيعية التي تتبنى بصورة عفوية وجهة نظر النظرية المادية عن المعرفة ويشن التلميذ الحرب ضد الميتافيزياء في الاقتصاد السياسي وهذه الحرب موجهة ضد شتى المدارس في الاقتصاد السياسي ولكن ما يهمنا بوجه الحصر هو طابع الحجج النقدية التجريبية ضد مدرسة ماركس وانجلس

كتب ف بلي يقول «هدف هذا البحث ان يبين ان كل الاقتصاد السياسي المعاصر يستخدم مقدمات ميتافيزيائية لدن تفسير ظاهرات الحياة الاقتصادية فهو «يستنتج» «قوانين» الاقتصاد من «طبيعته» ولا يظهر الانسان الا كشيء عرضي حيال هذه «القوانين» ان الاقتصاد السياسي يقف بكل نظرياته المعاصرة في التربة الميتافيزيائية وجميع نظرياته لابيولوجية وبالتالي لاعلمية ولا قيمة لها لأجل المعرفة ان النظريين لا يعرفون على ما يبنون نظرياتهم ولا يعرفون في اي تربة نشأت هذه النظريات وهم يتصورون انهم واقعيون لا يستخدمون اية مقدمات لأنهم يهتمون حسب زعمهم بظاهرات اقتصادية «بسيطة» (nüchterne) «عملية» «جلية للعيان» (sinnfällige) وجميعهم يجمعهم مع كثير من الاتجاهات في الفيزيولوجيا ذلك الشبه بين الاقارب الذى لا ينتقل الى الاولاد –

---

* «Vierteljahrsschrift für wissenschaftliche Philosophie», 1895, Bd. XIX. F. Blei. «Die Metaphysik in der Nationalökonomie», SS. 378–390

(«المجلة الفصلية في الفلسفة العلمية» عام ١٨٩٥ المجلد ١٩ ف بلي «الميتافيزياء في الاقتصاد السياسي» ، ص ٣٧٨–٣٩٠ . **الناشر**) .

وفي حالتنا الفيزيولوجيين والاقتصاديين – الا من جراء ولادتهم من نفس الاب والام اي بالضبط الميتافيزياء والتأمل فان مدرسة من مدارس الاقتصاديين تحلـــل «ظاهرات» «الاقتصاد» (يأخذ افيناريوس ومدرسته بين هلالين صغيرين كلمات عادية رغبة في تبيان انهم ،وهم فلاسفة حقيقيون على حد زعمهم يفهمون كل «ميتافيزيائية» مثل هذا الاستعمال المبتذل للكلمات غيـر المطهر «بالتحليـــل العرفاني») دون ان تربط بين ما تجده (das Gefundene) في هذا السبيل وبين سلوك الافراد فان الفيزيولوجيين يستبعدون سلوك الفرد بوصفـــه «فعل الروح» (Wirkungen der Seele) من بحوثهم ، والاقتصاديون من هذا الاتجاه يعلنون ان سلوك الافراد لا يتسم باي اهمية (eine Negligible) بالنسبـــة «لقوانين الاقتصـــاد الكمونيـــة» (ص ٣٧٨–٣٧٩) وعند ماركس لاحظت النظرية بين العمليات المبنيـة «القوانين الاقتصادية» علماً بان «القوانين» وردت في القســم الاولي (Initialabschnitt) من الصف الحيوي التابع بينما وردت العمليات الاقتصادية في القسم النهائي (Finalabschnitt)

وتحول «الاقتصاد» عند الاقتصاديين الى مقولة متعالية اكتشفوا فيها «قوانين» ارادوا ان يكتشفوهـــا «قوانين» «الرأسمال» و«العمل» و«الريع» و«الاجرة» و«الربح» وتحول الانسان عند الاقتصاديين الى مفهوم افلاطوني عن «الرأسمالي» و«العامل» والخ ونسبت الاشتراكية الى «الرأسمالي» خاصة «التحرق الى الربح» ونسبت الليبيرالية الى العامل خاصة «التطلب» ، وكلا القانونين جرى تفسيره في هذه الحال «بالفعل الطبيعي للرأسمال» (ص ٣٨١–٣٨٢)

«لقد باشر ماركس دراسة الاشتراكية الفرنسية والاقتصاد السياسي انطلاقاً من العقيدة الاشتراكية وكان هدفه العرفاني اعطاء هذه العقيدة «تعليلاً نظرياً» لأجل «تأمين» قيمتها الانطلاقية .

ولقد وجد ماركس عند ريكاردو قانون القيمـــة ولكن استنتاجات الاشتراكيين الفرنسيين من ريكاردو لم يكن بوسعها ان ترضي ماركس لأجل «تأمين» قيمتها الانطلاقية الموضوعة في حالة التنوع الحياتي اي في حالة «عقيدة» ، لأن هذه الاستنتاجات قد دخلت كقسم مكّون في مضمون قيمتها الاوليـــة بصورة «الاستيلاء من سرقة العمال» والخ وقد نبذت الاستنتاجـــات بوصفها «غير صحيحة شكلاً من الناحية الاقتصادية» لأنها مجرد «تطبيق للاخلاق على الاقتصاد السياسي» «ولكن ما هو غيـــر صحيح بالمعنى الاقتصادي الشكلي قد يكون صحيحاً بالمعنى التاريخي العالمي واذا كان وعي الجماهير الاخلاقي يعلن واقعاً اقتصادياً معيناً غير عادل ، فان هذا برهان على ان هذا الواقع نفسه قد ولى عهده ، وانه ظهرت وقائع اقتصادية اخرى اصبح هذا الواقع بحكمها واقعاً لا يطاق ولا يمكن ابقاؤه ووراء الخطأ الاقتصادي الشكلي يمكن بالتالي ان يكمن المضمـــون الاقتصادي الحقيقي» (انجلس في مقدمته لكتاب ماركس «بؤس الفلسفة»)

ويواصل ف بلي مستشهداً بمقتبس من انجلس «في هذا المقتبس سُحِب (abgehoben – وهذا تعبيـــر تكنيكي عند افيناريوس يعني وصـــل الى الوعي تميّز) القسم الاوسط (Medialabschnitt) من الصف التابع الذي يهمنا هنـــا بعد «معرفة» انه لا بّد ان يكون «الواقـــع الاقتصادي» كامناً وراء «الوعي الاخلاقي للخطـــأ» يحـــل القســـم النهائي (Finalabschnitt ان نظرية ماركس هي رأي اي قيمة انطلاقية اي تنوع حياتي يمر بثلاثة اطوار ثلاثـــة اقسام البدايـــة الوسط النهاية (Initialabschnitt, Medialabschnitt, Finalabschnitt

«اي «معرفة» هذا «الواقـــع الاقتصادي» او بتعبيـــر آخر : تتلخص المهمة الآن في «ان نجد من جديد» «القيمة الاولية» اي

«العقيدة» في «الوقائع الاقتصادية» لأجل «تأمين» هذه القيمة الاولية هذا الشكل المعين من الصف التابع يتضمن ميتافيزياء ماركس ولا فرق مهما برز «المعروف» في القسم النهائي (Finalabschnitt) ان «العقيدة الاشتراكية» بوصفها قيمة انطلاقية مستقلة و«حقيقة مطلقة» ، تُعَلّل «بعد فوات الاوان» بواسطة نظرية «خاصة» للمعرفة اي بالضبط بواسطة نظام ماركس الاقتصادي ونظرية التاريخ المادية بواسطة مفهوم القيمة الزائدة يجد «الحقيقي» «ذاتياً» في العقيدة الماركسية «حقيقته الموضوعية» في نظرية معرفة «المقولات الاقتصادية» ، — تأمين القيمة الاولية تحقق الميتافيزياء تلقت بعد وقوع الامر انتقاد المعرفة» (ص ٣٨٤-٣٨٦)

اغلب الظن ان القارئ يغضب علينا لأننا نورد بمثل هذا التطويل هذا الهذر الذي بلغ حداً لا يصدق من السخف والابتذال هذه البهلوانية العلمية المزيفة في لباس تعابير افيناريوس ولكن wer den *Feind* will verstehen, muß im Feindes Lande gehen — من يرغب في معرفة **العدو** يتعين عليه ان يزور البلاد **المعادية** (٨٧) والواقع ان مجلة ر افيناريوس الفلسفية هي بلاد معادية حقيقية بالنسبة للماركسيين ونحن ندعو القراء الى التغلب لحظة على النفور المشروع من بهاليل العلم البرجوازي وتحليل حجج تلميذ افيناريوس ومعاونه

الحجة الاولى ماركس هو «ميتافيزيائي» لم يفهم «نقد المفاهيم» العرفاني ولم يضع نظرية العرفان العامة ودسّ المادية رأساً في «نظريته الخاصة عن العرفان»

ليس في هذه الحجة شيء يخص بلي شخصياً وبلي وحده فلقد رأينا عشرات المرات ومئات المرات كيف يتهم **جميع** مؤسسي المذهب النقدي التجريبي **وجميع** الماخيين الروس المادية

«بالميتافيزياء» اي – والاصح القول – كيف يكررون حجج الكانطيين والهيوميين والمثاليين البالية ضد «الميتافيزياء» المادية

الحجة الثانية الماركسية ميتافيزيائية مثل علم الطبيعيات (الفيزيولوجيا) و«ذنب» هذه الحجة لا يتحمله بلي بل يتحمله ماخ وافيناريوس لأنهما اعلنا الحرب على «الميتافيزياء الطبيعية التاريخية» مطلقين هذا الاسم على النظرية المادية-العفوية عن المعرفة التي تتمسك بها (باعترافهما بالذات وبرأي جميع الذين يعرفون المسألة نوعاً) الاغلبية الساحقة من علماء الطبيعيات

الحجة الثالثة اعلان «الفرد» من قبل الماركسية مقداراً لا شأن له quantité négligeable اعتبار الانسان «صدفة» اخضاعه «لقوانين اقتصاديــة كمونيــة» ما غياب تحليــل des Gefundenen – ما نجده ما هو معطى لنا والخ . . – هذه الحجة تكرر **كلياً** مجموعة افكار «التنسيق المبدئي» النقدي التجريبي اي الشعوذة **المثالية** في نظرية افيناريوس ان بلي محق تماماً في قوله انــه لا يمكن ان نجد عند ماركس وانجلس وان ظلاً لتلميح الى التسليم بمثل هذا الهراء المثالي وانه يتأتى حتماً من وجهــة نظر هذا الهراء نبذ الماركسية **كلياً** منذ بادىء بدء من مقدماتها الفلسفية الاساسية بالذات

الحجة الرابعة نظرية ماركس «لابيولوجية» وهي لا تعرف ولا تريد ان تعرف اية «تنوعات حياتية» وما ماثل من التلاعــب بالتعابير البيولوجيــة الذي يشكــل «علم» البروفسور الرجعي افيناريوس ان حجة بلي صحيحة من وجهة نظر الماخية لأن الهوة بين نظرية ماركس وترهات افيناريوس «البيولوجية» تفقأ العين بالفعل من النظرة الاولى وسنرى الآن كيف حذا في واقع الامر الماخيون الروس حذو بلي رغبة منهم في ان يكونوا ماركسيين

الحجة الخامسة : حزبية نظرية ماركس ، تحيّزها ، تحامل

قراره ان المذهب النقدي التجريبي **كله** وليس البتة بلي وحده يدّعي باللاحزبية في الفلسفة وفي العلم الاجتماعي على السواء لا اشتراكية ولا ليبيرالية لا الفصل بين الاتجاهين الجذريين وغير القابلين للتوفيق بينهما في الفلسفة المادية والمثالية بل السعي الى الارتفاع **فوقهما** ولقد تتبعنا ميل الماخية هذا في جملة طويلة من مسائل علم العرفان ولا يحق لنا ان ندهش اذا وجدناه في علم الاجتماع

«الحجة» السادسة السخر من الحقيقة «الموضوعية» ان بلي قد شعر في الحال وشعر بصورة صحيحة تماماً بان المادية التاريخية ومذهب ماركس الاقتصادي كله مفعمان تماماً بالاعتراف بالحقيقة الموضوعية ولقد اعرب بلي بصورة صحيحة عن ميل مذهب ماخ وافيناريوس عندما نبذ الماركسية «من العتبة» كما يقال وذلك بالضبط بسبب فكرة الحقيقة الموضوعية عندما اعلن في الحال ان لا شيء عدا نظرات ماركس «الذاتية» لا يكمن بالفعل وراء مذهب ماركس

واذا ما تبرأ اصحابنا الماخيون من بلي (وسيتبرأون منه على الارجح) فاننا سنقول لهم لا تلم المرآة اذا والخ فان بلي هو مرآة تعكس **بصدق وامانة** ميول المذهب النقدي التجريبي في حين ان تبرؤ ماخيينا يشهد فقط على نواياهم الطيبة وعلى سعيهم الاختياري السخيف للجمع بين ماركس وافيناريوس

لننتقل من بلي الى بتسولدت اذا كان الاول تلميذاً بسيطاً فان الثاني يعلنه نقاد تجريبيون مثل ليسيفيتش معلماً واذا كان بلي قد طرح مسألة الماركسية مباشرة فان بتسولدت ، – الذي لا يتنازل الى حد ان يحسب حساباً لشخص ما اسمه ماركس او انجلس ، – يعرض بشكل ايجابي نظرات

المذهب النقدي التجريبي في علم الاجتماع الامر الذي يتيح اجراء مقارنة بينها وبين الماركسية

المجلد الثاني من مؤلف بتسولدت «مقدمة الى فلسفة التجربة الخالصة» يحمل العنوان التالي «في الطريق الى الاستقرار» («Auf dem Wege zum Dauernden») ويضع المؤلف الميل الى الاستقرار في اساس بحثه . «ان الحالة النهائية (endgültig) ، المستقرة للبشرية يمكن كشفها من الناحية الشكلية بخطوطها الكبرى وهكذا نكتسب اسساً لأجل علم الاخلاق وعلم الجمال والنظرية الشكلية للمعرفة» (ص III) «ان التطور البشري ينطوي على هدفه» ، وهو يسير نحو «الحالة المستقرة الكاملة (vollkommenen)» (ص ٦٠) وعلائم ذلك عديدة ومتنوعة مثلاً هل هم كثيرون اولئك الراديكاليون المتعصبون الذين قد لا «يعقلون» ولا يهدأون على ابواب الشيخوخة ؟ صحيح ان هذا «الاستقرار السابق للاوان» (ص ٦٢) هو خاصة التافه الضيق الافق ولكن ألا يشكل التافهون الضيقو الافق «اغلبية متراصّة» ؟ (ص ٦٢)

اليكم استنتاج فيلسوفنا المطبوع باحرف مائلة «ان العلامة الجوهرية ولا اكثر لجميع اهداف تفكيرنا وابداعنا هي الاستقرار» (ص ٧٢) التوضيح كثيرون «لا يستطيعون ان يروا» اللوحة معلقة على الجدار باعوجاج او المفتاح موضوعاً على الطاولة باعوجاج وهؤلاء الناس «ليسوا البتة بالضرورة متحذلقين» (ص ٧٢) وهم يتحلون «**بالشعور بانه يوجد تشوش ما**» (ص ٧٢ حرف التأكيد لبتسولدت) خلاصة القول ان «الميل الى الاستقرار هو السعي الى الحالة النهائية الاخيرة بحكم طبيعتها» (ص ٧٣) وكل هذا وارد في الفصل الخامس من المجلد الثاني وعنوان هذا الفصل «الميل النفسي الى الاستقرار» براهين هذا الميل جميعها دامغة ولا اكثر . مثلاً : «ان الذين يحبون

تسلق الجبال يسعون الى الاخير الى الاعلى بالمعنى الاولي المكاني وما يدفعهم الى هذا ليس دائماً مجرد السعي الى رؤية البعيد والى التمرين البدني السعي الى الهواء النقي والطبيعة العظيمة بل كذلك السعي الكامن عميقاً في كل كائن عضوي الى ان يكون مثابراً في الاتجاه المتخذ مرة للنشاط حتى بلوغ الهدف الطبيعي ضمناً» (ص ٧٣) واليكم مثلاً آخر كم وكم من النقود يدفع الناس لكي يجمعوا مجموعة كاملة من الطوابع البريدية «قد يدوخ رأسك ما ان ترى تسعير تاجر الطوابع البريدية ومع ذلك لا يمكن ان يكون ثمة شيء طبيعياً ومفهوماً اكثر من هذا السعي الى الاستقرار» (ص ٧٤)

ان الناس غير الملمين بالفلسفة لا يدركون كل سعة مبادىء استقرار او توفير التفكير وعلى هؤلاء يعرض بتسولدت «نظريته» بالتفصيل «الشفقة هي تعبير عن حاجة طبيعية الى حالة مستقرة» ذلك هو مضمون الفقرة ٢٨ «الشفقة ليست تكراراً مضاعفة للألم المنظور بل ألم لمناسبة هذا الألم يجب دفع طبيعية الشفقة الى الامام باشد العزيمة واذا اعترفنا بها فاننا نعترف بالتالي ان خير الآخرين يمكن ان يهم الانسان بصورة طبيعية وفي المقام الاول كما يهمه خيره بالذات وهكذا ننبذ بالتالي كل تعليل بالنفعية والسعادة لمذهب الاخلاقية ان الطبيعة البشرية بفضل سعيها الى الاستقرار والهدوء على وجه الدقة ليست في اساسها شراً بل هي مفعمة بالاستعداد لتقديم العون

وغالباً ما تتكشف طبيعية الشفقة في طبيعية المساعدة فلأجل انقاذ الغير لا يندر ان يندفع المرء بدون تفكير الى مساعدة الغريق فان رؤية انسان يكافح الموت لا تطاق وتحمل المندفع الى تقديم المساعدة على نسيان واجباته الاخرى وحتى على المجازفة بوجوده ووجود اقربائه بغية انقاذ الحياة العقيمة لسكير

ما فاسد اي ان بوسع الشفقة في احوال معينة ان تدفع الى اعمال غير جديرة بالتبرير من وجهة النظر الاخلاقية»

وبمثل هذه التفاهات التي لا توصف مليئة عشرات ومئات الصفحات من فلسفة النقد التجريبي

فان الاخلاق تُستَخلص من مفهوم «الحالة المستقرة الاخلاقية» (القسم الثاني من المجلد الثاني «حالات الروح المستقرة» الفصل الاول «بصدد الحالة المستقرة الاخلاقية») «ان الحالة المستقرة لا تتضمن من حيث مفهومها في اي من عناصرها اية شروط للتغير ومن هنا ينجم بدون اية محاكمات لاحقة ان هذه الحالة لا تترك اية امكانية لأجل **الحرب**» (ص ٢٠٢) «ان المساواة الاقتصادية والاجتماعية تنبع من مفهوم الحالة المستقرة النهائية (endgültig) » (ص ٢١٣) وليس من الدين تنبع هذه «الحالة المستقرة» ، بل من «العلم» وليست «الاغلبية» هي التي تحققها كما يظن الاشتراكيون وليست سلطة الاشتراكيين هي التي «ستساعد البشرية» (ص ٢٠٧) — كلا فان «التطور الحر» سوف يقود الى المثال الاعلى ألا ينخفض بالفعل يا ترى ربح الرأسمال ألا تزداد الاجرة على الدوام ؟ (ص ٢٢٣) وجميع هذه الاقوال بصدد «العبودية المأجورة» غير صحيحة (ص ٢٢٩) كانوا يكسرون ارجل العبيد دون اي عقاب اما الآن ؟ كلا ان «التقدم الاخلاقي» امر لا ريب فيه انظروا الى المقامات الجامعية في انجلترا الى جيش الخلاص (ص ٢٣٠) الى «الجمعيات الاخلاقية» الالمانية وباسم «الحالة المستقرة الجمالية» (الفصل الثاني من القسم الثاني) تُنبَذ «الرومانطيقية» والحال تُنسَب الى الرومانطيقية جميع وجوه توسيع **الأنا** الى ما لا حد له والمثالية والميتافيزياء والسحر والتنجيم والسوليبسيسم والانانية ، و«فرض ارادة الاغلبية على الاقلية بالعنف» ، و«المثال

الاعلى الاشتراكي-الديموقراطي لتنظيم العمل كله من قبل الدولة» (ص ٢٤٠-٢٤١) *

البلادة اللامتناهية للتافه الضيق الافق الذي ينشر بخيلاء النفايات المبتذلة للغاية تحت ستار التصنيف والمصطلحات «الجديدة»، «النقدية التجريبية» الى هذا تؤول جولات بلي وبتسولدت وماخ في ميدان علم الاجتماع الحلة الدعية المتحذلقة من الشعوذات الكلامية حيل القياس المصطنعة والمدرسيـــة المتفننـــة وبكلمة – الشيء نفسه في علم العرفان وعلم الاجتماع على السواء المضمون الرجعي نفسه وراء اللافتة الصياحة نفسها

لنر الآن الى الماخيين الروس

٢ ـ كيف يصلح بوغدانوف ماركس و«يطور»ه

يورد بوغدانوف في مقالته «تطور الحياة في الطبيعـــة وفي المجتمع» (عام ١٩٠٢ انظروا «بسيكولوجيا المجتمع» ص ٣٥ وما يليها) مقطعاً مشهوراً من مقدمـــة «Zur Kritik» (٨٨) الذي يعرض فيه «العالم الاجتماعي الاعظم» ، اي ماركس اسس المادية التاريخية وبعد ان يورد بوغدانوف كلمات ماركس يعلن ان «الصياغة القديمة للاحادية التاريخية لم تعد ترضينا تماماً مع انها لا تزال صحيحة في اساسها» (ص ٣٧) ان المؤلف يريد بالتالي

---

* وبالروح نفسه يعرب ماخ عن تأييده لاشتراكية بوبر ومنغر البيروقراطية التي تؤمن «حرية الفرد» في حين ان مذهب الاشتراكيين-الديموقراطيين الذي «هو اسوأ» من هذه الاشتراكية يهدد «بعبوديـــة أعم واشق مما في ظل الدولة الملكيـــة او في ظل الدولة الاوليغاركية» انظروا «Erkenntnis und Irrtum», 2. Auflage, 1906, SS. 80–81 («المعرفـــة والضلال» ، الطبعة الثانية ، عام ١٩٠٦ ، ص ٨٠–٨١ . **الناشر**) .

ان يعدل او يطور النظرية ، **انطلاقاً من اسسها بالذات** واستنتاج المؤلف الرئيسي هو التالي

«لقد بيّنّا ان الاشكال الاجتماعيــة تعود الى **نوع** واسع هو نوع التكييفات البيولوجية ولكننا بذلــك لم نحدد بعد ميدان الاشكال الاجتماعية فلأجل التحديد يجب ان نثبـت لا **النوع** وحسب بل **الجنس** ايضاً ان الناس لا يستطيعون في نضالهم من اجل الوجود ان يتحدوا الا بمساعدة **الوعي** فلا معاشرة بدون وعي ولهذا **فان الحياة الاجتماعية في جميع مظاهرها هي نفسية عن وعي** ان الطابع الاجتماعي لا ينفصل عن الوعي **ان الوجود الاجتماعي والوعي الاجتماعي ، بمعنى هاتين الكلمتين الدقيـق متماثلان**» (ص ٥٠ ٥١ حرف التأكيد لبوغدانوف)

اما ان هذا الاستنتاج لا يجمعه اي جامع بالماركسية فقد سبق وأثبت اورثودوكس ذلك («نبذات فلسفية» سانــت بطرسبورغ عام ١٩٠٦ ص ١٨٣ وما قبلها) ولكن بوغدانوف رد عليه بالشتائم فقط مماحكاً بشأن **خطأ** في المقتبس فعوضاً عن «بمعنى هاتين الكلمتين الدقيق» اورد اورثودوكس «بالمعنى الكامل» الخطأ بيّن وكان للمؤلف كل الحق في اصلاحه ولكن الزعيق في هذا الصدد «بالتشويه» و«التبديل» وما الى ذلــك («الاحادية التجريبية» الكتاب الثالث ص XLIV) – يعني **طمس** جوهر الخلاف بمجرد كلمات حقيرة وايا كان المعنى «الدقيق» الذي يختلقه بوغدانوف لتعبيري «الوجود الاجتماعي» و«الوعــي الاجتماعــي» ، يظل مما لا ريب فيه ان موضوعته التي سقناها **غير صحيحة** فان الوجود الاجتماعي والوعي الاجتماعــي ليســا متماثلين ،– تماماً كمــا ان الوجود عــلى العموم والوعــي على العموم ليســا متماثلين ومــن كون الناس اذ يدخلون في التعاشر ، يدخلـون فيــه ككائنات واعيــة ، **لا ينجم** في

اي حال من الاحوال ان الوعي الاجتماعي مماثل للوجود الاجتماعي فان الناس في جميع التشكيلات الاجتماعية المعقدة نوعاً ، – وخاصة في التشكيلة الاجتماعية الرأسمالية – اذ يدخلون في التعاشر **لا يعون** ما يلي اية علاقات اجتماعيـــة تتكّون في هذه الحال وبموجب اية قوانين تتطور والـــخ مثلاً ان الفلاح اذ يبيع الحبوب يدخل في «تعاشر» مع منتجي الحبوب العالميين في السوق العالمية ، ولكنه لا يعي ذلك ، ولا يعي العلاقات الاجتماعية التي تتكون من جراء التبادل ان الوعي الاجتماعي **يعكس** الوجود الاجتماعي – في هذا يتلخص مذهب ماركس وقد يكون الانعكاس نسخة صادقة تقريبياً للمعكوس ولكنه من السخافـــة القول بالتماثل هنا ان الوعي **يعكس** على العموم الوجود وهذه هي الموضوعة العامة للمادية **كلها** ومن المستحيل عدم رؤية العلاقة المباشرة **والتي لا تنفصل عراها** بين هذه الموضوعة وبين موضوعة المادية التاريخية القائلـــة ان الوعي الاجتماعي **يعكس** الوجود الاجتماعي

ان محاولة بوغدانوف لاصلاح ماركس وتطويره بصورة غير ملحوظة «بروح اسسه» ، هي تشويه بيّن لهذه الاسس **المادية** بروح **المثالية** ومن المضحك انكار ذلك لنتذكر عرض بازاروف للمذهب النقدي التجريبي (وليس للاحادية التجريبية فكيف يمكن هذا ! فبين هذين «النظامين» فرق هائل ، هائل الى ما لا حد له !) «ان التصور الحسي **انما هو** الواقع الموجود خارجاً عنّا» هذه مثالية بيّنة نظرية بيّنة عن تماثـــل الوعي والوجود ثـــم تذكروا صيغة ف شوبه ، الكموني (الذي اقسم اليمين واستشهد الله بفائق الجهد بانه ليس مثالياً مثل بازاروف وشركاه والذي اكد بحزم مثـــل بازاروف على معنى كلماتـــه «الدقيق» بخاصة) : «الوجود هو الوعي» . قارنوا بهذا الآن **دحض** ماديـــة

ماركس التاريخية من قبل الكموني شوبرت-زولدرن «كل عملية انتاج مادية هي دائماً ظاهرة وعي بالنسبة للناظر اليها وعلى صعيد علم العرفان ليست عملية الانتاج الخارجية العنصر **الاولي** (prius) بل الذات او الذوات وبتعبير آخر نقول ان عملية الانتاج المادية الصرف لا تخرج(نا) من صلـــة الوعي العامـــة» (Bewußtseinszusammenhangs). راجعوا **الكتاب** المذكور «Das menschliche Glück und die soziale Frage», S. 293, 295-296*.

بوسع بوغدانوف ان يلعن الماديين قدر ما يطيب له بسبب «تشويه افكاره» ولكن اللعنات اياً كانت لا تغير الواقــع البسيط والواضح وان تعديل ماركس وتطويــر ماركس بروح ماركس حسبما يزعم من جانب «الاحادي التجريبي» بوغدانوف لا يتميزان **باي شيء جوهري** عن دحض ماركس من قبل المثالي والسوليبسي العرفاني شوبرت-زولدرن ان بوغدانوف يؤكد انه ليس مثالياً وشوبرت-زولدرن يؤكد انه واقعي (بل ان بازاروف حتى صدق هذا) وفي زمننا لا يمكن للفيلسوف ألاّ يقول عــن نفسه انه «واقعي» و«عدو للمثالية» آن الاوان لفهم هذا ايها السادة الماخيون !

ان الكمونيين والنقاد التجريبيين والاحادي التجريبي سواء بسواء يجادلون بصدد التفاصيل بصدد الجزئيات بصدد صياغة **المثالية** اما نحن فاننا ننبذ **منذ بادئ بدء** جميع اسس فلسفتهم الاسس المشتركة بين كـــل هذا الثلاثي فليروج بوغدانوف بخير معاني الكلمة وبخير النوايا مع قبوله **بجميع استنتاجات ماركس** «بتماثــــل» الوجود الاجتماعي والوعـــي الاجتماعي فاننا سنقول بوغدانوف **ناقص** «الاحادية التجريبية»

* «السعادة البشرية والمسألة الاجتماعية» ، ص ٢٩٣ و ٢٩٥-٢٩٦ . **الناشر** .

(والاصح **ناقص** الماخية) هو ماركسي لأن هذه النظرية نظرية التماثل بين الوجود الاجتماعي والوعي الاجتماعي هي **لغو وهراء كلها** هي **بلا شك** نظرية **رجعية** واذا كان بعض الافراد يوفقون بينها وبين الماركسية والمسلك الماركسي فانه يتعين علينا ان نعترف بان هؤلاء الافراد افضل من نظرياتهم ولكنه لا يتعين علينا ان نبرر التشويهات النظرية الصارخة للماركسية

ان بوغدانوف يوفق نظريته مع استنتاجات ماركس مضحياً في سبيل هذه الاستنتاجات بالمنطقية الابتدائية فان كل منتج بمفرده في الاقتصاد العالمي يدرك انه يدخل تغييراً ما في تكنيك الانتاج وكل رب عمل يدرك انه يبادل منتوجات ما بمنتوجات اخرى ولكن هؤلاء المنتجين وارباب العمل هؤلاء لا يدركون انهم يغيرون **الوجود الاجتماعي** بذلك ولم يكن بوسع حتى ٧٠ شخصاً مثل ماركس ان يشملوا في الاقتصاد العالمي الرأسمالي مجمل هذه التغيرات بجميع تشعباتها والاكبر هو ان **قوانين** هذه التغيرات قد اكتشفت وان المنطق **الموضوعي** لهذه التغيرات ولتطورها التاريخي قد ثبت من حيث الرئيسي والاساسي الموضوعي لا بمعنى انه بوسع مجتمع الكائنات الواعية الناس ان يوجد ويتطور بصورة مستقلة عن وجود الكائنات الواعية (والى هذه التوافه فقط **يشير** بوغدانوف «بنظريته») بل بمعنى ان الوجود الاجتماعي **مستقل** عن **وعي** الناس **الاجتماعي** ومن واقع انك تعيش وتدير اقتصاداً وتنجب اولاداً وتنتج منتوجات وتبادلها تتشكل سلسلة ضرورية موضوعياً من الاحداث سلسلة من التطور مستقلة عن وعيك **الاجتماعي** الذي لا يشملها ابداً بكليته ان اسمى مهام البشرية هي شمول هذا المنطق الموضوعي للتطور الاقتصادي (لتطور الوجود الاجتماعي) في السمات العامة والاساسية لكي تكيف **له** ، باكثر ما يمكن من الوضوح

والجلاء والنقد وعيها الاجتماعي ووعي الطبقات الطليعية في جميع البلدان الرأسمالية

وكل هذا يعترف به بوغدانوف يعني ؟ يعني انه ينبذ **بالفعل** نظريته القائلة «بتماثل الوجود الاجتماعي والوعي الاجتماعي» ولا يبقى منها غير شرّابة مدرسية فارغة ، – فارغة وميتة وباطلة مثل «نظرية الاستبدال العام» او مذهب «العناصر» و«الحقن» وكل الهراء الماخي ولكن «الميت يتمسك بالحي» وان الشرّابة المدرسية الميتة تحول فلسفة بوغدانوف **رغم ارادته وبصورة مستقلة عن وعيه** الى **اداة في خدمة** شوبرت-زولدرن واضرابه وخلافهم من الرجعيين الذين ينشرون بآلاف الاساليب من مئات الكراسي الاستاذية **هذا** الميت **بالذات** عوضاً عن الحي ضد الحي بغية خنق الحي ان بوغدانوف هو شخصياً عدو لدود لكل رجعية وللرجعية البرجوازية على الخصوص الا ان «الاستبدال» البوغدانوفي ونظرية «تماثل الوجود الاجتماعي والوعي الاجتماعي» **يخدمان** هذه الرجعية هذا واقع مؤسف ولكنه واقع

ان المادية بوجه عام تعترف بالوجود الفعلي موضوعياً (المادة) المستقل عن وعي البشرية واحساسها وتجربتها والخ ان المادية التاريخية تعترف بالوجود الاجتماعي مستقلاً عن وعي البشرية الاجتماعي ان الوعي هنا وهناك ليس غير انعكاس للوجود وانعكاس له صادق (مطابق دقيق بدرجة مثلى) تقريباً في افضل الاحوال وفي فلسفة الماركسية هذه المصبوبة من قطعة واحدة من الفولاذ لا يمكن سحب اية مقدمة اساسية ، اي جزء جوهري دون الابتعاد عن الحقيقة الموضوعية دون السقوط في احضان الكذب البرجوازي الرجعي

اليكم امثلة اخرى تبين كيف تتمسك المثالية الفلسفية الميتة بالماركسي الحي بوغدانوف .

مقالة «ما هي المثالية ؟» عام ١٩٠١ (المرجع نفسه ص ١١ وما يليها) «نحن نخلص الى الاستنتاج التالي سواء حيث الناس يتفقون في آرائهم بشأن التقدم ام حيث يختلفون يبقى المغزى الاساسي لفكرة التقدم هو هو **تعاظم كمال وتجانس حياة الوعي** هذا هو المضمون الموضوعي لمفهوم التقدم واذا قارنا الآن التعبير النفساني الذي حصلنا عليه عن فكرة التقدم مع التعبير البيولوجي المفسّر سابقاً («**ان نمو مجمل الحياة يسمّى** بيولوجياً **بالتقدم**» ص ١٤) فاننا نقتنع بسهولة ان الاول يتطابق كلياً مع الثاني ويمكن استخلاصه منه وبما ان الحياة الاجتماعية تنحصر في الحياة النفسية لاعضاء المجتمع فان مضمون فكرة التقدم يبقى هنا ايضاً هو هو تعاظم كمال وتجانس الحياة انما ينبغي ان نضيف - حياة الناس **الاجتماعية** وان فكرة التقدم الاجتماعي لم تملك ابداً ولا يمكن ان تملك بالطبع اي مضمون آخر» (ص ١٦)

«لقد وجدنا ان المثالية تعرب عن انتصار الامزجة الاكثر اتساماً بالسمة الاجتماعية في روح الانسان على الامزجة الاقل اتساماً بها وان المثال الاعلى التقدمي هو انعكاس للميل الاجتماعي التقدمي في النفسية المثالية» (ص ٣٢)

ولا داعي الى القول ان كل هذا اللعب بالبيولوجيا والسوسيولوجيا لا ينطوي على **اية ذرة** من الماركسية ومن الممكن ان نجد عند سبنسر وعند ميخايلوفسكي قدر ما تريد من تعريفات ليست اسوأ البتة ، ولا تعرّف شيئاً عدا «حسن نية» المؤلف ، وتبيّن **عدم فهم تام** «لما هي المثالية» وما هي المادية

الكتاب الثالث من «الاحادية التجريبية» ومقالة «الاختيار الاجتماعي» (اسس الطريقة) عام ١٩٠٦ يبدأ المؤلف بنبذ «المحاولات الاجتماعية البيولوجية الاختيارية للانغه وفيري وفولتمان

وكثيرين غيرهم» (ص ١) وفي ص ١٥ يعرض الاستنتاج التالي «للبحث» «بوسعنا ان نصوغ على النحو التالي الصلة الاساسية بين مذهب الطاقة والاختيار الاجتماعي

كل عمل من اعمال الاختيار الاجتماعي هو عبارة عن تعاظم او انخفاض طاقة ذلك المركب الاجتماعي الذي يتعلق به ففي الحالة الاولى نواجه «الاختيار الايجابي» وفي الثانيـــة «السلبي»
(حرف التأكيد للمؤلف .)

وهذا الهراء الذي لا يوصف يقدمونه على انه من الماركسية ! فهل يسع المرء ان يتصور شيئاً عقيماً ، ميتاً ، مدرسياً اكثر من هذا الرصف للكلمات البيولوجية والطاقية التي لا تعطي شيئاً والتي لا يمكنها ان تعطي شيئاً في ميدان العلوم الاجتماعية ؟ فلا ظل لبحث اقتصادي ملموس ولا تلميح الى **طريقة** ماركس طريقـــة الدياليكتيـــك والى عقيدة المادية بل مجرد **اختلاق** للتعاريف ومحاولات لاظهارها بمظهر استنتاجات جاهزة للماركسية «ان النمو السريع للقوى المنتجة في المجتمع الرأسمالي هو بلا ريب ، ازدياد طاقة الكل الاجتماعي .» – ان النصف الثاني من الجملة هو بلا ريب مجرد تكرار للنصف الاول معبر عنه في تعابير خالية من المعنى تبدو انها «تعمّق» المسألة ولكنها لا تختلف بالفعل **وان مقدار شعرة** ، عن محاولات لانغه وشركاه البيولوجية السوسيولوجية الاختيارية ! – «ولكن هذه العملية تنتهي من جراء طابعها غيـــر المتجانس «بازمة» بتبذير هائل للقوى المنتجة بانخفاض حاد في الطاقة فالاختيار الايجابي يحل محله الاختيار السلبي» (ص ١٨) .

اوليس هذا لانغه ؟ فالى الاستنتاجات الجاهزة عن الازمات تخاط لصيقة بيولوجية طاقية دون اضافة وان ذرة من اية مادة ملموسة ، دون توضيح لطبيعة الازمات وكل هذا حسن النية جداً لأن المؤلف يريد ان يؤكد ويعمق استنتاجات ماركس ، ولكنـــه

يشعشعها بالماء المدرسي الميت الممل بصورة لا تطاق ان «الماركسي» هنا هو الاكتفاء **بترديد** استنتاج معروف سلفاً اما تعليله «الجديد» وكل «**مذهب الطاقة الاجتماعي**» هذا (ص ٣٤) و«الاختيار الاجتماعي» ان كل هذا انما هو مجرد **رصف للكلمات** واستهزاء تام بالماركسية

ان بوغدانوف لا يقوم البتة ببحث ماركسي بل يقوم بالباس النتائج التي توصل اليها هذا البحث من قبل حلة من المصطلحات البيولوجية والطاقية وكل هذه المحاولة باطلة من اولها الى آخرها لأن تطبيق مفاهيم «الاختيار» و«تمثل وتصفية تمثل» الطاقة ، والميزان الطاقي ، وما شاكل ، في ميدان العلوم الاجتماعية انما هو **كلام فارغ** وبالفعل ، **لا يمكن** بواسطة هذه المفاهيم اعطاء اي **بحث** عن الظاهرات الاجتماعية واي توضيح **لطريقة** العلوم الاجتماعية وليس ثمة ما هو أسهل من لصق اللصيقة «الطاقية» او «البيولوجية السوسيولوجية» على الظاهرات من نوع الازمات ، والثورات ، ونضال الطبقات ، وما الى ذلك ، ولكن ليس ثمة ما هو عقيم ومدرسي وميت اكثر من هذا العمل ان جوهر الامر لا يتلخص في كون بوغدانوف يكيف في هذه الحال **جميع** نتائجه واستنتاجاته او «تقريباً» جميعها وفقاً لماركس (فقد رأينا «تعديلاً» على مسألة العلاقة بين الوجود الاجتماعي والوعي الاجتماعي) بل في كون **اساليب** هذا التكييف و«مذهب الطاقة الاجتماعي» هذا مزيفة تماماً ولا تختلف في شيء عن اساليب لانغه

كتب ماركس في ٢٧ حزيران (يونيو) ١٨٧٠ الى كوغلمان («بصدد المسألة العمالية والخ الطبعة الثانية) يقول «ان السيد لانغه يطريني كثيراً لكي يصور نفسه بصورة انسان عظيم ذلك ان السيد لانغه حقق اكتشافاً عظيماً فمن الممكن حصر التاريخ كله في قانون طبيعي عظيم واحد وحيد . وهذا القانون

الطبيعي يتلخص في **جملة** «Struggle for life» – الصراع من اجل البقاء (ان تعبير داروين يصبح في استعماله هذا جملة فارغة) في حين ان فحوى هذه الجملة تشكل القانون المالتوسي بصدد السكان او ، بالاصح ، بصدد فيض السكان وهكذا ، عوضاً عن تحليل هذا «Struggle for life» كما تجلى تاريخياً في مختلف الاشكال الاجتماعية لا يبقى ما يمكن فعله غير تحويل كل صراع ملموس الى جملة «Struggle for life» وتحويل هذه الجملة الى تخيل مالتوسي بشأن السكان لا بد من الموافقة على ان هذه طريقة مقنعة جداً لأجل الجهل المفخم ، المزوق ، المتظاهر بمظهر العلم ، ولأجل كسل الفكر»

ان اساس نقد لانغه يتلخص عند ماركس لا في كون لانغه يدس خصيصاً المالتوسية (٨٩) في السوسيولوجيا بل في كون نقل المفاهيم البيولوجية **على العموم** الى ميدان العلوم الاجتماعية هو **جملة** وسواء كان الدافع الى هذا النقل اهدافاً «طيبة» ام دعم الاستنتاجات السوسيولوجية الكاذبة (الخاطئة) فان الجملة لا تكف من جراء ذلك عن ان تكون جملة وان «مذهب الطاقة الاجتماعي» الذي يقول به بوغدانوف وضمه مذهب الاختيار الاجتماعي الى الماركسية انما هما بالضبط جملة من هذا النوع

وكما ان ماخ وافيناريوس لم يطورا المثالية في علم العرفان بل ضمّنا الاخطاء المثالية **القديمة** هراء متحذلقاً من المصطلحات والتعابير («العناصر» «التنسيق المبدئي» «الحقن» والخ . .) كذلك يؤدي المذهب النقدي التجريبي في السوسيولوجيا ، حتى في حال اصدق التعاطف مع استنتاجات الماركسية الى تشويه المادية التاريخية بالمصطلحات الطاقية والبيولوجية الدعية الفارغة

ان الخاصة التاريخية للماخية المعاصرة في روسيا (والاصح القول الوباء الماخي بين قسم من الاشتراكيين-الديموقراطيين) هي الواقع التالي . فان فورباخ قد كان «مادياً في اسفل ، ومثالياً في

اعلى» والشيء نفســـــه يصح بقدر معين على بوخنر وفوغـت ومو ليشوت وعلى دوهرينغ مع الفرق الجوهري التالي ، وهو ان جميع هؤلاء الفلاسفة كانوا اقزاماً وكويتبين ركيكين حقيرين بالقياس الى فورباخ

ان ماركس وانجلس اللذين تربيا على مؤلفات فورباخ واشتد مراسهما في النضال ضد الكويتبين الركيكين قد اوليـــا بالطبع جل الاهتمام لاستكمال بناء فلسفة المادية الى النهاية اي على الفهم المادي للتاريخ وليس على علم العرفان المادي ومن جراء ذلك أكد ماركس وانجلس في مؤلفاتهما على المادية **الدياليكتيكية** اكثر مما أكدا على **المادية** الدياليكتيكية والحّا على الماديـــــة **التاريخية** اكثر مما الحّا على **المادية** التاريخية اما اصحابنا الماخيون الذين يرغبون في ان يكونوا ماركسيين فقد تناولوا الماركسية في مرحلة تاريخية مختلفة تماماً عن هذا تناولوها في زمن تخصصت فيه الفلسفة البرجوازية على الاخص في علم العرفان واستوعبت فيه بشكل وحيد الجانب ومشوه بعض الاقسام المكونـــة مــن الدياليكتيك (مثلاً ، النسبية) ، فوجهت الانتباه على الاغلب الى الدفاع عن المثالية او الى بعثها من اسفل وليس من اعلى ويتبين على الاقل ان الوضعية على العموم والماخية على الخصوص قد انصرفتا اكثر بكثير الى تزييف علم العرفان تزييفاً ناعماً ، متلونتين بلون المادية ، ساترتين المثالية وراء مصطلحات وتعابير مادية مزعومة ووجهتا الانتباه بقدر قليل نسبياً الى فلسفة التاريخ ان اصحابنا الماخيين لم يفهموا الماركسية لانهم تناولوها اذا جاز القول **من الجانب الآخر** فاستوعبوا – واحياناً استوعبوا اقل مما حفظوا غيباً – نظرية ماركس الاقتصادية والتاريخية دون ان يستوضحوا اسسها اي المادية الفلسفية فكان الحاصل انه يجب تسمية بوغدانوف وشركاه بالاضراب الروس بالمقلوب لبوخنر ودوهرينغ . ولقد رغبوا في ان

يكونوا ماديين في الاعلى ولكنهم لا يستطيعون ان يتخلصوا من المثالية المشوشة في الاسفل «في الاعلى» عند بوغدانوف – المادية التاريخية المبتذلة والحق يقال والتي أفسدتها المثالية بشدة «في الاسفل» – المثالية المجلببة بالتعابير الماركسية المكيفة للكلمات الماركسية «التجربة المنظمة اجتماعياً» «عملية العمل الجماعية» ، – كل هذه كلمات ماركسية ولكنها كلها **كلمات فقط** تخفي الفلسفة المثالية التي تعلن ان الاشياء مركبات «عناصر»-احساسات وان العالم الخارجي «تجربة» او «رمز تجريبي» للبشرية ، وان الطبيعة الفيزيائية «مشتقة» من «النفسي» والخ وهلم جراً

تزييف الماركسية بصورة أنعم فأنعم ، تزوير المذاهب المعادية للمادية واظهارها بمظهر الماركسية بصورة انعم فأنعم ، – هذا ما تتميز به التحريفية المعاصرة في الاقتصاد السياسي وفي مسائل التكتيك وفي الفلسفة على العموم ، سواء في علم العرفان ام في علم الاجتماع

٣ ـ في «اسس الفلسفة الاجتماعية» لسوفوروف

ان «دراسات «في» فلسفة الماركسية» التي تنتهي بمقالة الرفيق س سوفوروف المشار اليها هي بمثابة باقة ذات فعل خارق القوة وذلك على وجه الضبط بحكم طابع الكتاب الجماعي فعندما يظهر امامكم معاً وجنباً الى جنب **بازاروف** الذي يقول ان «التصور الحسي انما هو» حسب انجلس «الواقع الموجود خارجاً عنّا» وبرمان الذي يقول ان دياليكتيك ماركس وانجلس تصوف ولوناتشارسكي الذي تمادى في كلامه الى حد الدين ويوشكيفيتش الذي يحمل «اللوغوس الى سيل المعطيات اللاعقلاني» وبوغدانوف الذي يسمي المثالية بفلسفة الماركسية ، وغلفوند الذي يطهر

يوسف ديتزغن من المادية ، واخيراً س سوفورروف مع مقالة «اسس الفلسفة الاجتماعية» ، فانكم تشعرون في الحال «بروح» الخط الجديد الكمية تحولت الى كيفية «الباحثون» الذين كانوا يفتشون حتى هذا الحين كلاً على حدة في مختلف المقالات والكتب قد تقدموا ببيان رسمي حقيقي فان الخلافات الجزئية بينهم يمحوها واقع الكتابة الجماعية **ضد** (وليس «في») فلسفة الماركسية وتصبح السمات الرجعية للماخية بوصفها تياراً جلية للعيان

ان مقالة سوفورروف تزداد طرافة في هذه الاحوال خصوصاً وان المؤلف ليس احادياً تجريبياً وليس ناقداً تجريبياً بل مجرد «واقعي» ، — وان ما يقرّبه بالتالي من الشركاء الآخرين ليس ما يميز بازاروف ويوشكيفيتش وبوغدانوف كفلاسفة بل ما يجمع بينهم جميعهم **ضد** المادية الدياليكتيكية ان مقارنة محاكمات هذا «الواقعي» السوسيولوجية بمحاكمات الاحادي التجريبي تساعدنا في رسم ميلهم **المشترك**

كتب سوفورروف يقول «في تدرج القوانين التي تضبط العملية العالمية تتحول القوانين الجزئية والمعقدة الى قوانين عامة وبسيطة ، وجميعها تخضع للقانون الكلي للتطور ، — **لقانون توفير القوى** وكنه هذا القانون هو ان **اي نظام من القوى يزداد قدرة على البقاء والتطور بقدر ما تقل النفقة فيه وبقدر ما يزداد التراكم فيه وبقدر ما تخدم النفقة التراكم بصورة افضل** ان اشكال التوازن المتحرك التي استتبعت من زمان فكرة الملاءمة الموضوعية (النظام الشمسي تعاقب الظاهرات الارضية عملية الحياة) تتشكل وتتطور على وجه الضبط بحكم ادخار وتكديس الطاقة الملازمة لها بحكم توفيرها الداخلي ان قانون توفير القوى هو المبدأ الموحِّد والضابط لكل تطور ، — للتطور غير العضوي والبيولوجي والاجتماعي» (ص ٢٩٣ . حرف التأكيد للمؤلف) .

باية سهولة رائعة يلفق اصحابنا «الوضعيون» و«الواقعيون» «القوانين الكلية» الا انـــه من المؤسف ان هذه القوانين ليست افضل من القوانين التي لفقها اوجين دوهرينغ بنفس القدر مـــن السهولة والسرعة ان «القانون الكلي» الذي لفقه سوفوروف هو جملة مفخمة ، خالية من كل معنى مثله مثل قوانين دوهرينغ الكلية جربوا ان تطبقوا هذا القانون على الميدان الاول من الميادين الثلاثة التي اشار اليها المؤلف على التطور غير العضوي تروا انكم لن تفلحوا في ان تطبقوا هنا وبصورة «كلية» اي «توفير في القوى» **عدا** قانون بقاء وتحول الطاقة والحال سبق للمؤلف ان استبعد قانون «بقاء الطاقة» ، وسبق له ان ذكره (ص ٢٩٢) بوصفه قانوناً خاصاً * فماذا بقي عدا هذا القانون في ميدان التطور غيــر العضوي ؟ اين هي تلك الاضافات ، او المضاعفات ، او الاكتشافات الجديدة ، او الوقائع الجديدة التي اتاحت للمؤلف ان يعدل (« يرقي »)

---

* مما له دلالتـــه ان سوفوروف يسمي اكتشاف قانون بقاء وتحول الطاقة «باقرار الموضوعات الاساسية **لمذهب الطاقة**» (ص ٩٠) فهل سمع صاحبنا «الواقعي» الذي يرغب في ان يكون ماركسياً ان الماديين المبتذلين بوخنر وشركاه والمادي الدياليكتيكي انجلس على السواء كانوا يعتبرون هذا القانون اثباتاً للموضوعات الاساسية **للمادية** ؟ هل فكر صاحبنا «الواقعي» فيما يعنيه هذا الفرق ؟ آه كلا انه اقتبس الموضة بكل بساطة وكرر اوستفالد وكفى والمصيبة ان امثال هؤلاء «الواقعيين» يستسلمون امام الموضـــة في حين ان انجلس مثلاً ، **استوعب تعبير** الطاقة **الجديد عليه** وشرع يستعمله في عام ١٨٨٥ (مقدمة الطبعة الثانية لكتابه «ضد دوهرينغ») وفي عام ١٨٨٨ («لودفيغ فورباخ») ، ولكنه شرع يستعمله على قدم المساواة مع مفهومي «القوة» و«الحركة» ، وبالتناسب معهمـــا ؛ **وبذلك** استطاع انجلس ان يغني **ماديته** ، باستيعاب تعابير جديدة ان «الواقعيين» واضرابهم من المشوشين ، وقد تلقفوا تعبيراً جديداً ، لم يلاحظوا الفرق بين المادية ومذهب الطاقة !

قانون بقاء وتحول الطاقة الى قانون «**لتوفير القوى**» ؟ لا وجود لأي من هذه الوقائع او الاكتشافات بل ان سوفوروف لم يقل وان كلمة واحدة عنها وقد لوح بالقلم ببساطة – من باب الوقار كما قال بازاروف في رواية لتورغينيف (٩١) – ولفق «قانوناً كلياً» جديداً في «الفلسفة الاحادية الواقعية» (ص ٢٩٢) اعرف من نحن أنحن اسوأ من دوهرينغ ؟

خذوا الميدان الثاني من ميادين التطور – الميدان البيولوجي فهل هو كلي هنا ، في حال تطور العضويات عن طريق الصراع من اجل البقاء او عن طريق الاختيار قانون توفير القوى او «قانون» تبديد القوى ؟ لا ضير فبوسع «الفلسفة الاحادية الواقعية» ان تفهم «**معنى**» القانون الكلي في ميدان ما بطريقة ما ، وفي ميدان آخر بطريقة اخرى ، مثلاً بمعنى تطور العضويات **العليا** من العضويات الدنيا ولا ضير ان القانون الكلي يمسي من جراء ذلك جملة فارغة ولكن مبدأ «الاحادية» روعي بالمقابل اما بالنسبة للميدان الثالث (الاجتماعي) فمن الممكن فهم «القانون الكلي» بالمعنى الثالث بمعنى تطور القوى المنتجة فان «القانون الكلي» صالح لأن يشمل اي شيء كان

«رغم ان العلم الاجتماعي لا يزال حديث العهد توفرت له منذ حين قاعدة متينة وتعميمات مكتملة ففي القرن التاسع عشر تطور حتى الذروة النظرية وهذا يشكل مأثرة ماركس الرئيسية فقد رفع العلم الاجتماعي الى درجة النظرية الاجتماعية قال انجلس ان ماركس حول الاشتراكية من طوبوية الى علم (٩٢) ولكن هذا لا يكفي سوفوروف فاذا **ميزنا** ايضاً **النظرية عن العلم** (وهل كان هناك علم اجتماعي قبل ماركس ؟) فان هذا سيكون اقوى ولا ضير اذا جاء التمييز سخيفاً

«... باثبات القانون الاساسي للدينامية الاجتماعية الذي

يشكل تطور القوى المنتجة بموجبـــه المبدأ المحدد لكل التطور الاقتصادي والاجتماعي ولكن تطور القوى المنتجة يناسب نمـو انتاجية العمل وانخفاض النفقة النسبي وازدياد تراكم الطاقة (أوَترون كم هي مثمرة «الفلسفة الاحادية الواقعية» فقد أعطي تعليل جديد طاقي للماركسية !) «هذا مبدأ اقتصادي وعلى هذا النحو ارسى ماركس في اساس النظرية الاجتماعية مبدأ توفير القوى

هذا التعبير «وعلى هذا النحو» لا نظير له حقاً **بما** انه يوجد اقتصاد سياسي عند ماركس فلنعلك لهذه المناسبـــه **كلمة** «الاقتصاد» مسمين منتوجات العلك «بالفلسفة الاحادية الواقعية» !

كلا ان ماركس لم يرس في اساس نظريته اي مبدأ لتوفير القوى فهذه ترهات اختلقها اناس يحسدون على اكاليل غار اوجين دوهرينـغ فان ماركس قد اعطى تعريفـاً دقيقـاً تمامـاً لمفهوم نمو القوى المنتجة ودرس عملية هذا النمو الملموسة اما سوفوروف فقد ابتدع كلمة جديدة للاشارة الى المفهوم الذي حلله ماركس وابتدعها بصورة غير موفقة ابداً ، ولم يفعل غير ان شوش المسألة لانه ماذا يعني «توفير القوى» وكيف يقاس وكيف يطبق هذا المفهوم واي وقائع دقيقة وواضحة تصح هنا ؟ — ان سوفوروف لم يفسر هذا ومن المستحيل تفسير هذا لأن هذا تخبيص ثم اسمعوا ما يلي

ان قانون الاقتصاد الاجتماعي هذا ليس مبدأ وحدة العلم الاجتماعي الداخلية وحسب» (هل تفهم شيئاً هنا ايها القارئ ؟) «بل ايضاً حلقة وصل بين النظرية الاجتماعية ونظرية الوجود العامة» (ص ٢٩٤)

هكذا اذن ان «نظرية الوجود العامـــة» قد اكتشفهـــا س . سوفوروف من جديد بعد ان اكتشفها مراراً عديدة في شتى

الاشكال العديدون من ممثلي المدرسية الفلسفة لنهنى الماخيين الروس «بنظرية الوجود العامة» الجديدة ولنأمل في ان يخصصوا عملهم الجماعي القادم بكليته لتعليل وتطوير هذا الاكتشاف العظيم

اما اي عرض لنظرية ماركس يقدمه صاحبنا ممثل الفلسفة الواقعية او الفلسفة الاحادية الواقعية فان هذا يظهر من المثال التالي «ان قوى الناس المنتجة تشكل على العموم تدرجاً تولدياً» (افٍ !) «وتتألف من طاقتهم على العمل ومن القوى الطبيعيـــــة المخضَّعة ومن الطبيعة المغيَّرة بصورة مثقفة ومن ادوات العمل التي تشكل التكنيك المنتج وفيما يخص عملية العمل تؤدي هذه القوى وظيفة اقتصادية خالصة وهي توفر طاقة العمل وتزيد انتاجية انفاقها» (ص ٢٩٨) القوى المنتجة تؤدي وظيفة اقتصادية فيما يخص عملية العمل ان هذا يعني كأنك تقول القوى الحيوية تؤدي وظيفة حيوية فيما يخص عملية الحياة هذا ليس عرضـــاً لماركس ، بل توسيخ للماركسية بقمامة كلامية لا تصدق

وكل هذه القمامة في مقالة سوفوروف يستحيل تعدادها «ان جتمعة الطبقة تتجلى في تعاظم سلطتها الجماعية على الناس وعلى ملكيتهم سواء بسواء» (ص ٣١٣) «النضال الطبقي يرمي الى اقامة اشكال من التوازن بين القوى الاجتماعية» (ص ٣٢٢) الشقاق الاجتماعي ، والعداء الاجتماعي والصراع الاجتماعي هي من حيث الجوهر ظاهرات سلبية لا اجتماعية «ان التقدم الاجتماعي هو ، من حيث مضمونه الاساسي نمو اجتماعية الناس نمو الصلة الاجتماعية بين الناس» (ص ٣٢٨) ومن الممكن املاء مجلدات بمثـــل هذه المجموعات من السطحيات ، — وبها يملأ المجلدات ممثلو علم الاجتماع البرجوازي ولكن الادعاء بان هذا هو فلسفة الماركسية امر يتجاوز كل حد ولو كانت مقالة سوفوروف محاولة لعرض الماركسيـــة باسلوب مبسط ، لما تعين الحكم عليها بصرامة خاصـــة ؛ ولكان

اعترف كل امرئ بان نوايا المؤلف طيبة ، ولكن محاولته غير موفقة ابداً وكفى اما حين يقدم لنا فريق من الماخيين مثل هذا الشيء باسم «اسس الفلسفة الاجتماعية» وحين نرى الاساليب نفسها «لتطوير» الماركسية في كتب بوغدانوف الفلسفية ، فاننا نخلص من كل بد الى القول بوجود صلة لا تنفصم عراها بين علم العرفان الرجعي وبين المساعي الرجعية في علم الاجتماع

٤ ـ الاحزاب في الفلسفة والفلاسفة
العديمو الرؤوس

بقي لنا ان نبحث مسألة موقف الماخية من الدين ولكن هذه المسألة تتسع الى درجة تدفعنا الى التساؤل عما اذا كان ثمة ، بعامة ، احزاب في الفلسفة واية اهمية ترتديها اللاحزبية في حقل الفلسفة

في كل مسألة من مسائل علم العرفان التي تناولناها كما في كل مسألة من المسائل الفلسفية التي طرحتها الفيزياء الجديدة تتبعنا في سياق كل العرض السابق النضال بين **المادية والمثالية** ووراء اكوام احابيل المصطلحات الجديدة ووراء قمامة مدرسيـة غيليرتر وجدنا دائماً دون استثناء **خطين** اساسيين اتجاهين اساسيين في طريقة حل المسائل الفلسفيـة فهل ينبغي ايلاء الاولوية للطبيعة ، للمادة للفيزيائي للعالم الخارجي واعتبار الوعي الروح الاحساس (- التجربـة حسب التعبير **الرائج** في ايامنا) ، النفسي ، وما الى ذلك ، عنصراً ثانوياً ، - تلك هي المسألة الرئيسية التي ما تزال **في الواقع** تقسم الفلاسفـة الى **معسكرين كبيرين** ان سبب الآلاف من الاخطاء والبلبلات في هذا الميدان ، ان القوم **لا يستشفون** هذين الميلين الاساسيين وراء ظواهر المصطلحات والتعاريف ، والشعوذات المدرسية ، والالاعيب الكلامية (ان بوغدانوف ، مثلاً ، لا يريد ان يعترف بمثاليته ، لأنه ، كما ترون ، استعاض

عن مفهومي «الطبيعة» و«الروح» «الميتافيزيائيين» بمفهومي «الفيزيائي» و«النفسي» «التجريبيين» لقد غيّر الكلمة فقط !)

ان عبقرية ماركس وانجلس تتجسد بالضبط في كونهما قد طورا المادية خلال مرحلة طويلة جداً - خلال **ما يقرب من نصف قرن** - ودفعا الى امام اتجاهاً اساسياً واحداً في الفلسفة ودون ان يطيلا تكرار المسائل العرفانية المحلولة، طبقا بمثابرة وانسجام **هذه** المادية **نفسها** وبينا **كيف** ينبغي تطبيقها على العلوم الاجتماعية، مكنّسين بلا رحمة، كالاقذار والاوساخ، الهراء واللغو، والسفسطات الدعية المفخمة، والمحاولات التي عد لها من اجل «اكتشاف» خط «جديد» في الفلسفة واختراع اتجاه «جديد» والخ وما حاربه ماركس وانجلس وطارداه خلال نشاطهما كله انما هو ذلك الطابع الكلامي لهذا النوع من المحاولات والتلاعب المدرسي بالمذاهب الفلسفية الجديدة المنتهية بـ«ية»، وتعمية جوهر المسألة بحيل معقدة، والعجز عن فهم ووضوح ادراك الصراع بين الاتجاهين الاساسيين في العرفانية

قلنا خلال ما يقرب من نصف قرن وبالفعل رسم ماركس بوضوح مدهش الخطوط الجذرية في الفلسفة في عام ١٨٤٣ اي حين لم يكن الا بسبيـــل ان يصبح ماركس اي مؤسس الاشتراكية بوصفها علماً مؤسس **المادية المعاصرة** التي هي اغنى محتوى بما لا حد له واشد انسجاماً بما لا يقاس من جميع الاشكال السابقة للمادية وقد اورد كارل غرون رسالة وجهها ماركس الى فورباخ بتاريخ ٢٠ تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٤٣ وفي هذه الرسالة طلب ماركس من فورباخ ان يكتب لصحيفـــة «Deutsch-Französische Jahrbücher» (٩٣) مقالاً ضد شيلينغ فان شيلينغ هذا، - كما كتب ماركس - ليس سوى متبجح فارغ يدعي ان يشمل ويتجاوز جميـــع الاتجاهات الفلسفيـــة السابقـــة «فللرومانطيقيين والصوفيين الفرنسيين يقول شيلينغ : انا تآلف

الفلسفة واللاهوت وللماديين الفرنسيين يقول انا تآلف الجسد والفكرة وللريبيين الفرنسيين يقول: انا محطم الجمود العقائدي» *
أما ان «الريبيين» يزعقون ضد «الجمود العقائدي» في المادية وفي المثاليـــة سواء كانوا من انصار هيوم او كانط (ام في القرن العشرين ، من انصار ماخ) ، فان ماركس كان يرى هذا مذ ذاك وقد عرف بالاعتماد على فورباخ كيف يسلك مباشرة سبيل المادية ضد المثالية دون ان يتلهى باي من آلاف المناهج الفلسفية الصغيرة الحقيرة وبعد ثلاثين سنة ، كتب ماركس في تذييل الطبعة الثانية من المجلد الاول من «رأس المال» يعارض بنفس الوضوح ونفس الجلاء ، **بماديته مثالية** هيغل اى المثالية الاكثر تطوراً والاشد انسجاماً ونبذ بازدراء «المذهب الوضعي» عند كونت وسخر بالفلاسفـــة المعاصرين الذين يظنون انهم قضوا على هيغل مع انهم لم يقوموا في الواقع باي عمل سوى انهم رددوا اخطاء كانط وهيوم السابقة لهيغل ونعتهم بالمقلدين الحقراء وبنفس الازدراء رأى ماركس في رسالة وجهها الى كوغلمان بتاريخ ٢٧ حزيران (يونيو) ١٨٧٠ الى «بوخنر ، ولانغه ودوهرينغ وفخنر وغيرهـــم» لأنهم لـــم يستطيعوا ان يفهموا دياليكتيك هيغل ونظروا اليه باحتقار **

* Karl Grün. «Ludwig Feuerbach in seinem Briefwechsel und Nachlaß, sowie in seiner philosophischen Charakterentwicklung», I. Bd., Lpz., 1874, S. 361 (كارل غرون «لودفيغ فورباخ ، رسائله وتراثه الادبي وكذلك تحليل تطوره الفلسفي» المجلد الاول ليبزيـــغ عام ١٨٧٤ ، ص ٣٦١ **الناشر**)

** في رسالة بتاريخ ١٣ كانون الاول (ديسمبر) ١٨٧٠ قال ماركس عن الوضعي بيسلي (Beesly) «ان بيزلي بوصفه من اتباع كونت لا يسعه ان يتخلى عن شتى النزوات الغريبة غير المعقولـــــة» (crotchets) قارنوا هذه الكلمـــات بالرأي الذي ابداه انجلس عام ١٨٩٢ حول الوضعيين à la (على طريقة) هكسلي (٩٤) .

واخيراً خذوا بعض ملاحظات ماركس الفلسفية في «رأس المال» وفي مؤلفاته الاخرى تروا فيها **ابداً** نفس الفكرة الرئيسية الالحاح على ابراز **المادية** وسخريات زاخرة بالازدراء من كل تمويه من كل بلبلة من كل ترابع نحو **المثالية** ان **جميع** ملاحظات ماركس الفلسفية تدور في نطاق هذين النقيضين الاساسيين اللذين لا يمكن التوفيق بينهما فان هذا «الضيق» وهذا «الموقف الوحيد الجانب» يشكلان عيبها من وجهة نظر الفلسفة الاستاذية الا ان عدم الرغبة في ان يأخذ بعين الاعتبار المشاريع السَقَط الرامية الى التوفيق بين المادية والمثالية هو في الواقع اكبر مآثر ماركس الذي كان يسير **قدماً** ، سالكاً في الفلسفة سبيلاً واضح المعالم للغاية

وبالتجاوب الروحي التام مع ماركس وبالتاون الوثيق معه ، اقدم انجلس ايضاً في جميع مؤلفاته الفلسفية وبنفس الوضوح والايجاز على تبيان التضاد بين الخطين المادي والمثالي في **جميع** المسائل دون ان يحمل على محمل الجد لا في عام ١٨٧٨ ولا في عام ١٨٨٨ ولا في عام ١٨٩٢ (٩٥) المحاولات التي لا عد لها الرامية الى «تجاوز» «طابع» المادية والمثالية «الوحيد الطرف» والى اعلان خط **جديد** سواء كان ذلك يتعلق «بالوضعية» ام «بالواقعية» ام باي تدجيل استاذي وكل النضال الذي خاضه انجلس ضد دوهرينغ انما خاضه **كلياً** تحت شعار تطبيق المادية تطبيقاً دائباً منسجماً مع اتهامه المادي دوهرينغ **بانه** يعمّي جوهر المسألة بالكلمات وبانه يعتمد على الجمل والتعابير ويلجأ الى اساليب محاكمة تنطوي على تنازل للمثالية على الانتقال الى صعيد المثالية اما المادية المنسجمة الى النهاية واما اكاذيب المثالية الفلسفية وبلبلتها هكذا توضع المسألة في **كل فقرة** من كتاب «ضد دوهرينغ» ؛ وفقط اناس ختمت الفلسفة الاستاذية الرجعية على

عقولهم لم يستطيعوا ان يروا ذلك وحتى عام ١٨٩٤ عندما كتب انجلس مقدمته الاخيرة لكتابه «ضد دوهرينغ» بعد ان اعاد النظر فيه واكمله للمرة الاخيرة ظل يتتبـــع الفلسفـــة الجديدة وعلم الطبيعيات الجديد وما انفك يلح بنفس الحزم على مواقفه الواضحة الراسخة مكنساً اوساخ المناهج الجديدة كبيرهـــا وصغيرها

اما ان يكون انجلس تتبع الفلسفة الجديدة فذلك يتبين من مؤلفه «لودفيغ فورباخ» فانه يذكر في مقدمة هذا المؤلف التي كتبها في عام ١٨٨٨ حدثاً كنهضة الفلسفة الكلاسيكية الالمانية في انجلترا وفي سكاندينافيا اما الكانطيـــة الجديدة السائدة ومذهب هيوم فان انجلس لا يتحدث عنهما (سواء في مقدمة كتابه ام في متنه) الا باشد الازدراء من الواضح تماماً ان انجلس وقد لاحظ ترديد الفلسفة الالمانية والانجليزية **الرائجة** اخطاء الكانطية والهيومية القديمة السابقة لهيغل كان مستعداً لتوقع الخير حتى **من عودة الى هيغل** (في انجلترا وسكاندينافيا) آملاً في ان يسهم هذا المثالي والدياليكتيكي الكبير في رؤية الاخطاء المثالية والميتافيزيائية الصغيرة .

ولم يستغرق انجلس في دراسة المظاهر العديدة المتنوعة التي ظهرت بها الكتانطية الجديدة في المانيا ومذهب هيوم في انجلترا انما شجب من **الوهلة الاولى** انحرافهما الاساسي عن المادية وقد نعت **اتجاه** هاتين المدرستين **بكليته** بانه «**خطوة الى الوراء في ميدان العلم**» ولكن ، كيف قدر انجلس الاتجاه الذي لا جدال بانه «وضعي» من وجهة نظر التعابير الدارجة والذي لا جدال بانه «واقعي» الذي سار فيه هؤلاء الكانطيون الجدد وانصار هيوم وبينهم من لا يمكن لانجلس الاّ يعرفـــه كهكسلي مثلاً ؟ لقد اعتبر انجلس ان «الوضعية» و«الواقعيـة» اللتين كانتـــا ولا تزالان تستغويان

عدداً لا حد له من المشوشين ، هما ، في افضل الحالات **بمثابة اسلوب تافه ضيق الافق قوامه تمرير المادية خلسة** ، مع ترذيلها وجحدها جهاراً في الوقت نفسه ! (٩٦) يكفي المرء ان يتأمل دقيقة **بهذا** التقدير بصدد ت هكسلي ، اكبر عالم طبيعيات ، بهذا الواقعي الذى هو اكثر واقعية من ماخ وافيناريوس واضرابهما بكثير بهذا الوضعي الذي هو اكثر وضعية من هؤلاء بكثير لكي يدرك اي ازدراء يولده عند انجلس ما تبديه حالياً حفنة من الماركسيين من شغف «بالوضعية الحديثة» او «بالواقعية الحديثة» وما الى ذلك

ان ماركس وانجلس كانا حزبيين في حقل الفلسفة من البداية الى النهاية وقد عرفا كيف يكتشفان الانحرافات عن المادية والتساهلات حيال المثالية والايمانية في جميع الاتجاهات «الحديثة» ، اياً كانت ولذا لم يريا الى هكسلي **الا** من ناحية امانته للمادية ولذا لاما فورباخ لأنه لم يطبق المادية الى النهاية لأنه جحد المادية بسبب اخطاء بعض الماديين ، لأنه حارب الدين بقصد تجديده او بقصد صنع دين جديد ، لأنه لم يعرف كيف يتخلص من التعابير المثالية في حقل علم الاجتماع ويصبح مادياً

وقد قدر يوسف ديتزغن هذا التقليد الكبير القيم من تقاليد معلميه كامل التقدير وواصله رغم ما وقع به من اخطاء جزئية عند عرضه المادية الدياليكتيكيـــــة لقد اخطأ ديتزغن كثيراً بسبب انحرافاته الخرقاء عن المادية ولكنه لم يحاول قط الانفصال عن المادية من حيث الاساس ولم يرفع اية راية «جديدة» بل اعلن دائماً في الساعات الحاسمة قائلاً بصلابـــة وحزم انا مادي وفلسفتنا مادية وقال صاحبنا يوسف ديتزغن بحق «ان أخس حزب من جميع الاحزاب هو حزب الوسط وكما ان الاحزاب في مضمار السياسة تتجمع اكثر فاكثر في معسكرين فقط كذلك ينقســـــم العلم الى طبقتين اساسيتين (Generalklassen) : فهناك

الميتافيزيائيون وهنـــا الفيزيائيون او الماديون * والعناصر الوسطية والدجالون دعاة التوفيق اياً كانت القابهم سواء كانوا روحانيين ام حسيين ام واقعيين وهكذا دواليك انما يقعون في طريقهم تارة في هذا التيار وطوراً في التيار الثاني اننا نطالب بالصلابـــة اننـــا نريـــد الوضوح ان الظلاميين الرجعيين (Retraitebläser) يقولون عن انفسهم انهم مثاليون ** ان جميع الذين يطمحون الى تحرير العقل البشري من الاضاليل الميتافيزيائية ، انما ينبغي ان يتسموا بالماديين واذا قارنا هذين الحزبين بالجامد والسائل فان ما يكون في الوسط بينهما ليس سوى خبيص هلامي» ***

صحيـــح فـــان «الواقعيين» ومن هـــم على شاكلتهم بمن فيهم «الوضعيون» ، والماخيون والخ كل ذلك خبيص هش يرثى له ، **حزب الوسط** الحقير في الفلسفة الذي يخلط في كل مسألة على حدة بين الاتجاهين **المادي والمثالي** وليست محاولات التخلص من هذين التيارين الاساسيين في الفلسفة سوى ضرب من «التدجيل الداعي الى التوفيق»

ان يوسف ديتزغن لم يشك قط في ان «الاكليريكية العلمية» في الفلسفة المثالية هي مقدمة الاكليريكية الصريحة فقد كتب

---

* وهذا التعبير غير موفق وغير واضح ايضاً فقد كان ينبغي القول «مثاليون» بدلاً من «ميتافيزيائيون» هذا مع العلم ان يوسف ديتزغن نفسه يعارض في اماكن اخرى الميتافيزيائيين بالدياليكتيكيين

** لاحظوا ان يوسف ديتزغن قد اصلح خطأ واوضح بتعابير **ادق** ما هو حزب اعداء المادية

*** راجعوا مقال «الفلسفة الاشتراكية-الديموقراطية» المكتوب في عام ١٨٧٦. «Kleinere philosophische Schriften», 1903, S. 135. («المؤلفات الفلسفية الصغيرة» . عام ١٩٠٣ ، ص ١٣٥ . **الناشر**) .

يقول «ان الاكليريكية العلمية تسعى جهدها باكبر الجد لكي تمد يد المساعدة للاكليريكية الدينية» (.l.c، ص ٥١) . «ان ميدان نظرية المعرفة وعدم فهم الروح البشري هما بخاصة جحر القمل» (Lausgrube) الذي «يبيض» فيه هذان النوعان من الاكليريكية واساتذة الفلسفـــة هم بنظر يوسف ديتزغن «خدم يحملون شهادات ويلقون الخطب حول «الخيرات المثالية» ويخبلون الشعب بواسطة مثالية طافحة بالتكلف (geschraubter)، (ص ٥٣) «وكما ان الشيطان هو نقيض الاله كذلك المادي هو نقيض الاستاذ الاكليريكي (Kathederpfaffen)» والنظرية المادية عن المعرفة هي «سلاح شامل ضد الايمان الديني» (ص ٥٥) لا ضد «دين الكهنة الدين العادي الحقيقي الذي يعرفه الجميع» وحسب بل ايضاً ضد «الدين الاستاذي المصفى المرفـــوع دين المثاليين الثملين (benebelter) (ص ٥٨)

ان ديتزغن كان على استعداد لأن يفضل «الاستقامة الدينية» على «نصفية» الاساتذة المفكرين الاحرار (ص ٦٠) فهناك «يوجد نظام» يوجد رجال كاملون لا يفصلون النظرية عن التطبيق اما حضرات الاساتذة فانهم يرون «ان الفلسفة ليست بعلم بل وسيلة دفاع ضد الاشتراكية-الديموقراطية» (ص ١٠٧) «ان الاساتذة ومعلمي الجامعات ممن يقولون عن انفسهم انهم فلاسفة يقعون الى هذا الحد او ذاك ، رغم حرية تفكيرهم ، في حمأة الاوهام في حمأة الصوفية وهم لا يؤلفون جميعاً سوى كتلة رجعية واحدة بالنسبة للاشتراكية-الديموقراطية» (ص ١٠٨) «لكي يسلك المرء السبيل القويم دون ان يدع السخافات (Welsch) الدينية والفلسفية اياً كانت تشوش عليه افكاره ينبغي له ان يدرس السبيـــل الخاطيء للسبل الخاطئـــة (der Holzweg der Holzwege) ، اي الفلسفة» (ص ١٠٣) .

وانظروا الآن الى ماخ وافيناريوس ومدرستهما من وجهة نظر الاحزاب في الفلسفة آه ان هؤلاء السادة **يتباهون بلاحزبيتهم** واذا كان ثمــة نقيض لهم فما هـــو الا نقيض واحد **والا المادي** وفي **جميع** كتابـــات **جميع** الماخيين يبرز بكـــل جلاء الادعاء البليد «بالارتفاع فوق» المادية والمثالية بالتغلب على هذا التضاد «الذي اكل الدهر عليه وشرب» غير اننا نرى **في الواقع** ان كل هذه الاخوية تقع في المثالية **في كل لحظة** ، وتخوضها حرباً لا هوادة فيها ولا رحمة ضد المادية ان الشعوذات العرفانيــة المتفننــة لافيناريوس ما تبقى تلفيقات اساتذية ومحاولة لانشاء شيعــة فلسفية صغيرة ، «خاصة» به ولكننا نرى **في الواقع** في الظروف العامة للصراع بين الافكار والاتجاهات في قلب المجتمع المعاصر ، ان الدور **الموضوعي** لهذه الشعوذات العرفانية هو واحد وواحد فقط تمهيد السبيل امام المثالية والايمانية وخدمتهما بأمانة وبالفعل ليس من قبيل الصدفة ان يتشبث باذبال مدرسة انصار المذهب النقدي التجريبي الصغيرة الروحانيون الانجليز من طراز ورد والنقديون الجدد الفرنسيون الذين يمدحون ماخ لنضاله ضــد المادية والكمونيون الالمان ان النعت الذي اطلقــه يوسف ديتزغن «خدم الايمانية حملة الشهادات» يصيب ماخ وافيناريوس وكل مدرستهما اصابة مباشرة *

---

* اليكم مثالاً آخر يبين كيف تستغل بالفعل التيارات الواسعــة الانتشار من الفلسفة البرجوازية الرجعية مذهب ماخ ان «البراغماتية» (من الكلمة اليونانية pragma ومعناها العمل النشاط فلسفة العمل) تكاد تكون «آخر موضة» في الفلسفة الاميركية الحديثة وللبراغماتيــة تخصص المجلات الفلسفية المجال الاوسع او يكاد ان البراغماتية تسخر من ميتافيزيائية المثالية والمادية على السواء ، وترفع حتى السماء التجربة والتجربة فقط ، وترى في النشاط العملي المقياس الوحيد ، وتستشهد

ان مصيبة الماخيين الروس الذين يريدون «التوفيق» بين الماخية والماركسية ، تتلخص على وجه الضبط في انهم وثقوا باساتذة الفلسفة الرجعيين فانزلقوا على منحدر ان شتى محاولاتهم لتطوير ماركس وتكميله ترتكز على اساليب في غاية البساطة لقد قرأوا اوستفالد ، وآمنوا باوستفالد ، وعرضوا اوستفالد ، وسموا هذا بالماركسية قرأوا ماخ وآمنوا بماخ وعرضوا ماخ وسموا هذا بالماركسية قرأوا بوانكاره وآمنوا ببوانكاره ، وعرضوا بوانكاره وسموا هذا بالماركسية عندما يدور الكلام حول الفلسفة **لا يمكن تصديق اية كلمة من اي** من هؤلاء الاساتذة مع انهم يستطيعون تدبيـــج مؤلفات ذات قيمة كبيرة جداً في ميادين خاصة من الكيمياء والتاريخ والفيزياء لماذا ؟ لنفس السبب الذي يحمل على عدم تصديق **اية كلمة من اي** استاذ في الاقتصاد السياسي عندما يدور الكلام حول نظرية الاقتصاد السياسي العامة مع انه يستطيع تدبيج مؤلفات

بالتيـــار الوضعي على العمـــوم **وتستند على الاخص الى اوستفالد وماخ وبيرسون وبوانكاره ودوهيم** ، وترى ان العلم ليس «نسخة طبق الاصل تماماً عن الواقع» و... تستخلص من كل ذلك ، باوفر السلامة ، وجود الله ، لغايات عملية ، لأجل النشاط العملي فقط ، دون اي ميتافيزياء ، دون ان تتجاوز ابداً حدود التجربة» (قارنوا William James. «Pragmatism A new name for some old ways of thinking», N. J. and L., 1907, p. 57 ولاسيما 106 (قارنوا وليام جيمس «البراغماتيـــة اسم جديد لبعض الطرق القديمة في التفكير» نيويورك ولندن عام ١٩٠٧ ص ٥٧ ولا سيما ص ١٠٦)) ان الفرق بين الماخية والبراغماتية هو ، من وجهة النظر المادية ضئيل لا يؤبه له كالفرق بين المذهب النقدي التجريبي ومذهب الاحادية التجريبية وللاقتناع بذلك ، قارنوا على الاقل تعريف الحقيقة كما صاغه بوغدانوف بتعريف البراغماتيين «الحقيقـــة هي بنظر البراغماتي مفهوم جنسي يحدد في التجربـــة قيم عمـــل (working-values) معينة من اي جنس كان» (المصدر نفسه . ص ٦٨) .

ذات قيمة كبيرة جداً في ميدان الابحاث العملية المختصة وذلك لأن هذه النظرية شأنها شأن **علم العرفان** هي علم **حزبي** في المجتمع المعاصر وليس اساتذة علم الاقتصاد بوجه عام سوى خدم متعلمين لطبقة الرأسماليين وليس اساتذة الفلسفة سوى خدم متعلمين للاهوتيين

ينبغي على الماركسيين هنا وهناك ان يعرفوا كيف يستوعبون ويعالجون مكتسبات هؤلاء «الخدم» (فانكم لن تخطوا مثلاً ، اية خطوة في ميدان دراسة الظاهرات الاقتصادية الجديدة دون الاستفادة من دراسات هؤلاء الخدم) ؛ ينبغي على الماركسيين ان **يعرفوا** كيف يقتطعون من هذه المكتسبات ميلها الرجعي ينبغي عليهم ان يعرفوا كيف يطبقون خطهم **الخاص** وكيف يناضلون **ضد كل خط** القوى والطبقات المعادية لنا وهذا ما لم يستطع ان يقوم به اصحابنا الماخيون الذين يسيرون **بخنوع** وراء الفلسفة الاساتذية الرجعية وقد كتب لوناتشارسكي باسم واضعي كتاب «دراسات» يقول «قد نكون على ضلال ولكننا نبحث» لستم **انتم الذين** تبحثون انما **يبحثون عنكم** وتلك هي المصيبة ! لستم انتم الذين تعالجون من وجهة نظركم اي من وجهة النظر الماركسية (اذ انكم تريدون ان تكونوا ماركسيين) ، كلاً من تقلبات الموضة في الفلسفة البرجوازية ، بل ان هذه الموضة هي التي تعالجكم وتفرض عليكم تزويراتها الجديدة من ذوق المثالية à la (على طريقة – المعرب) اوستفالد اليوم وغداً à la ماخ وبعد غد – à la بوانكاره ان التحايلات «النظرية» الحمقاء («طاقة» ، «عناصر» «حقن» وما الى ذلك) التي تؤمنون فيها بسذاجة ، تظل في نطاق مدرسة ضيقة ، صغيرة للغاية ولكن **ميل** هذه التحايلات الفكرى و **الاجتماعي** يتلقفه حالاً ورد واضرابه والنقديون الجدد والكمونيون ولوباتين واضرابه والبراغماتيون ، **ويخدم خدمته** . ان هواية المذهب النقدي التجريبي

والمثالية «الفيزيائية» تزول بسرعة كما تزول هواية الكانطية الجديدة والمثالية «الفيزيولوجية» ولكن الايمانية تأخذ جزيتها من كل من هذه الهوايا معدلة بالف طريقة تحايلاتها في صالح المثالية الفلسفية

ان الموقف من الدين والعلوم الطبيعية يوضح غاية الايضاح هذا الاستخدام الطبقي **الفعلي** للمذهب النقدي التجريبي من جانب الرجعية البرجوازية

خذوا المسألة الاولى ألا ترون ان من باب الصدفة ذهب لوناتشارسكي في مؤلف جماعي **ضد** فلسفة الماركسية الى حد الكلام عن «تأليه الطاقات البشرية العليا» عن «الالحاد الديني» * والخ ؟ واذا كان هذا رأيكم فلسبب واحد هو ان الماخيين الروس قد اعطوا الجمهور معلومات خاطئة عن **كل** التيار الماخي في اوروبا وعن موقف هذا التيار من الدين ان هذا الموقف لا يشبه في شيء موقف ماركس وانجلس ويوسف ديتزغن وحتى فورباخ وليس هذا وحسب بل **يناقضه مباشرة** ابتداء من تصريحات بتسولدت ان المذهب النقدي التجريبي «لا يناقض مذهب التأليه ولا الالحاد» (Einführung in die Philosphie der reiner Erfahrurng» ** المجلد الاول ، ص ٣٥١) او من بيان ماخ القائل «الآراء الدينية قضية خاصة» (الترجمة الفرنسية ص ٤٣٤) حتى **الايمانية السافرة** حتى **النزعة الرجعية المتطرفة**

* «دراسات» ص ١٥٧ ١٥٩ ان هذا المؤلف يعالج ايضاً في صحيفة «زاغرانيتشنايا غازيتا» (٩٧) موضوع «الاشتراكية العلمية وقيمتها الدينية» (العدد ٣ ، ص ٥) كما كتب صراحة في مجلة «اوبرازوفانيه» (٩٨) ، ١٩٠٨ ، العدد ١ ، ص ١٦٤ ، يقول «ان ديناً جديداً ينضج في نفسي من زمان بعيد

* * «مقدمة فلسفة التجربة الخالصة» . **الناشر** .

السافرة سواء عند كورنيليوس الذي يمدح ماخ والذي يمدحه ماخ ام عند كاروس وجميع الكمونيين ان حياد **الفيلسوف** في هذه المسألة **انما هو** الخنوع امام الايمانية والحال لا يرتفع ماخ وافيناريوس ولا يستطعان الارتفاع فوق هذا الحياد بسبب من نقاط انطلاق عرفانيتهما

وما دمتم تنكرون الواقع الموضوعي المعطى لنا من خلال الاحساس ، فانكم تفقدون كل سلاح ضد الايمانية اذ انكم تنزلقون حينذاك الى لجة اللاعرفانية او الى لجة الذاتية ولا تتطلب الايمانية منكم اكثر من ذلك فاذا كان العالم المحسوس واقعاً موضوعياً أغلق الباب على كل «واقع» آخر او على كل واقع مزعوم آخر (تذكروا ان بازاروف قد آمن في «واقعية» الكمونيين الذين قالوا ان الله «مفهوم واقعي») واذا كان العالم مادة متحركة كان من الممكن والواجب دراستها الى ما لا نهاية في اقل الظاهرات والتشعبات اللامتناهية التعقيد والتفصيل **لهذه** الحركة ، حركة **هذه** المادة بيد انه لا يمكن ان يكون ثمة شيء خارج هذه المادة خارج العالم الخارجي «الفيزيائي» الأليف للجميع ولكل فرد ان العداوة للمادية والافتراءات المكدسة على الماديين رائجة اليوم في اوروبا المتمدنة والديموقراطية وكل ذلك ما يزال قائماً حتى الآن كل ذلك **يخفيه** الماخيون الروس عن الجمهور وهم لم يحاولوا **ولو مرة واحدة** ان يقارنوا بكل بساطة بين تهجمات ماخ وافيناريوس وبتسولدت وشركاهم على المادية وبين بيانات فورباخ وماركس وانجلس ويوسف ديتزغن **في صالح** المادية

ولكنه لن يجدي نفعاً «اخفاء» موقف ماخ وافيناريوس من الايمانية فالوقائع هي الوقائع وما من جهد في العالم ينتزع هؤلاء الاساتذة الرجعيين من صليب الخزي والعار الذي سمرتهم عليه قبلات ورد ، والنقديين الجدد ، وشوبه ، وشوبرت-

زولدرن وليكلر والبراغماتيين ، وغيرهم ان تأثير هؤلاء القوم الذين ذكرت الآن اسماءهم بوصفهم فلاسفة واساتذة وانتشار افكارهم بين الجمهور «المتعلم» اي البرجوازي والادب الخاص الذي ابدعوه كل ذلك اغنى واوسع عشر مرات من مدرسة ماخ وافيناريوس الخاصة الصغيرة ان هذه المدرسة تخدم من يترتب عليها ان تخدمهم وهم يستخدمون هذه المدرسة كما ينبغي استخدامها

ان الاعمال المخزية التي انحط اليها لوناتشارسكي ليست بالامر الاستثنائي انما هي ثمرة المذهب النقدي التجريبي الروسي والالماني معاً ولا يمكن الدفاع عنها بالتذرع «بحسن نوايا» المؤلف ولا «بمعنى» اقواله «الخاص» فاذا كان المقصود معناها المباشر العادي المألوف اي الايماني الصريح فاننا لن نحاول ابداً الدخول في جدال مع المؤلف اذ لا ريب انه لن يكون ثمة ماركسي **لم** يعمد بعد هذه البيانات الى وضع اناطولي لوناتشارسكي ، **دون تحفظ** في نفس مرتبة بيوتر ستروفه واذا لم يكن الحال كذلك (وليس الحال كذلك **حتى الآن**) فلسبب واحد هو اننا نرى في كلمات الاول لوناتشارسكي معنى «خاصاً» **فنكافحه ما دام ثمة امامنا مجال** لمكافحته كرفاق ان عار بيانات لوناتشارسكي هو بالضبط كونه **استطاع** ان يربط بياناته هذه «بحسن» نواياه وان ضرر «نظريته» هو بالضبط كونها تسلم بوسائل **كهذه** او باستنتاجات **كهذه** من اجل تحقيق النوايا الحسنة والمصيبة هي بالضبط كون النوايا «الحسنة» تظل **في افضل الحالات** شأناً ذاتياً من شؤون يوسف او عصام او سليم بينما **الاهمية الاجتماعية** لمثل هذه البيانات ثابتة لا جدال حولها ولا يمكن تقليلها باية تحفظات او تفسيرات

فالعميان وحدهم لا يرون القرابة الفكرية بين «تأليه الطاقات البشرية العليا» الذي قال به لوناتشارسكي وبين ما قال به

بوغدانوف من «استبدال» كل الطبيعة الفيزيائية «العام» بالنفسي فالفكرة هنا واحدة، ولكنها في احدى الحالتين مصاغة بصورة رئيسية من وجهة نظر علم الجمال، وفي الحالة الثانية، من وجهة نظر علم العرفان. فان «الاستبدال»، اذ يعالج المسألة **في صمت** ومن جهة اخرى **يؤله** «الطاقات البشرية العليا»، فاصلاً «النفسي» عن الانسان، ويستبدل **الطبيعة الفيزيائية كلها** «بالنفسي بوجه عام» الموسَّع الى ما لا حد له المجرد الميت بروعة آلهية وما هو «لوغوس» يوشكيفيتش الذي يُدخل في «التيار اللاعقلاني للمعطى»؟

اول الشجرة النواة واول الهلاك زلة والحال ان ماخيينا جميعهم زلت بهم القدم في المثالية اي في ايمانية ملطفة متفننة وجميعهم يتخبطون في حمأتها منذ ان اخذوا يعتبرون «الاحساس» «عنصراً» خاصاً وليس صورة عن العالم الخارجي فاذا لم يقر المرء بالنظرية المادية التي تقول ان الوعي الانساني **يعكس** العالم الخارجي الفعلي موضوعياً انزلق بالضرورة الى احساس لا يخص احداً الى نفسية لا تخص احداً الى روح لا تخص احداً الى ارادة لا تخص احداً

٥ – ارنست هيكل وارنست ماخ

انظروا الى موقف الماخية **بوصفها تياراً فلسفياً** من علم الطبيعيات فان الماخية كلها **تحارب** منذ البداية والى النهاية ضد «ميتافيزياء» علم الطبيعيات، مطلقة هذه التسمية على **المادية الطبيعية التاريخية** اي الاقتناع العفوي غير الواعي غير المتشكل اللاواعي فلسفياً لدى الاغلبية الساحقة من علماء الطبيعيات بواقعية العالم الخارجي الموضوعية التي يعكسها وعينا وهذا **الواقع** يلزم اصحابنا الماخيون الصمت حوله زيفاً وانفاقاً طامسين او مشوشين الصلة **التي لا تنفصم عراها** بين المادية العفوية لدى علماء الطبيعيات

وبين **المادية الفلسفية** بوصفها اتجاهاً معروفاً من قديم الزمان واكده ماركس وانجلس مئات المرات

خذوا افيناريوس ففي مؤلفه الاول بالذات الصادر عام ١٨٧٦ «الفلسفة بوصفها تفكيراً عن العالم بموجب مبدأ الحد الادني من الجهد» يحارب ميتافيزياء العلوم الطبيعية * اي المادية الطبيعية التاريخية ويحارب كما اعترف بنفسه في عام ١٨٩١ (ولكن دون ان «يصلح» نظراته !) من وجهة نظر المثالية العرفانية-النظرية

خذوا ماخ انه يحارب ميتافيزياء علم الطبيعيات ابداً ودائماً من عام ١٨٧٢ او حتى قبل ذاك الى عام ١٩٠٦ علماً بانه يعترف بنزاهة وحسن ذمة بان «كوكبة كاملة من الفلاسفة» (بمن فيهم الكمونيون) ولكن «**عدداً قليلاً جداً** من علماء الطبيعيات» يسيرون وراءه ومعه («تحليل الاحساسات» ، ص ٩) وفي عام ١٩٠٦ يعترف ماخ مرة اخرى بنزاهة وحسن ذمة بان «اغلبية علماء الطبيعيات تتبنى المادية («Erkenntnis und Irrtum», الطبعة الثانية ص ٤)

خذوا بتسولدت في عام ١٩٠٠ يعلن ان «العلوم الطبيعية مشبعة كلياً (ganz und gar) بالميتافيزياء» «لا يزال يتعين تطهير تجربتها» («Einführung in die Philosophie der reinen Erfahrung», Bd. I, S. 343) ونحن نعرف ان افيناريوس وبتسولدت «يطهران» التجربة من اي اعتراف بالواقع الموضوعي المعطى لنا من خلال الاحساس وفي عام ١٩٠٤ يعلن بتسولدت ان «العقيدة الميكانيكية عند عالم الطبيعيات المعاصر ليست من حيث الجوهر افضل من عقيدة الهنود القدماء» «لا فرق البتة فيما اذا كان العالم يرتكز على فيل الحكاية ام على الجزيئات والذرات اذا تصورها المرء» (مفاهيم) «واقعية على الصعيد العرفاني ، وليس مجرد»

---

* الفقرات ٧٩ ، ١١٤ ، وغيرهما .

(مفاهيم) «قابلة للاستعمال على سبيل المجاز (bloss bildlich)» (Bd. II, S. 176)

خذوا فيللي – الشخص الوحيد المستقيم بين الماخيين الى حد انه يستحي من القرابة مع الكمونيين – وهو ايضاً يعلن في عام ١٩٠٥ «وان العلوم الطبيعية تتبدى في آخر المطاف على درجة من المكانة في كثير من الميادين بحيث يتعين علينا ان نتخلص منها» («Gegen die Schulweisheit», S. 158.*).

والحال ان كل هذا **ظلامية مطبقة** ورجعية لامتناهية فان اعتبار الذرات والجزيئات والالكترونات والخ انعكاساً صادقاً بصورة تقريبية في رأسنا لحركة المادة **لحركتها الواقعية موضوعياً** يساوي الايمان في الفيل الذي يحمل العالم مفهوم ان تمسك الكمونيون **بكلتا اليدين** بمثل هذا **الظلامي** المجلبب ببدلة التهريج التي يجلبب بها الوضعي على الموضة فما **من كموني** لا ينقض ، والزبد يتدفق من فمه على «ميتافيزياء» علم الطبيعيات على «مادية» علماء الطبيعيات وذلك **بالضبط بسبب هذا الاعتراف** من جانب علماء الطبيعيات بالواقعية الموضوعية للمادة (ودقائقها) والزمان والمكان ، وبسنة الطبيعة ، وهكذا دواليك والى آخره . وقبل زمن طويل من الاكتشافات الجديدة في الفيزياء ، التي خلقت «المثالية الفيزيائية» ، كان ليكلر يناضل بالاعتماد على ماخ ضد «الاتجاه (Grundzug) المادي المهيمن في علم الطبيعيات المعاصر» (عنوان الفقرة ٦ في 1879 **«Der Realismus u. s. w.»**) وكان شوبرت-

* «ضد الحكمة المدرسية» ص ١٥٨ **الناشر**

** «Der Realismus der modernen Naturwissenschaft im Lichte der von Berkeley und Kant angebahnten Erkenntniskritik» – («واقعية العلوم الطبيعية المعاصرة في ضوء نقد المعرفة الذي اعطاه بركلي وكانط» **الناشر**) .

زولدرن يحارب ميتافيزياء علم الطبيعيات (عنوان الفصل الثاني في («Grundlagen einer Erkenntnistheorie», 1884*) ، وكان رمكه يقاتل ضد «المادية» الطبيعية التاريخية ضد **«ميتافيزياء الشارع»** هذه («Philosophie und Kantianismus», 1882, S. 17**) وهكذا دواليك والى آخره

ومن هذه الفكرة **الماخية** عن «ميتافيزيائية» المادية الطبيعية التاريخية استخلص الكمونيون بصورة مشروعة تماماً استنتاجات ايمانية **صريحة وسافرة** فاذا كان علم الطبيعيات لا يرسم لنا في نظرياته الواقع الموضوعي بل يرسم **فقط** المجازات والرموز واشكال التجربة الانسانية والخ فلا مراء اطلاقاً بانه يحق للبشرية ان تصنع لنفسها من اجل ميدان آخر «مفاهيم» **ليست اقل «واقعية»** من نوع الاله وما الى ذلك

ان فلسفة عالم الطبيعيات ماخ تعني بالنسبة لعلم الطبيعيات كما كانت قبلة المسيحي يهوذا تعني بالنسبة للمسيح فان ماخ يخون بالطريقة نفسها علم الطبيعيات في صالح الايمانية ، منتقلاً من حيث جوهر الامر الى جانب المثالية الفلسفية ان تنكر ماخ للمادية الطبيعية التاريخية هو ظاهرة رجعية من جميع الوجوه فقد رأينا هذا بما يكفي من الوضوح في معرض الكلام عن نضال «المثاليين الفيزيائيين» ضد **اغلبية** علماء الطبيعيات ممن لا يزالون يتبنون وجهة نظر الفلسفة القديمة وسنرى هذا بمزيد من الوضوح اذا اجرينا مقارنة بين عالم الطبيعيات الشهير ارنست هيكل وبين الفيلسوف الشهير (في اوساط التفاهة الرجعية) ارنست ماخ

---

* «اسس نظرية المعرفة» عام ١٨٨٤ **الناشر**

** «الفلسفة والكانطية» ، عام ١٨٨٢ ، ص ١٧ . **الناشر** .

ان العاصفة التي استثارها في جميع البلدان المتمدنة كتاب ارنست هيكّل «الالغاز العالمية» قد كشفت بشكل بارز وواضح جداً **حزبية** الفلسفة في المجتمع المعاصر من جهة والاهمية الاجتماعية الحقيقية لنضال المادية ضد المثالية واللاعرفانية من جهة اخرى فان **مئات الآلاف** من نسخ الكتاب الذي ترجم في الحال الى جميع اللغات وصدر خصيصاً بطبعات رخيصة قد بينت بكل وضوح ان هذا الكتاب «راح الى الشعب» وانه توجد **جماهير** من القراء الذين اجتذبهم ارنست هيكّل في الحال الى جانبه فقد اصبح هذا الكتاب الرائع اداة للنضال الطبقي وعمد اساتذة الفلسفة واللاهوت في جميع اقطار الدنيا الى تقريع هيكّل بآلاف الطرائق والى القضاء عليه بآلاف الاساليب واندفع الفيزيائي الانجليزي الشهير لودج يدافع عن الرب دون هيكّل ومضى الفيزيائي الروسي السيد خفولسون الى المانيا لكي يطبع هناك كراسة سافلة رجعية متطرفة ضد هيكّل ويؤكد للسادة الاجلاء التافهين الضيقي الافق ان ليست جميع العلوم الطبيعية تتبنى الآن وجهة نظر «الواقعية الساذجة». * ولا عدّ لاولئك اللاهوتيين الذين تألبوا على هيكّل وانهال عليه اساتذة الفلسفة الرسميون بشتائم الحقد والغضب من كل لون وشاكلة ** ومن المسلي والمفرح ان نرى كيف تشع العيون

---

* O. D. Chwolson. «Hegel, Haeckel, Kossuth und das zwölfte Gebot», 1906. S. 80 قارنوا (او د خفولسون «هيغل هيكّل كوشوت والوصية الثانية عشرة» عام ١٩٠٦ قارنوا ص ٨٠ **الناشر**)

** ان كراسة هنريخ شميدت «الصراع بسبب **«الالغاز العالمية»**» (بون عام ١٩٠٠) تعطي وصفاً لا باس به لحملة اساتذة الفلسفة واللاهوت على هيكّل . ولكن هذه الكراسة قد شاخت كثيراً في الوقت الحاضر .

وتتورد الخدود عند هذه المومياءات التي جفت في المدرسية الميتة ، — ولربما للمرة الاولى في الحياة — من جراء تلك الصفعات التي نزل بها ارنست هيكل عليها ان كهان العلم الخالص والنظرية الاكثر تجرداً على ما يبدو يئنون ويتألمون من الغضب المسعور وفي كل هذا الخوار الذي يطلقه الرجعيون المتطرفون في الفلسفة (المثالي باولسن الكموني رمكه الكانطي اديكس ومن لف لفهم اما اسماء هؤلاء ، فالله وحده اعلم بها !) تتعالى بكل وضوح نبرة اساسية واحدة ضد «**ميتافيزياء**» علم الطبيعيات ضد «الجمود العقائدي» ، ضد «استعظام قيمة علم الطبيعيات واهميته» ضد «**المادية** الطبيعية التاريخية» انه مادي عليه يا رجال على المادي يا رجال ! انه يخدع الجمهور بعدم القول صراحة عن نفسه بانه مادي — هذا على وجه الخصوص ما يدفع السادة الاساتذة الاجلاء الى حد الغيظ والجنون

ومما له دلالة خاصة في كل هذه المشهدية التراجيدية الكوميدية * واقع ان هيكّل نفسه **يتبرأ من المادية** ، يرفض هذا النعت زد على ذلك انه لا ينكر اي دين وليس هذا وحسب بل يختلق ديناً خاصاً به (هو ايضاً ضرب من «الايمان الالحادي» لبولغاكوف او من «الالحاد الديني» للوناتشارسكي) **مدافعاً من الناحية المبدئية** عن الاتحاد بين الدين والعلم فما الحكاية ؟ ومن جراء اي «سوء تفاهم مشؤوم» اندلع الهرج والمرج ؟

الحكاية ان سذاجة ارنست هيكل الفلسفية وغياب الاهداف

---

* ان العنصر التراجيدي ، المأساوي ، قد حمله الاعتداء على حياة هيكّل في ربيع السنة الجارية (١٩٠٨) فبعد جملة من الرسائل المغفلة التي حيت هيكل بنعوت من نوع «كلب» «كافر» ، «قرد» وما الى ذلك ، رمى رجل مجهول ، الماني حقاً في مكتب هيكل في يينا حجراً ذا وزن لا بأس به .

الحزبية الواضحة عنده ورغبته في مراعاة الوهم التافه السائد ضد المادية وميوله التوفيقية الشخصية ، ومقترحاته بصدد الدين ، — كل هذا اظهر بمزيد من الوضوح **روح** كتابه **العامة** ، **واستحالة استئصال** المادية الطبيعية التاريخية ، **واستحالة التوفيق** بينها وبين **كل** الفلسفة واللاهوت الاستاذيين الرسميين ان هيكل لا يرغب شخصياً في القطيعة مع التافهين الضيقي **الافق** ولكن ما يعرضه بمثل هذا الاقتناع الساذج الذي لا يتزعزع لا يتوافق **اطلاقاً** مع اي من تلاوين المثالية الفلسفية السائدة جميع هذه التلاوين ابتداء من النظريات الرجعية الاشد خشونة التي يلفقها هارتمان ما حتى المذهب الوضعي لبتسولدت الذي يظن نفسه حديثاً وتقدمياً وطليعياً او المذهب النقدي التجريبي لماخ **جميعها** تتفق في ان المادية الطبيعية التاريخية هي «ميتافيزياء» وان الاعتراف بالواقع الموضوعي لنظريات العلوم الطبيعية واستنتاجاتها هو «واقعية ساذجة» للغاية ، وما الى ذلك وهذه التعاليم «الحميمة» **لكل** الفلسفة الاستاذية واللاهوت الاستاذي هي التي **تصفعها** كل صفحة من صفحات كتاب هيكّل فان عالم الطبيعيات هذا ، الذي **يعرب** بالتأكيد عن الآراء والامزجة والميول الاشد رسوخاً وان لم تكن قد اتخذت شكلاً مكتملاً لدى الاغلبية الساحقة من علماء الطبيعيات في اواخر القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين ، قد بيّن من الوهلة الاولى ، وبسهولة وبساطة ما حاولت الفلسفة الاستاذية ان تخفيه عن الجمهور وعن نفسها ونعني بذلك انه توجد دعامة تصبح اوسع فأوسع وامتن فأمتن وتتحطم عليها جميع جهود ومساعي الف مدرسة ومدرسة للمثالية الفلسفية والوضعية والواقعية والمذهب النقدي التجريبي وغير ذلك من ضروب الالتباس هذه الدعامة هي **المادية الطبيعية التاريخية** ان اقتناع «الواقعيين السذج» (اي البشرية جمعاء) بان احساساتنا هي صور عن العالم الخارجي الواقعي

موضوعياً هو اقتناع يتعاظم ويشتد باستمرار لدى جمهور علماء الطبيعيات

اخفقت قضية مؤسسي المدارس التافهة الفلسفية الجديدة مؤلفي المذاهب العرفانية الجديدة ، - اخفقت الى الابد وبلا أمل بوسعهم ان يتخبطوا مع انظمتهم التافهة «الاصيلة» بوسعهم ان يشغلوا بال بعض الانصار بجدال طريف حول ما اذا كان الناقد التجريبي بوبتشينسكي ام الاحادي التجريبي دوبتشينسكي (٩٩) هو الذي سبق ولفظ حرف «ت بوسعهم ان يدبجوا حتى ادباً «خاصاً» شاسعاً على غرار «الكمونيين» ، - فان مجرى تطور علم الطبيعيات رغم كل تذبذبه وتأرجحه رغم كل المادية اللاواعية لدى علماء الطبيعيات رغم الانسياق في الامس وراء «المثالية الفيزيولوجية» الدارجة او اليوم وراء «المثالية الفيزيائية» الدارجة ينبذ **جانبا** جميع الانظمة التافهة وجميع التحايلات مقدماً المرة تلو المرة «ميتافيزياء» **المادية الطبيعية التاريخية**

اليكم توضيحاً لما قيل بالاستناد الى مثال من امثلة هيكل ففي «عجائب الحياة» يقارن المؤلف بين نظرية العرفان الاحادية والاثنينية وهنا نسوق اطرف بنود المقارنة

نظرية العرفان الاحادية	**نظرية العرفان الاثنينية**
٣ - المعرفة هي ظاهرة فيزيولوجية: العضو التشريحي هو الدماغ	٣ - المعرفة ليست ظاهرة فيزيولوجية بل عملية روحية خالصة
٤ - الجزء الوحيد من الدماغ البشري الذي توجد فيه المعرفة هو جزء معين من قشرة الدماغ ، «الفرونيما»	٤ - ان ذلك الجزء من الدماغ الذي يبدو انه يعمل بوصفه عضو المعرفة ، ليس بالفعل غير اداة تساعد في اظهار الظاهرات الذهنية .

٥ – الفرونيما هو آلة دينامو – كهربائية كاملة للغاية اقسامها المكونة ملايين الخلايا الفيزيائية (الخلايا الفرونيمائية) ان وظيفة القسم المعني من الدماغ (الوظيفة الروحية) هي تماماً كما بالنسبة لسائر اعضاء الجسم النتيجة النهائية لوظائف الخلايا التي تشكل الدماغ *	٥ – الفرونيما بوصفه **عضو** العقل ليس مستقلاً ، وليس مع اقسامه المكونة (الخلايا الفرونيمائية) سوى وسيط بين الروح غير المادية والعالم الخارجي ان العقل البشري يختلف من حيث الجوهر عن عقل الحيوانات العليا وعن غريزة الحيوانات الدنيا

وانتم ترون من هذا المقتطف النموذجي لمؤلفات هيكّل انه لا يحلل المسائل الفلسفية ولا يعرف كيف يقابل بين نظرية العرفان المادية ونظرية العرفان المثالية وهو **يسخر** من **جميع** التحايلات المثالية بل يسخر بالاضافة الى ذلك ، من جميع التحايلات الفلسفية الخاصة من وجهة نظر العلوم الطبيعية ، **دون ان يجيز حتى الفكرة** الزاعمة انه يمكن وجود نظرية للعرفان اخرى غير **المادية الطبيعية التاريخية** وهو يسخر من الفلاسفة من وجهة نظر المادي **دون ان يرى واقع** انه يتبنى وجهة نظر المادي

وانه لمفهوم حقد الفلاسفة العاجز على هذه المادية الكلية القدرة ولقد سقنا اعلاه رأي «الروسي حقاً» لوباتين واليكم الآن رأي السيد رودولف فيللي ، «الناقد التجريبي» الاكثر تقدماً المعادي للمثالية عداء مستحكماً (لا تمزحوا !) «الخليط العمائي لبعض القوانين الطبيعية التاريخية مثلاً قانون بقاء الطاقة وما اليه الى جانب التقاليد المدرسية بصدد الجوهر والشيء في ذاته» (Gegen die Schulweisheit», S. 128).

---

* هنا استعمل الترجمة الفرنسية «Les merveilles de la vie», Paris, Schleicher. Tabl. I et XVI («عجائب الحياة» ، باريس ، شليخر ، الجدولان ١ ، ١٦ – **الناشر**) .

ما الذي أغضب «الوضعي الحديث» الجزيل الاحترام ؟ ولكن كيف لا يغضب وقد فهم في الحال ان جميع التعاليم العظيمة لمعلمه افيناريوس – مثلاً ان الدماغ ليس عضو الفكر وان الاحساسات ليست صور العالم الخارجي وان المادة («الجوهر») او «الشيء في ذاته» ليس واقعاً موضوعياً والخ . – هي ، من وجهة نظر هيكل **رطانة مثالية برمتها** ؟ ان هيكل لم يقــل هذا لأنه لم يتعاط الفلسفة ولم يطلع على «المذهب النقدي التجريبي» ، **مأخوذاً بحد ذاته** ولكنه لا يسع رودولف فيللي ان لا يرى ان قراء هيكل المائة الف يعنون مائة الف باصق في وجه **فلسفة** ماخ وافيناريوس وسلفاً يمسح رودولف فيللي وجهه – **على طريقة لوباتين** لأن **كنه** ذرائع السيد لوباتين والسيد فيللي ضد كل مادية على العموم وضد المادية الطبيعية التاريخية على الخصوص واحد تماماً وان الفرق بين السيد لوباتين والسيد فيللي وبتسولدت وماخ وشركاهما ليس بنظرنا نحن الماركسيين اكبر من الفرق بين اللاهوتي البروتستانتي واللاهوتي الكاثوليكي

ولقد برهنت «الحرب» ضد هيكل ان نظرتنا هذه تتطابق مع **الواقع الموضوعي** اي مع الطبيعة الطبقية للمجتمع المعاصر ولميوله الفكرية الطبقية

اليكم مثالاً صغيراً آخر ترجم الماخي كلينبيتر من اللغة الانجليزية الى اللغة الالمانية مؤلف كارل سنايدر المنتشر في اميركا «لوحـــة العالـــم من وجهـــة نظر علـــم الطبيعيـــات المعاصر» («Das Weltbild der modernen Naturwissenschaft», Lpz., 1905) ان هذا المؤلف يعرض بصورة واضحة واسلوب مبسط جملة كاملة من الاكتشافات الحديثة سواء في الفيزياء ام في الميادين الاخرى من علم الطبيعيات ولكن الماخي كلينبيتر اضطر الى تزويد سنايدر بمقدمة تتضمن **تحفظات** منها ، مثلاً ، ان طريقة العرفان لدى سنايدر

«غير مرضية» (S. V) فما الحكاية ؟ الحكاية ان سنايدر لا يخامره وان لحظة ، اي شك بصدد ان لوحة العالم هي لوحة عن كيف تتحرك المادة وعن كيف «**تفكر المادة**» (S. 228, l. c.) ويقول سنايدر في عمله الثاني «آلة العالم» ,(Karl Snyder. «The World Machine» Lond. and N. Y., 1907) ملمحاً الى تكريســـــه كتابه لذكرى ديموقريطس من ابديرا الذي عاش تقريباً بين عام ٤٦٠ وعام ٣٦٠ قبل المسيح «غالباً ما سموا ديموقريطس بالوالد المسبـــق للمادية ان هذه المدرسة الفلسفية ليست نوعاً على الموضة في ايامنا ولكنه لن يكون من النافل التنويه بان كل التقدم الحديث لتصوراتنا عن العالم قد ارتكز بالفعل على مقدمات المادية ان المقدمات المادية ، اذا تكلمنا صراحة (practically speaking) ، هي بكل بساطة **غير قابلة للازالة** (unescapable) في البحوث الطبيعية التاريخية» (ص ١٤٠)

«من المؤكد ان بوسع المرء ، اذا طاب له ، ان يحلم مع الاسقف الطيب بركلي بصدد الموضوع التالي وهو ان كل شيء حلم ولكن مهما كانت شعوذات المثالية الهوائية مستطابة ، فانه سيتواجد مع ذلك عدد قليل من الناس ممن يشكون – رغم تبنيهم لاكثر الآراء في قضية العالم الخارجي تبايناً – في انهم موجودون ولا داعي للمرء الى بذل الكثير من الجهود بشأن سراب **الأنا واللا – أنا** لكي يقتنع باننا اذ نُسلم بوجودنا بالذات انما نفتح البوابات الست لحواسنا امام طائفة من التخيلات ان فرضية الكتل الضبابية ونظرية النور بوصفه حركة الاثير ، ونظرية الذرات وجميع التعاليم المماثلة لها انما يمكن اعلانها بكل بساطة «فرضيات عمل» ملائمة ؛ ولكنه يجب التذكير بان هذه التعاليم طالما لم يتم دحضها تظل تقوم بهذا القدر او ذاك على نفس الاساس الذي تقوم عليه الفرضية القائلة ان الكائن الذي تسميه بنفسك ، ايها القارىء الفائق اللطف ، يطالع هذه الاسطر» (ص ٣١–٣٢) .

تصوروا قسمة الماخي المرة حين تتعرض تلفيقاته المتفننة المفضلة التي تحصر مقولات العلوم الطبيعية في مجرد فرضيات عمل للسخر والتهكم بوصفها هراء ولغو ، من قبل علماء الطبيعيات من على جانبي المحيط ! هل يعجبون من كون رودولف فيللي يحارب في عام ١٩٠٥ كما ضد عدو حي ضد ديموقريطس مقدماً بذلك برهاناً رائعاً على **حزبية الفلسفة** وكاشفاً ايضاً وايضاً موقفه الحقيقي في هذا الصراع الحزبي ؟ فقد كتب يقول «من المؤكد ان ديموقريطس لا يلم بواقع ان الذرات والمكان الفارغ ليسا سوى مفهومين وهميين يقدمان مجرد خدمة بوصفهما وسيلة ثانوية (blosse Handlangerdienste) ، يتقبلونهما لاعتبارات العقلانية ما داما صالحين للاستعمال ان ديموقريطس لم يكن حراً الى حد ان يفهم هذا ولكن اصحابنا علماء الطبيعيات المعاصرين باستثناء قلة قليلة منهم ليسوا هم ايضاً احراراً ان ايمان ديموقريطس القديم هو ايمان اصحابنا علماء الطبيعيات» . (l. c., S. 57)

هناك حقاً ما يحمل على اليأس لقد برهنوا «بطريقة جديدة» تماماً بطريقة «النقد التجريبي» ان المكان والذرات على السواء «فرضيتا عمل» ولكن علماء الطبيعيات يسخرون من هذه **البركلية** ويسيرون وراء هيكل نحن لسنا البتة مثاليين هذا افتراء نحن لا نفعل غير ان نكدح (مع المثاليين) لدحض الخط العرفاني عند ديموقريطس ونكدح منذ اكثر من ٢٠٠٠ سنة ، — ولكن عبثاً فلا يبقى لزعيمنا ارنست ماخ الا ان يهدي عمله الاخير حاصل حياته وفلسفته «المعرفة والضلال» ، **لواهلم شوبه** وان يشير في المتن بتأسف الى ان علماء الطبيعيات ماديون باغلبيتهم و«اننا نحن ايضاً» **نتعاطف** مع هيكل بسبب «التفكير الحر» (ص ١٤)

هنا ارتسم كله ، هذا الايديولوجي للتفاهة الرجعية **السائر**

وراء الرجعي المتطرف ولهلم شوبه ، و«**المتعاطف**» مع هيكل وتفكيره الحر انهم هكذا جميعاً ، هؤلاء التافهين الضيقي الافق الانسانيين في اوروبا مع عواطف حبهم للحرية ومع وقوعهم في الاسر الفكري (والسياسي والاقتصادي) لاضراب ولهلم شوبه * ان اللاحزبية في الفلسفة ليست غير استخذاء مستور باحتقار امام المثالية والايمانية.

وفي الختام قارنوا رأي فرانتس مهرينغ في هيكّل علماً بان مهرينغ انسان لا يرغب في ان يكون ماركسياً وحسب ، بل يعرف كذلك كيف يكون ماركسياً فما ان صدر كتاب «الغاز العالم» وذلك في اواخر عام ١٨٩٩ حتى اشار مهرينغ على الفور الى ان «مؤلف هيكّل رائع القيمة سواء بجوانبه الضعيفة ام بجوانبه القوية للمساعدة في توضيح بضع نظرات مشوشة في حزبنا بصدد ما تشكله بالنسبة له المادية **التاريخية** من جهة **والمادية** التاريخية من جهة اخرى» ** ان نقص هيكّل ، هو انه ليست لديه اية فكرة عن المادية **التاريخية** فتمادى الى حد النطق بجملة كاملة من السخافات الصارخة سواء بصدد السياسة ام بصدد «الدين الاحادي» والخ وهلم جراً «هيكّل مادي واحادي ولكنه ليس مادياً **تاريخياً** ، بل مادي طبيعي تاريخي» (المرجع نفسه)

«ليطالع كتاب هيكّل كل من يريد ان يلمس بيديه هذا العجز (عجز المادية الطبيعية التاريخية عن تناول المسائل

---

* ان بليخانوف لم يعن في ملاحظاته ضد الماخية بدحض ماخ قدر ما عني بالحاق الضرر التكتلي بالبلشفية وجزاء على هذا الاستغلال التافه والحقير للخلافات النظرية الجذرية عوقب بحق وعدالة بكتابين من تاليف المناشفة-الماخيين ١٠٠)

** Fr. Mehring. «Die Welträtsel», «Neue Zeit», 1899–1900, 18, 1, 418 (فرانتس مهرينغ «الغاز العالم» «الازمنة الحديثة» ، ١٨٩٩–١٩٠٠ ، ١٨ ، ١ ، ٤١٨ . **الناشر**).

الاجتماعية) كل من يريد ان يدرك الى اي حد من الضروري توسيع المادية الطبيعية التاريخية حتى المادية التاريخية بغية تحويلها الى سلاح قاهر فعلاً في كفاح البشرية التحرري العظيم

ولكنه لا ينبغي قراءة كتاب هيكل لهذا الغرض وحسب فان جانبه الخارق الضعف مرتبط بصورة لا انفصام لعراها بجانبه الخارق القوة – اي بعرض جلي ساطع لتطور العلوم الطبيعية في هذا القرن (التاسع عشر) يشكل القسم الاكبر الى ما لا قياس من الكتاب – سواء من حيث الحجم او من حيث الاهمية – اي بتعبير آخر «بعرض **لزحف المادية الطبيعية التاريخية المظفر**» *

* Franz Mehring. Die Welträtsel», «Neue Zeit», 1899–1900, 18, 1, 419.

الخاتمة

يجب على الماركسي ان يعمد من اربع وجهات نظر الى تقييم المذهب النقدي التجريبي

اولاً وقبل كل شيء من الضروري مقارنة الاسس النظرية لهذه الفلسفة وللمادية الدياليكتيكية ان هذه المقارنة التي خصصنا لها الفصول الثلاثة الاولى تبيّن **على طول خط** المسائل العرفانية **الرجعية التامة** الملازمة للمذهب النقدي التجريبي الذي يستر بألاعيب وتحايلات وكلمات جديدة الاخطاء القديمة **للمثالية واللاعرفانية** ولا يمكن الحديث عن «الجمع» بين المذهب النقدي التجريبي والماركسية الا في حال الجهل المطبق بصدد ماهية المادية الفلسفية على العموم وبصدد ماهية طريقة ماركس وانجلس الدياليكتيكية

ثانياً من الضروري تحديد مكان المذهب النقدي التجريبي بوصفه مدرسة صغيرة جداً لفلاسفة اختصاصيين بين المدارس الفلسفية الاخرى في العهد المعاصر لقد بدأ ماخ وافيناريوس على السواء من كانط ومنه لم يذهبا نحو المادية بل ذهبا في الاتجاه المعاكس نحو هيوم ونحو بركلي وقد تصور افيناريوس انه «يطهر التجربة» على العموم ولكنه لم يطهر بالفعل الا اللاعرفانية من الكانطية . ان مدرسة ماخ وافيناريوس تمضي كلها الى المثالية

بوضوح متعاظم ابداً ، وفي وحدة وثيقة مع مدرسة من اشد المدارس المثالية اغراقاً في الرجعية هي مدرسة من يسمون بالكمونيين

ثالثاً يجب ان تؤخذ بعين الاعتبار الصلة الاكيدة بين الماخية وبين مدرسة في فرع من فروع العلوم الطبيعية الحديثة فالى جانب المادية تقف ابداً ودائماً الاغلبية الساحقة من علماء الطبيعيات سواء على العموم ام في الفرع المختص المعني اي بالضبط في الفيزياء اما اقلية الفيزيائيين الجدد ، فقد انزلقت عبر النسبية الى المثالية بحكم جهل الدياليكتيك وبتأثير تحطيم النظريات القديمة من قبل الاكتشافات العظيمة في السنوات الاخيرة وبتأثير ازمة الفيزياء الجديدة هذه الازمة التي بينت بجلاء خاص نسبيـــة معارفنا ان المثالية الفيزيائية الدارجة في ايامنا هي هواية رجعية وقصيرة الأمد شأنها شأن المثالية الفيزيولوجية الدارجة في الماضي غير البعيد

رابعاً لا يجوز للمرء ان لا يرى وراء السكولاستيك العرفاني للمذهب النقدي التجريبي صراع الاحزاب في الفلسفة هذا الصراع الذي يعبر في آخر تحليل عن ميول الطبقات المتعادية في المجتمـــع المعاصر وعن ايديولوجيتها فان الفلسفة الحديثة حزبية كالفلسفة منذ الفي سنة وان المادية والمثالية هما حزبان متصارعان من حيث جوهر الامر المستور بنعوت جديدة مشعوذة عقائديـــة جامدة او باللاحزبية القليلة العقل وما المثالية غير شكل متفنن منعم للايمانية التي تقف على كامل التأهب ، وتملك منظمات هائلة ، وتواصل التأثير ابداً ودائماً في الجماهير مستغلة في صالحها اقل تأرجح في الفكر الفلسفي . وان دور المذهب النقـــدي التجريبي ، دوره

الموضوعي الطبقي ينحصر كلياً في خدمة الايمانيين بخنوع ومذلة في نضالهم ضد المادية على العموم وضد المادية التاريخيـــة على الخصوص

كتـــب في شباط – تشرين الاول (فبراير-اكتوبـــر) عام ١٩٠٨ ؛ والاضافة الى الفقرة الاولى مـــن الفصل الرابـــع ، في آذار (مارس) عام ١٩٠٩
طبع في ايار (مايو) عام ١٩٠٩ بموسكـــو في كتاب على حدة في دار «زفينو»

المجلـــــد ١٨
ص ٧–٣٨٠

اضافة الى الفقرة الاولى من الفصل الرابع*

من اي جانب انتقد ن غ تشيرنيشيفسكي الكانطية ؟ (١٠١)

في الفقرة الاولى من الفصل الرابع بينا بالتفصيل ان الماديين انتقدوا وينتقدون كانط من جانب مقابل تماماً للجانب الذي ينتقده منه ماخ وافيناريوس ولا نرى من النافل ان نضيف هنا وان بايجاز اشارة الى الموقف العرفاني الذي وقفه الهيغلي والمادي الروسي العظيم ن غ تشيرنيشيفسكي

فبعد مرور حقبة قصيرة على انتقاد كانط من قبل البريخت راو، التلميذ الالماني لفورباخ حاول الكاتب الروسي العظيم ن غ تشيرنيشيفسكي، -وهو ايضاً تلميذ فورباخ، -ان يعرض للمرة الاولى بصورة صريحة موقفه من فورباخ وموقفه من كانط وقد تدخل ن غ تشيرنيشيفسكي في الادب الروسي، حتى في الخمسينيات من القرن الماضي كنصير لفورباخ ولكن رقابتنا لم تسمح له حتى بذكر اسم فورباخ وفي عام ١٨٨٨ حاول ن غ تشيرنيشيفسكي في مقدمة الطبعة الثالثة العتيدة لكتاب «علاقات الفن الجمالية بالواقع» ان يشير صراحة الى فورباخ ولكن الرقابة لم تسمح في عام ١٨٨٨ ايضاً حتى بمجرد الاستشهاد بفورباخ ! ولم تر المقدمة النور إلا في عام ١٩٠٦ انظروا المجلد ١٠، الجزء ٢ من «المؤلفات الكاملة» ن غ تشيرنيشيفسكي ص ١٩٠ –

* راجعوا هذا الكتاب، ص ٢٤٦–٢٦٠ **الناشر**.

١٩٧ في هذه «المقدمة» ، يخصص ن غ تشيرنيشيفسكي نصف صفحة لانتقاد كانط وعلماء الطبيعيات الذين يسيرون وراء كانط في استنتاجاتهم الفلسفية

اليكم محاكمة ن غ تشيرنيشيفسكي الرائعة هذه في عام ١٨٨٨

«ان اولئك من علماء الطبيعيات الذين يتصورون انهم صانعو النظريات الكلية يظلون في الواقع تلامذة ، بل تلامذة ضعفاء في الغالب ، للمفكرين القدماء الذين ابدعوا الانظمة الميتافيزيائية وللمفكرين الذين قضى شيلينغ على انظمتهم بصورة جزئية وقضى عليها هيغل نهائياً حسبنا التذكير بان اغلبية علماء الطبيعيات الذين حاولوا ان يبنوا نظريات واسعة عن قوانين نشاط الفكر البشري يكررون نظرية كانط الميتافيزيائية بصدد ذاتية معرفتنا» (ليأخذ الماخيون الروس الذين شوشوا كل شيء علماً بان تشيرنيشيفسكي يقف وراء انجلس لأنه يخلط في تعابيره بين مقابلة المثالية بالمادية ومقابلة التفكير الميتافيزيائي بالتفكير الديالكتيكي ولكن تشيرنيشيفسكي يقف كلياً في مستوى انجلس لأنه يلوم كانط لا بسبب الواقعية بل بسبب اللاعرفانية والذاتية ، لا بسبب التسليم «بالشيء في ذاته» بل بسبب عدم القدرة على استخلاص معرفتنا من هذا المصدر الموضوعي) «يزعمون على غرار كانط ان اشكال ادراكنا الحسي لا تشبه اشكال وجود الاشياء الفعلي» (ليأخذ الماخيون الروس الذين شوشوا كل شيء علماً بان انتقاد كانط من قبل تشيرنيشيفسكي مناقض تماماً لانتقاد كانط من قبل افيناريوس – ماخ والكمونيين لأن اشكال ادراكنا الحسي كما يعتقد تشيرنيشيفسكي مثل اي مادي آخر تشبه اشكال وجود الاشياء الفعلي اي الوجود الواقعي الموضوعي) «وان الاشياء الموجودة فعلاً وصفاتها الفعلية ، وعلاقاتها الفعلية فيما بينها هي

29—1896

بالتالي مستحيلة على معرفتنا اياها» (وليأخذ الماخيون الروس الذين شوشوا كل شيء علماً بان تشيرنيشيفسكي يعتقد مثل اي مادي ان الاشياء اي بلغة كانط المزوقة «الاشياء في ذاتها» توجد **فعلاً** وقابلة لمعرفتنا اياها **كلياً** ، قابلة لمعرفتها في وجودها وفي صفاتها وفي علاقاتها الفعلية) «وانها لو كانت قابلة لمعرفتها لما كان يمكن ان تكون موضوع تفكيرنا الذي يضع كل مادة معارفنا في اشكال مختلفة تماماً عن اشكال الوجود الفعلي وبان قوانين التفكير ذاتها لا تتسم إلا باهمية ذاتية» . (ليأخذ المشوشون الماخيون علماً بان تشيرنيشيفسكي يعتقد مثل اي مادي ان قوانين التفكير لا تتسم باهمية ذاتية وحسب اي ان قوانين التفكير تعكس اشكال وجود الاشياء الفعلي وانها تتشابه تماماً مع هذه الاشكال ولا تختلف عنها) «وبانه لا يوجد في الواقع ما يبدو لنا بمثابة صلة السبب مع الفعل لأنه لا يوجد لا سابق ، ولا تابع ، لا يوجد لا كامل ولا اجزاء ، وهكذا دواليك وهلم جراً» (ليأخذ المشوشون الماخيون علماً بان تشيرنيشيفسكي يعتقد مثل اي مادي انه يوجد في الواقع ما يبدو لنا بمثابة صلة السبب مع الفعل اي انه توجد السببية الموضوعية للطبيعة او ضرورة الطبيعة) . «وحين يكف علماء الطبيعيات عن النطق بهذا اللغو الميتافيزيائي وبما يماثله يصبح بمقدورهم ان يصوغوا وهم يصوغون على الارجح بالاستناد الى العلوم الطبيعية نظاماً من مفاهيم ادق واكمل من تلك التي عرضها فورباخ (ليأخذ المشوشون الماخيون علماً بان تشيرنيشيفسكي ينعت باللغو الميتافيزيائي **اية** انحرافات عن المادية الى جانب المثالية والى جانب اللاعرفانية) «وحتى ذاك يظل العرض الذي قدمه فورباخ افضل عرض للمفاهيم العلمية عما يسمى بالمسائل الاساسية لحب المعرفة البشرى» (ص ١٩٥ – ١٩٦) . ويسمي تشيرنيشيفسكي بالمسائل

الاساسية لحب المعرفة البشري ما يسمى في اللغة المعاصرة بالمسائل الاساسية لنظرية المعرفة او لعلم العرفان ان تشيرنيشيفسكي هو الكاتب الروسي الوحيد والعظيم فعلاً الذي استطاع ان يظل من الخمسينيات حتى عام ١٨٨٨ في مستوى المادية الفلسفية الكاملة وان ينبذ جانباً اللغو الحقير للكانطيين الجدد والوضعيين والماخيين وسائر المشوشين ولكن تشيرنيشيفسكي لم يستطع والاصح القول عجز بحكم تأخر الحياة الروسية ان يرتفع الى مستوى مادية ماركس وانجلس الديالكتيكية

كتب في شباط ـ تشرين الاول (فبراير-اكتوبر) عام ١٩٠٨ ؛ الاضافة الى الفقرة الاولى من الفصل الرابع فى آذار (مارس) ١٩٠٩

المجلد ١٨
ص ٣٨١-٣٨٤

حول الديالكتيك (١٠٢)

ان ازدواج ما هو واحد ومعرفة جزئيه المتناقضين (راجعوا «هيراقليت» لاسال رأي فيلون بهيراقليت في مطلع القسم الثالث «في المعرفة») يشكلان **جوهر** الديالكتيك (أحد «جواهره» احدى خصائصه او ميزاته الرئيسية ان لم تكن خاصته الرئيسية) على هذا النحو بالضبط يطرح هيغل المسألة بدوره (ان أرسطو **يدور** بلا انقطاع في كتابه «ميتافيزياء» ، حول هذه المسألة **ويحارب** هيراقليت و respective * الافكار الهيراقليتية)

ينبغي اثبات صحة هذا الجانب من مضمون الديالكتيك بواسطة تاريخ العلم فعادة (بليخانوف ، مثلاً) لا يُهتم الاهتمام الكافي بهذا الجانب من الديالكتيك فان تماثل الأضداد يعتبر بمثابة مجموعة من **الأمثلة** [«مثلاً الحب» «مثلاً الشيوعية البدائية» كذلك هي الحال عند انجلس ولكن «بقصد التبسيط» ..] لا بمثابة **قانون من قوانين المعرفة** (وقانون من قوانين العالم الموضوعي)

في الرياضيات ، الاكثر+والاقل− التفاضل والتكامل

في الميكانيك ، فعل ورد فعل

في الفيزياء ، كهرباء ايجابية وكهرباء سلبية

---

* Respective (ريسبيكتيف) — وردت هكذا بالنص الروسي وتعني «بالتالي» . **المعرب** .

في الكيمياء اتحاد الذرات وانفصالها
في العلم الاجتماعي النضال الطبقي
ان تماثل الأضداد (قد تكون «وحدة»ها أصح ؟ رغم ان التمييز بين كلمتي تماثل ووحدة ليس بذات أهمية في هذا المجال فالكلمتان كلتاهمـــا صحيحتان بمعنى معين) هـــو اقرار (اكتشاف) بميول متناقضة متضادة **ينفي بعضها بعضاً في جميع** ظاهرات الطبيعة وتفاعلاتها (**وفي عدادها** تدخل ايضاً ظاهرات الروح والمجتمـــع وتفاعلاتهما) ولأجل إدراك جميع تفاعلات العالم من حيث «**حركتها الذاتية**» من حيث تطورها العفوي من حيث واقعها الحي ينبغى ادراكها من حيث هي وحدة من الأضداد ان التطور هو «نضال» الأضداد ان مفهومي (او المفهومين الممكنين ؟ او المفهومين اللذين يعطيهما التاريخ ؟) التطور الاساسيين هما التطور بوصفه نقصاناً وزيادة بوصفه تكراراً والتطور بوصفه وحدة الأضداد (ازدواج ما هو واحد ، الى ضدين ينفي احدهما الآخر ، وعلاقات بين الضدين)

مع المفهوم الاول عن الحركة تبقى في الظل الحركة **الذاتية** قوتها **المحركة** مصدرها سببهـــا (او يُنقل هذا المصدر **الى الخارج** – الله فاعل ما etc.) اما المفهوم الآخر فهو يحملنا خاصة على معرفة **مصدر** الحركة «**الذاتية**»

المفهوم الاول جامد عقيم جافّ المفهوم الثاني طافح بالنشاط والحياة **فقط** المفهوم الثاني يعطينا مفتاح «الحركـــة الذاتية» لكل ما هو موجود **فقط** المفهوم الثاني يعطينـــا مفتاح «القفزات» و«الانقطـــاع في الاستمرار» و«تحوّل الشيء الى ضدّه» وتدمير ما هو قديم وولادة ما هو جديد

ان وحدة (توارد ، تماثل تعادل) الأضداد مشروطة ، موقتة نسبية ان نضال الأضداد التي ينفي بعضها بعضاً ، هو مطلق ، كما هو عليه التطور ، كما هي عليه الحركة .

NB (ملاحظة – المعرب) ان الذاتية (الريبية والسفسطائية ، etc.) تختلف عن الديالكتيك فيما تختلف عنه بما يلي وهو ان الفرق بين النسبي والمطلق هو أيضاً نسبي بنظر الديالكتيك (الموضوعي) فبنظر الديالكتيـــك الموضوعي **يوجد** مطلق **في** النسبي اما بنظر الذاتية والسفسطانية فالنسبي ليس سوى نسبي ، وهو ينفي المطلق

ان ماركس يحلل اولاً في «رأس المال» أبسط الأشياء وآلفها وأكثرها تواتراً الأشياء العادية الأشياء الأساسية ولا أكثر الأشياء التي تُصادف مليارات المرات **العلاقات** في المجتمع البرجوازي (البضاعي) تبادل البضائع وتحليله يبيّن في هذه الظاهرة البسيطة (في «خلية» المجتمع البرجوازي هذه) **جميع** تناقضات (respective اجنة **جميع** تناقضات) المجتمع المعاصر ان تتمة هذا العرض تبيّن لنا تطور (ونمو وحركة) هذه التناقضات وهذا المجتمع في Σ * شتى اقسامه منذ بدايته حتى نهايته

هكذا يجب ان تكون ايضاً طريقة عرض (respective دراسة) الديالكتيك بوجه عام (لأن ديالكتيك المجتمع البرجوازي ليس بنظر ماركس ، سوى حالة خاصة من حالات الديالكتيك) سواء بدئ **بأية جملة** من أبسط الجمل العادية وأكثرها تواتراً etc. أوراق الشجرة خضراء زيد رجل غبروش كلب الخ ففيها (كما لاحظ هيغل بصورة عبقرية) يوجد **ديالكتيك** **فما هو خاص هو عام** (قارنـــوا Aristoteles Metaphysik ترجمـــة شفيغلر Bd. II, S. 40, 3. Buch, 4. Kapitel; 8-9: «denn natürlich kann man nicht der Meinung sein, daß es ein Haus- – بيت بوجـــه عـام – gebe außer den sichtbaren Häusern»

---

* Σ سيغما ، حرف يوناني يعني المجموع . **الناشر** .

*(«οὐ γὰρ ἄν θείημεν εἶνάι τινα οἰχίαν παρὰ τὰς τινὰς οιχίας»).
وهكذا تكون الأضداد (الخاص هو ضد العام) متماثلة فالخاص غير موجود الا في العلاقة التي تؤدي الى العام والعام غير موجود الا في الخاص ، عبر الخاص . كل خاص له طابعه العام (بهذه الصورة او تلك) وكل عام هو (جزء او جانب او جوهر) من الخاص وكل عام لا يشمل جميع الأشياء الخاصة الا على وجه التقريب وكل خاص لا يشترك تمام الاشتراك في العام الخ الخ كل خاص يرتبط عبر آلاف الدرجات الانتقالية بعناصر خاصة من **طبيعة** أخرى (أشياء ، ظاهرات ، تفاعلات) الخ **حتى هنا** توجد عناصر واجنة مفهوم **الضرورة** عناصر واجنّة العلاقة الموضوعية في الطبيعـــة .etc فالعرضي والضروري والظاهرة والجوهر ، موجودة حتى هنا لأننا حين نقول زيد رجل غبروش كلب **هذه** ورقة شجرة الخ فاننا **ننبذ** جملة من المميزات بوصفها من الأشياء **العرضية** ونفصل الجوهري عمّا هو طارئ ونعارض احدهما بالآخر

وهكذا يمكن (ويجب) ان نستشف **في كل** جملـــة كمـــا نستشف في «نخروب» («خلية») أجنّة **جميع** عناصر الديالكتيك لكي نبيّن ان الديالكتيك بوجه عام هو **من طبيعة** كل معرفة إنسانية والحال ان العلوم الطبيعية تبيّن لنا (وهذه المرة ايضاً ينبغي تقديم الدليل على ذلك **باي** مثال بسيط جداً) الطبيعة الموضوعية بنفس صفاتها وَتحَوّلَ الخاص الى عام والطارئ الى ضروري والدرجات الانتقالية والتنوعات والصلة المتبادلة بين الأضداد ان الديالكتيك **هو حقاً** نظرية المعرفة (عند هيغل و عند الماركسية ان هذا «الجانب» من الامر (وهو ليس «جانباً»

---

* ارسطو ، «ميتافيزياء» ، ترجمـــة شفيغلر ، المجلد ٢ ص ٤٠ الكتاب الثالث ، الفصل الرابـــع ، ٨–٩ «لأنه لا يمكن ، بالطبع ان تظن انه يوجد بيت (بوجه عام) خارج البيوت المرئية» . **الناشر** .

انما هو **جوهر** الامر) قد أهمله **بليخانوف** فضلا عن الماركسيين الآخرين

* * *

ان المعرفة المصورة بسلسلة من الحلقات قد حدّدها كل من هيغل (راجع «المنطق») و Paul Volkmann، «العرفاني» العصري في العلوم الطبيعية الاختياري خصم الهيغلية (التي لم يفهمها !) (راجعوا كتابه *«Erkenntnistheoretische Grundzüge»)

«الحلقات» في الفلسفة [هل تسلسل تاريخ **الاشخاص** ضروري حقا ؟ كلا !]
في الفلسفة القديمة من ديموقريطس الى افلاطون والى ديالكتيك هيراقليت
في فلسفة عصر النهضة ديكارت **versus Gassendi (Spinoza ؟)
في الفلسفة العصرية من هولباخ الى هيغل (عبر بركلي ، هيوم ، كانط)
هيغل — فورباخ — Marx.

الديالكتيك بوصفه معرفة **حية** متعددة الجوانب (اذ ان الجوانب تتكاثر بلا انقطاع) ، مع ما لا حدّ له من الأشكال والألوان بغية مجابهة الواقع بغية الاقتراب من الواقع (مع نهج فلسفي ينبثق من كل شكل ولون ليشكل كلاّ واحداً) ، ذلك هو محتوى فائق الغنى بالنسبة للمادية «الميتافيزيائية» التي **مصيبتها** الكبرى انها غير أهل لتطبيق الديالكتيك على Bildertheorie *** على مجرى المعرفة وتطورها

---

* باول فولكمان «اسس نظرية المعرفة للعلوم الطبيعية وعلاقتها بحياة عصرنا الروحية» **الناشر**

** ضد **الناشر** .

*** نظرية الانعكاس . **الناشر**

ان المثالية الفلسفية **ليست سوى** ضرب من الحماقة من وجهة نظر مادية فظة مبسطة ميتافيزيائية ولكن المثالية الفلسفية هي بالعكس من وجهة نظر المادية **الديالكتيكيـــة** تطوير **وحيد الطرف** مبالغ فيـــه (تكبير تضخيم überschwengliches (Dietzgen) **لاحدى** الميزات الصغيرة في المعرفة ، لأحد جوانبها ، لأحد وجوهها ، الى مطلق منفصل عن المادة عن الطبيعة مؤلّه ان المثالية هي ضرب من الظلامية الاكليريكية وهذا صحيح ولكن المثالية الفلسفية هي («بالأحرى» و«**فضلاً عن ذلك**») **سبيل** يؤدي الى الظلامية الاكليريكية **عبر احد مظاهر معرفة** الانسان (الديالكتيكية) اللامتناهية التعقيد

NB لاحظوا هذه **الحكمة الموجزة**

ان معرفة الانسان ليست (respective **لا** تتبع) خطاً مستقيماً انما هي خط منحن يقترب اقتراباً لا حدّ له من سلسلة مـــن الحلقات من خط لولبي ويمكن تحويل اي قطعة قسم جزء من هذا الخط المنحني (تحويلـــه بشكل وحيد الطرف) الى خط مستقل كامل مستقيم يؤدي (اذا كانت الأشجار تحول دون رؤية الغابة) حينذاك الى المستنقع الى الظلامية الاكليريكية (حيث **تثبتّه** المصلحة الطبقية للطبقات السائدة) الطابع المستقيـــم والوحيد الطرف التحجّر والتعظم الذاتية والعمى الذاتي voilà * الجذور العرفانية للمثالية والحال من المؤكد ان **للظلاميـــة** الاكليريكية (=المثالية الفلسفية) جذوراً **عرفانية** ؛ ولها تربة ، انها **زهرة عقيمة** ذلك لا جدل فيه ولكنها تنبت على شجرة حية هي شجرة المعرفة الانسانية الحقيقية الشديدة الحيوية المثمرة القوية الكلية الجبروت الموضوعية المطلقة

كتب في عام ١٩١٥ المجلـــد ٢٩
ص ٣١٦-٣٢٢

---

* تلك هي . **الناشر** .

ملاحظات

١ ـ يقصد لينين ما يسمى « بناء الله » وهو تيار فلسفي ديني معاد للماركسية انبثق في مرحلة الردة الرجعية بين قسم من المثقفين الحزبيين ممن ابتعدوا عن الماركسية بعد هزيمة ثورة ١٩٠٥ ـ ١٩٠٧ وعظ « بناة الله » (لوناتشارسكي ، بازاروف ، وغيرهما) ببناء دين جديد ، « اشتراكي » محاولين التوفيق بين الماركسية والدين

شجبت مداولة هيئة التحرير الموسعة لجريدة « بروليتاري » البلشفية (عام ١٩٠٩) « بناء الله » ، واعلنت في قرار خاص ان الكتلة البلشفية لا يجمعها اي جامع « بهذا التشويه للاشتراكية العلمية » . ـ ص ١٦

٢ ـ مقالة ف اي نيفسكي « المادية الديالكتيكية وفلسفة الرجعية الميتة » صدرت عام ١٩٢ بصورة ملحق للطبعة الثانية لكتاب « المادية والمذهب النقدي التجريبي » . ـ ص ١٨

٣ ـ في عام ١٩٠٩ ، تقدم بوغدانوف بفكرة « الثقافة البروليتارية » قاصداً بذلك انه ينبغي للبروليتاريا ان تصوغ ثقافة « خاصة » بها ، معارضة لثقافة الماضي ، وفلسفة « خاصة » بها ، عرض بوغدانوف وراء ستارها فلسفته المثالية وقد نشر بوغدانوف وانصاره فكرة « الثقافة البروليتارية » في المدرستين اللتين نظموهما لاجل العمال في جزيرة كابري (١٩٠٩) وفي مدينة بولونيا (١٩١٠ ـ ١٩١١) .

كان هدف المدرستين شكلاً تثقيف العمال القادمين من روسيا ولكنهما اضطلعتا عملياً بدور مركز انشقاقي معاد للبلشفية

بعد ثورة اكتوبر الاشتراكية اختار بوغدانوف ورفاقه بالفكر ميداناً لنشاطهم ما يسمى بالمنظمات الثقافية التنويرية البروليتارية (بالايجاز بالروسية «بروليتكولت») وبما انهم حصلوا على منبر مناسب ، فقد شرعوا يروجون بنشاط نظرات معادية للماركسية ، وانكروا عملياً اهمية التراث الثقافي من الماضي ، وحاولوا ان يبنوا ثقافة للبروليتاريا بمعزل عن الحياة «بالطريق المختبري» كان بوغدانوف يعترف بالماركسية قولاً ولكنه كان يروج فعلاً بالفلسفة الماخية ، المثالية الذاتية

ناضل لينين ضد انفصالية وانعزالية «بووليت كولت» وضد نظرات ايديولوجييها المعادية للماركسية وفي عام ١٩٢٠ اتخذت لجنة الحزب المركزية قراراً خاصاً باخضاع نشاط «بروليت كولت» لمفوضية الشعب للمعارف ابتداء من العشرينيات ، اخذ دور منظمات «بروليت كولت» يتضاءل في عام ١٩٣٢ اوقفت «بروليت كولت» نشاطها نهائياً . — ص ١٨

٤ — راجعوا انجلس «لودفيغ فورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية» (دار التقدم موسكو ، عام ١٩٧٤ ، ص ١٩ — ٢٢) — ص ٣٣

٥ — راجعوا انجلس «الاشتراكية الطوبوية والاشتراكية العلمية» مقدمة للطبعة الانجليزية (عام ١٨٩٢) (دار التقدم موسكو عام ١٩٧٣ ص ١٥—١٦) . — ص ٣٤

٦ — **الكانطية الجديدة** — اتجاه رجعي في الفلسفة يدعو للمثالية الذاتية تحت شعار بعث فلسفة كانط؛ انبثق في اواسط القرن التاسع عشر في المانيا ، حيث تعاظم آنذاك الاهتمام بالكانطية في عام ١٨٦٥ صدر كتاب ليبمان «كانط والمقلدون» ؛ وكان كل فصل من هذا الكتاب ينتهي بالدعوة للعودة «الى الوراء نحو كانط» . طرح ليبمان

مهمة تصحيح «خطأ» كانط «الاساسي» اي الاعتراف بوجود «الاشياء في ذاتها» كان لانغه من اوائل ممثلي الكانطية الجديدة ؛ وقد حاول استغلال الفيزيولوجيا لأجل تعليل اللاعرفانية

فيما بعد ، نشأت في الكانطية الجديدة مدرستان اساسيتان ، هما مدرسة مربورغ (كوهن ناتورب ، وغيرهما) ومدرسة فريبورغ او بادن (فندلباند ريكّرت وغيرهما) عللت الاولى المثالية ، مستغلة نجاحات العلوم الطبيعية ، ولا سيما تسرب طرائق الرياضيات الى الفيزياء؛ وعارضت الثانية العلوم الطبيعية بالعلوم الاجتماعية ، محاولة ان تبرهن ان الظواهر التاريخية فردية خالصة ولا تخضع لأية قوانين وسنن انكر الكانطيون الجدد وجود العالم المادي وجوداً موضوعياً ، واعتبروا ان موضوع المعرفة ليس قوانين الطبيعة والمجتمع ، بل ظاهرات الوعي فقط . خلافاً للاعرفانية علماء الطبيعيات ، لم تكن لاعرفانية الكانطيين الجدد «مادية خجلة» ، بل كانت ضرباً من المثالية يؤكد على عجز العلم بالفعل عن معرفة الواقع وتغييره وقف الكانطيون الجدد على المكشوف ضد الماركسية ، وعارضوها «بالاشتراكية الاخلاقية» وفقاً لنظريتهم بشأن المعرفة اعلنوا الاشتراكية «مثالاً اعلى اخلاقياً» للتعاشر بين البشر ، تسعى البشرية وراءه ، ولكنها عاجزة عن بلوغه تلقف المحرفون وعلى رأسهم برنشتين الذي رفع شعار «الحركة كل شيء ، الهدف النهائي لا شيء» «نظرية» الكانطيين الجدد هذه

وقف بليخانوف ولافارغ ومهرينغ ضد التحريف الكانطي الجديد للماركسية كشف لينين كنه الكانطية الجديدة الرجعي وابان صلتها بالاتجاهات الاخرى في الفلسفة البرجوازية (الكمونيين ، الماخية البراغماتية وخلافها) . — ص ٣٤

٧ — *«Die Neue Zeit»* («الازمنة الحديثة») — مجلة نظرية للحزب الاشتراكي-الديموقراطي الالماني صدرت في شتوتغارت من عام ١٨٨٣ الى عام ١٩٢٣ نشرت في المجلة للمرة الاولى بعض مؤلفات ماركس وانجلس ساعد انجلس على الدوام بنصائحه هيئة تحرير المجلة ؛ وانتقدها احياناً على الانحرافات عن

الماركسية ابتداء من النصف الثاني من العقد العاشر من القرن التاسع عشر اي بعد وفاة انجلس ، اخذت المجلة تنشر بانتظام مقالات المحرفين بما فيها سلسلة مقالات برنشتين «قضايا الاشتراكية» التي افتتحت حملة المحرفين على الماركسية . — ص ٣٤

٨ — **الموسوعيون** (Encyclopédistes) — فريق من المنورين الفرنسيين من القرن الثامن عشر — من فلاسفة وعلماء طبيعيات وكتاب اجتماعيين اتحدوا لاصدار «Encyclopédie ou Dictionnaire raisonné des sciences, des arts et des métiers» («الموسوعة او القاموس القياسي للعلوم والفنون والحرف») (١٧٥١ — ١٧٨٠) كان ديني ديدرو مؤسس الفريق ورئيسه ، وكان جان ليرون دالامبر اقرب معاونيه اشترك بول هنري هولباخ وكلود ادريان هلفيسيوس وفولتير اشتراكاً نشيطاً في اصدار «الموسوعة» (او «دائرة المعارف») وعاون جان جاك روسو فى المجلدات الاولى منها ضمت «الموسوعة» مجموعة كبيرة من الاختصاصيين في مختلف ميادين المعرفة وكان معاونوها يتبنون آراء مختلفة سواء في ميدان العلم ام في ميدان السياسة ، ولكنهم كانوا مجمعين في موقفهم السلبي من الاقطاعية وتعسف الكنيسة ، وفي كرههم للفلسفة الكلامية (السكولاستية) القروسطية وبين الموسوعيين اضطلع بدور بارز الماديون الذين كانوا يعارضون الفلسفة المثالية بنشاط وفعالية كان الموسوعيون ايديولوجيي البرجوازية الثورية وقد قاموا بالدور الفاصل في الاعداد الفكري للثورة البرجوازية في اواخر القرن الثامن عشر في فرنسا . — ص ٣٧

٩ — *«Revue Néo-Scolastique»* («المجلة السكولاستية الجديدة») — مجلة أسستها الجمعية الفلسفية الكاثوليكية في لوفان — Louvain (بلجيكا) صدرت من عام ١٨٩٤ الى عام ١٩٠٩ باشراف الكاردينال مرسيه . — ص ٥٤

١٠ — *«Der Kampf»* («النضال») — مجلة شهرية لسان حال الاشتراكية-الديموقراطية النمساوية . صدرت في فيينا من عام ١٩٠٧ الى عام

١٩٣٤ شغلت موقفاً انتهازياً ، وسطياً ساترة اياه بالجمل والتعابير اليسارية . ــ ص ٦٠

١١ ــ *«The International Socialist Review»* («المجلة الاشتراكية العالمية») ــ مجلة شهرية اميركية تحريفية الاتجاه صدرت في شيكاغو من عام ١٩٠٠ الى عام ١٩١٨ . ــ ص ٦٠

١٢ ــ *«Vierteljahrsschrift für wissenschaftliche Philosophie»* («المجلة الفصلية في الفلسفة العلمية») ــ مجلة النقاد التجريبيين (الماخيين) صدرت في ليبزيغ من عام ١٨٧٦ الى عام ١٩١٦ (ابتداء من عام ١٩٠٢ ، صدرت باسم Vierteljahrsschrift für wissenschaftliche Philosophie und Soziologie» «المجلة الفصلية في الفلسفة العلمية وعلم الاجتماع») أسسها افيناريوس صدرت باشرافة حتى عام ١٨٩٦ بعد عام ١٨٩٦ صدرت بمعاونة ماخ . عاون في المجلة كل من فوندت وريل وشوبّه وغيرهم يقيّم لينين هذه المجلة في هذا الكتاب ، ص ٤٠٨ . ــ ص ٦٥

١٣ ــ *«Philosophische Studien»* («دراسات فلسفية») ــ مجلة مثالية الاتجاه ، تتناول على الاغلب مسائل علم النفس اصدرها فوندت في ليبزيغ من عام ١٨٨١ الى عام ١٩٠٣ ابتداء من عام ١٩٠٥ صدرت باسم «Psychologische Studien» («دراسات نفسانية») ــص ٧١

١٤ ــ **«بتروشكا»** ــ خادم قن شخصية من رواية الكاتب الروسي نيقولاي غوغول «النفوس الميتة» كان يطالع الكتب بتهجي مقاطع الكلمات دون ان يفهم مضمونها ، مهتماً فقط بعملية المطالعة الميكانيكية ــص ٧١

١٥ ــ راجعوا : انجلس ، «لودفيغ فورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية

الالمانية » (دار التقدم موسكو عام ١٩٧٤ ، ص ٣ ــ ٤)
ــص ٧٤

١٦ ــ «Mind» (« الفكر ») ــ مجلة مثالية الاتجاه ، تتناول مسائل الفلسفة وعلم النفس تصدر منذ عام ١٨٧٦ (لندن ــ ايدنبورغ)
ــص ٨٣

١٧ ــ راجعوا انجلس « ضد دوهرينغ » (القسم الاول الفصل الثالث) . ــ ص ١٠٥

١٨ ــ راجعوا انجلس « لودفيغ فورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية » ، (دار التقدم موسكو ، عام ١٩٧٤ ، ص ٩ ــ ٢٣،١٠ ــ٢٤) . ــ ص ١٠٥

١٩ ــ يقصد لينين صورة ادبية من الشعر النثري للكاتب الروسي تورغينيف « قاعدة الحياة » . ــ ص ١٠٧

٢٠ ــ «Archiv für systematische Philosophie» (« ارشيف الفلسفة المنهاجية ») ــ مجلة مثالية الاتجاه صدرت في برلين من عام ١٨٩٥ الى عام ١٩٣١؛ كانت قسماً مستقلاً ثانياً من مجلة «Archiv für Philosophie» (« ارشيف الفلسفة ») (راجعوا الملاحظة رقم ٦٨) كان ناتورب محررها الاول منذ عام ١٩٢٥ بدأت تصدر باسم «Archiv für systematische Philosophie und Soziologie» (« ارشيف الفلسفة المنهاجية وعلم الاجتماع ») . ــ ص ١١٥

٢١ ــ «Kantstudien» (« دراسات كانطية ») ــ مجلة فلسفية المانية مثالية الاتجاه لسان حال الكانطيين الجدد صدرت بانقطاعات من عام ١٨٩٧ الى عام ١٩٤٤ (هامبورغ ــ برلين ــ كولونيا) في عام ١٩٥٤ ، استأنفت المجلة صدورها . ــ ص ١١٥ .

٢٢ – «Nature» («الطبيعة») – مجلـــة اسبوعيــــة مصورة في العلوم الطبيعية تصدر في لندن منذ عام ١٨٦٩ . – ص ١١٦

٢٣ – عند اعداد الطبعة الاولى من كتاب «المادية والمذهـــب النقدي التجريبي» للطبع ، استعاضت أنّا ايلينيتشنا اوليانوفا–ايليزاروفا ، اخت لينين ، عن كلمات «خصماً ادبياً **اكثر** شرفاً» بكلمات «خصماً ادبياً **اكثر** مبدئية» وقد اعترض لينين على هذا التعديل وكتـب الى اخته في ٢٧ شباط – فبراير (١٢ آذار – مارس) ١٩٠٩ يقول «**ارجوك** ، لا تخففي **اي شيء** من المقاطع الموجهة ضد بوغدانوف ولوناتشارسكي وشركاهما يستحيل التخفيف لقد شطبت قولي ان تشيرنوف خصم «اكثر شرفاً» منهم ، وهذا مؤسف جداً فجاءت النبرة مغايرة للقصد فلا تناسب في كل طابع اتهاماتي ان لب المسألة كله هو ان ماخيينا اعداء للماركسية في الفلسفة **غير شرفاء** ، جبناء وانذال» (المؤلفات الكاملة المجلد ٥٥ ص ٢٨٠– ٢٧١) . – ص ١٢٠

٢٤ – راجعوا انجلس ، «لودفيـــغ فورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية» (دار التقدم موسكو ، عام ١٩٧٤ ، ص ١٩–٢٢) – ص ١٢٢

٢٥ – يقصد لينين النموذج الادبي من رواية الكاتب الروسي ايفان تورغينيف «الدخان» ، نموذج العقائدي الكذاب ، والقارئ السطحي . – ص ١٢٢

٢٦ – راجعوا انجلس «لودفيغ فورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية» (دار التقدم موسكو ، عام ١٩٧٤ ، ص ٢١ – ٢٢) – ص ١٢٣

٢٧ – في ١١ كانون الثاني (يناير) ١٨٦٩ ، اذاع العالمان الكيماويـــان الالمانيان غريبه وليبرمان في اجتماع للجمعية الكيماوية الالمانية نبأ الحصول بصورة اصطناعية على الاليزارين ، وهو مادة صباغيـــة

عضوية كانت تستخرج حتى ذاك من جذور الفوّة وقـــد كان الانتراسين ـ وهو مادة يحتويها قطران الفحم الحجري ـ المادة الاولية لاجل تركيب الاليزارين ١٢٥

٢٨ ـ فريدريك انجلس «لودفيغ فورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكيـــة الالمانية» (دار التقدم موسكو ، عام ١٩٧٤ ، ص ٦٦ ـ ٦٧ ملحق كارل ماركس «موضوعات عن فورباخ») . ـ ص ١٢٧

٢٩ ـ راجعوا انجلس «مقدمة للطبعة الانجليزية» (١٨٩٢) لمؤلف «الاشتراكية الطوبوية والاشتراكية العلمية» (دار التقدم موسكو ، عام ١٩٧٣ ص ١٤ ـ ١٥) . ـ ص ١٣٢

٣٠ ـ راجعوا انجلس «مقدمة للطبعة الانجليزية» (١٨٩٢) لمؤلف «الاشتراكية الطوبوية والاشتراكية العلمية» (دار التقدم موسكو ، عام ١٩٧٣ ، ص ١٤ ـ ١٧) . ـ ص ١٣٦

٣١ ـ راجعوا : انجلس ، «ضد دوهرينغ» ، (القسم الاول الفصل الرابع) ـ ص ١٤٤

٣٢ ـ راجعوا انجلس «لودفيغ فورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكيـــة الالمانية» (دار التقدم موسكو ، عام ١٩٧٤ ، ص ٢١ ـ ٢٢) ـ ص ١٥٨

٣٣ ـ **الريبية** ـ اتجاه في الفلسفة يروج الشك والريبة في امكانية معرفـــة الواقع الموضوعي نشأت الريبية بوصفها مدرســـة فلسفية في اليونان القديمة في القرنين الرابع والثالث قبل المسيح كان بيرون مؤسسها وكان اينزيديم وسكست امبيريك من ابرز ممثليهـــا استخلص انصار الريبية القديمة استنتاجات لاعرفانية من المقدمات الحسية ورفع الريبيون ذاتية الاحساسات الى المطلق ودعوا الى الامتناع عن ابداء آراء محددة بشأن الاشياء واعتبروا ان الانسان لا يستطيع ان يخرج من حدود احساساتـــه وان يحـــدد اي منها هو الحقيقي .

وفي القرن الثامن عشر انبعثت الريبية في لاعرفانية وافيد هيوم وعمانوئيل كانط ، كما قام غوتليب ارنست شولتسه (اينزيديم) بمحاولة تحديث الريبية القديمة واستغل الماخيون والكانطيون الجدد والمدارس الفلسفية المثالية الاخرى في منتصف القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين حجج الريبية

الابيقورية ـ مذهب الفيلسوف المادي الاغريقي (القرن الرابع ـ القرن الثالث قبل المسيح) ابيقور وانصاره كان ابيقور يعتبر ان هدف الفلسفة هو سعادة الانسان وتخليصه من الآلام وبلوغه النعيم ان الفلسفة مدعوة لتذليل العقبات التي تعترض الطريق المؤدي الى السعادة الا وهي الخوف من الموت الذي ينجم من عدم معرفة قوانين الطبيعة والذي يستثير بدوره الايمان في ما هو فوق الطبيعة ، في القوى الالهية

وابيقور في نظرية المعرفة من انصار المذهب الحسي فقد فسر نشوء الاحساسات بصورة مادية ساذجة ، اي كانه ينبعث من سطح الاشياء سيل لا ينقطع من الجسيمات الصغيرة للغاية التي تنفذ الى اعضاء الاحساس وتستتبع صور الاشياء . واعتبر ابيقور ان معيار الحقيقة هو المدركات الحسية بالذات ، كما رأى مصدر الضلال في صدفية الاحساسات على حدة او في سرعة تكوّن الآراء ان هدف المعرفة يقوم في تخليص الانسان من الجهل والخرافات ، وبدون ذلك تستحيل السعادة

وفي التعريف الذي يورده لينين عن المذهب الحسي كان فرانك على حق في اعتبار الابيقورية ضرباً من هذا المذهب الا انه يفرّق بدون سبب وجيه بين الابيقورية وبين المذهب الحسي المادي الموضوعي . ـ ص ١٦٣

٣٤ ـ راجعوا انجلس «ضد دوهرينغ» (القسم الاول الفصل التاسع) . ـ ص ١٦٧

٣٥ ـ راجعوا انجلس ، «ضد دوهرينغ» (القسم الاول ، الفصل التاسع) . ـ ص ١٦٨ .

٣٦ ـ راجعوا: سالة ماركس الى كوغلمان بتاريخ ٥ كانون الاول (ديسمبر) عام ١٨٦٨ . ـ ص ١٦٩

٣٧ ـ يقصد لينين مؤلف ماركس «موضوعات عن فورباخ» (١٨٤٥) ومؤلفي انجلس «لودفيغ فورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكيـــــة الالمانية» (١٨٨٨) و «مقدمة للطبعة الانجليزية» (١٨٩٢) لمؤلف «الاشتراكية الطوبوية والاشتراكية العلمية» . ـ ص ١٧٢

٣٨ ـ راجعوا ماركس ، «موضوعات عن فورباخ» ، وانجلس ، «لودفيغ فورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية» ، وانجلس «مقدمة للطبعـــة الانجليزية» لمؤلف «الاشتراكية الطوبوية والاشتراكية العلميـــة» (دار التقدم موسكو ، ص ٦٦ـ٦٧ ٢١ـ٢٢ ١٤ـ١٥) . ـ ص ١٧٢

٣٩ ـ «Revue de Philosophie» («مجلة الفلسفة») ـ مجلة فلسفيـــة مثالية فرنسية أسسها بيـوب صدرت في باريس من عام ١٩٠ الى عام ١٩٣٩ . ـ ص ١٨٨

٤٠ ـ راجعوا انجلس ، «ضد دوهرينغ» (المقدمة . الفصل الاول ، الفصل الثاني) . ـ ص ١٩٧

٤١ ـ راجعوا انجلس «لودفيغ فورباخ ونهاية الفلسفـــة الكلاسيكية الالمانية» (دار التقدم موسكو عام ١٩٧٤ ، صص ٤٣ ـ ٤٤ ٤٧ـ٤٨) . ـ ص ١٩٧

٤٢ ـ «Annalen der Naturphilosophie» («حوليات فلسفة الطبيعة») ـ مجلة وضعية الاتجاه اصدرها اوستفالد في ليبزيغ من عام ١٩٠١ الى عام ١٩٢١ كان ماخ وفولكمان وغيرهما من عداد معاونيها . ـ ص ٢٠٩ .

٤٣ ـ راجعوا انجلس «لودفيغ فورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية» (دار التقدم موسكو، عام ١٩٧٤، ص ١٨ ـ ٢١) ـ ص ٢٠٩

٤٤ ـ راجعوا انجلس، «ضد دوهرينغ» (القسم الاول، الفصل الرابع). ـ ص ٢١٩

٤٥ ـ **الفرطيس** ـ واحد الفرطيسات (protista) ـ هي، بموجب تصنيف هيكّل، فئة واسعة من ابسط العضويات تشمل العضويات الوحيدة الخلية والعضويات اللاخلوية وتشكل الى جانب مملكتي العضويات المتعددة الخلايا (النباتات والحيوانات) مملكة خاصة ثالثة للطبيعة العضوية. ـ ص ٢٢٠

٤٦ ـ راجعوا: انجلس، «ضد دوهرينغ» (القسم الاول، الفصل الخامس) ـ ص ٢٢٣

٤٧ ـ «Natural Science» («العلوم الطبيعية») ـ مجلة شهرية ذات طابع استعراضي صدرت في لندن من عام ١٨٩٢ الى عام ١٨٩٩. ـ ص ٢٣٣

٤٨ ـ «The Philosophical Review» («المجلة الفلسفية») ـ مجلة اميركية مثالية الاتجاه أسسها شورمان تصدر منذ عام ١٨٩٢ ـ ص ٢٣٣

٤٩ ـ راجعوا انجلس، «ضد دوهرينغ» (القسم الاول، الفصل العاشر). ـ ص ٢٣٩

٥٠ ـ «**الطريقة الذاتية في السوسيولوجيا**» ـ موقف مثالي، مناف للعلم، من العملية التاريخية ينكر قوانين التطور الاجتماعي الموضوعية ويحصرها في نشاط «الشخصيات البارزة» الاعتباطي في الثلاثينيات والاربعينيات من القرن التاسع عشر، كان الهيغليون الشباب باور

وشتراوس وشتيرنر وغيرهم من انصار المدرسة الذاتية في السوسيولوجيا (عام الاجتماع) ؛ وقد اعلنوا ان الشعب «جمهور غير ناقد» يسير على العمياء وراء «الشخصيات المفكرة بروح النقد» انتقد ماركس وانجلس في «العائلة المقدسة» و «الايديولوجية الالمانية» وغيرهما من اعمالهما نظرات الهيغليين الشباب انتقاداً عميقاً وشاملاً وفي روسيا كان الشعبيون الليبيراليون (لافروف ، ميخايلوفسكي وغيرهما) ممثلي الطريقة الذاتية في السوسيولوجيا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وقد انكروا الطابع الموضوعي لقوانين تطور المجتمع وحصروا التاريخ في نشاط الابطال ، في نشاط «الشخصيات البارزة»

ابانت الماركسية-اللينينية ما يلازم الاتجاه المثالي الذاتي في علم الاجتماع من بطلان تام ، وبنت مذهباً علمياً حقاً عن تطور المجتمع البشري ، وعن دور الجماهير الشعبية الحاسم في التاريخ ، وعن شأن نشاط الفرد بمفرده . — ص ٢٤٤

٥١ — راجعوا الملاحظة رقم ٦ . — ص ٢٤٦

٥٢ — **الكاديت** — اعضاء الحزب الدستوري الديموقراطي الحزب الرئيسي للبرجوازية الملكية الليبيرالية في روسيا تأسس حزب الكاديت في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٠٥ انضم اليه ممثلو البرجوازية والملاكين العقاريين والمثقفون البرجوازيون لأجل خداع الجماهير الكادحة اطلق الكاديت على انفسهم اسماً زائفاً — «حزب حرية الشعب» ، ولكنهم بالفعل لم يمضوا الى ابعد من المطالبة بالملكية الدستورية

اثناء ثورة شباط (فبراير) البرجوازية الديموقراطية (عام ١٩١٧) ، حاول الكاديت انقاذ المَلَكية شغل الكاديت في الحكومة المؤقتة البرجوازية وضعاً قيادياً وانتهجوا سياسة معادية للشعب ومعادية للثورة

بعد ثورة اكتوبر الاشتراكية (١٩١٧) ، ناضل الكاديت بنشاط ضد السلطة السوفييتية . — ص ٢٥٢ .

٥٣ ـ المقصود هنا التيار الانتهازي الذي تكوّن في داخل الحزب الاشتراكي-الديموقراطي الالماني خلال النصف الثاني من السبعينيات في القرن التاسع عشر كان هوخبرغ وبرنشتين وشرام ايديولوجيي هذا التيار الرئيسيين

ان ما يلازم جماعة هوخبرغ من طابع انتهازي ، معاد للماركسية قد تبدى بكل سطوع في مسألة تأسيس لسان الحال المركزي للحزب الاشتراكي-الديموقراطي الالماني في زوريخ (بعد صدور القانون الاستثنائي ضد الاشتراكيين في سنة ١٨٧٨) فان هوخبرغ ورفاقه بالفكر قد اعتبروا انه ينبغي للجريدة ان تمتنع عن انتهاج سياسة الحزب الثورية وانه ينبغي لها ان تكتفي بترويج المثل العليا الاشتراكية بصورة مجردة استصغرت قيادة الحزب – اوغست بيبل ، ولهلم ليبكنخت وغيرهما – الخطر الانتهازي ، بتكليفهم جماعة زوريخ ، من حيث جوهر الامر ، باصدار الجريدة

في تموز (يوليو) ١٨٧٩ ، نشرت مجلة «Jahrbuch für Sozialwissenschaft und Sozialpolitik» («حولية العلم الاجتماعي والسياسة الاجتماعية») التي يحررها هوخبرغ مقالة «لمحة استعادية عن الحركة الاشتراكية في المانيا» كانت المقالة تندد بالتكتيك الثوري الذي كان ينتهجه الحزب وقد اتهم اصحاب المقالة – هوخبرغ وشرام وبرنشتين – الحزب بانه استثار سن القانون الاستثنائي بحملاته على البرجوازية ، ودعوا الى التحالف مع البرجوازية والخضوع لها ، اذ اعتبروا ان الطبقة العاملة عاجزة عن التوصل الى تحررها بقواها الخاصة استتبعت هذه النظرات الاصلاحية الانتهازية احتجاجاً حاداً من جانب ماركس وانجلس اذ انهما رأيا فيها عن حق وصواب خيانة للحزب وفي ايلول (سبتمبر) ١٨٧٩ اصدر ماركس وانجلس «الرسالة التعميمية» الشهيرة كتب لينين في وصف نضال مؤسسي الماركسية ضد الانتهازية يقول «من جراء الهجوم «المسعور» الذي شنّه ماركس ، تراجع الانتهازيون و... تلاشوا . وفي رسالة بتاريخ

١٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٧٩ ينبى ماركس انهم صرفوا هوخبرغ من اللجنة التحريرية ، وان جميع زعماء الحزب النافذين – بيبل وليبكنخت وبراكه وغيرهم – قد **تبرأوا** من افكاره » (المؤلفات الكاملة ، المجلد ١٥ ، ص ٢٣٧)

فيما بعد ، انصرف هوخبرغ وشرام عن الحركة العمالية اما برنشتين الذي عدل مؤقتاً عن ترويج الانتهازية فقد اصبح من زعماء الاشتراكية-الديموقراطية الالمانية ولكن التشوش النظري والموقف الانتهازي الذي وقفه برنشتين في اواخر السبعينيات لم يكونا من باب الصدفة فبعد وفاة انجلس عمد على المكشوف الى تحريف الماركسية رافعاً الشعار الانتهازي «الحركة كل شيء الهدف النهائي لا شيء » ، الذي كان بمثابة تطوير لاحق للموضوعات الاساسية الواردة في مقالة عام ١٨٧٩ . – ص ٢٥٨

٥٤ – «Le Socialiste» («الاشتراكي») – جريدة اسبوعية صدرت من عام ١٨٨٥ بوصفها لسان الحال النظري لحزب العمال الفرنسي منذ ١٩٠٢ غدت لسان حال الحزب الاشتراكي في فرنسا ؛ منذ ١٩٠٥ غدت لسان حال الحزب الاشتراكي الفرنسي . – ص ٢٥٩

٥٥ – راجعوا انجلس «لودفيغ فورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية» (دار التقدم موسكو ، عام ١٩٧٤ ، ص ٢٧) . – ص ٢٦١

٥٦ – يقصد لينين مؤلفي انجلس «لودفيغ فورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية» (١٨٨٨) (دار التقدم موسكو ، ١٩٧٤ ص ٢١–٢٢) و«مقدمة للطبعة الانجليزية» (١٨٩٢) لمؤلفه «الاشتراكية الطوبوية والاشتراكية العلمية» (دار التقدم موسكو عام ١٩٧٣ ص ١٤–١٨) . – ص ٢٦١

٥٧ – راجعوا انجلس «لودفيغ فورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية» (دار التقدم موسكو ، عام ١٩٧٤ ، ص ٣٠–٣١) . – ص ٢٦٢ .

٥٨ ـ راجعوا انجلس ، «مقدمة للطبعة الانجليزية» (١٨٩٢) لمؤلفه «الاشتراكية الطوبوية والاشتراكية العلمية» (دار التقدم موسكو ، عام ١٩٧٣ ص ١٤) . ـ ص ٢٦٤

٥٩ ـ «Zeitschrift für immanente Philosophie» («مجلة الفلسفة الكمونية») ـ مجلة رجعية المانية صدرت في برلين من سنة ١٨٩٥ الى سنة ١٩٠٠ بتحرير كاوفمان وبمشاركة شوبه وشوبرت-زولدرن . ـ ص ٢٦٩

٦٠ ـ «L'Année Philosophique» («الحولية الفلسفية») ـ لسان حال «الانتقاديين الجدد» الفرنسيين صدرت في باريس من سنة ١٨٩٠ الى سنة ١٩١٣ بتحرير بيلون . ـ ص ٢٧٠

٦١ ـ يقصد لينين التصريح الكاذب لرئيس مجلس الوزراء ستوليبين الذي انكر فيه وجود «المكاتب السوداء» التي كانت تراقب المراسلات في مؤسسات البريد . ـ ص ٢٨٢

٦٢ ـ **نوزدريف** ـ شخصية من رواية الكاتب الروسي نيقولاي غوغول «النفوس الميتة» . ملاك عقاري ومحتال ومحب للشجار والمشاكسة . ص ـ ٢٨٦

٦٣ ـ «Revue philosophique de la France et de l'étranger» («مجلة الفلسفة في فرنسا والخارج») ـ مجلة أسسها العالم النفساني الفرنسي ريبو في باريس سنة ١٨٧٦ . ـ ص ٢٨٧

٦٤ ـ «The Monist» («الاحادي») ـ مجلة فلسفية اميركية مثالية الاتجاه اصدرها كاروس صدرت في شيكاغو من سنة ١٨٩٠ الى سنة ١٩٣٦ . ـ ص ٢٨٨

٦٥ ـ «The Open Court» («المنبر المفتوح») ـ مجلة دينية الاتجاه صدرت في شيكاغو من سنة ١٨٨٧ الى سنة ١٩٣٦ . ـ ص ٢٨٨ .

٦٦ – راجعوا انجلس ، «ضد دوهرينغ» (القسم الثالث ، الفصل الثالث) .
– ص ٢٩٤

٦٧ – في عام ١٨٩٢ ، صدرت في جينيف الطبعة الروسية الاولى من مؤلف
فريدريك انجلس «لودفيغ فورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية
الالمانية» بترجمة بليخانوف ، مع مقدمة وملاحظات وتعليقا
على الصيغة التي اعطاها انجلس عن المسألة الاساسية في الفلسفة
وعلى وصف اللاعرفانية عرض بليخانوف بعين نقادة نظرية
المعرفة في عدد من اتجاهات الفلسفة المثالية (عند هيوم ، وكانط
والكانطيين الجدد وغيرهم) وعارضها بالنظرية المادية عن المعرفة
ولكنه اقترف خطأ حين قال «ان احساساتنا انما هي ضرب من
الهيروغليفات التي توصل الى علمنا ما يجري في الواقع ان
الهيروغليفات لا تشبه تلك الحوادث التي تنقلها هذه الهيروغليفات
ولكن بمقدورها ان تنقل **بصورة صحيحة تماما** سواء الحوادث
ذاتها ، ام – وهذا هو الرئيسي – تلك العلاقات التي توجد بينها»
وفي عام ١٩٠٥ اعترف بليخانوف في ملاحظات للطبعة الثانية من
مؤلف انجلس انه «اعرب عن رأيه بصورة غير دقيقة تماماً»
ان خطأ بليخانوف ، وان كان خطأ في التعبير ، قد كان بمثابة
تنازل امام اللاعرفانية وكان دليلاً على فهمه ديالكتيك عملية
المعرفة فهماً على درجة غير كافية من العمق . – ص ٢٩٨

٦٨ – «Archiv für Philosophie» («ارشيف الفلسفة») – مجلة فلسفية
المانية مثالية الاتجاه لسان حال الكانطيين الجدد والماخيين
صدرت في برلين من عام ١٨٩٥ الى عام ١٩٣١ في طبعتين متوازيتين:
الاولى «Archiv für Geschichte der Philosophie» («ارشيف تاريخ
الفلسفة») بتحرير شتين والثانية «Archiv für systematische
Philosophie» («ارشيف الفلسفة النظامية») بتحرير ناتورب
ومنذ عام ١٩٢٥ شرعت المجلة تصدر باسم «Archiv für Philo-
sophie und Soziologie» (ارشيف الفلسفة والسوسيولوجيا») .
– ص ٣٠٤ .

٦٩ ـ راجعوا انجلس «لودفيغ فورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية» (دار التقدم موسكو ، عام ١٩٧٤ ، ص ٢٦ ـ ٢٧) ـ ص ٣٠٨

٧٠ ـ سجل اكتشاف **اشعة اكس واشعة بكيريل والراديوم** بداية تطور الفيزياء الذرية

اشعة اكس (اشعة X ، اشعة رونتغن ، الاشعة السينية ، الاشعة المجهولة) ـ اشعاع كهرمغناطيسي قصير الموجة ، يتغلغل عبر بيئات لا ينفذ فيها النور المرئي في كانون الاول (ديسمبر) ١٨٩٥ اكتشف الفيزيائي الالماني ولهلم كونراد رونتغن (١٨٤٥ ـ ١٩٢٣) أشعة اكس كذلك وصف رونتغن خواص النوع الجديد من الاشعاع الذي اكتشفت طبيعته فيما بعد

في عام ١٨٩٦ اكتشف انطوان هنري بكيريل (١٨٥٢ـ ١٩٠٨) اثناء دراسة فعل مختلف المواد الضيائية في الصفيحة التصويرية ان ملح الاورانيوم يؤثر في الصفيحة التصويرية في الظلمة حتى بدون تشعيع مسبق ثم بيّنت تجارب بكيريل اللاحقة ان هذا التاثير ناجم عن نوع جديد من اشعة تختلف عن اشعة رونتغن

عكف بيير كوري وماريا سكلودوفسكايا ـ كوري على دراسة الاشعاع الجديد ، وأثبتا انه خاصة مجهولة حتى ذاك لمادة معينة ، واسميا هذه الخاصة بالنشاط الاشعاعي وبنتيجة التجارب اكتشف بيير وماريا كوري عنصرين جديدين للنشاط الاشعاعي هما البولونيوم والراديوم (١٨٩٨)

وفيما بعد ، ثبت ان اشعة بكيريل تتألف من ثلاثة اجزاء (اشعة الفا اشعة بيتا اشعة غامّا) . ـ ص ٣٢١

٧١ ـ هذا الاكتشاف حققه جيمس مكسويل (١٨٣١ـ١٨٧٩) فبتعميم تجارب فاراداي في دراسة الظاهرات الكهرمغناطيسية صاغ نظرية الحقل الكهرمغناطيسى التي ينجم منها ان تغيرات الحقل الكهرمغناطيسي تنتشر بسرعة النور . وفي عام ١٨٦٥ خلص مكسويل

على اساس دراساته الى استنتاج مفاده ان النور هو عبارة عن ذبذبات كهرمغناطيسية تأكدت صحة نظرية مكسويل بفضل التجارب التي قام بها هرتز بين عامى ١٨٨٦ و١٨٨٩ ؛ فقد اثبت هرتز وجود الموجات الكهرمغناطيسية . - ص ٣٢٢

٧٢ - لدن دراسة ظاهرة النشاط الاشعاعي ، اكتشف نوع خاص من الاشعاع (اشعة الفا ، واشعة بيتا ، واشعة غاما) في عام ١٩٠٣ ، افترض رزرفورد وسودّي ان النشاط الاشعاعي هو عبارة عن تحول تلقائي لبعض العناصر الكيماوية الى عناصر اخرى وبعد فترة وجيزة ، اكد رمسي وسودي صحة هذه الفرضية ، باكتشافهما الهيليوم بين منتوجات الانشطار الاشعاعي للرادون (١٩٠٣) واثر ذلك ، ثبت ان الهيليوم يتشكل لدن انشطار الراديوم وغير ذلك من العناصر الاشعاعية التي تملك النشاط الاشعاعي - الفا كان واقع نشوء الهيليوم في حال انشطار العناصر الاشعاعية حجة هامة في صالح نظرية التحولات الاشعاعية ولم يكن من الممكن تفسير هذا الواقع تفسيراً تاماً الاّ بالافتراض ان اشعة الفا عبارة عن نوى ذرات الهيليوم الامر الذي تأكدت صحته عام ١٩٠٩ بفضل تجارب رزرفورد ورويدس . - ص ٣٢٢

٧٣ - في ١٩٠٧-١٩٠٨ انتقد بليخانوف في مؤلفيه «المسائل الاساسية في الماركسية و «Materialismus militans» وغيرهما الماخية وانصارها في روسيا (بوغدانوف ، لوناتشارسكي وغيرهما) ، واشار الى بطلان محاولاتهم للجمع بين الماركسية وفلسفة ماخ وافيناريوس المثالية الذاتية

اضطلع نضال بليخانوف ضد الماخية بدور ايجابي في الدفاع عن الفلسفة الماركسية دون حملات المحرفين . ولكنه لم يعط تحليلاً نظرياً عميقاً للمذهب النقدي التجريبي ولم يكشف الصلة المباشرة بين الماخية وازمة العلوم الطبيعية ، واكتفى بنقد علم العرفان المثالي عند بعض ممثلي الماخية . - ص ٣٢٢ .

٧٤ ـ راجعوا انجلس «لودفيغ فورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية» (دار التقدم موسكو، عام ١٩٧٤، ص ٢٤ ـ ٢٦) ـ ص ٣٢٣

٧٥ ـ راجعوا انجلس «ضد دوهرينغ» (القسم الاول الفصل السادس). ـ ص ٣٢٣

٧٦ ـ ان وصف مفهوم الكتلة الذي اعطاه هنري بوانكاره والذي اورده لينين، يتطابق مع مستوى تطور الفيزياء في زمن بوانكاره الا ان تطور النظرية الالكترونية بعد اكتشاف الالكترون ادى الى امكانية تفسير طبيعة كتلة الالكترون فقد تقدم جوزف جون تومسون (١٨٥٦ ـ ١٩٤٠) بفرضية مفادها ان كتلة الالكترون ذاتها مشروطة بطاقة حقله الكهرمغنطيسي (اي اناستمرارية الالكترون رهن باستمرارية الحقل) وظهر مفهوم كتلة الالكترون الكهرمغنطيسية وتبين ان هذه الكتلة رهن بسرعة حركة الالكترون، واعتبروا كتلة الالكترون الميكانيكية مثلها مثل اي دقيقة اخرى ثابتة لا تتغير وكان لا بدّ للتجارب الهادفة الى دراسة تبعية كتلة الالكترون الكهرمغنطيسية للسرعة ان تكشف وجود الكتلة الميكانيكية. ولكن هذه التجارب التي قام بها كاوفمان في سنتي ١٩٠١ و ١٩٠٢ بينت بصورة غير متوقعة ان الالكترون يتصرف كما لو ان كل كتلته ذات طبيعة كهرمغنطيسية ومن هنا خلصوا الى القول بزوال الكتلة الميكانيكية من الالكترون، مع انها كانت تعتبر من قبل خاصة ملازمة للمادة وقد اتخذ هذا الامر يعة لشتى الاختلاقات الفلسفية، وشتى التصاريح «بزوال المادة»، وقد برهن لينين على بطلان هذه الاختلاقات والتصاريخ ثم جاء تطور الفيزياء لاحقاً (نظرية النسبية) يبين ان الكتلة الميكانيكية تتوقف هي ايضاً على سرعة الحركة وانه لا يجوز حصر كتلة الالكترون في الكتلة الكهرمغنطيسية. ـ ص ٣٢٤

٧٧ ـ «L'Année Psychologique» («حولية علم النفس») ـ لسان حال

فريق من علماء النفس المثاليين البرجوازيين الفرنسيين تصدر في باريس منذ عام ١٨٩٤ في البدء اصدرها بينه ، فيما بعد ، بيارون . — ص ٣٣٢

٧٨ — في اواخر القرن التاسع عشر انبثق التصور عن تعقد الذرة بنتيجة اكتشاف مندلييف لنظام العناصر الدوري ، واكتشاف طبيعة النور الكهرمغناطيسية ، والالكترون ، وظاهرة النشاط الاشعاعي ووردت مقترحات ببضعة موديلات للذرة ويعتبر لينين ان الفكرة التي ظهرت بشكل فرضية في اواخر القرن التاسع عشر بشأن موديل الذرة الكوكبي هي الفكرة الاكثر احتمالاً وقد تأكدت صحة هذه الفكرة على الصعيد الاختباري بفضل تجارب رزرفورد الذي بحث عبور دقائق — الفا (نوى الهليوم الموجبة الشحنة) عبر مختلف المواد وخلص الى القول ان الشحنة الموجبة تتركز في وسط الذرة وتشغل قسماً صغيراً جداً من حجمها وفي عام ١٩١١ ، عرض موديلاً توجد بموجبه في وسط الذرة نواة موجبة الشحنة ذات كتلة مساوية تقريباً لكل كتلة الذرة ، وتدور بموجبه الالكترونات حول النواة على مدارات مختلفة — مثل كواكب النظام الشمسي ولكن هذا الموديل لم يستطع ان يفسر استقرار الذرة وقد ارتكزت اول محاولة ناجحة لصياغة نظرية بنيان الذرة على موديل روزرفوردوكانت على ارتباط بادخال ما يسمى المسلّمات الكمية للعالم بور (١٩١٣) بموجب هذه النظرية الكمية الاولى عن الذرة ، يتحرك الالكترون في احد المدارات «المستقرة» (المناسبة لعلائم غير مترابطة من الطاقة) بدون اشعاع ان اشعاع او امتصاص الذرة لقدر معين من الطاقة لا يحدث الا في حال انتقال الالكترون من مدار الى آخر

واغنى تطور الفيزياء لاحقاً التصور عن بنيان الذرة وفي هذا المجال اضطلع بدور بالغ الشأن تنبؤ لويس دي برويل بالخواص الموجية للموضوعات الصغيرة ، وما تبعه من انشاء للميكانيك الكمي من قبل شريدينغر وغيزنبرغ وغيرهما . ان نواة الذرة ، حسب التصورات العصرية ، محاطة بغيمة من الالكترونات الموجودة في مدارات

مختلفة تناسبها علائم معينة من الطاقة وتشكل مع النواة منظومة واحدة متبادلة الصلة

في سياق تطور الفيزياء اتضح ان نواة الذرة تتالف من الدقائق-النوكلونات «الابتدائية» (البروتونات والنوترونات)؛ وعدا الكتلة والشحنة ، اللتين كانتا معروفتين حتى في بداية القرن العشرين ، اكتشفت في الالكترون خواص جديدة وامكانية تحوله الى دقائق اخرى وفضلاً عن الالكترون ، اكتشفت جملة من الدقائق «الابتدائية» الجديدة المختلفة من حيث خواصها (الفوتونات ، البروتونات ، النوترونات ، النوترينو ، ومختلف اصناف الميزونات والهيبيرونات) كذلك امكن اكتشاف دقائق تتطابق بعض مواصفاتها مع مواصفات مناسبة لدقائق «ابتدائية» معروفة سابقاً ، واخرى موازية لها من حيث الكبر ، ولكنها مقابلة من حيث الشحنة (اي ضديدات)

وقد ادى تقدم معرفة بنيان المادة الى امتلاك الانسان لناصية العمليات النووية ، واستعمال الطاقة النووية ، الامر الذي دل على بداية ثورة تكنيكية جديدة لها اهمية هائلة بالنسبة لمستقبل البشرية جمعاء . — ص ٣٣٤

٧٩ — **الالكترون الموجب** هكذا كانوا يسمون في الفيزياء في اواخر القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين الكهيرب الموجب الشحنة وفي عام ١٩٢٨ تنبأ الفيزيائي البريطاني بول ادريان موريس ديراك بوجود الالكترون الموجب بمفهومه العصري (البوزيترون) وفي عام ١٩٣٢ اكتشف الفيزيائي الاميركي كارل دافيد اندرسن البوزيترون في قوام الاشعة الكونية . — ص ٣٣٤

٨٠ — «Revue générale des sciences pures et appliquées» («المجلة العامة للعلوم الخالصة والتطبيقية») — مجلة تنشر مقالات في العلوم الطبيعية تصدر في باريس منذ عام ١٨٩٠ . أسس المجلة اوليفيه . — ص ٣٣٤ .

٨١ ـ المقصود هنا اغلب الظن ، الكتلة الميكانيكية التي تعتبرها الفيزياء الكلاسيكية خاصة خالدة وثابتة للمادة . ـ ص ٣٣٥

٨٢ ـ يقصـــد لينين هنا الخطاب الذي القاه «الاقتصادي» اكيموف في المؤتمر الثاني لحزب العمال الاشتراكي ـ الديموقراطي في روسيا (عام ١٩٠٣) ورفض فيه برنامج الحزب الذي عرضتـــه جريدة «الايسكرا» متذرعاً في عداد ما تذرع به بكون كلمـــة «البروليتاريا» ترد في البرنامج في حالة الاضافة لا في حالة المبتدأ ـ ص ٣٤٧

٨٣ ـ **المذهب الحيوى الجديـــد** (Neo Vitalisme) ـ اتجاه مثالي في البيولوجيا ، انبثق في اواخر القرن التاسع عشر كرد فعل على النظرة المادية الى العالم ، على الداروينية بعث ممثلوه (رو ، دريش إكسكول ، وغيرهم) نظرات المذهب الحيوي المناهضة للعلم ، وحاولوا ان يفسروا الظاهرات الحيوية وعقلانية العضويات الحية بافعـــال عوامل غير مادية خاصة («القوة الحيوية» «الانتلشيا» وما الى ذلك) وان يفصلوا بالتالي بصورة مبدئية الطبيعة الحية عن الطبيعة غير الحية

اقيم البرهان في اعمال البيولوجيين الماديين (هيكـــل تيميريازيف ، بافلوف وغيرهم) على بطلان المذهب الحيوي الجديد وطابعه المناهض للعلم . ـ ص ٣٥٥

٨٤ ـ **«قضايا الفلسفة وعلم النفس»** ـ مجلة مثالية الاتجاه صدرت في موسكو من تشرين الثاني (نوفبر) ١٨٨٩ الى نيسان (ابريل) ١٩١٨ (ابتداء من سنة ١٨٩٤ ، اصدرتها جمعية علم النفس في موسكو) نشرت المجلة مقالات في الفلسفة والبسيكولوجيا (علم النفس) والمنطق ، وعلم الاخلاق ، وعلم الجمال ، وملاحظات انتقاديـــة وتحاليل لتعاليم ومؤلفات الفلاسفة وعلمـــاء النفس الاوروبيين الغربيين ، واستعراضات للكتب الفلسفية والمجلات الفلسفية الاجنبية وغيرذلك من المواد في سنوات الردة الرجعية (١٩٠٧ ـ ١٩١٠) ،

اشترك بوغدانوف والماخيون الآخرون في اصدارها وتحريرها منذ عام ١٨٩٤ ، صدرت المجلة بتحرير لوباتين . — ص ٣٨٦

٨٥ — **«اتحاد الشعب الروسي»** — منظمة للملكيين مغرقة في الرجعية تشكلت في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٠٥ في بطرسبورغ لاجل النضال ضد الحركة الثورية

سعى «الاتحاد» الى دعم وتثبيت الاوتوقراطية القيصرية وصيانة الاقتصاد الزراعي الكبير شبه الاقطاعي ، والحفاظ على امتيازات النبلاء كانت المذابح والاغتيالات الوسيلة الرئيسية التي لجأ اليها «الاتحاد» للنضال ضد الثورة

اثناء ثورة شباط (فبراير) البرجوازية الديموقراطية (عام ١٩١٧) تمت تصفية «الاتحاد» . — ص ٣٨٦

٨٦ — **«روسكويه بوغاتستفو»** — مجلة شهرية صدرت في بطرسبورغ من عام ١٨٧٦ الى عام ١٩١٨ منذ بداية العقد العاشر من القرن التاسع عشر انتقلت الى ايدي الشعبيين الليبيراليين وعلى رأسهم ميخايلوفسكي في عام ١٩٠٦ اصبحت المجلة لسان حال حزب العمل الاشتراكي — الشعبي نصف الكاديتي

دعت المجلة الى التصالح مع الحكومة القيصرية وناضلت بضراوة ضد الماركسية والماركسيين الروس . — ص ٤٠٥

٨٧ — كلمات «... wer den Feind» ، التي هي عبارة عن تحوير لبيتين من الشعر للشاعر الالمانى يوهان فولفغانغ غوته اخذها لينين من رواية الكاتب الروسي ايفان تورغينيف «الارض البكر» . — ص ٩ ٤

٨٨ — المقصود هنا مقدمة مؤلف ماركس «مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي» . — ص ٤١٥

٨٩ — **المالتوسية** — مذهب يفسر املاق الجماهير الكادحة في ظل الرأسمالية بقانون السكان «الطبيعي» ، المطلق . أسمي باسم الاقتصادي

البرجوازي البريطاني توماس روبرت مالتوس (١٧٦٦ ــ ١٨٣٤) الذي حاول ان يثبت في مؤلفه الصادر عام ١٧٩٨ «An Essay on the Principle of Population» («بحث في مبدأ السكان») ان عدد السكان ينمو بمتوالية هندسية (١،٢،٤،٨،١٦،... بينما تنمو وسائل العيش بمتوالية حسابية (١،٢،٣،٤،٥ يدعو انصار المالتوسية الى تخفيض التناسل ويعتبرون الاوبئة والحروب وما الى ذلك نافعة اذ انها تقيم التناسب ، كما يزعمون ، بين عدد الناس وكمية وسائل العيش

أثبت ماركس بطلان المالتوسية وطابعها الرجعي وبرهن انه لا وجود لقانون واحد للسكان يصح على جميع درجات تطور المجتمع البشري ، وان «كل اسلوب خاص تاريخياً من اساليب الانتاج تلازمه في الواقع قوانين خاصة به لتكاثر السكان تتسم بطابع تاريخي» (ماركس وانجلس المؤلفات الطبعة الروسية الثانية المجلد ٢٣ ص ٦٤٦) .ــ ص ٤٢٤

٩٠ ــ في الاربعينيات من القرن التاسع عشر (اعمال ماير ، جول هلمهولتز) تحقق اكتشاف قانون بقاء وتحول الطاقة علماً بان ذلك قد اعده كل سير تطور العلوم الطبيعية ولاسيما بفضل اعمال ميخائيل لومونوسوف وعدد من العلماء الاخرين ان تعبير «energie» («الطاقة») بمعناه العصري قد ورد عام ١٨٥٣ في مؤلفات رانكين ، ولكنه لم يصبح شائعاً في الاستعمال الا في العقدين الثامن والتاسع من القرن التاسع عشر في البدء نظرت اغلبية الفيزيائيين بعين النقد الى القانون الجديد ، ولكن سرعان ما اقيم البرهان على صحته بالنسبة لجميع ميادين العلوم الطبيعية وقد اعتبر انجلس اكتشاف قانون بقاء وتحول الطاقة انجازاً من اهم انجازات العلوم الطبيعية في القرن التاسع عشر كما اعتبره قانوناً عاماً من قوانين الطبيعة يعرب بلسان الفيزياء عن وحدة العالم المادي وقد كتب يقول «ان وحدة الحركة كلها في الطبيعة لم تبق الآن مجرد قول فلسفي ، بل غدت واقعاً طبيعياً علمياً» . (انجلس «ديالكتيك الطبيعة»)

وضع بعض العلماء موضع الشك الطابع العام لقانون بقــاء وتحول الطاقة وحاولوا ان يفسروه بروح المثالية فان ماخ مثلاً ، رفض ان يعتبره قانوناً عاماً من قوانين الطبيعة ، واعتقد انه ينحصر في ملاحظة التبعية السببية للظاهرات واعتبر اوستفالد قانون بقاء وتحول الطاقة القانون العام الوحيد للطبيعة ، وحاول ان ينكر الواقعية الموضوعية للمادة ، وينبذ مفهوم المادة ، ويثبت ان الطاقة توجد بدون المادة ، وان يحصر في الطاقة جميع ظاهرات الطبيعة والمجتمع والتفكير وحاول بوغدانوف ان يعتبر التغيرات الاجتماعية ازدياداً او انخفاضاً للطاقة

انتقد لينين «مذهب الطاقة» بوصفه احد مظاهر المثاليـــة «الفيزيائية» وبيـن البطلان المبدئي لمحاولات نقل قانون العلوم الطبيعية الى الظاهرات الاجتماعية ثم جاء تطور العلوم الطبيعية وبحث ظاهرات العالم الصغير يؤكدان صحة الطابع العام لقانون بقاء وتحول الطاقة .ــ ص ٤٢٨

٩١ ــ **بازاروف** ــ شخصية رئيسية في رواية الكاتب الروسي ايفان تورغينيف «الآباء والبنون» .ــ ص ٤٢٩

٩٢ ــ يقصد لينين ، على ما يبدو ، المقطع التالي من مؤلـــــف انجلس «الاشتراكية الطوبوية والاشتراكية العلميـــة» «... ان هذين الاكتشافين العظيمين ، ونعني بهما المفهوم المادي عن التاريـــــخ ، والكشف عن سر الانتاج الرأسمالي بواسطة القيمة الزائدة ، انما نحن مدينون بهما **لماركس** فبفضل هذين الاكتشافين اصبحت الاشتراكية علماً ، وتتلخص القضية الآن ، قبل كل شيء ، في صياغته باطراد بجميع تفاصيله وعلاقاته المتبادلة» (ماركس انجلس مختارات في اربعة اجزاء الجزء الثالث دار التقدم موسكو ص ١٠٦) .ــ ص ٤٢٩

٩٣ ــ «Deutsch-Französische Jahrbücher» («الحوليـــة الالمانيـــة

الفرنسيـــة») ـ صدرت باللغة الالمانية في باريس بتحرير ماركس وروغــــــه صدر منها العدد الاول ، المزدوج في شباط (فبراير) ١٨٤٤ كانت الخلافات المبدئية بين ماركس والراديكالي البرجوازي روغــــه السبب الرئيسي لتوقف المجلة عن الصدور . ـ ص ٤٣٣

٩٤ ـ راجعوا انجلس «مقدمة للطبعة الانجليزية» (عام ١٨٩٢) لمؤلفه «الاشتراكية الطوبوية والاشتراكية العلمية» (ماركس وانجلس مختارات في اربعة اجزاء الجزء الثالث دار التقدم موسكو عام ١٩٧٣ ص ٧-١٨) . ـ ص ٤٣٤

٩٥ ـ يقصد لينين مؤلفات انجلس «ضد دوهرينغ» (١٨٧٨) ، و «لودفيغ فورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية» (١٨٨٨) ، و «مقدمة للطبعة الانجليزية» (عام ١٨٩٢) لمؤلفه «الاشتراكية الطوبوية والاشتراكية العلمية» . ـ ص ٤٣٥

٩٦ ـ راجعوا انجلس «لودفيغ فورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكيـــــة الالمانية» (دار التقدم موسكو ، عام ١٩٧٤ ، ص ٢١-٢٢) ـ ص ٤٣٧

٩٧ ـ **«زاغرنيتشنايا غازيتا»** ـ «Gazette Etrangère» («جريــــــدة الخارج») ـ جريدة اسبوعية لفريق من المهاجرين الروس صدرت في جنيف من آذار (مارس) الى نيسان (ابريل) ١٩٠٨ قامـــت بترويج «بناء الله» والماخية (مقالات بوغدانوف ولوناتشارسكي) يورد لينين كلمات من «تحقيقات في الادب الروسي المعاصر» للوناتشارسكي التي نشرت في العددين ٢ و ٣ من الجريدة . ـ ص ٤٤٣

٩٨ ـ **«اوبرازوفانيه»** («التثقيف») ـ مجلة شهرية شرعية ادبية وعلمية مبسطة واجتماعية سياسية صدرت في بطرسبورغ من سنة ١٨٩٢ الى سنة ١٩٠٩ . ـ ص ٤٤٣

٩٩ ـ **بوبتشينسكي ودوبتشينسكي** شخصيتان من مسرحية الكاتـــب الروسي نيقولاي غوغول الكوميدية «المفتش» . ـ ص ٤٥٣ .

١٠٠ ــ يقصد لينين كتيبين للمنشفيين-الماخيين صدرا في سنة ١٩٠٨ ن . فالنتينوف «الانشاءات الفلسفية للماركسية» و ب . يوشكيفيتش «المادية والواقعية النقدية» . ــ ص ٤٥٨

١٠١ ــ مخطوطة «**اضافة الى الفقرة الاولى من الفصل الرابع . من اي جانب تناول ن غ تشيرنيشيفسكي نقد الكانطية ؟**» ارسلها لينين الى اخته ا اوليانوفا-ايليزاروفا في النصف الثاني من آذار (مارس) عندما كان الكتاب قيد الطبع وقد كتب لينين بصدد هذه الاضافة في رسالة الى اخته بتاريخ ١٠ او ١١ (٢٣ او ٢٤) آذار (مارس) ١٩٠٩ «ارسل اضافة لا يصح التوقف بسببها ولكن اذا توفر الوقت ، فادخليها في نهاية الكتاب بالذات ، بعد الخاتمة ، بحرف طباعي خاص ، مثلاً بحرف صغير من البنط ٨ اعتبر من اقصى الاهمية معارضة الماخيين بتشيرنيشيفسكى» . ــ ص ٤٦٣

١٠٢ ــ ان المقطع «**حول الدياليكتيك**» هو تعميم اصيل لعمل لينين في دراسة قضايا الفلسفة خلال سنتي ١٩١٤ ، ١٩١٥

في هذا المقطع يحلل لينين القانون الدياليكتيكي للوحدة والصراع بين الاضداد ، والمفهوم الميتافيزيائي والدياليكتيكي عن التطور ، ومقولات المطلق والنسبي ، المجرد والملموس ، العام والخاص والوحيد ، المنطقي والتاريخي ، وغيرها من المقولات ، ويكشف الطابع الدياليكتيكي لعملية المعرفة ، ويبين الاسس العرفانية والطبقية للمثالية . ــ ص ٤٦٧ .

دليل الاسماء

عام ١٨٨١) ـ فيلسوف كانطي جديد نمساوي . ـ ص ٨٦ ١١ ١١٥

بازاروف ف (**رودنيف فلاديمير الكسندروفيتش**) (١٨٧٤ـ١٩٣٩) ـ فيلسوف واقتصادي روسي منذ عام ١٨٩٦ اشترك في الحركة الاشتراكية ـ الديموقراطية في سنوات ١٩٠٥ـ١٩٠٧ عاون في عدد من المطبوعات البلشفية في مرحلة الردة الرجعية (١٩٠٧ـ ١٩١) ، ابتعد عن البلشفية ، وقام بترويج «بناء الله» والمذهب النقدي التجريبي ، وكان من كبار ممثلي التحريف الماخي للماركسية في السنوات الاخيرة من حياته انصرف الى ترجمة المؤلفات الادبية والفلسفية . ـ ص ١١ـ١٢ ١٩ ٢ ٢٤ ٨٧ ، ٩٧ـ ١٠٤ ١١٩ ١٣١ ١٣٥ـ١٤٥ ١٧٧ ٢١٤ ٢٣٤ ٢٥٠ ٢٧٠ ٢٧١ ٢٧٥ ٢٨٠ ٢٩٨ـ٢٩٩ ٣٠٦ ٣٦٣ ، ٤٢٦ـ٤٢٧ ٤٤٤

باكس (Bax) **ارنست بلفورت** (١٨٥٤ـ١٩٢٦) ـ اشتراكي انجليزي مؤرخ وفيلسوف منذ اوائل الثمانينيات اشترك بنشاط في عمل مختلف المنظمات الاشتراكية ، وكان مندوباً الى المؤتمرات الاشتراكية العالمية عمل على ترويج الماركسية ودافـــع عن الماديـــة الديالكتيكية والفهم المادي للتاريخ ولكنه اقترف اخطاء مثالية الطابع (استعظام دور «العامل النفساني» في التاريخ تفسيـــر التجربة بروح الماخية ؛ وغير ذلك) . ـ ص ١٨٨

باولسن (Paulsen) **فريدريخ** (١٨٤٦ـ١٩٠٨) ـ فيلسوف كانطي جديد الماني من ابرز النظريين المحافظين في علم التربية الالماني في اواخر القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين استاذ في جامعة برلين تأثر بفلسفة شوبنهاور المثالية ، ودافع عن الدين . ـ ص ٤٥١ .

باومان (Baumann) **يوليوس** (١٨٣٧–١٩١٦) – استاذ الفلسفة في جامعة غوتنغن (منذ عام ١٨٦٩) اختياري جمع في آرائه بين المثالية الذاتية وعناصر من المادية . – ص ٢٤٥

بتسولدت (Petzoldt) **يوسف** (١٨٦٢–١٩٢٩) – فيلسوف الماني مثالي زاتي تلميذ ماخ وافيناريوس انكر المادية بوصفها اتجاهاً فلسفياً وحاول ان يستعيض عن مبدأ السببية بمبدأ القبلية «التعريف الوحيد المدلول» وعارض الاشتراكية العلمية قال لينين ان بتسولدت «يمكنه ان يكون مثالاً رائعاً على السكولاستية (المدرسية) الرجعية الملازمة للماخية» (راجعوا هذا الكتاب ص ٢٠٤) ص ٢٦ ، ٤٦ ، ٦٤ ٧٢ ، ٧٦–٧٧ ، ٨٩ ، ٩٢–٩٧ ١٠٢ ١١٤ ١٦٠ ، ١٧١ ١٨٥ ١٩١ ٢٠٤–٢٠٧ ٢١٧ ٢٢ ٢٣٩ ٢٤٢ ٢٦١ ٢٦٣ ، ٢٦٧ ٢٧٢ ، ٢٧٥ ٢٨١–٢٨٢ ٢٨٦ ٣٢٠ ٤١١–٤١٥ ٤٤٣ ٤٤٤ ٤٤٧ ٤٥٢ ، ٤٥٥

بركلي (Berkeley) **جورج** (١٦٨٥–١٧٥٣) – فيلسوف انجليزي مثالي ذاتي اسقف الكنيسة الانجليكانية كانت فلسفة بركلي احد المصادر النظرية للمذهب النقدي التجريبى وعدد من الاتجاهات الاخرى في الفلسفة البرجوازية الرجعية . – ص ٢١–٣٢ ٣٤ ٣٨ ، ٤٠–٤٢ ، ٤٦–٤٩ ٥٢ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٧٥ ، ٧٨ ٨١ ، ٨٣ ١٠٠ ١٠٢ ١١٢ ١٢٨ ١٣٢ ١٣٩ ١٤٦ ١٥١ ، ١٥٧ ٢٤٩ ٢٥٢ ٢٥٦ ٢٦٣ ٢٦٨ ٢٧٢ ٢٧٣ ، ٢٧٥ ، ٣١٧ ، ٣٨٣ ٤٦٠ ، ٤٦٦

برمان ياكوف الكسندروفيتش (١٨٦٨–١٩٣٣) – اشتراكي-ديموقراطي روسي حقوقي وفيلسوف كانت نظرات برمان الفلسفية عبارة عن خليط اختياري من المادية الميتافيزيائية ومن البراغماتية كان احد مؤلفي المجموعة التحريفية «دراسات في فلسفة الماركسية»

في سنوات الردة الرجعية (١٩٠٧ـ١٩١٠) ، انصرف عن البلشفية ، وكان زعيم فرقة «فبريود» («الى الامام») التي عارضت خط الحزب في ميدان الفلسفة حاول ان ينشئ نظاماً خاصاً به هو «الاحادية التجريبية» (وهو نوع من الفلسفة الماخية المثالية الذاتية ، مموه بتعابير ماركسية مزيفة) في حزيران (يونيو) ١٩٠٩ ، طرد بوغدانوف من صفوف الحزب البلشفي بعد ثورة اكتوبر الاشتراكية (عام ١٩١٧) ، كان احد منظمي وقادة «بروليت كولت» («الثقافة البروليتارية»)

منذ عام ١٩٢٦ مدير معهد نقل الدم الذي أسسه

بولتسمان (Boltzmann) **لودفيغ** (١٨٤٤ـ١٩٠٦) ـ فيزيائي نمساوي منذ عام ١٨٨٥ عضو اكاديمية العلوم في فيينا استـــاذ في جامعات غراتس وميونيخ وليبزيغ وفيينا كانت لبحوثه في حقل نظرية الاشعاع وكذلك الدراسات الكلاسيكية في النظرية الحركية للغازات وفي التفسير الاحصائي للمبدأ الثاني في الدينامية الحرارية اهمية كبيرة لتطوير الفيزياء ، اذ انها سددت ضربة الى النظرية المثالية المتعلقة بما يسمى الموت الحراري للكون ابدى اهتماماً كبيراً بالفلسفة والقى في السنوات الاخيرة من حياته محاضرات في فلسفة الطبيعة وقف في الفلسفة مواقف المادية الميكانيكية ، وانتقد مثالية الماخيين الذاتية و«مذهب الطاقة» عند اوستفالد . ـ

بولغاكوف سرغي نيقولاييفيتش (١٨٧١ـ١٩٤٤) – اقتصادي برجوازي روسي فيلسوف مثالي عمد بولغاكوف الى تحريف مذهب ماركس فى المسألة الزراعية ، وفسر املاق الجماهير الشعبية بما يسمى «قانون تناقص خصب التربة» بعد هزيمة الثورة البرجوازية الديموقراطية (١٩٠٥ـ١٩٠٧) ، كرز بالصوفية الفلسفية ، واشترك في المجموعة المعادية للثورة «فيخي» («المراحل»). في عام ١٩٢٢ ، أبعد الى خارج البلاد بسبب نشاطه المعادي للثورة ؛ وفي الخارج قام بدعاية معادية للاتحاد السوفييتي . – ص ٤٥١

بولين (Bolin) **ولهلم اندرياس** (١٨٣٥ـ١٩٢٤) – مؤرخ وفيلسوف مادي فنلندي من اتباع لودفيغ فورباخ استاذ في جامعة هلسنغفورس مع يودل ، اعاد طبع مجموعة مؤلفات لودفيغ فورباخ . – ص ٢٥٥

بويل (Boyle) **روبرت** (١٦٢٧ـ١٦٩١) – كيماوي وفيزيائي انجليزي من عام ١٦٨٠ الى عام ١٦٩١ ، رئيس الجمعية الملكية في لندن صاغ الطريقة الاختبارية في الكيمياء واعطى اول تعريف معلل علمياً للعنصر الكيماوي بالتعاون مع توونلى ، أثبت في عام ١٦٦٢ التبعية العكسية لتغير حجم الهواء من جراء الضغط ، التي اسميت فيما بعد بقانون بويل – ماريوت ونظرات بويل الفلسفية خليط من عناصر المادية الميكانيكية واللاهوت . – ص ١٦٨

بوينتينغ (Poynting) **جون هنري** (١٨٥٢ـ١٩١٤) – فيزيائي انجليزي استاذ في جامعة برمينغام . – ص ٣٥٢ ، ٣٥٩

بيبل (Bebel) **اوغست** (١٨٤٠ـ١٩١٣) – من مؤسسي وابرز قادة الاشتراكية-الديموقراطية الالمانية والحركة العمالية الالمانية عامل خراط من حيث المهنة وقف بنشاط ضد التحريفية والاصلاحية في الحركة العمالية الالمانية . – ص ٢٧٢ .

وتؤدي الى ظهور اشكال حيوانية ونباتية جديدة
اعتبر ماركس وانجلس مذهب داروين احد الاكتشافات العظيمة الثلاثة في العلوم الطبيعية في القرن التاسع عشر ، ورأيا فيه سنداً طبيعياً علمياً لنظراتهما ؛ ولكنهما اشارا فى الوقت نفسه الى الجوانب الضعيفة في الداروينية وخاصة الى محاولتها الخاطئة لتفسير النضال من اجل البقاء في الطبيعة بواسطة النظرية المالتوسية الزائفة بصدد فيض السكان . – ص ٣١٩ ٤٢٤

دالامبر (D'Alembert) **جان ليرون** (١٧١٧–١٨٧٣) – عالم رياضي وفيلسوف منور فرنسي منذ عام ١٧٤١ عضو اكاديمية العلوم في باريس . منذ عام ١٧٥١ ، عمل مع ديدرو على وضع وتحرير «Encyclopédie ou Dictionnaire raisonné des sciences, des arts et des métiers» («الموسوعة او القاموس القياسي في العلوم والفنون والحرف») في حقل الفلسفة كان دالامبر مادياً متأرجحاً اعترف بوجود الاشياء المادية الموضوعي وشك في امكانية معرفة كنهها وفسر خاصة الادراك بوجود جوهر خاص غير مادي في الانسان . – ص ٣٨ ٣٩ ٤٠

داوغه بافل غيورغييفيتش (١٨٦٩–١٩٤٦) – احد مؤسسي حزب العمال الاشتراكي-الديموقراطي اللاتفي مؤرخ كاتب اجتماعي دكتور في الطب من عام ١٩٠٧ الى عام ١٩١٢ انصرف الى النشاط الطباعي اصدرت دار داوغه للطبع والنشر باللغة الروسية مؤلفات يوسف ديتزغن الاساسية لم يلاحظ داوغه في بحوثه الفلسفية من تلك المرحلة جوانب الضعف في فلسفة ديتزغن وحاول ان يعارض المادية الديالكتيكية بنظرات ديتزغن . – ص ٣١٨–٣٢٠

دوهرينغ (Dühring) **اوجني** (١٨٣٣–١٩٢١) – فيلسوف واقتصادي الماني ايديولوجي برجوازي صغير كانت نظرات دوهرينغ الفلسفية عبارة عن خليط اختياري من الوضعية ومن المادية

لامتناه وانكر الصدفة لاعتقاده ان كل شيء يخضع لضرورة صارمة كان لنظرات ديموقريطس الفلسفية تاثير بالغ في تطور العقيدة المادية — ص ١٦٢ ٤٥٦ ٤٥٧ ٤٧١

دينر-دينش (Diner – Dénes) **يوجف (دينه-دينس يوسف)** (١٨٥٧–١٩٣٧) — كاتب اجتماعي مجري عالم اجتماع وباحث فن اشتراكي-ديموقراطي . — ص ٣٢١–٣٢٢

رابوبورت شارل (من مواليد عام ١٨٦٥) — اشتراكي فرنسي عمد الى تحريف الفلسفة الماركسية فانتقده لافارغ على ذلك انتقاداً حاداً مؤلف عدد من البحوث في الفلسفة وعلم الاجتماع ص ٢٥٧

راو (Rau) **البريخت** (١٨٤٣ – ١٩٢) — فيلسوف الماني من اتباع لودفيغ فورباخ . — ص ٢٥٦–٢٥٧ ٣٠٢–٣٠٣ ٤٦٣

رايل (Ryle) **ردجينالد جون** (١٨٥٤–١٩٢٢) — عالم طبيعيات انجليزي نشر في مجلة «Natural Science» («العلوم الطبيعية») العدد ٦ عام ١٨٩٢ مقالة : «Professor Lloyd Morgan on the Grammar of Science» («البروفسور لويد مورغان و«غراماطيق العلم») ، وفيها دافع عن نظرات بيرسون المثالية ص ٢٣٤

رحمتوف ن (بلوم اوسكار ف .) (من مواليد عام ١٨٨٦) — اشتراكي-ديموقراطي روسي من انصار الاتجاه الانتهازي في حـ٠ادر (المنشفية) فيما بعد ، استفزازي قام بنشاط ادبي ، وكتب في مواضيع فلسفية . — ص ٢٩٦

رمسي (Ramsay) **وليام** (١٨٥٢–١٩١٦) — عالم انجليزي في الكيمياء والفيزياء . منذ عام ١٨٨٠ استاذ في جامعة بريستول . منذ عام

١٨٨٧ استاذ في جامعة لندن اشتهر ببحوثه في ميدان الكيمياء العضوية والفيزيائية اكتشف غاز الارغون (مع ريل) وغاز الهيليوم وغاز الكريبتون (مع ترافرس) وغاز الكسينون وغاز النيون اي الغازات التي تشكل ما يسمى مجموعة الصفر في جدول مندلييف الدوري بصورة مستقلة عن مندلييف وبعده بمدة طويلة ، اقترح رمسي القيام بتحويل الفحم الحجرى الى غاز فى جوف الارض بغية استخدام الغاز الناجـــم في الاغراض الصناعيـــة ص ٤٠٣

رمكه (Rehmke) **يوهانس** (١٨٤٨-١٩٣٠) - فيلسوف مثالي الماني من ممثلي المدرسة الكمونية منذ عام ١٨٨٥ استاذ في جامعة غريفسفالد . - ص ٨٢ ، ٢٢٩ ٢٥٣ ، ٢٦٥ ٢٦٨ ٢٧١ ٢٧٣ ٢٩٣ ٣٥٧ ٣٩٢ ٤٤٩ ٤٥١

روبسبيير (Robespierre) **مكسيميليان** (١٧٥٨-١٧٩٤) - قائد بارز في الثورة البرجوازية الفرنسية في اواخر القرن الثامن عشر زعيم اليعاقبة رئيس الحكومة الثورية (١٧٩٣-١٧٩٤) . - ص ٢٥٧

رودنف فلاديمير الكسندروفيتش - راجعوا **بازاروف ف**

روديه (Rodier) **جورج** (١٨٤٨-١٩١٠) - استاذ تاريخ الفلسفة القديمة في باريس . - ص ٢٨٧

ري (Rey) **آبل** (١٨٧٣-١٩٤٠) - فيلسوف وضعي فرنسي استـــاذ في جامعة السوربون في مسائل العلوم الطبيعية كان مادياً عفوياً متذبذباً ؛ في حقل نظرية المعرفة وقف مواقف الماخية . - ص ٣٢٥- ٣٣١ ٣٣٤ ٣٣٩-٣٤١ ، ٣٦٧ ، ٣٧٧-٣٨٦ ، ٣٩٣- ٣٩٨ ، ٤٠١ .

شيشكين ن . اي (١٨٤٠–١٩٠٦) – عالم روسي في الرياضيات والفيزياء عضو جمعية علم النفس في موسكو معاون فى مجلة «مسائل الفلسفة وعلم النفس» دافع في مقالاته عن افكار المذهب النقدي التجريبي في العلوم الطبيعية . – ص ٣٨٧–٣٩٠

شيلينغ (Schelling) **فريدريخ ولهلم يوسف** (١٧٧٥–١٨٥٤) – ممثل الفلسفة الالمانية الكلاسيكية في اواخر القرن الثامن عشر واوائل القرن التاسع عشر في البدء برز كنصير لفلسفة فيخته ، ثم وضع «فلسفة التماثل» المثالية الموضوعية عارضاً فكرة التماثل المطلق بين الوجود والتفكير بين المادة والروح بين الموضوع والذات . – ص ١١٦ ٤٣٣ ٤٦٤

غاسندي (Gassendi) **بيار** (١٥٩٢–١٦٥٥) – فيلسوف مادي فرنسي اشتهر كذلك ببحوثه في ميادين علم الفلك والرياضيات والميكانيك وتاريخ العلم . – ص ٤٧١

غراسمان (Grassmann) **غرمن** (١٨٠٩–١٨٧٧) – عالم رياضي وفيزيائي ولغوي الماني . في عام ١٨٤٤ اعطى في مؤلفه «Die Ausdehnungslehre» («مذهب المقادير المطوّلة») البنيان المنظوم الاول لمذهب المكان الاقليدسي المتعدد المقاييس في ميدان الفيزياء – صاحب مؤلفات في السمعيات ومزج الالوان ، والكهرمغناطيسية في نظراته الفلسفية ، كان قريباً من المادية . – ص ٢١٦

غرون (Grün) **كارل** (١٨١٧–١٨٨٧) – كاتب اجتماعي برجوازي صغير الماني في اواسط الاربعينيات – احد ممثلي «الاشتراكية الصحيحة» الرئيسيين كانت «الاشتراكية الصحيحة» كما تصورها غرون عبارة عن مذهب طوبوي سيتحقق بموجبه في المجتمع المقبل المبني بواسطة التعليم والحب للقريب ، والخ جوهر الانسان «الحقيقي» ، وتتحقق «الانسانية الصحيحة» . جمع غرون الجوانب

المجردة المثالية من فلسفة لودفيغ فورباخ مع افكار برودون الفوضوية انتقد ماركس وانجلس «الاشتراكية الصحيحة» باعتبارها «تعبيراً عن مصالح رجعية هي مصالح البرجوازية الصغيرة الالمانية» .ـ ص ١٠٢ ، ٢٥٥ ، ٤٣٣ـ٤٣٤

غلفوند او اي (١٨٦٣ـ١٩٤٢) ـ احد مؤلفي المجموعة التحريفية «دراسات في فلسفة الماركسية» (عام ١٩٠٨) طبيب من حيث المهنة قال لينين عن آراء هلفوند الفلسفية انها «خليط من المادية واللاعرفانية» (راجعوا هذا الكتاب ، ص ١٩٨) .ـ ص ١٥ ١٩٨ ، ٣١٣ ، ٤٢٦

غونتر (Günther) **زيغموند** (١٨٤٨ـ١٩٢٣) ـ عالم رياضي الماني جغرافي مؤرخ للعلوم الطبيعية .ـ ص ٣٧٠

غيورغييفسكي ف .ـ راجعوا **يفلوغي**

فاراداي (Faraday) **مايكل** (١٧٩١ـ١٨٦٧) ـ فيزيائي وكيماوي انجليزي مؤسس مذهب الحقل الكهرمغناطيسي .ـ ص ٣٨٤

فالس من ميليتا (حوالى ٦٢٤ ـ حوالي ٥٤٧ قبل المسيح) ـ فيلسوف اغريقي مؤسس مدرسة ميليتا المادية العفوية .ـ ص ٣٦٤

فالنتينوف نيقولاي (فولسكي نيقولاي فلاديسلافوفيتش) (١٨٧٩ـ١٩٦٤) ـ اشتراكي-ديموقراطي روسي صحفي فيلسوف ماخي منذ عام ١٩٠٤ ، التحق بالمناشفة (اي بالتيار الانتهازي في ح ع ا د ر) عاون في عدد من المطبوعات المنشفية والبرجوازية

في سنوات الردة الرجعية (١٩٠٧ـ١٩١٠) ، قطع نهائياً كل صلة له بالماركسية وعمد الى تحريف الفلسفة الماركسية ، وسعى الى «اكمالها» بنظرات ماخ وافيناريوس المثالية الذاتية منذ

فوغت (Vogt) **كارل** (١٨١٧–١٨٩٥) – عالم طبيعيات الماني احد الممثلين الرئيسيين للمادية المبتذلة مؤلف جملة من البحوث في علم الحيوان والجيولوجيا والفيزيولوجيا كان عدواً لدوداً للاشتراكية العلمية واشترك في ملاحقة الثوريين البروليتاريين وادلى بتصريحات افترائية ضد نشاط ماركس وانجلس. – ص ٥٣ ، ٣٠٧ ، ٤٢٥

فولتمان (Woltmann) **لودفيغ** (١٨٧١–١٩٠٧) – عالم الماني رجعي في علم الاجتماع وعلم السلالات البشرية حاول في عدد من مؤلفاته ان يثبت تماثل الكانطية والفلسفة الماركسية

زعم فولتمان ان بنية المجتمع الطبقية لم تنجم عن اسباب تاريخية وحسب ، بل نجمت كذلك عن اللامساواة الطبيعية بين افراد البشر دافع عن نظرية العرقية ورأى في العلائم العرقية أهم عامل التطور السياسي والاقتصادي. – ص ٤٢١

فولتير (Voltaire) **فرانسوا ماري** (كنيته الحقيقية ارويه) (١٦٩٤–١٧٧٨) – فيلسوف فرنسي قال بالتأليه الطبيعي او السببي كاتب هجائي ساخر مؤرخ ممثل بارز للتنوير البرجوازي في القرن الثامن عشر ناضل ضد الحكم المطلق وضد الكاثوليكية. – ص ٢٥٧

فولسكي نيقولاي فلاديسلافوفيتش – راجعوا **فالنتينوف ن**

فولكمان (Volkmann) **باول** (١٨٥٦ – حوالى ١٩٣٨) – استاذ الفيزياء النظرية في كونيغسبرغ في الفلسفة – اختياري. – ص ٢١ ٤٧١.

فوندت (Wundt) **ولهلم ماكس** (١٨٣٢–١٩٢٠) – فيلسوف مثالي الماني عالم نفساني احد مؤسسي علم النفس (البسيكولوجيا) الاختباري تأثر بكانط وليبنيتس ، وكذلك بالكانطية الجديدة وبالوضعية ص ٧٠–٧٣ ، ٧٧–٧٨ ، ٨٢–٨٣ ، ٩٠ ، ١١٠ ، ١١١ ،

كاثوليكي طور المذهب الحسي المادي الذي قال به لوك ، وانتقد النظرية المثالية القائلة بالافكار الفطرية كان المذهب الحسي الذي نادى به كونديلياك احد المصادر النظرية لمذهب الماديين الفرنسيين في القرن الثامن عشر الذين اعترفوا باهمية كونديلياك الايجابية وانتقدوا في الوقت نفسه تراجعه نحو المثالية واللاعرفانية .— ص ٣٨

كوهن (Cohen) **غرمن** (١٨٤٢—١٩١٨) — فيلسوف مثالي الماني عالم رياضيات مؤسس مدرسة الكانطية الجديدة في ماربورغ بتاثير افكار كوهن تكوّن ما يسمى «بالاشتراكية الاخلاقية» التي عمد ممثلوها (برنشتين فورلندر وغيرهما) الى تحريف الماركسية بروح الكانطية الجديدة .— ص ١٢٢ ٣٦٤—٣٦٥ ٣٦٧ ٣٧٨ ، ٣٨٦ ، ٣٩٧

كيرخهوف (Kirchhoff) **غوستاف روبرت** (١٨٢٤—١٨٨٧) — فيزيائي الماني استاذ في جامعتي هيدلبرغ وبرلين منذ عام ١٨٧٤ ، عضو اكاديمية العلوم في برلين اتسمت بحوث كيرخهوف في ميدان الديناميك الكهربائي وفي ابواب اخرى من الفيزياء باهمية كبيرة لأجل تطوير العلم في عام ١٨٥٩ ارسى مع الكيماوي الالماني بونزن اساس التحليل الطيفي كان كيرخهوف من حيث نظراته ممثل المادية الطبيعية التاريخية .— ص ٢١٦ ٣٣٠ ٣٣٩

لارمور (Larmor) **جوزف** (١٨٥٧—١٩٤٢) — عالم انجليزي في الفيزياء والرياضيات من عام ١٨٨٠ الى عام ١٨٨٥ استاذ في جامعة غلاسكو ؛ من عام ١٨٨٥ الى عام ١٩٠٣ استاذ في جامعة كمبريدج بحوثه في النظرية الالكترونية هي التي تتسم باكبر قدر من الاهمية .— ص ٣٣٠ ٣٣٩

لاس (Laas) **ارنست** (١٨٣٧—١٨٨٥) — فيلسوف وضعي الماني استاذ في جامعة ستراسبورغ حاول ، في الوقت نفسه مع افيناريوس

منشيكوف ميخائيل اوسيبوفيتش (١٨٥٩–١٩١٩) ـ كاتب اجتماعي روسي عاون في جريدة المائة السود «نوفويه فريميا» («الازمنة الحديثة») بعد ثورة اكتوبر الاشتراكية (عام ١٩١٧) ناضل بنشاط ضد السلطة السوفييتية في عام ١٩١٩ أُعدم رمياً بالرصاص . ـ ص ٨٦ ١٦١ ٢٧٠ ٢٧٢

منغر (Menger) **انطون** (١٨٤١–١٩٠٦) ـ حقوقي نمساوي ممثل ما يسمى «بالاشتراكية الحقوقية» استاذ في جامعة فيينا . ـ ص ٤١٥

مهرينغ (Mehring) **فرانس** (١٨٤٦–١٩١٩) ـ شخصية بارزة في الحركة العمالية في المانيا احد زعماء ونظريي الجناح اليساري في الاشتراكية-الديموقراطية الالمانية اضطلع بدور بارز في تأسيس الحزب الشيوعي الالماني مؤرخ كاتب اجتماعي باحث ادبي ص ١٧ ٣٢ ٤٥٨–٤٥٩

مورغان (Morgan) **كانفي لويد** (١٨٥٢–١٩٣٦) ـ بيولوجي انجليزي عالم نفساني وفيلسوف في المرحلة الاولى من نشاطه ، وقف مواقف مادية فيما بعد انصرف عن المادية . ـ ص ٥١ ، ٢٣٣

موللر (Müller) **يوهانس بيتر** (١٨٠١–١٨٥٨) ـ عالم طبيعيات الماني منذ عام ١٨٣٠ استاذ في جامعة بون منذ عام ١٨٣٣ استاذ في جامعة برلين مؤلف بحوث في الفيزيولوجيا وعلم التشريح المقارن ، وعلم الاجنة ، وعلم الانسجة الحيّة اهتم بدراسة الجهاز العصبي المركزي واعضاء الحواس

كان موللر من مؤسسي المثالية «الفيزيولوجية» اعتبر الاحساسات نتيجة لتجلي الطاقة الداخلية لاعضاء حواس الانسان . ـ ص ٣٩٢

موليشوت (Moleschott) **ياكوب** (١٨٢٢–١٨٩٣) ـ عالم هولندي . استاذ

محتويات

الى القراء

ان دار التقدم تكون شاكرة لكم اذا تفضلتم وابديتم لها ملاحظاتكم حول ترجمة الكتاب وشكل عرضه وطباعته واعربتم لها عن رغباتكم

العنوان :زوبوفسكى بولفار ١٧

موسكو – الاتحاد السوفييتى

96